

دار المستقبل العربي

المسيح يصلب من جديد





نيقوس
كازانتزاكس

نيقوس كازانتزاكس

المسيح يصلب من جديد

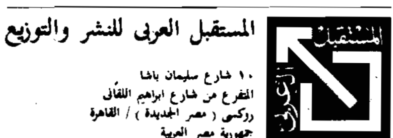
ترجمة: شوقي جلال

مراجعة: د. نعيم عطية



دار المستقبل العربي

الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



تصدير

نيقوس كازانتزاكيس : كاتب ومفكر يونانى عصرى ، وقمة شامخة بين كتاب الأدب العالميين اذ حقق شهرة منقطعة النظير كروائى . ولد فى جزيرة كريت فى الثامن من ديسمبر ١٨٨٥ ودرس القانون فى جامعة أثينا ثم انتقل منها الى باريس حيث درس الفلسفة . وعاد بعدها الى أرض الوطن واعتزل عامين فى دير للرهبان فوق جبل آتوس الذى يرد ذكره كثيرا فى رواياته . وكان اعتزاله فترة تأمل عميق اهتزت معها كثير من أفكاره الموروثة وازدادت رؤاه وضوحا وشمولا . ثم خرج الى الحياة ليكتب ويبدع فى غير عزلة وانطواء . كان غزير الانتاج فى قوة وابداع ، مفتوح الفكر فى حرية وحيوية . فقد قرأ كثيرا وخلف آثارا ودراسات عديدة متباينة . عاش حياة زاخرة بفكرها ، غنية بانتاجها : نشر مقالات فى النقد والفلسفة وألف للمسرح التراجيدى ، ومن مسرحياته « تسيوس » و « عطيل يعود » و « المسيح وبوذا وبروميثيوس » . وكتب فى الأسفار « رحلات بين ربوع الصين واليابان » . ونظم الشعر الغنائى والملحمى . ومن أشهر أعماله الشعرية ملحمة اسمها « الأوديسا » تتألف من ٣٣٣٣٣ شطرا ، وهى صورة ملحمية رائعة فذة للمسار الفكرى لكازانتزاكيس على طريق الحياة، وقد حاكى فى نظمها ملحمة هوميروس شاعر اليونان القديم وصاحب الالياذة والأوديسا . وعنى بترجمة روائع الكلاسيكيات الأوروبية الى اليونانية مثل « الكوميديا الالهية » لدانتى « و فاوست » لجيته و « هكذا تكلم زرادشت » لنيتشه . وتحول فى مرحلة متقدمة من عمره الى كتابة

الرواية وأحرز شهرة عالمية • وتكشف رواياته عن قدرة ابداعية فذة ، وتمكن في الأسلوب ، وتأمل عميق للحيـــاة • ومن أهم رواياته « زوربا اليوناني» و «المسيح يصلب من جديد» و « الاخوة الاعداء » و « الكابتن ميخائيل » •

ويعد كازانتزاكيس علامة هامة في تاريخ الأدب اليوناني اذ يمثل حلقة ضمن سلسلة متصلة من الأدباء اليونانيين ـ شعراء وروائيين ـ تمتد عبر قرن من الزمان أو يزيد قليلا • وهذه هي مرحلة النهضة اليونانية أو صحو اليونان في العصر الحديث حين شرعت تبحث عن ذاتها في ماضيها وحاضرها وتصل بينهما في وشيجة قوية متينة يمتد أصلها الى أعماق تاريخ اليونان أو الحضارة الهيلينية ابتغاء الحاضر والمستقبل بكل ما فيه من جدة وحداثة • فقد كانت هذه المرحلة ملحمة جديدة في تاريخ اليونان عمل فيها أدباؤها على خلق اليونان الجديدة لغة وأدبا حتى بلغوا شأوا بعيدا وأصبح لليونان أدب يضارع الآداب العالمية •

لقد كانت اليونان قبل الاســتعمار التركي وفي عصر الامبراطورية البيزنطية تعاني من انفصال في لغتها ، بين اللغة المكتوبة والمنطوقة • وكان لهذا الانفصال أثره على الحياة الأدبية اذ أدى الى اضمحلال النشاط الأدبي • ثم جاء الاستعمار التركي فكاد يمحو كل ما بقي من آثار لهـــذا النشاط وأصيب الأدب بحالة كساح ، وكان النفي مصـــير كل كاتب وأديب • ولم يبق لليونان سوى بعض الأشعار الشعبية وأغاني الحب والموت • ومع حركة التحرير بعثت الحركة الأدبية من مرقدها ، وبدأت اليونان تبحث عن طريقها • ومن ثم إتجه المشـــتغلون بالأدب اثر التحرير الى الغرب حيث استحوذ على إعجابهم مشاهير الأدباء الغربيين آنذاك مثـــل والتر سكوت وألكسندر دوماس ، وأقبلوا على ترجمة روائع الأدب العالمي • ومن خلال هذا التلاحم نما الأدب اليوناني الوليد واستوى على عوده ، واستطاع على مدى قرن من الزمان أن يبدع شـــعرا ونثرا يضاهي الآداب الأوروبيـــة الرفيعة • وتسمى هذه المرحلة باسم مرحـــلة التعبير الوطني ، ذلك لأن الحركة الأدبية كانت تطمح الى بناء الأمة الهيلينية والتغلب على آلام الماضي • فلم يشأ كتاب هذه المرحلة التخلي عن ماضيهم التليد ولا اغفـــال الحاضر لحساب الماضي • لقد رأوا أن للحاضر قيمته في ذاته ، وأن من الخير الربط بين الماضي والحاضر في تراث متصل • وآمن هؤلاء بأن لكل عصر مشاكله التي يعيها ويعيشها ، ومن ثم فعلى كل جيل أن يعمـــل على علاج مشاكل

عصره بكل ما تتوافر لديه فى حاضره من امكانيات بدلا من الرجوع الى الوراء والهروب من الواقع . فقد كان أدب تلك المرحلة أدب مواجهة ... مواجهة الحاضر بكل ما فيه من جديد ، وقبول للواقع ومشاكله وحلها وفقا لمقتضيات العصر . فهى نظرة لا تغفل الماضى ولكن ترى الحياة ديمومة تحمل الماضى فى أحشائها ، بيد أنها تطور ارتقائى بحيث تتخذ مع كل عصر صورة وكيفية جديدة .

وهكذا بحث الأديب اليونانى المحدث عن صيغة جديدة تتفق مع احتياجات الفن والجمهور . لقد استجاب الأدب اليونانى الى التغييرات التى طرأت على الشكل فى الأدب العالمى الحديث وخاصة فى باريس ولكنه حافظ على الطابع القومى وعبر عن مثل وآمال الشعب اليونانى : ومن ثم كانت الحركة الأدبية بعثا ونهضة جديدة يواكب حركة التحرير ويكملها .

وظهرت مع بداية هذه الحقبة مدرستان للشعر والنثر . احداهما وهى الاولى نشأت فى الجزر الايونية وسميت بالمدرسة الايونية (١٨٢٠-١٨٨٨) ورائدها الشاعر ديونيسيوس سولوموس . والمدرسة الثانية فى أثينا (١٨٨٨ - ١٩٢٠) . واستطاع أدباء هذه المرحلة أن يجددوا اللغة اليونانية أو أن يلائموا بينها وبين العصر . اذ كانت اللغة اليونانية قد أصابها من الوهن ما أفقدها القدرة على مسايرة العصر فباتت مشكلة أو عائقا فى طريق الابداع الأدبى يلزم تطويعها وتجديدها ، حتى أن سولوموس كان يقول : « لا يشغل بالى سوى الحرية واللغة » .

ولقد كانت النهضة الأدبية الأولى نهضة شعرية ، وهى النهضة التى بدأتها المدرسة الأيونية والتى كانت بمنأى عن السيطرة التركية . وعنى الشعر فى تلك الفترة بالتعبير عن آلام الشعب اليونانى وبطولاته وآماله . وعالج أيضا مشاكل انسانية الطابع : الحرية والمصير والموت والطبيعة . ثم كان النثر من بعد الشعر ، على يد مدرسة أثينا . وعرف النثر انطلاقة كبرى ابان القرن العشرين . واستوحى الكتاب « جذورهم الحية » فاتخذوا من حضارتهم وتاريخهم أرضا لها ومنطلقا لاعادة صياغة اللغة . ولقد استطاعت الرواية والقصة القصيرة أن تخلق من لغة اليونان الجديدة لغة أدب . وعرفت هذه الحقبة الكسندر باباديامنتيس (١٨٥١ - ١٩١١) وأندريا كاركافيتساس (١٨٦٦-١٩٢٣) وقسطنطين ثيوتوكيس (١٨٧٢-١٩٢٣). وغلب طابع الرعاة على كتاباتهم اذ كانت القرية مصدر الهامهم .

وعقب الحرب العالمية الأولى ظهر عدد من الكتاب الشبان ، وكان هؤلاء

رواد مرحلة التجديد التكنيكي . ومهد هؤلاء الطريق لجيل جاء من بعدهم حمل شعلة اليونان وواصل المسير ، وهو جيل كتاب مابعد ١٩٣٠ . وقدم هذا الجيل أدبا أكثر نضجا تجاوز الطابع المحلى الى العالمى . من هؤلاء سترافنيس ميريفليس ، ويورغوس ثيوتوكاس . وأصبح هذا الجيل قدوة لكتاب ما بعد الحرب العالمية الثانية فى الشعر والنثر . ومن بين هذا الجيل الأخير نيقوس كازانتزاكيس الذى كشف فى رواياته عن رؤيا واسعة عميقة وقدرة خلاقة وتمكن فى الأسلوب ، اذ استطاع أن يطوع اللغة اليونانية الجديدة ويخلق منها بمهارة وحذق أداة قوية للتعبير .

ونلمس فى كتاباته خطا متصلا لتأثيرات متباينة ابتداء من الأساطير والعقائد الغيبية القديمة الى الافكار الواقعية فى أحدث صورها . ولقد استطاع كازانتزاكيس بقدرته الفذة وعبقريته أن يربط بين هذه المؤثرات المتباينة فى خيط واحد . ونلمس فى كتاباته أيضا مسحة من التشاؤم تبرز على السطح حتى تبلغ أحيانا درجة العدمية ويصبح الوجود عبثا وباطلا . وهو أيضا انسانى النزعة بالمعنى التاريخى والفلسفى لهذه العبارة . فقد عنى بربط فكره بالتراث اليونانى وأصبح التراث القديم على يديه تجربة حية ومعاناة . كما كان الانسان ، أو الوجود الذاتى الأصيل له ، هو محور أفكاره . فالانسان هو القوة الفاعلة النشطة ، وهو الوجود الحق القادر بفضل وعيه على مواجهة المشاكل التى يفرضها عليه الوجود الخارجى والذاتى .

لقد عبر كازانتزاكيس عن انسان العصر بما يعتمل فى داخله من قلق وصراع وطموح وفشل وخير وشر ، كما عبر عن الانسان بما له من تاريخ طويل وحضارات متعاقبة نرى فيه القديم والجديد والصراع بينهما . نراه حريصا على أن يربط بين الجديد والقديم ، ويستخرج للجديد قيما راسخة غير مبتورة الأصل بل موصولة التاريخ ، فهو كاتب يتحرك من خلال التراث ويعبر عن الجديد بمشاكله العصرية .. هو يونانى ، فشخصياته يونانية فى طابعها وسماتها وأخلاقياتها ، وهو عالمى فى معالجته لشخصياته والقضايا التى يطرحها فى أعماله الأدبية . ان أدبه عالمى ومحلى فى آن ، فيه من العمق والشمول والأصالة ما يربط بين الماضى والحاضر ، والمحلى والعالمى . انه تجربة انسانية بمعناها العميق الشامل بحيث يرى فيه الانسان المعاصر ، أيا كان منبته ، انعكاسا لنفسه القلقة ولأوضاعه ، فكأنما عملة الأدبى بؤرة ضوء تتجمع فيها شعاعات الشمس على مدى واسع النطاق يضم الكون كله لتتمركز فى نقطة واحدة ..

ورواية « المسيح يصلب من جديد » رواية من نوع القصص السيكلولوجية الاجتماعية ، وهي عمل فنى فذ ، سطرها قلم راسخ متمكن، فيها رقة فثية ، وقوة حيوية نشطة ، ولمسة شعرية في صوغها وتصويرها المرهف لآلام المسيح ، وهي صورة ملحمية لصراع الانسان على طول التاريخ من أجل حياة أسمى ، وهي أمل انسانى قوى عارم يعتمل في صدر كل انسان ، ولكن ٠٠ وهنا تتجلى مسحة التشاؤم اذ يختمها كازانتزاكيس بقوله : « لا جدوى يا يسوع » فيصير الأمل سرابا كأنما نقبض الريح ٠ ولكنه لا يترك الانسان يتردى في وهدة اليأس المطبق الأسود القاتل ، بل ثمة أمل على البعد ، قد يكون عسيرا بعيد المنال ولكنه قائم على أية حال ، وعلى الانسان أن يسعى أو على قوى الخير أن تتضافر ابتغاء هزيمة قوى الشر المتمكنة ٠ الصليب عبء الحياة الذى يثقل كاهل الانسان ، يحمله ويرتقى الجبل الوعر سعيا وراء الخلاص ، انه صخرة سيزيف ، والصلب انتصار قوى الشر ، وقيام المسيح هو الأمل ٠٠ قد يكون بعيدا ودونه أهوال ولكنه قائم، وعلى المرء أن يحمل صليبه على كتفه، أن يعانى ويناضل ، ويتخذ الطريق الوعر ، الطريق الصاعد حيث يكون الخلاص ٠ ولا خلاص بغير نضال ، نضال الانسان الحر المتمرد ، حر ازاء نفسه وازاء الوجود ، متمرد على نفسه وعلى الوجود رغم العدم ٠

وكازانتزاكيس رغم اتجاهه التشاؤمي العدمي الا أن كتاباته كلها دعوة الى الحياة ، أن ننهل منها ونقضى وطرنا ، فالحياة لنا ، ومن أجلها نعيش ونناضل ٠ ويجب ألا ينصرف ذهننا هنا الى متع الحياة بمعناها الساذج ٠ انه حقا واقعى يؤمن بشهوات الحياة ويقرها ، ولكن الجمال والحب أسماهما جميعا وأرفعهما قدرا ٠ فهكذا كان زوربا الذى عاش حياة الواقع ، أقدامه على الأرض ، حياته تجربة حية متجددة ، وحين حضره الموت خطا نحو النافذة وفتح مصراعيها ، وبسط ذراعيه كأنما يستقبل الوجود بين أحضانه ، وأطل بعينين نهمتين الى جمال الطبيعة يرنو الى الأفق البعيد يمتع ناظريه ٠٠ ولكن الى الشمس الغاربة التى خضبت الأفق بحمرة الشفق ٠ وكذلك كان الكابتن فورتوناس فى « المسيح يصلب من جديد » حين استرجع حياته وهو على فراش الموت ، فلم تع ذاكرته سوى رفاق الأنس فى روضة يانعة حيث الأزهار الجميلة العطرة الأريج ، وألحان الماندولين ، والسماء الصافية الأديم ٠ وكأن كازانتزاكيس يعزف على نفس القيثارة التى عزف عليها ديونيسيوس سولوموس رائد النهضة الأدبية الهيلينية الحديثة :

« الطبيعـــة سحر وحـــلم جمال ودلال ،

تنبجس من ألف نبع ، وتنادى بألف صوت ،

حـــتى تســـــتقر فى نفس الانســـــان ·

ان من يمت اليـــوم فكأنما مات ألف مرة »

فالحياة عند كازانتزاكيس ظفر بالموت ، وانتصار على اليأس ونضـــال مستمر ، وبهجة تراجيدية · اننا نقف على شفا هاوية سحيقة هى العدم ويكاد اليـــأس يمسك بنـــا ويموت الأمل · وقد لا يجد المرء ســـبيلا الى الخلاص فيتردى فى هاوية العدم · ولكن الخلاص فى رأى كازانتزاكيس أمل قائم فيما وراء اليأس ، والنضال سبيلنا الى التعالى أو تجاوز هـــــذه الهوة السحيقة · والحب والعمـــل عدة النضال وزادنا فى مسيرة الحياة ، وسبيلنا الى الانتصار على اليأس · والحب والعمل لا يكونان الا للانسان الحر الذى يختار حياته بكل معنى الاختيار الذى يرقى الى مستوى الخلق · الانسان الحر الذى يجرب حياته فى كل لحظة من لحظاتها ولا يقنع بأفكار مسبقة موروثة أو قوالب محفوظة ، وانما تكون حياته معايشة فعـــالة نشطة خالقة : يرفض ويقبل ، يهـــدم ويبنى ، والعزم والاصرار يملآن جوانحـــه ، وقدماه ثابتتان على الأرض ، غير محلق فى أجـــواء الخيـالات والأوهام ، أو أسير قوالب فـــكرية جامدة سواء كانت تنتمى الى الحاضر أم الماضى · يقول كازانتزاكيس فى رواية المسيح يصـــلب من جديد على لسان ياناكوس « ·· هكذا يكون الانسان ·· كائن حى يتكلم ويعترض ويسائل »· فعلى هذا النحو يحقق الانسان ذاته أو يمنحها الوجود الحق· اننا نفرض ذواتنا على الحياة ، أو هكذا ينبغى أن يكون الانسان · وهكذا كان القسيس فوتيس فى « المسيح يصلب من جديد » وهو نموذج الانسان ، ومسيرته هى مسيرة الانسان على طريق الحياة : معاناة وجلد وتحرر وحب وعمل · يقول القسيس فوتيس « الحيـــاة يا الهى عبء ثقيل ، ولولاك لأمسك كل منا بيد الآخر ، رجالا ونساء ، وذهبنا لنلقى بأنفسنا فى هوة سحيقة ليس لها من قرار لنتخلص من الحيـــاة · ولكنك موجود ، فأنت الفرحة والعزاء » · ويقول لقومه بعد أن حلت بهم النوائب تطحنهم « العمل والصبر والحب ·· تلـــكم هى أسلحتنا · « تحررت الروح من البطون المتخمة وهى الآن قادرة على الطيران » · « ان من يملك أرضا وأشـــجارا تصبح الأرض والأشجار هى ذاته، وتفقد روحه صفتها القدسية» · ويسأله مانولى : «يا أبانا ، ترى هل تستحق الحياة الدنيا كل هذا العناء والوقت؟» فيجيب عليه قائلا: « نعم تستحق، وتستحق الكثير ·· ولو وضعنا أيدينا

الى جنوبنا دون أن نبدى حراكا فاننا نلقى بأنفسنا الى التهلكة ، هلاك على الأرض ، وهلاك فى السماء ، ٠٠ وهكذا فالحياة أمل عبر اليأس ، ونضال حر على شفا العدم الذى يسرى بين أوصال الوجود حتى يكاد يصدعه ، واختيار قلق وخالق ، وبهجة مأساوية ، لادعة وسكينة واستسلاما ، الحياة قلب عاشق للجمال يذوب حنينا ، وابتسامة صافية لنفس نقية أسقطت عن كاهلها أهواءها وشواغلها الدنية ٠

عاش كازانتزاكيس حياته لليونان يملأ قلبه حبها ٠٠ حب اليونان شعبا وتاريخا وتراثا مجيدا ٠ عاش للانسان : للحب وللحياة وللطبيعة والجمال حتى وافته منيته يوم ١٨ من أكتوبر ١٩٥٧ ٠٠ مات وبقيت آثاره منارة وضاءة فى عالم الأدب والفكر تخاطب أعماقنا وتعزف على وتر الوجود الانسانى المشدود فوق حافة العدم ٠٠

***

وبعد ، فتوخياً منا أن نقدم هذه الرواية فى أكمل صورة وأصدقها فقد رأيت ألا أقتصر فى نقلها الى العربية على الترجمة الانجليزية وحدها ، بل آثرت أن أراجعها على الترجمة الفرنسية أيضا ضمانا للدقة ورغبة فى أن تكون أقرب الى التطابق مع النسخة الأصلية فى لغتها اليونانية التى لا أعرفها ٠ ويجدر بى هنا أن أنوه الى ما لا حظته من اختلاف بين الترجمتين الانجليزية والفرنسية ٠ فقد تبين أن كلا من الترجمتين أسقطت حينا بعض جمل أو فقرات تصل حينا الى صفحة كاملة فى بعض المواضع ، ولكنها قليلة جدا فى الترجمة الفرنسية ، ومسرفة الى حد ما فى الترجمة الانجليزية ٠ وانى اذ أقدم هذه الترجمة آمل أن أكون قد وفقت فى نقلها بصورة أقرب الى الصدق والكمال ٠

شوقى جلال



•

البحث عن يهوذا

جلس أغا ليكوفريس في شرفته المطلة على ميدان القرية ، يدخن النارجيلة ، ويحتسي العرقي ، والرذاذ الدافيء يتساقط في حنو . وقد علقت بشاربه الكث قطرات من العرقي ، لمعت فوق صبغته السوداء الفاحمة . وكان العرقي قد أشاع الدفء في جسد الأغا ، فأخذ يلعق شاربه بلسانه مستمتعا ببرودته . وعن يمينه وقف حسين ، تابعه وحارسه الخاص ، ممسكا في يده بوقا ؛ وهو عملاق شرقي ، خبيث كالقردة ، وفي عينيه حول . وعن يسار الأغا تربع على حشية مكسوة بالقطيفة غلام تركي وسيم في خديه غمازتان ، يمد يده بين الحين والحين ليشعل النارجيلة أو ليملأ كأس العرقي .

أغمض الأغا عينيه المثقلتين نصف اغماضة ، مستشعرا لذة الحياة في هذا العالم الممتد تحت قدميه . وجال في نفسه خاطر يقول : « صنع الله كل شيء فأبدع صنعه ، وان الدنيا لفي غاية التمام والكمال . هل أنت جوعان ؟ هاك الخبز واللحم المفروم بالصلصلة وطاجن الأرز بالقرفة . هل أنت عطشان ؟ هاك العرقي ، اكسير الشباب . هل بك رغبة الى النوم ؟ الله خلق النوم ، وليس كمثله شيء حين يغالبك النعاس . واذا كنت غاضبا فقد خلق الله السوط وأعجاز الرعايا . واذا أصابك اكتئاب ، فقد خلق لك أغاني آمان ، آمان . فاذا شئت بعد ذلك أن تنسى أحزان هذه الدنيا وهمومها فقد خلق لك الله يوسوفاكي » .

وتمتم الأغا فى انفعال : « الله فنان مبدع ! نعم ، فنان مبدع حقا ، يعرف أسرار صنعته ، وخياله عبقرى أيضا ، والا فكيف بحق الشيطان واتته ـ جلت حكمته ـ فكرة خلق العرقى ويوسوفاكى ؟ ·

واغرورقت عينا الأغا بالدموع ، كان قد شرب كثيرا من العرقى حتى غابت نفسه فى خشوع رقيق · وأطل من شرفته يرقب رعاياه وهم يتجولون فى الميدان ، حليقى الذقون ، وقد ارتدوا أحسن ملابسهم · فسراويلهم بيضاء مغسولة فى العشية ، تلتف حولها أحزمة حمراء عريضة ، وأحذيتهم ذات رقاب طويلة زرقاء · كان بعضهم يضع على رأسه طربوشا ، والبعض الآخر عمامة ، وآخرون يضعون قلانس من فرو الخراف · وكان أكثرهم أناقة يضع خلف أذنه عود ريحان أو سيجارة ·

كان ذلك فى عيد القيامة ، يوم الثلاثاء الكبير ، بعد لحظات من انتهاء القداس · الطقس جميل رقيق ، وشمس الربيع ساطعة ، والمطر رذاذ ، وقد تضوع الجو بعطر أزهار الليمون ، وبرزت البراعم من فروع الشجر ، وعادت الخضرة الى أعشاب الأرض ، كان المسيح يقوم فى كل حفنة من التراب ، والمسيحيون يروحون ويجيئون عبر الميدان ، يتعانقون ويتبادلون تحية عيد القيامة : « المسيح قام » « بالحقيقة قام ! » ثم يذهبون الى مقهى قسطندى ، أو يجلسون وسط الميدان تحت شجرة السنار الكبيرة ، وهناك يطلبون النارجيلة والقهوة ، وسرعان ما يبدأون ثرثرة لا تنتهى ، تنتشر بينهم مثل رذاذ المطر ·

وقال خرالامبوس خادم الكنيسة : « هكذا سيكون الفردوس : شمس حانية ، ومطر رقيق هادىء وزهور متفتحة فى أشجار الليمون ، ونارجيلات وأحاديث ذات شجون الى أبد الآبدين » ·

ورأى الاغا فى الطرف الآخر من الميدان ، خلف شجرة السنار ، كنيسة القرية التى أعيد طلاؤها بالجير الابيض ، وفى طرفها يرتفع برج الجرس فى رشاقة · اليوم عيد الصلب ، وبوابة الكنيسة يغطيها بهذه المناسبة سعف النخيل وفروع الغار · وحول الكنيسة تكثر الدكاكين الصغيرة والحوانيت · ومن بينها دكان بانايوتى السروجى ، هذا الجلف الغليظ الذى اشتهر باسم «آكل الجبس» : فقد أحضروا فى القرية ذات يوم تمثالا نصفيا من الجبس لنابليون فأكله · وأحضروا مرة أخرى تمثالا لكمال باشا ، فأكله أيضا · وأخيرا أحضروا تمثالا للزعيم الكريتى فينزيلوس فأكله بدوره ·

أما الدكان المجاور فهو دكان أندونيس الحلاق ، يحمل اسمه ، وعلى بابه لافتة كتب عليها بحروف كبيرة حمراء فاقعة : « هنا نخلع الأسنان أيضا » ٠

وبعد ذلك يوجد محل جزارة ديمترى الأعرج ، وعليه لافتة تقول : « بناء على طلب هيروديا من هيرودس نقدم رءوس عجول طازجة » وفى كل سبت يذبح ديمترى عجـــلا ، بعد أن يطلى قرونه بلون الذهب ، ويصبغ جبهته ، ويعقد حول رقبته شرائط حمراء ، ثم يسوقه عبر حوارى القرية وهو يعرج ويتغنى بمزاياه ٠

وعند آخر الدكاكين توجد مقهى قسطندى الشهيرة ، وهى عبارة عن صالة ضيقة طويلة رطبة ، معبقة برائحة القهوة والطباق دائما ، وبرائحة مشروب السحلب شتاء ٠ وعلى جدران المقهى ثلاث صور معبرة مرسومة على الورق المقوى هى مفخرة القرية كلها٠ على اليسار صورة القديسة جنيفييف، نصف عارية وسط غابة استوائية ، وعلى اليمين صـــورة فخمـة للملكة فيكتوريا بعينيها الزرقاوين وصدرها الممتلىء كصدور المرضعات،وفى الوسط تماما صورة كمال باشا بوجه قاسى الملامح وعينين عسليتين ثاقبتين ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة من الفرو ٠

ان كل أبناء القرية رجال أنقياء مجدون فى أعمالهم ، وآباء طيبون ٠ وأغا القرية أيضا رجل نقى خصـوصا فى حبه للعرقى والعطور النفاذة ــ كالمسك والبتشول ــ وفى حبه لغلامه الجميل الجالس الى يساره على الحشية المكسوة بالقطيفة ٠

ان الأغا يشعر بالمتعـة وهو يحملق فى المسيحيين كالراعى عنـدما يحملق فى قطيعه ، فتغمره النشوة ٠

وحدثته نفسه :

ــ انهم ناس ممتازون ٠ لقد ملأوا مخزنى هذا العام أيضا بهدايا عيد القيـامة : جبن ، وفطير بالسمسم ، وكعك ، وبيض أحمر ٠٠٠٠ وأحضر أحـدهم ــ حفظه الله وأبقـاه ــ صندوقا من لبان خيوس هدية لغلامى يوسوفاكى ، يمضغه فيعطر فمه الصغير ٠٠٠» ٠

وشعر الأغا بالسعادة ٠ وسرحت خواطره الى مخزنه الممتلىء بأطايب الأشياء ، بينما يتساقط المطر خفيفا ، وتصيح الديكة ، ويقبع الى جانبه يوسوفاكى عند قدميه ، يمضغ اللبانة ، ويطرقع بلسانه فى لذة ٠

وفجأة شعر الأغا أن قلبه يفيض نشوة · ومال بعنقه ليغنى مقطعا من أغانى آمان ، لكن المحاولة كانت أصعب مما يستطيع · فالتفت الى حارسه الخاص حسين وأشار اليه أن يطلق البوق ليسكت الرعية · ثم استدار نحو يوسوفاكى على يساره قائلا :

« يوسوفاكى ، غن لى شيئا ، باركك الله · غن لى دنيا تابير ، روياتابير ، آمان آمان ، غن لى والا زهقت روحى » ·

تمهل الغلام الجميل وهو يسحب اللبانة من فمه ويلصقها على ركبته العارية ، وأسند خده الى راحة يده اليمنى يغنى للأغا أغنيته المفضلة : « الدنيا والحلم شىء واحد ، آمان ، آمان » ·

أخذ صوت الغلام الذى يشبه صوت الناى يعلو ويهبط فى هديل كهديل الحمام · وأغمض الأغا عينيه مسلوب اللب ، وهو يسمع غناء الغلام ، حتى لقد نسى الشراب ·

ونظر قسطندى ناحية الأغا ، وقال هامسا وهو يقدم القهوة : « هذا يوم من أيامه الجميلة· بارك الله فى العرقى !» وأضاف ياناكوس بابتسامة خبيثة : « بل بارك الله فى يوسوفاكى ! » ·· وياناكوس هذا بائع متجول وطواف ينقل الرسائل ، له لحية شهباء قصيرة كثة ، وعينا طائر جارح ·

وغمغم حاجى نيكولا شقيق القسيس :

ـ « بل لعنة الله على القدر الأعمى الذى جعله أغا وجعلنا رعايا » ·

ان حاجى نيكولا ناظر مدرسة القرية وهو رجل جاف العود يضع على عينيه نظارة ، وتبرز فى عنقه تفاحة آدم كبيرة مدببة تعلو وتهبط عندما يتكلم ·

لقد اشتعل حماسه عندما عادته ذكريات أجداده الغابرين ، فتنهد وعاد يقول :

ـ « أتى حين من الدهر كان فيه أبناء شعبنا الاغريق سادة هذه الاراضى · ثم دارت هذه العجلة وجاء أهل بيزنطة ، وهم أيضا اغريق ومسيحيون ·· ثم دارت العجلة مرة أخرى وأتى أبناء هاجر ·· ولكن المسيح قام من جديد أيها الأصدقاء ، وبلادنا ستقوم أيضا· هيا ياقسطندى قدم لنا الشراب مرة أخرى » ·

وانتهى الغناء فأعاد الغلام الجميل اللبانة الى فمه وأخذ يلوكها ثم غاب فى النعاس مرة أخرى · وانطلق البوق ثانية : « الآن تستطيع الرعية أن تعود الى الضحك والصياح فى حرية » ·

وظهر على باب المقهى كابتن فورتوناس ، انه واحد من الاعضاء الخمسة في مجلس شيوخ القرية : طويل القامة ، ضخم الجثة ، وكان فيما مضى يملك مركبا قطع به كل أرجاء البحر الاسود خلال سنوات طويلة يحمل القمح الروسى ، ولا يتورع عن التهريب • وللكابتن وجه أمرد وبشرة زيتونية وجلد مدبوغ وتجاعيد غائرة وعينان ضيقتان براقتان فاحمتا السواد • لقد تقدمت به السن ، وكذلك هرم مركبه • وفى أحد الليالى تحطم المركب على صخور الشاطىء بالقرب من اسطنبول • ومع حطام مركبه تحطمت آماله فعاد يائسا الى قريته ، وقد صمم على أن يعب من العرقى قدر ما يستطيع ، حتى تأتى ساعته فيدير رأسه الى الحائط ويلفظ آخر أنفاسه • شاهدت عيناه الكثير ، وحسبه ما أصابه من الدنيا • لا ، فالحق أنه لم يصب كفايته ، ولكن التعب أضناه وان كان الخجل يمنعه من الاعتراف •

فى ذلك اليوم انتعل القبطان حذاءه ذا الرقبة ، ولف حول وسطه الحزام الأصفر ، ووضع على رأسه قلنسوة الأعيان المصنوعة من فرو الاستراكان الأصلى وأمسك بيده عصا كبيرا كعادة شيوخ القرية ، ونهض بعض أبناء القرية واقفين فى احترام يدعونه لتناول كأس من العرقى •

فأجاب :

ـ ليس عندى وقت يا أبنائى حتى للعرقى • المسيح قام • وأنا ذاهب الى منزل القسيس فهناك سنعقد اجتماعا لأعيان القرية • وهؤلاء الذين وجهت اليهم الدعوة يجب أن يحضروا الى هناك أيضا فى أقل من ساعة • هيا ارسموا علامة الصليب وتعالوا • لا شك أنكم تعرفون ما هو عملنا اليوم • آه ! ليذهب أحدكم ويحضر بانايوتى السروجى ذا اللحية الشيطانية فنحن فى أشد الحاجة اليه » •

وصمت لحظة ، وغمز بعينيه فى خبث قائلا :

ـ اذا لم يكن فى بيته ، سيكون عند الأرملة •

فانفجروا جميعا ضاحكين •

ورد عليهم كريستوفيس المكارى العجوز ، الذى تعلم فى شبابه معنى الهوى ، ودفع من أجله ثمنا غاليا • صاح فى حدة :

ـ ماذا يضحككم يا أصحاب العقول الصغيرة ؟ بانايوتى على حق • افعل أيها الملعون ما يحلو لك ولا تنصت لأحد ! الحياة قصيرة والموت طويل فامض فى سبيلك ياولدى •

وهز ديمترى الجزار البدين ، رأسه الحليق قائلا :

ـ ليحفظ الله أرملتنا كاترينا : يعلم الشيطان كيف أنقذت رءوسنا من القرون ! •

قال الكابتن فورتوناس ضاحكا :

ـ هيا يأولاد لا تختلفوا ! فكل قرية لا بد لها من امرأة شاذة تحمى حرائر النساء من ازعاج الرجال • انها أشبه بالنبع على قارعة الطريق يرده الظماء فيروون ظمأهم • ولولا ذلك لقصدوا أبواب بيوتنا جميعا يدقونها بابا بعد آخر • وعندما يطلب الماء من النساء ••••

والتفت فلمح ناظر المدرسة :

ـ أما تزال هنا ياحاجى نيكولا ؟ ألست مدعوا لاجتماع مجلس الأعيان ؟ حتى المقهى حولتها الى مدرسة ؟ كفى دروسا وتعال معى •

وهنا غمز كريستوفيس بعينه للصحاب وسأل :

ـ ألا تريدنى أن أحضر أيضا ؟ أستطيع أن أقوم بدور يهوذا •

ولكن الكابتن فورتوناس كان قد مضى يصعد الطريق المنحدر متكئا بكل ثقله على عصاه • لم يكن فى ذلك اليوم حسن المظهر ، فقد عادت آلام الروماتيزم تعتصر جسده ، ولم يغمض له جفن طوال الليل • وفى الصباح الباكر عب بعض الزجاجات الكبيرة من العرقى علاجا لآلامه ، لكن الألم لم يزايله لحظة ينعم فيها بالسكينة ، وحتى العرقى لم يستطع أن يؤثر فيه•

وقال يحدث نفسه :

ـ لولا الخجل لانفجرت صارخا • ربما كان فى هذا ما يخفف بعض آلامى ، ولكن هذا الشىء اللعين الذى يسمى احترام النفس يمنعنى ، اذ يجب أن أمشى أمام الناس بادى البشاشة • واذا سقطت العصا من يدى يجب أن أنحنى بنفسى لألتقطها ولا أسمح لأحد أن يساعدنى فى ذلك ••• هيا ياكابتن فورتوناس • عض على شفتيك بشدة ! انشر شراعك يافتى، وامخر عباب الموج ! ولا تفعل ما يملؤك بالخجل • فما الحياة والله الا زوبعة وتمر!

وغمغم الكابتن وهو يسب ويلعن • كان يصعد الطريق وهو يترنح من جانب الى آخر • وتوقف لحظة وجال بنظره فيما حوله • لم يكن هناك من يراه • وتنهد بصوت مرتفع ، فخفف هذا من ألمه • ورفع بصره الى الجانب المرتفع فى طرف القرية فلمح بين الأشجار بيتا أبيض ذا نوافذ

زرقاء هو بيت القسيس • وغمغم الكابتن وهو يستأنف طريق الصعود •
ـ أى فكرة خطرت لهذا القسيس الشيطان عندما بنى منزله هناك بأعلى التل ؟ لتنزل لعنته على رأسى ! •

* * *

كان اثنان من الأعيان قد وصلا قبل الكابتن الى منزل القسيس ، وتربعا على الأريكة الكبيرة ، ينتظران فى صمت تقديم تحية الضيافة المعتادة • وذهب القسيس الى المطبخ يعطى أوامره لابنته الوحيدة ماريورى، وهناك كانت الفتاة تضع على الصينية الاكواب والماء البارد والمربى •

وفى مكان الصدارة تربع الى جانب النافذة كبير شيوخ قرية ليكوفريس وعمدتها • انه جورج بطرياركاس : رجل مهيب المنظر ، ضخم الجثة • يلبس سروالا من التيل الفاخر ، وصدارا موشى بالذهب ، وحول خنصره خاتم ذهبى كبير يستخدمه أيضا كخاتم خاص يحمل الحرفين الأولين من اسمه : ج•ب• يداه سمينتان بضتان مثل يدى الأسقف ، فهو لم يعمل بهما شيئا طوال حياته لأن لديه رهطا كاملا من الخدم والحشم يكدون فى خدمته • وهو مترهل الجسد ، ضخم الأرداف عريضها ، متهدل الكرش وله لحية تنزل على ثلاث طبقات لتصل الى صدره المكتنز ذى الشعر الكثيف ، لقد سقطت من ثناياه سنتان أو ثلاثة ، وهذا هو العيب الوحيد فى هذه اللوحة الرائعة • ولهذا كان يلثغ فى كلامه ويتهته • ولكن حتى هذا العيب كان يزيد من مهابته ، اذ كان يرغم مستمعه مهما كان أن ينحنى نحوه لكى يتبين كلامه •

وفى أحد أركان الحجرة على يمينه كان لاداس العجوز ، يجلس منكمشا على نفسه فى مذلة وخنوع • هزيل الجسم ، قذر المظهر ، ناتىء عظام الوجه ، أعشى العينين ، له يدان ضخمتان يغطيهما جلد ميت• ولاداس هذا هو أغنى أهل القرية ، قضى سبعين عاما منكبا على الأرض ، يفلحها : يبذر ويحصد ، يزرع فيها أشجار الزيتون والكرم ، يعتصرها ويمتص دمها • لم ينفض عن نفسه ترابها ولو مرة واحدة منذ كان صبيا • انكب عليها بنهم لا يشبع ، يريد أن يأخذ منها ألف ضعف لما يقدمه لها ، دون أن يقول أبدا « شكرا لله ! » بل هو دائما ساخط متذمر • والآن وقد تقدمت به السن لم تعد الارض تكفيه ، كان يشعر باقتراب أجله ، فيندفع فى لهفة ليبتلع القرية كلها قبل أن تأتى ساعته • لهذا اشتغل باقراض النقود بالربا الفاحش لأهل القرية • وكان هؤلاء الذين يخونهم الحظ يرهنون لديه كرومهم وحقولهم وبيوتهم ، فاذا حل موعد السداد ولم يجدوا

معهم ما يوفون به ديونهم ببيع ممتلكاتهم بالمزاد ، ويبتلع لاداس العجوز كل شيء ٠

ومع ذلك تراه دائما يئن بالشكوى ، وهو لا يأكل من الطعام مايسد رمقه ، وزوجته بنيلوب تسير حافية القدمين ٠ وحتى البنت الوحيدة التى أنجبها بعد سنوات طويلة تركها تموت لأنه رفض أن يستدعى لها طبيبا يوم غلبها المرض ٠ كان يقول فى ذلك الوقت :

ــ المدن الكبيرة نائية ، والتكاليف باهظة ! فكيف أستطيع أن أحضر لها طبيبا ؟ فليذهب الاطباء الى الشيطان ! عندنا هنا القسيس ، وهو يعرف الأدوية القديمة ، ولن أدفع له على الأكثر سوى ثمن المرهم ٠ ومع ذلك سوف تشفى ابنتى ، ولن يكلفنى ذلك كثيرا ٠

ولكن الأدوية المخلوطة التى قدمها القسيس لم تجد فتيلا ، والزيوت المقدسة لم تفعل شيئا ، وماتت الصبية فى السابعة عشرة وبذلك أفلتت من أبيها ٠ أما هو فقد استطاع أن يفلت أيضا من تكاليف زواجها ٠ وفى أحد الايام ، بعد عدة شهور من وفاة ابنته ، بدأ يقدر هذه التكاليف :

« مهر : كذا وكذا تقريبا ، ثياب الزفاف والموائد والمقاعد تكلفنى كذا ٠ ثم لا بد من دعوة الاقارب يوم الزفاف ، ويجب أن أقدم لهم قائمة طعام تملأ بطونهم الشرهة ، ولنحسب مثلا اللحم والخبز والنبيذ : كذا٠٠ وحسب حاصل الجمع فكان رقما كبيرا: فابنته كانت ستفقده كل مايملك٠» ثم ما وجه الخطورة فى أن تموت ؟ فكل نفس ذائقة الموت ٠٠ وفضلا عن ذلك فقد تخلصت من همـوم الدنيا : الزوج والاطفال والامراض وأعمال البيت ٠٠ فى الحقيقة أنها كانت محظوظة ، ليتغمدها الله برحمته ٠

دخلت ماريورى تحمل الصينية وحيت الاعيان ٠ وعندما وقفت أمام عمدة القرية خفضت عينيها ٠ كانت شاحبة الوجه ، ذات عينين واسعتين وحاجبين مرسومين بدقة ، تجدل شعرها الكستنائى فى ضفيرتين طويلتين تلتفان كالتاج حول رأسها ٠ وتناول العمدة الشيخ ملعقة ممتلئة من مربى الكريز ، ورفع الكوب الى فمه وهو ينظر الى الفتاة قائلا :

ــ نخب زفافكما ياصغيرتى ماريورى ! ابنى لم يعد يطيق صبرا ٠

فابنة القسيس هى خطيبة إبنه الوحيد ميشـيل ٠ وكان القسيس يفخر بهذا القران ويحلم بأن يحصل منه فى أقرب وقت على أحفاد صغار٠

وأضاف الشيخ ضاحكا وهو يغمز بعينه أمام الفتاة :

ـ أستطيع الآن أن أفهم لماذا يفقد هذا الجرو الصغير صبره ؟ يقول انه لم يعد يحتمل ....

واحمر وجه الفتاة حتى أذنيها ، وانعقد لسانها فلم تحر جوابا .

ودخل الأب جريجوريس بزجاجة نبيذ من نوع المسكات وهو يقول :

ـ أدام الله علينا الفرح ! ليباركهما المسيح والعذراء البتول ! .

والقسيس رجل خشن المظهر ، ممتلىء الجسم موفور الصحة له لحية شديدة البياض وذات شعبتين . وكانت تفوح منه رائحة البخور . لاحظ القسيس ارتباك ابنته فقال متسائلا ليغير موضوع الحديث :

ـ متى باذن الله ستتزوج ابنتك بالتبنى لينيو ؟

ولينيو هذه ابنة غير شرعية من كثيرات أنجبهن الشيخ من خادماته. وكان قد خطبها الى راعيه المخلص الوديع مانولى . ومهرها مهرا سخيا : قطيعا من الخراف يرعاه مانولى على جبل العذراء المواجه للقرية .

وأجاب :

ـ قريبا جدا باذن الله . لينيو متعجلة . أراها متلهفة ، هذه الفتاة المحظوظة . وأحسب أن ثدييها امتلآ وأصبحا بحاجة الى طفل يرضعهما . منذ أيام قالت لى اقترب شهر مايو ياسيدى وأزف الوقت .

وانطلق الشيخ يقهقه من قلبه ، ولحيته الكثيفة المثلثة تهتز . وعاد يقول :

ـ الحمير هى التى تتزوج فى شهر مايو . ولينيو على حق فى قولها ان الوقت قد أزف . وهؤلاء الناس رغم أنهم خدم ، الا أنهم بشر أيضا .

وقال القسيس :

ـ مانولى ولد طيب ، وسيعيشان فى سعادة .

وأمن العمدة الشيخ على ذلك قائلا :

ـ هذا صحيح ، وأنا أحبه تماما كابنى. رأيته لأول مرة عندما ذهبت الى دير القديس بانتيليمون . لا بد أن عمره آنذاك كان خمسة عشر عاما. لقد قدم لى تحية الضيافة . انه ملاك حقيقى ، لا ينقصه سوى الجناحين . ولقد شعرت بالشفقة نحوه وقلت لنفسى : « خسارة أن يذبل مثل هذا الغلام الوسيم داخل الدير كالخصيان » . وذهبت الى صومعة سيده الأب

ماناس ، وكان رجلا مشلولا منذ سنوات · فقلت له يا أبانا ، أود أن أطلب منك خدمة · واذا وافقت عليها سأهدى الدير مصباحا من الفضة · وأجاب الراهب : « لك ما تشاء ياشيخ عدا مانولى » ·

ـ انه هو بالضبط عين ما أريد · أود أن ألحقه بخدمتى ·

وتنهد الراهب العجوز قائلا :

ـ أحبه كابنى ، بل هو ابنى فعلا ، لم يرتكب معى خطأ ، وأنا رجل عاجز مقطوع عن الدنيا وليس لى من رفيق سواه · طوال الليالى أحدثه عن النساك والقديسين ، وهكذا يتعلم هو وأشغل أنا وقتى ·

وأجبته قائلا :

ـ اتركه يا أبانا ينزل الى الدنيا : ينجب أطفالا ويعيش ، وبعد أن ينال من الحياة غايته يستطيع أن يصبح راهبا · وبعد الحاح شديد استطعت أن أصحب الغلام معى · وها أنذا أعطيه اليوم لينيو · انى لأدعو لهما بالحظ السعيد ! » ·

وتضاحك لاداس العجوز فى خبث قائلا :

ـ سوف تحصل منه أيضا على ذرية جديدة ·· وتناول على طرف ملعقته حبة كريز واحدة وأخذ يمضغها ، وشرب جرعة من نبيذ المسكات · وقال فى ابتهال :

ـ جزانا الله ثواب عملنا ، ووقانا شر الموت جوعا ! فبساتين الكرم والمحاصيل ليست على ما يرام هذا العام · وهذه مصيبة !·

وقاطعه القسيس بصوته الأجش :

ـ الله هو الرزاق أيها العجوز لاداس ! تشجع ! شد الحزام على بطنك ، ولا تبذر ، فالافراط فى الأكل مفسدة · لا تكن كثير السخاء ، ولا تضيع أموالك على الفقراء كما اعتدت أن تفعل ·

وانفجر الشيخ بطرياركاس مقهقها حتى اهتزت جدران البيت ·

مد يده الغليظة كأنما يتسول وقال بصوت يتصنع البكاء :

ـ قدموا الصدقات أيها المسيحيون ، فالأب لاداس يموت جوعا ·

وتردد وقع أقدام ثقيلة صاعدة كانت درجات السلم تئز تحت ثقلها· ونهض القسيس ليفتح الباب قائلا :

ـ ها هو الكابتن فورتوناس ، ذئب البحـــار العـجوز • انتظرى ياماريورى ولا تنصرفى • فلنقدم له شــيئا يشربه •• سأذهب لأحضر له كوبا كبيرا وزجاجة عرقى • فانه يشم من بعيد رائحة الخمر •

وتوقف الكابتن لحظة أمام الباب يلتقط أنفـــاسه • ثم دخـل وهو يبتسم ، لكن العرق كان يتصبب من جبينه • وظهر خلفه مبـاشرة ناظر المدرسة • فكان قد جرى طويلا ليلحق به حتى تقطعت أنفـــاسه • وخلع قبعته يروح بها • وفى تلك اللحظة عاد القسيس بزجاجة العرقى • وقال الكابتن للأعيان الثلاثة :

ـ المسيح قام يا أحبائى !

وجلس على الأريكة الكبيرة بأقصى ما يستطيع من خفة ، وهو يعض على النواجذ من الألم • ثم التفت نحو الفتاة وقال :

ـ يا صغيرتى ماريورى ، لست أريد مربى ولا قهوة • فهما مناسبان تماما لعجـائز النســاء • حسبى هــذا الكوب الصغير الذى يسميه الناس كأسا •

وأفرغ الكوب فى جوفه دفعة واحدة • وأضاف :

ـ نخب زفافكما •

وارتشف ناظر المدرسة رشفة من فنجان القهوة الصغير ثم قال :

ـ اليوم يــوم عظيم • لن يمضى وقت طويل حتى يحضر الناس • يجب أن نشرع اذن فى اتخاذ قرارنا •

وخرجت ماريورى تحمل الصينية • وأغلق القسيس الباب بالمزلاج • وفجأة اكتسى وجهه الذى لوحته الشمس بسيماء القداسة ، وأبرقت عيناه تحت حاجبين كثيفين • هذا القسيس أكول شريب خمر ، عنيف الكلمات اذا انفعل ، ماهر فى استخدام قبضة يده اذا غضب • حتى فى هذه السن المتقدمة لا تزال الدماء تثور فى عروقه كلما نظر الى النســـاء • فالأهواء البشرية تملأ رأسه وصدره وبطنه • ولكنه لا يكاد يبــدأ القداس أو يمد يده ليبارك أحدا ، أو يســتنزل اللعنة عليه ، حتى تهب عليه ريح عاتية ويصبح شــيئا آخر فاذا بالأب جريجوريس الشره ، السكير ، الشهوانى يتحول الى نبى •

وبدأ الحديث بصوت وقور قائلا :

ـ اخوتى أعضاء المجلس • هذا يوم مهيب • الله يرانا ويسمعنا • أذكروا جيدا أن كل كلمة تقال هنا سوف يسجلها الله فى اللوح المحفوظ، المسيح قام ، ولكنه لا يزال مصلوبا داخل أجسادنا • فلنجعله يا اخوتى يقوم فينا أيضا • أيها الشيخ بطرياركاس انس فى هذه اللحظة أمور الدنيا ، لقد حصلت على كسب وفير فى حياتك أنت وأهلك • أكلت وشربت ومتعت جسدك أكثر مما يفعل الناس • ارتفع بروحك الآن فوق هذه الملذات جميعا وساعدنا على اتخاذ القرار • وأنت ياالاداس العجوز انس فى هذا اليوم الجليل ما تملك من زيت وخمر والجنيهات الذهبية التركية التى تكدسها فى خزائنك • أما أنت يا أخى ، ناظر المدرسة ، فليس عندى شىء يقال لك ، فروحك تسمو دائما فوق ملذات الطعام والنقود الذهبية والنساء وتتصل بالله وتنشد رحمته • ولكنك أنت ياكابتن ، أيها الآثم القديم ، قد ملأت أرجاء البحر الأسود بمظالمك • فاتجه اليوم فى خاتمة حياتك الى التفكير فى الله ، وساعدنا بما تستطيع لنتخذ قرارا عادلا •

وصاح الكابتن فى وجهه :

ـ دع الماضى يا أبانا ! الله يحكم يوم الحساب ! ولو أتيح لنا أن نتكلم بحرية مثلك فاعتقد أننا سنجد أشياء كثيرة تقال عن قداستكم •

وأضاف العمدة حانقا هو أيضا :

ـ تكلم يا أبانا ، ولكن تدبر جيدا كلماتك فأنت تخاطب الأعيان •

وزمجر القسيس غاضبا :

ـ أنا أخاطب مجموعة من الديدان ، وأنا أيضا لست سوى دودة مثلكم •• فلا تقاطعونى • ضيوفنا سيحضرون بين لحظة وأخرى ، ولابد وأن نكون قد اتخذنا قرارنا • أنصتوا اذن : هذا تقليد عريق توارثته الاجيال فى بلدتنا • اعتدنا أن نختار من أهل القرية كل سبع سنوات خمسة أو ستة لنبعث فى أشخاصهم آلام المسيح عندما يحل الاسبوع المقدس• مضت ست سنوات وحل العام السابع • يجب علينا اذن نحن أعيان القرية أن نختار اليوم من أهل بلدتنا هؤلاء الجديرين بأن يجسدوا فى أشخاصهم الرسل الثلاثة الكبار بطرس ويعقوب ويوحنا ، وهذا الذى يتجسد فيه يهوذا الاسخريوطى ، وتلك التى تتجسد فيها مريم المجدلية العاهرة • ثم فوق ذلك كله ـ وسامحنى يا الهى ـ هذا الذى يستطيع أن يحفظ طهارة قلبه طوال العام ليمثل المسيح المصلوب •

وسكت القسيس لحظة ليلتقط أنفاسه · فانتهز ناظر المدرسة هذه الفرصة ، وبدأت تفاحة آدم تعلو وتهبط في عنقه وهو يقول :

ـ كان القدماء يسمون ذلك « السر » ، وتبـــدأ طقوسه يوم أحد السعف في الفناء الخارجي للكنيسة · وتنتهي في منتصف ليلة سبت النور في حديقة الكنيسة بقيام المسيح· الوثنيون كانت لديهم المسارح والملاعب، والمسيحيون لديهم أسرار الكنيسة ·····

ولكن الأب جريجوريس لم يعطه فرصة الانطلاق ، فقاطعه قائلا :

ـ حسن ·· حسن ، الجميع يعرفون هذا كله أيها الناظر المحترم ! دعني أتم حديثي · ان الكلمات تتحول الى أجساد · وهكذا نرى بعيوننا ونلمس بأيدينا آلام المســيح · ومن كل القرى المحيطة يتوافد الحجاج ، ينصبون خيامهم حول الكنيسة ، ينتحبون ويلطمون الصــدور طوال أيام أســـبوع الآلام · ثم تنطلق صيحة «المسيح قام» فتبدأ مظـاهر البهجة والرقص ···· وأنتم تذكرون يا اخوتي المعجزات الكثيرة التي تحدث في تلك الايام · وما أكثر الخطاة الذين يجهشون بالبكاء ويتوبون · وبعض الملاك الأثرياء يعترفون بالخطايا التي اقترفوها في جريهم وراء الثروة ، فيهبون الكنيسة بستان كرم أو حقلا ابتغاء خلاص نفوسهم · هل تسمعني يا أب لاداس ؟

وانفجر لاداس العجوز يقول مغتاظا :

ـ استمر ، استمر يا أبانا ولا تقذفني بالحجارة · ثم اعلم أن هذه الحيل لا تجدى معي ·

واستأنف القسيس حديثه :

ـ لقد اجتمعنا اليوم اذن لكي نختار ·· بالهــام من الله ·· هؤلاء الذين نوكل اليهم الأدوار في هذا السر المقدس · فتكلموا بحرية ، وليدل كل منكم برأيه ! أيها الشيخ بطرياركاس ، أنت رأس الاعيان ، فتــكلم أولا ، وها نحن ننصت لك ·

وتدخل الكابتن قائلا في انفعال :

ـ عندنا يهوذا : بانايوتي آكل الجبس ! لن نجد أحسن منه! شرس، وجهه مغطى بآثار الجدري ، قرد حقيقي من نوع الغوريلا التي رأيتها في في أوديسا ! والشيء الأكثر أهمية هو أن شعره ولحيته مناســبان تماما للدور : لونهما أحمر كلون الشيطان نفسه ·

وقال القسيس بلهجة قاسية :

ـ ليس هذا دورك فى الكلام يا كابتن ، لا تتعجل · فهناك من لهم أسبقية عليك · تفضل يا شيخ بطرياركاس ·

وأجاب العمدة بطرياركاس :

ـ ماذا أقول لك يا أبانا ؟ لست أريد سوى شيء واحد : أن تختاروا ابنى ميشيل لدور المسيح ·

وقاطعه القسيس قائلا بلهجة جافة :

ـ مستحيل ، ابنك شاب ثرى ، بدين سمين ، أكول وشريب خمر ، مرفه فى حياته ، أما المسيح فكان فقيرا نحيلا · اسمح لى أن أقول ان هذا لا يوافق ذاك · ثم هل ميشيل يستطيع أن يتحمل مشقة هذا الدور الصعب ؟ انه سيضرب بالسياط ، ويوضع على رأسه اكليل من الشوك ، ويوضع على الصليب · ميشيل لن يقوى على ذلك · هل تريد أن يسقط اعياء ؟

وتدخل الكابتن قائلا :

ـ الأهم من ذلك كله أن المسيح كان أشقر بينما شعر ميشيل وشاربه فى لون الفحم الأسود ·

وقال لاداس العجوز وهو يتضاحك فى خبث :

ـ بالنسبة لمريم المجدلية ، عندنا الشخص المطلوب تماما : كاترينا الأرملة · هذه الداعرة تتوافر فيها كل الصفات المطلوبة : العهر والجمال والشعر الأشقر الطويل · رأيتها ذات يوم فى فناء منزلها تمشطه ، كان ينسدل الى ما تحت ركبتيها · لعنة الله عليها ! انها تستطيع أن توقع رئيس الأساقفة فى الخطيئة ·

وفتح الكابتن فمه ليضيف بعض الدعابات المبتذلة ، ولكن القسيس نظر اليه نظرة عقدت لسانه ·· وقال القسيس :

ـ العثور على الأشرار سهل · يهوذا ومريم المجدلية · لكن ماذا عن الأخيار ؟ فى هذا أنتظر منكم النصح · أين نجد ـ أستغفر الله ـ رجلا يشبه المسيح ؟ على الأقل يجب أن يشبهه الى حد ما فى هيئة جسمه · لا نريد أكثر من هذا · هذه الفكرة حاصرتنى أياما وأسابيع وحرمتنى النوم عدة ليال · لكن أحسب أن الله من على وأخذ بيدى ، وأظن أننى عثرت على الشخص ·

وسأل العمدة العجوز كأنما أصيب بلدغة :

ــ من هو ؟ أين ؟

ــ بعد اذنك أيها العمدة ، هو واحد من المشتغلين فى خدمتك • وسيادتكم تكنون له الحب أيضا : مانولى راعى غنمك • انه وديع كالحمل ، وهو يقرأ ويكتب ثم انه كان فى الدير • له عينان زرقاوان ، ولحية قصيرة صفراء فى لون عسل النحل • انه صورة صادقة للمسيح كما تصوره الأيقونات • وفوق ذلك فهو شديد التقوى ، ينزل من الجبل كل أحد يسمع القداس ، وفى كل المرات التى أتى فيها الى الكنيسة للمناولة أو الاعتراف لم أكتشف قط انه ارتكب معصية صغيرة •

واعترض لاداس العجوز بصوت كالصرير :

ــ ان به لوثة طفيفة ، وتتراءى له أشباح •

وقال القسيس مؤكدا :

ــ لا ضير فى ذلك • فالمهم أن تكون النفس طاهرة •

وقال الناظر بكلمات بليغة :

ــ انه قادر على احتمال ضربات السياط ، ووخز اكليل الشوك وثقل الصليب • وفضلا عن ذلك فهو راع • وهذه ميزة أخرى فيه • فالمسيح أيضا راع لقطعان البشر •

وقال الشيخ بطرياركاس بعد تأمل :

ــ أنا أوافق • لكن ماذا عن ابنى فى هذه الحالة ؟

وأجاب القسيس فى حماسة :

ــ انه يصلح أكثر من غيره لدور يوحنا الرسول • تتوافر فيه كل الصفات المطلوبة فهو من أسرة كريمة ، ممتلىء الجسم ، أسود الشعر ، وعيناه عسليتان • وهكذا تماما كان تلميذ المسيح المفضل •

وتكلم ناظر المدرسة وهو يرقب أخاه القسيس فى ارتباك :

ــ بالنسبة لدور الرسول يعقوب يبدو لى أننا لن نجد أصلح من قسطندى صاحب المقهى • فهو جاف العود ، شرس المظهر ، عنيد ، ضيق الخلق • وبهذه الصفات يوصف يعقوب الرسول •

وعاد الكابتن يتدخل فى الحديث :

ـ ان له زوجة تريه نجوم الظهر · ترى هل كان الرسول متزوجا أيضا ؟ ما رأيك فى ذلك يا أعلم العلماء ؟

وصاح القسيس غاضبا :

ـ لا تهزل فى الأمور المقدسة أيها المجدف · لست الآن على ظهر مركبك تلقى البذاءات على بحارتك · نحن هنا نتكلم عن سر كنسى ·

وتشجع ناظر المدرسة فعاد يقول :

ـ يبدو لى أن البائع المتجول ياناكوس يمكن أن يصلح لدور بطرس الرسول : فجبهته ضيقة ، وشعره أشهب مجعد ، وذقنه قصيرة · وهو يغضب سريعا ويهدأ سريعا كأعواد الصوفان الريفية التى تشتغل بسهولة وتنطفىء بسهولة ، ولكن قلبه طيب ، ولست أرى فى القرية أصلح منه لدور بطرس ·

وقال الشيخ بطرياركاس :

ـ انه يغش فى البيع الى درجة ما · ولكنه تاجر فماذا تنتظر منه غير ذلك ؟ لا يهم هذا اذن ·

وصر لاداس العجوز قائلا من بين أسنانه :

ـ يقال انه هو الذى قتل زوجته اذ دس لها السم ·

وصاح القسيس :

ـ « افتراء ! افتراء ! يجب أن تسألنى أنا عن ذلك · لقد أكلت زوجته فى أحد الأيام بشراهة ملء قدر من الحمص الفج فأحست بعدها بعطش شديد لا يحتمل حتى أنها شربت جرة كاملة من الماء · فانتفخت وماتت · لا تستنزل اللعنة على رأسك بهذا الكلام يالاداس » ·

وعلق الكابتن :

ـ « نالت ما تستحقه · هذه نتيجة شرب الماء ، لو أنها شربت عرقى لما أصابها شىء » ·

وقال ناظر المدرسة :

ـ « لا نزال بحاجة الى من يمثل دور بيلاطيس وقيافا · ولكن يبدو أن هذا شىء عسير » ·

وقال القسيس بطريقة معسولة :

ـ « لن نجد من يصلح لدور بيلاطس خير من سيادتكم يا عزيزى الشيخ بطرياركاس · لا تقطب جبينك ، فقد كان بيلاطس أيضا أحد النبلاء العظام ، مهيب المنظر ، مكتنز الوجه ، أنيق المظهر ، له لحية تشبه لحيتك هذه تماما · وهو رجل صالح أيضا سعى جهده لينقذ المسيح · بل واعلن فى نهاية الأمر « اغسل يدى من دم هذا » · وبذلك أبرأ نفسه من الخطيئة · لا ترفض هذا الرأى أيها الشيخ ، فانك تتيح لنا بذلك أن نجعل من هذا السر شيئا كبيرا · تخيل المجد الذى سيعود على قريتنا والأفواج الغفيرة التى ستندفع اليها حين تعلم أن الشيخ بطرياركاس كبير الأعيان سيقوم بدور بيلاطس » ·

وابتسم الشيخ فى اعتزاز واشعل غليونه دون أن ينبس بكلمة ·

وتدخل الكابتن مرة أخرى قائلا :

ـ « الأب لاداس خير من يمثل دور قيافا · لن نجد أحسن منه · أنت يا ابانا ترسم أيقــونات ، فقل لنــا كيف ترسم صــورة قيافا فى الأيقونات ؟ » ·

وقال القسيس مترددا :

ـ «حسن ، فى الحقيقة ·· انه يشبه الأب لاداس الى درجة كبيرة · فهو جلد على عظم ، متسخ الجسد ، غائر الخدين ، أصفر الأنف ضيقه ·· »

وعاد الكابتن يسأل بكلمات لاذعة وهو يضحك :

ـ « وهل كان شاربه مغطى بالقشور ايضا ؟ وهل كان يرفض أن يتصدق بقطرة ماء حتى وان كانت للملاكه الحارس ؟ وهل كان يمشى وحذاؤه فى يده خشية أن يبلى ؟ » ·

وانتفض لاداس صائحا :

ـ « سأنصرف · لماذا لا تأخذ دورا أنت أيضا أيها الكابتن ؟ ماذا تنتظر ؟ ألستم بحاجة الى ممثل ناعم البشرة يمثل دورا أياكان هذا الدور ؟ »

واجاب الكابتن ضاحكا وهو يحرك اصبعيه كأنما يفتل شاربه :

ـ « أنا احتياطى لكم ، فمن يدرى ؟ نحن رجال تقدمت بنا السن ، وربما يودعنا أحدكم خلال هذه السنة ، أنت مثلا يا لاداس يا صاحب الشارب الكث ، أو ربما الســيد بيلاطيس · واذ ذاك أقوم أنا بذلك الدور حتى ننقذ السر » ·

عوى العجوز البخيل قائلا :

ـ « ابحثوا عن قيافا آخر • هذه كلمتى الأخيرة ، وعلى كل حال يجب أن أذهب لأرعى شئونى • سأنصرف » •

ـ « لن أكون قيافا • ابحثوا عن شخص آخر ، وهم بالذهاب مد القسيس ذراعيه يعترض طريقه قائلاً :

ـ « اين تذهب ؟ الناس فى طريقهم الينا • فلا يمكن أن تنصرف ، ولا يرضيك أن نكون جميعا سخرية القرية » •

ثم أضاف بلهجة رقيقة :

ـ « يجب أن تضحى كالآخرين يا سيد لاداس • فكر فى نار جهنم • سوف تغفر لك خطايا كثيرة اذا ساعدتنا فى هذا العمل الجليل الذى نؤديه ابتغاء مرضاة الله • ولن نجد خيرا منك لدور قيافا • فلا تتمسك بالرفض • سيكتب لك الله ذلك فى اللوح المحفوظ » •

وصرخ لاداس العجوز مذعورا :

ـ لن أكون قيافا • ابحثوا عن شخص آخر أما عن هذا اللوح المحفوظ •••• » •

ولم يستطع أن يكمل عبارته • فقد كان أهل القرية يصعدون السلم • ورفع القسيس مزلاج الباب •

واندفع الى الداخل حوالى عشرة من أهالى القرية يحيون الأعيان ويرشمون الصليب • وقالوا :

ـ « المسيح قام أيها السادة الأعيان » •

ثم اصطفوا لصق الحائط •

وأجاب الأعيان وهم يسترخون على الأريكة الكبيرة التى تربعوا فوقها:

ـ « بالحقيقة قام ! »

ودار عليهم الشيخ بطرياركاس بكيس الطباق •

وأعلن القسيس :

ـ « اتخذنا قرارنا يا أبنائى • لقد حضرتم فى الوقت المناسب تماما • فمرحبا بكم » •

وصفق بيديه فحضرت ماريورى ٠

ـ « قدمى يا ماريورى لهؤلاء الفتيـة شرابا ، وأحضرى لكل منهم بيضة حمراء احتفالا بقيام المسيح » ٠

وشربوا ، وأخذ كل منهم بيضة حمراء ، وانتظروا ٠

وبدأ القسيس يتكلم وهو يتحسس لحيته المشعبة :

ـ « يا أبنائى ، شرحت لكم بالأمس بعد القداس ما ننتظره منكم ٠ سنحتفل فى عيد القيامة القـادم بسركنسى عظيم ٠ فيجب أن تساعدونا جميعا ، صغارا وكبارا ٠ أنتم تذكرون كيف كان الأسبوع المقدس فى قريتنا منذ ست سنوات، كم من الدموع سكبت فى الكنيسة ، وكم من النحيب الذى يفتت الأكباد ، ثم كيـف كانت البهجة بعد ذلك يوم أحد القيامة ٠ وكيف أضيئت الشموع وتعانق الناس ، وكيف اندفعنا فى حمية نرقص ونغنى « المسـيح قام من الأموات ، قهر الموت بالموت » ٠ وأصبحنا جميعا اخوة ٠ فى العام القادم يجب أن يكون احتفـالنا بآلام المسيح جميـلا كما كان سابقه بل وأجمـل منـه ٠ هل توافقوننى أيها الاخوة ؟ » ٠

وأجاب أهل القرية بصوت واحد :

ـ « موافقون يا أبانا ٠ لتباركنا ! » ٠

ونهض القسيس وقال لهم :

ـ « ليبارككم الله ! لقد اخترنا نحن شـيوخ القرية هؤلاء الذين سيمثلون الرسل وبيـلاطس وقيـافا والمسيح ٠ تقـدم يا قسطندى باسم الآب » ٠

وأمسـك قسـطندى صاحب المقهى بطرف مريلته وثبته فى حزامه الأحمر وتقـدم ٠

ـ « اخترناك أنت يا قسطندى لتكون يعقوب الرسول ، التلميـذ الزاهد للمسيح ٠ وهذه مهمة خطيرة وقدسية ، فيجب أن تؤديهـا باباء وشمم ، حتى لا تلحق العار باسم الرسول ، ومنذ اليوم يجب أن تتحول يا قسطندى الى انسان جديد ٠ أنت رجل بار ؛ ولكن يجب أن تكون أكثر برا ، وأكثر استقامة وحلما ، وأكثر انتظاما فى حضورك الى الكنيسة ٠ ويجب أيضا أن تقلل من الشعير الذى تضيفه الى البن ، ولا تقسم قطع

الحلوى لتبيع النصف بثمن القطعـــة الكاملة ، وفوق ذلك كله احذر أن تضرب زوجك ، فأنت منذ هذا اليوم لم تعد قسطندى فقط ، بل أيضا ، وهذا هو الأهم ، يعقوب الرسول · هل فهمت ؟ » ·

وأجاب قسطندى وهو يتراجع نحو الحائط ، وقد احمر وجهه خجلا :

ـ « لقد فهمت » ·

وكاد يضـيف « لســت أنا الذى أضرب زوجى ، بل هى التى تضربنى » ، لكنه سكت خجلا ·

وسأل القسيس :

ـ « أين ميشيل ؟ نحن نحتاج اليه » ·

وأجاب ياناكوس :

ـ « توقف في المطبخ ليتحدث الى ابنتك » ·

ـ « ليذهب أحدكم لاســـتدعائه · وتقـــدم أنت يا ياناكوس فهذا دورك » ·

وخطا البائع المتجول نحو القسيس ، وقبل يده ·

ـ « كان من نصيبك يا ياناكوس مهمة صعبة ، هى تمثيل بطرس الرسول · فانتبه جيدا· انس ياناكوس القديم، فهذا تعميدا من الكنيسة· أعمدك يا ياناكوس باسم الآب ، فكن بطرس الرسول ، خذ الانجيل فأنت تستطيع أن تقرأ الى حد ما ، تدبر فيه صفات بطرس الرســول وأقواله وأفعاله · ان لك رأس خنزير ، لكن قلبك طيب · اقطع علاقتك بالماضى ، واسلك طريقــا جـديدا ، طريق الرب · لا تنقص الميزان ، ولا تغش بضاعتك ، ولا تفض الرسائل لتختلس النظر الى أسرار الناس · هل تسمع ؟ قل « أسمع وأطيع » ·

واندفع ياناكوس يقول وقد تراجع بسرعة نحو الحائط خوفا من أن يستمر هذا القسيس الشيطان فى نشر حيله القذرة على الحاضرين :

ـ « سمعا وطاعا يا أبانا » ·

وأشفق عليه الأب جريجوريس فسـكت · واسـتعاد ياناكوس شجاعته فقـــال :

ـ « يا أبانا ، أسألك مكرمة ، أعتقد أنه يوجد فى الانجيل أيضا حمار . أظن أن المسيح عندما دخل أورشليم يوم أحد السعف ، كان يركب أتانا . نحن نحتاج اذن الى حمار . وأنا أسألك أن يقوم حمارى بهذا الدور » .

وأجاب القسيس وقد انفجر الجميع بالضحك :

ـ « لك ما طلبت يا بطرس ، قبلنا أن يقوم حمارك بهذا الدور » .

ودخل ميشيل فى هذه اللحظة . سمينا بدينا ، متورد الوجه ، يضع خلف أذنه زهرة ، وحول اصبعه خاتم الخطوبة الذهبى وهو يخب فى الجوخ والحرير . وكان خداه ملتهبين . فقد أمسك بيد ماريورى فى المطبخ وتأججت النار فى عروقه .

وقال القسيس وهو يحملق باعتزاز فى صهره المقبل :

ـ « مرحبا بك أيها الولد العزيز ميشيل . اخترناك بالاجماع لتمثل يوحنا ، أحب التلاميذ الى نفس المسيح . ان هذا شرف كبير لك ، وبهجة عظيمة يا صغيرى ميشيل . فأنت الذى تميل على صدر المسيح تواسيه ، وأنت الذى تتبعه حتى اللحظة الأخيرة على الصليب ، بينما انفض عنه كل تلامذته ، وأنت الذى يستودعك المسيح أمه » .

وقال ميشيل فى خجل وسرور :

ـ « ببركتك يا أبانا . أنا معجب بهذا الرسول منذ طفولتى حين كنت أراه فى الأيقونات دائما شابا وسيما حلوا ، فأحببته . شكرا يا أبانا . هل لديك نصيحة لى ؟ » .

ـ « لا يا ميشيل ، فان لك نفسا فى براءة الحمامة ، وقلبا يفيض حبا ، وأنت لن تلحق العار باسم الرسول ، فاليك بركتى » .

ثم قال وهو يتصفح وجوه أهل القرية واحدا بعد آخر بعين طائر جارح :

ـ « الآن يجب أن نعثر على يهوذا الاسخريوطى » .

وارتعد كل منهم وهو يشعر بوقع نظرته الحادة على وجهه . وتمتم كل منهم « ساعدنى يا الهى ، لا أريد أن أكون يهوذا » .

واستقرت عينا القسيس على لحية حمراء ، لحية آكل الجبس . وارتفع صوته وهو يقول :

ـ « بانايوتى • اقترب قليلا • أريد أن أطلب منك خدمة » •

وهز بنايوتى كتفيه الكبيرين ، وعنقه الغليظ ، كالثور حين يهز رأســـه ليفلت من النير • وشعر فى تلك اللحظة برغبـــة فى أن يصرخ « لا ، لا أريد » • لكنه لم يجرؤ على أن يقول ذلك فى حضرة الأعيان • فأجاب وهو يتقدم متثاقلا كالدب :

ـ « تحت أمرك يا أبانا » •

حاول القسيس أن يمهد للموضوع فقال :

ـ « الخدمة التى سنطلبها منك يا بانايوتى شاقة جدا ، ولكنك لن تخذلنا • فان لك قلبا رقيقا رغم مظهرك الفظ الشرس • أنت تشبه حبة اللوز ، قشرة صلبة كالحجر تخفى بداخلها ثمرة اللوز الحلوة •••• هل تسمع ما أقول يا بانايوتى ؟ » •

وأجــــاب :

ـ « أسمع فلست أصم » •

والتهب وجهه المغطى بآثار الجدرى • كان يدرك ما يريدونه منه • ولكن الكلمات المعسولة المنافقة أثارت نفوره •

واستطرد القسيس :

ـ « لا صلب بدون يهــوذا ، ولا قيــام بدون صلب ، ومن ثم يلزم بالضرورة أن يضحى أحد أبناء القرية ليمثل دور يهوذا » •

وقاطعه آكل الجبس بحدة وحسم :

ـ « يهوذا ؟ أنا ؟ مستحيل • لن أكون يهوذا ! »

وشد على قبضته فانكسرت بيضته الحمراء ، وسال صفارها من يده •

وقفز كبير الأعيان يلوح بغليونه مهددا ويصيح :

ـ « هذا آخر الزمان ! لا يمكن أن يركب كل منكم رأسه هنا • هذا مجلس الأعيان وليس مقهى قسطندى • وقد اتخذ الأعيان قرارا فأصبح نهائيا ، وعلى الناس أن يطيعوا • هل تسمع يا آكل الجبس ؟ » •

وأجاب بانايوتى :

ـ « أنا أحترم مجلس الأعيان • ولــــكن لا تطلبوا منى أن أخون المسيح • لن أفعل ذلك أبدا » •

وأرغى العمدة وازبد · وحاول أن يتكلم ولكنه اختنق بالغضب ، وانتهز الكابتن فرصة الضجيج والارتباك فملأ كأس العرقى مرة أخرى ·

وتدخل القسيس وقال وهو يحاول جاهدا أن يكون حديثه بصوت رقيق :

ـ أنت دائما مخالف يابانايوتى · تنظر الى الأشياء من غير زاويتها الصحيحة · أنت لن تخون المسيح ، ولكنك ستتظاهر بأنك تخون المسيح ، وبذلك يمكن أن تصلبه ليقوم بعد ذلك مرة أخرى · أنت بطىء الفهم ، ولكن انتبه جيدا وسوف تفهم · لكى نخلص العالم يجب أن يصلب المسيح ، ولكى يصلب المسيح يجب أن يشى به أحد الناس · هكذا اذن ترى أن وجود يهوذا شىء ضرورى ليتحقق خلاص العالم ، بل أكثر ضرورة من وجود أى رسول آخر · وفى الحقيقة أن عدم وجود واحد من الرسل لا يغير من الأمر شيئا ، ولكن لولا وجود يهوذا لما تحقق شىء ·· يهوذا هو الشخص الثانى فى الأهمية بعد المسيح ·· هل فهمت ؟ » ·

وعاد بانايوتى يكرر وهو يعجن فى يده البيضة المكسورة :

ـ « لا يمكن أن أكون أنا يهوذا · أنت تريدنى أن أكون يهوذا ، وأنا لاأريد · هذا كل ما فى الأمر ! » ·

وقال ناظر المدرسة :

ـ هيا أيها الرجل الطيب بانايوتى · افعل هذا من أجل خاطرنا · كن يهوذا فيصبح اسمك خالدا » ·

وقال الكابتن وهو يمسح شفتيه :

ـ « لاداس العجوز يرجوك أيضا أن تفعل ذلك · وهو يقول انه لن يضغط عليك فى موضوع النقود التى تدين بها له ، بل يقول أيضا أنه سيتنازل لك عن الفوائد » ·

وعوى العجوز البخيل غاضبا :

ـ « لا تتدخل فى شئون الآخرين يا كابتن · أنا لم أقل شيئا من هذا · افعل ما يلهمك به الله يا بانايوتى · وأنا لا أتنازل عن الفوائد لأى أحد » ·

وصمت الجميع · لم تكن تسمع فى هذا الصمت سوى صوت أنفاس بانايوتى المتلاحقة ، يلهث كأنه يتسلق حبلا ·

وقال الكابتن :

ـ لا نريد أن نضيع وقتنا ـ لنترك هذا الشـــيطان التعس يقلب الأمر فى رأسه ويهضمه • فمثل هذا الأمر ليس من اليسير البت فيه دون تدبر • أن تكون يهوذا ليس شيئا هينا • انه يحتاج الى تفكير عميق والى عرقى • أين مانولى اذن حتى ننتهى منه ؟ » •

وقال ياناكوس :

ـ « رأيناه مع لينيو يطارحها بعض كلمات الغزل ، فمن المستحيل انتزاعه منها » •

وقال مانولى وقد احمر وجهه :

ـ « ها أنذا ! تحت أمركم يا عمدة ويا أعيان القرية » •

كان قد انسل الى الحجرة فى هـــدوء فلم يلحظه أحد ووقف فى الركن بعيدا •

وقال القسيس بصوت يقطر حلاوة وعذوبة :

ـ « تعال يا مانولى • تعال أباركك » •

وتقدم مانولى وقبل يد القسيس • كان شابا صغيرا ، أشقر الشعر ، خجولا ، فقير الملبس تفوح منه رائحة السعتر واللبن ، وعيناه الزرقاوان تعبران بوضوح عن البراءة والصفاء •

وقال القسيس بلهجة وقورة :

ـ « فى توزيع الأدوار فزت يا مانولى بالنمرة الرابحـــــة • الرب اختارك أنت لتبعث بجسمك وصوتك ودموعك الآلام المقدسة • أنت الذى ستضع على رأسك اكليل الشوك • وأنت الذى ســـتجلد ، وأنت الذى ستحمل الصليب المقدس وتصلب • يجب اذن ألا تفكر الا فى شىء واحد ابتداء من اليوم حتى الأسبوع المقدس فى العام القادم ـ شىء واحد فقط : كيف تصبح جديرا بأن تحمل هذا الثقل الرهيب ، ثقل الصليب » •

وتمتم مانولى وهو يرتعد :

ـ « لست جديرا بذلك •••• »

ـ « لا يوجد من هو جدير بذلك • لكن الله اصطفاك أنت » •

وعاد مانولى يتمتم :

ـ « لست جديرا بذلك • ان لى خطيئة • سبق لى أن لمست امرأة • فالخطيئة فى نفسى • وبعد أيام سأتزوج •• كيف اذن أستطيع أن أحمل الثقل الرهيب لدور المسيح ؟ » •

وأجاب القسيس بلهجة حادة :

ـ « لا تعارض مشيئة الرب . بالتأكيد أنت لست جديرا ، لكن العناية الالهية تغفر وتصفح وتصطفي . والعناية الالهية اصطفتك أنت فاسكت » .

وسكت مانولى ، لكن قلبه أخذ يدق حتى كاد ينفجر فرحا ورعبا . ومد بصره عبر النافذة . كان الرذاذ قد توقف ، والسهل المنبسط البعيد عاد أخضر نديا شديد الصفاء . ورفع عينيه فأصابته رعدة مفاجئة . شاهد خلال السحب قوس قزح كبيرا في لون الزمرد والياقوت والعسجد ، يمتد ليربط السماء بالأرض . فوضع راحته على صدره وقال :

ـ « لتكن مشيئة الرب ! »

وقال القسيس :

ـ « ليتقدم الرسل الثلاثة . وتقدم أنت يا مانولى ! لا تخف فلن نأكلك . تعالوا أباركم » .

وتقدم الأربعة صفا واحدا يتوسطهم مانولى . ومد القسيس يديه وبسطهما فوق رءوسهم وقال :

ـ « ليبارككم الله ! لتشملكم روح الرب ! لتتفتح قلوبكم حتى لو كانت جذوع شجر ميت كما تتفتق براعم الزهور فى الربيع . ولتحققوا المعجزة التى يراها المؤمنون فى الأسبوع المقدس فيقولون هل هذا هو ياناكوس ؟ هل هذا قسطندى ؟ وهل الآخر ميشيل ؟ لا ، لا ، انهم بطرس ويعقوب ويوحنا . وليأخذهم الرعب حين يرونك يا مانولى تصعد الجلجثة وعلى رأسك اكليل الشوك .. ولتزلزل الأرض مرة أخرى ، ولتظلم الشمس ، ولينشق حجاب الهيكل فى قلوبهم ! ولتفض عيونهم بالدموع فتطهرها ليكتشفوا فجأة أننا جميعا اخوة ، وليقم المسيح من جديد ليس فقط على درج الكنيسة ، لكن فى قلوبنا ! آمين » .

وغرق الرسل الثلاثة ومانولى فى عرق بارد . وارتعدت مفاصل أرجلهم . وأصابهم الخوف كأن على رءوسهم طيراً كاسراً ساكناً يلقى على أرواحهم ظل جناحيه الكبيرين . وبلا شعور امتدت أياديهم تفتش عن بعضها لتتشابك . وتكونت منهم سلسلة متماسكة الحلقات لمواجهة الخطر . أما بانايوتى فقد أغلق قبضته ، ورفض وحده أن يمسك بيد الآخرين ، وظل يحملق فى الباب متلهفا للخروج .

وقال القسيس :

ـ « والآن امضوا الى حال سبيلكم تصحبكم بركة الرب . أمامكم طريق جـــديد ، طريق شاق . اصـــبروا وصابروا وطهروا قلوبـــكم وليعنكم الرب » .

وتراجعوا واحدا اثر الآخر يركعون أمام القسيس ويحيون الأعيان . وانسلوا من الباب في سكون . ثم نهض الأعيان وأخذوا يتمطون .

وقال العمدة :

ـ « شكرا لله . لقد تم كل شيء على ما يرام . لقد أحسنت التصرف يا أبانا » .

ولم يكد الأعيان يجتازون الباب حتى انفجر الكابتن فورتوناس يقهقه ويضرب على فخذيه :

ـ « آه ، اسمعوا ، نسينا أن نبلغهم اسم مريم المجدلية » .

وقال العمدة وهو يزدرد لعابه :

ـ « اطمئن يا كابتن . سأستدعيها الى بيتى وأكلمها .. » ثم أضاف بابتسامة :

ـ « وأنا واثق أننى سأنجح فى اقناعها .. »

وقال القسيس مقطبا :

ـ اذا كان لا بد وأن تزنى بها فافعل ذلك قبل أن تكلمها ، فأنت تعلم أنه بمجرد أن تتحول الأرملة الى مريم المجدلية ستصبح الخطيئـــة معها كبيرة جدا .

وأجاب العمدة وهو يلتقط أنفاسه كما لو كان قد أفلت لتوه من خطر بالغ :

ـ أحسنت صنعا أيها القسيس بافادتى عن هذه المسألة .

***

أخذ الكابتن فورتوناس يهبط المنحدر ويتكىء بثقله على عصاه بعد أن ترك زملاءه . وقال لنفسه :

ـ لتنزل لعنة السماء على رءوسنا جميعا · مثل هـذه الأمور تحتاج يا رجل الى قلب طاهر · لكن قلوبنا نحن مثل أهل سادوم وعامورة · القسيس جوفه يبتلع كل شيء ! افتتح حانوت عقاقير وسـماه «كنيسة» يبيع فيهـا المسـيح بالدانق والدرهم · وهـذا المشـعوذ يزعم انه يشفى كل الأمراض · « ماذا يتعبك ؟ ـ أنا كذبت ـ خذ جراما من المسيح · يكلفك كذا قرشا · وأنت ؟ ـ أنا سرقت ـ لك أربع جرامات من المسيح : تساوى كذا · وأنت ؟ ـ أنا قتلت ـ آه أيها التعس ، داؤك خطير · عليك أن تتناول هذا المساء قبل النوم خمسة عشر جراما من المسيح · سيكلفك هذا كثيرا ، مبلغا وقدره كذا · ألا تجرى لى تخفيضا يا أبانا ؟ ـ لا ، السعر محدد · ادفع والا سيلقى بك فى الدرك الأسفل من الجحيم » · ويظهره على الصور التى يحفظها فى حانوته ، فيرى الجحيم تتصاعد منه ألسنة اللهب ، والزبانية يحملون المناخس المدببة ، ويرتعد الزبون هلعا فيفرغ ما فى جيبه ·· »

« والشيخ بطرياركاس ؟ خنزير يمشى على قدمين · ليس سـوى كرش من رأسه الى أخمص قدميه ، وحتى رأسه لا يوجد بداخله سـوى أمعاء · اذا أخذت كل ما ابتلعه فى حياته ووضعته فى جانب ، ووضعت فى الجانب الآخر كل ما أخرجه من أعلى ومن أسفل ، لوجدت أمامك جبلين هائلين من القاذورات النتنة · وهكذا سيقف أمام الله يوم الحساب بين هذين الجبلين ، واحد عن يمينه والآخر عن يساره » ·

حاجى نيكولا ناظر المدرسة ؟ هـذا البائس الضعيف ليس سـوى نصف انسان ، مسكين ، قبيح الوجه ، رعديد ، يضع على عينيه نظارة حقيرة ومع ذلك يتصور نفسه الاسكندر الأكبر ، يضع على رأسـه خوذة من الورق المقوى ، ويتوج رءوس تلاميذه بمثل هذه الخوذات القديمة · ولكن ما الغريب فى ذلك ؟ أليس ناظر مدرسة ؟ » ·

« لاداس العجوز ؟ بخيل جشع ، القمل يملأ جسـمه ، مجرد من المشاعر ، يموت جوعا وهو جالس فوق مايملك من براميل النبيذ ، وقدور الزيت ، وأجولة الدقيق · فهو الذى قال لزوجتـه عنـدما زاره بعض الضيوف ذات مسـاء : « اذهبى يا امرأة واسلقى لنا بيضة ، فسوف يتناول العشاء الليلة عندنا أربعة من الضيوف » · لا يأكل ولا يشرب يسير دائما حافى القدمين ، عارى الدبر ـ ولماذا ؟ ليموت ثريا ! يا للأسى! ليأخذه الشيطان · »

« وأنا ؟ هل لى أن أعترف ؟ نهاب يأكل حقوق الناس · تستخدم سلقطا اذا أردت أن تلمسنى دون أن تتسخ يداك ! كم تمتلىء حياتى بالشراهة فى الطعام وفي الشراب ، بالسرقات ، بجرائم القتل ، بالخيانات الزوجية ، يا الهى كيف وجدت الوقت لأمارس كل هذه الأفعال القذرة ؟ المجد ليدى وقدمى وفمى وفخذى ! لقد أديتم يا أصدقائى عملكم على خير وجه ، فأنتم تستحقون بركتى » ·

هكذا كان الكابتن فورتوناس يحدث نفسه بينما يدق بعصاه الطريق الحجرى · حتى وصل الى أسفل المنحدر · فخلع قلنسوته وأمسكها بيده يروح بها عن نفسه · ونظر الى الشمس · كان الوقت بعد الظهيرة · وأسرع الخطى : فالأغا دعاه صباح اليوم لتناول العشاء معه سيملأ الاثنان كرشيهما ويسكران · وغمغم قائلا لنفسه :

ــ هيا بسرعة ، الحياة حلوة ، فلننهل منها قدر ما نستطيع ·

ووقف أمام منزل الأغا وبصق · فقد اعتاد أن ينفس عن غضبه بهذه الطريقة ــ كان يخيل اليه أنه انما يبصق على تركيا كلها ، ويتخيل أنه يرفع راية صغيرة جدا من رايات الحرية ، ويتحرر ولو للحظة واحدة ·

بصق مرة أخرى وارتاح صدره ، ثم دق على الباب · وسرى فى لعابه طعم لذيذ : فهو الآن سيأكل ويشرب ما طاب له ذلك · فالأغا رجل طيب سخى ــ واذن فسوف يعقد كل منهما حول رأسه منديلا كبيرا مبللا ليمنع آلام الصداع الشديد ، ويشربان العرقى بعد ذلك فى أقداح كبيرة ·

وترددت فى فناء المنزل قرقعات قبقاب ، وخطوات قصيرة · ثم انفتح الباب · وظهرت خادمة الأغا العجوز مارثا ، وهى امرأة حدباء · استقبلت الكابتن فى ضيق قائلة :

ــ ان كنت تؤمن بالمسيح يا كابتن فلا تشرب الى درجة السكر كما تفعل دائما · لقد ضقت ذرعا ولم أعد أحتمل المزيد ·

وضحك الكابتن وربت بيده على حدبتها وقال :

ــ اطمئنى يا عزيزتى مارثا ، فلن نسكر ، واذا سكرنا فلن نقىء · أما اذا قئنا فسوف تحضرين الطشت حتى لا تتسخ الأرض · أنا أعدك بذلك ·

قال كلمته هذه ودلف الى الداخل بكبرياء وشمم ·

مطاردة الأخوة

سار مانولى والرسل الثلاثة قبيل المساء فى الطريق الى بحيرة فويداماتا الصغيرة ، وهى غير بعيدة عن القرية . وأخذوا يثرثرون بما يسرى عن أنفسهم . كان كل منهم يشعر برعدة خفية تسرى فى جسده كما لو كان قد انتهى لتوه من المناولة .

توقف الرذاذ ، ولمعت الأشجار والحجارة ، وتضوعت الأرض بعطر جميل . وأطلق طائر الوقواق صيحات فرحة ساخرة . وخفت حـــرارة الشمس ، فأخذت تربت على الأرض فى حنان كأنها نبيل عظيم ، ورقت الدنيا وسادها سكون حـــالم . كانت قطرات المطر لا تزال تترقرق على أوراق الشجر . وفى هذا الجو الندى ساعة الأصيل ، كان الوجود يضحك ويبكى معا .

سار الرفاق الاربعة يلفهم الصمت فترة طويلة . ووصلوا الى احدى الممرات المعشبة الرطبة وسط البساتين . كانت أزهار الليمون تلمع فى بياض ناصع بين الأوراق الداكنة الخضرة . والأرض محملة بالزهور الباكية كأن المسيح لم يقم بعد . وسرت ريح دافئة أنعشت العصارة فى الفرَوع الوليدة ، فبعثت الحياة فى كل النباتات .

وبدأ قسطندى الكلام قائلا بصوت خافت :

ـ ما أثقل الحمل الذى ألقاه القسيس على كاهلنا . فليساعدنا الله على أن نحمله حتى النهاية ! هل تذكرون المرة السابقة ؟ قام بدور المسيح

اذ ذاك السـيد خرالامب الرجل ذو الأملاك سليل أسرة كريمة . ومع ذلك بذل أقصى جهده ليقتفى آثار المسيح . كافح طوال العام ليكون أهلا لحمل الصليب حتى انتهى به الأمر الى أن فقد رشده . وفى يوم الجمعة الحزينة وضع على رأسه اكليل الشوك ، وحمل الصليب على كتفه ، ثم ترك الدنيا زاهدا الى دير القديس جورج فى سـوميلا بالقرب من تريبيزون وأصبح راهبا . وحل الخراب بأسرته ، وماتت زوجته ، وهام أولاده فى الطرقات يتسولون .. هل تذكر يا مانولى السيد خرالامب ؟

ظل مانولى صامتا . كان ينصت الى كلمات قسطندى بأذن غـير واعية ، فروحه غارقة فى تأمل عميـق ، وفى حلقة غصة ، فلا يستطيع الكلام . كان هناك شيء يحلم به منذ صباه ، ويتمناه طوال الليالى وهو جالس عند قدمى معلمه الأب ماناس فى الدير ، ينصت الى حكاياته عن حياة القديسين ومعجزاتهم . وفجأة يحقق الرب أمنيته : أن يقتفى آثار الشـهداء والقديسين ، وأن ينسلخ عن جسده ، ويلاقى الموت من أجل ايمانه بيسوع المسيح ، وأن يدخل الفردوس يحمل عدة الشهادة : اكليل الشوك والصليب والمسامير الخمس .

وسأل ميشيل وعلى فمه ابتسامة ساخرة تخفى قلقا غامضا يحاصره فى أعماقه :

ـ هل تعتقدون أننا نحن أيضا سنصاب بلوثة ؟ ألا ترون أننا نتصور أنفسنا رسلا حقا ؟ يا الهى احفظنا !

وأجاب ياناكوس وهو يهز رأسه الذى لوحته الشمس :

ـ من يدرى ؟ فالانسان جهاز دقيق يصيبه الخلل بسهولة . يكفى أن ترفع السدادة فاذا بالحياة .....

توقف الرفاق عند بحيرة فويداماتا . مياه داكنة الخضرة ، وأعشاب كثيفة طويلة ، وبط برى . وحلق طـائران من طيور اللقلق وحوما فوق رءوسهم فى أناة ولا مبالاة . كانت الشمس على وشك المغيب .

وفى غيبة عن العالم حدق كل منهم فى البحيرة التى توارت خلف الظلال دون أن يراها بعين واعية : لقد هامت أرواحهم تطاردها هموم غريبة ولفهم الصمت الى حين . وأخيرا تكلم ياناكوس :

ـ حقا يا قسطندى ان المهمة شاقة وعسيرة للغاية . لقد تمرست على عادات سيئة .. فليغفر لى الله . أم كيف السبيل الى البراءة منهـا ؟ قال

لى : « لا تنقص الميزان ولا تفض رسائل الناس ٠٠ ان أبانا يتوهم أن ذلك أمر هين ٠٠ اذا لم تنقص الميزان فما سبيلك الى الثروة ، وكيف تجعل من نفسك فى يوم من الأيام انسانا ذا شأن ؟ واذا لم تقرأ رسائل الآخرين ٠٠ لا لشيء سوى الاطلاع عليها ، فكيف تسرى عن نفسك ؟ تمرست على هذه العادة بعد أن رحلت عنى زوجتى رحمها الله ٠ لم أكن أقصد من وراء ذلك ايذاء أحد ـ وليحفظنى الله ـ ولكن كم كنت أعانى السأم ٠٠ وتلك كانت تسليتى الوحيدة ، باستثناء حمارى ـ باركه الله ٠ نعم كانت تسليتى الوحيدة ٠٠ أعود الى بيتى بعد تطوافى وأحكم رتاج باب الكوخ ، وأغلى قليلا من الماء ، وأعرض الرسائل للبخار ثم أفضها ٠٠ أقرؤها وأعرف أخبار هذا وذاك ، ثم ألصقها ثانية ، وأطوف بها فى صباح اليوم التالى ٠ ولكن ها أنتذا تسمع ما يقوله القسيس لى ٠٠ ولعلك تعرف يا صديقى أن ليس هينا على الذئب أن يتحول الى حمل وديع ٠٠ غفرانك ربى !

وابتسم ميشيل وهو يتحسس شاربه الأسود ٠ كان راضيا عن نفسه ٠٠ فهو لم يغش ، ولم يقرأ رسائل الآخرين ، حتى أن الأب جريجوريس لم يجد ما يأخذه عليه ،وهو فخور بذلك ٠ وأخرج كيس التبغ وناوله لرفاقه ٠ فلف كل منهم لنفسه سيجارة ، وأشعلها وملأ رئته بدخانها مستشعرا معه بمزيد من الارتياح ٠

لم يطق ميشيل كتمان احساسه بالزهو فقال :

ـ قال لى القسيس اننى لست بحاجة الى أن أغير شيئا من عاداتى : ومن ثم فانني بوضعى هذا لن ألحق عارا بالرسول ٠

ولم يكد ينطق كلماته هذه حتى علت وجهه حمرة الخجل ٠ ولكن هيهات له أن يستردها ثانية ٠

والتفت اليه مانولى وحدجه بنظرة قاسية ٠ وظن أول الأمر أن ليس من حقه أن يلومه على شيء ٠ أليس ميشيل ابن سيده ؟ بيد أنه تذكر أنه من الآن فصاعدا ليس مانولى المعهود ، وانما أصبح شيئا آخر أسمى وأشرف ٠ وواتاه احساس بالجرأة حينذاك ٠ فقال له :

ـ بل الأمر سواء ٠ فمن يدرى يا سيدى اذ ربما وجب على معاليكم أن تغيروا أيضا بعض ما بنفسكم ٠ أن تقلل من الطعام ، وتفكر فى الجوعى من أهل القرية ٠ والا تختال بما ترفل فيه من نعيم زائد ٠٠ صديريات من الجوخ الناعم ، وسترات موشاة ، ونعال جديدة لامعة ٠٠ وتفكر فى

أولئك الذين يرتجفون من زمهرير الشتاء ، لأنهم لا يملكون ما يسترون به أجسادهم .. وربما كان عليكم أن تفتحوا خزائنكم بين الحين والآخر لتتصدقوا منها بالقليل على الفقراء .. فأنت تملك ما يفيض كثيرا عن حاجتك ، ولله الحمد على نعمائه » .

وقال ميشيل فى ارتياع :

ـ وماذا لو ارتاب الشيخ فى أنى أقدم الصدقات ؟

ورد عليه مانولى :

ـ انك لم تعد طفلا ، فقد ناهزت الخامسة والعشرين من عمرك ، وأصبحت رجلا ناضجا . ثم هناك بعد ذلك كله المسيح وله الكلمة العليا . انه الأب الحقيقى وله وحده الأمر من قبل ومن بعد .

وقف ميشيل أمام خادمه حائرا وقد ارتج عليه . فهـــذه أول مرة يتحدث اليه بمثل هذه الجرأة . وقال لنفسه :

ـ أحسب أن رأسه بدأت تدور بعد أن اصطفوه لدور المســيح . سأنبىء أبى بذلك حتى يلزمه حدوده .

وألقى بسيجارته بعيدا فى عصبية ولكنه لم ينبس ببنت شفة .

وقال قسطندى :

ـ يجب أن أشترى الانجيل . هذا ما يشغل فكرى الآن ، فهــو الذى سيهدينا الى الطريق الذى ينبغى أن نسلكه .

ورد عليه ميشيل :

ـ فى بيتنا انجيل لأبى ، وهو انجيل كبير ضخم مثبت على لوح من الخشب ومغلف بغلاف مصنوع من جلد الخنزير . وله دفتان كأنهمـــا بوابة قلعة . وله أيضا قفل ومفتاح ضخم . واذا ما فتحته خلت أنك داخل الى مدينة أثرية . والأمر سهل للغاية ـ اذ يمكن أن نلتقى بمنزلنا كل يوم من أيام الأحد ونقرأ فيه سويا .

وقال مانولى :

ـ يجب أن أحتفظ بانجيل معى أيضا فوق الجبل . فقد كنت أضيق بالوحدة . ومن ثم اعتدت أن أجمع قطعا من الخشب أحفر فيهـــا وأشكل منها أى شىء يطرأ على خاطرى : ملاعق وعصى وصناديق للنشوق وقديسين وماعز .. كان وقتى ضائعا . أما الآن .....

ولاذ بالصمت ، وغرق في تأمل عميق ٠

وقال ياناكوس :

ـ أما أنا ٠٠ فلا ضير أن احتفظت بانجيل صغير ـ فبعد أن أنتهى من تطوافى أنا وحمارى أستظل لفترة تحت شجرة سنار أروح عن نفسى قليلا ، وأقرأ فيه ٠٠ ستقول لى أننى لن أعى منه الكثير ، ولكن لا بأس من ذلك ما دمت سأخرج منه ببعض الفائدة ٠

وتدافعت الكلمات على لسان قسطندى :

ـ أنا أحوجكم اليه ٠ عندما يعلو صوت زوجتى بالصراخ وتثـور ثائرتى فانى ألوذ به ليهدىء من روعى ٠ وهنا سأحدث نفسى قائلا : «صبرا جميلا فليس كل هذا الا بعض ما أقدمه على طريق الشهادة ، وما عساه يكون بالقياس الى آلام المسيح ؟ بل ٠٠ لا تلمنى يا ياناكوس ، هى أختك لكنها لا تطاق أبدا ٠ ذات مرة انقضت على وقد أمسكت بشوكة فى يدها وحاولت أن تفقأ بها عينى ٠ بل انها أول أمس رفعت من فوق النـار القدر الذى كانت تطهو فيه فولا مجروشا وأمسكت به وأخذت تطاردنى وتسد على الطريق ، محاولة أن تضربنى به على رأسى ، حتى قلت لنفسى «أنت اليوم قاتل أو مقتول» ٠ أما الآن فانى سألوذ بالانجيل أطالع فيه ، ولتصرخ هى ما شاء لها الصراخ ٠

ضحك ياناكوس وقال مواسيا :

ـ مسكين أنت يا قسطندى ٠ يعلم الله حقيقة شعورى نحوك ٠ ولكن صبرا : فانما هـو مقدور أن لكل رجل زوجا ، فادفع أنت بالتى هى أحسن ولا تقل شيئا ٠

ـ وأضاف قسطندى :

ـ مشكلتى أننى لا أجيد القراءة ، اذ تتشابه الحروف وتختلط على ٠

قال له مانولى مطمئنا ٠

ـ لا عليك من ذلك ٠ ان هذا أعظم ثوابا ٠ ويكفى أن تقرأ مقطعـا من الكلمة لتفهم المقصود منها ٠ فضلا عن أن الرسل لم يكونوا أهل علم بل ناسا بسطاء مثلنا ، اذ كان أكثرهم صيادين ٠

وسأل ياناكوس فى قلق :

ـ هل كان بطرس الرسول يجيد القراءة ؟

فرد عليه مانولى ·

– لا علم لى ياياناكوس · سنسأل القسيس فى ذلك ·

وتمتم ياناكوس :

– من الأفضل أن تسأله أيضا هل كان بطرس الرسول يبيع مايصطاد من سمك ، أم كان يتصدق به على الفقراء ؟ فأنا على يقين من أنه لم يكن ينقص الميزان ، ولكن هل كان يبيعه ؟ هذا هو السؤال · هل كان يبيع أم يتصدق ؟

وعرض ميشيل اقتراحا خطر له :

– حرى بنا أن نقرأ أيضا حياة القديسين ·

واعترض عليه مانولى بقوله :

– لا ، لا · فنحن أناس بسطاء ، والا فسيلتبس علينا الأمر · اذ اعتدت أن أقرأ عنها حين كنت أعيش مع الرهبان ، ولكننى كدت أن أفقد صوابى ، قفار وليوث وأمراض مروعة وجذام بوجه خاص ·· أبدانهم تغطيها الدمامل ، وتأكل فيها الديدان أو تستحيل الى ما يشبه ذبل السلحاة ·· ثم تقبل الغواية فى شكل امرأة فاتنة ·· لا ، لا ، الانجيل وحده يكفى·

ساروا الهوينى على طول البحيرة وسط عتمة الليل الزاحفة · وكانت هذه أول مرة يدور فيها بينهم مثل هذا الحديث الغريب · فأحس كل منهم وكأن نبع ماء منعش مجدد للحياة قد انبثق داخله يبحث عن مخرج يفيض منه ، ويريد أن يكسر القشرة القديمة الصلبة ليتدفق ماؤه الى السطح ·· وأخذوا يقلبون فى رءوسهم كلمات القسيس جريجوريس التى لم يفهموها جيدا : « لعل الله ينفث فيكم من روحه ·· » ينفث ؟ ترى ماعساها تكون روح الله هذه ؟ أهى نسيم ؟ ·· نسيم يحيى العصارة فى النباتات ، كذلك النسيم الندى الدافىء يهب ساعة الغسق فتخرج البراعم من أكمامها على فروع الشجر ؟ الروح ·· هل يمكن أن تكون مثل هذا النسيم ؟ هل يمكن أن تنفث فى روحنا ؟

وتفكر الرفاق الأربعة وتساءلوا فيما بينهم وبين أنفسهم وحاولوا أن يفهموا · بيد أن أيا منهم لم تطاوعه نفسه أن يسأل جاره ، فضلا عن أنه كان يحس فى سريرته ببهجة فريدة أن يعتصره مثل هذا القلق ·

لذلك فقد ران عليهم صمت طويل يرقبون فى سكون هبوط الليل

ولمع نجم المساء في الأفق البعيد • وعلا نقيق الضفادع عند حافة البحيرة• وعن يسارهم وقف جبل العذراء شامخا غارقا في الظلام تكسوه خضرة يانعة ، وعلى سفحه مربى الأغنام التي يرعاها مانولي لحساب سيده • وعن يمينهم جبل سارا كينا ، قفرا موحشا يتبدل لونه البنفسجي وتغطيه عتمة الليل بلون أزرق ، والكهوف المتناثرة على سفحه تفغر أفواهها السوداء • ولكن كنيسة النبي ايليا تطالعك فوق قمته بيضاء ناصعة البياض ، بعد طلائها أخيرا ، دقيقة كأنها بيضة تعلوه وتحف بها صخور ضخمة •••••

وتحت أقدامهم تمتد أرض طرية ينمو فوقها نبات السمار • وتبرق هنا وهناك بين عيدان النبات دودة سراج الليل يشع ضوؤها في وداعة وأناة ، مفعمة بالحب والأمل •

وقال ميشيل :

ـ أقبل الليل • فهيا بنا نعود الى بيوتنا •

بيد أن ياناكوس الذى كان يسير في المقدمة توقف فجأة ، ووضع يده ، حول أذنه وتسمع • ثمة وقع أقدام بعيدة كأنها مسيرة جمع غفير من الناس ، وهمهمات خافتة ولكنها تملأ سكون الليل كأنها طنين أسراب من النحل ، وبين الحين والآخر تسمع صوتا قويا عميقا تخال أنه يلقى ببعض الأوامر •

وصاح ياناكوس :

ـ أنظروا أنتم أيضا ، أنظروا •• ما هذا الجيش الجرار من النمل الخارج من بطن السهل ؟ يتراءى كأنه موكب طويل •

ودققوا النظر عسى أن يميزوا شيئا في غبش الظلام ، وأرهفوا السمع •

تراءى لهم حشد طويل من الرجال والنساء ، يشق طريقه عدوا وسط حقول القمح وأشجار الكرم • لا ريب في أنهم أبصروا القرية فأسرعوا الخطو نحوها •

وقال ميشيل :

ـ أنصتوا ، ألا تسمعونهم يترنمون ببعض المزامير ؟

ورد عليه مانولي :

— ان صوتهم أشبه بالبكاء ، فاننى أسمع نحيبا ٠

— لا ، لا ، انهم يترنمون ٠ احبس أنفاسك وارهف السمع ٠

وجمدوا فى مكانهم يتسمعون ٠ وأخيرا ترامت الى سمعهم وسط سكون الليل ترنيمة بيزنطه القديمه جلية مظفرة :

« الهى ، الهى ، خلص شعبك ٠٠ »

وصاح مانولى :

— انهم اخوة لنا ، مسيحيون ٠ هيا بنا اليهم ، نرحب بهم ٠

وبدأ الأربعة يسرعون الخطى ٠ كانت طلائع الركب قد بلغت مشارف القرية ٠ وأخذت الكلاب تعدو فى الطريق وهى تنبح فى جنون ٠ وفتحت الأبواب ، وأطلت النساء من فوق عتبات بيوتهن ، وخرج الرجال يركضون والطعام يملأ أفواههم ٠ فقد كانت هذه ساعة العشاء عند أهل ليكوفريس يتربعون فيها أمام الطبالى لتناول طعامهم ٠ ولكنهم هبوا جميعا عند سماعهم ترانيم المزامير والبكاء وجلبة وقع الأقدام ٠ ولحق بهم مانولى والرسل الثلاثة ٠

كان آخر شعاع للشمس لا يزال يلقى بضوئه على بيوت القرية وحواريها ٠ واقترب الركب وظهر عند مقدمته قسيس نحيل ، أسمر الوجه ، عيناه سوداوان ، يشع منهما بريق ، ويعلوهما حاجبان كثيفان ، وله لحية شعثاء مدببة غلب عليها المشيب ، وبين ذراعيه يحتضن انجيلا ضخما له غلاف ثقيل موشى بالفضه ، وهو يرندى البطرشيل ٠ وعن يمينه عملاق له شارب أسود متهدل ، ممسك فى يده علم الكنيسة القديم مرسوما عليه بخيوط من الذهب صورة القديس جورج بقوامه الفارع ٠ ومن خلفهما سار خمسة شيوخ ضامرون يحملون أيقونات ضخمة صفت على استقامة واحدة فلا ترى فيها عوجا ٠ وتبعهم جمع من النساء والرجال يصحبهم أطفالهم فى بكاء ونحيب ٠ أما الرجال فيحملون صررا وأدوات : مجارف وفؤوس ومعاول ومناجل ، وتحمل النساء مهودا للأطفال وصحافا وكراسى ٠

تفرق الجمع فى ميدان القرية ، وتقدم ياناكوس ناحية القسيس وانحنى أمامه وهو يسأله بصوت عال :

— من أنتم أيها المسيحيون ؟ من أين جئتم ؟ وما هى قبلتكم ؟

ورد عليه الشيخ بصوت أجش :

— أين الأب جريجوريس ؟ أين أعيان القرية ؟

والتفت الى أهل القرية وقد تزاحموا حوله في دهشة وقلق وقال لهم :

ـ نحن مسيحيون يا اخوتى فلا تخشوا شيئا ، اننا مسيحيون ويونانيون ، مطرودون من ديارنا • أدعوا رؤساء القرية فانى فى مسيس الحاجة الى التحدث معهم •• دقوا الأجراس •

خرت النسوة الى الأرض من فرط الانهاك • وحطت الرجال أحمالها ، ومسحوا العرق من على جبينهم ، وتطلعوا الى قسيسهم فى صمت •

وقف مانولى قبالة الشيخ الذى حنته السنون وما زال يحمل على ظهره جوالا ينوء تحت ثقله وسأله مانولى :

ـ قل لى يا جدى بحق الله عليك : من أين جئتم ؟

وأجاب الشيخ :

ـ لا تتعجل يا بنى فان الأب فوتيس سينبئكم بالخبر •

ـ ماذا تحمل فى الجوال يا جدى ؟

ـ لاشىء يابنى • أشياء تخصنى •• قالها الشيخ وهو يحط الجوال فى رفق وعناية على الأرض •

ظل القسيس واقفا محتضنا الانجيل بين ذراعيه • وأسرع أحد الفتية ناحية برج الكنيسة وشد اليه حبل الجرس وأخذ يدقه دقات قوية عنيفة• وفزعت بومتان وطارتا من فوق شجرة السنار واختفتا فى الظلام •

خرج الأغا ثملا للغاية ، فتراءى له الميدان غاصا بحشد غريب ليس من رعيته • وبدأ الطنين يملأ أذنيه • وخيل اليه أن ثمة شخصا ما يصرخ أو يبكى ، وربما يغنى ـ انه لايدرى ولا يستطيع أن يتبين شيئا مما يدور حوله • وما هذا الشىء الذى يحدث صريرا كصرير الجحيم ؟ ربما كان •• آه الجرس •

ورجع ثانية وهو يقول :

ـ تعال يا كابتن جرينهورن • أعنى على استجلاء هذا السر الغامض• ما هذا القطيع الذى يملأ الميدان ؟ ما هذا الصرير ؟ وما هـذه الأجراس ؟ هل أنا فى حلم ؟

خرج الكابتن فورتوناس مسرعا الى الشرفة • كان قد لف حول رأسه فوطه بيضاء حتى لا يتصدع • فهذه هى عادته دائما كلما قضى ليلة ينادم

فيها الأغا ويشاركه شراب العرقى ، ظنا منه أن العرقى قد يفتت رأسه ويتناثر الى ألف قطعة · وبين حين وآخر يفك الرباط ويغمسه فى وعاء به ماء بارد ، ثم يلفه ثانية حول رأسه التى تأججت فيها نيران العرقى !

ومال الكابتن فوق حافة الشرفة ، ودقق النظر ، وظن أنه عرف جلية الأمر · ثمة رجال ونساء وعلم حول شجرة السنار ·····

وعاود الأغا سؤاله :

ـ ما هذا يا كابتن جرينهورون · هل تفهم شيئا مما يدور هنالك ؟

ورد عليه الكابتن :

ـ انهم أناس · يبدو لى ذلك · وأنت يا أغا ماذا تظن ؟

ـ يخيل الى أيضا أنهم أناس ·· ولكن من أين جاءوا؟ ماذا يريدون؟ هل أتركهم وشأنهم ؟ أم أركلهم بقدمى وأطردهم ؟ أم أنزل اليهم بسوطى؟ ماذا ترى ؟

ـ لا عليك يا أغا · ما جدوى الصراخ أو النزول اليهم بالسوط ، أو الثورة والغضب ؟ دعهم وشأنهم ولنله نحن قليلا · هل لنا أن نشرب كأسا أخرى ؟

ونادى الأغا :

ـ يوسوفاكى · آتنى يا كنزى الثمين الحشايا والأقداح ودمجانة العرقى · تعال والق نظرة بنفسك يا عزيزى ·· انهم روميون · هل تراهم ؟ يونانيون · لن يمضى وقت طويل حتى يتضاربوا ·

وسأل الأب فوتيس ثانية :

ـ أين الأب جريجوريس ؟ أين الأعيان ؟ أليس هناك مسيحى يذهب اليهم ويستدعيهم ؟

ورد مانولى :

ـ سأذهب أنا · صبرا قليلا يا أبانا · ثم استدار ناحية ميشيل وقال له :

ـ ميشيل ، هل تذهب الى أبيك لتنبئه ؟ قل له ان بعض المسيحيين وفدوا الى القرية · مسيحيون أخرجوا من ديارهم يجثون عند قدميه يستجيرون به · انه عمدة القرية وهذا واجبه · وسأقصد أنا بيت الأب

جريجوريس · أما أنت يا قسطندى فأسرع الى بيت الشيخ لاداس · قل له أن ثمة أناسا من قرية أخرى وفدوا الينا ، يتضورون جوعا ، لذلك فأنهم يبيعون متاعهم مقابل كسرة خبز · قل له هذا دون أن تخرم منه حرفا والا فانه لن يأتى · وأنت ياياناكوس ، شق طريقك الى كوخ الكابتن ، قل له ان ثمة أناسا وفدوا الينا من البحر الاسود بعد أن تحطمت سفينتهم وقصدوا قريتنا لأنهم سمعوا عن اسمه الكثير · وعرج فى طريقك على بيت ناظر المدرسة واستدعه ·قل له انهم يونانيون يعانون الفاقة والعوز ·

وصاح صبى خبيث :

ـ الكابتن يقضى أمسية أنس مع الأغا · ها هو ذا يطل من الشرفة ·· هل تسمعوننى · لقد لف عصابة حول رأسه · ومعنى هذا أن الخمر قد لعبت برأسه ·

وسمعوا وراءهم صوتا طروبا يقول :

ـ عمدة القرية يغط فى نوم عميق ولن يوقظه شىء حتى ولو كان دوى طلقات مدفع ·

وتلفت الجمع وراءه · كانت كاترينا الارملة قد لحقت بهم لاهثة الانفاس · وكاترينا غانية لعوب ، لها شفتان مكتنزتان · تزينت بوشاح جديد محلى بورود حمراء كبيرة فوق أرضية خضراء · وهى متوردة الوجنات كأنما بخديها جمرات متقدة · وأسنانها كلؤلؤ منضود تلمع من أثر غسيلها بأوراق شجر الجوز ·

رمقت كاترينا مانولى بنظرة ماجنة ، وعادت تقول :

ـ انه فى سابع نومة · يهنأ بالسعادة ويغط فى نوم عميق ·

ثم أردفت تقول ضاحكة :

ـ انكم تضيعون وقتكم سدى يا مانولى بايفاد الرسل اليه ·

ونظر اليها مانولى ثم غض طرفه وجلا · وقال لنفسه :

ـ انها امرأة نمرة ·· نمرة تفترس الرجال ·· اليك عنى أيها الشيطان ·

ودنت الأرملة منه وهى تتكلف الابتسام · تضوعت منها رائحة المسك ، وبدت وكأنها وحش مفترس حقا قد استبد به الشبق · وسمعت وراءها صوتا كالخوار ، فاستدارت · رأت بانايوتى يحدجها بنظرات مغيظة

حانقة . لا بد وأنه كان يجرى هو الآخر ، اذ أنه كان يلهث واستحال لون وجهه المجدور الى لون قرمزى .

وقال مانولى فى لهفة :

ـ هيا بنا .. هيا بنا .

وانطلق ثلاثتهم عدوا يشقون طريقهم الى أعلى التل ، واختفوا بين الدروب المظلمة .

وخطا بنايوتى خطوة الى الأمام وهو يتميز من الغيظ ويعض على أسنانه . ثم خطا خطوة أخرى وأصبح الى جانب كاترينا . ومال برأسه على كتفها وقال لها :

ـ ماذا كنت تفعلين هناك عند عمدة القرية يا عاهرة ؟ لماذا ذهبت الى داره .. هه ؟ سآكل لحمك يا فاجرة نيئا .

وقالت الأرملة فى سخرية :

ـ لست مصنوعة من الجبس .

وانسلت بين صفوف الجمع ، واحتمت بالعملاق حامل العلم .

كان القسيس يروح ويجىء بين رعيته ويصيح فيهم قائلا :

ـ تشجعوا يا أطفالى . تشجعوا . سيصل الأعيان توا ، وسيأتى قداسة الأب جريجوريس وسيضعون حدا لما نعانيه من عذاب . لقد أفلتنا بعون الله من براثن الموت . سنغرس جذورا جديدة لنا فى الأرض ، ولن تختفى سلالتنا من الوجود . لا لن تختفى أبدا يا أبنائى لأنها سلالة خالدة .

وحدثت جلبة كأنها طنين فى خلية نحل ، ثم خيم الصمت . وفتحت نساء كثيرات صديرياتهن وأخرجن أثدائهن فألقمنها أطفالهن ليسكتنهم . وحط العملاق علمه وركزه فى الأرض . وأراح الشيخ ذو المائة عام يده المعروقة الجافة على الجوال ، والابتسامة تعلو شفتيه .

وتمتم الشيخ المعمر قائلا :

ـ الحمد لله . هانحن ذا سنضرب بجذورنا فى الأرض من جديد .

ورشم علامة الصليب .

ظل أهل القرية طوال هذا الوقت يفدون كسيل لا ينقطع لاهثى

الأنفاس · وتعبت الكلاب من كثرة النباح، وأخذت تتشمم هؤلاء الوافدين الغرباء · ولا زال الفتى الذى تعلق بالحبل يدق الجرس ليوقظ القرية ·

كان الليل ساجيا · وامتدت صفحة السماء اللانهائية فوق رءوسهم كأنها لوحة نسيجها من المخمل وقد أزينت بنجمين كبيرين · ورفع اللاجئون عيونهم ، وتعلقت أبصارهم بالسماء · وانتظروا ، والثقة تملأ نفوسهم ، وصول الأعيان ليقرروا مصيرهم · وخيم الصمت على الجميع · واللحظة قصيرة تناهى الى سمعهم خرير جدول ينساب ماؤه بين الحصى كترنيمة ترتل ·

وسمع الأغا صوت تدفق الماء فقال :

ـ تعال أيها الكابتن الشيطان · صب لنا الشراب · انه حلم · وهذا الجدول لنا ، ماؤه عذب · املأ لنا الكأس حتى لا نفيق · ولكن كن يقظا ، فاذا ما تقاتل الروميون فأنبئنى بذلك حتى أنزل اليهم بسوطى ·

ـ لا عليك يا أغا ، فكلى عيون يقظة · سأنبئك بأمرهم · وها أنا أرقبهم ·

ـ أدع حسينا وليأت معه بالنفير · ربما أحتاج اليه · وأنت يا يوسوفاكى أشعل لى الغليون · وأشعل الغلام الوسيم الغليون الطويل ذا الجفنة المصنوعة من الكهرمان · وجلس الأغا على حشيته ، يوسوفاكى عن يمينه، ودمجانة العرقى عن يساره ، وهام فى ملكوت أحس معه أنه دخل الفردوس ·

وعاد مانولى مقطوع الأنفاس ، باسطا ذراعيه الى الأمام ، صارخا بأعلى صوته :

ـ أفسحوا الطريق ·· أفسحوا الطريق يا اخوتى · القسيس قادم·

وهب الرجال واقفين · ورفعت النسوة رءوسهن وتنهدن · وتمايل القلم ثم ارتفع سامقا الى جانب الأب فوتيس · وتصدر الشيوخ حاملو الأيقونات صفوف الجمع · ورشم قسيسهم علامة الصليب ·

وانتظر فى مكانه بغير حراك وتمتم قائلا :

ـ أعنا يا الهى ·

ووصل ميشيل أيضا · اقترب من مانولى وهمس فى أذنه قائلا :

ـ انه نائم · يغط فى نوم عميق ومن المستحيل ايقاظه · أفرط فى الشراب كما أفرط فى الأكل · أخذت أهزه فلم يتحرك · ناديته فلم يسمعنى · لذا تركته وقفلت عائدا ·

ثم أتى قسطندى ٠

وقال وقد تملكه الغيظ :

ـ هذا العجوز اللعين ثعلب ماكر حقا ٠ شم رائحة شرك ينصب له فتظاهر بأنه مشغول ، وأن وقته لا يساعده على الحضور ٠ يقول اذا كان هدفكم جمع صدقات فانه لا يملك مليما واحدا يتصدق به ٠ دعهم لا يطرقون بابه فلن يفتح لهم ٠

وفي هذه اللحظة وصل ياناكوس ٠

ـ ألفيت ناظر المدرسة يطالع بعض الكتب ٠ وسيأتى بعد أن يفرغ من قراءته ٠ ويقول أن كل ما يقرره الأب جريجوريس هو عين الصواب ٠ هذا ما قاله لى ٠

وتمتم مانولى فى حسرة :

ـ ها هم أعيان القرية ٠ أحدهم يغط فى نومه ، والثانى ثمل من فرط الشراب ، وثالث يطالع الكتب ، وهذا العجوز البخيل يرقد على دراهمه عسى أن تفرخ ٠ ولكننى أثق فى الأب جريجوريس القادم الينا فى الطريق ٠ فهو ـ انه صوت الرب ٠ وله الكلمة وحده ٠

وندت صرخة حادة من امرأة شابة علا الشحوب وجهها وسقط رأسها فوق صدرها ٠ قضت ثلاثة أيام لم تذق فيها طعاما ٠ انهدت قواها بعد أن كانت تعيش حياة ميسورة ، وها هى تعانى سكرات الموت ٠

تجمعت حولها النسوة يروحن على وجهها

ـ تشجعى يا دسبينيو الصغيرة ، تشجعى ٠ هانحن ذا قد وصلنا الى مكان وفير الخصب ، وقد ذهب أهله ليحضروا لنا طعاما نسترد به قوتنا . تشجعى للحظة قصيرة ليس الا .

ولكنها أمالت رأسها وأسبلت جفنيها ثم غشى عليها ٠

وفجأة تعالت صيحات الفرح ، ودبت حركة وسط الجموع ٠

ـ انه آت . انه آت .

ورفع الأغا جفنين ثقيلتين وتساءل :

ـ هه يا ناعم الجلد ، ماذا هناك ؟

– لا زلت أقول لك يا اغا دع عنك القلق .. أنت فى الفردوس فلا تخرج منه . وأنا أقف عنـد بابه حارسا لا تغمض له عين . سأنبئك بتفاصيل كل شىء . احسبه جريجوريس القسيس وقد خرج على الناس .

وانفجر الأغا ضاحكا :

– وهل هذه العصابة من الوافدين الغرباء معها قسيسها أيضا ؟

– نعم .

قالها الكابتن وهو يملأ الكأس ثانية .

– حسن . سـنرى بعد قليـل ما نتسـلى به . سيتضـارب القسيسان . هؤلاء القساوسة المباركون أشبه بالنسـاء ، شـعورهم طويلة ، واذا التقى اثنان أمسك كل منهما بضفائر الآخر يشدها . أين حسين ؟ لينزل اليهم ويطلب منهم أن يتحدثوا بصوت عال حتى اسمع كلامهم .

وفى هذه الأثناء كان بانايوتى يتعقب الأرملة حتى وصل الى حيث هى بجانب حامل العلم .

ومال بوجهه على أذنيها وهمهم بصوت غاضب :

– سألتهمك الآن . ما الذى أتى بك الى هنـا وسط هـذا الجمع من الرجال ؟ عم تبحثين ؟ ارجعى الى بيتك سريعا . أبعدى عن هـذا المكان وسألحق بك .

وانتفضت الأرملة ، ونظرت اليه فى شراسة وقالت له :

– هل أنت أيضـا ميت الاحساس لا قلب لك ؟ ألا ترى ما يقاسيه أبنـاء المسيح من عذاب ؟ ألا تشعر بشىء من الرثاء نحو هـذا الشعب الذى يقتله الجوع ؟

ولاذت بالصمت لحظة . ثم أدارت له ظهرها . وفجأة أحست أنها عاجزة عن أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك ، فثمة كلمة قاسية تغص بها. واستدارت اليه ثانية وصرخت فى وجهه .

– « يهوذا !؟ »

• قالتها وعلى الفور افلتت هاربة من أمامه لتختفى بين صفوف اللاجئين .

وأحس بانايوتى بالأرض تميد تحت قدميه · شعر بدوار فى رأسه ، وكأن خنجرا استقر فى قلبه · أمسك بسارية العلم حتى يحمى نفسه من السـقوط ، والتوى حول نفسه ، وظل فى مكانه هـكذا فاغرا فاه وتعالت صيحات هنا وهناك :

وتعالت صيحات هنا وهناك

ـ « ها هو .... ها هو ذا الأب جريجوريس · »

واشرأبت الأعناق لتبصره . وقف القسيس جريجويس ممثل الرب فى قرية ليكوفريسى أمام الحشـد الذى يتضـور جوعا · فارع القـامة ، شامخا فى جلال مهيب ، يرتدى بطرشيلا من الساتان البنفسجى الداكن ، يلتف حوله حزام أسود عريض ، ويستقر فوق كرشه صليب فضى ثقيل .

وخر الرجال والنسـاء ركعا ، وتقدم قسيسهم الضامر خطوات ناحية القسيس البـدين ، خادم الرب وراعى الكنيسـة فى القرية ، وفتح ذراعيه ليعانقه ويقبله فوق كتفيه على عادة الرهبان . واذا بالأب جريجوريس ، وقد تجهم وجهه ، يرفع يده البضة اللحيمة يستوقفه فى مكانه · وألقى حوله بنظرة وحشـية ضارية ، ووقع بصره على اناس يرتدون خرقا بالية ، يقتلهم الجوع ، ويلاحقهـم الموت . واشمأزت نفسـه ، وضاق بهم صدره ،وارتفع صوته مدويا :

ـ « من أنتم ؟ لماذا تركتم دياركم ؟ ماذا تريدون منا ؟ »

وارتجفت النسوة عنـد سماعهن صوته ، وهرول الأطفال ليلوذوا بأمهاتهم وتعلقوا بثيـابهن · وعاودت الكلاب النبـاح · وتنبـه الكابتن فى شرفته واصاخ السمع .

وأجاب قسيس اللاجئين فى هدوء وحسم :

ـ «يا أبانا· أنا القسيس فوتيس راعى قرية بعيدة هى قرية القديس جورج . وهذه هى الأرواح التى ائتمننى الرب عليها . أحرق الأتراك قريتنـا ، وأخرجونا من ديارنا ، وقتلوا كل من وصلت اليـه أيديهم ، واستطعنا نحن الهرب ، فرحلنا بقلوب مكلومة اثقلها الحزن . المسيح يتقدمنا ونحن نقتفى أثره . اننا نبحث عن أرض جديدة نتخذها وطنا لنا . هذه هى قصتنا » .

وسكت هنيهة ، وجف اللعاب فى فمه ، كما جفت الكلمات فى حلقه .

ثم أردف يقول :

ـ « اننا مسيحيون ، من سلالة الاغريق ، نسل سلالة عظيمة يجب أن يكتب لها الخلود فلا تفنى أبدا . »

أطل الكابتن من الشرفة والطنين يملأ رأسه ، وأنصت الى صوت القسيس الغاضب ، وهو يتحدث بكلمات حاسمة مفعمة بالكبرياء . وبدأت أبخرة العرقى تتبدد رويدا رويدا ، وهو يفيق بعض الشىء .

وقال لنفسه :

ـ « يا لها من سلالة شيطانية . هكذا هى دائما . عجبا للتعصب ، انها فى كل مكان ذريعة لاستنفار الهمم ! انها كالأخطبوط ، تبتر احدى زوائده فلا تلبث أن تنمو زوائد أخرى غيرها ... ثم سرعان ما تتولد أجيال جديدة ! »

وفك العصابة من حول راسه . كانت رأسه تغلى حتى أن العصابة كان يتصاعد منها البخار . وعلى مقربة منه كان وعاء الماء البارد . فغمس فيه العصابة ثم لفها حول رأسه ثانية وأحس بالانتعاش .

وصاح الأب فوتيس :

ـ لن نبيد أبدا . لقد بقينا على قيد الحياة آلافا من الأعوام ، وسنظل على قيد الحياة آلافا أخرى من الأعوام .... بوركت ساعة لقائنا بك يا أب جريجويس . »

وقال الكابتن فورتوناس لنفسه :

ـ ان هذا القسيس له صفات الكابتن الأصيل . عجبا لهذه الحمية والقوة والجسارة التى يتحلى بها هذا المخلوق . قسما بالبحر انه على صواب فيما يبدولى . فنحن معشر الاغريق جنس خالد حقا . حاولوا جهدهم أن يستأصلوا شأفتنا ، وأن يحرقونا ويقطعوا رقابنا ولكن عبثا فقد ذهبت جهودهم سدى : هيهات لهم أن ننكس العلم . اننا نحمل الأيقونات والصحاف ومهود الأطفال والانجيل ونسرع الخطى . نرحل الى مكان قصى ونضرب خيامنا » .

وطفرت الدموع في عينيه ، ومال بجسده على حافة الشرفة وصاح بأعلى صوته :

— « برافو أيها القسيس الكابتن . برافو أيها الصديق العجوز . »

وارتفعت الرءوس ، وشخصت الأبصار ناحية الشرفة ، ولكن الصيحة ذابت وسط الجلبة التى أثارتها كلمات القسيس . تذكرت النسـوة بيوتهن ، وغمغمن بصرخات مبحـوحة ، وتذكر الأطفال العبز وانخرطوا فى البكاء .

ثم خفتت الجلبة فجأة . فقد رفع القسيس جريجوريس يده الرخصة وبدأ يتكلم .

قال بصوت جهورى :

— ما من شيء يحدث على هذه الأرض الا بمشيئة الله . انه فى سماواته العلى مطلع على كل شيء ،يزن افعالنا ، حسناتنا وسيئاتنا ، ويقدر سبحانه أن تنعم ليكوفريسى بخيراتها ، وان تبتلى قريتكم بالأحزان المفجعات . وهو العليم بكل ما اقترفتم من خطايا .

وسكت هنيهة حتى يستوعب الجمع كلماته الخطيرة . ثم رفع يده ثانية وصاح بنبرة كلها لوم وتأنيب :

— قل الحق أيها القسيس . اعترف بما قدمت يداك حتى حق عليك العذاب من الرب .

ورد عليه الأب فوتيس محاولا أن يكظم غيظه الذى بدا يعتمل فى صدره .

— يا أب جريجوريس . أنا مثلك أيضا خادم لله سبحانه وتعالى . وأدرس مثلك أيضا الكتب المقدسة . وأحمل بين يدى مثلك أيضا كأس القداس ، فيه دم المسيح وجسده . نحن سواء شئت ذلك أم أبيت . ربما تكون غنيا وأنا فقير . ربما تملك حقولا خصبة وفيرة تسوق اليها قطعانك للرعى بينما أنا ، كما ترى ، لا أجد مكانا أتوسده . ومع هذا كله فنحن سواء أمام الله . بل وربما كنت انا أقرب الى الله منك لأننى جائع . واخفض من صوتك ان شئت ان أجيب عليك .

وأصابت الأب جريجوريس غصة . واحس هو الآخر بالغضب يضطرم فى صدره . ولكنه تمالك نفسه . اذ تبين له أنه يتصرف على نحو

خاطىء ، وأدرك أن أهل القرية جميعا يقفون شهودا ، ولا ريب فى أنهم بذلك سيقرون هذا القسيس الشرس المهلهل .

فقال بصوت خفيض :

ـ تكلم ، تكلم يا أبانا · الرب يسمع كلامنا كما يسمعه الناس ايضا ، وكلنا مسيحيون يونانيون . سنبذل كل ما فى طاقتنا ، بل وما هو أكثر ، لننقذ هذه الأرواح المعلقة برقبتك ·

ـ يا أب جريجوريس ، لقد ذاع اسمك وملأ الأسماع هناك فى قريتنا · وها نحن نراك الآن بشحمك ولحمك وننصت لكلماتك · سألتنى كيف حلت النوائب بقريتنا ، وها أنذا أجيب على سؤالك . فاستمع الى يا أب جريجوريس ، واسمعوا أيها الأعيان رغم أنكم ترفعتم عن المجىء الينا لتلتقوا بنا · اسمعوا أنتم جميعا أيها المسيحيون أهل ليكوفريسى ·

كان قلب مانولى يدق فى عنف · والتفت الى رفاقه الثلاثة وهمس اليهم قائلا :

ـ هيا نقترب منه . لنقترب منه حتى نسمع ونرى بوضوح .

وقال قسطندى :

ـ يا مانولى ، انى أرى فيه صورة يعقوب الرسول كما تخيلتها ·

وقال ياناكوس :

ـ وانا أرى فيه بطرس الرسول .

وتدافعت الكلمات على لسان القسيس سريعة عنيفة وكأنه يهرب من الذكرى ، ويخشى أن ينكأ الجروح · وانطلقت كلماته تستثير الذكريات هنا وهناك ، وتقشعر معها الأبدان .

ـ ذات يوم تناهت الى سمعنا أصوات من فوق سطوح بيوت القرية تصيح قائلة « الجيش اليونانى ! الجيش اليونانى ! اننا نرى ملابس أهل الجبل فوق قمم التلال . » وسرعان ما أصدرت أمرى « لتدق الأجراس لحن عيد القيامة . ليتجمع الناس فانى أريد أن أتحدث اليهم · » بيد أن الناس جميعهم تدافعوا ناحية المقابر وشرعوا ينبشون القبور وكل يبكى على أبيه « لقد جاءوا ياأبت ! لقد جاءوا يا أبت · » وأضاءوا مصابيح الزيت عند مفترق الطرق ، وأراقوا الخمر

ليبعثوا الموتى الى الحياة · وبعد أن فرغوا من شئوتهم مع الموتى ، توافد الناس الى الكنيسة . واعتليت المنبر وخطبت فيهم قائلا : « يا اخوتى، يا أطفالى ، أيها المؤمنون جميعا : لقد جاء اليونانيون والتقت السماء بالأرض . أيها الرجال والنساء ، ليحمل كل منكم سلاحه ، وليتعقب الأتراك حتى أبواب الجحيم · »

وهمس ياناكوس فى أذن القسيس :

ـ اخفض من صوتك يا أبانا · لا تتحدث بصوت عال ·· الأغا فى شرفته ينصت لحديثك .

في هذه اللحظة عينها هب الأغا واقفا . كان قد غلبه النعاس ، بيد ان أذنه التقطت بعض كلمات تدعو الى التمرد ·

ـ هه .. انت يا كابتن جرينهورن . ثمة أشياء تحدث لا أقبلها على الاطلاق . التقطت أذنى ..

ـ قلت لك يا أغا لا تعبأ بشيء وخذ الأمور مأخذا سهلا . نم . وها أنا أذنى واعية تتسمع كل شيء ·

ـ حقا يا كابتن ان بى حاجة الى النوم ·· ولكن اذا ألفيت القسيسين يتبادلان الشتائم ويمزق كل منهما شعر الآخر هزنى وأيقظنى ، وسوف انزل اليهما بسوطى لأعيد النظام .

واستدار ناحية يوسوفاكى وقال وهو يغمض جفنيه الثقيلين .

ـ تعال يايوسوفاكى . دلك لى ساقى حتى يغلبنى النعاس .

وخفض الأب فوتيس من صوته :

ـ أخرجنا السلاح من مخبئه . وتطوقت بجراب الخرطوش ، وحملت صليبى ، واستعرضت أهل القرية فى الميدان وقلت لهم : « يا أطفالى ، هيا ننشد معا النشيد الوطنى قبل أن ننطلق فى طريقنا · آه ، ما أبدع الأصوات . كان بعثا حقيقيا للمسيح . لقد اهتزت الأرض حين انشدنا جميعا بصوت واحد النشيد الوطنى ...

ونسى الأب فوتيس نفسه وبدأ ينشد بصوت عال :

« بعثت الحرية من بين عظام الاغريق المقدسة ··· »

وهمس ياناكوس فى اذنه ثانية .

ـ اخفض من صوتك يا أبانا ، لا ترفع صوتك هكذا .

وفي نفس هذه اللحظة ، وكأنما نسمع رجع الصدى · علا صوت في الشرفة يكمل النشيد الوطني اليوناني . كان صوت الكابتن الأجش:

ـ لأكن مغوارا دائما ·· سلاما ، سلاما ، أيتها الحرية ·

وتململ الأغا لحظة كأن برغوثا لدغه ، ثم غلبه النوم ثانية .

وثب كل من في الميدان · شخصوا بأبصارهم ناحية الشرفة ، ولكن الكابتن كان قد جلس ثانية فوق حشيته وعاد يملأ كأسه بالعرقى.

وغمغم وهو ينتحب :

ـ هيا ، في صحة اليونان المقدسة التي ستكون لها السيادة على العالم .

وقال قسطندى :

الكابتن فورتوناس سكران . لقد شعشع كأنه مئذنة فى ليلة من ليالى عيد الأضحى · أسأل الله أن يلهمه الصواب فلا تمتد يده الى مسدس الأغا المعلق بحزامه ويطلقه على رأسه . والا سيكون فى هذا هلاكنا .

وقال ميشيل وقد التهبت مشاعره حماسا :

ـ ليكن ما يكون ، ولنهلك جميعا ، فان هذا القسيس يهزنى من أعماقى ·

وقال مانولى الذى تعلقت عيناه بشفتى القسيس :

ـ اهدأوا يا اخوتى ، اهدأوا دعونا نسمع ما يقول ·

تملك الغضب الأب جريجوريس . وأخذ ينفخ بكل ما أوتى من قوة · وقال لنفسه : هـــذا القسيس المهلهل يحاول أن يبدل عواطفهم ويقلبها رأسا على عقب . ياله من عمل شرير . يجب ان ابحث عن وسيلة أخرجه بها من قريتى ·

وقال وكأنه يدارى موقفه :

ـ تكلم · تكلم يا أبانا · لماذا توقفت عن الكلام ؟ هانحن ننصت لك·

وتنهد الأب فوتيس . وقال بصوت فيه رنة أنين :

— لا ترغمنى يا ابانا على أن أقص ما حدث لنا بعد ذلك . فان صدرى يا أبانا يضم بين جوانحه قلبا وليس قطعة صخر ، وقلبى يكاد ينفطر .

وبدأ يبكى . واختنق صوته .

ومال الكابتن على الشرفة ثانية ومسح عينيه بعصابته المبتلة . وغمغم .

— ليأخذنى الشيطان . لقد عدت طفلا صغيرا .

وقال الأب جريجوريس :

— هذه ارادة الله . والشكوى خطيئة كبرى .

وانفجر الأب فوتيس قائلا بعد أن استعاد صوته :

— لست أشكو ، فأنا لا أخاف . اننا شعب خالد . أنظر لقد عادت السكينة الى قلبى . سأقص عليكم . لقد تمزقت جيوش الاغريق وأرغمت على التراجع . وبقينا نحن . بقينا وعاد الأتراك . وحين اقول عاد الأتراك فان هذه العبارة تغنى عن كل شيء . احرقوا ، ونهبوا، واثخنوا الجراح .. ولم لا ..... انهم أتراك فى نهاية الأمر . وسرت على رأس كل هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة . ها أنت ذا تراهم جاثين أمامك، انهم مسيحيون . عدد من الرجال ، ومثلهم من النساء أو يزيد قليلا ، وعدد غفير من الأطفال .. لقد أنقذنا الأيقونات والانجيل وعلم القديس جورج . حملنا معنا كل ما استطعنا حمله . سرت فى طليعتهم ، وهكذا بدأت مسيرة الخروج ..... مطاردة ومجاعة وأمراض . مضت أشهر ثلاث ونحن نواصل المسير ، ولقى كثيرون حتفهم على قارعة الطريق .. وارايناهم التراب ، وواصلنا المسير ، نحن من بقينا على قيد الحياة . مع المساء نحط الرحال ، وقد أضنانا التعب . كنت أمسك بقلبى بين جوانحى ، أستجمع همتى ، واقف بينهم ، اقرا عليهم الانجيل ، واتحدث اليهم عن الرب واليونان . ومتى مضى الليل نكن قد استعدنا بعض قوانا ، وفى الصباح نبدأ المسيرة من جديد .... ولقد علمنا أن وراء جبل العذراء تقع قرية ليكوفريسي ، وهى قرية خصبة غنية ، أهلها أناس بررة . وقلنا لأنفسنا : انهم مسيحيون ويونانيون . خزائنهم ملأى ، وأراضيهم واسعة ، ولن يسلمونا ليد المنون . وهانحن ذا قد أتينا اليكم . فسلاما عليكم أيها الاخوة المسيحيون أهل ليكوفريسى . وشكرا لله .

ومسح الأب فوتيس حبات العرق التى لمعت فوق حاجبيه ،ورشم علامة الصليب ، وانحنى فوق الانجيل وقبله .

ثم قال وهو يلوح بانجيله الضخم عاليا :

ـ « ليس لنا أمل سواه ، ولا عزاء لنا فى غيره . »

وفاضت العيون بالدموع . واقشعرت أبدان الجمع فزعا . واتكأ مانولى على ذراع باناكوس حتى لا يسقط على الأرض . وحبس ميشيل دموعه ، وأخذ يلوى شاربه فى حركة عصبية . وحتى بانايوتى أغرورقت عيناه بالدموع . الآن فقط أبصر الجميع الدنيا من حولهم بعين كلها حنو وشفافية .. وانخرطت الأرملة أيضـا فى نحيب ، كانت تبكى أبناء المسيح واليونان ، تبكى الرجال والنساء الذين التفوا حولها ، وتبكى نفسها وخطيئتها وعارها..... وهناك فى الشرفة المطلة عليهم أخذ الكابتن فورتوناس يضغط بيده على شفتيه ليحبس نشيجه حتى لا يوقظ الأغا الذى يغط فى نومه ..

اثنان فقط لم يبكيا : القسيسان .. أما احدهما فلأنه عاش كل هذه المآسى وبكاها من قبل . والثانى لأنه غارق فى التفكير ، وقد استبد به الهم ، بحثا عن وسيلة يتخلص بها من هذه العصبة الجائعة وقائدها الشرس العنيد الذى يفسد عليه نفوس رعاياه .

واستطرد الأب فوتيس فى حديثه ، ولكن بنبرة أقل حدة هذه المرة :

ـ وجد بعضنا فسحة من الوقت للذهاب الى المقابر ، وأخرجوا عظام اجدادهم ، وحملوها معهم لنتخذ منها أساسا نبنى عليه قريتنا الجديدة . أنظر الى هـذا الشيخ المعمر الذى بلغ عامه المائة ، لقد حملها على ظهره طوال الشهور الثلاثة .

أحس الأب جريجوريس أن أعصابه لن تحتمل المزيد . وقال :

ـ كل هذا جميل يا أبانا . ولكن ماذا تنتظر منا ؟

وأجاب الأب فوتيس :

ـ أرضا نتخذها مستقرا لنا ، نضرب فيها بجذورنا من جديد . قيل لنا انكم تملكون ارضا بورا ، لاتستفيدون منها بشيء . امنحها لنا ولنقتسم حصيلتها ، نبذرها حبا ، ونحصد غلتها نصنع منها خبزا نطعمه هذا الشعب من الجوعى . هذا هو مانطلبه يا أبانا .

وزمجر الأب جريجوريس كأنه كلب حراسة . ماذا ؟ هل سينتزع

منه هؤلاء المتسولون بعض أملاكه ؟ وتحسس لحيته ، وغرق فى التفكير .
وتعلقت أبصار الرجال والنساء بشفتيه . وخيم صمت ثقيل .

وهب الأغا من نومه قلقا :

ـ لماذا سكتوا ؟ ألم آمرهم بالصياح ؟

وقال الكابتن :

ـ نم يا أغا . نم . لم يبدأ العراك بعد .

ـ ماذا بك . انك تتحدث بصوت متهدج ـ لماذا ؟ هل أنت سكران؟
وتمتم الكابتن وهو يمسح دموعه :

ـ آه ، انه العرقى ، وما أدراك ما العرقى ، انه ليس بماء .. لقد
أخرجنى هذا اللعين عن صوابى .

ضاقت نفس مانولى ولم يعد يطيق صبرا . ولكن أنى له الشجاعة،
وهو الخادم ، ليدفع بنفسه الى مقدمة الحشد ويتكلم أمام القرية
جميعها .

وصاح :

ـ يا أبانا ، أيها القسيس جريجوريس . استمع الى صوتهم .
المسيح جائع . انه يسأل الناس الصدقات .

واستدار الأب جريجوريس ناحيته وقد جن جنونه :

ـ اخرس أنت .

وخيم الصمت ثانية ، وكان لا يزال صمتا ثقيلا . واقترب
قسطندى وياناكوس ووقفا بجوار مانولى كأنما يريدان حمايته . أما
ميشيل فقد استبدت به الحيرة ، وتقدم بخطوات مترددة ناحية مانولى.

وقال له مانولى :

ـ اذهب أنت لتوقظ أباك . عجل ، انه انسان ذو قلب ومروءة ،
ربما يرق لحالهم . ألا ترثى لحالهم ياسيدى ؟

ـ أننى ارثى .. أرثى لحالهم .. بيد اننى اخشى ان اوقظه .

وقال مانولى :

ـ الله أحق أن تخشاه يا ميشيل ، الله وحده وليس البشر .

واحمر وجه ميشيل . كيف جرؤ خادمه على أن يتحدث اليه
بهذه اللهجة ؟ ما صفة هذا الذى يحادثه ؟ ما شأنه هو حتى يصدر

الأوامر ؟ وتجهم وجهه ولكنه لم يبد حراكا ينم عن رغبة في الذهاب ليوقظ أباه ·

الأب جريجوريس لا زال صامتا يتفكر طوال هذه الفترة . يقلب الرأى فيما بينه وبين نفسه ، يفتش في ذهنه عما عساه أن يقول، وما عساه أن يفعل ، ليخرج هذه الذئاب الجائعة من أرضه . واحس أن كلَ من حوله من رعيته بدأوا يتململون ، وهم على وشك ان يفلت زمامهم من بين يديه .. ما العمل ؟ هل يدعو الأغا ؟ ولكن ماذا يقول أهل القرية عنه لو لجأ الى تركى ليحكمه بينه وبين هذا الشعب الذى اخرج من دياره ، لا لشيء الا لأنه حارب الأتراك ؟ هل يستدعى الأعيان ؟ انه لا يثق الا في واحد منهم فقط وهو الشيخ لاداس . أما عمدة القرية ، هذا العجوز المخرف ، فانه سرعان مايطفر الدمع في عينيه · انه سيلبى طلبهم . وثانيهم الكابتن · هذا الشخص القذر المقيت ، فمن المؤكد أنه سيقول نعم ·· اذ ماذا سيخسر هو ؟ ومثلهما ناظر المدرسة ، هذا الثرثار الواهم ، يصع على عينيه نظارة ويحلم بأفكار عظيمة ، ولا يعرف كيف يقسم الشعير بين حمارين ..

وقال القسيس فوتيس وقد بدأ ينفد صبره :

ـ يبدو يا أبانا أن الله يحتاج الى وقت طويل حتى ينير بصيرتك ·

وثارت ثائرة القسيس جريجوريس ، وأراد أن يدفع الحجة بحجة مثلها فقال :

ـ نعم ، انه يحتاج الى وقت طويل ، لأن ثمة أرواحا معلقة برقبتى أنا أيضا ، وأنا مسئول عنها أمام الله يوم الحساب ·

ولكن ... ين قال له :

ـ كلنا راع ، وكل مسئول عن أرواح البشر جميعا · فلا وجه للتمايز يا أبانا بين من هم « رعيتك » ومن هم « رعيتى » · .

وتمنى الأب جريجوريس لو كانا وحدهما اذن لا نقض عليه وأحكم قبضته حول رقبته وقتله خنقا . ولكن ما الحيلة ، والأمر على غير ما يهوى ؟ وكظم غيظه · وعلى أية حال لابد له أن يتكلم ، فليس بوسعه أن يظل صامتا . فالعيون كلها معلقة به . وفتح فمه :

ـ اسمعنى يا ابانا ..

ـ ها أنذا أستمع اليك ·

قالها الأب فوتيس وقد تشبثت يداه بالانجيل الضخم وكأنه

يتمنى لو استطاع ان يرميه به على أم رأسه .

لم يكن الأب جريجوريس قد اهتدى بعد الى ما عساه ان يقول . وحدثت المعجزة التي يتمناها في اللحظة المناسبة . اذ دوت صرخة عاتية سقطت على اثرها دسبينيو ، التي هدها الهزال ، جثة هامدة . وتدافع نحوها رفاق الطريق لانتشالها ولكنهم تراجعوا في فزع : علت وجهها صفرة شاحبة ، وتورمت قدماها ، وانتفخ بطنها كرق مشدود ، وأزرقت شفتاها .

ورفع القسيس جريجوريس يديه الى السماء مبتهلا الى الله ، وصاح بأعلى صوته ، وهو يحاول جاهدا أن يوارى فرحته :

ـ يا ابنائي في هذه اللحظة المروعة تولى الرب بنفسه عنا الاجابة . أنظروا الى تلك المرأة ، اقتربوا منها ودققوا النظر : بطن منتفخ ، وقدمان متورمتان ، ووجه علته الزرقة .. انها الكوليرا .

وتراجع الجمع في فزع .

وصاح الأب جريجوريس مرة ثانية :

ـ انها الكوليرا .. هؤلاء الغرباء وفدوا الى القرية يحملون معهم قصاصا مروعا . الويل لنا ، انا هالكون . حذار ان تأخذكم بهم رأفة . تفكروا في أمر أطفالكم ونسائكم وقريتكم . الأمر هنا لله وحده وليس لي. ثم أشار الى جثة المرأة الملقاة وسط ا[illegible]ان وقال :

ـ سألني القسيس ردا ، وهاكم الرد .

ضم الأب فوتيس الانجيل الى صدره ، [illegible]اه ترتجفان . ووثب ناحية الأب جريجوريس ، وحاول أن يتكلم فلم يستطع : فقد احتبس الكلام في حلقه .

ومن فوقهم نهض الكابتن في الشرفة مترنحا . وغمس عصابته ثانية في الماء البارد ، كان الدم يتدافع حارا الى رأسه . وربط العصابة من جديد ، وافاق لنفسه . كان الماء يترقرق فوق وجنتيه الشاحبتين وذقنه الأمرد وصدره الأجرد الذى دبغه ملح البحر .

وغمغم الكابتن وقد عقد السكر بعض لسانه ، فخرجت الكلمات من فيه متعثرة :

ـ هذا التيس البدين المبطان انتصر على قسيس اللاجئين المسكين. يقول الكوليرا .. آه ما اقبحه هذا العجوز المفترس . ولكن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد .. ابدا . سأنزل اليهم واصرخ فيهم قائلا :

« كاذب كاذب . أنا أيضا واحد من أعيان هذه القرية ولى أيضا الحق فى ان ادير دفة الأمور فيها ، ولى مثله الكلمة وسوف أتحدث اليكم .

ونهض من مكانه ، وسـار مترنحـا يمنة ويسرة حتى بلغ الباب ورفسـه بقدمه وفتحه . ووقف هنيهة عند أول الدرج ، كان كل ما حوله يدور ويتمايل : المصـباح المضىء ، والسـيوف المعلقة على الجـدران ، وحسين الذى تكور حول نفسه وهو نائم ، والبنـادق والطرابيش الحمراء . أحس وكأن البيت كله يميد تحت قدميه . فأمسك بالدرابزين وامتدت ساقه الى الأمام ، وخيل اليه وكأن أجنحة قد ركبت له . وأخذ الدرج يعلو ويهبط كأنه موج البحر . . وارتكز بقدمه على الفراغ ، فسقط على أم راسه وتدحرج فوق الدرج . وصحا الأغا فزعا على صوت الجلبة التى أحدثها سقوطه . وصرخ :

ـ آه يا كابتن من الذى جدع انف الآخر ؟

وبسط ذراعيه وسط الظلام يتحسس ما حواليه داخل الشرفه فلم تقع يده على أحد . وتحامل على نفسه ليقف ، ولكنه سقط ثانية فى مكانه فوق الحشية بجوار يوسوفاكى الذى راح فى سبات عميق واللبانة فى فمه . وتحسس الأغا بقدمه الجسد الدافىء العطر وابتسم .

وقال بصوت حنون :

ـ حبيبى يوسوفاكى ، أنت نائم يا كنزى . . . .

وأسند راسه الى الصدر الفض ، واغمض عينيه ونسى كل شىء وهام فى بحر من السعادة .

وترددت أصداء صوت الأب جريجوريس ، ولكنه هذه المرة صوت هادىء يذوب رقة :

ـ سمعنا منك يا أخى حديثك عن آلامكم ، وانفطرت قلوبنا لما سمعناه . وها انت ذا قد رأيت عيوننا تذرف الدمع سفاحا . وفتحنا لكم ذراعينا لنستقبلكم . وفى نفس هذه اللحظة أشـفق علينا الرب وأرسل الينا تحذيره المروع . انكم يا أخوتى تحملون معكم موتا زؤاما . اذهبوا عنا وليشملكم الرب بعنايته ولا تلحقوا الخراب بقريتنا .

وعلت صيحات التـأوه والأنين بين صفوف اللاجئين عنـد سماعهم لهذه الكلمات . وشرعت النسوة تولول وتلطم الصدور . ونظر الرجال

بعيون زائغة الى قسيسهم . واستبد الفزع بأهل ليكوفريسى ، ونظروا في هلع الى الجثة المسجاة المتصلبة وسدوا انوفهم .

وارتفعت الصيحات من كل جانب :

ـ ارحلوا عنا .. ارحلوا عنا .

وقال شيخ بصوت كأنه النهيق :

ـ أحضروا جيرا وألقوا به على المرأة الموبوءة بالكوليرا حتى لا يفسد الهواء بجراثيمها .

وصاح الأب فوتيس :

ـ لا تخشوا شيئا يا اخوتى . هذا غير صحيح ، لا تصدقوه . اننا لا نحمل وباء وانما نحن جوعى ، هذا كل ما فى الأمر . أقسم لكم أن هذه المرأة أماتها الجوع .

والتفت ناحية الأب جريجوريس وزأر :

ـ أيها القسيس المبطان . أيها القسيس ذو اللحية المزدوجة . أسأل الله العلى القدير ، السميع العليم ، أن يصفح عنك . أما أنا فلا أملك الصفح . أسأل الله أن تقع عاقبة وزرك على رأسك أنت وحدك .

وصاح عجوز من أهل ليكوفريسى :

ـ أستحلفكم بفضل الله ونعمته أن ترحلوا . ان لى أطفالا وأحفادا فلا تكونوا سبب خرابنا .

واستبد الهلع بأهل القرية . وقست قلوبهم فهى كالحجارة . ولوحوا بأيديهم وهم يصرخون :

ـ اذهبوا . اذهبوا .

وضم الأب جريجوريس ذراعيه الى صدره وقال بصوت جهورى :

ـ صوت الشعب من صوت الله . اذهبوا . كان الله معكم .

وصاح الأب فوتيس ثانية :

ـ أسأل الله أن تقع عاقبة وزرك على رأسك أنت وحدك .. انا راحلون . انهضوا يا أطفالى .. تشجعوا . انهم لا يريدوننا ونحن أيضا لا نريدهم . لنواصل مسيرتنا فأرض الله واسعة .

وقفت النسوة وهن يترنحن · ورفعن أحمالهن · ورفع الرجال الصرر والأدوات · وتقدم حامل العلم وتصدر الجمع · وانخرط مانولى فى البكاء · وانحنى ليأخذبيد الشيخ المعمر ، يعينه على النهوض ، ووضع على ظهره جوال العظام · وقال له :

ـ ثق بالله يا جدى ولا تيأس ·· ثق بالله ·

والتفت اليه المعمر بوجه صارم وقال :

ـ بمن غيره نثق فيما تظن ؟ فى الناس ؟ أماً رأيت ما فعلوه الآن ؟ آه ·· أف منهم ·

ولم يكد الجمع يتأهب للرحيل حتى توقف الأب فوتيس فجأة · تطلع الى شعبه ·· هياكل عظمية خائرة القوى · فانقبض قلبه · وصاح قائلا :

ـ اخوتى أهل ليكوفريسى · لو كنت وحدى·· لو كنت مسئولا أمام الله عن نفسى فقط ، ما رضيت لنفسى ذل السؤال فأمد اليكم يدى كشحاذ· لو كنت كذلك لآثرت الموت جوعا · بيد أننى أشفق على النساء والأطفال ، فلم تعد قواهم تعينهم على الوقوف ثانية · سيسقطون جميعا صرعى الجوع فى الطريق·· ومن أجلهم فقط أغض الطرف عن العزة وكرامة النفس ، وأمد اليكم يدى أسألكم صدقة أيها المسيحيون · سنبسط لكم أغطيتنا والقوا فيها بما تجود به نفوسكم ـ كسرة خبز ، أو زجاجة لبن نرضعها الأطفال ، أو حفنة زيتون ·· فاننا جوعى ·

وبسط رجلان بطانية وسارا بها عند أول الركب ·

وقال القسيس وهو يرسم علامة الصليب :

ـ باسم يسوع المسيح نبدأ مسيرتنا ثانية · هيا يا أبنائى · تشجعوا لنتجرع هذه الكأس أيضا · حمدا لله · سنسير بين دروب القرية نطرق الأبواب · آه وا أسفاه ···· ألهذا أتينا ·· سننادى : صدقة · صدقة· تصدقوا علينا ببعض ما يفيض عن حاجتكم ، ببعض ما تلقونه للكلاب عضوا على النواجذ يا أبنائى واكظموا أحزانكم · تشجعوا · الغلبة للمسيح ·

ثم توجه بالحديث الى الأب جريجوريس :

ـ الى لقائنا الثانى يا أب جريجوريس · الى اللقاء يوم الحساب · سنقف جميعا بين يدى الله ، نحن وأنتم ، وسيحكم بيننا ·

كانت الأرملة كاترينا هى أول من اندفعت الى الأمام بين صفوف القوم تقدم صدقتها • فكت وشاحها الجديد ، الوشاح الأخضر المحلى بورود حمراء كبيرة ، ووضعته داخل البطانية • ومدت يدها الى صدرها تبحث عن شىء ، ووجدت مرآة صغيرة وزجاجة عطر ، والقت بهما أيضا فى البطانية وقالت وهى تبكى :

ـ لا أملك غير هذه الأشياء يا أخواتى • لا أملك شيئا آخر • أسألكم الصفح •••••

وتردد قسطندى لحظة ، ثم تذكر أنه أخذ على عاتقه حملا ثقيلا ، أن يقوم بدور رسول ، فهب يعدو ، وفتح حانوته ، وخذ كيس سكر وعلبه بن وزجاجة براندى ، وبعض الأقداح ، وقطعة صابون ، ووضعها جميعا فى البطانية •

وقال : انها تقدمة صغيرة ، ولكنها تكفى تعبيرا عن المودة • كان الله معكم •

وطرقوا الأبواب جميعها بابا بعد آخر • امتدت يد خلسة وعلى عجل، ألقت ببعض الطعام والملابس فى البطانية ، ثم اغلقت الباب بقوة حتى لا تتسرب اليها الكوليرا •

وبلغ القوم بيت الشيخ لاداس ، وطرقوا بابه • ظل الباب موصدا• وانطفأ المصباح الذى كان نوره باديا من النافذة • ولكن ياناكوس ، الذى صاحب القوم هو والرسل الثلاثه ، طرق الباب بقوة وصاح :

ـ يا أب لاداس • انهم مسيحيون • انهم جوعى • كل منا يتصدق عليهم بكسرة خبز ، فتصدق عليهم أنت أيضا •

وسمعوا صوت العجوز لاداس غاضبا ، يقول لهم من داخل البيت :

ـ ما يحتاجه بيتك فهو حرام على الجامع •

وضم ياناكوس قبضتيه وقال متوعدا :

ـ سأصفى حسابى معك يوما ما ياعدو المسيح •

وصاح ميشيل :

ـ هيا بنا يا أصدقائى الى بيت العمدة الشيخ بطرياركاس •

ثم التفت الى رفاقه الثلاثة وقال :

ـ هيا أسرعوا ٠ لننتهز فرصة نومه ، وندخل مخزن المؤن ،ونستولى على كل ما تصل اليه أيدينا ٠

وسأله مانولى ساخرا :

ـ وماذا لو ضاق الشيخ بفعلتنا هذه ؟

ورد عليه ميشيل :

ـ ليس عليه الا أن يشرب بعض النبيذ ، فيذهب عنه الهم ٠ هيا عجلوا ٠

انطلقوا في طريقهم عدوا ، فرحين كأنهم ذاهبون لنهب بلدة معادية٠

فى هذه الأثناء كانت الأرملة فى طريقها الى بيتها ٠ كتفاها ترتجفان اذ كانت مقرورة ، ولكنها كانت تبتسم راضية مبتهجة ٠ تقول لنفسها :

وما قيمة هذا كله ٠ ان امرأة أخرى قد تتدثر بوشاحى فلا تحس بلسعة البرد ٠

وفي هذه اللحظة تردد وراءها صدى صوت أجش ٠ وأحست بأنفاس دافئة حول رقبتها ، ويدان غليظتان تطبقان عليها ٠

ـ يا عاهرة ٠ اشتريت لك هذا الوشاح بدم قلبى ٠٠ ثم تتصدقين به؟ سأخنقك حتى أرديك قتيلة ٠

كان الطريق قفرا ٠ وتملك الأرملة الخوف ٠ وأحست بدوار من أثر الأنفاس التى تفوح منها رائحة النبيذ، وألفت عينين متضرعتين تحدقان فيها وهمست قائلة :

ـ بانايوتى ٠ أنت وحش كاسر ، بيد أنك طيب القلب ٠ ارحمنى فلن أعود الى ذلك ثانية ٠

ـ لماذا ناديتنى يهوذا ٠٠ هه ؟ لقد طعنتنى بخنجر فى قلبى ٠ تسالييننى الرحمة ولم تأخذك الرحمة بى ؟ هل لن تدعنى معك الى البيت هذه الليلة ؟

وخيم صمت مطبق ٠ ثم قال فى ذلة :

ـ ادعنى الى بيتك ٠ ليس لى من عزاء فى هذه الدنيا سواك أنت يا كاترينا ٠

أحست الأرملة برغبة الرجل الدافئة الملحة تحيط بها من كل جانب وهو غارق فى العرق والدموع ٠ وسرت في جسدها رجفة ٠

وقالت بصوت واهن :

ـ تعال ٠

وسارت فى المقدمة وردفاها يترجرجان ٠ واقتفى بانايوتى أثرهـا تحتَ جنح الظلام ، مأخوذا ، لاهثا ، وسار محاذيا للجدار ٠

بلغ حشد اللاجئين بيت عمدة القرية ٠ كان ينتظرهم عند باب الدار أربعة رجال ، يحمل كل منهم سلة كبيرة ملئت عن آخرها ٠

وقال ياناكوس :

ـ يا اخوتى ٠ لن تسع البطانية كل هذا ٠ اذن ليحملها اربعـة من الفتية الأشداء على ظهورهم ٠

وقال ميشيل :

ـ ليحفظكم الله ويرعاكم أيها الرفاق ، ونسألكم الصفح والغفران ٠ وأصفحوا عن الشيخ بطرياركاس كذلك ٠

وردت عليه أصوات الرجال والنساء مفعمة بالفرح :

ـ مغفورة لكم خطاياكم ٠

ولم تكد أيديهم تمتد الى سلة من السلال حتى بدأت أسنانهم تعمل فى نهم ٠

وقال العملاق حامل العلم ، وقد أمسك برغيف كامل :

ـ ماذا نحتاج يا أطفالى لنقهر الموت ؟ ماذا نحتاج ؟ كسرة خبز ليس الا ٠

وقال ميشيل وهو خارج من الفناء :

ـ لا زال الشيخ يغط فى نومه ٠

وقال ياناكوس :

ـ انه يغط فى النوم ويحلم أنه فى الفردوس ٠ تسير أمامه أربع سلال بدلا من الملائكة يفسحون له الطريق ٠

وانفجروا ضاحكين ، فقد خفت أحزانهم ٠

بلغ الرفاق أطراف القرية ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، غلالات حانية زرقاء عطرة الأريج ٠ وسكتت الكلاب الا عن نباح قليل ٠ وأخذوا

طريقهم الى بيوتهم ، نفوسهم راضية اذ أدوا واجبهم · وفجأة طالع جبل ساراكينا الشعب المقهور : موحشا وعرا مليئا بالوهاد ·

وقال مانولى لرفاقه :

ـ لنذهب الى القسيس نحييه تحية الوداع · انه ليس قسيسا بل هو موسى على رأس شعبه المقهور في الصحراء ·

وأسرعوا الخطى ·

امسك مانولى بيد القسيس يقبلها · وقال له :

ـ يا أبانا · أعرف أن قريتنا اقترفت خطيئة فى حقكم · أسالك أن تتشفع لنا عند الله كى يرفع عنا اللعنة التى تثقل كاهلنا ·

وامتدت يد القسيس المعروقة الجافة لتستقر فى حنو فوق الشعر الأشقر :

ـ ما اسمك يا طفلى ؟

ـ مانولى ·

ـ ليس فى نفسى شىء ضد أهل القرية يا مانولى · فهم ناس بسطاء سذج · لا يملكون غير الطاعة لأولى الأمر منهم · وهذا حق · بيد أن ولى الأمر فيهم ، وليغفر الله لى ، ليس الا شيطانا فى مسوح قسيس ·

وسرح بفكره لحظة · ثم أردف يقول :

ـ ان ما قلته الآن قول خطير· انه ليس بشيطان بل فظ قاسي القلب ، وستعلمه النوائب كيف يكون رحيما ·

ثم تطلع الى ميشيل الذى كان يمسك بيده وسأله :

ـ وأنت يافتى ـ قل لى من أنت ؟

ورد عليه مانولى :

ـ هذا ميشيل ابن عمدة القرية ·

ـ قل لأبيك يا فتى ان الله سيذكر له هذه السلال الأربع فى لوحه المحفوظ الذى يسجل فيه أفعال البشر · وسوف يجزيه الله عنها خير الجزاء، فان الله يربى الصدقات ويجزى الحسنة بعشر أمثالها · ان السلال الأربع سيكون له مثلها فى الآخرة أضعافا مضاعفة مثلما كانت الأرغفة الخمسة ·

واقترب ياناكوس وقسطندى بدورهما .

ـ أنا يانوكوس بائع متجول وآثم اقترف الكثير من الكبائر . وهذا قسطندى صاحب المقهى . امنحنا بركاتك يا أبانا .

مسح الأب فوتيس رءوسهم بيده الجافة ومنحهم بركته. وقال لهم :

ـ والآن يا أبنائى عودوا الى بيوتكم . باركتكم الله .

وتطلع القسيس حوله . الليل حالك الظلمة ساج . وأوراق الشجر جامدة بغير حراك . وعلى صفحة السماء جيش جرار من النجوم الساطعة . وفوق رءوسهم يعلو جبل ساراكينا شامخا .

وقال ياناكوس :

ـ هناك كهوف كثيرة يا أبانا . ويروى ، فيما سمعت ، أن المسيحيين الأول سكنوا ذات يوم هذه الكهوف . وفى أحد الكهوف صخرة نقشت عليها صورة العذراء والصليب ، لاتزال آثارها ظاهرة للعيان . لابد وأنهم اتخذوا من هذا الكهف كنيسة لهم .

وأضاف قسطندى :

ـ ويوجد ماء أيضا ، تنساب قطراته من بين الصخر ، صيفا وشتاء . تسمع خريره بعد أن تتسلق الجبل لمسافة قصيرة . ويسكن الجبل كذلك طير الحجل . وتعلو قمة الجبل كنيسة النبى ايليا .

وقال مانولى :

ـ تستطيعون أن تناموا ليلتكم فى المغارات . وبوسعكم أن تشعلوا النار وتعدوا طعامكم فالجبل ملىء بالحطب.واذا لاءمكم المكان فانكم تستطيعون أن تتخذوا منه مستقرا لكم وسكنا الى حين ، تخلدون فيه الى الراحة . ان النبى ايليا ، حامى الجبل ، يحب المقهورين .

ورفع الأب فوتيس بصره يتطلع الى الجبل . وتأمله لفترة طويلة ، بينما الرفاق الأربعة يرقبونه مأخوذين . وطافت برأسه سلسلة من الأفكار ارتسمت على وجهه المتعبد كأنها موجات تروح وتغدو ، وتاهت عيناه فى عماء اللانهاية .

وفجأة ، وكأنه اتخذ لتوه قرارا ، رشم علامة الصليب . وقال :

ـ ان الله هو الذى يتكلم بلسانك يا مانولى . الناس يطاردوننا فى

كل مكان نحل به . اذن لنشارك الوحوش سكنى هذه الكهوف . كان الله في عوننا .

ورفع الانجيل وبارك الجبل . وتمتم قائلا :

ـ أيتها الصخرة الشماء ، يا ابنة الاله القوى القدير . أيتها المياه الجارية أبدا ، تتفجر من بين الصخر لتطفىء ظمأ الطير والجوارح . أيتها النار الكامنة في باطن الشجر تنتظر الانسان حتى يوقظها من مكمنها فتكون له عونا في حياته . بارك الله ساعة لقائنا بكم . نحن بشر يطاردنا اخوة لنا . نفوس فظة قاسية ، وأخرى أثقلتها الأحزان . أيتها الطيور والجوارح نسالكم أن تحسنوا لقاءنا . لقد أتينا الى هنا بعظام الأجداد ، وعدة العمل، وبذرة الانسان . أدعو باسم الرب أن تجد سلالتنا مستقرا بين هذه الصخور القفار .

وتحسس بيديه في عتمة الليل حتى اهتدى الى طريق يسلكه ، ثم استدار ناحية الجمع الذى كان ينتظره في وجوم ، وصاح بهم :

ـ اتبعوني .

ثم قال مخاطبا الصحاب الأربعة :

ـ المسيح قام . اسأل الله يا أبنائي أن ينعم عليكم بالصحة ويشرح صدوركم .

وأجابوا :

ـ بالحقيقة قام .

وتساندوا على بعضهم وهم يرقبون جموع اللاجئين يعتلون الجبل . سار في طليعتهم القسيس ، وحامل العلم ، والشيوخ حملة الأيقونات ، والمعمر حامل جوال العظام . ثم النسوة واحدة وراء الأخرى وهن يحتضن أطفالهن . والرجال من ورائهن في مؤخرة الطابور .

وسرعان ما اختفوا عن الأنظار تحت جنح الظلام .



قديسون ولصوص

أضاءت آلام المسيح وقيامه المجيد حياة اهل القرية اسبوعا كاملا. امتلأت البيوت بكعك عيد القيامة والبيض الأحمر ، وتتوجت الحدائق بالورود ، ونعمت رءوس كبار المزارعين بالراحة ، اذ طردوا عنها الى حين هموم مصالحهم الأنانية النكدة . وهكذا هنئت حياتهم التعسة أسبوعا بالخلاص من نيرها . وها هى اليوم كحيوان ضخم يحرك راسه الثقيل ومنخريه المزبدين ليسلم رقبته لنير العمل اليومى من جديد .

وبانتهاء العيد ، نهض ياناكوس مبكرا فى الصباح ودخل الحظيرة المعتمة التى يسكنها حماره ، احب أصدقائه الى نفسه ، ينام فيها ويحلم . عبقت الحظيرة برائحة الروث والأبخرة العطنة التى تشبه رائحة العالم فى اقدم العصور ، فلا ريب فى أن هذه كانت رائحة العالم أيام الخلق الأولى .

فتح الرفيق الوفي فى دعة عينيه الواسعتين بأهدابهما الطويلة . واستدار ناحية ياناكوس ، وعرف فيه صاحبه : رفيق الطريق والشقاء ، الذى اعتاد أن يضع على ظهره حملا ثقيلا ويطوف به بين القرى ثم يعود به الى هذه الحظيرة الصغيرة حيث يقدم له الماء القراح ليشرب والتبن والشعير ليأكل . ورحب به على طريقته بأن هز له ذيله ونهق بكل قوته فرحا .

اقترب منه ياناكوس وربت على كفله الاسود اللامع ، وبطنه الأبيض

الناعم ، ورقبته الدافئة . وقبض بيد على احدى أذنيه الكبيرتين وأمسك بالأخرى خطم حيوانه الحبيب وبدأ يناجيه :

ـ حبيبى يوسوفاكى (وهـذا هو اسم التدليـل ، سماه به سرا ولا يعرفه الأغا) . انتهت عطلة العيد يا يوسوفاكى الخبيب . المسيح قام ! لقد قضينا اجازة طيبة وليس لك أن تشكو الآنَ . أحضرت لك عليقا مضاعفا . وجمعت لك عشبا طازجا يفتح شهيتك . وقدمت لك هدية عيد القيامة ، طوقا من الحجر الأزرق يقيك شر الحسد ، تضعه حول رقبتك الرشيقة . وعلقت فى الطوق فص ثوم كتعويذة ، حتى تطمئن تماما على جمالك يا يوسوفاكى الحبيب . فالناس نفوسـهم شريرة ، وقد يحسدونك بدافع الغيرة والحقد . ماذا يكون مصيرى بدونك ؟ لا تنسى أننا وحدنا ، نحن الاثنان . ليس لىَ سواك فى هـذا العالم . لم أنجب أطفالا ، وماتت زوجتى لنهمها فى أكل الحمص . وأنت كل ما بقى لى فى هذه الدنيا يا يوسوفاكى .

« واليوم أزف اليك خبرا سيدخل السرور على نفسك . ستمثل القرية فى عيد القيامة القادم آلام المسيح . لابد وأنك سمعت بعض هذا الحـديث . وهم بحاجة الى حمـار . توسلت الى أعيـان القرية أن يسدوا الى صنيعا جميلا بأن تمثل أنت يايوسوفاكى دور هـذا الحمار فى الآلام المقـدسة . سيدخل المسيح أورشليم محمـولا على ظهرك فأى شرف سينالك . المجد لك وللرسول يا بنى . ستمشى فى طليعة الركب حاملا الرب ، ويفرشون لك الأرض بالغار وسعف النخيل ، وسوف تتنزل نعمة الرب على ظهرك ، ويلمع اهابك كانه الحرير » .

« وعندما أموت ، اذا شاءت ارادة الله أن تدخلنى الجنـة ، أنا الآثم المسكين فسأقف عند بابها اقبل يد حارسـها واقول له : « أسألك يا بطرس الرسوم أن تصنع لى معروفا وتدخل حمـارى الجنة . أسألك أن ندخلها معا والا فاننى لن أدخل . » وهنا سينفجر الرسـول ضاحكا ويضربك على كفلك ويقول : « لك ما طلبت ، سأفعل هذا ارضاء لخاطرك ياياناكوس . هات يوسوفاكى اركبه وادخلا معا فان الرب يحب الحمير » .

« وما أدراك بمدى الفرحة التى ستغمرك يا حبيبى يوسوفاكى . انها فرحة خالدة . ستتخفف هناك من هذا الخرج الثقيل ، فلا أحمال ولا سروج ، وتتنزه وسط حقول يغطيها البرسيم الأخضر دائما أبدا ، يعلو بقدر قامتك ويكون فى متناول خطمك فلا تتجشم عناء الانحناء . وفى السماء ستنهق كل صـباح لتوقظ الملائكة ، وسيضحكون لسماعهم

صوتك . وعندما يغيب ضوء النهار تخطر فى مرح بين المروج الخضراء ، حاملا فوق ظهرك اطفالا ملائكيين مختلفة الوانهم بين الأزرق والأحمر والأرجوانى .. مثل حمار رايته ذات مرة فى سوق سميرنا يحمل حملا من زهور الزنبق والليلك ويتضوع بشذى عطر جميل .. » .

« سيأتى هذا اليوم يايوسوفاكى ، انه آت لا ريب فيه فلا تخف . أما الآن يابنى فعلينا أن نعمل حتى نتكسب لقمة العيش. تعال الى لأسرجك، تعال لأضع على ظهرك خرج البضائع . علينا أن نبدأ من جديد جولتنا في القرية نبيع بكرات الخيط والابر والمشابك والأمشاط والبخور والمصوغات وتراجم القديسين . ساعدنى يايوسوفاكى حتى نقوم بعملنا على الوجه الأكمل . نحن رفيقان ، أليس كذلك ؟ وشريكان . فنحن كما تعرف نقتسم فيما بيننا بالعدل والقسطاس كل ما نتكسبه ـ القمح لى ، والعلف لك . وكما قلت لك اذا ما ادينا عملنا على خير وجه سأشترى لك من بانايوتى سرجا طريا حتى لا تتألم ، ولجاما جديدا له شرابة حمراء » .

« هيا بنا الآن . أود أن أقول لك ارسم علامة الصليب . ولكنك لست مسيحيا وانما أنت حمار . لذا تعال مدد جسمك وباعد ما بين ساقيك الخلفيتين وكن على راحتك لأضع حملك على ظهرك . تنفس الصباح وعلينا أن ننطلق يا يوسوفاكى تحرسنا عناية الرب »

وضع ياناكوس الحمل فوق ظهر حماره ، واخذ عصاه ، وبوقا صغيرا ينادى به على زبائنه . فتح الباب ورسم الصليب وخرجا معا الواحد اثر الآخر ، كل منهما يشعر بالانتعاش والبهجة . وبدأ أولى جولاتهما بعد عيد القيامة .

تلألأ ضوء النهار ، يثب من السماء ليفترش السهول ويلف القرية بأسرها . وتبسمت الأحجار والأبواب والنوافذ . وأحس ياناكوس بشهية للأكل فمد يده داخل خرجه وأخذ كسرة كبيرة من الخبز ، وحفنة زيتون ، وبصلة ، وبدأ يأكل فى سعادة .

وقال لنفسه :

ــ ما أجمل العالم رغم كل ما فيه . يا الهى انه جميل مثل الخبز الطيب)

وأبصر باب بيت جارته الأرملة مفتوحا . كانت كاترينا تمسك بدلو

تصب به الماء على عتبة دارها لتغسلها ، وقد فتحت صدرتها ، وشمرت عن ساقيها . كانت ساقاها الممتلئتان فى اكتناز ، الناعمتان الجميلتان عاريتين حتى ركبتيها ، تضىء فيهما لمعة جميلة . وكشفت صدرتها عن ثدييها : طائرين صغيرين يفيضان حيوية ، ويثبان فى خفة استعدادا للهـــرب .

وقال ياناكوس لنفسه :

ـ لقاء سيىء مع باكورة النهار ·

وضرب حماره على كفله يستحثه على الاسراع فى السير · ولكن بصر المرأة وقع عليه فانتصبت واقفة واسندت جسمها الى قائمة الباب، وبدا وجهها نضرا ممتلئا حيوية ونشاطا .

نادته ضاحكة :

ـ سهل الله لك يا ياناكوس · هل تعرف يا جارى أنى معجبة بك ؟ فرغم انك تعيشى وحيدا مثل طائر الوقواق ، الا أنك دائما تمضغ شيئا ، مرتاح البال . كيف يتيسر لك ذلك ؟ أنا لا استطيع أن اكون مثلك ؛ لا استطيع يا جارى المسكين ، فانى أرى احلاما مزعجة ..

وأراد ياناكوس أن يغير موضوع الحديث فسألها :

ـ أى طلبات لك يا كاترينا ؟ مرآة جيب ؟ زجاجة ماء اللافندر ؟ ماذا تريدين ؟ .

وظهرت نعجة الأرملة عند عتبة الباب تثغو فى قلق . حول عنقها شريط احمر ، وضرعها ممتلىء أثقله اللبن .

وتنهدت الأرملة وهى تقول :

ـ تريدنى أن أحلبها · ضرعها ممتلىء وهى تضيق به · آه انها امرأة هى الأخرى هذه المسكينة ..

انحنت ، وربتت عليها فى رقة وهى تقول :

ـ سآتيك حالا ياكنزى . صبرا . يجب أن افرغ اولا من غسل مدخل البيت واتخلص من آثار الأقدام الدنسة » .

دفعت النعجة برفق الى داخل البيت واستدارت ثانية ناحيـــة ياناكوس . عاودت حديثها وهى تتنهد :

— أرى أحلاما مزعجة يا جارى · أنظر ·· فى الليلة الماضية ، عند الفجر ، رايت فيما يرى النائم مانولى · كان يقطع القمر شرائح صغيرة كأنها قطع من التفاح ويقدمها لى لآكلها ···· انت يا ياناكوس طفت ببلاد كثيرة حتى وصلت الى سميرنا كما يقولون ، ولابد وأنك تعرف شيئا عن الأحــلام ·

رد عليها ياناكوس قائلا :

— كفى يا كاترينا · كونى رحيمة ولا تعذبى الناس · أتظنين أننى لم ألمحك بالأمس وأنت تغمزين بعينيــك لمانولى ؟ أتريدين يا فاجـرة أن تلعبى على هــذا الفتى الوديــع ، ألا تشعرين بالشفقة عليه ؟ انه خاطب هذا المســكين فلا تعترضى طريقه · وهل تحســبين أن بانايوتى لن يجهز عليك اذا شم رائحة لذلك ؟ اسلكى طريقا آخر ياكاترينا واركزى قليلا ·· ألم يحدثك الشيخ بطرياركاس عن شيء ؟ الا تعرفين أن الأعيان قرروا اختيارك لتمثلى دور المجدلية فى السر الذى ستمثله القرية فى عيد القيامة المقبل ·

قالت الارملة وهى ترفع صدريتها لتتأكد من أنه رآها وهى تكشف عن صدرها :

— اننى المجدلية فعلا يا ياناكوس العجوز ، أنا المجدلية سواء مثلت دورها أو لا · لا حاجة بى الى الشيخ ليبلغنى الرسالة · آه أف من هذا الآثم العجوز · ليأخذه الشيطان · يقول ذلك لأن شعرى اشقر ··

وقال ياناكوس مقاطعا :

— ليس هذا هو السبب يا كاترينا ·· ليس هذا ·· كيف أوضح لك الأمر اذا كنت أنا نفسى لا أفهمه بوضــوح · اسمعى ، ستقطعين علاقتك ببانايوتى منذ هذه اللحظة وترافقين المسيح · ستتبعينه وحده دون سواه · ستغسلين قدميه القدسيتين بالعطر وتمسحينهما بشعرك ·· هل تفهميننى ؟ ·

— « ولكنه نفس الشيء أيها الأبله · فالناس جميعا ، حتى بانايوتى نفسه ، يمثلون الاله للحظة واحدة · اله حقيقى وليس مجرد كلام ، ثم يعودون بعد ذلك الى ما كانوا عليــه ويصبحون ثانيـــة ياناكوس أو بانايوتى أو عجوزا مخرفا مثل بطرياركاس · أفهمت ؟ » ·

ــ « ليأخذنى الشيطان ان كنت قد فهمت شيئا ياكاترينا ·· انها نهاية العالم كما يقول الشيخ بطرياركاس » ·

ضاقت الأرملة بذلك ، وأمسكت بدلوها ودهقت ماءه بقوة وعنف على عتبة الباب حتى تطاير الرذاذ الى قدمى ياناكوس ، وهز يوسوناكى اذنيه فقد مسهما رذاذ الماء ايضا ·

وقالت كاترينا فى سخرية :

ــ أف ·· لست الا رجلا ، رجلا فقط · أيها المخلوق البائس كيف لك أن تفهم ؟ مع السلامة ····· وأتمنى لك التوفيق فى أعمالك فانت تفهم هذا على الأقل ·

ولكز ياناكوس حماره لكزة خفيفة ، ارتجف لها وركض على اثرها · وجرى صاحبه وراءه يصفر سعيدا لأنه افلت من الأرملة ·

ــ « سأقصد القسيس اولا أسأله طلباته ، فانه يستشيط غضبا ان لم أبدأ به · يقول لى « بيتى أولا ثم الأعيان · أنا ممثل الرب فى ليكو فريسى » · فلنقصد رأس الذئب أولا تجنبا للمشاكل ·

والتفت وراءه · ابصر كاترينا منهمكة فى غسل عتبة الباب، ورداؤها مرفوع عن ساقيها وهى تبدو نصف عارية ·

وتمتم قائلا :

ــ المومس · ما اجمل الساقين اللتين منحهما لها الخالق المبدع ، ما اجمل بطن ساقيها ·· وثدياها · آه منهما انما خلقا لغواية الرجال·. الويل لك يا مانولى لو سقطت بين براثنها ·····

وبينما كان ياناكوس يناجى نفسه وهو سائر فى طريقه أبصر الأب جريجوريس فى ردائه الأرجوانى ، متمنطقا بحزام من القطيفة السوداء ، حاسر الرأس ، حافى القدمين ، يسير جيئة وذهابا فى فناء منزله ، يداعب بأصابعه حبات مسبحة طويلة من الكهرمان الأسود أهداها اليه الأسقف . كان الأب جريجوريس يلهث كالحداد أمام الكير ·

اقبلت ماريورى فى خضوع ووضعت تحت ظل تكعيبة الكرم صينية عليها طعام افطاره : بسكويت وقطعة جبن ــ وهى عادة القسيس كل صباح لفتح شهيته · وبعد ساعة يتناول افطاره اليومى بيضتين نصف مسلوقتين ، وكوبا كبيرا من النبيذ المعتق اختص به صديقه المفضل

ـ هكذا اعتاد ان يسمى كرشه ـ ثم يحمد الله على عدله وفيض نعمائه الذى لا ينتهى ·

بعد ان فرغت ماريورى من خدمته ، ذهبت لتروى زهور الريحان والجيرانيوم والقطيفة . بدت اليوم شاحبة هزيلة · فقد أرقت ليلتها هذه · وظهرت حول عينيها اللوزيتين السوداوين دائرتان زرقاوان من السهاد ، وفى شفتيها صفرة وجفاف · ماتت أمها بداء السل ، وكانت لا تزال فى ريعان شبابها · وكانت ماريورى صورة من أمهـا · يتطلع اليها ابوها من حين الى آخر ويقـــول لنفسه فى حسرة : « يجب ان ازوجها ، يجب ان أعجل بزواجها حتى تنجب لى حفيدا ، ثم ليفعل الله بعد ذلك ما يشاء · ميشيل فتى رقيق ، صلب العود ، قوى البنيان ، سليل أسرة طيبة ، وذو جاه ، الذى سيخلدنى فى ذريتى ويخلف لها القوة والغنى » ·

سقت ماريورى الزهور ، وتأهبت للانصراف ، فازدرد القسيس على عجل آخر لقمة فى فمه وقال لها فى حدة :

ـ انتظرى هنا · الى اين ؟ أريد أن أتحدث اليك ·

لم يستطع أن يكظم غيظه ، ولابد أن ينفس عنه · أسندت ماريورى ظهرها الى الباب ، وعقدت ذراعيها الى صدرها وانتظرت · وأحست برجفة ، فقد أدركت موضوع حديثه ، وعرفت ما سيقوله لها · اذ تركه بانايوتى توا ، ووصل الى سمعها اثناء حديثهما معا بضع كلمات أثارت قلقها · سمعت أباها يقول لآكل الجبس وهو يصحبه الى الباب :

ـ احسنت صنعا ان قلت لى ·· هذا واجبك ·· سأعنفه على ذلك.

غضت ماريورى من طرفها وقالت :

ـ طوع أمرك يا أبت ·

ـ هل سمعت ما قاله لى بانايوتى ؟

ـ لا ، فقد كنت فى المطبخ اعد لك القهوة ·

ـ كان يحدثنى عن خطيبك الهمام ميشيل ·

زفر القسيس زفرة عميقـــة ، ونفرت العروق فى وجهـــه ، وهم يواصل حديثه ···وفى هذه اللحظة سمعا طرقة على الباب · وثبت ماريورى من مكانها وقد أحست بالخلاص · رثى الرب لحالها وازاح عنها الخطر · وانطلقت تعدو لتفتح الباب ·

سأل القسيس فى غضب وهو يتجرع آخر ما بقى من القهوة دفعة واحدة :

ـ من هناك ؟

ـ أنا ياناكوس يا أبانا . المسيح قام . سأبدأ جولتى ، وأتيتك لتشملنى ببركاتك .. واذا كانت لك طلبات أو رسالة ..

قاطعه القسيس ، قائلا :

ـ أدخل واغلق الباب .

وقال ياناكوس فى نفسه :

ـ انه اليوم منحرف المزاج . الشيطان هو الذى بعث بى الى هنا .

وانحنى على يد القسيس يقبلها .

ـ دعك من تقبيل الأيدى الآن أيها الشرير . لنتحدث أولا . سأسألك بعض الأسئلة وعليك أن تجيب . ما هذا الذى سمعته ، هه ؟ يبدو أنه كان لسيادتك يد فيه . بل لعلك اولهم واخطرهم شأنا . لماذا تقف هناك فاغرا فاك ؟ لا احسبك ستتظاهر بأنك لا تعرف شيئا . أتانى شخص ما وأطلعنى على كل شىء من الألف الى الياء . أيها الصعاليك اللصوص منتهكو الحرمات المقدسات .

ـ يا أبانا ..

ـ الأب لن يمد لك يد العون : تسرق ممتلكاتى ، وتنهب بيتى ، ثم بعد أن تفعل كل هذا تستدير لتحاول أن تقبل يدى كأن لم يحدث شىء . أيها المارق . آسف أن اخترتك لتكون بطرس الرسول . يا لص . أهكذا تبدأ حياتك الرسولية ؟

أسقط فى يد ياناكوس ، وأخذ يتمتم :

ـ أنا ؟ .. أنا ؟ ..

ـ أنت ، أنت ومن معك من الطيور البريئة .. صديقاك قسطندى ومانولى . وغررتم بميشيل حمل الرب الوديع . تعرفون أنه ذو قلب نقى وتحينتم الفرصة ، وافرغتم منزله فى السلال .. يا لصوص .. آه يا الهى وقعت فى خطيئة اذ اخترتكم لتكونوا رسلا .....

تجاسر ياناكوس وقاطعه :

ـ ولكنها لم تكن خزائنك يا ابانا ٠

ـ خزائن من ؟ أظنها خزائنكم أنتم ؟؟ يا كوم القمل ٠ انها خزائنى لأن ميشيل سيتزوج ماريورى وسيصبح البيتان بيتا واحدا ٠ اذن فمن خزائنى أخذتم الجبن والخبز والزيت والنبيذ والزيتون والسكر وملأتم بها السلال ٠ لكى توزعوها على من ؟ على حملة الكوليرا !! انه سيبدد كل ما يملك ويجود به على الفقراء والمتمردين ويترك ابنتى معدمة ، كل هذا بسبب أصدقاء رعناء مثلكم ٠

والتفت الى ابنته التى وقفت فزعة جامدة فى مكانها بغير حراك لا تجروء على أن ترفع بصرها ٠ وصرخ فيها قائلا :

ـ هل تسمعين يا ماريورى ؟ هل تسمعين العار الذى لحق ببيتنا ؟ ما العمل وهذه هى حماقات رفيقك الهمام ؟ علينا أن نتروى ونفكر مرتين قبل أن نحسم أمرنا ٠٠

واغرورقت عيناها بدموع حارقة لم تلبث أن انسابت فوق خديها الذابلتين ، ولكن ظل فمها مغلقا ٠

وسألها القسيس ثانية :

ـ ماريورى ٠٠ اتسمعين ؟

واطرقت الصبية برأسها فى ذلة ومسكنة وكأنها تقول :

ـ أسمع وأطيع ٠

وبدأ الحمار الموثوق الى حلقة الباب ينهق ٠ وهنا قفز ياناكوس ٠

ـ « معذرة يا إبانا ٠ يجب أن أنصرف ٠ اذا كان من الخطأ أن نأخذ من الأغنياء ونعطى الفقراء ، اذن فليغفر لنا الرب » ٠

شمخ القسيس براسه وقال بصوت عال :

ـ الرب يتكلم على لسانى أنا ٠ انت لا تملك أن تخاطبه مباشرة ٠ فكلمته سبحانه وتعالى تأتيك من خلالى ٠ أنتم لصوص ، أنت وقسطندى ومانولى ٠ سأدعو أعيان القرية للاجتمــــاع لنبحث معا ما يجب أن نتخذه ٠٠ لم يكد حملة الكوليرا يصلون الى هنا حتى تلوثت قريتنا ٠

ـ بركاتك يا أبانا ٠

قالها ياناكوس واندفع كالسهم ناحية الباب ٠

واستشاط القسيس غضبا حتى احمر وجهه ولم يحر جوابا ٠ واستدار ناحية ابنته وقال :

ـ آتنى بحذائى ومغفرتى وعصاى ٠ سأذهب لأقابل عمدة القرية والأعيان ٠

ودلف الى داخل البيت ٠ والتهم البيضتين على عجل ، بينما جرت ماريورى لتلحق بياناكوس الذى كان يفك رباط حماره ٠ وأسرت اليه بكلمات خاطفة :

ـ من فضلك يايناكوس ٠ اشتر لى شيئا مما يضعه نساء المدينة على وجناتهن ليكسبنها لونا ورديا ٠ آتنى بها سرا ، أما عن الثمن ٠٠

ورد عليها ياناكوس :

ـ لا عليك ياماريورى ٠ أعرف ما تقصدين ٠ سآتيك بشىء منه ٠
وسمع صوت القسيس وهو يصرخ بأعلى صوته :

ـ سنتحدث بما فيه الكفاية عن هذا أيها المتشرد ٠

وصفق ياناكوس الباب وهو يغمغم :

ـ انه الشيطان فى مسوح قسيس ويزعم أنه ممثل الرب ٠ نعم لو كان الرب الرحيم على شاكلته لكان ذلك من سوء طالع البؤساء من بنى البشر ولالتهمنا جميعا أحياء ٠

حك رأسه وكشر عن أنيابه وقال :

ـ انه يقنع حتى الآن بالتهامنا بعد أن توافينا المنية ٠ ولكن ربما تسير الأمور الى ما هو أسوأ ٠

لكز حماره برفق وقال له :

ـ هيا يا يوسوفاكى ، أطلق ساقيك للريح ، يا بنى ٠ اخرنا صاحب الراس الشبيه برأس العجل ٠ هيا ، لا تجزع يا ولدى ٠ فهذا هو حال الدنيا ٠ المهم أنك على صواب ٠ سنذهب الى المقهى لنعرف طلبات الناس هناك ثم ننطلق ٠٠ يقول اننا لصوص .. ليذهب الى الشيطان هذا العجوز الذى ياكل اموال الأنبياء ٠

كانت الحانة غاصة بمن فيها ، تعج بالطنين كأنها خلية نحل هائجة . تجمع فيها كل أهل القرية يعلقون على الأحداث المفجعة التى رأوها البارحة رأى العين — جموع اللاجئين ، القسيس ذو الباس الشديد ومعه انجيله ، المرأة التى سقطت على الأرض جثة هامدة .. الجير الذى غطوا به جثتها حتى لا يتلوث الهواء بوباء الكوليرا .. المعمر وجوال العظام . أثنى البعض على الأب جريجوريس لأنه انقذ القرية من الوباء ، واعترف آخرون صراحة بأنهم يرثون لحال الرجال والنساء الذين يتضورون جوعا . وقال فريق ثالث انهم آنسوا نارا فوق جبل ساراكينا عند منتصف الليل .

ودخل بانايوتى مثل ثور يفتش حوله على الأرض بنظرات جسور ، ثم انتحى ركنا وجلس فيه . ونادى على صاحب المقهى وطلب منه بلهجة فظة :

— « قهوة سادة » .

وقال له قسطندى :

— تبدو اليوم عبوسا يا جارى . اظنك لم تر ليلة أسوأ من هذه فى حياتك . أليس كذلك ؟ .

قطب السروجى جبينه ، وجمع ما بين حاجبيه الكثين ، وأدار ظهره ، وردد ما سبق له أن قاله :

— قهوة سادة .

وفى هذه اللحظة دخل الشيخ بطرياركاس وقد غطى رأسه بقبعته الفخمة ، وأمسك بعصاه الطويلة ، وحيا أهل القرية بيده كمن يتقيهم ، ونهضوا جميعا يردون تحيته ويتمنون له يوما سعيدا . لم يكن قد أفاق من نومه تماما ، اذ كان صوته أجش ، وعيناه منتفختين ، ولسانه ثقيلا ، مما جعله راغبا تماما عن الكلام .

أحضر له قسطندى قهوة (سكر زيادة) ، وطبقا من الحلوى التركية ، وكوب ماء بارد ، وحياه قائلا :

— أسعد الله صباحك :

لم يرد عليه الشيخ تحيته . وازدرد الحلوى دفعة واحدة بعد ان أضاف اليها بعض الماء ، واتبعها بكوب الماء فشربه ، ثم اخرج منديلا

كبيرا دس فيه أنفه وتمخط بصوت عال رن في جنبات القاعة · أحس بعدها براحة وبدأ يحتسى قهوته وهو يصعد زفرات ثقيلة · ارتاح جفناه ، وزايلهما الانتفاخ ، وأفاق قليلا ، واستعاد صوته الطبيعي ؛ ثم أحضرت له النارجيله · فهذه هي عادة الشيخ أن يصحو تدريجيا شيئا فشيئا ·

تلفت حوله وابصر حاجي نيكولا ناظر المدرسة · واستدعاه باشارة من يده · فاقترب منه ناظر المدرسة ونارجليته في يده · تمنى له صباحا طيبا ، وجلس الى مائدة العمدة ·

وسأله الشيخ بطرياركاس :

ـ ما الأخبار يا حضرة الناظر ؟ نمت البارحة نوما ثقيلا وخيل لى أثناء نومى أننى أسمع جلبة عالية ، بيد أننى لم أستيقظ · ومنذ هنيهة وأنا في طريقى الى هنا ، سمعت عرضا حديثا عن قدوم بعض الغرباء الى القرية ، وامرأة أسلمت الروح ، ومشادة بين قسيسين ·· ما كل هذا ؟ انها نهاية العالم · هل لك أن توضح لى جلية الأمر يا صديقى ؟ .

وتنحنح ناظر المدرسة ، وقد أحس بالرضا · مال برأسه على الشيخ وبدأ يتحدث اليه بصوت خفيض وايماءات كثيرة ، فرحا بأنه يقص قصة مروعة جعلته موضع رهبة للحظات قصار · وشد اليه انتباه الشيخ حتى بات ينصت اليه فاغرا فاه ·

كان بانايوتى يرقبهما وهو يعض في عصبية على أطراف شاربه · واخذ يحملق بعينين واسعتين في وجه الشيخ بطرياركاس ذى اللغد الثقيل · وانتظر متوقعا ان يرى الشيخ وقد فقد صوابه ، وتدافع الدم الى راسه ، وامسك بعصاه ، وهرول الى منزله ·

ولكن يا للشيطان · لم يشتعل محياه النبيل بالثورة · وزمجر آكل الجبس وتململ فوق كرسيه كأنه جالس فوق ابر ·· وقال لنفسه : « ان هذا النتن المدعو بناظر المدرسة لن يجرؤ على ان يقص عليه كل شيء خشية أن يثير ثائرته · سأقص انا عليه كل شيء ، لابد من ذلك » ·

ونهض من مجلسه وقد حسم أمره ، ودنا من السيدين وقال :

ـ عن اذنك يا عمدة · احسب أن الأستاذ العلامة لم يقص عليك القصة بحذافيرها فهو لم يجسر على ذلك · أما أنا فلا أخشى شيئا · سأقص عليك القصة كاملة عندما أنفرد بك ، أنا وانت ·

وقال الشيخ :

ـ حاجي نيكولا .. اتركنا لحظة من فضلك ، حتى أرى ماذا يريد السروجي أن يقول لي .

ثم قال موجها الحديث الى بانايوتي :

ـ تكلم وأوجز . لقد حدثني ناظر المدرسة حديثا فارغا .

ورد عليه بانايوتي وقد ساءه هذا الكلام :

ـ أنا لا أطيل في الحديث وأنت تعرف عني ذلك . اليك القصة في كلمتين : غرر مانولي بابنك وسلبه عقله . اخذا معهما قسطندى صاحب المقهى هذه ، وكذلك ياناكوس البائع المتجول ، ودخلوا مخزنك وملأوا اربع سلال وانسلوا بها واعطوها الى حملة الكوليرا . وكنت طوال هذا الوقت تغط في نومك . هذا كل ما اردت أن اقوله لك . وها أنا سأنصرف .

في هذه اللحظة تدافع الدم كالعاصفة الى الرأس الثقيل . تورم جفنا الشيخ ثانية ، وتحشرج صوته ، وصرخ قائلا :

ـ اذهب الى الشيطان ، لقد احرقت كبدي بحديثك معي هذا الصباح .

وألقى بعنف خرطوم النارجيلة وتلفت حوله . غامت عيناه فلم يعد يميز الناس من بعضهم . ودارت القهوة أمام ناظريه كالدوامة . ونهض من مجلسه ، وخطا خطوة الى الأمام ، واتبعها باخرى حتى اهتدى الى الباب وخرج وقد أثقله الحزن وأرتقى المنحدر قاصدا بيته .

وصاح بعض أهل القرية وهم يتنازعهم السرور والقلق :

ـ ما الذي وسوس به لك الشيطان يا بانايوتي وهمست به في أذنه حتى جن جنونه هكذا .. هه ؟ الا تخاف الله ؟ انه رجل مسن ، بدين ، انه سيصاب بالسكتة .

ولكن بانايوتي كان قد خرج من المقهى واختفى عن الأنظار .

وسمع صوت بوق ياناكوس ساخرا مرحا .

وقف ياناكوس وسط الميدان كالديك حين ينفش ريش رقبته وصاح:

ـ يا أهل القرية . سأبدأ جولاتي بين المدن والقرى . ليأتني كل

من له حاجة · كل من لديه رسائل فليحضرها لى . ليتقدم كل من له اقارب أوْ أبناء او اصدقاء أو اعمال في القرى المحيطة · سأتلقى طلباتكم وأرحل ثم أعود اليكم باذن الله يوم الأحد وقد لبيت طلباتكم ·

نهض كثيرون من أهل القرية وقصدوا ياناكوس · وأبلغوه بصوت خفيض كل طلباتهم ووقف ياناكوس متوكئا على حماره يتلقى الطلبات ويسجلها مرتبة فى راسه ·

كان قسطندى آخرهم · أتى اليه بعد أن انفض عنه الناس ، وهمس فى اذنه :

ــ ان كنت لا تبحث عن المشاكل فحـــذار أن تذهب الى الشيخ بطرياركاس لتسأله عن طلباته · هذا الخنزير يهوذا قال له كلاما افقده صوابه ، وانطلق على اثر ذلك الى بيته وهو يهز عصاه فى عصبية · من المؤكد أنه ذاهب ليجلد ابنه ·

وسأله ياناكوس همسا :

ــ من اجل السلال ؟

ــ السلال بالطبع · يبدو أن الأمر سيسوء · ستواجهنا مشاكل ·

ــ « أعرف كل شيء ، فقد سمعت طرفا منه توا · اذ فقد القسيس صوابه أيضا · عنفنى من أجل هذا ····· بيد أننى لا أعبأ بذلك على الاطلاق . كلامهم يدخل من هذه الأذن ويخرج من تلك · لا تهتم ولتنزل عليهم النوائب · لقد أدينا واجبنا » ·

وقال قسطندى وهو يتنهد :

ــ ولا أنا .. عندى ما يكفى من المشاكل فلا خوف على مما يجد منها · آه يا له من يوم لا ينسى · انقضت على أختك تحاول أن تفقأ عينى وأخذت تصرخ فى قائلة :

« أحمق ، مسرف ، قاطع طريق · أعرف عنك كل شيء · خربت الدكان من أجل أولئـــك اللصوص حملة الـكوليرا الذين سقطوا علينا ليسرقونا باســم الكنيسة · نحن جوعى وأطفالك ينحلهم العوز ، وأنت تذهب أيها الآفاق لتتبرع باللبن والسكر والصابون » ·

وقال ياناكوس مأخوذا :

ــ من الشيطان الذى انبأها بذلك فى أول الصباح ؟ ٠

ــ « انه الشيطان الأحمر ، من غيره ؟ تذكر انه ظل يقتفى أثرنا طوال ليلة أمس ٠ وانتهز أول فرصة سنحت له ليقص الأمر على كل من صادفه ــ القسيس وزوجتى وأخيرا الشيخ بطرياركاس ٠ لقد جن جنونه حين اختاروه يهوذا واختارونا رسلا » ٠

أسف ياناكوس لحال صاحب المقهى وما يعانيه من عذاب على يد أخته وقال له :

ــ صبرا يا عزيزى قسطندى ٠ صبرا ٠ تظاهر بالغباء ٠ وفى يوم الأحد عندما أعود سنتحدث فى هذا الموضوع ثانية ٠ الى اللقاء ٠

نخس ياناكوس حماره بطرف عصاه ٠ ومضى صاعدا الدرب حتى اختفى عن العيان ٠

تمتم قسطندى وهو يرقب ياناكوس :

ــ أنت انسان محظوظ ، بل أنت أسعدنا حظا ٠ الدنيا تبتسم لك : لا أطفال ولا زوجة ، لهذا تنعم بالسلام ٠٠٠٠٠

وضرب ياناكوس رفيقه على كفله وتمتم قائلا :

ــ آه يايوسوفاكى ٠ اننا نعيش حياة هانئة ٠ نعيش كأخوين ٠ هل حدث أن تنازعنا فى يوم من الأيام ؟ أبدا والحمد لله ٠ ذلك لأننا رفيقان طيبان ــ أو حماران طيبان ان شئت فالأمر سواء ــ ولا نؤذى أحدا ٠ هيا اتجه يمينا سنغير طريقنا اليوم ٠ الم تسمع ما قاله قسطندى ؟ لن نقصد عمدة القرية اليوم ٠ اتجه رأسا الى العجوز لاداس الذى يعجب بك كثيرا ويسيل لعابه حين يراك ٠٠ تعال لنصعد اليه ونفرغ من هذه المهمة ٠ ثم نخرج بعدها من القرية ، وبذلك نتخلص من الأعيان والقساوسة ، عليهم اللعنة ٠ سنكون وحدنا اخيرا » ٠

اتجه يمينا قاصدا بيت الشيخ البخيل ٠ وحدث نفسه قائلا :

ــ لم يبق لى غير مانولى المسكين أود ان أراه قبل الرحيل لأتحدث اليه عن كاترينا ٠ أود أن أنبهه ليأخذ حذره منها حتى لايقع فى شباكها ٠ أليس هو الذى اختير ليمثل دور المسيح ؟ عليه اذن أن يحذر النساء ٠

* * *

كان الشيخ لا داس جالسا وسط فناء داره ، فوق مقعد من الحجر، مرتديا ثيابا بالية ، حافى القدمين ، معتدل المزاج ٠ وظهرت زوجه

العجوز ، الأم بنيلوب ، وقد احضرت اليه اناء مشروخا به قهوة الصباح المصنوعة من الشعير والحمص • ووضعت فوق المقعد أيضا كسرة خبز من الشعير وطبق فنجان به زيتون • وبينما كان الشيخ لاداس يحتسي قهوته ويتناول طعامه أخذ في الحديث مع زوجه التي جلست قبالته على مقعد حجري واجمة ، غير مكترثة ، تغزل جوريا • كانت امراة قذرة رثة الثياب كزوجها تماما ، حافية القدمين مثله ، لها أنف طويل مدبب بدت معه أشبه بطائر اللقلق الشرس العجوز •

في الأيام الأولى من حياتهما الزوجية ، يوم أن كانت في ريعان شبابها ، اعتادت أن تعارض زوجها وتشتبك معه في مشاحنات عديدة • فهي سليلة عائلة ثرية من الأعيان وكانت تحرص على أناقة مظهرها وتحب البذخ • ولكن رويدا رويدا انثلم حد الموسى ، وسئمت الروح ، وذوى الجسد • وانزلقت الى مهاوي زوجها ، ولم تعد تجديها الشكوى. وألفت وضعه • وبدأت الأم بنيلوب بأن أقلعت عن الكلام وقنعت بالصمت، وبأن تحاول أن تزجره من حين لآخر ، ثم اعتادت أن تكبت في نفسها ولا تنبس ببنت شفة • وبعد أن ماتت ابنتها الوحيدة كفت حتى عن الانصات الى كلمات الأب لاداس التي تتدفق من فمه ، وكفت عن الغضب ، بل كفت عن الاعتراض تماما • أصبحت امراة ميتة ، تمشي وتأكل وتنام ولكنها لا تعيش • واصبح لها من صفات الموتى وقارهم وغبطتهم وخلو بالهم •

جلس الأب لاداس يرتشف عصير الشعير ويرقب زوجته وهي تخيط الجورب واجمة مستسلمة • ثم شرع يحدثها عن مشروع ضخم أرقه طوال الليل حتى انه قضى ليلته واقفا على قدميه • مشروع يملأ به خزائنه بالأقراط والخواتم والقلائد وسبائك الذهب •

- « أعددت المشروع في رأسي وتدبرته من جميع نواحيه يابنيلوب، ولم يبق غير التنفيذ • ولكنني لا أدرى من الذى أأتمنه على السر . ذلك لأنه ليس أمرا هينا ، ويحتاج الى اثنين • والعالم اليوم يا عزيزتي تسوده الكلاب ، والناس أفسدهم النهم ، وأصبحوا جميعا من الحثالة التي تتربص بك الدوائر • ترى من عساه أثق به ؟ حاجي نيكولا •• افاق يحاكي العظماء من أسلافه ، ويكفي أنه ناظر مدرسة ، فماذا تتوقعين منه ؟ بل اننا نشكر الله على انه لا يخرج الى الناس يقذفهم بالحجارة كالمجنون • واذا كنت تفكرين في أخيه الأب جريجوريس فانه انسان متلاف ، ينفق أمواله على الأكل والشراب ، انه داهية شيطان ، ولكنه

لا يفكر الا فى جيبه • وهو لا ينفعنى كما ترين ، ذلك لأننى أريد أن أخرج بنصيب الأسد ... تهزين راسك يا بنيلوب ، أظنك تعنين الشيخ بطرياركاس . يا الهى انه احق بأن يقتل شنقا • انه كرش وليس انسانا . حقا هو من عائلة ثرية ابا عن جد ، ولكنه لم يفعل شيئا فى حياته • العرق ؟ انه لا يعرف له معنى • سمعت قصة تحكى عن نمل كبير يسمى بالنمل الملكى ، يظل مستلقيا ليل نهار ولا يعمل شيئا ، وله جيش من العبيد يطعمه ، واذا لم يطعمه أحد مات جوعا ... وهو مثل هذا النمل . ليبتليه الله بمصيبة هذه الأرضة البدينة . وهو لاينفعنى بدوره • أما عن رابع الأعيان ، كابتن فورتوناس ، فانه ليس بانسان بل زق خمر فى حالة غليان دائم • لذلك فقد قررت البحث عن شريك آخر • ولكن من يكون ؟ الم تفكرى فى احد يا بنيلوب ؟ » .

ولكن بنيلوب التى كان يتحدث اليها لم تسمع من كلامه حرفا ... كانت غائبة عنه مع الجورب الذى تغزله ، تائهة فى غبطة وخدر سماويين. رفعت عينيها لحظة ، عينين كليلتين لا تنمان عن حزن أو سعادة • يخيل اليك كأنها تشخص الى الشيخ لاداس بنظرة ثاقبة تنفذ من جلده وعظامه الى ما وراءه حيث جدار البيت ، والى ما وراء البيت حيث الطريق والقرية والحقول ، ثم تمتد الى ما هو ابعد ، الى جبل ساراكينا والى ما وراء جبل ساراكينا ، بعيدا ، بعيدا جدا ، حيث البحر ، ثم الى ما وراء البحر ، الى شىء لا نهائى راكد أسود يثير الهلع ...... لتستقرا على الجورب . وبدأت من جديد تغزله فى عجل وسرعة متزايدتين لتفرغ منه فى الوقت المحدد •

وفجأة رن صوت بوق ياناكوس • وفى وثبة واحدة كان الشيخ لاداس واقفا على قدميه ، وعيناه الماكرتان تلمعان . وصرخ :

ـ انها العناية الالهية قد أرسلته الى . أليس كذلك يا بنيلوب ؟ تتوفر فيه كل الصفات المطلوبة . حمال وطواف يتنقل بين القرى ، نصف كاذب ونصف لص . ونحن بحاجة الى صغار اللصوص ولا حاجة بنا الى كبار المخادعين ، عميل زهيد الثمن .. هذا هو رجلى . سيحتجز لنفسه نزرا يسيرا وبعدها استحوذ أنا على الثروة كلها دفعة واحدة .

وفرك يديه اليابستين ببعضهما وقد استخفه الفرح • ووقف الحمار عند باب البيت • وهرول الشيخ لاداس ليفتح الباب • وصاح :

ـ تحياتى ياياناكوس . اهلا بك ومرحبا يا صديقى . انها العناية

الالهية قد أرسلتك الى هذه الساعة· تعال· أسرع· اربط حمارك وادخل· لى كلمة معك .

وتساءل ياناكوس فى نفسه :

ـ يا للشيطان ، ماذا يضمر الثعلب العجوز ؟ الحذر ، ياياناكوس .

وعقل حماره ودخل ·

ـ أغلق الباب جيدا . أغلقه بالرتاج حتى لا يسمعنا احد .... عندى أسرار اريد أن ائتمنك عليها · اجلس · حظك من نار · ستكون من أهل الثراء · لن تمد يدك لأحد بعدالآن · لن تكون بحاجة بعد اليوم الى الكد ، تذرع الطرقات كالسائل تحاول بيع بكرات الخيط · · · · سأغرقك فى الذهب . هل تسمعنى يا صديقى ؟ الذهب .

وصرخ ياناكوس فى حيرة وذهول :

ـ لا تصدع راسى المسكين أيها الأب لاداس . وضح . اى ذهب ؟

ـ افتح أذنيك واسمعنى . هؤلاء الناس ـ حملة الطاعون الذين مروا بقريتنا ـ كانت لهم املاك قبل أن يستولى الأتراك عليها . وهم الآن لا يملكون حتى ما يقيم أودهم · حسن ، أنصت لما أقول : الشىء المؤكد انهم أخفوا معهم كل ما كانوا يملكونه من جواهر واقراط وقلائد ، وخواتم الزفاف وسبائك الذهب .... هل فطنت الى اللعبة ياياناكوس؟

ـ ليس بعد ··· ليس بعد ··· فهمى ثقيل · وضح لى الأمر قليلا ·

ـ ان ما اعرضه عليك ياياناكوس عمل يستحق كل اهتمام . انه الهام من لدن الله . فى الليلة الماضية أبصرت نارا فوق جبل ساراكينا . وهذا هو المكان الذى آووا اليه ليعششوا فيه هناك بين الكهوف · حسن ، خذ حمارك واقصد الجبل من فورك · انفخ فى نفيرك وادعهم جميعا رجالا ونساء وأطفالا · سيلتفون حولك · تحدث اليهم قائلا : اخوتى ، انكم تتضورون جوعا ، ألا تأخذكم الشفقة بأطفالكم ؟ لقد فكرت فيكم طويلا يا اخوتى حتى لم يغمض لى جفن طوال الليل ، أقلب الفكر بحثا عما أفعله لخلاصكم · أنار الله بصيرتى وهدانى الى الطريق · آتونى بالجواهر التى حملتموها معكم ، أعطيكم فى مقابلها كل ما يحتاج اليه الانسان لكى يعيش ـ قمحا وشعيرا وزيتا ونبيذا · أنتم تعطونى ما لا يحتاج اليه الانسان ، قليلا من الحلى التى تملكونها يقينا .... واذا عاد ذلك على بالبوار فاننى

لا أعبأ بشيء . أنتم يونانيون ، مسيحيون ، لذلك فان الأمر غير ذى بال ... الآن واضح ما أقول . هل تفهمنى يا غبى ؟ .

وأجاب ياناكوس فى تردد :

ــ بدأت أفهم . . . بدأت . . .

ولم يستطع ياناكوس أن يتبين ان كان الرب أم الشيطان هو الذى وسوس الى لاداس العجوز بهذه الخطة .

ــ انها كما أقول لك الهام من عند الله . ولكن لا تبح بشىء . يجب ألا يشم انسان رائحة هذا الموضوع ... تعال يا صديقى ، فكر ، ستثرى وتسعد ، حتى أنت أيها الشيطان التعس ، انسان مثلك ــ كم يحز فى نفسى أن أراك تذرع الطرقات صيفا وشتاء ... تبلى شبابك ... كم عمرك الآن ؟

ــ خمسون .

قال ياناكوس ذلك وقد أسقط من عمره عامين .

ــ حسن . ها أنت ترى ، زهرة عمر الانسان . لا تضع حياتك هباء ياياناكوس . بوسعك أنت أيضا أن تبنى لنفسك بيتا جميلا كأى انسان يعيش حياته ، وأن تتزوج أى امرأة تروقك فى هذه القرية ، وتنجب أطفالا ــ لا أحسب أن ابنة القسيس تناسبك على الاطلاق ... فضلا عن أنه سيكون بوسعك أن تمد يد المساعدة لأصدقائك . ستصبح الجواد المحسن فى هذه القرية ، يقف لك الناس وينحنون عندما تمر بهم ... حياة جديدة ياياناكوس ، حياة علية القوم ، وليست حياة المتسول . كم من الأعوام نقضيها على ظهر هذه الأرض ؟ فلنحاول على الأقل أن نحيا عمرنا فى راحة وهناء . ألا توافقنى على ذلك ؟ هيا تروى فى أمرك . انى أتحدث اليك بما يعود عليك بالنفع . يجب ألا ندع غيرنا يجنى الخير الذى تحت أقدامنا . ان أخوف من أخافه هو القسيس .

وقال ياناكوس بلهجة من لم يحسم أمره :

ــ اننى اخشى الله . أخشى الله يا أبه لاداس . هل من الصواب أن نسلب اخوة لنا مضطهدين ؟

ــ نحن لا نسلبهم شيئا أيها الأبله ، بل نعيد لهم ما سلب منهم يا غبى . اننا ننقذهم من براثن الموت ... انهم يريدون أن يطعموا ، هذه المخلوقات التعسة تريد الحياة ، انهم اخوة لنا . لى قلب مثلك وانى

لحزين من اجلهم ... اننا نقايضهم ولا نسلبهم ... طبعا نحن ننظر الى مصلحتنا ايضا قدر المستطاع ، اننا نتاجر ولسنا بلهاء . ربح طفيف ، أليس هذا أمرا مقبولا ... تعال اقترب منى ... خذ كسرة خبز .. اليك بعض حبات الزيتون ... كل . سنكون من الآن شريكين وصديقين . لذلك يجب أن نقتسم معا كل شيء ، ونقتسم بالتساوى . لقد ابقيت بعض القهوة ايضا ، اشربها .

ورد ياناكوس :

ـ لست جوعانا . أشعر بدوار . سأجلس هنيهة على المقعد وأهضم ما قلته لى ... انك تفتح أمامى طريقا جديدا أيها الأب لاداس . دعنى أستجمع ذكائى وأفكر مليا فى هذا العمل قبل أن أحسم أمرى .

ـ المشكلة ياصديقى أن ليس لدينا متسع من الوقت ... المسألة ملحة وعاجلة . لماذا الانتظار والتفكير ؟ اذهب من فورك الى ساراكينا ، ولا تضيع الوقت هباء . انى أتوجس خيفة من القسيس كما أقول لك... القسيس هذا الطائر الجارح .

جلس ياناكوس ووضع رأسه بين راحتيه ، وأسند مرفقيه الى ركبتيه ولاذ بالصمت فترة طويلة . كان رأسه يغلى كالقدر ، وصدغاه يختلجان . واختلط الأمر فى رأسه ، وتشابكت الموضوعات . الأقراط التى تحلت بها آلاف الآذان ، والقلائد التى تزينت بها آلاف النحور ، وخواتم الزفاف حول الأصابع ، والعملات الذهبية ... كل هذه ينتزع من أصحابه ليتجمع ويتكدس فى الصندوق الكبير الذى تملؤه فى كوخه الملابس البالية التى كانت تمتلكها زوجه المتوفاة ... وشيئا فشيئا تراءى له بيت كبير يعلو شامخا فى الهواء ... ليس بيتا بل قصرا منيفا ، به حدائق غناء ، وفناء وشرفات وسرر ناعمة ، وامرأة فى ريعان الصبا فاتنة الجمال ، يداعب شعرها ... وانفتح الباب الكبير . وكان صباح يوم الأحد . الشمس ساطعة ، وأعلن جرس الكنيسة بدء القداس ، وخرج ياناكوس فى سروال من الكتان الفاخر ، وفوق رأسه قلنسوة من تلك التى يلبسها الأعيان ، يتوكأ على عصا طويلة من العاج ، يتقدم صوب الكنيسة بخطوات كلها استعلاء ، ويهب القرويون وقوفا عندما يمر بهم ، ويسرفون فى انحناءاتهم تحية له ... ثم رأى ياناكوس نفسه جالسا فى الفناء ، ووقف قسطندى قبالته فى احترام شديد . واذا به يخرج من جيب صدريته كيسا متخما بالعملات الذهبية . تعال يا عزيزى قسطندى ، خذ هذه النقود حتى أرى الابتسامة ترتسم على شفتيك . لقد عشت أياما عصيبة مع هذه القطة

المسماة بشقيقتي . وانك لتستحق ما هو اكثر من ذلك . ثم نادى مانولى تعال أنت أيضا يامانولى · اشتريت لك قطيعا من الأغنام · خذه ولن تكون بعد اليوم خادما لهذا الشيخ القعيد بطرياركاس··· شردت أفكار ياناكوس حيناً هنا وحينا هناك ، وتراءى له برج جرس كنيسة ليكوفريسى وقد علته ساعة كبيرة ، تشبه ساعة كان قد رآها فى سميرتا· ونقشت حول واجهتها الكلمات التالية بحروف كبيرة من الذهب . «هدية من الوجيه ياناكوس بابا نوبلو المحسن الأعظم » . وشردت أفكاره فى طريق آخر ، واختفت الساعة · ولمع فى رأس ياناكوس سرج مطهم مغطى بالقطيفة ، وموشى بالذهب . أمسك به بين ذراعيه ودخل الحظيرة وهو يصيح : يوسوفاكى. اشتريت لك السرج الذى وعدتك به · أنظر ، ليس له نظير عند الملوك جميعا · انتهت أيام الشقاء · لن تفعل شيئا بعد الآن ياصغيرى يوسوفاكى سوى أن تأكل وتشرب . تخرج كل أحد بعد القداس تخطر فى الميدان مختالا بسرجك الجديد تستعرض نفسك أيضا ، يا امام الحمير . سيتراجع الناس أمامك اجلالا ، يحيونك كأنك انسان ·

وقهقه ياناكوس عاليا ، وهز رأسا تضخم كالقرع ، وبدا كأنه يصحو من نومه · ونظر الى المرأة العجوز فرأى اناملها تحوك دون توقف غارقة فى غبطتها · ورأى الأب لاداس منتظرا وعيناه مثبتتان عليه ·

وقال :

– مناصفة يا أب لاداس · هل توافق ؟ » ومد له الأب لاداس يده الطويلة كأنها المخلب :

– يدك ياياناكوس · موافق · مناصفة · هذا هو الشيء المعقول · فى المساء تأتينى بحصاد يومك من الجواهر وأعطيك أنا القمح والزيت والنبيذ حسب اتفاقك معهم· ثم نصفى حسابنا معا بعد أن نكون قد انتزعنا كل ما يمكن انتزاعه . وكل ما عليك ان تفعله هو أن تسجل فى كراستك ما أخذته وما أعطيته ، حتى يكون كل شيء واضحا لك ، ولا تظن أننى سأبخسك حقك · وحتى تطمئن الى ثقتى بك سأعطيك مقدما ثلاثة جنيهات تركية ذهبا تحت الحساب » ·

وأخرج من جيبه كيسا ربطه ربطا محكما بخيط سميك . ودس يده فى الكيس وأخرج على مهل ثلاثة جنيهات عدها واحدا واحدا بيدين ترتعشان · فانقض عليهم ياناكوس مسعورا ، وامتلأت عيناه الزائغتان ببريق الذهب ·

وقال العجوز لاداس :

ـ سأحرر ايصالا توقع عليه عند عودتك · هل توافق على هذا ؟ هل تثق بى الآن ؟ ان ما قلته لك ليس مجرد كلام فى الهواء بل ذهبا . اذهب حتى لا نخسر الوقت · مع سلامة الله .

ودفع ياناكوس ، وفتح الباب . وصاح خلفه :

ـ رعاك الله · اذهب ومهد لنا الأرض ·

واغلق الباب وراءه سريعا قبل أن يثوب شريكه فى الجريمة الى رشده ·

ووضع اصبعه على شفتيه وقال مخاطبا زوجته :

ـ بنيلوب ، ولا كلمة · هل رأيت كيف عالجت الموضوع ؟ هل رأيت مدى دهائى ؟ ان عقلى كحد الموسى · هل رأيت كيف اصطدته بسنارة الذهب ؟ أخسر ثلاثة جنيهات وأحصل على ألف فى مقابلها ··· تعالى الآن أعدى الصندوق · عجلى يا عزيزتى ·

بيد أنها ظلت جامدة فوق مقعدها · واستمرت تخيط دون انقطاع ، عيناها مثبتتان على الابر ، تلتقى وتفترق لتلتقى ثانية دون أن تبين شيئا ، والجورب الذى تصنعه للأب لاداس يطول بين يديها · لم تكن ترى فى الجورب ساق العجوز النحيلة بل عظمة الساق نفسها طويلة جافة ينخرها الدود ·

* * *

سار الحمار فى طريقه وخلفه ياناكوس غارقا فى أحلامه · كان يحس بثقل حزين فى جانبه الأيسر يثقل قلبه ، ولكن فى جانبه الأيمن ثقل آخر حبيب الى نفسه يثقل جيب سترته · وترنح فى مشيته كأنه ثمل ، حينا يقفز من حجر الى حجر ، وحينا يتوقف فجأة ويسبح فى بحر تأملاته · واستدار الحمار الصغير ينظر الى صاحبه دهشا ، ثم وقف جامدا فى مكانه ينتظره ·

وتمتم ياناكوس :

ـ ليت أنى لا أرى أحدا ولا يرانى أحد · سر يايوسوفاكى وأسرع · لم توقفت ؟ اتجه الى هذا الطريق · لقد غيرنا طريقنا · حدث شىء كأنه هزيم الرعد يا عزيزى ·

وهز الحمار رأسه متحيرا ، فهو لم يفهم شيئا · الى أين ينتهى بهما هذا الطريق ؟ ترى ماذا حدث لسيده ؟ ما أغرب بنى البشر ـ انهم لا يعرفون أبدا ماذا يريدون .

ـ ليتنى لا أرى أحـدا حتى ولو كان مانولى .... لدى عمل أهم وأخطر الآن . ليذهب لىالجحيم هو وكاترينا .... تعال يا يوسوفاكى . أسرع .

ولم يكد يبلغ أطراف القرية حيث لا يوجد بعدها غير الحقول حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام مانولى ورفيقين له ، يحمل ثلاثتهم الكابتن فورتوناس . كانوا يسيرون بخطى قصيرة وقد أطرقوا برءوسـهم . وسار فى مقدمتهم حسين مرتديا طربوشه الأحمر ، وسيفه معلق بخصره.

وشد ياناكوس حماره جانبا ليفسح لهم طريقا . وسـار بمحاذاتهم ورأى الـكابتن التعس فاقد الوعى ، مشـجوج الراس ، وقد ربط بفوطة بيضاء مخضبة بالدم ...

ـ ايه يا رفاق . ماذا أصاب قبطاننا ؟ قل لى يامانولى .

أجاب مانولى :

ـ سقط الرجل التعس فوق سلم الأغا وشجت رأسه ... لو رأيت خالتى ماندالينيا فقل لها ان تحضر لتغير له الضمادة .... انها تجيد هذا العمل فقد كانت قابلة قبل أن تشتغل بتكفين الموتى .

وتمتم ياناكوس :

ـ مسكين ... لا بد أنه كان مخمورا للغاية كعادته .

واستدار حسين وقهقه لسماعه هذا الكلام . وقال :

ـ ألا تحزن لما أصابه أيها اليونانى القذر . شج رأسه ، وسوف يبرأ ثانية . اليونانيون يتميزون بقوة بنيانهم . وبخاصة المرد منهم .

وقال ياناكوس :

ـ مانولى ... عندى كلمة لا بد أن أقولها لك .

وأجاب مانولى :

ـ وأنا أيضـا . ولكن يجب أولا أن نذهـب بالقبطان الى مخدعه . اتبعنا وانتظرنى أمام الباب . سأعود اليك .

وساروا بخطوات متأنية ، اذ كان الكابتن يئن ويتوجع مع كل حركة . وعندما وصلوا الى بيته أدخلوه . وربط ياناكوس حماره تحت ظل شجرة زيتون ، وانتظر .

ـ حقا كانت ليلتنا حبلى بأحداث جسام. ترى ما الذى ستتمخض عنه ؟ ليحفظنا الله .

أخرج كيس التبغ ، ولف سيجارة ، واتكأ على جذع شجرة الزيتون، وبدأ يدخن ليزجي الوقت . كان أسفا اذ تحدث الى مانولى ، ورأى فى حديثه مضيعة للوقت . فالعمل الخطير الذى تعهد به يقتضي السرعة فى انجازه . وتحسس جيبه ، وداعب العملات الذهبية بأصابعه وابتسم . وتمتم قائلا :

ـ حمدا لله . لم أكن أحلم . كم من مرة رأيت نفسى فى أحلامى وأنا اقبض فى يدى على عملات ذهبية ... ثم ابحث عنها مع الصباح كالمعتوه تحت وسادتى . ولكن الحمد لله ها هى موجودة معى هذه المرة .

وظهر مانولى عند عتبة الباب . وقف يمسح جبهته ، وابصر ياناكوس تحت شجرة الزيتون واقترب منه .

ـ صديقنا فى حالة خطرة . لقد نال منا التعب .

وقال ياناكوس :

ـ انى فى عجلة . أريد أن أحدثك في موضوعين ثم أنصرف . فعندى أعمال كثيرة اليوم ... اسمع يامانولى ، اول شيء ، نصيحتى لك الا تطأ اليوم بيت سيدك . فهو يعرف موضوع السلال . واهتاج هياجا شديدا ، وأخذ عصاه وخرج لينكل بابنه . لذلك ابق بعيدا حتى تمر العاصفة .

ـ اذا كان الأمر كذلك اذن فلأذهب لآخذ نصيبى . فهى غلطتى أنا أيضا .

ـ وهى غلطتى أنا أيضا ، ولكننى لن اذهب . قد تقول عار عليك هذا ، بيد أننى لن أبالى ... انتظر ، لا تنصرف ، فثمة موضوع آخر . كاترينا الأرملة تنصب شباكها من حولك وتتمنى أن توقع بك . وقصت على أنها تراك فى أحلامها . وكانت بالأمس تلقى اليك بنظراتها وانت في الميدان ، ولكنك لم تلحظ ذلك منها بطبيعة الحال . خذ حذرك يامانولى فان كاترينا شيطان فى زى امرأة . انها قادرة على أن تغوى الأساقفة ..... فكر قليلا في عيد القيامة المقبل عندما تمثل دور المسيح ..... لا تدنس نفسك .

اطرق مانولى برأسه ، واحمر وجهه خجلا . ذلك لأنه فى الليلة

الماضية رأى الأرملة فى منامه أيضا · انه لا يذكر كيف كان ذلك ، ولكنه لاحظ بعد ما استيقظ دوائر الأرق حول عينيه ·

وتمتم قائلا :

ـ سيعيننى المسيح ·

ـ انه لا يستطيع ان يفعل كل شيء بنفسه يامانولى . يجب أن تفعل انت أيضا شيئا من جانبك ··· اسمع أنا فى عجلة من أمرى · جاء دورك· أحسب أن لديك ما تريد أن تقوله لى ·

وتردد مانولى ، فهو لا يدرى كيف يعرض الأمر على صديقه دون أن يؤذى مشاعره · وأخيرا بدأ يتكلم ·

ـ اسألك الصفح عما سأقوله لك . ولكننا نحن الأربعة لنا نفس الهدف ، وهو هدف شريف مقدس · من الآن كلنا شخص واحد ···· لو خطا احدنا خطوة خاطئة فعلى الباقين أن يحولوا دونه وهذا الخطأ · اذ أن هلاك احدنا يعنى هلاكنا جميعا . ومن هذا الفهم استمد شجاعتى ...

بدأ ياناكوس يفك وثاق حماره وهو يقول :

ـ تكلم يامانولى · لا تتردد وادخل فى الموضوع فانى متعجل كما قلت لك ·

واصل مانولى كلامه فى رقة ، وقد أمسك بذراع ياناكوس :

ـ ها أنت ستعود الى عملك ···· ستبدأ تطوافك من جديد ···· استحلفك باسم المسيح ألا تنسى نصيحة القسيس لنا بالأمس ···

وصاح ياناكوس بصوت بدت فيه خشونة مباغتة :

ـ أى نصيحة قالها لنا القسيس بالأمس ؟

ـ أرجوك ياياناكوس ألا تأخذ الأمر على محمل سيىء ···· لا تنقص الميزان على سبيل المثال ، ولا ....

أحس ياناكوس بالضيق يتسرب الى نفسه · فك وثاق حماره بعنف، ولوى زمامه حول ذراعيه بحركة عصبية وقال :

ـ حسن ، حسن ·· انه يظن الأمر سهلا ، وقداسته·· ماذا سيقول القسيس لو نصحته أنا بأن يشد الحزام على بطنه ولايتخم معدته، وأن يتصدق بما يفيض عن حاجته على الفقراء ؟ وأن يكف عن مزج المراهم والدقيق

والتوبل ثم طحنها جميعا ليعطيها لك دواء لـكل الأمراض .... هذا الأفاق . ألم يحدث فى العام الماضى أن هذا القسيس نفسه ترك العجوز مانتوديس ثلاثة أيام فى العراء ميتـا دون أن يواريه التراب حتى فاحت منه الرائحة النتنة ... كل هذا لأنه أصر على أن يدفع له الورثة حقه مقدما ؟ ومرة أخرى ألم يحدث أن باع فى المزاد العلنى بستان كرم كان يملكه برونيموس السروجى المسكين لأنه مدين له بمبلغ زهيد . وفى هذا العام نفسه على وجه التحديد ـ نعم وقبل الأسبوع المقدس بقليل ـ ألم يرفع أسعاره : تدفع كذا مقابل التعميد ، وكذا أجرا لمراسم الدفن ، وأعلن أنه بدون هذا لن يعمد ولن يقيم قداسا لزواج أو وفاة ؟ ثم بعـد ذلك لا يخجل ، صاحب الكرش البدين ، أن يسدى النصـح لى ، انا الذى لا أملك مليما واحدا ...

وقاطعه مانولى :

ـ لا تتحامل عليه هكذا ، فكل نفس بمـا كسبت رهينة · وعليك بنفسك ياياناكوس . يلزمنا هذا العام أن نكون أطهارا لا تشوبنا شائبة . ولا تنس أنك ستكون بطرس الرسـول ... ماذا يفعل الانسان قبل التناول ؟ يصوم ، ويمتنع عن أكل اللحم والمسلى ، ولا يقسم ، ولايغضب ... ونحن الآن فى مثل هذا الموقف يايانوكوس ....

ولكن ياناكوس أخذته الحمية · أحس أن مانولى على صواب، واهتاج لذلك كثيرا · وترك حديثه عن القسيس ، وصب جام غضبه على رفيقه . وانفجر بصوت مولول :

ـ حسن ، وأنت أيضا يامانولى ، لا تنس أنك لن تمثل دور رسول من الرسل ، بل دور المسيح ذاته · حسن اذن ، هل يحق لك أن تمس امرأة ؟ لا !! وها أنت تتهيأ للزواج · ثم لماذا تثير كل هذه الجلبة ؟ دعك من احمرار الوجه خجلا ... كلمة واحدة : نعم أم لا ؟ لنذهب جميعا الى الشيطان · هذا هو قولى لك · القداسة ليست أمرا هينا ...

أطرق مانولى برأسه ولاذ بالصمت ·

عاود ياناكوس الحديث وقد مضى صوته يزداد ارتفاعا :

ـ نعم أم لا ؟ أنت لا يقع بصرك على لينيو حتى يسيل لعابك ... ويظهرها لك الشيطان فى أحلامك كما تهوى لها أن تكون ، عارية تماما· كنت مثلك ، وأنا فى سنك ، أحلب اللبن ، وأنا أعرف كل حيل الشيطان ... يأتيك بها وأنت نائم وترتكب معها الخطيئة وتقوم فى الصباح وقد

ارتسمت حول عينيك دوائر من أثر السهاد ... وعندما يحين الوقت لتمثل أمامنا دور المسيح المصلوب لن يكون قد مضي على زواجك وقت طويل . سيضعونك على الصليب ، بيد أنّ هذا سيعنى الكثير بالنسبة لك . ستعرف أن هذا كله ليس الا لعبة تؤديها ، وان الذى صلب هو انسان آخر سواك . وفى اللحظة التى تصيح فيها وأنت على الصليب « ايلى ، ايلى ، لما شبقتنى » ستقول لنفسك « سأعود الى البيت بعد قليل، عقب انتهاء الصلب ، وستكون لينيو فى انتظارك ... أعدت لك الماء الدافىء لتغتسل به ، وملابس نظيفة بدلا من الملابس التى اتسخت ، ثم تذهبان معا الى مخدعكما بعد الصلب ... حرى بك أن تصمت ياما نولى، واقلع عن تلقينى الدروس . فهذا لا يليق .

أسقط فى يد مانولى وهو ينصت اليه ورأسه منكس فوق صدره ، وقال لنفسه :

ـ انه على حق ... انه على حق ... نعم فأنا دعى ، أنا دعى .

صاح ياناكوس وقد أخذته النشوة عندما رأى مانولى يرتجف :

ـ لماذا لا تنطق بكلمة ؟ أليس حقا ما أقول ؟

وبدأ مانولى يتكلم :

ـ « ولكن بالأمس يايانا كوس كنت لاتزال .... »

لم يمهله ياناكوس ليكمل حديثه ، فقال له وهو يشد زمام حماره استعدادا للرحيل .

ـ بالأمس يامانولى كان الأمر جد مختلف . بالأمس كانت عطلة عيد، أليس كذلك ؟ كانت بطوننا ملأى ، والحمار فى حظيرته ، ورغباتنا نائمة ... أما اليوم ، انظر ، الحمار يحمل أثقالا ، وبطوننا خاوية ، وانتهى عيد القيامة . وبدأت التجارة من جديد ... والتجارة يا فتى تعنى أنك اذا أردت أن تأكل شيئا فانتزعه ، وان كنت تريد أن تستحوذ على شىء فاختلسه . والا لكان أحرى بى أن أقصد جبل آتوس واصبح راهبا بدلا من أن أكون تاجرا . هل تفهم ما أقول ؟

وصمت هنيهة وقد أحس ببعض الراحة . واتجه صوب حماره يجذبه ، وألقى نظرة الى مانولى راضيا ان افضى اليه بكل مكنون نفسه .

ـ أتمنى لك حظا سعيدا يامانولى ، وفكر مليا فيما قلته لك . كان الله فى عونك .

بيد أن الغضب كان لا يزال يعتمل بداخله • فاستدار ناحية صديقه ثانية وقال له :

– على التـــاجر أن يسرق الناس يا مانولى • اما واجب القديس ألا يسرقهم • هل رأيت؟ يجب عليك ألاتخلط بين الأمرين• أتمنى لك زواجا سعيدا يامانولى ••• هيا بنا يايوسوفاكى •

بقى مانولى وحيدا • كانت الشمس قد علت أفق السماء • والناس والثيران والكلاب والحمير كلها مشدودة الى وثاق عملها اليومى • ووضـع الشيخ لاداس نظارته على عينيه ، وبدا بادى البشر ، يخط فى تأن وانتباه ايصال الجنيهات التركية الثلاثة • وفى اللحظة التى كان فيها القسيس ثائرا يجد فى البحث عن الشيخ بطرياركاس أتاه شخص يسأله أن يعد قداسا لميت • وهنـا غير القسيس وجهته • أما الـكابتن فورتوناس فقد كان طريح فراشه ، يئن ويتوجع ، ويصب اللعنـــات على الأم مانداليتيا وهى تغير له الضمادة لتربط رأسه المشجوج برباط جديد •

وكانت لينيو جالسة بجوار النافذة ، تدندن وهى تخيط آخر ملاءة من مفروشات الزفاف • كان قلبها يرقص بين جوانحها ، يعلو الى حلقها، ويهبط الى بطنها ، ويقفز من هذا الثدى الى ذاك يدغدغها •••

سمعت لينيو أصوات مشادة فى حجرة ســيدها بالدور العلوى ، كان الأب يصرخ والابن يرد عليه ، يتحركان الى أمام والى خلف كأنهمـا مشتبكان فى قتال ، والسقف يهتز من تحتهما• بيد أن لينيو التىجلست متكئة علىالنافذة لم تعبأ بشجارهما• بل انها لم تعبأ حتى بسماع صرخات سيدها • فهى ستتحرر قريبا من ربقة سلطانه عليها ، والقيـد على وشك أن ينكسر لترحل مع حبيبها مانولي ، يعيشان معا فوق الجبل بين الأغنام • فقد لقيت الكثير على أيدى العجوز بطرياركاس رغم أنه يحبها كابنته تماما، وبحث لها عن زوج ، وأعطاه صداقا سخيا • الا أنها تشمئز منه ، ولا تحب أن تراه ثانية •

وفى هذه اللحظة ازداد عنف الشـجار ، وتردد رنين صراخ الشيخ عاليا واضحا • وأعارته لينيو أذنها • كان يصرخ قائلا :

ــ ساظل أنا وحدى ما حييت صاحب الـكلمة لا أنت • انهـا نهاية العالم •

اختنقت العبارات فى حلقه ، وأخذ يتهته ، واختلط كلامه ببعضـه

ولم تعد لينيو قادرة على أن تتبين كلامه بوضوح· ولكنها سمعت بعد لحظة العبارة التالية ·

ـ لا · لا · لا أريد منك أن تتبسط فى علاقتك مع مانولى أكثر مما يليق · لا تنس أنه خادم وأنت سيد · حافظ على وضعك ومركزك ·

وغمغمت لينيو :

ـ هذا الشيخ القذر ، الخنزير العجوز ، انه لا يحترم حتى شيبته · يأتى بهذه العاهرة كاترينا ويسيل لعابه من اجلها· وبعد هذا لا يريد مانولى حتى لا يفسد عليه ثراءه ·· أف له ·· أريد أن أبعد عنه ولا أراه ثانية ، ولا أسمع شيئا عن هذا العجوز المقزز ·

هبت فجأة واقفة ، وأحست أنها لم تعد تطيق البقاء فى الحجرة ، وخرجت الى الفناء لتنفس عن نفسها وهى لا تزال تغمغم :

ـ هذا الوحش العجوز · ليته يبتلى بمصيبة ·

توسطت الفناء ، واخرجت من البئر قليلا من الماء ، غمست فيه راسها ، وأحست بعدها بشىء من الهدوء . كانت صغيرة السن ، ممتلئة الجسم ، مكتنزة الشفتين ، بسامة اللحظ فى حيوية ، لها أنف أقنى كأنف سيدها العجوز ، سمراء شديدة السمرة ، تفيض اغراء ، وكانت تقف كل مساء عند عتبة الباب ، حتى اذا مر بها رجل مالت بجيدها فى دلال تستطلعه وتتملاه فى حنان ورغبة ، كقط يخفى مخالبه ، ويتهيأ للوثب، ثم فجأة يشفق على فريسته ويخليها ، وينظر بنهم الى غيرها ... يحدث دوما هذا الطراد القاسى الصامت مع الغسق عند عتبة الباب . وبعد قليل ، عندما يجن الليل ، تكف لينيو عن عراكها ، وتئوب الى حجرتها ثانية منهكة القوى ·

ولم يكد دلوها يظهر عند حافة البئر وتخرجه لتغمس فيه وجهها الملتهب حتى انفتح باب الفناء ودخل مانولى :

هرولت الفتاة ، مندفعة نحوه بحركة تلقائية ، ثم كبحت جماحها فجأة · وقالت له :

ـ مرحبا بك يامانولى ·

وقفت أمامه تملأ عينيها منه بنظرات تتحرق رغبة فيه · وبنظرة سريعة كأنها ومض البرق ، تطلعت الى دراعيه ورقبته وصدره وفخذيه وركبتيه · وأخذت تقدر مدى عنفوانه وشدة تحمله وكأنها تتأهب لمصارعته ·

لم ينبس مانولى ببنت شفة . واجتاز الفناء بخطى واسعة . أسند عصـــاه فى أحد الأركان وشرع يصـعد الدرج الحجرى المؤدى الى حجرة سيده · فقد سمع أثناء مروره صياحا عاليا ، وتعجل نصيبه من المعركة بين السيد وابنه ·

كان مانولى بادى الهم والتعب · وأسقط فى يده حين أبصر لينيو، فهى الشخص الذى كان يود ألا تقع عينه عليـه فى هـذه اللحظة · وحث الخطى قاصدا الدرج ، بيد أن لينيو لم تتبين شيئا من سلوكه هذا ·

ونادته :

ـ ايه ، أنا هنا يا سيدى · ألم تلحظنى ؟

ورد عليها مانولى بصوت جميل :

ـ صباح الخير يا لينيو · معذرة فانى فى عجلة · جئت لأرى السيد·

وردت عليه لينيو بصوت خفيض :

ـ دعه وشأنه · ماذا تريد من هذا المخلوق العجوز القـذر ؟ انه فى عراك مع ابنـه ووريثه · دعهما يفقأ كل منهمـا عين الآخر · تعـال هنا واسمع ···

وامسكت بيده لتقوده الى داخل البيت · وأخذت تتحسسه وتشمه بأنفها ، وتدور حوله ، وتتمسح به ، ثم فجأة ارتدت الى الوراء وقد احمر وجهها ·

وقالت :

ـ متى سنتزوج يامانولى ؟ فقد مل الشيخ الانتظار ·

وقال مانولى وهو يحاول الافلات منها :

ـ وقتما يشاء الرب ·

لفها حزن فجائى ، وقالت :

ـ انى أركع له سبحانه متضرعة اليه. ولكن سله أن يعجل بمشيئته. ان مايو على الأبواب ، والناس لا تتزوج فى هذا الشهر· هل يجب الانتظار حتى شهر يونيو ؟ أو يوليو ؟ كل هذا وقت ضائع ·

ـ الوقت فى صالحنا يالينيو · لاتقلقى · لاداعى للعجلة فلن يتقدم بنا السن · وعندى عمل أريد ان أفرغ منه أولا · وبعد ذلك اذا شاء الله ···

استولت الدهشة على لينيو وقالت :

ـ أى عمل ؟ أى عمل هذا ؟ هل لديك عمل آخر غير الرعى ؟

وقال مانولى وهو يقترب شيئا فشيئا من السلم الحجرى :

ـ نعم ، عندى عمل ...

ـ اى عمل ؟ مع من ؟ لماذا لا تريد أن تخبرنى ؟ سأكون زوجك بعد قليل وينبغى أن أعرف .

ـ أريد أن أرى السيد أولا ، ثم أخبرك بعد ذلك... يجب أن أتحدث اليه أولا يالينيو ... دعينى أذهب اليه .

ـ مانولى ، ضع عينيك فى عينى ولا تخفضهما . ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟ تغيرت فى يوم واحد يا حبيبى . ماذا فعلوا بك ؟

نظرت اليه مغتمة حزينة ، ثم استبد بها الضيق ، وأخذت أنفاسها تتلاحق سريعا .. وبكت .

ـ حسدك أحد الناس وسحر لك . لا بد وأن أحضر العمة مانداليينيا . ستحضر سعف الجمعة الحزينة وتحرقه بخورا ، وتردد التعاويذ لتطرد عنك عين الحسود يامانولى ... تعال الى يا كنزى فعندى ما أريد أن افضى به اليك ...

أحس مانولى بأنفاس الفتاة حول رقبته . انبعثت رائحة نفاذة من جسده المغطى بالعرق . ورويدا رويدا اقترب منه ثدياها النافران الممتلئان وداعبا يده ، وتدافع الدم حارا فى عروقه .

قالت له لينيو فى حزم :

ـ لا تنصرف . سآتى بالأم مانداليينيا . فأنا لا أطيق أن أراك متجهما هكذا .

ودخلت لينيو الى حجرتها . وسرعان ما ارتدت أحسن ثيابها ، وعصبت شعرها بمنديل وملأت سلة ببعض البيض الأحمر ، وقليل من البن والسكر وزجاجة نبيذ لتدفع كل هذا أجرا للعجوز مانداليينيا مقابل أتعابها . وعادت فرأت ما نولى قد ارتقى السلم ووقف مترددا أمام باب سيده .

وصاحت به .

ـ « لا تنصرف • لا تنصرف ••• ساعود اليك » •

خفتت أصـوات الشجار • لا بد أن ميشيل غادر الحجرة • وكل ما وصل الى آذن ما نولى من خلال الباب وقع خطوات العجوز الذى يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، يغمغم بكلمات من بين شفتيه •

دفع الباب ودخل • ولم يكد يبصره العجوز حتى اندفع نحوه ، وزأر بأعلى صوته رافعا يده ليلطمه بها •

ـ انها غلطتك • أنت الذى أدرت رأس ابنى • أنت الذى أفسدته على ، فلم يعد به شيء من طباعى ودمى ، أنت أيها المتشرد » •

واسودت عروق صدغيه ورقبته ويديه • وفتح قميصه ، وكان صدر العجوز يعلو ويهبط كأنه يؤذن بالانفجار • وسقط فوق حشية فى ركن القاعة ، وأسند رأسه بين راحتيه وأخذ يسعل ويخرج من حلقه حشرجة مسموعة •

استند مانولى الى الجدار يرقب السيد العجوز فى صمته ، وانتـابه احساس بالندم وقال فى نفسه :

ـ « ما أقسى قلب الانسان • أى حيوان كاسر هو •• حتى أنت أيها المسيح تعجز عن أن تحيله الى كائن مستأنس أليف » •

وفجأة نهض الشيخ واقفـا ، فقد اسـتعاد قوته ، وأمسك بخناق مانولى •

صاح ثانية ، واللعاب يتناثر من فمه ليغرق وجه مانولى ورقبته :

ـ « انها غلطتك • غلطتك أنت • أتيت بك من أعلى الجبل لأزوجك بعزيزتى لينيو التى أحبها كابنتى ، وأبقيتك معنـا طوال أيام العطلة • نسيت أنك خادمى ، وأجلستك الى مائدتى يوم أحد السعف . والآن أنظر الى مدى عرفانك بجميلى يا خائن . افسدت البيت وبذرت فيه الشقاق . أدرت رأس ابنى ، وتسللت الى مخزنى وأنا نائم وسرقتنى • يا لص • يا لص . ويبدو أنك لم تقنع بذلك ، فها هو ميشيل يعارضنى لأول مرة فى حياته . يقول لى «أصبحت رجلا الآن . سأفعل كل ما يحلو لى» . أتسمع هذا ؟ يا للوقاحة • يقـول انه سيفعل كل ما يحلو له • وعندما صحت قائلا : « ألا تخاف أباك ؟ » تواتيه الجرأة ليرد على • يا للسفالة .. ويقول « أنا أخشى الله ولا أخشى سواه » . لا . هل تسمع كلامى ؟ لا أحد سواه . هذه كلها حيلك أنت يا مانولى . لماذا لم تكسر ساقك يوم

أن نزلت من الجبل لتشهد حفل عيد القيامة عندى ؟ .. لماذا لا تنطق بكلمة ؟ لماذا تنظر الى بهاتين العينين الواسعتين ؟ تكلم انطق فانى أكاد أنفجر » .

وفى هدوء قال مانولى :

ـ « سيدى . أتيت أستأذنك فى العودة الى الجبل » .

فتح العجوز عينيه وحملق فيه وارتجفت شفتاه وتهته قائلا :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ تعود الى الجبل ؟ أعد ما قلته على سمعى ثانية إن كان لك وجه لذلك » .

ـ « أتيت يا سيدى أستأذنك فى العودة الى الجبل » .

انتفخت أوداج العجوز ثانية وصاح يقول :

ـ وماذا عن الزفاف ؟ متى سيتم عقد القران أيها الأحمق ؟ فى مايو ؟ مايو هو الشهر الذى تتزوج فيه الحمير . معنى هذا أنه سيعقد فى ابريل . هل أتيت بك من أجل هذا ؟ أنا صاحب الأمر والنهى هنا » .

ـ « أمهلنى قليلا يا سيدى » .

ـ « لماذا ؟ ماذا تريد ؟ ماذا أصابك ؟ »

ـ لم أتهيأ بعد يا سيدى ...

ـ « لم تتهيأ بعد ؟ ما معنى هذا ؟ »

ـ « أنا نفسى لا أعرف يا سيدى .. أنظر .. لست أدرى كيف أعبر عما فى نفسى . ولكننى أشعر أننى غير مستعد ، روحى ...... »

ـ « أى روح ؟ أظنك جننت ؟ .. اسمعوا ما يقول .. انه يقول روحه .. أنت أيضا لك روح ؟ »

ـ « ماذا عساى أن أقول لك يا سيدى ؟ ثمة صوت بداخلى .. »

ـ « اخرس » .

مد مانولى ذراعه ليفتح الباب ، فامسك به العجوز .

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ ابق هنا .

وبدأ يذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، بطولها وعرضها ، ويضرب المنضدة بجماع يده ، ويعض على شفتيه .

ـ سأموت اليوم . ستقضيان على أنتما الاثنان . هذه هى النتيجة

بعد كل ما فعلت · ابنى لا يخـــافنى ، ويقول انه يخشى الله وحده ··
وهذا ــ هذا الخادم القذر يحدثنى عن روحه ·· »

استدار للراعى وقد ثارت ثائرته :

ــ « أخرج · اذهب الى الشيطان · أخرج · أغرب عن وجهى · اذا لم يتم الزفاف هذا الشهر فلن تبقى فى خدمتى بعد ذلك · سأطردك من بيتى · سأتى لعزيزتى لينيو بزوج آخر خير منك ··· غر ··· هل تظن ألا نظير لك .

فتح مانولى الباب ، وقفز السلالم كل درجتين دفعة واحدة ، وألقى نظرة فى الفناء · لم تعد لينيو بعد · فحمل عصاه وأخذ طريقه عدوا الى الجبل ·

* * *

توقف مانولى ليلتقط أنفاسه عند مشارف القرية ، على مقربة من بئر القديس بازل . وهو بئر قديم مشهور ، تحيط به أشجار البامبو السامقة ، وله حافة من الرخام المصقول ، حزت فيها الحبال التى تحمل الدلاء صعودا وهبوطا حتى تركت آثارا عميقة زادت من عمقها القرون الطويلة . كانت الفتيات تقصده ساعة الغسق ، يستخرجن منه الماء البارد · وقيل انه بئر له معجزاته ، ماؤه يشفى كثيرا من الامراض ــ أمراض المعـــدة والكبد والكليتين · واعتاد القسيس أن يأتيه مرة كل عـام ، فى عيد الغطاس ، يباركه عندما تعلن الساعة منتصف الليــل · ويحكى أن القديس بازل ، قديس سيزاريا ، الذى يحمل اللعب ويوزعها على الاطفال فى جميع أنحاء الارض ، يمر بهذا البئر ، على حد زعمهم ، ويشرب من مائه قبل أن يبدأ جولته ليلة رأس السنة · ولهذا السبب سماه الناس بئر القديس بازل ، ولهذا أيضا اعتبروه بئرا يحقق ماؤه المعجزات ·

بلغت الشمس سمتها · وكانت أشعتها تسقط ثقيلة على الارض ، كأنها شلال ينهمر ماؤه دوما · وارتفعت السنابل فى الحقول ترتوى بأشعة الشمس وتمتص منها غذاءها · وأوراق شجر الزيتون يقطر منها الضوء · وعلى البعد يطالعك جبل ساراكينا ، تخال الدخان يتصـاعد منه ، وتلفه غلالة شفافة من الضوء فى لون اللهب · ووسط هذا اللهب تظهر الكهوف فاغرة أفواهها السوداء ، وعلى القمة تقف كنيسة القـديس ايليـا ، وقد صهرها الضوء الذى يبهر الأبصار ·

أمسك مانولى بالحبل وأخرج بعض الماء ، وغمس وجهه فى الدلو ، وشرب منه · ثم فتـح قميصه ومسح العرق من فوق صـدره · واستقر

بصره على جبل ساراكينا . وطاف بخاطره وجه القسيس فوتيس الزاهد العاتى الذى يتأجج نارا وضياء كالشمس ذاتها . حملق مانولى فى الطيف الذى يتراءى له ، وهو لا يفكر فى شىء ، ولا يسأل نفسه شيئا ، وقد ذاب هو الآخر مع تأملاته الورعة ، كما ذابت كنيسة القديس ايليا ، وسط الضوء الحارق .

ظل على حاله هذا وقتا طويلا غائبا عن الوجدان . وفجأة أحس بوخز آلام مفزعة فى يديه وقدميه وقلبه وكأنه صلب فوق الضوء .... وبعد شهور مضت ، طافت بخلده ، على غير انتظار ، لحظة الوجد هذه التى واتته أمام حافة البئر ، وأحس فجأة أن هذه اللحظة كانت أعظم لحظات حياته بهجة . لا ، انها ليست بهجة ، بل شيئا آخر أعمق وأقسى ، يتجاوز كل حدود البهجة والألم عند الانسان .

وعندما مالت الشمس للمغيب ، نهض مانولى ليرتقى جبل العذراء عائدا الى كوخه حيث يرعى الأغنام .

وتمتم قائلا :

ـ يجب أن أذهب لأنام ، فقد اقترب المساء .

استوى واقفا ، وشد حزامه ، والتقط عصاه . كان متلهفا الى اللحاق برفاق وحدته ـ الأغنام والكباش والكلاب . وآنس فى نفسه شوقا الى رفيق الرعى نيكوليو ، هذا الصبى الصغير الشرس ، الذى لوحته الشمس بشعره المموج .

ولم يكد يبدأ مسيرته حتى سمع فجأة صوت حفيف عيدان البامبو . وسمع وراءه صوتا صافيا يقول فى ضراعة واغواء :

ـ آه يامانولى ، هل تخافنى الى هذا الحد حتى تهرب عندما ترانى ؟ انتظر ، لى كلمة معك .

واستدار ، فرأى كاترينا الارملة تخرج من بين نبات السمار، تحمل جرتها على كتفها . وطافت عيناه ، فى نظرات سريعة ، فوق جيدها المرمرى اللامع ، وذراعيها العاريتين الملفوفتين ، وشفتيها الورديتين تعلوهما الابتسامة .

وغض من طرفه وسألها :

ـ ماذا تريدين منى ؟

أسندت الأرملة جرتهـا الى حافة البئر ، وقالت بصوت كله حنان وشجو :

ـ لماذا تلاحقني يامانولى ؟ أراك كل ليلة فى أحلامى • لا يهنأ لى نوم بسببك • رآيتك فجر اليوم فى حلمى وقد أمسكت بالقمر تقطعه شرائح كما تقطع التفاحة وتقدمها لى لآكلها • ماذا بينى وبينك يامانولى ؟ لمـاذا تلاحقنى ؟ ان رؤيتى لك فى أحلامى تعنى أنك تفكر فى •

ظل مانولى غاضا طرفه . انه يكاد يشعر بأنفاس الأرملة تحتويه ، أنفاسا حارة حارقة • وبدأ صدغاه يختلجان بشدة • ولم يقل شيئا •

وقالت الأرملة بصوت دافىء طروب فيه أثر بحة خفيفة :

ـ ها هو ذا وجهك يحمر • أنا على صواب ياعزيزى مانولى ، وأنت تفكر فى حقا . وأنا أيضا أفكر فيك .. وعندما تجول ذكراك بخاطرى أحس بالخجل كأننى أقف عارية أمامك •• نعم كأننى عارية ، وكأنك أخى وقد أبصرتنى •

وأجاب مانولى دون أن يرفع بصره من على الارض :

ـ أفكر فيك حقا ••• أفكر فيك وانى آسف على حالك • لم تبرح صورتك مخيلتى طوال الاسبوع المقدس • أسالك الصفح •

جلست الارملة فوق حافة البئر • وأحست بحلاوة وعذوبة ، بيد أنها شعرت أيضا بفتور لا يقاوم • لم تعـد ساقاها تقويان على حملها • ولاذت هي الاخري بالصمت • وانحنت فـوق البئر ، ورأت وجهها فوق صفحة الماء الخضراء الداكنة عند القاع • وفي ومضة خاطفة خطرت برأسها كل حياتها الماضية : فتاة يتيمة ، ابنة لقسيس بلدة قاصية ، التقتبزوجها في عيد العذراء • كان أكبر منها سنا بكثير ، وخط الشيب رأسه ، بيد أنه ثرى وصاحب أملاك ، وهي فقيرة معدمة • اتخذ منها زوجا له ، أو اشتراها بعبارة أصح • وأتى بها الى ليكوفريسى بعد الزفاف • كان يتمنى أن ينجب أطفـالا ولكن لم يكن ذلك فى قدرته • ومات الزوج • وترملت كاترينا وهي في العشرين من عمرها • ولم يعد يطمئن بها فراش • وكذلك فتية القرية ، فبعد وفاة زوجها لميعد يغمض لهم جفن • كانوا كلما انتصف الليل يحومون حول بابها وتحت النوافذ وفي فناء الدار ، يغنونها أغانى الغزل ، ويتنهدون كالعجول • وكانت هي الاخرى تتنهـد داخل بيتها • وواصلت استشهادها عاما وعامين • وذات مساء ، في يوم من أيام السبت، فاض بها الكيل ولم تعد تحتمل المزيد • فى هذا اليوم غسلت شعرها ،

وضمخته بزيت شجر الغار . وتأملت جسدها ، واحست بالأسى من أجله. وفتحت بابها ، ودخل فتى صغير ، كان أول من تصادف وجوده ببابها . وفي ساعة السحر ، وقبل أن يصحو أهل القرية من نومهم ، خرج الفتى من بيتها . وشعرت الأرملة براحة غامرة . واحست أيضا أن أيام الحياة معدودة ، وانها لخطيئة كبرى أن ندعها تفلت من بين أيدينا دون أن نستمتع بها . وعاودت فتح بابها في الامسيات التالية كلما انتصف الليل .

ونهضت واقفة ، واختفى وجهها من على صفحة الماء الأخضر الداكن.

سالت مانولى :

ـ لماذا أنت حزين من أجلي يامانولى ؟

ـ لا اعرف ياكاترينا . لا تسالينى . ولكنني أصدقك القول ، انى حزين من أجلك كأنك أخت لى .

ـ هل أنت خجل منى ؟

ـ لا أعرف ، ولا تسالينى هذا السؤال . انى حزين من أجلك .

ـ ماذا تريد منى ؟

وصاح مانولى وقد توجس خيفة وتهيأ للهرب :

ـ لا شيء ... لا أريد شيئا .

وقالت بصوت يفيض فتنة :

ـ لا تنصرف . لا تنصرف .

توقف مانولى دون أن يلتفت اليها . وقفا صامتين مرة أخرى . وبعد لحظة عاودت الأرملة حديثها :

ـ أخالك يا مانولى وكأنك كبير الملائكة يريد أن يقبض روحى .

ـ دعينى أنصرف فأنا لا أبتغى منك شيئا . أريد أن أنصرف .

قالت الأرملة وقد ضاقت به ذرعا ، وفي صـــوتها رنة سخرية من جديد :

ـ أنت في عجلة . تتلهف على الصعود الى الجبل ، تشرب اللبن . وتأكل اللحم ثم تقوم من نومك ثانية . ستتزوج قريبا يا مانولى ولينيو لا تحتمل الهذر .

— لن أتزوج ٠

قال مانولى ذلك بصوت عال ولكنه أحس بالخوف مما قال ٠ فهذه أول مرة يفكر فى شيء كهذا ٠

— لن أتزوج أبدا ٠ أريد أن أموت ٠

أحس براحة غامرة بعد أن قال هذا ٠ واستدار ونظر الى الأرملة وجها لوجه هذه المرة ، وكأنه لم يعد يخشاها ٠ وشعر كأنه تخلص الآن من ثقل عظيم ٠

وقال فى هدوء :

— وداعا ، انى راحل ٠

تتبعته المرأة بعينيها وهو يسير بعيدا عنها ، وأحست بقلبها ينقبض ٠

وصاحت وفى صوتها رنة يأس :

— لا تفكر فى ثانية يا مانولى ٠ لا تقلق منامى بعد الآن ٠ لقد سلكت الطريق السيىء فدعنى وحدى ٠

— انى حزين من أجلك يا أختاه ٠ انى حزين من أجلك ٠ لا أريد أن تحق عليك اللعنة ٠

هذا هو ما دار بخلد مانولى ولكن دون أن يلتفت اليها أو يجيب عليها ٠

وكان قد خطا خطوات فى الطريق الى الجبل ٠

* * *

مصارعة مع الكبش

أشرقت الشمس ، والقت بضوئها على قمة جبل ســـاراكينة ولا مست أشعتها كنيسة القديس ايليا فكستها بلون وردى . وبدأت طيور الحجل تقأقىء فوق المنحدرات . وزحف الضوء ، فلف الجبل من جميع نواحيه . وظهرت أشجـــار متناثرة بين الصخور الوعرة . قليل من اشجار الخروب الجدع التى عاقتها الصخور عن النمو ، وأشجار الكمثرى البرية التى غطاها الشوك ، واشجار السنديان التى عرتها الرياح.

لا بد أن أناسا سكنوا هذا المكان فى ماضى الزمان ـ فلا تزال العين تتبين انقاض جدار ، وبعض شظايا لأوان من الفخار ، وقليلا من اشجار استحالت ثانية الى أشجار برية بعد أن رحل عنها من استأنســـها . واختفت معالم الطرقات تحت أكوام الأعشاب والحجارة . وعادت البيوت الى عناصرها الأولية ، وأنبتت الأشجار الأليفة أشـــواكا ، والذئاب والثعالب والأرانب البرية التى فرت أمام الانسان عادت ثانية مظفرة . تنفست الأرض والأشجار والوحوش الصعداء ، فقد استعادت حريتها ، ولن يتهددها بعد الآن خطر الوحش العابر الذى يمشى على قدمين ، ظهر لهم لحظة من الزمان فغير ناموس الأشياء الخالدة ، ثم ولى عنهم واختفى .

ولكن آه ، انظر ، ها هو ذلك الحيـوان المهتاج دائمـــا أبدا يعود أدراجه . وتوارت الوحوش الكاسرة وراء الصخور العالية ترصده . لم تكد الشمس تبزغ من مشرقها حتى خرج بعض بنى البشر من الكهوف :

رجال ونساء وأطفال ، وقصدوا الماء حيث يقطر من بين الصخور ، وانحنوا فوقه . وزعصفوا بعض الحجارة ، وأوقدوا نارا ... وشبوا على أطراف أصابعهم ، وسرحوا الطرف الى الأفق البعيد ، تحت أقدامهم تمتد سهول ليكوفريسى الفيحاء ، وحولهم بحر من التلال تغطيه أشجار الزيتون والتين والكرم ، وعلى البعد يطالعهم جبل العذراء ساكنا فى وداعة ، أخضر غنيا فى خضرته ، تغطيه قطعان كثيرة من الأغنام والماعز . ووراء هذا كله عند الأفق البعيد ترتفع الى عنان السماء جبال تعددت ألوانها بين الأزرق والأرجوانى والأحمر .

رسم الأب فوتيس علامة الصليب وقال :

– طلع الفجر ، يا أطفالى . أمامنا أعمال كثيرة اليوم . تعالوا ، التفوا حوالى ، وهيا ندعو الله معا لعله يستجيب لدعائنا .

اعتلى القسيس فوتيس صخرة ، وجر الشيوخ من الرجال والنساء أنفسهم ليشكلوا دائرة حوله . هرولت النسوة يحملن أطفالهن ، ومن ورائهن الرجال ، تقدموا بخطى وئيدة حزينة ، ورءوس مطرقة أثقلتها الهموم ... عصبة مهلهلة الثياب ، حافية الأقدام ، غائرة الوجنات من أثر الاجهاد والجوع ، عزلا وسط احجار وعرة موحشة واشجار متناثرة بغير ثمار ... قد لا ينتظر المرء منهم غير ضراعات وعبرات ، وأكف ترتفع الى السماء تستجدى الرحمات ... ولكن حدث ما هو نقيض ذلك . فقد علت الحناجر ، تنشد بصوت قوى طروب ، نشيد النصر للكنيسة البيزنطية . وترددت أصداؤه بين جنبات الجبل :

– « انقذ شعبك يا الهى ، بارك ورثتك .

امنحنا النصر على البرابرة » .

وقاد القسيس الانشاد بحركات ايقاعية من ذراعه . كان صوته غلابا ، سباقا ، عميقا ، جسورا .

وارتفعت الرءوس المطرقة ، وفتحت النسوة صدرياتهن ، وألقمن أثداءهن لأطفالهن بينما ربضت أخريات على الأرض يطعمن النار بفروع الشجر ، ويضعن الجرار فوقها .

وصاح الأب فوتيس :

– يا أطفالى ، هنا وعلى سفح هذا الجبل الوعر ، وبعون الله تعالى سنتخذ لنا سكنا . قضينا شهورا ثلاثة نضرب فى الأرض ، ونال الارهاق من النساء والأطفال ، وأحس الرجال بالعار من ذل السؤال . الانسان

كالشجرة يحتاج الى أرض - وفي هذه الأرض سنضرب بجذورنا في الليله الماضية رأيت في منامي القديس جورج - سيدنا وحامينا ، وتماما بنفس الصورة التي رسم بها على رايتنا • شـابا أشقر الشعر ، جميلا كالربيع ، يمتطي صهوة جواد أبيض ، وخلفه الأميرة الفاتنة التي أنقذها القديس جورج من الوحوش المروعة التي كانت تعيش حول النبع . وقد مدت يدها اليه ممسكة بابريق من الذهب تصب له منه الماء ليشرب ... هل تعلمون يا أطفالي من هي هذه الأميرة الفاتنة ؟ انهـا روح اليونان ، روحنا نحن • أخذنا القديس جورج معه فوق صهوة جواده ، وأتى بنا الى هنا فوق هذا الجبل القفر حيث نحن الآن • زارني بالأمس في منامي، وبسط الى ذراعه ، ووضع في يدي بذرة قرية جديدة - صغيرة ، صغيرة جدا ، فوق راحتي ، لها كنيستها ، ومدرستها ، وبيوتها ؛ وحدائقها - وقال لي : « ابنها » .

وصدر عن الحشد همهمة وحفيف كحفيف الشجر بين عيدان القصب . وعندما فتح القسيس فوتيس يده ، رأت نسوة كثيرة قرية صغيرة ، صغيرة جدا ، فوق راحته ، تشبه بيضة وضعت تحت أشعة الشمس لتفرخ .

بسط القديس فوتيس ذراعيه ، وبحركة منهما كأنه يحتضن الجبل قال :

ـ انها هنا • هنا سنزرع البذرة التي ائتمنني عليها القديس جورج الفارس - هنا بين الحجارة والكهوف والمياه الشـحيحة ، وتحت هذه الأشجار البرية العجفاء • تشجعوا يا أطفالي ، انهضوا واتبعوني • يومنا يوم عظيم ، سنزرع فيه قريتنا الجديدة . انهض يا أب باناجوس ، ارفع جوال العظام على كاهلك ثانية وتقدم •

رفع المعمر رأسه اليابس ، واتقدت عيناه وسط جفنين تسـاقطت عنهما الرموش • وقال :

ـ يا أطفالي ، ثلاث مرات أشاهد قرى تزرع وتقتلع • الأولى أبادها الطاعون ، والثانية دمرها زلزال ، والثالثة ، هذه المرة ؛ دكها الأتراك • بيد أنني شهدت في المرات الثلاثة أيضا بذرة الانسان تنبت ، حينا في نفس المكان ، وحينا في مكان آخر بعيد • قسيس منح بركاته ، والبناة شرعوا في البناء ، كل انسـان انحنى على الأرض يحفر ، واتخذ الرجال لهن زوجات .. ثم ما أعظم البهجة التي عمت يا ابنائي خلال عام واحد. شقت سنابل القمح الأرض وتصاعد الدخان في المنازل ، وعلا صراخ

الأطفال أثناء الولادة – وأصبحت القرية شيئا ينمو ويكبر · تشجعوا يا أطفالي ان بذرة الانسان ستنبت ثانية ·

وصاح الرجال في بشاشة :

– برافو يا أب باناجوس · لقد قهرت ملاك الموت نفسه ، يا جدنا · أنت التنين الذي قهر الموت · ألست كذلك ؟ ·

ورد الشيخ المعمر :

– هو ذا أنا بكل تأكيد · هو ذا أنا ، فأنا ذاك التنين ·

ارتدى القسيس فوتيس في هذه الأثناء رداءه الكهنوتي ، وجمع بعض أعشاب السعتر والنعناع ، وصنع منها مرشة للماء المقدس ، وملأ قرعة بالماء ، ونادى بعض الغلمان ، وجمعهم حوله وعلمهم ترتيل المزامير ، وترنيم الصلوات ·

وقف الحشد عن بكرة أبيه ، واصطف خلف رائده وقسيسه ، الرجال عن يمين ، والنساء عن يسار · ومن فوقهم الشمس قوية عنيدة لا تعرف الكلل · ترتقي السماء مع كل صباح لتؤدي دورها الفذ المتجدد أبدا ·

وقال القسيس فوتيس :

– باسم المسيح يا أبنائي ، باسم المسيح وباسم وطننا · لقد أجتثت قريتنا من فوق الأرض ، وها هي قريتنا تشيد من جديد · ان جذر سلالتنا أبدي خالد · ماذا عساي أقول لكم يا اخوتي ؟ اني انسان كغيري من البشر ، أبتهج اذا ما صادفني حدث سعيد · بيد أنني أبتهج أكثر عندما تواجهني الشدائد والساعات العصيبة · فهنا أقول لنفسي « الآن يا أب فوتيس ستكشف عن معدنك الحقيقي · أرجل أنت حقا أم لك شجاعة الأرانب ! » ·

وقهقه الرجال والنساء · واذ بهذه الكلمات المفعمة بقوة الرجولة ، المشبعة بخفة الظل ، قد خففت عنهم بعض ما يثقل قلوبهم في هذه اللحظة المهيبة · وهب في صدر كل منهم روح محارب مغوار من سالف الايام ، تطلع الى الحجارة والأشجار المجدبة ، والأفواه الجائعة ، وشمر عن ساعديه .

غمس القسيس مرشة الماء المقدس في الماء الذي باركه وصاح :

ـ اتبعونى جميعا يا أطفالى . سأرسم لكم حدود قُريتنا ، باســم المسيح وباسم اليونان .

رفع العمــلاق علم القديس جورج . وأمســك الرجال بعدتهم ، المجارف والمعاول والفئوس . وحمل الشــيوخ من الرجال الايقونات فى أيديهم . وتصدر الجد المعمر قومه حاملا على ظهره جوال العظام . وتبعهم كذلك كلبان أو ثلاثة صاحبتهم فى مسيرة الخروج ، وشرعت تنبح فى سرور . وحدثت جلبة عظيمة . وفى هذه اللحظة تردد عند أسفل الجبل صوت نفير ولكن لم يسمعه أحد .

غمس القسيس مرشة الماء المقدس فى الماء الذى باركه ، وبحركة من يده على امتداد الذراع نثر الماء على الحجارة والآجام وأشجار الخروب وكأنه يرسم فى الهواء حدود القرية . كانت هذه أول مرة يؤسس فيها قرية جديدة ، وارتجل الصلوات عن قلب يفيض تقوى وايمانا .

ـ يا الهى ، يا الهى ، انى أحد بالماء المقدس حدود قريتنا . نسألك اللهم ألا تطأها أقــدم الأتراك ، وألا يدهمها وباء ، وألا يدمرها زلزال . سنصنع لها بوابات أربع منيعة ، نسألك يا الهى أن تضع عندها أربعة من الملائكة يحرسونها .

وصمت هنيهة . ونثر الماء المقدس على هيئة صليب فوق صـــخرة كبيرة ثم التفت الى رفاقه وقال :

ـ هنا ناحية الشرق سنشيد احدى بوابات القرية ، بوابة المسيح .

ورفع يديه الى السماء وقال :

ـ « الهى هذه بوابتك . من هنا ستدخل سبحانك حين تتلطف بنا لتسمع صوتنا ، وحين تتنزل على الأرض فى ساعة الخطر . تعرف يا الهى أننا بشر ، لذلك فان لنا روحا وصوتا سندعوك به . واذا ألحفنا فى الدعاء فلا تغضب علينا . نحن بشر ، مخلوقات معذبة ، أثقلتنا الهموم ، وثمة لحظات تلم بنا ، ينوء فيها القلب بحمله ولا يطيق المزيد ، فينفطر ، ويلفظ بما يعيب ويفرج عن كربته . الحياة يا الهى عبء ثقيل . ولولاك لأمسك كل منا بيد الآخر ، رجالا ونساء ، وذهبنا لنلقى بأنفسنا فى هوة سحيقة ما لها من قرار لنتخلص من الحياة . ولكنك موجود ، وأنت يا ربنــا الفرحة والعزاء وحامى المقهورين . ها هى ذى بوابتك . فادخل » .

وتحرك القوم صوب الجنوب . ومرة أخرى رسمت الحدود فى الهواء . ورتل القسيس مزمورا ، وحفت بصوته العميق أصوات الاطفال الواهنة كأنها شقشقة العصافير .

وتوقف القسيس هنيهة أمام صخرة مجوفة مملوءة ماء قراحا وقال :

ــ هنا سنبنى بوابة العذراء حامية السلالة البشرية . ضعوا علامة هنا .

وبسط ذراعيه وقال :

ــ « يا أمنا العذراء . يا زهرة نضرة أبدا ، تزهر نبات العض الذى يحف بشجر السنديان البرى ... يا سيدتنا ... نحن شعب بار مغلوب على أمره ، اسمعى دعاءنا . اخترنا لك مقاما هنا على الأرض قريبا منا . وحجرك عش حنون يحتمى به البشر . أنت أم تعرفين معنى الحسرات والطوى والموت . وأنت امرأة تعرفين معنى الصبر والحب . يا سيدتنا ، أطلى من عليائك على قريتنا ، وامنحى نساءها الصبر والحب ، عسى أن تثبت أقدامهن فى هذا الصراع اليومى ، وأن يحتملن بغير شكوى ، مع آبائهن وأزواجهن ، عناء الأطفال وعذابات البيت . امنحى الرجال القوة على العمل ، والأمل المتجدد دائما ، والانتصار على الموت بأن يملأوا الفناء بالأبناء والأحفاد . يا سيدتنا امنحى شيوخنا من النساء والرجال خاتمة مطمئنة مسيحية لحياتهم . ها هنا بوابتك . أنت حاميتها ياسيدتنا ، فادخلى » .

فى هذه اللحظة ظهر خلف الموكب حمار يحمل على ظهره أحمالا ، ولكن لم يلحظه أحد . وقف الحمار فجأة مأخوذا ، وأدار عينيه الواسعتين المخمليتين الى صاحبه يسأله عما يفعل . وظهر ياناكوس بدوره خلف الحمار ، لاهث الأنفاس ، غارقا فى عرقه ، لاعنا الشمس والحجارة .

وتوقف هو الآخر مذهولا كصديقه يوسوفاكى . سمع تراتيل القسيس وكلماته الأخيرة . وتلفت حوله حائرا . انه يقول : « ها هنا البوابة » ... أين ... أين هذه البوابة ؟ما هى تلك القرية التى سيشيدونها ؟ بأى شيء ؟ من الهواء ؟ أم فى الهواء ؟ عليهم اللعنة . ما بالهم يقتلهم الجوع ومع ذلك يتحدثون عن بناء قرية ؟ أقدامهم لا تقوى على حملهم ، ومع ذلك يرتلون مزامير الحرب : « هب لنا النصر على البرابرة ... » رحماك يا رب فان بهم لجنة » .

ربط حماره الى شجرة سنديان ،جدعاء ، واتخذ لنفســـه مكانا بين الموكب فى صمت وخفية • وأخذ يتطلع الى ما حوله بعينين واسعتين ، واذنين مرهفتين ، وهو لا يستبين من أمره شيئا ••• أيضحك لذلك أم يبكى • اقتفى أثر الآخرين • يرقب القسيس يمشى وثبا ، ومرشة الماء المقدس فى يده ، وهو يخط الحدود فى يقين يأخذ بالألباب ، وكأنه كان يبصر حقا فى الهواء شوارع المستقبل ، والبيوت والكنيسة ومســـاكن الأعيان •

وتوقف القسيس للمرة الثالثة عند الجانب المقابل لبوابة المسيح • فمد بصره صوب الغرب ثم اعتلى صخرة شماء شقتها شجرة كمثرى برية مزهرة • وقال :

ـ « هنا سنبنى بوابة القديس جورج العـامل الكادح • انه مثلنا نحن الرجال ينحنى على الأرض يفلحها•ويسوق الماعز والأغنام الى المرعى، ويقود الثيران ، ويشــذب الأشجار ويطعمهـــا • لم يكن القديس جورج محاربا مغوارا فحسب بل كان أيضا كادحا عظيما • اننا نضع ثقتنا فى تأييدك لنا يا حامى قريتنا • نسألك أن تمنح الخصب لما نملك من ماعز وحملان ، حتى تفيض ضروعها لبنا طعاما لأطفالنا ، وتجود علينا بلحمها غذاء لأجسادنا لتجد فيه عونا على حمل نفوسنا ، وتسخو علينا بصوفها حتى لا يقهرنا ثلج الشتاء • أيها القديس جورج ، نسألك أن تبارك كل المخلوقات التى تأنس الى الانســـان وتعيش لخدمته ـ الثيران والحمير والكلاب ، والدجاج والأرانب ••• نسألك أن تنحنى على الأرض وتباركها أيضا • سنلقى ببذرة النبات بين أحشائك وسوف تسوق لها المطر عند الحاجة عسى أن تنمو وتثمر ••• الأرض والناس والقديسون ، كلهم جيش واحد مع الرب أمامنا فى المقدمة يهدوننا الى الطريق • أيها القديس جورج ، ها هى ذى قريتك ، وها هى ذى بوابتك • أردناها لك عالية حتى تدخل منها وأنت على صهوة جوادك • فادخل » •

ظل ياناكوس ينصت فاغرا فاه ، وفرك عينيه بأصابعه وتلفت حوله• لا شيء غير الصخور ونباتات التوت الشــوكى والسـمار والسعتر •••• وغرابين فوق شـــجرة خروب تملكهما خوف فحلقا فى الفضاء يدفان بأجنحتيهما وينعبان فى حزن •

وتساءل فى فزع :

ـ ما هذه المخلوقات ؟ هل هم من البشر ؟ أم حيوانات برية ؟ أم قديسون ؟

تطلع الى الرجال بشواربهم المتهدلة ، والى النساء بضفائرهن الغزيرة ، وأردافهن الثقيلة ...

« عونك يا الهى ، لقد أصابتهم جنة أذهبت عقولهم تماما » .

واتجه القسيس شمالا صوب مكان مقابل لبوابة العذراء ووقف ثانية أمام جدار متهدم غطته الأعشاب . لوح بمرشة الماء المقدس ، وبارك الحجارة ثلاثا ، ثم استدار الى رفاقه وقال لهم بصوت متهدج :

ـ هنا ... هنا يا اخوتى سنبنى بوابة آخر ملك لنا من ملوك بيزنطة ... قسطنطين باليلوجوس . وانى على يقين يا أحبائى أنه سيدخل من هنا يوما ما رسول يتصبب عرقا يعلننا : « يا اخوتى ، عادت الينا القسطنطينية من جديد » .

لم يتمالك الحاضرون أنفسهم . وتعالت صيحات مهتاجة . واستداروا فى ذهول ناحية الشمال ، يحدقون بأبصارهم الى الأفق البعيد صوب القسطنطينية مدينتهم المقدسة : انهم يرون الرسول رأى العين قادما تحمله اليهم الرياح .

ونادى القسيس :

ـ يا أب باناجوس . تقدم وحط عن كاهلك جوالك ، عند عتبة بوابة الملك باليلوجوس .

ثم قال مخاطبا الرجال الذين يحملون العدة :

ـ احفروا .

وفعلوا ما أمروا به . ضربوا بمعاولهم ضربات قوية ، وحفروا قبرا واسعا ، عميقا ، يسع انسانا على امتداد قامته . ونزل فيه الرجل المعمر . ومد يده الى الجوال يخرج منه العظام واحدة بعد أخرى : جماجم وعظام فك وضلوع ، وكومها فى الحفرة فى صمت وخشوع . ونثر القسيس فوتيس على العظام ما بقى فى المرشة من ماء مقدس ، ثم ألقى بها فى الحفرة وصاح :

« يا آباءنا ، صبرا قليلا . لا تتحللوا وتصبحوا ترابا : انظروا ، ها هو الرسول قادم » .

ومسح ياناكوس عينيه . وأحس بجفاف في حلقه .

واصدر القسيس امره :

ـ هيا اخرج الآن يا أب باناجوس . أخرج فاننا سنردم الحفرة .

وأسرع فتيان يمدان اليه أيديهما ليعيناه على الخروج .

وقال لهم الشيخ في ضراعة :

ـ أتركوني يا أبنائي . انى راض بمقامي هنا . لماذا تريدون منى أن آكل خبزا لا حق لى فيه ؟ لم أعد قادرا على العمل ، ولم أعد قادرا على الانجاب ، أتركوني فلا نفع لى .

وقال القسيس بنبرة قاسية :

ـ يا أب باناجوس ، لم تحن ساعتك بعد ، فلا تتعجل .

ورد عليه الجد متوسلا :

ـ أتركني يا أبانا ، فأنا حيث ينبغى أن أكون . سمعت فيما يقال لو لم يدفن انسان تحت أساس القرية فانها سرعان ما تنقض . ومن أين لى بميتة أفضل من هذه ؟ ادفنوني .

وقال القسيس محتجا :

ـ هذا لا يمكن أن يكون . وهبك الرب حياة ، وهو القادر وحده على أن ينتزعها منك . ليس هذا من حقنا يا أب باناجوس ... أخرجوه يا أبنائي .

وانحنى الفتيان ، ومدوا أذرعهما ليخرجاه ... ولكن المعمر كان قد رقد فوق العظام وهو يبكي :

ـ اتركوني يا أبنائي ، اتركوني ، فأنا حيث ينبغى أن أكون .

لم يعد ياناكوس قادرا على كبح جماح نفسه . انحنى فوق الحفرة وشاهد الرجل الكهل . كان مستلقيا على ظهره ، ساكنا بغير حراك ، متجها بوجهه ناحية الضوء ، مبتسما فى سعادة ، عاقدا ذراعيه الى صدره، لا يفتأ يغمغم بكلمات :

ـ أنا راض بمقامي هنا ... أنا راض بمقامي هنا ...

لان حلق ياناكوس بعد جفاف ، وتردد صوت نشيج .

التفت القسيس ، ورأى ياناكوس ، وتعرف عليه • وصاح :

ــ افسحوا يا أبنائى . هاكم رجل بار من أهل ليكوفريسى . أتى ليرانا ويشد من أزرنا فى بلوانا • رحبوا به يا اخوتى • انه أحد الأربعة الذين أحسنوا الينا بالسلال •

تذكر القسيس اسمه ، وأمسك بيده يهزها بانفعال وقال له :

ــ مرحبا بك ياياناكوس . لن يحرق الله ليكوفويسى بناره بفضل حبك أنت وأصدقائك •

لم يعد ياناكوس قادرا على كبح جماح عواطفه ، وأجهش بالبكاء •

عانقه القسيس وقال له :

ــ ماذا يبكيك يا أخى ؟

ــ اقترفت خطيئة يا أبانا • اقترفت خطيئة •

ــ تعال معى •

ــ ماذا يبكيك يا أخى ؟

ــ اقترفت خطيئة يا أبانا • اقترفت خطيئة •

ــ تعال معى •

أمسك بذراعه وانتحى به جانبا •

ــ ماذا يبكيك ؟ أى خطيئة ؟ حدثنى يا بنى عما يثقل قلبك .

ثم أردف قائلا وهو يبسط ذراعيه يشير بهما الى قرية المستقبل :

ــ انت أحد مؤسسى قريتنا .

ولكن ياناكوس خانته قدماه وسقط على الأرض فوق صخرة ، ووقف القسيس يحملق فيه ببصره مهموما • وسأله :

ــ هل أنت بحاجة الى شىء ؟ هل اقترفت اثما ؟ لا تبك •

ــ اقترفت خطيئة يا أبانا • أريد أن أعترف لك بكل شىء حتى يذهب عنى الحزن •

تساقطت الكلمات من فيه متعثرة الواحدة فوق الأخرى ، وتلاحقت انفاسه ، قصيرة لاهثة . وبدأ يقص عليه سببَ ارتقائه جبل ساراكينا ، واتفاقه مع الأب لاداس ، والجنيهات الذهبية الثلاث التى قبلها منه تحت الحساب .

أصغى اليه القسيس بانتباه شديد دون أن ينبس ببنت شفة . وتطلع اليه ياناكوس فى فزع .

واخيرا قال بصوت مرتجف :

ــ ماذا ترى يا ابانا ؟

ــ أرى أن الانسان وحش ، وحش كاسر .. لا تبك . فانى أرى ايضا أن الله كبير .

وغمغم ياناكوس قائلا :

ــ بل ان الانسان اكثر شرا من الوحش .

وبصق على الأرض كانه أحس بدوار . واستطرد يقول :

ــ الانسان دودة تعيش فى الطين .. دودة قذرة ، حقيرة ، دنسة ... لا تلمسنى يا أبانا . ألا تشمئز منى ؟

لم ينبس القسيس ببنت شفة ، وسحب يده من ذراع ياناكوس ، وغض من طرفه ، وتأوه فى حسرة .

وثب ياناكوس من فوق الصخرة التى سقط فوقها ، ودس اصابعه في جيب سترته وأخرج الجنيهات الذهبية الثلاثة .

ــ يا أبانا ، هل لى أن اطمع فى كرمك ، فتقبل منى هذه الجنيهات الذهبية الثلاثة وتشترى بها بعض الأغنام للقرية .. من أجل الأطفال ، فهم بحاجة الى اللبن .. واذا تفضلت على ، فضع يدك على راسى واصفح عنى .

ظل القسيس جامدا فى مكانه بغير حراك .

ــ اذا لم تقبلها منى : فلن تعرف روحى معنى السكينة أبدا

وبعد لحظة صمت قال :

ــ قلت لى ان الانسان وحش كاسر ، فهل لك أن تروضه يا أبانا . كلمة طيبة منك تكفينى . خلاصى فى هذه اللحظة معلق بين شفتيك .

القى القسيس بنفسه بين ذراعى ياناكوس وانخرط بدوره فى البكاء .

وصاح ياناكوس :

ــ هل هذا من أجلى ؟ هل تبكى من اجلى ؟ .

غمغم القسيس فوتيس وهو يمسح دموعه .

ــ من اجلك ، ومن أجلى ، ومن أجل العالم أجمع ، يابنى

وقبل ياناكوس بين حاجبيه ، وربت بيده على شعره الأشيب الكث .

ــ مغفورة لك خطاياك ياياناكوس . ان بطرس انكر هو الآخر المسيح ثلاث مرات ، وانقذته الدموع فى المرات الثلاثة . الدموع يابنى أشرف ماء للتعميد .. أقبل منك ذهب الخطيئة الذى تقدمه لى . ستتحول خطيئتك الى لبن لأطفالنا الجوعى . انى أباركك ياياناكوس .

خر ياناكوس راكعا أمام القسيس ،وحاول ان يقبل قدميه ، ولكن سرعان ما انحنى عليه القسيس وأنهضه . وقال :

ــ لا . لا . اننا على مرأى منهم ، وها هم قادمون .
وتعالت صيحات هلوعة :

ــ يا أبانا ، يا أبانا ..

وقال القسيس فوتيس منزعجا :

ــ ماذا حدث يا أبنائى ؛

ــ يا أبانا ، الشيخ باناجوس أسلم الروح . حاولنا أن نخرجه من القبر .. ألفيناه ميتا .

رسم القسيس فوتيس علامة الصليب . وقال :

ــ أدعو الله أن يغفر له .مات سعيدا ، وها هو أصبح لبنة فى أساس قريتنا .. ندعو الله يا ابنائى ان يحسن ختامنا مثله .. سآتى لأمنحه بركاتى .

ثم قال مخاطبا ياناكوس :

ــ انصرف يابنى ولا تخش شيئا . المسيح معك .

وانحنى ياناكوس على يد القسيس وقبلهـا ، وانطلق ليحضر حماره .

وأحس بالفرحة كانها جناحان يحملانه ، وأخذ يعدو وثبا من صخرة الى أخرى مثل فتى فى العشرين من عمره . وشعر بخفقان عند ظهوه كأن جناحين قد نبتا فيه .

وغمغم :

ـ ليذهب العجوز لاداس الى الشيطان . الى الجحيم بذهبه . انى أشعر بنفسى خفيفا كأننى أطير .

وربت على حماره الذى كان ينتظره في قلق تحت ظل شجرة سنديان ، وفك وثاقه وهو يترنم بلحن .

وقال :

ـ سننصرف يايوسوفاكى . انتهى عملنا نهاية طيبة . حمدا لله .

واستدار ، فوقع بصره على الصخور الوعرة ، والكهوف المعتمة ، والرجال وقد انحنوا فوق قبر الجد تحت بوابة المستقبل التى ستبنى باسم الملك باليولوجوس ، ينصتون لقداس الدفن ، ويرسمون علامة الصليب .

وتمتم :

ـ أدعو الله أن يجعل من قريتكم حقيقة واقعة . لقد اسهمت فى تأسيسها بثلاث جنيهات ذهبا .

وبدأ ينزل المنحدر وهو يتغنى .

وقال لنفسه :

ـ حقا ما قلت « الانسان وحش كاسر » .. نعم ، انه يفعل ما يختار . انه يسلك الطريق الذى يختاره لنفسه . أمامه بوابة الجحيم وبوابة الفردوس متلاصقين ، وهو يدخل أيهما يختار .. الشيطان لا يدخل سوى النـار ، والملاك لا يدخل سوى الفردوس ، أما الانسان فانه يدخل أيا منهما حسب اختياره .

وضحك واردف قائلا :

ـ سلاما أيها الوحش المقدس يا ابن آدم .

ثم ترنم بلحن أغنية قديمة معروفة منـــذ زمان لا يعـــلم الا الله مداه . وها هى الآن تتردد على شفتيه ثانية :

أنا ابن البرق ، وحفيد الرعد

بمشيئتى يومض البرق ، ويدمدم الرعد

ويسقط الثلج .

ـ انى جائع . سآخذ شيئا آكله . ويوسوفاكى جوعان أيضا . سأذهب لآتيه ببعض العشب الأخضر ، حتى لا يغار منى اذا ما رآنى آكل . لنجلس أنا وهو جنبا الى جنب كأخوين ، ولنأكل لقمة سويا .

وسار بضع خطوات ،وجمع بعض الحسك ، ووثب فوق سور ، وقطع بعض أوراق الكرنب ، وربط هـــذا وذاك فى حزمة واحدة وقدمها لرفيقه :

ـ خذ . كل يا حبيبى يوسوفاكى . سآكل أنا أيضا . غداء هنيئا.

فتح خرجه ، واخرج منه خبزا وزيتونا وبصلة ، وبدأ يلوك طعامه على مهل وفى اطمئنان على نحو ما يفعل الأرنب .

وتمتم قائلا :

ـ جميل جدا هذا الخبز . أخال أننى اطعمه لأول مرة فى حياتى . بيد أنه ليس بخبز ، انه كسرات منه ، ولكنه يسرى الى العظام توا ويمنحها قوة .

وآخرج من الخرج زجاجة نبيذ نقش عليها صورة صقر له رأسان. ومال بطرفها الى فمه ، وتردد صوت كركمة طروب .

وقال :

ـ ها أنذا أشعر كأننى أشرب النبيذ أيضا لأول مرة . ياله من شراب عربيد ،يشق طريقه توا الى القلب ، ويشيع فيه نشوة . خلق الله الكرم والنبيذ لحكمة بالغة ، وبورك من فكر فى هرس الكرم لنخرج منه النبيذ ... هاتها ... جرعة أخرى .

وضع الزجاجة على فمه ثانية واغمض عينيه .

وقال صوت بادى الانتعاش :

ـ فى صحتك يايانا كوس .

فتح ياناكوس عينيه ، فأبصر كاترينا ، وعلى كتفها صرة ثقيلة . ومن ورائها نعجتها وقد التف شريط حول رقبتها .

وصاح :

ـ ايه ياكاترينا ، ماذا وراءك ؟ ماذا أتى بك الى هنا ؟ الى أين بنعجتك هذه ؟ هل تبيعينها ؟

وابتسمت الأرملة وهى تقول :

ـ نعم .

ـ تعالى . اجلسى لحظة وكلى واشربى . القسيس فوتيس كان يرغب فى شراء نعجة تدر للأطفال لبنا .. ان الله هو الذى ارسلك الى هنا .

جلست الأرملة على الأرض . ومسحت بمنديلها الأسود العرق من فوق وجهها وعنقها . وكانت عيناها تفيضان سعادة .

وقالت :

ـ ما أشد حرارة الجو . حل الصيف ياياناكوس .

أخذ ياناكوس كسرة خبز وحفنة زيتون وناولهما للأرملة وهو يقول :

ـ كلى شيئا . هل يروقك البصل ؟

أخذت الأرملة منه الخبز والزيتون وقالت :

ـ لا . فانا لا أطعم البصل ابدا .

وقال ياناكوس ضاحكا :

ـ حتى لا يفسد رائحة فمك يا خبيثة ؟

ـ نعم .

قالتها وقد تغير صوتها بغتة . اذ بدت فيه رنة حزن . ثم واصلت حديثها :

ـ تعرف يا جارى أننا نفضل ان تفوح منا رائحة الصابون المعطر واللافندر .

وأزاحت الخبز والزيتون جانبا .

وقالت :

ـ آسفة . فلست أشعر بالجوع .

وخجل ياناكوس من نفسه . وابتلع ما فى فمه .

وتمتم :

ـ بل انا يا كاترينا أحق بأن أكون آسفا . أنا حمار .

التقطت الأرملة ورقة عشب ووضعتها فى فمها تستحلبها دون أن تنبس بكلمة .

وخيم عليهما الصمت لحظة ، واحس ياناكوس بعزوف عن الأكل . فأغلق خرجه .

وشاء ياناكوس أن يقطع الصمت الذى اثقله . فسألها :

ـ ما الذى جئت به في صرتك يا كاترينا ؟

ـ بعض ملابس للأطفال ، لا حاجة لى بها .

ـ هل كنت ذاهبة لتتصدقى بها عليهم ؟

ـ نعم .

ـ والنعجة ؟

ـ والنعجة أيضا ، لتدر لهم لبنا .

واطرق ياناكوس خجلا . وأردفت الأرملة بعد لحظة كأنها تلتمس لنفسها المعاذير :

ـ تعرف يا جارى أننى لم انجب أطفالا ، وأشعر كأن كل أطفال الدنيا أطفالى أنا .

واحس ياناكوس بجفاف في حلقه . وقال بصوت مخنوق :

ـ كاترينا .. أود أن ألقى بنفسى عند قدميك أقبلهما .

ـ استدعانى بطرياركاس ، هذا الفاسق العجوز ، قبل أول امس لزيارته . وأنبأنى بقرار مجلس الأعيان ، بأننى سأقوم بدور مريم المجدلية فى العام القادم . وكنت قد سمعت بعض ما يروى عن مريم المجدلية . وهذا هو ما أصبحته أنا ـ مريم المجدلية لهذه القرية ..

وعندما انبأني بذلك احسست بالخجل . أما الآن ياياناكوس فانني ما عدت أشعر بالخجل . فلو أنني التقيت بالمسيح ، ومعي زجاجة عطر، لأرقتها على قدميه اغسلهما بالعطر وأمسحهما بشعري .. أظن أن هذا ما سأفعله ،وسألازم مريم العذراء دون أن آنس في نفس خجلا . وهي بدورها لن تخجل من مصاحبتي لها .. ترى هل فهمت بعض ما قلته لك الآن ياياناكوس ؟

اجاب ياناكوس والدموع في مآقيه :

ـ أفهمك ياكاترينا .. أفهمك .. بدأت أفهم اليوم فقط ، ومنذ هذا الصباح يا كاترينا .

ثم أردف يقول بعد صمت قصير :

ـ أنا آثم كبير ، خطاياي تفوق خطاياك ياكاترينا . ولهذا السبب أفهمك .. قبل اليوم كنت سارقا كذوبا الى حد ما ، وكل هذه لم تكن كبائر بل صغائر .. ومع هذا الصباح كنت مجرما أثيما .. أما الآن .

ولاذ بالصمت . وطار قلبه من بين جوانحه . أمسك بزجاجة النبيذ وقال :

ـ في صحتك ياكاترينا . أسأت اليك الآن فاغفري لي . الحمار لا يفعل غير ما تفعله الحمير .

بعد أن شرب ، مسح عنق زجاجته بعناية .

ـ اشربي أنت أيضا يا كاترينا حتى أطمئن الى انك غفرت لي .
وقالت الأرملة بعد أن مالت بجيدها الى الوراء .

ـ في صحتك .

ومسحت فمها ونهضت واقفة .

وقالت :

ـ سأنصرف . النعجة قلقة ، وها هي تثغو كأنها لا تحس بالسعادة . لم أحلبها هذه المسكينة . اريد أن يحلبوها هم هناك فوق الجبل .

ـ هل لن تفتقد بها يا كاترينا ؟ فأنا أعرف مدى حبك لها .

ـ ترى لو انك تصدقت عليهم بحمارك هل كنت تفتقده ؟

اقشعر بدن ياناكوس لسماعه ذلك وقال :

ـ لا تقولى هذا يا جارتى فان كلامك يمزق قلبى .

ـ ويمزق قلبى أيضا ياياناكوس . وداعا . اتمنى لك حظا سعيدا .

وترددت لحظة ، ثم تجاسرت على القول :

ـ هل سترى مانولى ؟

ـ سابدأ جولتى بين القرى .. واحسب اننى عند عودتى قد أعرج عليه واذهب لأراه .. هل تريدين منى ان اقول له شيئا ؟

كانت الأرملة قد رفعت صرتها فوق كاهلها ثانية وبدات تشد بقوة النعجة الحرون .

وردت عليه قائلة :

ـ لا ... لا شيء .

وأخذت سبيلها صاعدة .

***

فى هذه الإثناء كان مانولى قد بلغ الجبل . وشمت الكلاب رائحته عن بعد فأخذت تعدو نحوه ، تهز ذنبها ووراءها نيكوليو . ونيكوليو راع صغير السن ، لوحته الشمس ، وله أذنان مدببتان . خف الى مانولى . يثب من صخرة الى اخرى كانه جدى . نما وترعرع بين الجبال مع الماعز والأغنام . وهو أسمر شديد السمرة ، شرس قليل الكلام ، فحياته كلها ثغاء مع الأغنام والكباش . وشعره المموج ، الذى خالطه الراتنج والروث ، مجدول على شكل ضفيرتين ، بدتا كأنهما قرنان صغيران مدببان . انه يناهز الآن الخامسة عشرة من عمره ، ينظر الى الأغنام بوجه عابس كوجه الكبش .

عندما بلغا ساحة المرعى ، وضع نيكوليو فوق الدكة الحجرية خبزا وجبنا وقديدا ، وقال :

ـ كل .

ـ لست جوعانا أيها الهمام نيكوليو . كل انت .

ـ ولماذا لا تشعر بالجوع ؟

ـ لا ارغب .

ـ هل آذوك هناك تحت ؟

ـ نعم .

ـ ولم ذهبت اليهم؟

لم يجب مانولي واستلقى على مخدعه المصنوع من القش ، وأغمض عينيه . حقا : لماذا ذهب اليهم ؟ اعتاد قبل ذلك أن ينزل الى القرية صباح كل احد ، يسمع القداس ،ويتناول القربان ، ثم يعود من فوره الى الجبل . كان يحس بالاختناق هناك في السهل . يضيق صدره اذا أبصر النساء ،وتعتصر حلقه رائحة التبغ والنار جيلة كلما مر بالمقهى ورأى الرجال مقبلين على الشراب ولعب الورق ، لذلك كان يمر بهم سريعا ، يحث الخطى عائدا الى الجبل حيث الهواء النقي . والآن . . .

تذكر لينيو ، ونظراتها الماجنة ، وابتسامتها الساخرة ، وصوتها الساحر ، ثم ، وقبل هذا كله ، ثدييها النافرين يدفعان صدريتها الوردية الى الأمام حتى تكاد تتمزق . ونهض جالسا على الحصير . أحس بسخونة شديدة . فنزع عنه قميصه الذي بلله العرق .

وقال لنفسه :

ـ يجب أن أتجلد وأحافظ على نقائي ولا ألمس امرأة . سأقدم الحساب من الآن فصاعدا فان هـذا الجسد ليس ملكا لي ، انه ملك المسيح .

وطافت بمخيلته صورة المسيح كما رآها يوم وصوله الى الدير مرسومة على ابواب الكنيسة المحلاة بالأيقونات : ازار أزرق طويل ، وقدمان عاريان يمسان الأرض برقة متناهية حتى تكاد أوراق العشب الا تميل من تحتهما . نحيلا ، شفافا ، رقيقا كالضباب . ومن يديه المقدستين ، وقدميه وصدره المكشوف ، يسيل خيط رقيق قان من الدم . . وامرأة في ريعان الشباب ، يهفهف شعرها الذهبي حول كتفيها، تهرول نحوه ،تحاول أن تلمسه ، ولكنه يرفع اليها يده في حزم ليوقفها. ومن فمه المقدس تخرج باقة من الكلمات كأنها كتاب منشور . قرأها مانولي دون أن يتبين معناها . وسأل رئيس الدير : « يا أبانا ماذا يقول المسيح هناك ؟ » واجابه بقوله : « يا امرأة ، لا تلمسيني » . ومن هي المرأة يا أبانا ؟ « مريم المجدلية » .

« يا امرأة لا تلمسيني » . وأغمض مانولي عينيه . وفجأة رأى

الأرملة كاترينا تهز راسها ، وتطوح عنها منديلها الأسود . انحل شعرها الأشقر ،وتهدل الى ركبتيها وستر ما بان من سوأتها . واذا بهبة ريح تطوح شعرها ، فتكشف عن ثديين مدورين مكتنزين .

وهب واقفا فوق مخدعه وصاح :

ـ النجدة .

كان نيكوليو ، الراعي الصغير ، لا يزال جالسا الى طعامه ، يأكل بنهم لا يشبع . فالتفت اليه فى هدوء وفمه ملآن ، وقال له :

ـ هل تحلم يا سيدى ؟ هل هناك من يتعقبك ؟ آنا أيضا يتراءى لى فى أحلامى أناس يتعقبوننى . لا عليك ، فالاحلام كذاب . نم ولا تكن ابله .

ـ اوقد النار يانيكوليو ، انى مقرور .

كان الراعى الصغير عاجزا عن أن ينأى بنفسه عن الخبز واللحم ، فرد عليه معترضا :

ـ ولكن القيظ خانق ..

عاود مانولى كلامه وأسنانه تصطك :

ـ انى مقرور ..

نهض الراعي الصغير وهو لايكف عن المضغ . واتجه بادى التذمر الى ركن في الحجرة ، وأخذ بعض الخشب والأغصان ووضعها فى المدفاة وأشعل فيها النار . واقترب من مانولى ، ونظر اليه مليا ، وهز راسه :

ـ حسدوك يا سيدى .

قال ذلك ، وعاد ادراجه ليأكل فى نهم .

جر مانولى جسمه الى احد أركان الكوخ ، وتدثر بأسمال بالية ، وتكوم حول نفسه . اخذ يرقب النار وهى تأتى على الخشب . وتراءت له لينيو ومريم المجدلية والمسيح يتراقصون مع ألسنة اللهب ، يقتربون ثم يفترقون ليقتربوا ثانية .. وتراقصت ألسنة اللهب ، واحتجبت النسوة وراء الدخان المتصاعد ولم يبق غير المسيح مصلوبا فوق الشرر . رآه واضحا جليا بوجهه الشاحب مائلا على صدره ، ويداه مسمرتان فوق الخشب .. وتراقص اللهب وبعث الحياة فى المسيح وخرج من

بين الرماد .. اخذ يتضاءل شيئا فشيئا ، ،وانحنى على نفسه ،وبعدها شب واقفا ، ثم اختفى وتوارى فى الدخان .

نال الانهاك من مانولى كل منال ، ولم يعد قادرا على متابعة الخيالات التى تتراءى له ، وسقط راسه بين ركبتيه ، واحتواه النوم .

كان نوما ثقيلا لزجا . حاول مانولى جاهدا طوال الليل ان يتخلص منه . أحس كأن أعشاب البحر وثعابين الماء تحيط به من كل جانب وتتعلق به .. وتراءى له عند الفجر شلال من ضفائر شقراء ، تتدفق عليه ، تثب نحوه ، وتتناثر وتغطيه من كل ناحية ، ويصرخ بصوت مخنوق « النجدة » . ولكنه لا يزال غارقا فى سباته عاجزا عن أن يفلت من النوم . وها هو ذا الآن يطفو على ظهره فوق ماء نهر ، يئن ويتوجع.

استيقظ الراعى الصغير مرتين أو ثلاثا على صرخات مانولى الحادة . وعند سماعه لها يغمغم :

- « لا يزال يحلم بأنهم يتعقبونه ، ياله من مسكين » . ثم يتقلب على جنبه ويستسلم للنوم ثانية .

عند مطلع الفجر فتح مانولى عينيه ، وطالعته من فتحة النافذة سماء صافية . فرسم علامة الصليب . ثم قال بصوت نصف مسموع :

- حمدا لله ان انقضى الليل ونعمت بالخلاص .

كان يشعر بألم فى مفاصله ، والتهاب فى عينيه ، ورجفة فى جسده . خمدت النار ، وأحس بالعطش . كان يتوق الى بعض اللبن الساخن . ولكن نيكوليو كان قد خرج ليرعى الماشية ، وهو لا يشعر برغبة فى النهوض . وتطلع حوله كانه يرى لأول مرة عدة مهنته : الأوانى واسطال اللبن ، وملاعق خشبية معلقة على الجدار شكلتها وحفرتها يداه بحذق ومهارة . فهو منذ صباه كان اذا وقعت يده على قطعة خشب أمسك بسكين واعمل يده حفرا ونقشا فيها ليشكل منها طيورا واشجار سرو . ثم بدأ يشكل منها بعد ذلك تماثيل نساء ، وبعدها رجالا على صهوة جيادهم ، واخيرا ، وبعد أن ذهب الى الدير ، قديسين ورجالا على الصليب ..

وذات يوم مر به راهب فى المرعى وقال له : « يابنى كان احرى بك ألا تعمل راعيا . خير لك ان تكون راهبا . نعطيك الخشب وتصنع لنا أيقونات .

تسللت الشمس من النافذة . خرج اليها مانولى ، وجلس تحت أشعتها ليذيب ما ببدنه من تصلب · وبعد أن استعاد الدفء عاودته احلام ليلة البارحة .. نهر من الشعر الذهبى ، وأقشعر بدنه .

وغمغم :

– يسوع ربى .. لا تدعنى أستسلم للغواية .

أحس ببعض السكينة ، ونهض من مكانه ، وأوقد نارا ، ثم اغترف قليلا من اللبن من الدلو ووضعه على النار وشربه · أسترد بعض قوته · وخرج بعدها وجلس فوق مقعد حجرى فى فناء الحظيرة. كانت الشمس على بعد ذراع من الأفق ، وبدأ العالم يصحو من نومه ، وتألق الجبل تحت ضوء الشمس · وتناهى اليه على البعد صوت نيكوليو يسوق الأغنام .

وتمتم :

– ها أنذا على ما يرام الآن · والغواية تأتى ليلا ، وها هى الشمس أشرقت والحمد لله .

وتلفت حوله ، ووقع بصره على كتلة خشب عند الباب مقطوعة من ساق شجرة وخفق لها قلبه فرحا . وانحنى عليها واخذها بين يديه واسندها الى ركبتيه ، ومسح عليها بيده . كانت كبيرة مستديرة وكأنها راس . وبدت اليافها معوجة ومتشعبة كأنها العروق فى هذا الرأس .

أحس مانولى بأكلة تدغدغ أطراف أصابعه · ونهض فجأة ، ودلف الى الكوخ ·· وأحضر منشارا صغيرا وازميلا ومبردا · ورسم علامة الصليب فى عجلة ، وقبل قطعة الخشب وبدأ يعمل فيها يده ·

اقتربت الشمس من سمتها ، ولا يزال مانولى منصرفا الى عمله، منكبا على قطعة الخشب التى احتضنها الى صدره . لقد نسى تماما ما يعانيه من ارهاق · والهواء الطلق نقى الأرض تماما ، وحاكت فى نقائها السماء . وولت الغواية الأدبار . كانت لينيو بعيدة عنه ، بعيدة جدا الى ما وراء الشمس · وكذلك الأرملة ولت عنه . انتحت ركنا قصيا مظلما فى أرض المرعى على هيئة نسيج العنكبوت ·

كان مانولى يحفر هائما بوجدانه مع قطعة الخشب ، عيناه تبصران الى مكنون ذاته . واضحت روحه كلها عينا يبصر بها ..

يتأمل فى سويداء قلبه وجهـا هادئا ، كله رقة وسكون وأسى . حاول مانولى أن يصور بصـدق وأمانة ما يراه بعـين بصيرته .. الوجنـات الغـائرة ، والنظرات الحزينة المتألمة ، والجبين العريض وقـد انعقدت عليـه قطرات غليظة من الـدم .. وجرحا بين الحاجبين ، لا تراه فى الأيقونات وانما يبصره مانولى وحده .

كان العرق يتصبب من جبهتـه . جرح اصبعه بالأزميل ، وصبغ دمه الخشب بلون أحمر . ولـكن لم تفتر همته . كان متلهفا على محاكاة الوجه المقدس وتثبيته على الخشب قبل أن يتوارى من أمامه .

* * *

بينما كان يعمل فى الخشب حفرا بصورة محمومة ، ظهرت عند أول الطريق امرأتان .. فتاة يانعـة الصبا تتبعها عجوز لفت وجههـا بمنـديل أبيض . عندما أبصرت الفتـاة مانولى ، اسـتدار الى العجوز ووضعت اصبعها على شفتيها . وتقدمت الاثنتان خلسـة وعلى حذر ، شغوفتين بمعرفة ما الذى يفعله مانولى واستولى على لبـه . ولكن حدث أن تعثرت قدم المرأة العجوز ، فتدحرج حجر ، بيد أن مانولى كان غارقا فى عمله حتى أنه لم يسـمع شيئا.

لم تستطع الفتاة أن تـكبح جماح مشاعرها ، فأسرعت الخطو ولمست كتف مانولى وصاحت :

ــ أهلا بك يا مانولى .

وثب فى مكانه . وفارقته الصورة المقدسة . احس بنفسه خائر القوى متهالكا فاستند الى الجدار ، ورأسه ملقى الى ظهره .

ــ ماذا بك يامانولى ؟ لماذا تنظر الى هكذا بعينين زائغتين كأنك تبصر عفريتا ؟ اننى أنا يامانولى .. أنا لينيو خطيبتك ، وها هى خالتك الأم ماندالينيا . أتت لترقيك .

وتقدمت العجوز لا هثة الأنفاس . وقالت :

ــ مؤكد يا طفلى أن شيطانا أو ما شابه ذلك قد مسك بأذى .

تطلع اليها مانولى فزعا .

وأخيرا سألها وهو يقلب كتلة الخشب ليدير وجهها الى أسفل :

ــ ماذا تريدين ؟

كانت العجوز على وشك أن تجيب ، الا أن لينيو دفعتها جانبا ، وقالت :

ـ أتركينا يا أم ماندالينيا . اذهبى أنت واجمعى ما تحتاجين اليه من العشب ودعينا وحدنا · أريد أن أفضى اليه بكلمة على انفراد ·

وانصرفت العجوز بادية التأفف ، تبحث عن نباتها . وانزلقت نينيو بجسدها فوق المقعد الحجرى وجلست ملاصقة خطيبها ·

أمسكت بيده وقالت بصوت رقيق :

ـ مانولى . أدر لى وجهك وانظر الى . ألم تعد تهوانى ؟ ألم تعد تحبنى ؟ وأجاب مانولى بصوت هادىء .

ـ احبك .

ـ متى ستتزوج ؟

لاذ مانولى بالصمت · فما أبعد الشقة بين زواجه وأفكاره التى كانت تشغله فى تلك اللحظة ، الاله القوى القدير .

ـ لماذا لا تجيب ؟ انبأنى السيد بكل شىء .

قال مانولى وهو يشب واقفا :

ـ وددت لو أنك لم تأت الى هنا ·

وصاحت لينيو وقد توقدت وجنتاها :

ـ أحسب أن الأفضل أن أستأذنك أنا أولا · فلم تعد زوجى بعد · ولا زلت خلية .

ونهضت من مكانها ووقفت قبالته · وبسطت ذراعيها ، وقالت : له بصيغة آمرة :

ـ لا تنصرف .

استند مانولى الى الجدار وانتظر . وأخذت لينيو ترقبه ، وبين جوانحها حب وكراهية يتصارعان . وأخيرا قالت بصوت مخنوق :

ـ لم تكن أمى سوى خادم ·· أما أبى فقد كان نبيلا · لن أفرض نفسى على أى انسان · أملك صداقى ، وأملك شبابى ، وسوف أجد من هو خير منك ·

ضم مانولى كتلة الخشب المحفورة الى صدره بقوة حتى آلمته ·

ـ كما تشائين يا لينيو .

قالها مانولى بهدوء ظاهر ، بينما قلبه يدق بشدة وكأنه يوشك ان ينفجر . ولم يكد يلفظ بكلماته القاسية حتى أحس بالأسى لما قاله ، ووهنت عزيمته .

ونكس رأسه وعاد يقول :

ـ لينيو .. دعينى وحدى هنا لأيام قلائل حتى أحسم أمرى . ان كان حبك لى صادقا فافعلى ذلك من اجلى .

ـ آه ... هل تحب غيرى ؟ من ؟ أبن لى ثم أنصرف .

ـ لا . لا يالينيو . أقسم لك أنى لا أحب سواك .

ـ حسن جدا . واذا ما حسمت آمرك فأنبئنى بما انتهيت اليه . سأنتظر .. ولكن من الخير أن تعرف ـ ربما أحبك ما حييت ، وربما أكرهك ما حييت .. وهذا يتوقف على كلمة منك .. ان نعم أم لا .. ولك أن تختار .

واستدارت ناحية المراة العجوز ونادت عليها :

ـ هيا يا أم ماندالينيا ، فاننا سننصرف .

وانطلقتا ، سارت لينيو فى المقدمة مهتاجة لم تحاول أن تلتفى وراءها بنظرة واحدة . وثار فى عروقها دم الكبرياء الذى ورثته عن أبيها .

تهاوى مانولى فوق المقعد الحجرى . وأخذ يتطلع الى كتلة الخشب التى أمسك بها بين يديه . لم تعد به أدنى رغبة فى معاودة الحفر . فقد خبت النار فى نفسه واختفت من مخيلته الصورة المقدسة.

وعاد الى الكوخ ، ولف كتلة الخشب بخرقة بالية متأنيا كأنما يوارى جذوة برماد يخشى أن تنطفىء . لم يعد يطيق البقاء وحيدا ، اذ بدأ يشعر بالاختناق . فتناول على عجل عصا الرعى ، وأخذ طريقه الى حيث يلحق بنيكوليو والماشية .

* * *

كانت الشمس تصب أشعتها عمودية على الجبل . همدت الأنفاس، وتوارت الظلال فزعة تحت أقدام الأشجار ، وقبعت الطيور فى أوكارها خرساء تنتظر زوال الهلع .

وأحس نيكوليو فجأة أنه يفيض قوة وعنفوانا . تلفت حوله بحثا عن انسان أو شيء ينفس معه عن هذا العنفوان الطامى . لا شيء . ولا أحد . لا رجل يعاركه، ولا امرأة يطرحها على ظهرها فوق العشب . والماشية دوخها القيظ فلاذت بظل شجرة سنديان ، وعار عليه أن ينازلها . ولكن ها هوآت زعيمها الكبش داسوس بقرنيه الطويلين الملفوفين ، واليته الثقيلة الشحيمة ، وجرس الزعامة الكبير حول رقبته . القى نظرة جامدة الى أغنامه الغافية تحت الظل ، وثغا راضيا ، ثم انصرف عنها متثاقلا فى مشيته ، ملكا متأنيا متغطرسا فى خطوته . وعبق الجو برائحة الذكورة . وانقض عليه نيكوليو كأنما فقد صوابه فجأة ، وضربه ضربة مغيظة بعصاه على قرنيه وظهره وبطنه .

وفى كبرياء وتعال ، استدار له الذكر المستهين . بدا له خصمه جروا — لا قرون ، ولا الية ثقيلة ، ولا شيء سوى قدمين يمشى عليهما . يكفيه نطحة خفيفة تطرحه أرضا . لذا فقد آثر ، مترفعا ، أن يواصل تطوافه بين الأغنام .

تبعه نيكوليو ، وأمسك بقرنيه ، ومال على ظهره .. وهنا ضاق به داسوس ، وهز رأسه ، والقى بالراعى الصغير على الأرض .

صاح نيكوليو ، وهو يحاول أن يشب واقفا ، والدم ينزف من مرفقيه:

— يا خنزير .. ويل لك .

ثنى رقبته بين كتفيه ، وأحنى رأسه ، وانقض عليه لينطحه . وكذلك فعل داسوس . وداخ نيكوليو من أثر الصدمة . دار حول نفسه وبدأ الجبل يدور معه أيضا . بيد انه استطاع ان يحفظ توازنه ، والتقط عصاه . واندفع حانقا نحو الحيوان ، وضربه كأنما يريد أن يحطم قرنيه

وفى هذه اللحظة ظهر مانولى . وضع اصبعيه فى فمه وصفر . استدار نيكوليو وابصره ، بيد انه كان ثائرا مهتاجا ، ولم يستطع ان يكبح جماح نفسه ويقف ، فانقض ثانية على الكبش . التقط مانولى حجرا وقذفه به .

وصاح .

— ايه يانيكوليو . هل انت فى مصارعة مع الكبش ؟ تعال هنا .

جاءه نيكوليو، متذمرا متوعدا متصببا عرقا . أسند الاثنان ظهريهما الى صخرة ، وكان الراعى الصغير يصعد زفرات الغضب وتفوح منه

رائحة الكبش . وبين الحين والحين يصفر بفمه أو يقذف بحجر ، فى محاولة منه لكى يخفى غضبه الذى يحتدم أواره فى اعماق نفسه : انتصر عليه داسوس واذله .

كانت نظرات مانولى تائهة فى السماء . يحاول جاهدا ان يستعيد لنفسه هدوءها وطمأنينتها ويسترد لقلبه الصورة المقدسة التى كان يحفرها على الخشب . سحر هذا الصباح .. نسيان آلامه .. غياب وجدانه عن العالم .. كانا وحدهما بين السماء والأرض . هو وكتلة الخشب ، ثم سمع فجأة صوت امرأة وشفتان مكتنزتان .

ـ « ايه يانيكوليو .. انزع الناى من حزامك واعزف لنا شيئا .. فانى لست على ما يرام يا صديقى . روحى تائهة ، آضناها الهم . اعزف لنا شيئا ، لعل في ذلك شفاء لروحى » .

وضحك الراعى الصغير وقال :

ـ وانا مثلك يا مانولى . روحى تائهة اضناها الهم أيضا . تلم بى لحظات أشعر معها انى على وشك الانفجار . ألجأ الى نايى ، اعزف عليه ، فلا تجد روحى شفاء فى ذلك . ولهذا صارعت الكبش .

ـ « وماذا يضنيك حتى تكون روحك تائهة ؟ انت لا تزال حدثا لم يسود فوداك » .

وأجاب الغلام بحماسة ملتهبة :

ـ ليأخذنى الشيطان ان كنت أعراف . ولكن عندما أكون وحيدا يا مانولى .. آه يلم بى الحزن .

ونزع الناى ، ووضع أطراف اصابعه البرنزية فوق ثقوبه .

ـ « هل يحضرك لحن يا نيكوليو ؟ » .

ـ « انا ؟ إبدا . انى أعزف اللحن كما يواتينى » .

وضع طرف الناى بين شفتيه وبدأ يعزف .

غطت الماعز والأغنام المنحدرات ، وتردد بين جنباتها رنين الأجراس. خرج الجبل الى المرعى . دبت الحركة بين أهل القرية ، وانسابت ماء الجداول صداحة ، تثب من حجر الى حجر . ورويدا رويدا خفتت اصوات الجداول واجراس الماشية والجبل ، لا ، لم تخفت اصواتها ، بل كان يعتمل بداخلها ضحك حلو طروب منعش .. فعلى مرمى البصر

يمتد بحر متناغم الأمواج ، وشاطىء تناثرت فوقه الأصداف .. وثمة نساء باسمات الثغر يستحممن .. السيقان والأذرع على امتدادها متباعدات . القين بأنفسهن فى الماء ، وعكرن صفو الأمواج ، فطوحت بهن فوق الشاطىء ، وندت صيحات قصيرة ، والشاطىء دغدغته فرحة، وشاركهن الضحك .

أرهف مانولى السمع منطويا على ذات نفسه مبهورا . ترددت أصداء ضحكات النساء مجنونة على طول الشاطىء ، تعلو وتهبط. ثم تتناهى الى سمعه ثانية ممزوجة بأصوات الموج . واخيرا سكت كل شىء ، وخرجت كاترينا من البحر عارية .

وصاح مانولى وهو يثب فى مكانه

ـ « حسبك . كفى هذا » .

أدار نيكوليو راسه ينظر اليه ، ولكنه واصل العزف . فقد هامت روحه هو الآخر مع الموسيقى . كان يمسك بالناى بقوة ، يضغط عليه بين شفتيه .

وعاود مانولى كلامه :

ـ قلت لك كفى .

رفع نيكوليو الناى عن شفتيه وأراحه على ركبتيه وقال :

ـ قطعت على سياق اللحن فى أحسن لحظاته .

وفاضت عينا مانولى بالدمع .

ـ ارتد الراعى الصغير الى الوراء وصرخ :

ـ « ماذا يا مانولى ؟ اتبكى ؟ تعال . لا تحزن ، انه الناى ولا شىء آخر ، كل هذا ليس من الحقيقة فى شىء ، انه مجرد هواء » .

اراد مانولى أن يخطو بضع خطوات ولكن خانته ركبتاه .

وغمغم قائلا :

ـ أشعر أننى لست على ما يرام .

وساله الراعى الصغير مبتسما :

ـ هل سمعت صوت المياه ؟

-- اى مياه ؟ .

-- سرح خاطرى الى الماء اثناء العزف .. مياه كثيرة ، ذلك لانى كنت ظمآنا ٠

ثم فى وثبة واحدة كان عند اسفل شجرة السنديان ، حيث علق عليها محجمته ٠ كان مانولى قد اهداها له ، ونقش عليها صورة جدى ٠

وقال مانولى لنفسه :

ــ سأذهب حيث أنام فانى ارتجف ٠٠

ونادى نيكوليو :

ــ تنبه للماشية فانى ذاهب لاصنع الجبن ٠

واجاب نيكولنيو وهو يمسح عن شفتيه وصدره الماء الذى تساقط عليهما ٠

ــ « لقد أعددت النار ٠ اغل اللبن ، وسوف آتيك الآن » .

تطلع اليه وهو يسير مترنحا فوق الحجارة ، واحس بالأسى عليه ٠

وصاح ثانية :

ــ اذا كنت على غير ما يرام فنم ، ودع لى الجبن اصنعه أنا ٠

ــ لماذا تقول لى هذا الكلام ؟٠

ــ ذلك لأن قدماك يا سيدى تدوران حول بعضهما ، وتبدو شاحبا٠

وأخذ يرقب مانولى وهو يسير فى طريقه مترنحا حتى غاب عن ناظريه وراء اشجار السنديان ٠ وآنس فى نفسه تعاطفا معه وتمتم قائلا :

ــ مسكين ٠٠ أبصرت لينيو قادمة على البعد ٠٠ عليها اللعنة . ستمتصك حتى النخاع يا صديقى العجوز .

والتقط حجرا وقذفه بعيدا فى غضب ٠ وصاح بأعلى صوته ٠

ــ اللعنة على الاناث ٠

أبصر داسوس يمشى امامه بخطوات استفزته ٠ أمسك بقرنيه ، ولوى راسه الضخم بعيدا عنه ، ثم القى بنفسه فوق ظهره .

* * *

عندما وصل مانولى الى أرض الحظيرة ، أضرم النار ليصنع الجبن، ولكنه كان متهالكا . جلس على المقعد الحجرى تحت الشمس ليستعيد الدفء ، اذ كان يرتجف . كانت الشمس تميل ناحية الأفق . وبعد دقائق سمع أصوات أجراس تقترب وصيحات نيكوليو وصفيره وهو يحوط حول البهائم يسوقها الى الحظيرة ويقذفها بالحجارة .

حلقت افكار مانولى بعيدا ، وهبطت الى القرية .. طافت بالبيوت والمقهى والميدان ، ثم اخذت طريقها الى المنحدر ، وانسلت داخل بيت القسيس ، ورأى الأعيان يوزعون الأدوار ــ من يقوم بدور بطرس ، ومن يهوذا ، ومن المسيح .. ثم رأى ثانية القسيس فوتيس والمسيحيين الذين انتزعوا من ديارهم ، ومبارزته الكلامية الأليمة مع القسيس الآخر ، والمرأة التى صرخت ثم أسلمت الروح .. ورنت فى سمعه من جديد كلمات باناكوس الساخرة القاسية « ها انت ستمثل دور المسيح وفى نفس الوقت تتهيأ للزواج وتدنيس نفسك .. يا للرياء » . وارتقى السلم الى حجرة سيده ورآه . ثم نزل الى الفناء ، تعلقت به لينيو ، ثدياها يرتكزان على صدره ، تسأله بصوت كله زلفى والحاح « مانولى .. متى نتزوج ؟ متى ؟ متى ؟ » ثم .. ثم بعد ان غادرها فى طريقه الى الجبل توقف لحظة يلتقط انفاسه عند البئر ..

وذاب قلبه .

وغمغم .

ــ « أشعر بالأسى عليها .. آسف لها .. سلكت طريق الشيطان . انها هالكة .. » .

أشرقت صورتها فى ذاكرته ــ وشاح أسود ، جيد مرمرى ، شفتان رقيقتان عنيت بدهانهما بأوراق شجر الجوز .. وسمع من جديد صوتها يستعطفه فى يأس :

ــ لا تذهب يا مانولى .. لا تذهب .

كأنها تظن خلاصها رهنا به وحده .

وفى ومضة خاطفة تذكر حلمها ، وخيل اليه ان تأويله بات واضحا . نعم ، نعم ، كانت على حق هذه المرأة التعسة . انه وحده القادر على خلاصها . هتف لها الله بنفسه فى منامها بذلك . مانولى يمسك بالقمر بين يديه كأنه تفاحة ، يقطعه شرائح ويقدمها لها لتأكلها .. وفجأة وضح له المعنى الخفى للحلم ، وارتجف . القمر هو النور الخالص ،

كلمة الرب التي تنير ظلمة الليل ... انه ارادة الرب ، وأمر من لدن الله أن يشاركها مانولي فيه . انه هو الذى قدر له ان يخلص مريم المجدلية الآثمة .

وغمغم :

ـ يجب أن أراها .. نعم . يجب ذلك سريعا . فكل دقيقة تمر قد تدفعها اكثر الى هاوية الخطيئة .. يجب ، يجب .. هذا واجبى .

انه يستطيع أن يرى الدرب الضيق الذى تسكن فيه ، ومدخل البيت المبنى على هيئة قوس ، وطلاءه الأخضر . والطوق الحديدى .. ويستطيع أن يرى عتبة الباب الحجرية نظيفة لامعة .. لم يسبق له ان اجتاز هذه العتبة ، ولكنه تذكر انه ذات يوم . من أيام الآحاد ، مر بالباب وكان مفتوحا ، واسترق نظرة الى الداخل .. لحظ فناء صغير رصفت جوانبه بقطع من الحجارة مغسولة . وبعض أصص الورد ـ ريحان جميل ـ رصت على الجدار الواطىء الذى يحيط بالفناء . ومجموعتين كبيرتين من القرنفل الأحمر قرب البئر ..

اتخذ فكر مانولى طريق الجبل هابطا . وبلغ القرية . وسار عبر الدرب الضيق ، واجتاز العتبة ودخل ..

طفق يردد بينه وبين نفسه :

ـ « يجب ان اراها . يجب ان اراها .. هذا واجبى » .

استشعر نشوة غريبة . عرف الآن أن رؤيته لها أمر لازم . انه أمر من لدن الله وليس من ذاته . وارتاحت نفسه . أدرك الآن لماذا كانت تحاصره وتلح عليه ليل نهار الرغبة فى الذهاب اليها ورؤيتها .. كان يستشعر الخجل ويقاوم وقتما كان يعتقد ان الشيطان هو الذى يحضه على ذلك ، اما الآن ..

هب واقفا .. لم يعد يشعر بالبرد . وكفت ركبتاه عن الارتجاف أوقد النار ووضع عليها القدر ، وغلى اللبن ..

وقال لنفسه :

ـ ما أعجب السبل التى يتخذها الرب لينير روح الانسان . تدبر ... استحالت ارادته هذه المرة الى حلم وتنزل على وسادة الأرملة ..

أقبل نيكوليو . وبدأت الأغنام تدخل حظيرتها، وامتلأ الجو بثغائها.

كانت الشمس تأذن بالمغيب راضية مطمئنة ، انهت يومها ، وها هى عائدة الى خدرها ..

صاح مانولى من داخل الباب بصوت صاف :

- أهلا نيكوليو . اذهب واحلب النعاج ثم جهز لنا الطعام . انى جوعان .

لم يأكل شيئا سحابة نهاره ، اذ كان حلقه منقبضا لا يستطيع أن يمر خلاله طعام . اما الآن ، وقد تراخى ، فقد عادت اليه شهيته .

نظر اليه نيكوليو وقهقه عاليا :

- عادت اليك الحياة يا سيدى . هل من اخبار سارة ؟

- انى جائع . عجل . سأعاونك .

أحضرا الدلاء النحاسية ، وأقعيا جنبا الى جنب ، وشرعا يحلبان النعاج ، الواحدة بعد الأخرى . وقفت النعاج هادئة مسرورة اذ تتخفف من حملها الوفير . وخالت الأصابع الماهرة شفاها حبيبة ترضعها .

واغتسلا بعد أن فرغا من عملهما . ورشما علامة الصليب ، والجوع يعضهما ، ثم انقضا على الخبز واللحم والجبن الأبيض . ولا زال نيكوليو مهموما يفكر فى الكبش القوى ولينيو . كلاهما معا موضع حفيظته ، لا ينفصل احدهما عن الآخر ، زعيم القطيع ، والفتاة اللحيمة . اصبحا الآن شيئا واحدا . أحيانا يرى لينيو وهو فوقها ، ركبها وباعد بين ساقيه ، واحيانا مستلقية تحته وهو يبتسم ..

وغمغم متأففا :

- عليها اللعنة .. عليها اللعنة ..

والتقط حجرا وطوح به بعيدا فى الهواء .

وسأله مانولى مبتسما

- ايه يانيكوليو ، علام الغمغمة ؟ من الذى تقذفه بالحجارة ؟

واجاب الراعى الصغير مبتسما هو الآخر :

- الشيطان يحوم حولى ، وانا ارجمه بالحجارة .

- هل رأيته يا نيكوليو ؟

ـ « نعم ، رأيته رؤيا وهمية » ٠

ـ « ما شكله ؟ » ٠

ـ « هذا سر » ٠

واندفـع الراعى الصغير الى دلو الماء وغمس فيه وجهه الذى تدافع اليـه الدم ٠

بعد أن فرغ مانولى من طعامه رسم علامة الصليب ونهض من مكانه٠ قـال :

ـ نيكوليو ٠ سأنزل الى القرية هذا المساء ٠ أتمنى لك حظـا سـعيدا ٠

وصاح نيكوليو غاضبا :

ـ القرية ثانية ماذا ستفعل هنـاك الآن ؟ أعتقـد يا سيدى أن الشيطان كان يحوم حولك انت أيضا ٠

ـ «ليس الشيطان يا عزيزى نيكوليو ، لتحفظنا السماء ، انه الرب».

واخرج مرآة صغيرة من جيبه ، وبلل شعره ومشطه ٠ ثم ارتدى أحسن لباسه ، ثياب يوم الأحد ٠

ودس مرآته الصغيرة ومشطه ومنديله فى حزامه ٠ لماذا ؟ ما حاجته اليهما ؟ هل يعلم ؟ كل ما حدث أنه أخـذهما ، بلا سبب ، واخفاهما فى حزامه ٠

وعاود الغلام كلامه غاضبا ، وهو يرقب مانولى يجمل نفسه ٠

ـ « انه الشيطان كما اقول لك » ٠

وردد مانولى ما قاله :

ـ انه الرب ٠ الرب ٠

ورشم علامة الصليب ورحل عنه ٠

وغمغم نيكوليو :

ـ مؤكد أنه ذاهب الى لينيو ٠٠ ليأخذ الشيطان كليهما ٠

وبصق فى اشمئزاز ٠

★★★



الشيطان وقناع المسيح

كان الليل يرخي استاره . وطيور الليل تصدح .. لا تدرى جوعا أم عشقا . وبواكير نجوم المساء تسطع فى السماء .

سار مانولى الهوينى ، هابطا الطريق الملتوى . وقال لنفسه :

ـ يحسن ان أنتظر حتى تشتد ظلمة الليل اذ يجب الا يرانى من في القرية . وبينما كان سائرا فى طريقه أخذ يعيد على سمعه ماذا عساه أن يقول حتى تبلغ كلمة الرب فؤاد الأرملة . كان يخمن قائلا : « سأطرق الباب ، وتأتى لتفتح لى .. ستبهت لمرآى ، وتغلق الباب بالرتاج ، وندخل سويا .. » ، سبق له أن رأى الفناء ، وأزهار القرنفل والريحان ، وحافة البئر ـ ولكن ماذا بالداخل ؟ وتملك الخوف مانولى. فوقف يلتقط أنفاسه . وسرت قشعريرة فى بدنه . وقال لنفسه « هناك بالداخل .. سيكون المخدع .. » .

وتشوش فكره . لم يعد يعرف ماذا ينبغى أن يقول : ولا حتى لماذا بهبط من الجبل فى مثل هذه الساعة ليطرق بابها عند منتصف الليل . ستراه وقد علت وجهه حمرة الخجل ، وتغيرت سحنته ، فتضحك لذلك . ربما تقول له « ها أنت ذا يا مانولى . ولعلك أنت نفسك لا تعرف ما الذى جاء بك الى هنا ؟ ترى هل رأيت حلما فى منامك أنت أيضا ؟ هل تراءى لك الشرير فى منامك يا مانولى ؟ أم ترى كانت مريم العذراء ؟ أو ربما كلاهما معا .. فان مثل هذا يحدث أحيانا يا مانولى . ولكن

ها أنت قد أتيت ، وستبدأ كلامك معى بالحديث عن الرب والفردوس ، ثم بعد ذلك ، رويدا رويدا ، دون أن الحظ أنا أو أنت ذلك ، سنجد انفسنا يا مانولى وقد جمعنا مخدع واحد ، والتصقنا ببعضنا ·· فأنت رجل ، أليس كذلك ؟ وأنا امرأة · هكذا خلقنا الله ، وهكذا أراد لنا · فهل يكون خطؤنا نحن اذا ما حدث ، ونحن ملتصقان ، أن دارت رءوسنا ، وطاش صوابنا ، ففتحنا ذراعينا وساقينا واصبحنا جسدا واحدا ··

احس مانولى بالدم يتدافع الى رأسه · فقد رنت هذه الكلمات الفاجرة فى راسه ، وسمع الأرملة تتفوه بها بوضوح كامل · وهى تبتسم وتقترب منه حتى تلتصق به ·· ها هو يتنسم أنفاسها عبقة بعطـــر المسك والقرنفل · وتفوح من صدريتها المفتوحة رائحة جسدها الدافىء · ممزوجة برائحة العرق وجوز الطيب ··

وفجأة أحس بالاعياء ، وخانته ركبتاه ، فخر منهوك القوى فوق صـــخرة ·

وسأل نفسه فى هلع « من ذا الذى كان يتحدث الى بداخلى ؟ من ذا الذى كان يضحك ؟ ركبة من تلك التى لا مستنى فجعلت ركبتى تدوران حول بعضهما ؟ » لقد سمع حقا تلك الكلمات ، ورنت فى اذنه ضحكات الأرملة ، ولا زالت رائحتها تزكم انفه ·

وصاح وهو يرفع عينيه الى السماء مبتهلا :

ــ عونك يا الهى ·

ولكن بدت له السماء هذا المساء عالية شاهقة ، تفصلها عن الانسان مسافة بعيدة غاية البعد ، خرساء ، غير مبالية ، لا هى بالصديق ولا هى بالعدو · واستبد به الهلع · النجوم ترقبه · وتجمد قلب مانولى · كان فى بعض امسيات الشتاء يبصر حول الحظيرة وبين الأغصان التى غطاها الثلج عيون الذئاب جامدة ساهرة يقظى فى حذر ، وبدت له النجوم هذا المساء وكأنها عيون الذئاب ·

عاودته ذكرى الأرملة من جديد ، تسرى فى دمه حلوة كأنها العسل · وجد فيها عزاء جميلا ازاء ما يعانيه من احساس بالكآبة وعداء العالم له · لقد صمتت الآن عن الكلام أو الضحك · واستلقت فوق مخدعها جذلة تهدل كورقاء تذكر الجميل ·

سد مانولى اذنيه · كانت رأسه تطن وشرايين رقبته تبرز وتنتفخ · انه يكاد يشعر بالدم يتصاعد حارا ملتهبا الى راسه · صدغاه يختلجان

فى عنف ، جفناه يثقلان ، وأحس بوخز يغطى صفحة وجهه وكأن آلافا من النمل تعض وجنتيه وذقنه وجبهته ، وتنهش لحمه .

وتصبب عرق بارد غطى جسده كله . وتحسس وجهه براحته وهب واقفا .

ـ « يا الهى » .

حاول الصراخ فلم يستطع . عاد ثانية يتحسس وجنتيه وشفتيه وذقنه ، بدت له منتفخة متورمة ، شفتاه ممطوطتان حتى انه عجز عن أن يفتح فمه .

ـ « ماذا دهانى ؟ لماذا تورمت ؟ » .

كان يسأل نفسه ، ويتحسس فى يأس صفحة وجهه من أعلى الى أسفل نازلا الى عنقه . أصبح وجهه كله كأنه طبلة ، ولكنه لم يكن يشعر بألم . كل ما شعر به أن عينيه قد التهبتا وبدأ يفيض منهما الدمع .

وأخذ يلهث .

ـ « يجب ان ارى ، يجب أن ارى .. اريد ان اعرف » .

اخرج المرآة من حزامه ، وانحنى عليها ، واشعل غصنا ، ونظر الى نفسه .. لمح وجهه على ضوء اللهب المتراقص وصرخ ، ألفاه منتفخا كله ، عيناه خرزتان صغيرتان ، وفمه ثقب ، وأنفه ضاعت ملامحه وسط وجنتيه المنتفختين كالبالونة .

لم يكن وجه بشر ، بل قناعا منفرا قد من لحم بهيمة . لا . لم يعد وجهه ، انه وجه غريب التصق فوق وجهه .

وخطرت بذهنه فكرة مباغتة .

ـ « يا الهى هل هذا هو الجذام ؟ » .

وهوى الى الأرض .

وأمسك بالمرآة ، وأشاح بوجهه على الفور فى فزع . « ماذا ؟ أهذا بشر؟ لا، انه شيطان . ونهض. « لا أستطيع الذهاب الآن.. كيف يمكنها ان تنظر الى وجهى ؟ كيف يمكننى أن أتحدث اليها ؟ شكلى مروع. سأعود من حيث أتيت . »

واستدار ، وارتقى الطريق عدوا كأن ثمة من يطارده .

وتوقف عند الحظيرة ودخل خلسة ، يرتعد فرقا كلما ظن أن نيكوليو قد يستيقظ ويضيء المكان ويراه .. « غدا صباحا ، ربما ابرأ مما أنا فيه بعون الله .. » واطمأنت نفسه قليلا لهذا الخاطر .

وافترش الحصير ، ورشم علامة الصليب ، وتضرع الى الرب أن يرأف به وقال «الهى اقتلنى ان كانت هذه مشيئتك، فالموت عندى خير ألف مرة من حياة الذل أمام الناس .. لماذا شاءت قدرتك أن تلصق هذا اللحم على وجهى ؟ انزعه عنى يا الهى ، اطرحه عنى بعيدا . أسألك أن تعيد وجهى مع الصباح الى سيرته الأولى ، نظيفا انسانيا » .

بعد أن وضع ثقته فى الله ، استشعر بعض العزاء ، أغمض عينيه ، ورأى فيما يرى النائم امرأة متشحة بالسواد - لا بد أنها العذراء المقدسة - انحنت عليه ، وربتت على وجهه بيدها فى رفق وحنان . وسرعان ما أحس به غضا خفيفا ، ومد مانولى ذراعيه وأمسك باليد المقدسة وقبلها . ولكن رنت ضحكة ساخرة حلوة ، وسقط النقاب الأسود ، واستيقظ مانولى من نومه صارخا . لم تكن العذراء بل الأرملة .

وفى الركن المقابل ، سمع نيكوليو الصرخة واستيقظ عليها : قعد فأبصر سيده ووجهه الى الحائط . وبدأ يضحك . وقال متبرما :

- لماذا عدت يامانولى ؟ هل فرغت من مهمتك ؟

ولكن مانولى أخذ يتحسس وجهه الذى اتجه به الى الحائط . أحس باليأس : لم يزايله الورم أبدا ، بل لا بد أن ثمة جروحا ظهرت عليه ، اذ أن أطراف أنامله قد بللها سائل لزج كثيف القوام .

واستلقى على بطنه ، ودس وجهه فى الوسادة .

ولكن نيكوليو تمادى فى سؤاله :

- هل استمتعت يا سيدى؟ هل سارت أمورك على خير ما تحب ؟.
نعم ، بالطبع نال منك التعب أيها الصديق المسكين .. نم .

وغمغم مانولى :

- لقد هلكت .. هلكت .. لا بد أنه الجذام .

شقشق الصباح . وهب نيكوليو من نومه على الفور ليسوق الأغنام الى المرعى . كان الراعى الصغير على وشك الخروج من الباب حين استدار

ورآء . كانت شعاعات النهار الاولى ق. انسلت من النـافذة وأضـاءت الكوخ . قال له :

ـ مانولى .. الى اللقاء هذا المساء .

استدار مانولى ليجيب ، وكان قد غفل تماما عن الحالة التى كان عليها . أبصره نيكوليو وقفز الى الفناء . ثم عاد اليه وهو يصرخ :

ـ يا سيدتنا العذراء .

كان وجه مانولى يطفح بالقذارة. تكسوه غضون يسيل منها الصديد. حاول أن يتكلم ليهدىء من روع الراعى الصغير ، ولكنه عجز عن أن يتفـوه بحرف واحد . كل ما استطاع أن يفعله هو أن لوح بيده ليطمئنه .

أسند نيكوليو وجنته الى قائمة الباب ، وجسمه الى الخارج مستعدا للهروب . أحس أنه عاجز عن أن يصرف نظراته الفزعة عن ذلك الوجه ، ورويدا رويدا ، استعاد جرأته ، واطمأنت نفسه . وقال :

ـ هل أنت مانولى بحق السماء ؟ أوشم علامة الصليب حتى أكون على يقين من أمرك .

وشم مانولى علامة الصليب . استجمع نيكوليو شجـاعته من جديد وأخذ يشم علامة الصليب على العتبة ، مرة بعد أخرى ، ولـكن دون أن يقترب .

وسأله فى حنان :

ـ ماذا دهاك يا رفيقى المسكين ؟ لا بد أن الشيطان تلبسك وترك عليك هذا القناع . اللهم احفظنا . انه الشيطان كما أقول لك . هذا مؤكد . حدث نفس الشىء لجدى .

هز مانولى رأسه واستدار ناحية الحائط حتى لا يخيف رفيقـه الصغير . وأومأ اليه بأن ينصرف .

وعاد نيكوليو يقول فى وجل :

ـ الى اللقاء هذا المساء .

وهرول خارجا كأن ثمة من يتعقبه .

تأوه مانولى بعد أن أصـبح وحيدا ثم نهض من فراشـه . أحس

بقوة فى بدنه ، وزايله الالم · فارقته الرعشة ، ولكن الأغرب من ذلك ، أنه آنس فى نفسه بهجة غامرة لا يجد لها تفسيرا ·· عاد وأمسك بمرآته الصغيرة واقترب من النافذة ونظر الى صورته : تشقق الجلد المتورم ، وسال منه سائل أصفر لزج ، تجلطت بعض قطرات منه على شاربه ولحيته · كان وجهه كله أحمر فى لون الدم كأنه قطعة لحم ·

وشم علامة الصليب ، وقال بصوت خفيض كأنه مناجاة :

ـ يسوع ربى ، ان كان هذا من عند الشيطان فانى أسألك أن تطهرنى منه ، وان كان من عند الله فمرحبا به ، فانى على يقين أنه لا يضمر لى شرا · لا بد أن لبلواى حكمة لا أعلمها · سأتجمل بالصبر حتى يمس بيده سبحانه وجهى ·

استشعر السكينة بعد أن أعطى لبلواه هذا المعنى · أوقد نارا ، ووضع عليها القدر ، وصب فيها اللبن الذى احتلباه البارحة · كان يشعر بالجوع فملأ منه ملعقة : لم يستطع فتح فمه · لذلك أمسك بوصة وغمسها فى اللبن وبدأ يمتص بها اللبن ويشربه فى شراهة ·

ثم خرج وجلس على المقعد الحجرى ·

كانت الشمس قد أيقظت الطيور فى أوكارها ، وملأت حلوقها الصغيرة بالنغم · وبعد أن اعتلت قمة الجبل ، بدأت تزحف فى هدوء وسكينة ·· نشرت أشعتها فوق المنحدرات والسهل ، وفتحت أبواب القرية وانسلت منها · رأت الأرملة لا تزال فى مخدعها بعد ليلة مسهدة ، يعلو وجهها الشحوب ، وتسللت خلسة الى شعرها · ورأت ماريورى فى فناء بيتها منهمكة فى رى زهورها ، فطبعت على جيدها قبلة خاطفة · ثم أخذت طريقها الى كل نساء القرية تتطلع اليهن بنفس الطريقة ، تدللهن كأنها عاشق ·

وأخيرا اتخذت لها مكانا على المقعد الحجرى قبالة الحظيرة ، ومد اليها مانولى يديه مرحبا · وتساءل :

ـ من أين لى هذه البهجة التى أحس بها ؟ ما سر هذه الراحة ؟ لست أدرى ·

ومسح بمنديله وجهه المتورم ، الذى كان ينز فى حرارة الشمس ·

ـ لست أدرى ·· لست أدرى ··

طفق يردد ذلك باسطا منديله المرة بعد الاخرى يعرضه للشمس حتى يجف ·

ذات مرة حدثه معلمه في الدير عن ناسك تشقق جلده ، وخرجت منه الديدان • وكان كلما سقطت عنه دودة ، انحنى عليها ، وأمسك بها فى رفق وأعادها الى الجرح • ويقول لها « كلى •• كلى اللحم يا أختاه نعل روحى تتخفف من ثقلها » • مضت أعوام لم يذكر فيها مانولى تلك القصة ، ولكن أى عزاء جميل يستشعره اليوم ، وأى درس يتعلمه عن التحمل والصبر فى أمل •

نهض من مكانه وعاد الى الكوخ ، والتقط بين ذراعيه الخرقة التى لف فيها كتلة الخشب وأخذ المبرد والأزميل ، وخرج ثانية حيث كان يجلس تحت الشمس • وفجأة أشرقت بداخله الصورة المقدسة ، تملأ قلبه • انه يتبينها فى وضوح ، ويتأمل كل قسماتها • واستقر عليها بصره ، وعاد من جديد يثبتها على الخشب بانفعال وحماسة •

مرت الساعات خفافا ، وبلغت الشمس للحظة سمتها ، ثم بدأت تميل رويدا رويدا •• تناثرت الشظايا على الأرض ، وخف معها ثقل الخشب • ووضح وجه المسيح ، وديعا ، متألما ، رقيقا ،مستسلما • حاول مانولى طويلا أن ينقش فم المسيح المرتجف ، ولكن باء بالفشل، حينا يرى الفم يبتسم ، وحينما يتغضن ويبكى ، وحينا يزم شفتيه كأنه يتهيأ لعمل فيه جهد وليس للصراخ من الألم •

وقرب الغسق ، عاد نيكوليو بقطيعه • ألفى مانولى لازال جالسا فى مكانه فوق المقعد الحجرى وقد أسند الى ركبتيه وجه المسيح منقوشا فوق كتلة الخشب • لم يبق أمامه الا أن يجوف الرأس حتى يتمكن من أن يضعه على وجهه • وبذلك يكون القناع الذى يخلق به أن يضعه على وجهه يوم الصلب •

توقف نيكوليو ، واسترق نظرة خاطفة الىسيده ، ثم ولى عنه سريعا• أحس أنه لا يطيق النظر اليه ، فقدتجلط الصديد الذى غضنوجنتيه فوق وجهه ولحيته وكون قشرة فوقهما • بدا له وكأن الجالس على المقعد الحجرى شيطان يحمل فوق ركبتيه وجه المسيح •

وصاح والخوف يملأ قلبه •

ـ لا داعى لحضورك ومساعدتى • سأحلبها وحدى •

مال مانولى برأسه الى الخلف وأسنده الى الجدار ، وأغمض عينيه • كان منهك القوى ولكنه مرتاح النفس • وضغط على قطعة الخشب المحفورة بين راحتيه ، واستشعر سعادة أن وفق فى نقش الوجه الذى أشرق فى

قلبه بصدق وأمانة · لن يتوارى بعد الآن ليصبح صورة مرتعشة في الهواء · لقد ثبت روحه فوق كتلة الخشب · أمسك بالوجه المقدس بين يديه ، ووازنه في رفق ، وأعجبه فم الرب · اذا نظر اليه من أمام رآه مبتسما ، واذا نظر اليه عن يمين رآه باكيا ، واذا نظر اليه عن شمال رآه منقبضا مستسلما في كبرياء ·· واغمض مانولى عينيه ، وبدأ يربت بأطراف أصابعه على وجه المسيح برفق وحنان مثلما كانت مريم تربت على الطفل المقدس ·

وبحرص لا نهائى طوى الخرقة حول كتلة الخشب المحفورة ولفها بها كأنها طفل وليد في قماطه ، وحملها بين ذراعيه ·

فرغ نيكوليو فى هذه الأثناء من حلب النعاج ، وعاد الى كوخه ، وهو يتحاشى النظر الى مانولى · وبدأ يعد العشاء · قال لنفسه وقد آنس فى نفسه سعادة خفية ·

ـ مسكين هذا الرفيق ·· عريس جديد بمثل هذا الوجه ؟ آه لو تراه لينيو اذن لصرخت فزعا وولت الأدبار ·

وخرج الى عتبة الباب ·

ـ هل ستأتى يامانولى لتناول العشاء ؟ هل تستطيع أن تفتح فمك للطعام ؟

نهض مانولى · كان جوعانا ونسى أن يأكل ساعة الظهيرة · ملأ قدحا كبيرا لبنا ، وأخذ البوصة ، وجثا على ركبتيه ، وامتص اللبن · ثم عاد وملأ القدح ثانية ·

وعندما أظلمت الدنيا لم يشعلا المصباح وهكذا أعفت العتمة نيكوليو من رؤية الوجه المتورم ،وزايله الخوف · كان فى حالة مزاجية راضية ، ولا يدرى سببا لذلك · وما أن فرغ من طعامه حتى اتخذ مجلسه قرب المدفأة واخذ يقلب جمراتها بعصاه ·

وبدأ حديثه سعيدا :

ـ كنت أقص عليك فى الصباح كيف أصبح جدى ناسكا ، بعد أن قتل ونهب واقترف كثيرا من الموبقات · ولست أدرى ان كنت سمعت ما يقال عن الشيطان ، انه اذا ما طعن فى السن فانه يتحول الى عابد زاهد ؟ وهكذا فعل جدى ـ ليغفر الله لى ـ اعتزل الدنيا وقصد دير

القديس باند ليمون ، وهو نفس الدير الذى قصدته أنت أيضا ناسكا ، وقضى به شهرا قمريا ··· ولكن ، ومن عجب ، كانت ثمة قرية بالقرب من الدير ، وكانت فى القرية نسوة ·

ثم أردف قائلا وهو يبصق فى الرماد ·

ـ آه ، لا يخلو مكان منهن هؤلاء العاهرات ·

واستدار يحاول أن يتبين وجه مانولى على ضوء وهج اللهب · وسأله :

ـ هل تسمعنى ؟

هز مانولى رأسه وكأنه يريد أن يقول :

ـ ها أنذا أسمعك ·

ـ حسن ، انظر ذات يوم حدث كما قلت لك أن تقمصه الشيطان فقال لنفسه « أين لى بامرأة ؟ أين لى بامرأة ؟ سأقصد القرية حيث أجد بغيتى · لقد فاض بى الكيل · لتكن متزوجة أو طليقة ، عجوزا أو صبية، عرجاء أو حدباء ، فلست أبالى ما دامت امرأة · وهكذا ، فذات مساء . وبعد أن استسلم النساك للنوم ، تسور صاحبنا جدار الدير وخرج يسرع الخطو لتتلقفه الجحيم · عقد العزم على أن يقضى حاجته، هل تتصور ذلك ؟ ثم يعود أدراجه قبل الثانية صباحا ، حتى لا يعلم بأمره أحد ··· أطلق ساقيه للريح ممسكا بذيل ثوبه بين أسنانه، يثغو كما يثغو الكبش فى فصل الصيف اذا ما أبصر النعاج ··· ولكن الرب رآه ، وأشفق عليه · ومن عجب ففى اللحظة التى وطئت فيها قدماه مشارف القرية ، ابتلاه الرب بمرض خبيث ··· الجذام ـ لعلك سمعت شيئا عنه · وغطت جسده دمامل كبيرة كأنها حبات البندق ··· لا ، ماذا أقول ؟ بل حبات الجوز أو المشمش العفن ·· ثم تشققت ونزت صديدها ·· وهل هذا لا تفوح منه رائحة النتن ؟ ياله من شيخ مسكين ، استبد به الهلع ··· غفر الله له · وسأل نفسه « الى أين أذهب الآن ؟ هل يمكن أن تمسنى امرأة الآن ؟ العود أحمد ··· »

كان مانولى ينصت بكل جوارحه ، وفى جسده رجفة · مد يده وربت بها على ركبة نيكوليو بحركة تعنى أن « استمر » ·

وقال نيكوليو ضاحكا :

حواديت عجائز النساء · اعتادت أمى أن تحكيها لى ، وفقها الله ،

رغم أنها كانت تضحك لهـا . لك أن تتخيل صاحبنا السافل ... انهم نساك حقـا . عاد أدراجه الى الدير ، تسور الجدار ثانيـة ، وتوارى فى صومعته ... وفي الصباح التالى ألفى النساك وجهه مثل قربة ماء .

وعاود مانولى الحافه على الراعى الصغير باشارات من يده .

ـ أظنك تريد أن تعرف كيف انتهت هـذه القصـة ؟ كيف لى أن أعرف ؟ كنت آنذاك طفلا ولم أكن أهتم ... لقد سار الى لحده منذ زمان طويل ، هذا الشيخ المسكين . وارتاحت النساء من مشاكله .

وقهقه نيكوليو . ثم شرد بفكره ، وبعد لحظات بدأ يتثاءب وقال :

ـ النعاس يغـالبنى . سأخرج الى الفناء حيث أنام هناك . الحر يكاد يقتلنى .

لم يكن يشعر بالحر على الاطلاق ، وانما كان يخاف البقاء مع مانولى داخل الكوخ . ونهض من مكانه .

ـ مهدت لك فراشك . قم لتنام ، وغدا ستكون أحسن حالا .

أخذ البساط البالى وفرشه فى الفنـاء ، وتوسد حجرا ، وأغمض عينيه . تذكر لينيو والتهبت حواسـه . بيـد أنه كان متعبـا فاستدار واستغرق فى النوم .

القى مانولى بحزمة حطب أخرى فى النار اذ كان يخشى الوحدة مع الظلام. وارهف سمعه ، ينصت الى أصوات الليل آتية من الباب المفتوح: البوم تنعق ، والحشرات تنبش الأرض ، والفئران تصر صريرا حادا ... وبداخله الصوت الرخيم الملح ، لا يسمعه الا فى الظلام مع سكون الليل والوحدة .

ونهض من مكانه حيث وقف عند عتبة البـاب يتطلع الى النجوم . الطريق اللبنى ينساب فى هـدوء ، والمشترى يتأجج نارا ، والسـماء المرصـعة تتلألأ على البعـد فى صمت وحبور ... أحس مانولى نشـوة وسكينة كانما السـماء هبطت عليه واحتوته بينهـا . وعاد ثانية حيث جلس أمام المدفأة ... وعلى حـين غرة عاودته كلمـات الراعى الصغير وخفق لها قلبه بشدة .

وقال لنفسه :

ـ يسوع ربى ، هل هذه معجزة ؟ ألست أنت الذى بسطت الى يدك لحظة أن اندفعت ، مثل الناسك العجوز ، لألقى بنفسى الى التهلكة . ؟

ووضع راحته على وجهه ، ولكن هـذه المرة دون خوف أو نفور . وتحسس وجنتيه المنتفختين ، ولحمه المشقق ، وفى نفسه عرفان بالجميل.

وقال لنفسه وهو يربت بيده على موضع الداء :

– من يدرى ؟... من يدرى ؟ ربما كنت مدينا لك بالخلاص ...

وهـدأ روعه ، وأسند ظهره الى الجـدار . كانت تنبعث من المدفأة سخونة لطيفة . وأحس برغبة فى النوم . فقد اعتاد أحيانا ، اذا ماعانت نفسه صراعا أثناء الليل ، أن يتراءى له حلم يهديه سواء السبيل . ودار بخلده : « ربما يتنزل على الله فى منامى هذه الليلة أيضا ويجلو لى هذه الغمة » .

ألغمض جفنيه ، وسرعان ما راح فى سبات .

خمدت النار . وانقضى الليل . وبدأت الديكة صياحها عندما فتح مانولى عينيه اثر احساسه بخدر فى جسمه مع برودة الصباح . لم يذكر أن تراءى له حلم وهو نائم . ولكنه كان مطمئن الفـؤاد . وشم عـلامة الصليب ، وتحركت شفتاه، فآذاه ذلك كان جرحا نكأ من جديد. وحاول أن يقول متوخيا وضوح اللفظ : « المجد لله » .

ونهض من مكانه وقصد المقعد الحجرى بالخارج ليجلس عليه .

ظهرت الشمس عند الأفق ، نضرة متوردة الوجه ، مستديرة جذلة. ىما هى عائدة الى مملكتها الغنيـة الوفيرة . كل شىء أصبح على حاله كما تركته بالأمس : السهل الخصب ، وجبل العـذراء الأخضر ، ومنحدرات ساراكينا الوعرة ، وبحيرة فويداماتا مستديرة مصقولة كالمرآه ، وقرية ليكوفريسى ، التى آثرتها بحبها ، ودروبها الضيقة تعج بكائنات كالنمل تسمى بشرا .

تمتم مانولى ثانية : « المجد لله » . ومسح بمنديله وجهه المتشقق .

* * *

على المرتفعات : كانمانولى يعيش فوق الجبـل فى نصب ومعاناة ، حينا مع كتلة من الخشب يحاول تشكيلها وحينا مع الرب أو الشيطان ، وحينـا مع لينيو والأرملة ... وفى نفس الوقت كان القسيس فوتيس يحاول تدبير أموره فوق جبل ساراكينا . حدد عملا لكل واحد من رجاله: البعض يحرث ويبـذر الحب فى رقعـة صغيرة من الأرض بينالحجـارة ، والبعض يبنى ويشـيد ، وفريق ثالث تولى مهمة القنص ، ... يصـيد

الأرانب البرية وطيور الحجل طعاما للجميع· واشترى ثلاث نعاج بالجنيهات الذهبية الثلاث عطية ياناكوس وأضافها الى نعجة الأرملة ، وهكذا حصل الأطفال على حاجتهم من اللبن· وعزم على أن يحمل أيقونة القديس جورج العتيقة ويطوف بها بين القرى والأديرة ، يسأل الناس عونهم · سيقول لهم : « نحن يونانيون مسيحيون ، سلالة خالدة ، لن نبيد أبدا » ·

وفي الوهاد : في ليكوفريسي، كان الكابتن فورتوناس لازال طريح فراشه يئن ويتوجع : رأسه المشجوج بحاجة الى زمن طويل حتى تلتئم الجراح · والأغا ، الذى تملكت قلبه الرأفة ، لا يفتأ يرسل مع حارسه المراهم الناجعة، ويحمله الرسائل يسأله فيها أن يعجل بالشفاء استعدادا لليلة سكر مترعة · والشيخ بطرياركاس لم يكن أحسن حالا · تصيبه نوبة سعال يشق معها تنفسه ، وتلازمه رعشة ، يستوى بعدها جالسا فى فراشه، يحشو بطنه كخنزير حتى يقيء .ثم ينكب ثانية على طعامه وشرابه فى نهم · لا يفتأ يرسل الى كاترينا يسألها أن تأتى اليه وتدلكه · ولكن الأرملة أعرضت عنه في ازدراء ، وبعثت اليه من يقول له انها هى الأخرى مريضة ، وهى بحاجة الى تدليك ·

القسيس جريجوريس أمضته هموم ذاتية خطيرة تتعلق بابنته الوحيدة ماريورى · ها هو يراها تذوى وتنحل يوما بعد يوم كالشمعة· كان يتلهف أن يلقى بها بين ذراعى ميشيل ، حتى تنجب له حفيدا بأسرع ما يكون · وقد باتت هذه هي أحر أمنيات حياته · اذ يرى فيها القسيس سبيله الوحيد للانتصار على الموت ·

وبانايوتى ، آكل الجبس ، يعيش فريسة لحالة من الكآبة الممضة · انقضت ليال ثلاث حتى الآن لم تفتح الأرملة فيها له بابها ، فهى لا تريد أحدا من أمثاله بعد الآن · لا بد أنها ترمى بعينيها الى غيره · انها ــ هذه المسماة بمريم المجدلية المقدسة ــ تخرج فى كل آونة قاصدة الكنيسة وتضيء الشموع هناك · وأقبل بانايوتى على الشراب يلتمس معه النسيان · وبات يذهب الى بيته مع كل مساء مخمورا تماما ، ينهال على زوجه وابنتيه ضربا ، ثم يتفرش أرض الفناء وسرعان ما يملؤه بغطيط · يتجمع حوله صبية القرية كلما أبصروه مخمورا ، يتعقبون خطاه ، ويستفزونه ببذاءاتهم : « يهوذا ··· يهوذا ! » · يحاول أحيانا أن يندفع نحوهم ليمسك بهم ، ولكنه يترنح ويتعثر ويسقط على الأرض سطيحا ·

والعجوز لاداس اعتاد كل صباح أن يلقى المحاضرات على مسمع زوجه الجالسة قبالته تغزل الجوارب· لم تكن تجيب عليه أبدا بل لم تكن

تسمع ما يقول ٠٠٠

ـ لقد تأخر يا بنيلوب ٠ لقد تأخر هذا الياناكوس المخادع ٠ ولا زال ايصال الجنيهات الثلاثة بغير توقيع ٠ حتى الآن لم يأت الينـا حاملا ولو بعض الاقراط ٠٠٠ ماذا ترين يا بنيلوب ؟ هل ثمة امرأة مهما بلغ بهـا الفقر لا تملك ولو قطعة واحدة من الجواهر ؟ لا ، لا ، لا يوجد أبدا ٠ ان الله بواسع رحمته لا يرضى بذلك ٠ وسوف ترين ، سيعود الينا ياناكوس بالجواهر ، دعى عنك القلق يا عزيزتى ٠

كانت أذنا الشـيخ لاداس فى طنين دائم ، يواتيـه احساس مع كل لحظة بأن ثمة طرقا على الباب ، ولا يبارحه الوهم بأنه سمع نهيق حمار ٠ يهرول حافيا يفتح الباب ويدقق النظر فى الطريق من أوله الى آخره : ولكن لا أثر لياناكوس ٠

كان ياناكوس ينجز تطوافه بين القرى : يبتـاع الأمشاط وبكرات الخيط ومرايا الجيب وتراجم القديسين مقابل القمح والصوف والدجاج ٠ انهمك فى تجارته رغم أن ثمة أمورا أخرى تشغل فكره هذه المرة ٠ أمور جعلته حريصا أشد الحرص على أن يكيل الكيل بالقسط ولا ينقص الميزان ٠٠٠ فقد سئل شيخ مسلم ذات يوم: «كيف للانسان أن يتجنب الخطيئة؟» فأجاب الشيخ « عندما تكون عينه على الجنة ساعة البيع والشراء »٠ وهكذا كانتا عينا ياناكوس على الجنة ساعة البيع والشراء ٠

وكان بين الحين والحين يذكر الأب لاداس ، ويتخيل صراخه ونواحه فى انتظار عودته ٠ وتذكر أخته أيضا ، تلك المرأة النـاشز التى تسيم قسطندى المسكين سوء العذاب ٠ ومانولى ، الذى لا بد أنه عاد الى مقامه فوق الجبل، وربما تؤرقه مشكلة التوفيق بين المسيح ولينيو ـ بين الأرنب والثلعب ٠٠٠ ولكن كل هذه كانت خطرات عابرة تطوف بفكره ٠ وانما تركز فكر ياناكوس حول القسيس فوتيس والجبل القاحل الموحش، وتلك الأرواح التى تشبثت بالحجارة حتى أن ملاك الموت نفسه يعجز عن أن يفصل بينهم وبينها ٠

وفى مقهى آخر قرية من القرى التى طـوف بهـا التقى ياناكوس بصديقـه كيرو جيورجيس ، وهو صـاحب المقهى ، ويعرف أيضـا باسم كونيلوس ٠ رحب به ، وأحسن استقباله ، وأعانه على أن ينزل أحماله ، وساق حماره الى الحظيرة، ثم أسرع بالعودة الى صديقه يؤانسه ويثرثر معه٠ وتجمع كل أهل القرية الصغيرة فى هذه الأثنـاء ، والتفوا حول ياناكوس التـاجر الطواف ، الذى يتجول من قرية الى أخرى ، ويأتيهم بالجـديد من

الأخبار ، ويلتمسون عنده جوابا على كل سؤال · وصاح صاحب المقهى « اسـألوه يا أصدقائى ، اسألوه فانه راحل غدا صباحا ، ولا تنسـوا ان تطلبوا القهوة » ·

تجمعوا حوله ، وشرعوا يمطرونه فى لهفة بأسئلتهم عن أحداث العالم ـ الدول الكبرى، والبلاشفة، والحرب ، والزلازل·· وخفضوا من أصواتهم وارتجفوا : « يا سيدى ياناكوس ، هل تعرف شيئا عن فرق اليونان التى جاءت ثم اختفت ثانية كأنهـا ومض البرق ؟ ماذا يحدث هنـاك على أرض اليونان من حيث أتى اخوتنا أبناء الاغريق ؟ ما هى أخبار المذابح والحرائق والكوارث ؟ اننـا هنا ـ ليكوفريسي والقرى المجـاورة ـ بعيدون عن كل هذا ، ونادرا ما نسمع شـيئا عنها · ان نواحهم لم يصل الينـا ، ولكنك أنت يايانـاكوس تطوف بالقرى ، وتستطيع أن تلتقط بعض أخبـارهم · أنبئنا بأخبارهم فاننا فى لهفةمن أمرنا ونتحرق شوقا لمعرفةهذه الاخبار» ·

وانقبضتنفس ياناكوس أيضا · انه لايفتأ يفكر فى القسيسفوتيس وقريته التى أحرقها الأتراك انتقاما ، وشردوا أهلها هنا وهنـاك ·· ان قرى بأكملهـا تمتد من سميرنا حتى فيورو ـ كارا ـ ينسار وما بعدها أصبحت خرابا يبابا ، يتصاعد منها الدخان وأصبح اليونانيون مقهورين مطاردين ، وباتت اليونان فى خطر ·

ولكن ياناكوس كان يشعر بالأسى لهم ولم يشأ أن يكدر صفوهم ·

وقال ياناكوس :

ـ هونوا عليـكم يا أصدقائى · أذكروا آلاف السـنين الخوالى التى عاشتها اليونان · انها لا تموت أبدا · يقـولون ستحرق قرى حتما حتى تاتى عليهـا النيران ، وسيلقى بعض الناس حتفهم ، ولكن سيعود أحفـاد الاغريق ثانيـة ، يبنون القرى من جديد ، وينجبون للعـالم أطفالا جددا ، ويبعث شعب أناتوليا من جديد · هيا نشرب شيئا على حسابى ·

وصاح شيخ جالس فى أحد الأركان ، مسندا ذقنه الى عصاه، منصتا فاغرا فاه ، مرهفا السمع لكل كلمة من كلمات التاجر الطواف :

ـ بورك فيـك يايانـاكوس ، بورك فيك يايـاناكوس · انه لأمر محزن لو توقفت عن زيارتك لقريتنا · اننا نرحب بك دائما لأنك تاتينا بأخبار عن العالم الواسع ·

وسكن صوت النارجيلة عنـدما دخل المقهى على أغاسولتزاد · كان

كبير القرية، تتدلى من منطقته حلقة علق بها مفاتيح البيوت التي يؤجرها. ومقهى كونيلوس واحدة منهـا . علم بقدوم الرحالة الشهير فسرعان ما انتعل خفه الأحمر ، واختطف غليونه الطويل ، وخرج ليتحدث الى التاجر المعروف . فقد كان ثمة هم ممض يعذبه . ولعل هذا اليوناني اللعين يوضح له جلية الأمر .

نهض ياناكوس ووضع يده على قلبه وشفتيه وجبهته يحييه التحية الرسمية الكاملة . فقد كان احسن زبائنه ، وله عدد كبير من الحريم ، وزوجاته وبناته وحفيداته مولعات بالتوابل واحمر الشفاة والعطور والحلوى . لذلك نهض واقفا وحياه وطلب له قهوة .

ـ ثمة هم ثقيل يؤرق فكرى يا عزيزى التاجر .

ـ أنبئنى به يا أغا ، وكل ما أستطيع عمله ...

ـ ما هى بالدقة تلك التى يسمونها سويسرا أيها اليونانى الصغير؟

هرش ياناكوس رأسه . لقد سمع هو الآخر شيئا كهذا ولكنه يلتبس عليه تماما .

أراد أن يعطى نفسه فسحة من الوقت للتفكير فقال :

ـ ولماذا السؤال ؟

ـ لأن ابنى كوزينيس ذهب الى سويسرا ليدرس هناك ويصبح طبيبا. وأحب أن أرسل اليه قدرا به أرز وسبانخ وقدرا به فحم يشعل به نارجيلته ، ولكننى لا أدرى أين هى سويسرا هذه ، ولا كيف أبعث بهما اليه .

وبينما كان الأغا مسترسلا فى كلامه ذهب عن ياناكوس بعض ما التبس عليه ، وتذكر :

ـ آه ، سويسرا . سويسرا بلد فى آخر الدنيا تصنع اللبن والساعات .

وسأل الأغا فى قلق :

ـ وهل تصنع أطباء أيضا ؟

ـ طبعا . وأطباء أيضا . احسن أطباء فى العالم. اذا ما لحهم ملاك الموت ... كيف أعبر لك يا أغا دون أن أصدم كل من فى المقهى ؟ .. نعم انه يلبس بنطلونا .

ـ حسن أيها اليونانى الصغير • أنت ابن حلال • ولكن ماذا عن القدرين ؟

ـ حسن ، سأقول لك • سويسرا تمنع دخول الفحم النباتى ، ولكنك تستطيع أن تعطينى الأرز والسبانخ وإنا أعرف طريقة ...

كان ياناكوس قد تدبر أمره بالفعل • سيحمل معه الأرز والسبانخ الى ساراكينا ، ليعطى الشعب الجائع شيئا يطعمه اكراما لخاطر كوزينيس•

قام الشيخ وقال :

ـ سآتيك بها حالا •

وتوقف مترددا عند باب المقهى ، ثم استدار الى ياناكوس :

ـ وما هى تكاليف ارسالها الى هنالك ؟

رفع ياناكوس يده وقال له :

ـ أترك هذا لى • خدمة منى لعلى أغا •

وما ان خرج الأغا حتى صاح صاحب المقهى :

ـ ارجو ألا تحتجزها لنفسك وتأكلها أنت •

ورد عليه ياناكوس محتجا :

ـ هذا ما حرمه الله • انها معاملات أمينة يا صديقى •

ثم استدار الى الفلاحين وقال :

ـ معذرة يا أصدقائى• نال منى التعب بعد رحلتى الطويلة ولى رغبة فى أن أنام • لكم أن تسألونى ما شاء لكم السؤال غدا، وأعطونى طلباتكم ورسائلكم • أدعوا زوجاتكم وبناتكم أيضا عند سماعكم صوت البوق حتى يأتين الى ويشترين حاجتهن • طبتم مساء •

وأسند ظهره الى الحائط ، ومد ساقيه وراح فى سبات •

* * *

حان وقت الظهيرة ، وفرغ ياناكوس من تجارته فى القرية ، وأخذ طريقه الى ليكوفريسى • كان الحمار يركض مسرورا ، فها هو يشم راضيا رائحة حظيرته الدافئة ، ومذوده الملىء بالعلف ومسقاته المترعة بالماء القراح• قلبه يخفق كقلب بشر • ورفع ذيله لينهق بكل ما أوتى من قوة •

ولكن صاحبه شد لجامه وخفض من سرعته •

ـ لا تكن عجولا هكذا يايوسوفاكى • اتجه ناحية الجبل • سنقصد مانولى أولا لنراه •

كان ياناكوس قد عامله بجفاء فى ذلك اليوم ، وأغلظ له القول ، وسلك معه سلوكا سيئا ، وأسف لذلك • ومن ثم كان راغبا ، متلهفا فى رغبته ، أن يسأله الصفح •

وتمتم قائلا :

ـ كنت على حق ، ولكن لم يكن من اللائق بى ذلك ••• مانولى رفيق حساس ، من النوع الذى تجرحه لمسة ريشة• كم كنت حمارا اذ تخاصمت معه •

ثم خطر بباله على التوالى القسيس جريجوريس والعجوز لاداس ، وميشيل ، والأرملة• طاف ذهنه بالقرية كلها ولكنه عاد الى مانولى ثانية• وتمتم مرة أخرى :

ـ لم أحسن التصرف معه ، جانبنى التوفيق تماما ••• نسيت أننا نحن الأربعة يجمعنا عمل واحد طوال هذا العام • يمكن أن أقول اننا شركاء : لا ابتغاء جمع المال وانما ابتغاء الجنة ـ متاع الآخرة ، لا متاع الدنيا •

وضحك لتلاعبه بالألفاظ ، ثم غرق فى تأملاته وقال لنفسه :

ـ الى الشيطان بمتاع الدنيا والآخرة ، أليسا شيئا واحدا تماما ؟ لا ، ليس هذا هو المرجع، والا لكان الرب والشيطان فى هذه الحالة سواء• غفرانك ربى •

وسمع خلفه نهيق حمار ، فاستدار ناحيته • كان كريستوفيس الذى أقبل من القرية على ظهر حماره • وكريستوفيس شيخ عنيد ، خفيف الظل • تزوج ثلاث زيجات ، وأنجب للعالم كثيرا من الأطفال ، حتى أنه لا يذكر عددهم • مات بعضهم ، واختفى آخرون ، وها هو اليوم طليق ، يذرع الطرقات يوزع النكات ويملأ الجو بضحكاته •

توقف ياناكوس وانتظره • وقال له :

ـ طاب يومك يا شيخ كريستوفيس • هل لك أن تصنع لى مكرمة؟ هل تريد أن تعمل عملا طيبا ؟

ـ قل ما هو وسوف نرى • فقد تعبت من كثرة ما قدمت من الأعمال الطيبة ياياناكوس •

ـ قف قليلا عند ساراكينا ـ فهى فى طريقك ـ واعط هذا القدر للقسيس فوتيس . واذا سألك من أعطاها لك قل :

ـ رجل آثم ... هذا كل ما فى الأمر .

ترجل الشيخ كريستوفيس وقال :

ـ ماذا بها ياياناكوس ؟ انها ثقيلة .

ـ أرز وسبانخ .

ثم قص عليه القصة كاملة . وقهقه الشيخ كريستوفيس وقال :

ـ بورك فيك ياياناكوس . لو كان للرب مواهبك لما كان هناك أطفال جوعى ولا أرامل يائسات . سأذهب من فورى الى هناك .

ـ على رسلك ... على رسلك . غبت طويلا عن القرية ، فهل من أخبار جديدة ؟ هل لا زال الشيخ لاداس على قيد الحياة ؟

ـ هذا القدم يهرب من الموت . ألا ترى أن الموت يكلفه كثيرا ، انه لن يجنى ربحا من الجنازة . أما الكابتن فورتوناس اللعين فحالته خطيرة .

وقال ياناكوس ضاحكا :

ـ العرقى أزهد ثمنا .

ورد الشيخ كريستوفيس :

ـ آه ، ولكن الحلاقين أفلسوا .

ـ وماذا عن القسيس جريجوريس الناعم ؟

ـ ليأخذه الشيطان . لا زال حيا يرزق ، يتمتع بالنعيم . اكتشف علاجا جديدا للعواقر من النساء ، يقال انه طويل مثل السجق ، ويبيعه حسب المقاس . لو أخذت منه البقرة العجفاء ذراعا فانها سرعان ما تلد .

وأغرقا فى الضحك .

ـ أطال الله عمرك يا شيخ كريستوفيس . لو مت لمات معك الضحك . مع السلامة . سأذهب لأشترى مائة ذراع من ذلك السجق وأملأ القرية بنينا وبناتا .

ـ مع السلامة ياياناكوس . أتمنى لك التوفيق فى تجارتك .

وافترقا . وعلى بعد خطوات رن صوت الشيخ كريستوفيس كأنه صليل جرس .

الغشاش . اهتدى الى ذلك السجق منذ عهد آدم .

قال عبارته هذه ورددت المنحدرات أصداء ضحكه .

* * *

بينما كان مانولى واقفا أبصر ياناكوس يرتقى الجبل قادما اليه ، ممسكا بزمام حماره يشده وراءه . فاستجمع شجاعته وقال لنفسه : « الآن تبدأ محنتك يامانولى . فكن ابيا » .

خطر بذهنه لحظة أن يدخل الكوخ ويتخذ لنفسه مجلسا فى الركن المعتم ، خجلا من أن يفتضح أمره فى ضوء النهار . فقد عاد يتفحص وجهه هذا الصباح فى المرآة . وغمغم قائلا :

ـ الشيطان وحده على مثل هذه الصورة من القبح . كان فمه هو الشيء الوحيد الذى فش ورمه قليلا ، وهكذا أصبح أخيرا قادرا على الكلام .

كان ياناكوس يترنم بلحن وهو يرتقى الجبل. انه متشوق الى رؤية مانولى واصلاح ذات بينهما . فثمة حمل يجب أن يزيحه عن كاهله ، وسوف يتخفف منه ...

وقف مانولى ينتظره بقلب واجف تحت أشعة شمس الأصيل الذهبية . تذكر شفتى المسيح مزمومتين حتى لا يبين ما يعانيه من آلام، فزم شفتيه قدر طاقته . وقال لنفسه « سأعتاد ذلك ، انه لأمر عسير فى مبدئه ، ولكن رويدا رويدا ... أسألك العون يا يسوع » .

بدأ اللحن الذى يترنم به ياناكوس يبين ويتضح أكثر فأكثر . وفجأة دوى صوت النفير جذلا مزهوا ، كان ياناكوس قد اعتلى صخرة ، ووقف ينفخ فى نفيره ليعلن لصديقه عن وصوله .

وقال مانولى لنفسه « ها هو ذا يقترب ويصبح على مدى البصر . انه سيبصرنى . تشجع يا قلبى » .

وصاح صوت طروب .

ـ ايه يامانولى ... أين أنت ؟

خطا مانولى الى الأمام ورد عليه بجنان ثابت قدر استطاعته .

ـ ها أنذا .

رفع ياناكوس رأسه ، وفتح ذراعيه ، ولكن لم تكد عينه تقع عليه حتى تسمر فى مكانه فاغرا فاه مأخوذا . لم يصـــدق عينيه ، مسحهما بيديه ، واقترب منه ، وحدق فيه ، ثم صرخ :

ـ مانولى ... مانولى ... ماذا دهاك ؟

تظاهر بأنه يريد معانقته ، ولكنه توجس خيفة ، فتراجع عنه وهو يرتجف .

وقال مانولى بصوت رقيق :

ـ ارجع ياياناكوس ان كان هذا فوق ما تحتمل .

واتجه صوب الحظيرة حتى يعفى ياناكوس من رؤية وجهه .

ربط ياناكوس حماره الى شــجرة سنديان وتبعــه . وسمع مانولى صديقه يقترب منه .

عاود حديثه اليه :

ـ ارجع ياياناكوس ان كان هذا فوق ما تحتمل .

وأجاب ياناكوس :

ـ أحتمل ... أحتمل ... لا تذهب .

رسم مانولى علامة الصليب عند عتبة الكوخ ثم دخل وأغلق النافذة وانحنى على نفسه فى ركن معتم . وقال لنفسه .

ـ حمدا لله أن احتملت المواجهة .

دخل ياناكوس، وجلس القرفصاء عند الباب. خلع قلنسوته، ومسح جبينه . وخيم صمت طويل .

وأخيرا سأله ياناكوس ، وعيناه مثبتتان على الأرض :

ـ ماذا أصابك يامانولى ؟

ورد مانولى :

ـ لا شيء .

وصاح ياناكوس :

ـ كيف تقول لا شيء ؟ ان شيطانا استقر على وجهك يامانولى · انه شيطان لا أنت ·

وأجاب مانولى فى هدوء :

ـ بل أنا · فى حياتى لم أكن صادقا مثلما أنا الآن ·

ولاذ بالصمت لحظة · ثم عاد يقول وهو يمسح بمنديله وجهه الذى ينز دون انقطاع :

ـ فى حياتى ··· فى حياتى ···

وصاح ياناكوس ثانية وهو يقاوم خوفه :

ـ كما أقول لك ، ان شيطانا قد استقر على وجهك · عندما اتطلع اليك فانى أخافك ··· قم واركب الحمار ، ولنذهب معا الى القرية ·

ـ لماذا القرية ؟ انى راض ها هنا ·

ـ ستذهب الى القسيس جريجوريس ليرقيك بقداس يذهب به عنك الشيطان ·

ـ لا · لا · لى خدمة واحدة أسـألك اياها ياياناكوس ·: الا تبوح بشىء عنى لأحد ·

ـ سأنبىء القسيس وحده يامانولى · اذا كنت تخجل من النزول الى القرية فانه سيصعد اليك ويقرأ قداسه هنا ·

وثب مانولى مهتاجا وهو يقول :

ـ لا · لا · انى راغب فيمـا أصاب وجهى ياياناكوس ··· انى راغب فيه ···

ووثب ياناكوس بدوره وصرخ :

ـ أنا لا أفهم ما تقول · لماذا أنت راغب فيه ؟

ـ ابتغاء خلاصى ياياناكوس · والا فلن أنعم بالخلاص ··· لا تنظر الى كلامى على ظاهره ، فانى عاجز عن أن أبين ·

ـ هل هذا سر ؟

جلس مانولى ثانية فى ركنه ، وقد أحس بمزيد من الهدوء .

وأجاب :

ـ سر يعلمه الله وحده ... الله وحده وأنا ... ونحن على وفاق .

وتجاسر ياناكوس على القول :

ـ هب أنه الشيطان ؟

ـ انه الشيطان يايناكوس .وأنت صادق الحدس . انه الشيطان الذى تلبسنى . وحمدا لله على ذلك . ولولا هذا لكنت مع الهالكين ...

ورد ياناكوس يائسا :

ـ أنا لا أفهم شيئا ، لا أفهم شيئا !

ـ وأنا لم أفهم شيئا بادىء الأمر . لم أفهم شيئا يايناكوس ... ثم فهمت أخيرا . كنت يائسا أول الأمر ، ولكننى الآن هادىء البال . لست هادىء البال فحسب ، بل اننى أرفع يدى الى السماء أمجد الرب .

أحس ياناكوس فجأة بتوقير لمانولى وتمتم قائلا :

ـ أنت قديس ...

ورد مانولى محتجا .

ـ بل آثم ، وآثم كبير ... ولكن الله واسع الرحمة .

ولاذ بالصمت . وعلى البعد رنت أجراس القطيع ، ونبحت الكلاب. وبدأت الشمس فى المغيب ، واقتحمت الكوخ ظلال زرقاء كبيرة . وضاق الحمار بغياب صاحبه فشرع فى نهيق حزين كأنما يستدعيه .

وسأله ياناكوس :

ـ هل تستطيع أن تأكل ؟

ـ اللبن فقط ، امتصه بالبوصة .

ـ هل تشعر بألم فى أى مكان ؟

ـ لا ، لا أشعر بألم أبدا ... انصرف يايناكوس . فى رعاية السماء . حسبنا هذا . ولكن عدنى بأنك لن تبوح بشىء لأحد . هذا ضرورى ... هل تفهمنى ؟ حتى أبقى هنا وأكابد وحدى .

ـ ضد الشيطان ؟

ـ ضد الشيطان ·

ـ واذا انتصر ؟

ـ لن ينتصر · لا تخف · الله معى ·

وغمغم ياناكوس :

ـ أنت قديس ··· لست بحاجة الى عون أحد · أتمنى لك صحة طيبة · سأعودك ···ليس عندى ما أقوله خيرا من ذلك ·

ـ اذا لم يكن هذا فوق ما تحتمل ياياناكوس ؟

ـ بل أحتمل ··· سأراك قريبا ·

وشعر للحظة بدافع يدفعه الى أن يمسك بيد مانولى ويقبلها · ولكنه أحجم · وخرج حيث فك عقال حماره الذى هز ذيله فى سعادة · واتخذ طريقه نازلا الى القرية ، شارد الفكر ، دون أن يلقى بنظرة الى الوراء ·

وتمتم وهو يهبط المنحدر :

ـ العالم طلسم ··· ما أشد غموضه ··· يعجز المرء فيه عن أن يميز الشيطان من الرب الرحيم ··· كثيرا ما يتشابهان ··· استغفرك ربى ·

* * *

فى اليوم التالى قام مانولى قبيل الفجر واتجه الى حيث كان نيكوليو نائما فى فناء الحظيرة ، مستلقيا على ظهره فى غبطة وهناءة · وركله ليوقظه ·

ـ نيكوليو · قم · أريد منك عمل شىء لى ·

ارتفع رأس الراعى الصغير ، الحلو التقاطيع ، وهو لا يزال غافيا · وانفتح الجفنان ، ولمع بياض العينين كليلا فى غبش السحر ·

وهمهم وهو يتثاءب .

ـ ماذا تريد ؟

ـ قم · قم · سأخبرك بعد أن تستيقظ ··· هيا انهض ·

نهض الغلام متأففا . وما أن شب على ساقيه حتى كشف عن بطن عار برنزى . وأبان عن ذراعين وفخذين وحماتين يغطيهما شعر أسود لامع . وكانت تفوح منه رائحة السعتر والماعز .

وقال مانولى :

ارسم علامة الصليب ، حتى وان كنت لا تفعلها ، فيجب عليك أن تفعلها اليوم .

وقال نيكوليو وهو لا زال يتمطى ويطقطق مفاصله :

ـ دعك من هذه يا سيدى . أى خير فيها ؟

فقد عاش حياته فوق الجبل ، نشأ وترعرع بين الكباش ، ومن ثم لم تواته يوما الرغبة فى رسم علامة الصليب ، ناهيك عن الذهاب الى الكنيسة . اذن ما حاجة نيكوليو الى هذا كله ؟ كل ما كان يبتغيه أن يكون صحيح البدن ، ويتزوج وقتما يحين الأوان ، وينجب أطفالا ، ويمتلك بعض الماشية ، ويتقدم به السن وهو لا يزال قوى العود مثل شجرة سنديان مورقة . أما علامات الصليب ، والعذراء المقدسة ، فهذه كلها أمور تخص أولئك الذين يسكنون السهل .

جلس مانولى عند عتبة الباب ، منتظرا نيكوليو الى أن يغتسل ويصحو من نومه تماما. لقد اتخذ قرارا مروعا أثناء الليل . لم يغمض له جفن طوال الليل ، كان الرب والشيطان يتصارعان بداخله . وانتصر الرب عند مطلع الفجر . ونهض مانولى ساعتها واتجه الى الراعى الصغير حيث ركله بقدمه ليوقظه .

قال نيكوليو وهو يسوى شعره براحتيه :

ـ ها أنذا قد صحوت . أنبئنى الآن بما تريدنى أن أفعله .

وقال مانولى بصوت خفيض :

ـ اسمعنى يا نيكوليو واصغ الى ما أقول . ان كنت تخافنى فلا تنظر الى ، بل تطلع الى بعيد . ولكن اصغ جيدا الى ما سأقول .

وقال نيكوليو وقد أشاح بنظره :

ـ انى مصغ اليك .

ـ ستنزل الى القرية ، وتقصد بيت السيد ، ستجد الباب اليوم مفتوحا ، فادخل . ستجتاز الفناء ثم تتجه يمينا الى الطابق الأرضى حيث يوجد النول . ستلقى هناك خطيبتى لينيو .

والتفت نيكوليو نحوه بانفعال ، وبرقت عيناه وقال :

ـ لينيو ؟

ـ ستلقى لينيو وتقول لها ... اصغ الى كلماتى جيدا يا نيكوليو، أنقشها فى رأسك: « ان مانولى يبعث اليك بتحياته، ويسألك أن تتكرمى بالصعود الى الجبـل . لديه ما يريد أن يفضى به اليك » هذا كل ما فى الأمر . تبلغها هذا وتنصرف بعدها توا ... هل تفهمنى ؟

ـ أفهمك ، هذا أمر سهل . سأذهب الآن .

هم بالانصراف ، متعجلا النزول الى القرية .

أمسك مانولى بذراعه وقال له :

ـ انتظر أيها العنز البرى . اذا سألتك عن حالى فقل اننى بخير . أستحلفك بالله ألا تفصح عن مرضى . حذار والا فالويل لك .

ـ لا عليك يا سيدى. سأقول لها «انه على مايرام» ثم أولى الادبار.

ـ اجر من فورك .

اندفع نيكوليو كالسهم وغاب عن الانظار .

* * *

كانت لينيو قد نهضت من نومها بالفعـل . أعدت شراب التيزان الممزوج بالروم ، وارتقت الدرج لتقدمه الى سيدها الشيخ بطرياركاس . كانت ترتقى الدرج الحجرى مشرقة الوجه ، مرسلة الشعر ، تغرد كطائر الزمير .

كان السيد العجوز جالسا على حشية يتطلع بناظريه من النافذة الى سطوح بيوت القرية من تحته . وطاف بخاطره على كل أهل القرية ، طرق أبوابهم ، ودخل بيوتهم ، وألقى الى كل منهم بكلمة مجـاملة تواضعا ثم ولى عنهم خارجا . وارتقى الجبل ، وألقى نظرة عجلى الى الماشية حتى التقى بمـــانولى ففقد صوابه . « هل سمعت مثل هـــذا ؟ هذا الخادم القذر يعارضنى . يقول : روحه ... روحه غير مهيأة ... حسن أيها التعس ، اذا لم تتزوج بلينيو حتى آخر أبريل فانك مطرود ، سأدفع بك ثانية الى الدير لتعيش هناك حياة الخصـيان . تدوس على النعمة التى أنعمت بها عليك أيها الخنزير الحقير . انك أنت الذى أدرت رأس ابنى»، انه أنت يا شحاذ الذى تأخذك الرأفة بالفقير ... يقول لى انهم بشر أيضا مثلنا ،

انهم اخوة لنا . هذا كله جميل حين يقال فى الكنيسة ، وحين ينطق به القسيس من على المنبر فى يوم أحد . أما أنت أيها الغر فلا بد وأنك قد جننت تماما اذ تريد أن تطبق هذا الكلام عمليا فى دارك .

انفتح الباب ، ودخلت لينيو حاملة شراب التيزان . وسرعان ما ولت أفكار الشيخ بطرياركاس عن ابنه وراعيه لتستقر على الفتاة التى تفيض خفة وغواية ، تحمل اليه شرابه المفضل ، تخطر فى مشيتها فيهتز ردفاها. حدق اليها يتملاها بعينيه وهى تقترب منه ، يمتع ناظريه معجبا بالثدى النافر ، والخصر النحيل ، والأطراف البضة . وحدث نفسه قائلا «ماحيلتى معك أيتها العاهرة المباركة وأنا أنظر اليك كابنتى ؟... كانت أمك فى صباها تحاكيك خفة ومرحا ... رحمها الله ، ففى ذات ليلة ... وتحسس الشيخ شاربه وتنهد » .

وقالت لينيو فى تملق :

ـ كيف حالك اليوم يا سيدى ؟ علام التنهد ؟

ـ وكيف لا أتنهد يا عزيزتى لينيو ؟ انى معذب بين ابنى ومانولى . قيل لى انك قصدت الجبل أول أمس لمقابلته. ترى ماذا قال لك هذا الأحمق؟

جلست لينيو على حافة السرير عند قدمى الشيخ وتنهدت بدورها ، وقالت له :

ـ ماذا تظن أنه قال لى ياسيدى ؟ أخاله مسحورا ... حدثنى عن أمور لا أتبين منها شيئا ، أعياه الكلام ... وبدلا من أن ينظر الى وجهى على نحو ما يفعل الرجال ، كان يرخى عينيه الى الارض ، أو يرفعهما الى السماء مسبلا جفنيه ... ماذا أقول لك يا سيدى ؟ من يدرى لو أخذته الى القسيس جريجوريس ليقرأ عليه التعاويذ ؟ لا تضحك . ان مانولى مسلوب العقل ، يا سيدى .

كان الشيخ الخبيث يرقب لينيو ملولة خجلى . وبدأ يرتشف شرابه بصوت صاخب وسألها :

ـ هل تحبينه ؟

ـ وماذا تنتظر يا سيدى ؟ لقد زوجته بى وهو رجلى . ولو زوجت آخر بى لكان ذلك الآخر رجلى . والرجال عندى سواء كما تعلم .

وسألها سيدها ، وهو يغمز لها باحدى عينيه :

ـ والعجائز أيضا يا لينيو ؟

وردت الفتاة بطريقة قاطعة رادعة :

ـ حقيقة لا ... الفتيان فقط .

ودل عليها العجوز قائلا :

ـ حتى كم من العمر ؟

ـ طالما وأنهم قادرون على الانجاب .

قالت ردها هذا في غير تردد . بدت وكأنها تدبرت كل هذه المشاكل من قبل وقطعت فيها برأى .

ـ ان لك عقلا ماضيا كحد الموسى . تذكرى ما أقوله لك : أنت تعرفين بغيتك . سترحلين عن هنا . ضحكت الفتاة ونهضت من مكانها . أخذت القدح الفارغ وعادت الى الباب ولكن العجوز أوقفها .

سألها :

ـ ما هو التاريخ اليوم ؟ كم من أبريل ...

وعدت لينيو على أصابعها الأحد ، الاثنين ، الثلاثاء ...

ـ السابع والعشرون يا سيدى .

ـ عليك بالانتظار ثلاثة أيام أخر ، حتى يتنازل صاحب السعادة مانولى ويبلغنا اجابته . لو بلغ به السفه الى الحد الذى يرفض فيه مثل هذه الجوهرة ، فلا تجزعى يالينيو ، سأجد لك زوجا خيرا منه ، رجلا بكل معنى الكلمة ، ليست له روح ولا ما شابه ذلك من الترهات التى يحدثنا بها ... زوجا يملأ فناء بيتك بالاطفال . هيا اجر . يحسن أن أنهض اليوم وأقصد الكنيسة ، ثم أبدأ بعدها جولة فى القرية ... آتنى ملابس نظيفة .

تمتمت لينيو وهى تنزل الدرج ، وتعتمل بصدرها ضحكة حبيسة كأن ثمة من يدغدغها :

ـ يا له من شيخ يثير الاشمئزاز .. كان يلتهمنى بعينيه .. قسما بايمانى لو لم يكن هذا الشيخ أبى لعرفت كيف أغريه بالزواج بى ، ولا بأس ان عجز عن انجاب أطفال . وماذا يهم فى ذلك فثمة آخرون قادرون. ولكن الشيطان قلب الاوضاع كلها رأسا على عقب . ولكن ، لا بأس . ان مانولى ليس سيئا الى هذا الحد .

فى هذه اللحظة ظهر نيكوليو عند عتبة البــاب · نال منه الحر ، وتصاعد من جسده البخار ، وعبق الفناء برائحة المـاعز والطين · كان يشبه جديا واقفا على قدميه الخلفيتين ، أو ربمــا ملاكا صغيرا فى سورة غضب ·

ما أن أبصرته لينيو حتى توقفت ، واقشعر بدنها وتمتمت :

ـ من هذا ؟ ما أطيب رائحته ·

ثم صاحت

ـ ماذا تريد ؟ هل أنت نيكوليو ؟

ورد الراعى الصغير بصوت متكسر كأنه رجع الصدى :

ـ أنا نيكوليو ·

ـ أنا لا أكاد أصدق ، أصبحت الآن رجلا بمعنى الـكلمة ، واخضر شاربك · ما الذى أتى بك الى هنا ؟

ـ بعث بى مانولى مع الصباح الباكر لأخبرك شيئا ، ولهـذا جئت الى هنا ·

اقتربت منه لينيو بقلب واجف · وقالت :

ـ مانولى ؟ لا تصرخ فلست فوق الجبل · تحدث هنا بصوت رقيق· ماذا قال لك لتخبرنى به ؟

ـ قال لى ما يلى « اليك تحيات مانولى · هل لك أن تتكرمى بالصعود الى الجبل · لديه ما يقوله لك » ·

ـ هل هـذا كل شىء ؟ حسن ، قــل له انى قادمة ··· انتظر ، لا تنصرف · وكيف حاله ؟

ـ انه بخير · انه بخير تماما ·

قال نيكوليو ذلك بصــوت عال ، ثم ولى عنهــا مسرعا تاركا وراءه عبيرا نفاذا ·

فى هذه اللحظة خرج ميشيل الى الفناء ، يرفل فى ملابس يوم الأحد الناعمة ، حليق الذقن ، ممشط الشعر ، فقد تهيأ للذهاب الى الكنيسة يستمع فيها لبعض كلمات الانجيل ، ويزور ماريورى · توســط الفناء

بادى القلق ، كأنه ملاك • جمدت لينيو فى مكانها لحظة من الزمان مسلوبة اللب من فرط الاعجاب • وحدثت نفسها « لا بد وأن أبى كان على هذه الصورة فى شبابه ، كأنه القديس جورج » •

وضع ميشيل على رأسه قلنسوته التى كان يمسك بها فى يده، وقال:

ـ صباح الخير يالينيو • انى ذاهب الى الكنيسة •

أجابت لينيو مداعبة

ـ فى رعاية الله • اذهب الى هناك توا يا سيدى • اياك أن تحيد عن الطريق •

ورد عليها ميشيل وكان قد لمح الرسول الذى اختفى سريعا عن الأنظار •

ـ يقينا ستحيدين أنت عن الطريق • ستذهبين توا الى مانولى • فما حاجتك الى الشكوى •

أحست الفتاة كأن كلماته لدغتها ، فدفعت عن نفسها الاتهام قائلة :

ـ « لست أشكو ـ من قال ذلك ؟ اننا معشر الخدم بشر أيضا • ان الله بواسع رحمته يقينا من ذل الشكوى • ولو ارتدى مانولى ملابسك يا سيدى لبدا هو الآخر سيدا أنيقا مهندما •

وأجاب ميشيل وهو يجتاز عتبة الباب :

ـ « أنت على حق يا لينيو • نعم أنت على حق • الملابس هى الشىء الوحيد الذى يفرق بيننا » •

وبدأت الأجراس تدق معلنة بدء القداس •

ـ « حسن • انى ذاهب يا لينيو • آتنا بأخبار طيبة من الجبل » •

واجابت لينيو بلسانها السليط :

ـ وآتنا أنت أيضا بأخبار طيبة عن بنت القسيس » •

عبقت الكنيسة برائحة الشمع والبخور • وتلألأت الأيقونات فى وداعة فوق أعمدتها • واضاءت صور القديسين والملائكة المجنحة بالوانهم المتعددة على جدران الكنيسة ، من أول الدور الأرضى الذى كسته الأعلام حتى القبة • يشعر المرء عند دخوله هذه الكنيسة البيزنطية القديمة كأنما يهيم فى رحاب جنة تعج بطيور رائعة الحسن ، وأزهار تسامق الانسان ،

وملائكة كأنهم نحل عملاق يحلق فوق الأزهار ، يتنقل بينها ليجنى منها الرحيق • واعتلى الاله القوى القدير القبة متربعا على عرشـه ، عاتيا ، متوعدا ، يطل من عليائه على رءوس البشر •

ومن تحت وقف المؤمنون على البلاط يطنون هم أيضا ، الرجال فى الصدارة ، والنسـوة من ورائهم • وفدوا الى الكنيسـة وانحنوا أمام الايقـونات ، وتنسـموها بأنوفهـم ثم اسـتقاموا هائمـين فى ملـكوت السموات مصغين الى الترانيم • وامتدت مقاعد الأعيان وراء النضد الذى صفت عليه شموع وصـحاف من فضة • لم يكن ثمة من يتوقع حضور الشيخ بطرياركاس • أما الكابتن فورتوناس ، هذا التعس ، فلا زال طريح فراشه يئن ويتوجع • لم يحضر من الأعيان سوى ناظر المدرسة بنظارته وياقته البيضاء ، والى جانب الأب لاداس قابعا فى ركنه يتمتم بشفتيه • كانت الكلمات التى يلوكها بين أسنانه تطبع على شفتيه طعما مرا • لقد أتاه ياناكوس البارحة بأخبار سيئة • فان أولئـك الناس ذوى الأسمال البالية الذين هاموا على وجوههم زهاء شهور ثلاثة فى الطرقات والدروب قد باعوا ، على حد زعمه ، آخر ما كان معهم من المجوهرات • ولم يبق لهم سوى أصابع عارية • وأى نفع للأصـابع يا أب لاداس ؟ انهـا لا تفضل الآذان بغير أقراط • ولعن القدر • ووقف وراء النضد يئن بالشـكوى « انى تعس ، لا حظ لى ، ليت القرية المنكوبة كانت قرب ليكوفريسى حتى كنت أبدأ صفقتى فى الوقت المناسب •• ما فائدتها الآن بعد أن أصبحت خرابا ؟ ليأخذها الشيطان » •

كان المؤمنون لا زالوا يتوافدون ، يضعون بعض ما يتصدقون به من مال فى الطبـق ، ويأخذون شمعة ويرسـمون علامة الصليب ، ثم يتجهون الى الحجاب • كان الأب لاداس شارد اللب • « من حسن الحظ أن وقع هذا الأبله ايصال الجنيهات الثلاثة • لو كنت مكانه •• »

لم يجد فسحة من الوقت ليتابع سلسلة أفكاره • اذ دخلت جثـة ضخمة ، حطت بجواره ، وأز المقعد تحت ثقلها • واستدار متبرما ، فأبصر الشيخ بطرياركاس ، شاحب الوجه ، مترهل الوجنات ، جامد النظرات ، أصفر الشفتين وفيهما جفاف • وقال لنفسه « هذا الخنزير الشحيم البدين لن يموت أبدا » واستدار ناحيته فى كياسة وحياء •

وهمس بصوت كليـل « أتمنى لك صحة طيبة يا عمـدة » ثم استغرق فى همومه •

أضاءت الكنيسة بنور ميشيل حين أشرق عليها • جاء متأخرا ،

فقد عرج على بيت ماريورى التى كانت فى انتظاره . كانت وحدها فى البيت ، فيما عدا المربية العجوز الصماء التى كرست حياتها لخدمتها .

قالت ماريورى التى وقفت وراء الباب مسندة ظهرها اليه :

ـ « غبت عنى زمانا » .

ارتدت هى الأخرى أحسن لباسها . تتلألأ حول جيدها قلادة من العملات الذهبية البيزنطية ورثتها عن أمها . ومست وجنتيها فى رقة بخضاب الزينة الأحمر الذى اشترته بالأمس من ياناكوس . ولكن عينيها كليلتان كأنما كانت تبكى ، تحيط بهما دائرة زرقاء شديدة الزرقة . أمسكت بمنديلها تضعه على فمها بين الحين والآخر .

وسألها ميشيل الذى ساورته الهموم :

ـ « لماذا بعثت فى طلبى ؟ ماذا يزعجك يا ماريورى ؟ » .

غضت ماريورى من طرفها وأجابت :

ـ « أبى فى عجلة من أمره . يريدنا أن نتزوج » .

ـ « ألم نتفق على عيد الميلاد يا ماريورى ؟ لم يمض عام بعد على وفاة أمى ، وهذا لا يليق .. »

وعاودت الفتاة حديثها بصوت خافت :

ـ انه عجل . كل يوم يدور خصام بينى وبينه . يهب من نومه كلما انتصف الليل ويذرع الحجرة جيئة وذهابا ، ويستعصى عليه النوم .

ـ « لماذا ؟ وما سبب تعجله ؟ »

تمتمت ماريورى بصوت مرتجف :

ـ « لا أعرف يا ميشيل .. لا أعرف » .

كانت تعرف تماما سر قلق العجوز ولكنها لا تجرؤ على الافصاح . وهى تدرك فى أعماق نفسها أن أباها على صواب ويلزم الاسراع .

وقال ميشيل :

ـ « لم يكن أبى يحب أمى ، اذ كانت تكبره سنا ، وعاشت حتى تقدمت بها السن ، واعتادت أن تزجره .. وسئم حياته معها ولذلك لم يحزن على موتها . وأيا كان الأمر فانه لا يجرؤ على الخروج عن التقاليد

ولما يمض عام بعد . هذا فضلا عن أنه عمدة القرية ورئيس أعيانها ويجب عليه أن يضرب المثل .. هل تفهمينني يا ماريورى ؟ » .

ـ « أفهمك ، افهمك .. ولكن أبى فقد صبـــــره كما أقول لك ، ويلومنى .. ولم اعد أحتمل المزيد » .

وأحست بالسعال يغالبها ، ولكنها كظمته ، ووضعت منديلها على فمها . وبدأت يدها الصغيرة ترتجف بين راحة ميشيل ، وبللها العرق .

وفجأة تطلع اليها ميشيل منزعجا . لقد أصابها الهزال بصورة تثير الخوف . ونتأت عظامها من تحت جلدها الناعم . وبات وجههـــــا يشبه الجمجمة .

ضغط على يدها ، ثم ضمها الى صدره وغمغم :

ـ « ماريورى .. ماريورى .. »

خيل اليه كأنها ستفارقه وهو عاجز عن أن يبقيها ، كأنها ليست سوى حفنة من الرمل فى راحته ، تنساب حبيبـــاتها من بين أصابعه تودعه .

قالت الفتاة وهى تحاول أن تمسك عبراتها :

ـ « حبيبى ميشيل . يجب أن تنصرف الآن . اذهب الى الكنيسة . سآتى أنا أيضا بعد لحظـة .. تأخرنا . اذهب . لعل الله أن يشـــملنا ببركته » .

أمسكت برأسه بين يديها وضمته الى صدرها فترة من الوقت . كان بدنها كله يرتجف .

وتمتمت ثانية « لعل الله أن يشملنا ببركته » . ثم ولت مسرعة الى الداخل ، والقت بنفسها بين ذراعى مربيتها كأنما غشى عليها .

فتح ميشيل الباب فى هدوء ، وحث الخطى قاصدا الكنيسة ، منقبض القلب ، ضيق الصدر .

ظل واقفا قرب مقعد أبيه . والتفت اليه الشيخ معجبا به . وقال لنفسه « هكذا كنت يوما ما .. هكذا كنت يوما ما .. أيتها الحياة المضنية ، تمضين كأسطورة من أساطير الجان » .

في هذه الأثناء كانت لينيو قد فرغت من تسريح شعرها • ورشت عطر ماء البرتقال على شعرها وداخل صدرها • وسوت حول رأسها منديلها الأصفر ذا الأهداب الحمراء ، الذى أهداه لها سيدها فى عيد القيامة • ثم خرجت تشق طريقها بين الدروب ميممة شطر الطريق الصاعد الى جبل العذراء •

انتهى القداس ، وتفرق أهل القرية في الميدان ، يروحون ويجيئون ، عليهم ملابس يوم الأحد ، وبداخلهم تقوى يوم الأحد • أم بعضهم مقهى قسطندى يشربون ويضحكون •

وكان الأغا كعادته جالسا فى شرفته يدخن نارجيلته • عن يمينه حسين يمسك بالنفير ، وعن شماله يوسوفاكي يصب له الشراب ويمضغ اللبان• ضيق الأغا عينيه الدامعتين يرصد بهما أهل القرية فى الميدان من تحته كراع يطل على قطيعه في حدب ولهفة • كان يؤمن أنه انسان ومن عداه أغنام ، يأكل اللحم ويأكلون هم الخضر • وتفضل عليهم الأغا اذ سمح لهم أن يطعموا فى سلام حتى يوفروا له حاجته من الصوف واللبن واللحم •

وكانت لينيو ترتقى الجبل بقلب استخفه الفرح• توهمت ما يريده مانولى • سيعقد قرانهما هذا الأسبوع • انتهى انتظارها الطويل الى غير عودة ، والحياة الحقة على وشك أن تبدأ ـ سيكون نهارى عملا فى البيت والمطبخ وليلى قبلا وأحضانا • وبعد تسعة أشهر •• طفل أهدهده •• لن أكون خادما بعد اليوم ، سأكون زوجا وأما •• »

كانت تحب مانولى : فتى وديعا ، مجدا في عمله ، وسيما ، أشقر اللحية ، أزرق العينين ، رقيق الملامح ـ صورة صادقة للمسيح •

استخف الفرح قلبها فصار له جناحان ، سبقها بهما اليه وارتقى الجبل سريعا ، حتى بلغ أرض المرعى وحوم حولها ، ثم حط على كتف مانولى كطائر حجل أنيس بدين أحمر المخالب • داعب بمنقاره فى هيام عنقه من أمام ومن خلف •

وحدثت نفسها قائلة :

ـ « لابد وأنه جالس الآن فوق الصخرة الناتئة عند أول الطريق ينتظرنى • أحسب أن قلبه كقلبي طار فرحا » •

وكانت على حق • فقد جلس مانولى فوق الصخرة الناتئة • طفق يمسح وجهه المتورم ، الذى نكأت جروحه وعادت تنز •

وقال لنفسه :

ـ « انى حزين من أجـل هـذه المخلوقة التعسة · انى حزين من أجلها ·· ولكن قضى الأمر ·· بات لزاما على أن أحرر نفسى من الغواية ، وأطهر النفس والبدن حتى أكون جديرا ··

وأرهف السمع ، فقد تناهى الى سمعه وقع خطواتها ، خفيفة سريعة ، وتنسم شذا زهر البرتقال الذى تضوع به الهواء ، انه شذاها ·· تنسمته أنفه على البعد ··

وحدث نفسه :

ـ « انها قادمة ·· انها قادمة ·· ها هى ذى ، ها هى ذى ·· »

ظهر المنديل الأصفر على البعد · وتوقفت لينيو هنيهة ، وأظلت عينيها براحتها · أبصرت خطيبها جالسا فوق الصخرة الناتئة ينتظرها ، منكس الرأس · وصعدت بخطوات وئيدة ·

عاود مانولى حديثه الى نفسه :

ـ « ها هى ذى » ·

رفع رأسه واستوى واقفا وظل جامدا فى مكانه ·

تظاهرت لينيو بأنها لم تبصره ، أملا فى أن يثب نحـــوها كعادته ويمسك بها من خصرها يعينها على الصعود كما كان يزعم لها ·· بيد أن مانولى اليوم لبث مكانه ولم يبد حراكا ·

لم تطق صبرا · وصاحت به :

ـ « مانولى » ·

لم يجب مانولى · ظل واقفا فوق صخرته واجما جامدا بغير حراك ·

بدأت لينيو تعدو حتى اقتربت منه ، ورفعت رأسها وأبصرته فصرخت مولولة :

ـ « يا سيدتنا العذراء » ·

وخرت الى الأرض ·

نزل مانولى انتشلها من على الأرض · غطت عينيها بذراعها الأيسر، ومدت ذراعها الأيمن تتحاشاه ·

وصرخت بصوت أجش :

ـ « اليك عنى • اليك عنى • اليك عنى » •

وقال مانولى بصوت رقيق :

ـ « أنظرى الى ثانية يا لينيو • أنظرى الى وبعدها ستعافنى نفسك الى الأبد ويكون خلاصك منى •• »

ولولت الفتاة التعسة :

ـ « لا • لا • اليك عنى » •

تراجع مانولى ، وعاد الى صخرته ، وجلس فوقها •

ظلا كلاهما واجمين لفترة غير قصيرة • وكانت لينيو أول من قطع هذا الصمت حين صاحت :

ـ « ما هذا ؟ أنبئنى بحق السماء •• ما هذا ؟ » •

وأجاب مانولى فى هدوء :

ـ « انه الجذام •• » •

وارتعدت لينيو ، وأشاحت بوجهها ناحية القرية • وقالت :

ـ « انى راحلة • ألهذا بعثت فى طلبى ؟ » •

وأجاب مانولى وهو لا زال محتفظا بهدوئه :

ـ « نعم ، لهذا السبب • هل تستطيعين الزواج منى الآن ؟ •• لا • لن تستطيعى • هل تريدين أطفالا مصابين بالجذام ؟ لا • لا تريدين • اتركينى •

مرة أخرى ظلا صامتين • وفجأة أجهشت الفتاة ببكاء عنيف هز كيانها •

أدار لها مانولى ظهره ليذهب الى المرعى • وقال لها :

ـ « مع السلامة يا لينيو • وداعا » •

لم تجب لينيو • مسحت عينيها بمنديلها الأصفر الناعم ، وتلفتت حولها وقد وهن جسمها ، لا تدرى الى أين تذهب • واختفى مانولى ، وبدت الأرض صحراء قفرا تدور لغير هدف •

بلغت الشمس سمتها وهمدت الأصوات فيما خــلا رنين أجراس الماشية وهي في طريقها الى شجرة السنديان ترقد تحتها ، تستظل بظلها · وللحظة من الزمان صدح ناى بلحن شجي في هذه الخلوة ، ولكنه خفت فجاة ·

ظلت لينيو تردد بين نفسها في هلع :

ـ « الجذام ·· الجذام ·· »

وسرت في جسدها رجفة رغم قيظ الظهيرة اللافح ·

ترى كم من الوقت مكثت هناك قابعة في مكانها بين الحجارة مطوية حول نفسها·· انها لا تدرى ، تخالها دهرا وهي لاتعدو دقائق معدودات· ذلك لأنها حين نهضت من مكانها لتنصرف كانت الشمس لا تزال جامدة بغير حراك تعتلى كبد السماء ·

عاد الناى يردد من جديد لحنا فيه شجو وطرب ومناجاة ·· كأنه روح أخرى لا تطيق الوحدة ·

ســارت لينيو مسلوبة اللب في غير وعي ، واتجهت صوب النــاى كأنه يدعوها· خيل اليها كأنها سمعت اسمها يناديها به · سارت مترنحة الخطو ، لاهثة الأنفاس، وبعد خطوات قليلة أرهفت السمع · أصبح الناى أكثر قربا ، وأوقع ملاطفة ، وأمعن تضرعا انه يناديها ويجذبها اليه ·· لم تعد قادرة على الممانعة ، وواصلت المسير شاردة الحس ·

وعلى حين غرة طالعتها الأغنام ، راقدة تحت شجرة سنديان سامقة ، نبتت داخل تجويف في الجبل · أراحت الأغنام رقابها على الأرض تستمتع ببعض رطوبتها · لم يقم منها غير اثنين كأنهما يتأهبان للطراد والمناطحة · ووقف بالقرب منها الراعي الصغير نصف عارى يثب ويرقص معهما ،وبين شفتيه ناى طويل ·· يرفع طرف الناى من بين شــفتيه بين الحين والحين ليصرخ صرخات وحشية ويصفق بيديه ، ويصدر عنه صياح كأنه ثغاء ، ثم يعود الى العزف ثانية ، وينساب اللحن عاليا أكثر فأكثر ·

تقدمت لينيو مسحورة ، مترددة الخطو · كان الراعي الصغير يوليها ظهره ، ومن ثم لم يبصرها · وها هي لينيو الآن تســتطيع أن تتبين كل ما حولها : كبش له الية ثقيلة وقرنان ملفوفان يلاحق نعجة بيضاء ، يحاول أن يعتليها وهي تفلت منه · يشب الكبش على قدميه الخلفيتين مهتاجا ويعود ليمسك بها من جديد بحافريه الأماميين ويطرح نفسه فوقها ويصدر عنه أنين خافت كأنه يتوسل اليها ·· والراعي الصغير يتابع معركة الحب يثب

فى مكانه ويرقص ويصيح صيحات رقيقة يعضد بها الكبش فى توسله ·
وصرخ :

– « هيا يا داسوس ·· اقفز عليها يا داسوس ·· »

ثم عاد إلى الناى ثانية يعزف ·

وقفت لينيو مبهورة النفس وراء الراعى الصغير مباشرة · كانت تلهث وقد تدلى لسانها من فمها مثل النعاج · وأحست بألم فى ثدييها ·

وفجأة جمدت النعجة فى مكانها ، منهوكة القوى ، وكأنها هى أيضا لم تعد قادرة على كبح جماح شهوتها · واعتلاها داسوس بوثبة واحدة ، وغطاها تماما · تدلى لسانه وبدأ يلعق رقبتها ويعضها خفيفا فى حنان · تصبب الكبش عرقا حتى ابتل صوفه ، وعبق الجو برائحة الذكورة ·

ألقى نيكوليو بالناى جانبا ، ونزع عن جسده ما بقى من ملابس حتى أضحى عاريا تماما ، والعرق يغطى جسده ، وبدأ يرقص ويتمايل مقلدا حركات الكبش ·

نفرت العروق فى عنق لينيو ، وغامت عيناها ، وبغتة استدار نيكوليو وهو يرقص ، أبصرها فانقض عليها ، وطرحها أرضا قبالة الكبش والنعجة · وقنعت لينيو بالاستسلام ·

الكابتن يموت

الكابتن فورتوناس المسكين حالته سيئة تماما يا أغا • عظام جمجمته لن تلتئم ثانية • حاولنا الكثير ! المراهم والدهانات ـ بل ان القسيس جريجوريس ذهب اليه بنفسه ليقرأ عليه الصلوات • وزارته أيضا امرأة من نساء الغجر ، وقرأت له الطالع • وأشعلوا له شمعة فى دير القـديس باند ليمون صاحب المعجزات فى ابراء المرضى • وأكل بعض لحم القطط ـ اذ يقال ان لها سبعة أرواح • وكل هذا لم يجد فتيلا فلا الرب الرحيم ، ولا الشيطان الرجيم يريد لقبطاننا المرحوم شفاء •

أفلتت كلمة « المرحوم » من لسان الأم ماندالينيا عن غير وعى منها ، فعضت شفتيها • وتمتمت :

ـ « لعل بأذن صاحبنا وقرا فلم يسمعنى » •

ثم عادت وانطلق لسانها فى غبطة وسرور :

ـ « بعث اليوم فى طلب ميشيل ابن عمدة القرية ، حتى يمليه وصيته على حد قوله • وأنا الآن يا أغا ذاهبة لآتيه بالقسيس جريجوريس ليقدم له المسحة الأخيرة • لقد رفع القبطان مراسيه وها هو يتأهب للابحار • دعانى منذ فترة وجيزة وقال لى « يا خالة ماندالينيا ، أكرمينى واذهبى الى الأغا ، قولى له : تقبل خالص تحيات كابتن فورتوناس جرينهورن • انه ينشر قلاعه ، هكذا قال ، ويتأهب للابحار ، فالى اللقاء » ولهذا أتيتك يا أغا • فأنا الأم ماندالينيا » •

كان الأغا جالسا على حشيته غافيا ، منتفخ الجفنين ، متهدل الوجنتين ، حافي بالقدمين ، أشعث الشعر ، لم يغسل وجهه بعد ، ويشرب القهــوة ليذهب بها عنه أثر النعاس . كان ينصت الى الأم ماندالينيا كما ينصت المرء لخرير ماء المطر . وعندما سكتت فتح الأغا فمه فى تراخ وكسل وسألها وهو يتثاءب :

ـ « وماذا عن مخه ؟ » .

ـ « انه يعمل على خير وجه يا أغا ، ساعة منتظمة » .

وصمت ثانية : أحس تراخيا في جسده فتثاءب مرة أخرى وسألها ولا زال فاغرا فاه :

ـ « هل هو خائف ؟ » .

ـ « انه لا يشعر بذرة من الخوف ، هذا العزيز ، لا يشعر بذرة منه . يضحك لحديثك عن الله كمــا يضحك لحديثك عن الشــيطان . انه ، أستغفر الله ، لا يعبأ بهذا ولا ذاك على السواء » .

ـ « هل يشرب ؟ » .

ـ « يشرب ولكن فى غير افراط » .

ـ « حسن . قولى له عندما أصحو من نومى سأذهب اليه أودعه . قولى له أيضا أننى سآتى بحســين حارسى لينفخ فى النفير . وسآتى بيوسوفاكي ، قولى له هذا ، ليغنيه أغنية آمان المحببة اليه ـ وهو يعرف أى أغنية أقصد . ها أنذا قد فرغت من القهوة وسأدخن غليونى وأشرب قليلا من العرقى ، ثم يأتى يوسوفاكي ليدلك ساقى ، وبذلك أكون قد صحوت تماما . وبعدها أنزل .. انتظرى ، اسمعي : قولى له لا تتعجل الرحيل وتموت قبل أن أصل اليه .. قولى له ذلك ! عليه أن ينتظرنى . هيا انصرفى الآن » .

* * *

رقد الكابتن على فراشه موليا ظهره للحــائط ، هادىء النفس ، رابط الجأش ، ثابت الجنان ، شــاحبا أضناه الهزال . نتــأت عظامه من بين جلده المدبوغ . وحول رأسه ضمادة محكمة عريضة ، حمراء يابسة من أثر الدم الذى تجلط فوقها . وعيناه الضيقتان تلمعــان فى خبث ونشاط مثل عينى القرد الذى رآه ذات مرة فى أوديسا .

وعلى منضدة صغيرة بالقرب منه ترى غليونا وزجاجة العرقي وكذلك تمثالا نصفيا صغيرا من الجبس للملكة فيكتوريا • اشتراه ذات يوم من ميناء بعيد • قال لنفسه عنها آنذاك : « فحلة ، حسناء ربلة ، ثدى ناهد ممتلىء •• أحبها •• » واشترى التمثال • ومنذ ذلك الوقت وهو يحتفظ به الى جانبه • كان يقول أحيانا « انها زوجى ، لها شارب ليس لى مثله ، ولكن أى بأس فى هذا ؟انى أحبها » • ثم يقهقه بعدها عاليا •

جال بعينيه يستطلع محتويات عشه المتواضع • حوائط متسخة ، وعوارض خشبية يغطيها العنكبوت ، وأرفف خاوية ، وصندوق طويل ملىء بالملابس القديمة ، ونعال بالية ، وصداريات من الفانلة ، وحبال ، وقلة ماء وضعت داخل كوة فى الحائط ، ودمجـــانة عرقى فى ركن من أركان الحجرة • استقرت عينه فترة على صـــورة فوتوغرافية قديمة سمرت على الحائط المواجه لسريره • انها صورة سفينته الغابرة ـ منشورة القلاع ، يرفرف فوق مؤخرتها علم اليونان ، ويعلو فوق مقدمها تمثال لامرأة من نساء الأساطير عارية الصدر • ويقف هو هناك بجانبها يمسك بالدفة وقتما كان يناهز الثلاثين من عمره • وتخيل نفسه وقد اعتلى ظهر السفينة التى لوث صورتها براز الذباب • رفع مراسيه واتخذ سبيله فى البحر • ولكن ضبابا كثيفا أحاط بها ـ واستطاع كابتن فورتوناس ، بمشـــقة كبيرة ، أن يميز أمامه جزرا وسواحل و تراكا يقفون فوق الرصيف وعلى رءوسهم الطرابيش الحمراء ، ونسوة عاريات الصدور ، يشبهن التماثيل التى توضع عند مقدم السفينة ، وعلى الميناء حانات عبقت بسحابات من دخان السجاير والغلايين والسمك المقلى ••

كل شىء طواه النسيان ، أفراحه وأتراحه فى الحياة ، جراحه التى أصابته فى حرب ١٨٩٧ حين تطوع لتهريب المؤن والذخائر على ظهر مركبه الى داخل اليونان ••• حبه الذى كاد يسلبه عقله ـ فتاة تركية لا يذكر اسمها الآن ولا أين •• فى القسطنطينية ؟ أم فى سميرنا ؟ أم فى ايفالى؟ أم فى الاسكندرية ؟ وهل كان اسمها أم كلثوم ؟ أم فاطمة ؟ أم أمينة ؟ •• انه لا يذكر شيئا من هذا كله ، فان ستارا كثيفا من الضباب يحجب كل هذه الأحداث العابرة • ولكن حدثا واحدا من بين كل أحـــداث حياته الماضية ، ظهر من خلال هذا الضباب الكثيف غارقا فى النور • كان ذلك فى باطوم فى شهر أبريل ، يوم عيد القديس جورج • دخل يومها مع ثلاثة من أصدقائه حديقة غناء ملأى بالأزهار الحمراء الفاقعـة الكبيرة • جلسوا فوق الحصباء ، وشرعوا فى أكل وشراب وغناء • ولفوا رءوســهم بعمائم ذات أهداب • وكانت الشمس ساطعة ، والبحر رخاء عطر الأريج ،

وليس من امرأة تؤنسهم • كلهم رفاق أنس وطرب ، أحدهم أشقر الشعر والآخر أسوده ، وكان أحدهم ويدعى جورج وكان هذا يوم عيد ميلاده • ومن عجب فبينما هم فى أكلهم وشرابهم وغنائهم اذ تساقط الرذاذ رقيقا حانيا ، يغسل أوراق الشجر العريضة ، ويرقش الحصباء المنثورة فى الحديقة • وتضوعت الأرض بشذا عطر وحاكت البحر رقة وجمالا • ودخل الحديقة ثلاثة من الأرمنيين معهم ماندولين ومزمار ورق • جلسوا القرفصاء تحت الأزهار الحمراء الداكنة وشرعوا يغنون أغنيات آمان ••

ما أبهجها تلك اللحظة وما أرقها ! كانت الحياة بين راحة الانسان تغرد كطائر صغير عاشق •• أجهد كابتن فورتوناس فكره ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر شيئا آخر • لا شيء آخر • تبددت حياته كلها وسط سحابات الدخان • لم يبق منها سوى ذكراه عن صحاب الأنس والرذاذ الحانى فى باطوم •

وتمتم قائلا :

ـ « عجبا ! هل هذه هى كل حياتى ؟ حياتى كلها ليست سوى ذلك فقط ؟ رذاذ رقيق حان ، وأصدقاء ثلاثة وبضع زهور حمراء •• عجبا ! لا شيء آخر أذكره عن حياتى ! أنا يا من ظننت أننى ابتلعت العالم كله •• » •

ومد يده ليرفع كوب العرقى من على المنضدة الصغيرة ، ولكن فى هذه اللحظة فتح الباب ودخل الأغا • كان يرتدى زيه الرسمى الفاخر كأنه ذاهب الى عرس • السروال الأحمر ، والمسدس الفضى ، وطزلق جديد زاه ، ومنديل حريرى يرفرف تحت ذراعه وشاربه مصبوغ • وقدم وراءه يوسوفاكى ، أبيض غضا كالخبز الطيب ، نصف نائم ، يمضغ شيئا فى فمه • ووراءه حسين ومعه نفيره ، شرسا عبوسا •

وقال الأغا فى لهفة :

ـ « إتمنى لك رحلة هادئة وريحا رخاء يا كابتن فورتوناس • انباونى أنك اعتليت ظهر السفينة وأزمعت الرحيل » •

ـ « الشراع منشورة يا أغا ، فى انتظار أول ريح قادمة • وداعا » •

قال الأغا ضاحكا وهو يلقى بجسده فى تثاقل وصخب فوق الصندوق القديم :

ـ « والى أين عقدت العزم بحق الشيطان أيها المقدس جرينهورن ؟

هل تنوى الرحيل الآن عن هذه الدنيا ؟ تريث قليلا • أحضروا لى منذ أيام قلائل بعض العرقى •• رائع يا صديقى ، ممزوج بنقيع التوت الأسود • هذا كل ما قصدت أن أخبرك به • انتظر قليلا لتكون نديمى فى شرابه ثم لك أن ترحل بعد ذلك » •

ـ « وداعا يا أغا، هذا هو قولى لك، انتهى كل شيء• رفعت مراسى، وأمسكت بالدفة ، وها أنذا متأهب للابحار • لتكن نديم نفسك فى شرابك •

ـ « والى أين عقدت العزم يا صديقى المسكين ؟ هل تعرف وجهتك ؟ »

ـ « الشيطان وحده يعلم ذلك • كل ما أعرفه أننى ذاهب الى حيث تقذف بى الريح » •

ـ « وماذا عن ديانتك الرومية ؟ ماذا ترى هى فى ذلك ؟ » •

وأجاب الكابتن وهو يلوح بيده :

ـ أوه لا لا لا • لو أخذت بما تقوله ديانتى فاننى ذاهب توا الى حيث يكون الشيطان » •

وضحك الأغا •

ـ « لو أخذت أنا بما تقوله ديانتى فانى ذاهب توا الى الفردوس • انها غنية بالفطير والحور العين والغلمان من أمثال يوسوفاكى • ولكن أنبئنى يا كابتن • ماذا لو كانت ديانة كل منا تسخر بنا ؟ ان هذه الدنيا حلم ، والحياة خمر ، يعب منها المرء ويسكر بها • لقد حار فكرنا : أنت تمثل دور الرومى ، وأنا الأغا التركى •• دعنا من هذا • جرينهورن ـ لا أكتمك القول ، ان هذا يحيرنى •

والتفت الى الغلام الوسيم :

ـ « قم يا يوسوفاكى • لمحت عينى دمجانة عرقى هناك فى الركن • قم وصب لنا الشراب » •

دخلت الأم ماندالينيا ومالت على الكابتن وهمست فى أذنه :

ـ « يا كابتن ، سيكون القسيس هنا بعد لحظة ومعه القربان المقدس ، لا داعى لشرب العرقى » •

ـ « أى قسيس تحدثيننى عنه أيتها العجوز الحيزبون ؟ اخرسى • خذى الدمجانة ودورى علينا بالشراب » •

وزمجرت العجوز . وملأت الأقداح بيد مرتعشـة . وقف الأغا ، واقترب من السرير وبادل الكابتن تحية الشراب بأن قرع كأسه .

ـ « رحلة ممتعة يا جرينهورن » .

ـ « رحلة ممتعة لك أيضا يا أغا » .

وضحكا . وأحس كل منهما بالرضا .

وقال الأغا وهو يمسح شاربه :

ـ تدبر يا كابتن وانظر كيف أصبحنا أنا وأنت صديقين .. هه ؟ ألم نقض معا وقتا طيبا ؟ ألم نأخذ الأمور معا مأخذا سهلا ؟

وقال الكابتن الذى بدأ يشعر بدوار فى رأسه :

ـ « ها هو القسيس آت ليقدم لنا التناول يا أغا . وداعا » .

ـ « انتظر يا صديقى .. الى أين ؟ لا تتعجل . أتيتك بيوسوفاكى ليغنى لك قبل الرحيل أغنيتك المفضلة آمان . لن ترحل عنا قبل سماعك أغنية يا عزيزى الصديق العجوز .. تعال يايوسوفاكى ، أسمعنا ياصغيرى صوتك وغن آمان ! » .

أخرج يوسوفاكى كرة اللبان من فمه ، وألصقها بركبته ، ورفع راحته اليمنى فى فتور وأسندها الى خده . وما كاد يفتح فمه حتى مد الأغا ذراعه وقال :

ـ « انتظر يا كنزى . يجب أن ينفخ فى النفير أولا » .

ثم التفت الى حارسه الخاص وأمره :

ـ « افتح الباب وقف عند عتبته وانفخ فى النفير لحن التـأهب للهجوم » .

ـ « فتح حسين الباب ، ووضع طرف النفير بين شفتيه وبدأ ينفخ بقوة وعنف .

وصاح الأغا :

ـ « كفى . الآن دورك يا يوسوفاكى . أسمعنا أغنيتنا آمان » .

ومرة أخرى ارتفع صوت الغلام رخيما صافيا جياشا . أنصـت الكابتن فى صعوبة ، وفاضت جوانحه أسى وعذوبة . « دنيا تابير ، رؤيا تابير .. الدنيا والحلم شىء واحد آمان ، آمان » .

لم يشعر الكابتن فى حياته قط بمثل هذا العمق الشديد كيف أن الدنيا والحلم شيء واحد ·· لا بد وأن سنة من النوم قد أخذته ، وحلم بأنه كان يعمل ربانا يتنقل بين موانى البحرين الأبيض والأسود ؛ وأنه تطوع فى الحرب وأنه كان يونانيا مسيحيا ، وأنه الآن يحتضر ·· ولكن لا ، انه لم يكن يحتضر وانما كان يصحو من نومه ، فقد انتهى الحلم وطلع النهار ·

وبسط يده فى رصانة :

ـ شكرا لك يا صديقى الأغا ، أنت وحدك الذى فهمت آلامى التى تعذبنى · وداعا أيضا يا يوسوفاكى ، ليت فمك الصغير الجميل لا يصيبه البلى ، ليته يتحول تحت الثرى الى فص من الياقوت ·

هاجت شجون الأغا · ومسح عينيه ·

ـ « مع السـلامة يا عزيزى الكابتن · واذا كنت أدعوك أحيانا جرينهورن فأنت تعرف أن هذا كان منى حبا ومودة · يجب أن تصـفح عنى · ايه ·· أتمنى لك رحلة طيبة » ·

وانحنى عليه وقبله · وفاضت عيونهما بالدمع ·

وقال الرجل المسجى على فراش الموت ، بنبرات تفيض أسى :

ـ آه لا أستطيع أن أعبر لك يا عزيزى الأغا عن مدى حبى لك ·

وافترقا ·· وبعد هنيهة التفت الأغا الى حارسه وقال له :

ـ أنفخ فى النفير ثانية لحن التأهب حتى يسمعه الكابتن ويشد من أزره ·· أريد أن يعلم كل من فى القرية أن عليه أن يشهد دفنه · ان عمادا من عمد القرية ينقض » · وغطت صفحة السماء سحابات صيف رقيقة · وتساقطت قطرات رذاذ ·

وصرخ الأغا :

ـ هيا نسرع يا أولاد ، فانى أرتدى ملابسى الجديدة ·

وأسرع ثلاثتهم الخطو ·

التقى بهم ميشيل · كان يغذ السير ، يحمل معه ورقة ومحبرة ·

ـ كيف حال كابتننا يا أغا ؟

ـ آه يا فتى ، انه بخير ، رابط الجأش ·· فى الحقيقة انه أسعد حظا منا نحن الأحياء · يبدو كامل الوعى ·

فتحت الأم ماندالينيا البـاب على مصراعيه • كانت تتـــوقع قدوم القسيس حاملا القربان المقدس • وبدلا من القسيس ظهر ميشيل لاهث الأنفاس •

همست له المرأة العجوز :

ـ لا حاجة بك الى العجلة يا بنى •• لازال صامدا • انه كامل الوعى وهو طريح فراش الموت ، له سبعة أرواح كما يقولون ••• أدخل •

ودخل ميشيل وأغلقت وراءه الباب •

كان الكابتن واهن القوى ، مغمض العينين • وعاد الدم يسيل فوق وجنتيه ، تتســاقط قطراته فــوق الفراش • دنت منه المرأة العجوز ، ومسحت قطرات الدم وأسرت فى أذنه قائلة :

ـ كابتن ، حضر ميشيل ومعه القلم والمحبرة • تحامل على نفسك قليــلا •

رفع الكابتن رأسه المشجوج وفتح عينيه وقال :

ـ مرحبا بالفتى صاحب السيادة •

ثم أغمض عينيه ثانية وأغفى • جلس ميشيل فوق الصندوق ووضع الاوراق بجانبه وانتظر •

وقالت المرأة العجوز بصوت واهن وهى تمسح عينيها وأنفها الذى كان يرشح :

ـ كان رجلا طيبا هماما هــذا المسكين • كان رجــلا طيبا رغم كل سلوكه المعوج • زوجى المرحوم أيضا ••! ثم شرعت تحكى بصوت خفيض قصة النوائب التى حلت بها فى حياتها • وأحست براحة فى هذا • ولف ميشيل سيجـــارة وبدأ يدخن ، فله كوارث فى حياته هو الآخر ، ولكنه لم يسر بهــا الى أحد ••• كان ينصت الى المرأة العجـوز ، بينما روحه عنها شاردة •••

ونبح كلب بالقرب من البيت نباحا كئيبا فهبت العجوز من مكانها حانقة :

ـ ياله من حيوان ملعــون ! لا بد وأنه رأى ملاك الموت حتى ينبح بهذه الصورة •

وفتحت الباب ، والتقطت حجرا قذفته به ثم عادت ثانية ٠

فتح الكابتن عينيه وقال :

ــ ميشيل ، أين أنت ؟ أدن منى ٠ لا أستطيع التحدث الآن بصوت عال ٠ هات ورقة واكتب !

وقال ميشيل :

ــ هون عليك يا كابتن ٠ لا داعي للعجلة ٠

ــ أكتب ، واحتفظ بعزائك لوقت آخر ٠ لى سبعة أرواح استنفدت ستة منها ولم يبق غير واحدة ، ها هى على شفتي توشـك أن تنتهى هى الاخرى ٠ تنبه جيدا واكتب ، فلم يبق لى من حياتي غير أنفاس معدودات٠

دنا ميشيل من الوسادة ، وبسط ورقته وغمس قلمه فى المحبرة ٠

ــ ها أنذا أصغى اليك يا كابتن ٠

ــ أكتب أولا أننى فى كامل وعيى ، وأننى مسيحى أرثوذكسى ٠ واسم أبى تيودور كاباندیس ٠ ليس لى أطفال ، ولا ذوى قربى أو أرحام ولا كلاب ٠ لست متزوجا ، فقد أسعدنى الحظ بأن أفلت من هذا والحمد لله ٠ كنت ذا مال وأكلته كله ٠ كنت أملك بعض الحقول وبعتها جميعها وأكلت ثمنها أيضا ٠٠ لا لم آكلها بل شربتها ٠ كان لى مركب وهذه هى صورته : تحطمت قرب تريبيزوند وغاصت فى قاع البحر ٠ ثم أشار الى بقايا حطام الأثاث الذى يحيط به وقال : « وهذا كل ما بقى لى ولا شىء سواه » ٠ أريد أن أقسمها بين الفقراء وأصدقائى حتى يذكروننى بها ٠ يا أم ماندلينيا اجلسى بجانبى وأذكريها لى واحدة واحدة كمـا ترينها ٠ وكل ما أنساه فهو لك ٠ هيا ، أكتب يا ميشيل ٠ هل أنت مستعد ؟

ــ مستعد يا كابتن ٠

ــ دمجانة العرقى الموجودة فى ركن الحجرة أوصى بها للأغا : دعه يعبها فى صحتى ٠ السنة الذهبية الموجودة فى فمى ، انزعوها وأعطوها للأرملة كاترينا لتصنع منها قرطا ذهبيا ٠ وغليونى ذو الطرف المصنوع من الكهرمان أهبه لمقهى قسـطندى : حتى اذا وفد على القرية غريب من ذوى المكانة يدخنها فتنسيه غربته ٠ وثمة عشرة كيلو من الشعير أوصى بها لحمار ياناكوس : يأكلها عشية دخوله أورشليم حامـلا المسـيح على ظهره ٠٠٠ بعض عملات فضية فى حافظة نقـــودى ــ ليأخذها القسيس

جريجوريس والا فان هذا العجوز ذو اللحية التى تشبه لحية التيس لن يسمح بدفنى وسيترك جسدى يتعفن فى العراء · هذا كل ماعندى بالنسبة لهذه الاشياء · أما الصندوق الذى تجلس عليه ، فبداخله أسمال بالية وجلد من المشمع وقبعات قديمة ، وأحذية ربانية وفانوس معتم وبوصلة ، وقطع من الحبال · تصدقوا بها جميعا على الفقراء الذين يسكنون كهوف ساراكينا · أعطوهم أيضا ما لدى من جرار وآنية للطبخ والموقد والصحاف والملابس · نعم ··· وأعطوهم كذلك البن والسكر والبصل وزجاجة الزيت والجبن وقدر الزيتون ··· كل شىء ، كل شىء ، فانى حزين لهذا الشعب المسكين !

هل كتبت كل هذا يا ميشيل ؟

ـ انتظر لحظة حتى ألحق بك · لا تسرع يا كابتن ·

ـ انى عجـــل يا فتى خشية ألا يسـعفنى الوقت ··· أسرع فى كتابتك ··· عندى أيضا كتاب «ألف ليلة وليلة» اعتدت أن أقرأ منه قصة كل ليلة من ليالى الأحد : أسرى به عن نفسى وقتما كان الآخرون يقصدون الكنيسة · يمكن لقسطندى صاحب المقهى أن يأخذه ، وفى ليالى الاحاد ، عندما يؤم أهل القرية مقهاه ، بعد سماعهم للانجيل ، يعطيه لأحدهم يقرأ عليهم بعضه بصوت عال ـ انه سيفتح عيونكم أيتها النفوس التعسة ·· الانجيل كتاب رائع تماما ، ولا اعتراض لى على ذلك ، ولكن « ألف ليلة » كتاب جميل أيضا · هل كتبت هذا يا ميشيل ؟

ـ كتبته يا كابتن · استمر ولكن لا تشق على نفسك ·

ـ تلفتى حولك يا أم ماندانينيا · تلفتى حول البيت · هل ثمة شىء ثمين غفلت عنه ؟

ـ نعلاك يا كابتن ·

ـ لقد بليا تماما ولا يصلحا الا ليلقى بهما وسط القمامة ·· انتظر، أوصى بهما للشيخ لاداس، هذا الشقى التعس· مامن مرة زرته الا وألفيته حافى القدمين · ليأخذهما هذا البخيل الممسك حتى لا يصيبه البرد بأذى ويلقى منيته ، فانه درة قريتنا ! ـ الق نظرة أخرى ياماندالينيا ·

ـ الصورة الفوتوغرافية ·

ـ آه ، هذه سآخذها معى · ضعوها فى اطارها على قبرى · سآخذ معى أيضا كأس العرقى · لقد أبلى معى بلاء حسنا ، ولا أطيق هجره ·

أه ، وثمة أيضـــا هذا التمثال النصفى الصغير ليأخذه آكل الجبس فهو وحده دون الآخرين قادر على أن يأكل ملكة انجلترا ٠

وقال ميشيل :

ـ لا زال هناك أهم شيء ٠٠٠ المنزل ٠

ـ المنزل أوصى به للعجوز الموجودة هنا ، ماندلينيا التى توفرت على خدمتى كأخت لى بمعنى الكلمة ٠ تعرضت لكثير من المضايقات بسببى هذه المرأة المسكينة ، وأغلظت لها القول كثيرا ٠ بل أحسب أنها تحملت بعض ضربات مبرحة بالعصا أيضا ٠ لا تلومينني يا أم ماندلينيا ، لا تبكى ـ ما لم يكن بكاؤك عن فرح وسرور ٠

حاول أن يضحك ولكنه لم يستطع ٠ فقد اشتد عليه الألم ٠ وبدأ دمه ينزف من جديد ٠

ـ هذه كل ثروتى ٠ اختم ما كتبت وناولنى الورقة أوقع عليها ٠

قدم ميشيل الورقة ، ورفعت المرأة العجوز الكابتن وأمسك ميشيل بيده يعينه على التوقيع ٠ ووقع بالكلمات التالية :

« كابتن ياكوميس كابانديس بن تيودور » ٠

وترامى الى سمعهم صوت ترانيم دينية ٠

وقالت العجوز :

ـ ها هو القسيس قادم ، حاملا القربان المقدس ٠

وأسرعت نحو الباب تفتحه على مصراعيه ٠

وغمغم الكابتن :

ـ طراز آخر من المضايقات ٠ هيا حتى نفرغ منه أيضا ٠

كان قواص الكنيسة العجوز هو أول الداخلين حاملا مصباحا مضيئا، ومن ورائه القسيس جريجوريس مرتديا رداءه الدينى ، رافعـا كأس القداس بيده ، وقد غطاه بغطاء من المخمل الأحمر الموشى بالذهب ٠

رسم القسيس علامة الصليب وهو يجتاز العتبة، وقال بصوت وقور:

ـ أتى الرب ٠ أتركونا وحدنا ٠

رسم كل من ميشـــيل والأم ماندالينيا علامة الصليب ، وقبلا يد

القسيس ، ثم انسحبا من الحجرة . وخرج الغواص ومعه مصباحه . وانتظر الثلاثة بالخارج .

وقال القسيس وهو يدنو من الرجل الذى حضره الموت :

ـ كابتن فورتوناس ... حانت اللحظة الرهيبة التى ستمثل فيها بين يدى الرب . اعترف بخطاياك ، وطهر روحك . تكلم .

وأجاب الكابتن غاضبا :

ـ كيف لى أن أقص عليك خطاياى يا أبانا ؟ أتحسبنى قادرا على أن أتذكرها ؟ للرب الرحيم سجل يثبت فيه أعمالنا . وليس عليه الا أن يمحو ما أثبته هناك ان شاء هو ذلك . ولكن ثمة شيئا أود ان استطعت أن أقدمه اليه ، سبحانه ، هدية من الارض . فانى أشك أن نجد مثلها هناك فى السماء .

كان القسيس ينصت اليه حائرا ، وقد أثارت لهجة الكابتن حنقه .

وعاد الكابتن يؤكد له ما قاله :

ـ شىء واحد فقط أود لو استطعت أن أتقدم به هدية الى الرحمن .

وسأله القسيس متجهما :

ـ ماذا ؟

ـ اسفنجة .

ـ ألا تخجل ؟ ألا تشعر بالخوف حتى فى هذه اللحظة الرهيبة أيها الفاسق ؟

واصل الكابتن حديثه رابط الجاش :

ـ اننا نمل ، أكلنا حبة قمح صادفتنا فى الطريق ، أو ذبابة ميتة أكثر من نصيبنا ـ أى بأس فى هذا ؟ أمحها . ألا تخجل من تأنيبنا نحن معشر النمل ؟ أنت أيها الفيل البدين ؟

وقال القسيس بلهجة جادة :

ـ كابتن ... احترم الله . انك تقف الآن على عتبة بابه أيها الشقى المسكين ، لن يلبث أن يفتح لك وتشهده سبحانه . ألا تشعر بشىء من الهلع ؟

قال الكابتن وقد صم أذنيه :

ـ انى متعب يا أبانا . جاءنى الأغا هنا لمنادمتى ، ثم جاء ميشيل يدون وصيتى ... وعلى ذكرها فانى أوصيت لك بكل ما تركت من مال حتى تسمح بدفنى ولا تترك جسدى للعفن مثلما فعلت مع آخرين .. وها أنت جئت الآن بصبحة شيطانك الرهيب... أنا لا أستطيع الآن ، فانى متعب كما أقول لك ، وداعا .

واستدار ناحية الحائط ، وأغمض عينيه . وبدأ يتنفس بصعوبة وألم ، ثم انتابته فجأة حشرجة خشنة .

وتحامل على نفسه وقال فى صعوبة :

ـ طبتم مساء .

وغطى القسيس ثانية كأس القداس بالمخمل الأحمر وقال :

ـ لا أستطيع أن أناولك جسد المسيح ودمه . ليغفر الله لك

وغمغم الكابتن ثانية وهو يلفظ آخر أنفاسه :

ـ طبتم مساء .

ثم انتفض جسده مرتين أو ثلاثا ، وأن أنينا واهنا ، وكأنه أصيب بغصة ، وفتح فمه : وانساب الدم على الوسادة والفراش .

ورسم القسيس فوقه علامة الصليب .

وتمتم قائلا :

ـ ليس لى أن أغفر لك ، وانما ليغفر لك الله .

وفتح الباب ونادى العجوز ماندالينيا لتتولى مهمتها فى تكفين الميت .

* * *

وفى اليوم التالى ، وبينما كانوا يدفنونه ، تساقط رذاذ مثل ذلك الذى تساقط فى باطوم يوم عيد القديس جورج ، وقتما جلس على الحصباء فى الحديقة يمتع النفس مع أصدقائه . وبدت سحابات شفافة تبحر تحت أديم السماء ، ودق جرس الكنيسة لحن الحداد ، وانبعث من الجبانة الصغيرة شذى حلو لنبات الكاموميل . وشهد أهل القرية جميعا جنازه . سارت الأم ماندالينيا فى المقدمة تنوح وتولول وتشد شعرها . وأراد ياناكوس أن يأتى بحماره ليسير مع الركب بعد أن سمع من ميشيل أن

الكابتن أوصى له بمـــا يملك من شـــعير · ولكن ثارت ثائرة القسيس جريجوريس ·

واحتج ياناكوس على ذلك قائلا :

ـ أليس هو أيضا واحدا من مخلوقات الله ؟

ورد عليه القسيس جريجوريس مغيظا :

ـ ليس له روح خالدة ·

وتمتم ياناكوس :

ـ لو كنت أنا الله لأدخلت كل الحمير الجنة أيضا ·

ودفع القسيس ياناكوس بعيدا وصاح قائلا :

ـ الجنة ليست حظيرة ، انها موطن الرب ·

وطفق ياناكوس ، وهو يسير مع الركب ، يحدث نفسه في عناد ، بادي التذمر :

ـ لو كنت أنا ··· لأدخلتهم الجنـــة ، لأدخلت عزيزى يوسوفاكى فيها ··· ولكن بشرط واحد وهو ألا يروث هناك فتتسخ السماء ·

وبعد أن تمت اجراءات الدفن ، وألقى كل انسان بحفنة من التراب فوق القبر، انتحى ياناكوس جانبا بصديقيه ميشيل وقسطندي، اذ لم يعد يطيق كتمان سره :

ـ أريد أن أفضى اليكم بخبر يا اخوتى ، ولكن يجب أن تحتفظا به سرا · اذ ليس هناك من يعرف شـــيئا عنه بعد ··· أصيب مانولى فى وجهه بمرض خبيث · أشبه بأخطبوط أو قنـــاع اصطبغ بالدم ، وكأنما استقر شيطان على وجهه ··· لا أدرى ماذا أقول لكم يا أصدقائى ··· ترى هل مانولى قديس ونحن وحدنا القادرون الآن على أن نشهد ذلك ؟ فقد سمعت أن القديسين والنساك وحدهم تصيبهم أمراض من هذا النوع·

وقال قسطندى :

ـ لا بد أن هذا أصابه لأنه قديس ··· انه قديس ، أجل ، قديس ولم نكن نعلم عنه هذا طوال الاعوام الماضية ·

وقال ميشيل الذى أزعجه الخبر :

ـ لا تتعجل فى أحكامك هكذا يا قسطندى • تريث • يجب أن نفهم الأمر أولا ونأتى له بطبيب ••••

اقترح عليهما ياناكوس :

ـ الرأى عندى أن نذهب ثلاثتنا يوم الأحد لنعود مانولى ••• هذا فضلا عن أن معى هدية له •

وبينما كان يقول ذلك أخرج من جيب صداره كتابا صغيرا طليت حوافه بالذهب •

ـ الانجيل • أرسله الى مساء أمس القسيس فوتيس مع الشيخ كريستوفيس • قال علينا أن نطالعه نحن الأربعة ، رجال السلال ••• هكذا يسمينا ! انه رمز صداقته لنا كما يقول • ويرسل بركاته الينا مع الانجيل •

وخطا خطوات فوق أرض المقابر المغطاة بأزهار الكاموميل حيث يرقد أسلافهم • وتضوعت الأرض برائحة طيبة بعد أن أنداها المطر • وتوقفوا هنيهة يتنسمون الأريج الدافىء الندى ، وغشيت رءوسهم بعطر زهر الكاموميل البليل •

وتنهد ميشيل • فقد سرح فكره فجأة الى ماريورى خطيبته ، بوجهها الشاحب الذابل ، وعينيها الواسعتين تحيط بهما دائرتان زرقاوان ، ومنديلها الأبيض الصغير تضغط به على فمها ••• وتذكر يوم أن كان طفلا صغيرا وأتى الى هذه الجبانة فى صحبة أبيه : كانوا يومها يخرجون من القبر جثة فتاة صغيرة سبق له أن رآها فى بيته ، جميلة ، نضرة ، زرقاء العينين ، مموجة الشعر ، تفيض بشرا ••• وقف الى جوار أبيه مترددا عند حافة القبر المفتوح • وكان حفار القبور يحفر الارض بمعوله، يرفع التراب ويكومه حول القبر بحثا عن أشلاء الفتاة • ووقف أبوها ممسكا بصندوق خشبى يجمع فيه أشلاءها • وفجأة دس الحفار كلتا يديه فى التراب وأخرج جمجمة • وانخرط ميشيل الطفل فى نشيج • هل هذه الجمجمة هى الرأس الجميل ذو الشعر المموج للفتاة الصغيرة ؟ كيف حالت عيناها ؟ أين شفتاها ووجنتاها المتوردتان الضاحكتان ؟

ومنذ ذلك اليوم ، وبعد مضى عشرين عاما ، لم يحدث أن وطئت قدم ميشيل أرض الجبانة دون أن يتذكر الفتاة الجميلة وتلك الجمجمة •••

وسأله ياناكوس :

ـ علام التنهد يا ميشيل ؟

ودون أن يجيب ميشيل دفع البوابة التي يعلوها صليب حديدى ٠

ثم قال مكتئبا :

ـ هيا بنا ٠

واتخذوا طريقهم الى القرية واجمين ٠ وسمعوا وراءهم وقع خطوات ثقيلة ٠ فاستداروا ٠

وقال قسطندى :

ـ بانايوتى ! حتى هذا الدب شهد الجناز ٠

وقال ياناكوس :

ـ لا بد وأنه سمع بأن الكابتن أوصى له بشيء هو الآخر ٠ انه يسرع الخطو ناحية بيت المتوفى ليأخذ تمثال ملكة انجلترا ويأكلها ٠٠٠

واقترح عليهم ميشيل :

ـ لنستوقفه ونصطحبه معنا ، فان هذا يرضيه قليلا ٠

وتوقفوا ٠ لم يحيهم بانايوتى وانما حث خطاه ليتحاشاهم ٠ فمنذ أن اختاره شيوخ مجلس الأعيان ليقوم بدور يهوذا بسبب لحيته الحمراء، كما زعموا له ، لم يعد يطيق رؤية أولئك الذين اختيروا ليمثلوا دور الرسل المؤمنين المقدسين ٠

كان لا يفتأ يحدث نفسه قائلا : « رغم مظهرى الفظ ، الا أننى خير من تلك الوجوه التى اختاروها لتمثل الرسل ٠ ذلك لأننى قاسيت كثيرا ، قاسيت فعلا أكثر منهم داخل بيتى وخارجه ، وداخل نفسى ٠٠٠ أبكى اذا ما اختليت بنفسى ، ويبكون حينما يراهم الناس جميعا ٠٠٠ أعرف ما هو الحب ، هذا النوع من الحب الذى يجعل منى أضحوكة القرية جميعها ، واذا أحبوا هم انسانا ابتهجوا لذلك وتندروا به ٠٠٠٠ انى أعافهم ، ليبتليهم الله بطاعون ٠ أحدهم يملك حمارا ، وآخر مقهى ، وثالث له أبوه الغنى وماريورى ٠٠٠ أما أنا فلا شيء أملكه ٠ كم من مرة راودتنى نفسى على أن أضرم النار فى دكانى وأطرد زوجى وأطفالى وأقتل المرأة التى أحبها ٠ حسن ، أينا اذن يهوذا ؟ هم الشبابع المالكون لكل ما يريدون ، أم أنا ؟ »

وناداه ياناكوس بصوت عال :

ـ هيه يابانايوتى · هل عظم قدرك حتى تزدرينا ؟

وخار آكل الجبس :

ـ تحياتى الى الرسل المزيفين · ماذا عن مسيحنا الكذاب ؟

وقال قسطندى :

ـ ألا زلت متأثرا بذلك حتى الآن ؟ ولكن المسألة لا تعدو أن تكون تمثيلا يا صديقى · ألم تتحقق من هذا بعد ؟

وأجاب السروجى :

ـ تمثيل أم غير تمثيل ، فقد غرستم خنجرا فى قلبى · زوجى تدعونى يهوذا ، والصبية فى الطرقات يعيروننى ، والنسوة تغلق أبوابها فى وجهى كلما أبصرتنى · ليبتليكم الله بطاعون ، فانكم ستجعلون منى يهوذا الى الابد ·

وقال ميشيل :

ـ الجميع يحبونك ، فلا يحزنك هذا · وكيف لا ، وها هو الكابتن تذكرك وهو على فراش الموت وترك لك ارثا ·

ـ ارث من الجبس لآكله ، حتى آكل ملكة انجلترا أيضا ··· أليس كذلك ؟ ليحرقه الله فى نار جهنم ·

وقال ميشيل محتجا :

ـ لا تجلب اللعنة على روحك ، فلا زال جسده دافئا · اسحب هذه الكلمات ·

واحمر وجه بانايوتى المجدور وصاح :

ـ ليحرقه الله فى نار جهنم · وأنتم أيضا هل تريدون منى أن ادعو عليكم بأن يقذف بكم فى الجحيم ؟

ثم انطلق يعدو بخطوات واسعة وهو يتمتم بكلمات مدغمة ·

وقال ياناكوس :

ـ كيف لك أن تمسك بشوك البحر دون أن يؤذيك بوخزه · اننا كنا نحسن صنعا لو أننا لم نتكلم معه ·

وقال ميشيل فى حزن :

ـ أصاب الجرح منه مقتلا ·

وقال قسطندى يفسر سورة غضبه :

ـ هناك الأرملة أيضا ، والزجاجة · سينطلق الآن الى زوجته وبناته وينهـال عليهن ضربا · انه دائم التهـديد لهن بأن يلقى بهن الى قارعة الطريق ·

وقال ياناكوس :

ـ تقمصـه يهوذا ، وبدأ يأتى أفعاله · ستواجهنا المتاعب · انى أخاف على مانولى · أسألك الله أن أخطىء الظن ·

وقال ميشيل فى قلق :

ـ بالنسبة لمانولى ؟

وأجاب ياناكوس :

ـ أحسب أن الأرملة تضع عينهـا عليه ؛ منذ أيام قلائل أبصرها شخص ما تتحدث اليه هنالك عند البئر · وشم بانايوتى رائحة ما حدث، وثارت ثائرته· وكلما سكر يصيح : « سأقتله ، سأقتله القذر » ويشحذ سكينه فوق الحجر ·

واقترح عليهم ميشيل :

ـ ماذا لو نذهب لزيارة مانولى هذا المساء ؟ فان ما تقوله يثير قلقى ياياناكوس ·

وقال ياناكوس :

ـ هيا نذهب اليه توا · فانى أخشى أن يسبقنا اليه بانايوتى · أحسب أنه كان قاصدا جبل العذراء ·

وقال قسطندى :

ـ ليس علينـا الا أن نأخذ طريقنا من هذا المنحنى ونسرع الخطو صاعدين · فكلما أسرعنا كان ذلك أفضل ·

وغيروا طريقهم ، وانطلقوا صاعدين · كفوا عن الكلام ، وأسرعو الخطو كأنما يتوجسون شرا ·

أبصروا بانايوتى جالسا فوق صخرة عند سفح الجبل ، شـــارد الفكر ، واضـــعا رأسه بين راحتيه · لم يبصرهم ، ومروا به دون أن يتحدثوا اليه ·

توقف المطر ، وتمزقت السحب ، وبدت صفحة السماء من خـلال قطـع الغـمام هنا وهنـاك زرقاء زاهية · والشمس لا زالت في سمتها متوهجة ·

وتردد صليل أجراس ، وصدح ناى طروبا فرحا · ومروا ببعض الأغنام · ورفع نيكوليو الناى من على فمه ، وحدجهم بنظره ·

وصاح ميشيل :

ـ ايه يا نيكوليو ، هل معلمك فى الحظيرة ؟

ـ ليس هنـاك · لم أره · اذهبوا لتروا بأنفسكم ·

ـ كيف حاله يا نيكوليو ؟

وأجاب الراعى الصغير وهو يقهقه :

ـ كسرطان البحر حين يوضع على الجمر · يغنى وهو يحترق ·

وقال ياناكوس :

ـ انه صافى المزاج هذا العنز · هيا بنا نحن نواصل طريقنا ·

وبدأ ميشيل يضحك وقال :

ـ عندى سر لكم أيضا · ذهبت لينيو البارحة لزيارة أبى · انهـــا شيطان فى ثوب أنثى هذه الفتـــاة · لست أدرى كيف علمت بمرض مانولى · فاجأت الشيخ بقولها :

ـ لا أريد مانولى ·

ـ لماذا ؟ هل تحبين غيره ؟

ـ نعم ·

ـ من ؟

ـ نيكوليو ، الراعى الصغير ٠

ـ هذا ؟ ولـكنه لا زال غرا ، لم يخضر شاربه بعد ٠ هل فيه نفع لك ؟ هل يستطيع أن يمنحك أطفالا ؟

وقالت :

ـ يستطيع ٠ يستطيع ٠هوعين من أريد ، انه يستطيع كما أقـول لك ، هو عين من أريد ٠

وبدأت تدلك الشيخ وتتملقه ٠

وقال الشيخ :

ـ لك ما تريدين ٠ خذيه وأتمنى لك أن تجدى فيه خيرا كثيرا ٠

وقال ياناكوس :

ـ تلك الفتاة اختارت عنزا ٠ أستغفر الله ٠

وتذكر قسطندى زوجه فقال :

ـ حمدالله أن أفلت مانولى من الزواج ٠ فقد أراد الله به خيرا ٠

★ ★ ★

ما أن وصـــــلوا الى الحظيرة حتى دخلوها ٠ لا أحد ٠ طافوا بكل أرجائها ، واعتلوا الصخرة الناتئة ، ونادوا بأعلى صوتهم ولا مجيب ٠

وتمتم ياناكوس :

ـ اللهم احفظنا ٠ ترى هل انتحر ؟

وقال ميشيل الذى استبد به القلق :

ـ ما هذا الذى تتمتم به ؟

وأجاب :

لا شىء

وعادوا الى الطريق ثانية منكسى الرءوس ٠ كانت الشمس تميل الى المغيب ، والتحف الجبل بالظلال ٠ ومالوا فى طريقهم ليمروا بجـانب الكنيسة الصغيرة المقامة فوق الصخور ٠ وهى كنيسة مهجورة ، يذكرها

الناس مرة واحدة كل عام . فى الثامن من نوفمبر ، وهو يوم عيد القديس ميشيل . يقام بها فى ذلك اليوم بعض الطقوس الدينية المتواضعة احتفالا بذكرى القديس ، ويضيء الوافدون الشموع التى تكشف عن بعض التصاوير الباهتة على الجدران . وترف من جديد أجنحة كبير الملائكة ميشيل بأهدابها الملونة باللونين الاسود والاحمر . وينصرف الحجيج مع الغسق ، وتنطفيء الشموع ، وتسكن أجنحة الملاك فى انتظار العام القادم لتضيء ثانية .

ودخلوها . كانت عبقة برائحة الارض الندية ، تشبه قبرا . وثمة شمعة كبيرة تحترق أمام أيقونة للمسيح كادت تبلى معالمها ... وشقوا طريقهم عبر الهيكل ، وجالوا بعيونهم : لا أحد

وقال ياناكوس :

ـ كان هنا يقينا ، لا بد وأنه هو الذى أشعل هذه الشمعة .... ولكن بعد ذلك ، بعد ذلك .... الى أين ذهب يا ترى ؟

رسم ميشيل علامة الصليب وتمتم قائلا :

ـ لعل الله أن يكلأه بعنايته .

* * *

كان مانولى قد مر حقا بالكنيسة الصغيرة . أضاء الشمعة ، وجثى على ركبتيه فى ضوئها الكابى ، يتأمل المسيح سحابة نهاره ، مترددا فى الحديث اليه ، ولا تواتيه الجرأة . لم يكن يدرى كيف يعبر عما يريد أن يفضى به اليه ... والمسيح من جانبه يرقبه ولكن فى صمت خشية أن يثير فى نفسه الفزع .

قضى نهاره كله هو والمسيح ، وجها لوجه ، دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، كعاشقين برحهما الجوى ، وعقل الحب لسانهما عن أن يبوحا بما يجيش به قلباهما .

وعندما حل المساء ، قبيل مجيء الرفاق الثلاثة ، نهض مانولى ، وقبل يد المسيح . استودع كل منهما الآخر مكنون نفسه ولم يبق شيء يقال . وفتح مانولى الباب الصغير وأخذ طريقه الى القرية .

واستشعر السكينة ، وحدث نفسه قائلا :

– أفضيت اليه بكل ما فى نفسى ، ونحن على وفاق . منحنى بركاته، وليس على الآن الا أن أنصرف .

أخفى وجهه بمنديله الكبير الا عينيه . كان الليل يرخى سدوله حين دخل القرية . واختار الدروب المهجورة ، يذرعها مسرعا فى خطوه . ومد يده فى عزم وتصميم وطرق باب كاترينا .

وعلى الفور كان قبقاب الأرملة يطأ أرض الفناء فى خفة .

وسأل صوت حلو :

– من بالباب ؟

وأجاب مانولى مبهور الفؤاد :

– افتحى .

وعاد الصوت ثانية :

– من بالباب ؟

– أنا ، أنا مانولى .

وفتح الباب على الفور . ومدت له الأرملة ذراعيها . وصاحت فرحة :

– انه أنت يا مانولى . أنى لى بهذا الشرف ؟ أى ريح طيبة حملتك الى ؟ أدخل .

دخل ، وأغلقت الباب وراءه . توجس خيفة فتوقف هنيهة تطلع فيها الى أصص الريحان فى غبش الليل ، ثم الى البلاط الأبيض الذى رصفت به أرض الفناء . كان قلبه يخفق فى عنف .

وسألته الأرملة :

– لماذا تضع لثاما على وجهك ؟ هل تخشى أن يراك أحد ؟ هل تشعر بالخجل ؟ أدخل . أدخل يا مانولى ولا تخف ، فلن آكلك .

ووقف مانولى جامدا وسط الفناء لا ينبس بكلمة . انه يكاد يميز وجه الأرملة ، وذراعيها المرمريين ، وصدرها نصف العارى .

وكانت الأرملة تقول له .

ـ « أفكر فيك ليل نهار يا مانولى . لم يعد يغمض لى جفن . واذا اغفيت أراك في منامى ... ليل نهار أصرخ أناديك تعال ! وها أنت أتيت فمرحبا بعزيزى ما نولى ! »

وقال مانولى فى هدوء

ـ « أتيتك يا كاترينا حتى تتخلصى منى والى الأبد . حتى لا تفكرى فى أبدا بعد اليوم ، ولا تناديني ثانية . أتيت لتتقزز نفسك منى يا أختى كاترينا » .

وصاحت الأرملة

ـ « أنا أتقزز منك ؟ أنت أملى الوحيد فى هذه الدنيا . فدون ان تعرف ، وعلى غير ارادة منك ، ... على غير ارادة منك أصبحت أنت خلاصى ... لا تخف يا مانولى ، فليس جسدى هو الذى يتحدث اليك بل روحى . فأنا أيضا لى روح مثلكم يا مانولى » .

ـ « مصباحك مضاء . لندخل ، اذ يجب أن ترينني » .

ـ « أمسكت الأرملة بذراع مانولى فى رقة وحنان وقالت .

ـ « لندخل » .

كان سرير الأرملة عريضا ، منسقا ، نظيفا للغاية ، يملأ الحجرة كلها . وتعلوه أيقونة العذراء المقدسة يضيئها مصباح صغير . وفى أحد الأركان على اليمين مصباح زيتى موقد .

تقدم مانولى ، واتخذ لنفسه مكانا تحت ضوء المصباح ، وقال .

تشجعى يا كاترينا . اقتربى منى وانظرى الى » .

وبينما كان يقول ذلك بدأ يرفع منديله فى هدوء من على وجهه .

وظهرت شفتاه المنتفختان بصورة مقذعة ، ثم وجنتاه المتشققتان يسيل منهما سائل أصفر لزج . وأخيرا بانت جبهته المشوهة بلونها القرمزى كأنها قطعة من اللحم .

تطلعت اليه الأرملة بعينين واسعتين حائرة . وفجأة أغمضت عينيها ، واندفعت نحو مانولى وهى تنتحب .

وصاحت :

- « مانولى ، مانولى ، ياحبى » .

ودفعها مانولى عنه فى رقة .

أخذ يتوسل اليها قائلا

- « افتحى عينيك وانظرى الى . لا تبكى لا تأخذينى بين ذراعيك . أنظرى الى وجهى يا أختاه » .

أحست الأرملة أنها عاجزة عن أن تخليه من بين ذراعيها ، وأخذت تصيح باكية :

- « ياحبى ! يا حبى ! » .

- ألا تتقزز نفسك منى ؟

- كيف أتقزز منك يا أحب الناس الى ؟

- بل يجب . يجب يا كاترينا ... يا أختاه ... يجب حتى تتخلصى منى ... وأنجو أنا .

- لا أبتغى الخلاص منك . الانفصال عنك فيه هلاكى .

وفى يأس سقط مانولى فوق كرسى قرب السرير .

تضرع اليها

- ساعدينى يا كاترينا ، ساعدينى لأجد خلاصى ... أنا أيضا أفكر فيك ولا أريد ذلك ... أعينينى حتى لا تتدنس روحى .

تساندت الأرملة الى الحائط وقد إمتقع لونها . أخذت تتطلع الى مانولى بقلب منفطر وكأن طفلها يناديها وسط ظلام الليل وقد أحدق به خطر ...

وأخيرا غمغمت قائلة :

- ماذا عساى أن أفعل من أجلك يا أعز انسان لدى ؟ ماذا تريد منى أن أفعل ؟

كان مانولى واجما .

وقالت الأرملة :

ـ هل تريد منى أن أقتل نفسى ؟ هل تريد منى أن أقتل نفسى حتى يكون بذلك خلاصك ؟

وصاح مانولى فزعا

ـ لا ، لا ، بهذا ستلقين بنفسك فى الجحيم ، وهذا ما لا أريده لك

ثم ران عليهما صمت من جديد . وبعد قليل قال مانولى :

ـ أريد أن أخلصك . فخلاصى رهن بخلاصـــك يا أختاه . وأنا مسئول عن روحك كما تعرفين .

وقالت الأرملة وهى ترتجف :

ـ أنت مسئول عن روحى يا مانولى . خذها وأمسك بزمامها تقودها الى حيث تشاء ، فهى لك ، وأذكر المسيح ، فهكذا كان أيضا مسئولا عن روح مريم المجدلية .

استشعر مانولى بغتة مزيدا من السكينة ، وقال :

ـ انه هو من أفكر فيه . هو من أذكره آناء الليل وأطراف النهار يا أختاه .

ـ أسلك سبيل المسيح يامانولى ، كيف أنقذ مريم المجدلية العاهرة؟ هل تعرف ؟ فأنا لا أعرف كيف . افعل بى ما تشاء .

ونهض مانولى

ـ انى منصرف . قلت الكلمة التى اعتقتنى يا أختاه .

ـ وأنت يا مانولى قلت الكلمة التى أنقذتنى ، وادخلت السكينة الى نفسى اذ دعوتنى أختا ...

عصب مانولى وجهه ثانية ، فلم تعد ترى غير عينيه .

وقال :

ـ وداعا يا أختاه . سآتيك ثانية .

وأمسكت الأرملة بذراعه مرة أخرى لتقوده عبر الفناء . وفى عتمة الليل مدت يدها وقطفت باقة من زهر الريحان .

وقالت :

ـ خذ هذه ، كان المسيح معك يا مانولى ·

ووضعت باقة الريحان فى يده · وفى هدأة الليل فتحت الباب وأطلت منه ، لا أحد فى الطريق ·

وقالت الأرملة :

ـ لن أفتح بابى لأحد بعد الآن · سأنتظر مجيئك الى ثانية ···· باركك الله ·

اجتاز مانولى عتبة الباب وتوارى فى الظلام ·

***



الرَّبُّ صَانِع خزَف يصنع مخلوقاته من طين

اليوم أول مايو . والصيف على الأبواب - اتخذت الأرض زخرفها وازينت . فالسهل لازال أخضر يانعا . والقمح يصطبغ بلون الذهب . وأشجار الزيتون تتكور حباتها وتكبر . والكرم يتزين بعناقيد صغيرة حمضية المذاق . وحبات التين الخضراء يسرى فيها لبن لاذع الطعم ليصبح عما قريب عسلا مصفى . وأهل ليكوفريسى يأكلون حبات الثوم ، ففيه صحة لأبدانهم - وعبقت القرية كلها برائحته . وبدأ البشر يعود الى الشيخ بطرياركاس من جديد ، فقد امتلأ كرشه ، وغلظ الدم فى عروقه . زاره صباح أمس أندونيس الحلاق وعمل له كاسات دم لينقذه من مرض السكتة . والعجوز لاداس قابع فى ركن يمضغ هو الآخر غصن ثوم ، وقد تحول فكره عنه الى الدخل والمنصرف : كم ستكون حصيلته هذا العام من الزيت والنبيذ والقمح ؟ من مدين له بمال ، وبكم ، وكيف يسترد الدين ؟ ويفكر أيضا فى جنيهات باناكوس الثلاثة ، انه ينوى بيع بضاعته فى المزاد ويستولى على حماره .

والخطيبة يضنيها السقم . ففى شهر مايو لا يعقد قران ، وفى يونيو يكون الحصاد ، والعمل فى الحقول لا يحتمل التأجيل . فلا وقت لحفلات الزواج . والشهر الذى يليه موسم الدرس ، ثم فيما بعده جنى الكرم . اذن لا مناص من الانتظار حتى عيد الصلب فى سبتمبر ، وقتما تخف أعباء العمل ويبدأ بيع المحصول ، ويومذاك سيحضر القسيس

ويبارك العروسين اللذين نفضا عن كاهليهما كثيرا من الهموم ، وتوافر لديهما طعامهما من الخبز والزيت ، وشرابهما من النبيذ · وسيمنحهما هذا كله القدرة على الاخصاب وانجاب الأطفال ·

والقسيس جريجوريس تؤرقه هموم كثيرة · ماريورى لم تتزوج بعد ، وميشيل سلك سبلا سيئة · لم يكن فطنا بالقدر الكافى فقد تحايل عليه مانولى وأصدقاؤه ، وغرروا به ، عثروا فيه على لقمة سائغة ، وها هو الآن لا يكف عن توزيع الدقيق والزيت على الفقراء دون علم أبيه · وبين حين وآخر ، اذا بحمار ياناكوس ـ أماته الله شر ميتة ـ يحمل سلالا جديدة مملوءة بالأطعمة الى اللاجئين فوق جبل ساراكينا ··· ويهدر القسيس جريجوريس شاكيا « هذا الأبله ، انه بتفكيره المعوج هذا سيأتى على ثروته سريعا ، ثم ماذا سيكون من أمر ابنتى ؟ »

ولكن شر الأمور كلها قسيس ساراكينا ، ذلك التيس يلقى قداسا كل أحد فى كهف فوق الجبل ويحلو له الاغراق فى تقديم المواعظ · وبدأ بعض أهالى ليكوفريسى ينصرفون عنه ، أى الأب جريجوريس ،ليستمعوا الى هذا القسيس المتشرد الملتاث ··· ولا يفتأ القسيس جريجوريس يحدث نفسه قائلا « كل قرية من القرى أشبه بخلية نحل ، والخلية لا تسع ملكتين ، أولى به أن يفارقنا ، ويجمع سربه فى مكان آخر · فساراكينا خليتى ! »

وأهل شهر مايو أيضا على جبل ساراكينا ولكن حيث الأسمال البالية والبطون الخاوية ، وقليل من الأزهار البرية المتناثرة هنا وهناك بين الحجارة ، وبعض أزهار نبات العليق والعضة ، وآلاف السحالى الخضراء والرمادية التى زحفت خارج جحورها لتنعم بدفء شمس مايو الحانية ··· لا أشجار زيتون هنا ، ولا كرم أو بساتين ، لا شيء غير صخور موحشة نابية ·وعلى مسافات متباعدة ، شجرة أحنتها الرياح ، التفت حول ساقها معذبة بما تحمله من ثمار لاذعة لا شيء فيها غير البذور ـ شجرة زيتون برى ، أو شجرة خروب أو كمثرى برية ـ غطتها الأشواك ولا تحمل غير الكراهية للانسان ·

اليوم الأحد : ملأ الضوء الكهف ذا التصاوير الباهتة على الجدران ، واستيقظ النساك ، البعض له ذقون أو لحى تآكلت بفعل الرطوبة والزمن ، وآخرون مبتورة رءوسهم أو أقدامهم · وعلى الصليب لم يبق سوى وجه

المسيح علامة صدأ أزرق وفطر ، وبقية من الصليب عليها قدمان زرقاوان يقطر منهما الدم ....

غص الكهف طوال الصباح برجال ونساء يترنمون بالتراتيل وبعد أن فرغوا من ترتيليهم خرجوا ليجلسوا تحت الشمس ، ولحق بهم الأب فوتيس ، فقد اعتـاد أن يخطب فى قومه كل أحـد بعـد القداس ليثبت أفئدتهم ... يبدأهم بالتحية ، ويبحث عن كلمة طيبة لكل منهم ، ثم يبدأ موعظته ليبلغهم كلمة الرب وكلمته . كان يستهل حديثه اليهم دائما بصوت هادىء ، ثم رويدا رويدا يدب فيه الحماس ، وتبدو كلماته وكأنها تهبط عليهم من مكان ما فى السموات العلى ، من خير مكان تتنزل كلماته على أرواح البشر .

كان منشرح الصدر وهو يتحدث اليهم فى ذلك اليوم مواسيا ، ويعيد على سمعهم ما سبق أن قاله لهم .

ـ تحياتى يا أطفالى ، فلا زلنا على قيد الحياة ، ولم نيأس .

كان أحيانا يضرب لهم الأمثال ، وأحيانا يحدثهم عن حياته وعن كل ما رآه وعاناه ، واحيانا اخرى يمسك بالانجيل ويفتحه بطريقة عشوائية، ويقرأ منه بعض آياته فتكون منطلقا لحديثه اليهم . وتتفتح أمام أعين قومه الكليلة سموات متألقة بنجومها ، وتتحول أسمالهم البالية الى أجنحة، حتى بطونهم الخاوية تنسى ما تعانيه من الطوى .

بدأ القسيس فوتيس حديثه اليهم فى ذلك اليوم بقوله :

ـ نحن نعبر عن الحقيقة بالأسطورة. وسوف أقص عليكم اسطورة. هيا اقتربوا منى يا أطفالى . وأنتن أيتها النسوة اللائى تذرفن الدموع . ان حديثى موجه اليكن فاقتربن .

تجمعت النسوة مع بعضـهن ومعهن أطفالهن وربضن على الأرض وأحطن به . وظل الرجال وقوفا وراءهن . واتكأ الشـيوخ على عصيهم وكلهم آذان صاغية .

وبدأ القسيس فوتيس كلامه :

ـ يحكى أنه كان فى سالف الأزمان صيادان ، تسلقا جبلا ، ونصبا شباكهما . وعادا اليها فى اليوم التالى ، فماذا رأيا ؟ كانت الشباك تعج بحمام مطوق . وكل واحدة من هذه المخلوقات التعسة ترف بجناحيها

تحاول في يأس أن تفلت من اسارها ، الا أن عيون الشباك كانت ضيقة ـ فكيف لها أن تنفذ منها ؟ ثم تكومت حول بعضها في هلع ، وانتظرت . وقال صياد « ما أسوأ هذه الطيور ، انها جلد على عظم . كيف نبيعها في السوق ؟ » وقال الآخر « ليس علينا الا أن تطعمها أياما قلائل حتى تسمن . ومن ثم ألقوا اليهـا بكميات وفيرة من الحب المجروش وأحضروا له ماء . وبدأ الحمام المطوق يأكل ويشرب في شهية ونهم ، الا واحدة لم تكترث بذلك ولم تطعم شيئا ، وفي كل يوم يأتي الصيادان بمزيد من الحب المجروش ، وهكذا سمن الحمام يوما بعد يوم ، الا واحدة أضناها النحول ، وناضلت في عناد لتنفذ من الشبكة . واستمر الأمر على هذه الحال حتى جاء الصيادان ذات يوم صفيت سماؤه وأخذا الحمام لبيعه في السوق . ولكن الحمامة المطوقة التي قضت أيامها هذه بغير طعام ، كان الهزال قد نال منها كل منال حتى استطاعت بعد جهد أن تنفذ من بين عيون الشباك وتطير ، وهكذا أصبحت طليقة » .

تلكم هي القصة يا أطفالي . ولكن لماذا قصصتها عليكم ؟ من منكم يدرك مغزاها ؟ أنت أيها الشيخ ماذا ترى ؟ هل لكم أن تكدوا ذهنكم قليلا ؟

وصمت الشيوخ من الرجال جميعا . وفجأة وقف العملاق حامل الراية .

ـ يبدو لي يا أبانا أنك تشير بها الى جوعنا ، وأنه سيعيننا على أن نجد حريتنا ... تقصد أننا مثل هذه الحمامة التي أبت أن تطعم شيئا ... ولكن ماذا بعد ؟ ان الأمر غير واضح لي ... آسف فان فكري قاصر عند هذا الحد .

وقال القسيس

ـ لقد أدركت جوهر القصة يا لوكاس . انى أباركك . سأوضح لكم يا أطفالي بقيتها . بدأنا حياتنا في قريتنا أغنياء ، وتجاوزنا كل الحدود . أفرطنا في الطعام ، وأثقلنا أرواحنا بالغذاء . كانت حياتنا كلها دعة وأمنا وسلاما ـ وانطلق الجسد حتى استعبد الروح . كنا نحدث أنفسنا « كل شيء يسير على ما يرام ، العدالة تسود العالم ، ليس ثمة جائع ولا مقرور ، وعالمنا خير العوالم قاطبة . وأشفق علينا الرب ـ أرسل الينا الأتراك ، فطردونا من ديارنا ، وشردونا لنهيم على وجوهنا

فى الطرقات . اضطهدنا وتعلمنا أن العالم ملىء بالمظالم . أصبحنا جوعى ومقرورين ، وثمة غيرنا يولمون الولائم ولا تطفأ لهم نار ، يضحكون اذا ما وقع بصرهم على شعب مهلهل يتضور جوعا .

فتحت النازلة عيوننا وفهمنا . بسط الجوع أجنحتنا ، وهربنا من شباك الظلم ، كما تحررنا من حياة الدعة المفرطة . وهانحن هنا أحرار ! والآن نستطيع أن نبدأ حياة جديدة والحمد لله .

وران عليهم صمت ، فلم ينبس أحدهم ببنت شفة . هز الشيوخ رؤسهم ، وعاودت النسوة نواحها المكتوم ، فيما عدا الرجال وحدهم كانوا يتطلعون الى عينى القسيس ويستشعرون فى أعماق نفوسهم قوة وعنادا لا يقهران .

ومرة أخرى كان حامل الراية هو الوحيد الذى رفع صوته :

ـ حديث طيب يا أبانا . أشفق علينا الرب فابتلانا بهذه النازلة . تماما مثلما يفعل الفارس اذا جمح حصانه ، فانه يلهبه بسوطه ... لقد ألهبت النازلة دمنا ، وفتحت أفئدتنا ، وأصبحنا أحرارا .

ثم صاح وعيناه تفيضان من الدمع ، فقد تذكر جورج ، طفله الصغير ، الذى مات فى الطريق .

ـ ولكن الآن كيف السبيل الى الخلاص من هذه النازلة ؟ هذا ما يجب أن تحدثنا عنه . اما أن نقضى عليها أو تقضى هى علينا . انها تكاد تجهز علينا .

وأجاب القسيس .

ـ لا تخش شيئا يا لوكاس ، فاننا سنظفر بهذه النازلة، سترى كيف أنها ستعود علينا بالخير . العمل والصبر والحب ـ تلكم هى أسلحتنا. ثقوا بأنفسكم . اننى اذا أغمضت عينى أبصر بيوتا من حجر تحيط بى من كل جانب ، وكنيسة يعلوها برج الجرس ، ومدرسة ذات طابقين وفناء واسع يغص بالأطفال ، وحول القرية حدائق وبساتين كرم وحقول قمح ... وقد بدأنا مسيرتنا بالفعل . اهتدينا الى قطعة أرض صغيرة ، وبذرنا فيها الحب . وأسرنا المياه المتمردة ، وصنعنا لها القنوات ، وطعمنا الأشجار البرية . بل بدأنا نشيد المبانى بالفعل ... وفى تلك القرية المتكبرة ليكوفريس ، التى تعنى نبع الذئب ، لا زال فيها عصبة من

الرجال لهم بين جوانحهم أفئدة ، وهم يفكرون فينا · ذات يوم أتانى أحدهم بكل ثروته ، ثلاثة جنيهات ذهبا ، وفى اليوم التالى أرسل لنا آخر سلال طعام ، وقدمت لنا امرأة آثمة نعجتها ··· وآثم غيرها مات قبل أول أمس ، تذكرنا لحظة أن حضره الموت ، وأوصى لنا بصندوق ملىء ببعض الحاجيات ـ أسأل الله أن يصفح عن روحه الآثمة ! ها نحن يا أطفالى نضرب بجذورنا فى الأرض ، ها نحن مرة أخرى نجد لنا مكانا على الأرض تنبت فيه بذرتنا من جديد لتنمو وتستوى على عودها وتسمق فروعها · ثقوا بأنفسكم ! ·

وصاح شاب خشن المظهر ، شاحب الوجه من أثر الحرمان ، متمنطقا بخرقة بالية :

ـ يا أبانا ، هل سنعيد حياتنا سيرتها الأولى من جديد ؟ نفس الشىء دائما وأبدا يا أبانا ؟ هل يجب أن نبدأ كما بدأنا أول مرة يا أبانا ؟ تذكر جيدا أن لم يكن فى قريتنا أغنياء فقط ، بل فقراء أيضا · ماتت أمى جوعا وقتما كانت القرية تسبح فى الزيت والنبيذ ، وأفران الجيران جميعهم موقدة ، تخبز صفوفا متراصة من الأرغفة ، وكانت رائحة الخبز الساخن كافية وحدها لتصيب أمى بدوار ··· وهكذا يا أبانا عود على بدء وتتردد نفس الأغنية القديمة ؟ مرة أخرى غنى وفقير ؟

وأطرق القسيس فوتيس برأسه · وظل غارقا فى فكره فترة طويلة · ثم قال أخيرا :

ـ أنت واضح وصريح يا بترو ، لا توارى فى حديثك ، وأنا أحب منك هذا · ان ما تسألنى عنه أسأل أنا عنه الله ليل نهار ، أتضرع اليه سبحانه أن ينير بصيرتى · أدعوه قائلا « الهى اننا نبتغى أسسا جديدة نقيم عليها قريتنا الوليدة · حسبنا ما عانينا من المظالم · اذا شئت سبحانك فليكن كل منا جائعا مقرورا ، أو لينعم الجميع بالطعام والملبس والدفء · الهى هل تعجز عن أن نحقق العدالة على الأرض ؟ ·

وتساءل الفتى بطريقة فظة :

ـ وماذا كانت اجابة الرب الرحيم ؟

ـ حنانيك · امهلنى ، فان فكرى الكليل يتلقى النور رويدا رويدا وعلى قدر طاقته · ان النازلة التى أحدقت بنا ، ولنكن منصفين فى حديثنا عنها ، قد جعلتنا جميعا سواسية ، أصبحنا جميعا فقراء ليس فينا من

يملك فرنا يخبز فيه خبزه ، أو من يجد فرصة ليقع فى الخطيئة حين يمنع الخبز عن جاره الجائع • لنعمل على تحقيق ما كان عسيرا على النفس فيما مضى ـ ها هى اللحظة المواتيــة يا أطفالى ولنتكاتف ســويا • تحررت الروح من البطون المتخمة ، وهى الآن قادرة على الطيران •

والتفت الى شيخ كان يصغى اليه وقد استظل بشيء فوق رأسه عاقدا يديه ، متكئا بهما على عصاه وقال له :

ـ يا أب كاريلاوس ، ماذا لو انك سئلت منذ شهور ثلاثة مضت أن تقسم ما تملك من كرم وأشجار زيتون بينك وبين الفقراء ؟ ترى هل كنت تفعل ؟ •

وآجاب الشيخ

ـ أبدا وليغفر الله لى ، ترى هــل كنتم تقبلون أن تقطعوا أيديكم وأرجلكم وأحشاءكم وتتصدقوا بها على جيرانكم ؟ كان زيتونى وكرمى نفس الشيء بالنسبة لى •

ـ وأنت يا أب بافليس ، لعل معاليك ماكنت لتقبل أبدا أن تفتح خزائنك لتقتسم ما فيها من العملات الذهبية بينك وبين المعوزين •

وتجهم شيخ يقف قبالة القسيس ، ولم يجب • واكتفى بأن صعد زفرة عميقة حين تذكر خزائنه •

وصاح القسيس فوتيس فى ثورة مفاجئة :

ـ ان من يملك أرضا وأشجارا تصبح الأرض والأشجار هى ذاته ، وتفقد روحه صفتها القدسية • ومن يملك الخزائن تصبح الخزائن ذاته • فأنت يا بافليس التعس ، لم تكن سوى خزانة مال ، وأنت يا كاريلاوس البائس لم تكن سوى قطعة أرض وحفنة من تراب حتى قبل أن يوافيك الأجل • ولكن حمدا لله أن كتبت لنا النجاة ! ها أنتم أخيرا أيها الأغنياء رأيتم بأعينكم وعرفتم معنى العرى والجوع ، ولمســـتم بأنفســـكم عذاب الفقير •

وتنهد الشيخ بافليس وهو يقول :

ـ حقا عرفت •

واستطرد القسيس فوتيس قائلا :

ـ والآن سنمحو كل ما سبق . سيكون كل شيء قسمة بيننا . ان

يكون بعد الآن شيء أقول انه ملكي أو ملكك، لا حدود ولا أسوار ، ولاأقفال ولا خزائن • هنا سنعمل جميعا ، ونأكل جميعا ، وسيعمل كل منا قدر طاقته • سيذهب أحدكم للصيد من بحيرة فويداماتا ، ويذهب آخر للقنص ، وثالث يفلح الأرض ، ورابع يرعى الحيوانات التى سيمن علينا بها الله • نحن اخوة • أليس كذلك ؟ اننا أسرة واحدة ، ولنا أب واحد هو الله •

وبسط القسيس فوتيس ذراعيه لهم جميعا وصاح :

ـ لنرسى أسسا جديدة فى قريتنا الوليدة ، وكذلك فى روحنا • انها مهمة شاقة على النفس عسيرة ، ولكن أعينونى على ذلك يا اخوتى • العمل والصبر والحب ـ والايمان بالله ••• ماذا فعل المسيحيون الأوائل ؟ كانوا يلتقون فى المقابر تحت الأرض وارسوا دعائم جديدة للعالم • وهذه الكهوف من حولنا فى باطن الأرض هى المقابر التى سنلتقى فيها ، ونحن أيضا معنا المسيح • عرفنا الظلم وسوف نعيد الأمور الى نصابها • أى بترو ، لا تخشى شيئا يابنى ، انس الماضى وامح آثاره من نفسك • لنتعاون كلنا يدا واحدة من أجل بناء عالم جديد •

هبوا جميعا واقفين ، العزم والاصرار يملأ نفوسهم ، وتدافعوا حول قسيسهم •

وصاح القسيس ثانية :

ـ كلنا يد واحدة ••• كلنا يد واحدة ! تلك هى كلمة السر الجديدة وفيها خلاصنا •

وصاح الرجال والنساء وقد رفعوا أيديهم كأنهم يرددون القسم :

ـ كلنا يد واحدة

ورشم الشيخ كاريلاوس علامة الصليب ، واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

ـ جعل الفقر منى انسانا ذا قلب كبير • اللهم أسألك أن تقينى شر الثراء ، فانى سأرتد سيئا كما كنت •

وصاح بترو ضاحكا :

ـ لا تخف يا أب كاريلاوس • اعتمد علينا فى ذلك فلن نسمح لك بالثراء !

وخلع القسيس رداءه الدينى ، وطواه ، ثم ناوله لامرأة عجوز ضامرة عهد اليها بمهمة الخدمة فى كنيستهم •

وقال :

ـ اليوم الأحد ، وهو يوم الراحة يا أطفالى ، وغدا نبدأ العمل من جديد • دعوا الصبية يلعبون الكرة ، وليجتمع الرجال ، يعقدون فيما بينهم مجالس يتبادلون فيها الرأى ، وتلتقى النسوة ببعضهن يثرثرن ، وتواسى كل منهن الأخرى • أما أنا فيجب أن أصعد الجبل المقابل حيث ينتظرنى هناك أصدقاؤنا أصحاب السلال • الى اللقاء يا أطفالى مع المساء ، كان الله معنا •

وبعد أن فرغ من كلماته هذه ، تلقف عصاه وانصرف •

★ ★ ★

التف حول مانولى الرسل الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنا • فتحوا أمامهم الانجيل الصغير الذى أحضره لهم يا ناكوس فى ذلك الصباح • وكانوا يتهيأون للقراءة •

ألفوا وجه مانولى المنتفخ ، وزايلهم ما كانوا يحسون به من فزع فى بادىء الامر ، وواتتهم الجرأة على أن ينظروا اليه مباشرة ، دون شعور باشمئزاز أو خوف • كان ياناكوس قد طلب من القسيس فوتيس ، على غير علم من مانولى ، أن يأتيهم ويرى الغمة التى حلت بصديقهم، ويبدى لهم رأيه فيها • لقد رأى القسيس الكثير ، كما عانى الكثير فى حياته ، وعرف كل آلام الجسد والروح ، ومن يدرى فربما يعرف دواء ؟ ••• ربما يحتاج مانولى الى شىء آخر غير المراهم والعقاقير • وربما كانت هذه الغمة المفاجئة راجعة لأسباب أخرى ، اذ قد تكون من عمل الشيطان ، فيطرد القسيس بتعاويذه الروح النجسة •

وهكذا صعد ثلاثتهم فى ذلك اليوم الى الجبل ، كل يحمل هدية الى الى صديقه المريض : ياناكوس الانجيل الصغير ، وقسطندى صندوقا من الحلوى التركية ، وميشيل أيقونة صغيرة تمثل الصلب ، وهى أيقونة عتيقة جدا ورثها عن أمه ، ترى فيها المسيح على الصليب ، وقد رسم حوله عدد لا يحصى من عصافير الجنة ـ لم تكن ملائكة وانما عصافير جاثمة فوق ذراعى الصليب ورأسه ، فاغرة حلوقها الصغيرة كأنها تشدو••• وأزهر الصليب، اذ تحف به أزهار قرنفل صغيرة بدا معها كأنه شجرة لوز مزهرة ، والمسيح

المصلوب يبتسم وسط الزهور والطيور · وتحت قدمي الصليب مريم المجدلية العاهرة ، وحدها ، حلت شعرها وهي تمسح الدم الذي يسيل من قدمي المسيح ·

جلس مانولي فوق المقعد الحجري أمام فناء الحظيرة ينتظرهم · غسل شعره ، وارتدى ملابس يوم الأحد · كان يمسك بقناع المسيح الذي حفره ينظر اليه حينا من أمام وحينا من يمين وحينا ثالثا من يسار ، ويتأمل عينيه الباكيتين ، والفم المتألم ، والابتسامة الحزينة ·

أخذ مانولي الهدايا · قبل الأنجيل ، ونظر طويلا الى أيقونة الصلب· وتمتم قائلا :

ـ ليس هذا هو الصلب وانما الربيع ·

ورنا الى المرأة الجاثية أسفل الصليب وشعرها الذهبي المتفرق ، وتأوه ·

وضع شفتيه عند قدمي المسيح ، ولكنه جفل بغتة في هلع · خيل اليه أنه قبل شعر العاهرة الأشقر وجيدها العارى ·

وأخذ ياناكوس الأيقونة من يدى مانولي وقال :

ـ تعال يا مانولي ، افتح الانجيل واقرأ ·

ـ ماذا سنقرأ ياياناكوس ؟

ـ افتحه كيفما اتفق · وما استغلق علينا نناقشه حتى يبين

أخذ مانولي الانجيل ، وانحنى عليه يقبله ثم فتحه ·

وقال :

ـ باسم الآب والابن والروح القدس ·

وبدأ يقرأ على مهل يحاول أن يفصل المقاطع ·

« ولما رأى الجموع صعد الى الجبل · فلما جلس تقدم اليه تلاميذه · ففتح فاه وعلمهم قائلا طوبى للمساكين بالروح · لأن لهم ملكوت السموات » ·

وقال ياناكوس مسرورا ·

ـ هذا سهل · الحمد لله أني أفهمه · وأنت يا قسطندى ؟

كان قسطندى فى ريب من آمره · فسأل :

ـ ماذا تعنى ؟ « المساكين بالروح » ؟

وفسر له ياناكوس

ـ كل أولئك الذين لم يتعلموا · كل أولئك الذين لم يذهبوا الى المدارس العليا ليجلوا أفكارهم ·

وقال مانولى مصححا :

ـ لا ، ليس المقصود أولئك الذين لم يتعلموا · يمكنك أن تكون متعلما مثل الأب فوتيس وتدخل ملكوت السموات · ويمكن أن تكون جاهلا مثل العجوز لاداس ولا تدخل · انها تعنى شيئا آخر ياياناكوس · ماذا ترى يا ميشيل ؟

وعرض ميشيل رأيه :

ـ أولئك الذين لا يضمرون السوء ، والذين يتحلون بعقول بسيطة نقية ، لا يتحذلقون وانما يؤمنون ، ونفوسهم مفعمة بالبراءة والثقة ··· هذا ما أراه أنا · سنسأل القسيس فوتيس ·

وقال ياناكوس فى ضجر :

ـ ما بعدها ، فانها ستوضح ما سبقها · ماذا بعد ·

واصل مانولى قراءته :

ـ « طوبى للحزانى لأنهم يتعزون » ·

وقال ياناكوس وهو يهرش رأسه :

ـ آه ، هذه أصعب من سابقتها · ما معنى « يتعزون » ؟

وقال قسطندى مفسرا :

ـ انه سيعزيهم ··· ولكن لمن العزاء ؟ ومن ـ من ؟ أنا لا أفهم ·

وقال مانولى :

ـ أخالها واضحة لى الى حد ما : « الحزانى » هم البؤساء الذين يعانون فى حياتهم ، وأولى بهؤلاء ألا يضنيهم الهم ، فان الله سيعزيهم ويواسيهم ·

وقال ياناكوس الذى كان فى عجلة لمتابعة القراءة :

ـ وهذه أيضا يجب أن نسأل عنها القسيس فوتيس ··· ما بعدها ·

وقرأ مانولى :

– « طوبى للودعاء • لأنهم يرثون الأرض » •

وصاح ياناكوس مزهوا :

– هذه على أية حال واضحة تماما ! ليبتهج الودعاء ، اى ذوو النفوس الطيبة الرحيمة المسالمة • فهؤلاء هم الذين سيفوزون فى نهاية الأمر وتكون الأرض لهم • اى لا يكون ذلك عن طريق الحرب وانما ستكون لهم السيادة على العالم بالحب • لتسقط الحرب • لتسقط الحرب ! كلنا اخوة !

وتردد قسطندى فى قبوله لهذا التفسير وتساءل :

– وماذا عن الأتراك ؟

ورد ياناكوس فى حماس :

– والأتراك بالمثل ، والاغا ، ويوسبوفاكى وحسين والكل جميعا !

وسأل قسطندى فى عناد :

– وأولئك الذين دمروا قرية الأب فوتيس !

وهرش ياناكوس رأسه ثم قال :

– لا علم لى بهذا • سأسأل الأب فوتيس ••• اقرأ ما بعد ذلك !

« طوبى للجياع والعطاش الى البر • لأنهم يشبعون » •

وصاحوا جميعا :

– آه ، لعل هذه هى ارادة الله ، فاننا سنشبع بالبر •

ووقف ياناكوس مهتاجا وصاح :

– طوبى للجياع والعطاش الى البر ! هؤلاء هم نحن • كأن المسيح يتحدث الينا نحن يا أصدقاء • نحن الأربعة يا اخوتى جياع عطاش الى البر • قلبى يكاد يطير فرحا ، كأنما المسيح التفت الى بوجهه وكلمنى ••• تشجعوا يا أصدقاء ! ••• اقرأ ما بعدها يا مانولى !

« طوبى للرحماء • لأنهم يرحمون » •

وقفز ياناكوس ثانية وهو يصيح :

– اسمع هذه يا أب بطرياركاس • اسمعها أيها الأكول الشريب ، يا من ترفض أن تحيينا فى الطريق لأننا رحماء تصدقنا بأربع سلال من

الطعام على الفقراء ! اسمع هذه يا أب جريجوريس أيها الدنيء المسعور ، يا من تطرد الجياع بعيدا عن مائدتك الحافلة بأطايب الأطعمة واللحوم ! تملأ كرشك حتى تتخمه ، ولو انفجر لأغرق القرية كلها بما فيه من نتن · اسمع هذه يا أب لاداس أيها البخيل العجوز ، يا من تأبى أن تقدم كوب ماء لعطشان حتى ولو كان ملاكك الحارس ! برافو يا مشيل اذ لم تشابه أباك · ستدخل ملكوت السموات ، مع السلال الأربعة فقد كان الطعام طعامك أنت لاطعامنا نحن ! ··· ما بعدها ·

– « طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » ·

وقال قسطندى :

– أنا أفهم معنى هذه الآية جملة ، وان كنت لا أفهمها تفصيلا · فبعض كلماتها غامضة ، أو بالأحرى فان كلمة « يعاينون » هذه يستعصى على فهمها ··· ما المقصود بها ؟

وقال ياناكوس :

– معناها يشهدون الله · أولئك الذين لهم قلوب نقية سيشهدون الله ··· هذا كل ما فيها ·

وقال قسطندى فى حيرة :

– أنى لك علمك بتفسير كل هذا يا ياناكوس ؟ أحسب أنك أوتيت حكمة سليمان !

ورد ياناكوس :

– أنا لا افسرها بعقلى أيها العجوز بل افسرها بقلبى · قلبى هو الملك سليمان ! استمر يا مانولى ··· اقرأ ما بعدها !

« طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين · افرحوا وتهللوا · لأن أجركم عظيم فى السموات · فانهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم » ·

وقال ياناكوس :

– أعد يا مانولى ، ولا تسرع من فضلك · اذ تبدو لى هذه الآية ، استغفر الله ، غامضة الى حد ما ·

أعاد مانولى قراءة الآيات ثانية وقال :

– أخالها واضحة تماما · كل أعيان القرية وأغنياؤها وكاذبوها

وخونتها سيقتفون أثرنا يوما ما نحن الأربعة ، ويطاردوننا لأننا نقول كلمة الحق · سيحرضون أتباعهم على الشهادة ضدنا · قد يقذفوننا بالحجارة ، بل قد يقتلوننا · ألم يفعلوا نفس الشيء مع الأنبياء ؟ ولكن يجب أن نسر لذلك غاية السرور يا اخوتي ، لأننا بذلك نهب حياتنا محبة للمسيح · ألم يهب حياته محبة لنا ؟ هذا هو معناها ·

وقال ياناكوس وعينه تتقد شررا :

ـ أنت على صواب يا مانولى · أخال القسيس جريجوريس يسير فى المقدمة مثل قيافا ، ومن ورائه لاداس يصيح : أقتلوهم ! أقتلوهم ! فتحوا خزائننا عنوة وقسموا ذهبنا بينهم ! وأكاد أرى الشيخ بطرياركاس ـ لا تضيق بكلامي يا ميشيل ـ يقوم بدور بيلاطس ويقول : « أغسل يدى من هذا ، اذ لا حيلة لى ، أقتلوهم ! » ولكنه فى أعماق قلبه مسرورا لأننا تسببنا فى ازعاجهم · لم نتركه فى سلام يلتهم لحم خنازيره الرضع ، وينشب أظافره فى خادميه ويدعو الأرملة كاترينا الى بيته لتدلكه لأنه ـ كما يزعم ـ أصيب بآلام البرد ··· ايه أيها الفجرة ، أيها البؤساء ، أيها الباحثون عن المتعة ، إن عدالة الرب آتية ، انها آتية لا ريب فيها ، هاهى ماثلة حقا !

أسكرته الكلمات · فأطل على القرية ، وبسط اليها ذراعيه متوعدا ، واستدار ، وفجأة رأى أمامه القسيس فوتيس فابتلع الكلمات فى حلقه ·

وقال فى ارتباك :

ـ عفوك يا أبانا ، ولكننا كنا نقرأ الانجيل والتهب قلبى حماسا ·

كان القسيس فوتيس قد اقترب منهم وهو يسير على اطراف أصابعه ، ولم يلحظه أحد من الأصدقاء الأربعة اذ كانوا هائمين مع كلمات الانجيل · وقف على مقربة منهم بعض الوقت ينصت لهم وعلى شفتيه ابتسامة ·

قال وهو يدنو منهم :

ـ سلاما يا ابنائى · كان الله معكم ·

نهضوا جميعا متهللين ، وافسحوا له مكانا فوق المقعد الحجرى . ولكن ما ان وقع بصر القسيس على مانولى حتى صاح :

ـ ما هذا يا طفلى ؟ ماذا اصابك ؟

وأجاب مانولى منكس الراس :

ـ عاقبنى الرب يا ابانا • لا تنظر الى • انظر الىالانجيلوفسره لنا• كنا في انتظار قداستكم لتبصرونا به • كيف نفهم ولسنا اهـــل علم وثقــافة ؟ •

واضاف قسطندى :

ـ ان عقلنا أشبه بجهاز قياس معوج • هيا يا ابانا لتقومه •

فقال القسيس فوتيس :

ـ انا الذى اساعدكم ؟ اولى بحكماء العالم جميعا ان يأتوا الى هنا، يقفوا وينصتوا لكم حتى يتسنى لهذه المخلوقات التعسة أن تفقه أخيرا كلمات المسيح • انت على صواب يايناكوس • الانجيل ليس كتابا نقرأه بعقولنا ، فالعقل قاصر عن ادراك المعانى الشريفة السامية . الانجيل كتاب نقرأه بقلوبنا • والقلب يعى كل شىء • فى يوم من أيام الأحـــد يايناكوس ستأتى الى كنيستنا ، وسط المقابر التى نسكنها ، وتفسر لنا كلمة الرب • لا تضحك فاننى أعنى ما أقول •

والتفت الى مانولى :

ـ كل الأوجاع يابنى مصدرها الروح ، فهى التى تسوس البدن • روحك مريضة يا مانولى ، وشـــفاء الروح هو دواؤك ، ثم يكون شـفاء البدن حتما •• ولكن لنتحدث سويا أولا • لماذا بعثتم فى طلبى ؟ كيف لى أن اعينكم ؟ اطلبوا ما تشاؤون وأنا فى خدمتكم •• وبعد ذلك لى حديث معك على انفراد يا مانولى •

واجاب ميشيل :

ـ بعثنا فى طلبك يا أبانا بسبب مرض مانولى • قلنا لأنفسنا : « ربما استقر على وجهه شيطان، وقد تعرفون قداستكمرقية تطردونه بها••»

واضاف ياناكوس الى ذلك قوله :

ـ وثمة أشياء أخرى كثيرة يا ابانا لا أفهمها • أليس كل ما يصيبنا هو من عند الله ؟ فلماذا حل ذلك بمانولى دون الأغا ، •• و لنقل مثلا القسيس جريجوريس او العجوز لاداس ؟ أى عدالة هذه ؟ آنا لا أفهم •

ثم استدار ناحية مانولى :

ـ لمـاذا لا تعترض أنت أيضـا ؟ لمـاذا لا ترفع صـوتك الى الله

تسأله ؟ أقانع أنت ببقائك هنالك عاقدا ذراعيك ، منكسا رأسك ، قائلا « الرب يعاقبنى » · ماذا اقترفت ؟ لماذا يعاقبك ؟ **تكلم واحتج فلست بسائمة ، وانما أنت انسان فاسأله · فهكذا يكون الانسان ·· كائن حى يتكلم ويعترض ويسائل ·**

وقف القسيس فوتيس ومد ذراعيه ووضع راحته على فم ياناكوس . وقال :

ـ تجاوزت الحد فى اسئلتك · انك ترفع صوتك عاليا جدا ياياناكوس . تسأل الله أن يهبط الى الأرض ، ويمثل أمامك ، ليقدم لك الحساب · من انت حتى تطلب من الله أن ينزل الى الأرض ؟ ·

واجاب ياناكوس فى هلع :

ـ أنا ·· ولكننى أريد أن أفهم ·

وقال القسيس فوتيس فزعا :

ـ تريد أن تفهم حكمة الله ياياناكوس ؟ ولكن الانسان ليس الا دودة أرض عمياء عند قدمى الله ؟ وهى لاشىء بالقياس الىعظمة الله سبحانه · ماذا تستطيع أنت أن تبلغ من حكمته ؟ أنا أيضا اعتدت فى شبابى ان احتج واسائل مثلك · ولم أفهم · وذات يوم تحدث الى معلمى الشيخ فى دير مونت آ ثوس وضرب لى مثلا · كان كثيرا ما يضرب الأمثال ليعبر بها عما فى نفسه · طيب الله ثراه ·

قال لى :

ـ يحكى أنه كان فى سالف الأزمان قرية صغيرة تائهة فى الصحراء ، كان أهلها كلهم من العميان · ومر بهذه القرية ملك عظيم على رأس جيشه · كان الملك راكبا فيلا ضخما · سمع به أهل القرية العميان . وكان قد سبق لهم أن سمعوا الكثير عن الفيلة وتحرقت نفوسهم رغبة في أن يلمسوا هذا الحيوان الخرافى حتى تتكون لديهم فكرة عنه . وخرج عشرة من رجالهم ، ولنقل انهم أعيان القرية · توسلوا الى الملك أن يأذن لهم بلمس الفيل ـ وقال الملك : « أذنت لكم فالمسوه » لمس أحدهم خرطومه ، وآخر قدمه ، وثالث بطنه ، وشب احدهم على قدميه حتى يمس أذنه ، واعتلى آخر ظهره · وعاد العميان الى قريتهم مسحورين · وتزاحم حولهم بقية العميان من أهل القرية ، يسألونهم فى لهفة عن حقيقة هذا الحيوان الخرافى الذى يسمى بالفيل · فقال أولهم : « انه انبوبة ضخمة ترفع نفسها بقوة وجبروت وتلتف حول نفسها والويل

لن تمسك به . وقال آخر : « انه جدار أشبه بجدار الحصن يغطيه الشعر » وقال من لمس اذنه : « لا . لا انه ليس جدارا على الاطلاق ، انه سجادة من صوف سميك نسجت بطريقة فجة ، تتحرك كلما لمستها». وصاح آخرهم : « ما هذا الهراء الذى تنطقون به ؟ انه جبل شامخ متحرك » .

وقهقه الرفاق الأربعة :

وقال ياناكوس :

ـ نحن العميان . أنت على حق يا ابانا . اسالك الصفح . اننا نكتشف ظفر أصبع صغير من أصابع قدمه المقدسة ونقول : « الله قاس كالحجارة » لماذا ؟ لأننا عاجزون عن أن نتجاوز هذا الحد » .

وقال ميشيل :

ـ ليس لنا أن نسأل . لابد وان لله حكمة لا نعلمها حين ابتلى مانولى . اننا فقط لا نراها لأننا عميان .

وقال مانولى وهو يرفع راسه :

ـ ثمة رباط يجمع بيننا نحن الأربعة هذا العام ، وليس لأحدنا ان ينفصل عن الآخرين . ومن ثم أرى ان من الملائم تماما لى أن أعترف امام الجميع ، حتى نحاول معا أن نتبين لماذا يعاقبنى الله ، واعرف كيف أبرأ مما اصابنى .. انا نفسى أعتقد انه طالما ظل هذا الشيطان مستقرا على وجهى ، فمعنى هذا اننى لم أتب بعد توبة نصوحا ، وأن الله لن يقبلنى ..

وقال القسيس :

ـ اي مانولى ، أنت على حق يا بنى . هكذا كان المسيحيون الأوائل . اعترفوا بخطاياهم قبل أن تربطهم رابطة الأخوة . حاولوا معا الاهتداء الى طريق الخلاص .. وها نحن باسم المسيح ننصت لك يامانولى . لا تنس أننا جميعا خطاة ، وأن الرب الآن فى السماء يرانا ويسمعنا .

جلس مانولى فترة طويلة يستجمع شتات فكره . مرت أمام عينيه حياته كلها ـ فقير معدم فى البيت ، ثم يتركه أبوه يتيما وتتولى خالته ماندالينيا تربيته وذاق معها الامرين ، وأخيرا عرف طعم الحلاوة والدعة فى الدير ، معلمه ماناس بصوته الوقور الحنون يقص عليه قصص القديسين فى صومعته هنالك فى تيبيد ، ويحدثه عن حياة الرسل على

شاطىء بحيرة جنيسارت ، وأخيرا المسيح المصلوب .. اى بهجة كان يستشعرها آنذاك كأن ملكوت السموات تنزل الى الأرض . ثم ذات صباح أقبل الشيخ بطرياركاس عمدة القرية ومعه بطانته يملأون فناء الدير بغالا وسجاجيد حمراء وصيحات متهللة .. » .

رفع مانولى راسه وقال :

ــ لست أدرى كيف أبدأ يا أبانا . طافت حياتى كلها بخاطرى .. عونك يا أبانا ، سلنى وأنا أجيب . اسألونى أنتم أيضا يا اخوتى .

وأجاب الأب فوتيس :

ــ لا تبحث عن بداية يا مانولى . ليس ثمة بداية ولا نهاية ! تكلم ، قل كل ما يرد على خاطرك . اغمض عينيك يامانولى ، ماذا ترى ؟ اجب دون تفكير : ماذا ترى ؟ .

ــ « فى بيت القسيس جريجوريس . اجتمع الأعيان بكامل هيئتهم واتخذوا قرارا . حددوا لكل منا دوره فى أسبوع الآلام فى العام القادم .. لتمثيل السر الرهيب تحت سقف رواق الكنيسة .. يقترب منى القسيس جريجوريس ، يضع راحته على رأسى ويباركنى ، يقول لى : « اصطفاك الرب يامانولى لتحمل ثقل الصليب .. » وتناثر قلبى شعاعا » .

فتح مانولى عينيه ، كان جفناه يرفان وعادت أفكاره الى رفاقه .

ثم عاود حديثه قائلا :

ــ حقا ما أقول ، ففى تلك اللحظة تناثر قلبى شعاعا مثلما تناثرت زجاجة العطر التى كانت تمسك بها مريم المجدلية العاهرة وكسرتها عند قدمى المسيح ..

« وعندما كنت صبيا كانت تنوشنى خيالات كثيرة ، اذ اعتدت قراءة حياة القديسين وكانت نفسى مولعة بهم . تمنيت أن أكون قديسا .. وعندما ذهبت الى الدير لم يكن يشغلنى هناك سوى شىء واحد : النساك .. كنت تواقا الى أن أذهب بنفسى الى تيبيد ، زاهدا يا اخوتى ترون اننى منذ طفولتى وأنا ادين نفسى ، الشيطان يحاول أن يضرم النار في قلبى وأنا أحترق بها . تجرأت نفسى اذ رغبت فى أن تحدث المعجزات على يدى ، أنا أيضا ! أستغفرك يا ربى ! » .

« وبعد ان غادرت بيت القسيس جريجوريس احسست براسي يطن . بدت لى القرية شيئا ضئيلا جدا ، لم تعد شيئا أقنع به ، واننى لم أعد مانولى : الراعى الوضيع عند الشيخ بطرياركاس ، الجاهل البائس ، بل غدوت انسانا اصطفاه الله ليحمل رسالة عظيمة : عليه أن يقتفى آثار المسيح ، وأن يتشبه به ! » .

وغمغم قسطندى :

ـ يا للجراة المروعة. انت يا مانولى يامن اتصفت بالرقة والتواضع .

وقال القسيس :

ـ قسطندى ، يابنى ، ان قلب مانولى يفيض بمكنونه ، دعه يفرغ ما فيه ، ثم لك أن تحكم بعد ذلك .

وتمتم مانولى :

ـ اسألكم الصفح يا اخوتى . تملك فؤادى ابليس ، شيطان الغرور .. انى خجل اذ اقول هذا ، ولكنى اعترف ، موطدا العزم على ان أفصح عن كل شىء فى وضح النهار ، والله على ما اقول شهيد .

وقال القسيس :

ـ تكلم ، تكلم يا مانولى . لا تخجل . ان فؤاد المرء برزخ يعج بالافاعى والضفادع والخنازير . افرغ قلبك حتى يتخفف مما فيه .

واستجمع مانولى شجاعته ثانية وقال :

وانتفخت أوداجى وتكبرت كتركى ، أحدث النفس فى روحاتى وغدواتى مزهوا : « اصطفاك الله يامانولى ، أنت من اصطفاك الله ! حسنا ، وذات يوم ـ والفضل لك ياياناكوس وانى أشكرك .. » .

وامسك بيد صديقه وكاد يقبلها ، لولا ان سحبها منه ياناكوس فزعا :

ـ ماهذا يا مانولى ؟ تقبل يدى ؟ يدى أنا ؟ .

وقال مانولى :

ـ نعم يدك أنت ياياناكوس . لأنك أنت الذى فتحت عينى .. وتبينت أننى مرائى كذوب . وقلت لى ، باركك الله : « كذوب كذوب ! تريد أن تتشبه بالمسيح وأنت تتهيأ للزواج .. بعد أن تكون على الصليب ستأتيك لينيو بالماء الدافىء لتغتسل به ، وتحضر لك ملابس نظيفة تغير بها ملابسك ثم تأوى الى فراشك معها بعد أن كنت على الصليب ! .

القى ياناكوس بنفسه بين ذراعى صديقه وهو يبكى :

ـ اغفر لى يا مانولى . انت لا تعرف أى شيطان كان يحرضنى يومذاك .. فى يوم ما سأعترف أنا أيضا ، وسترى كم كنت مقززا .. القسيس يعرف .

اجلس القسيس ياناكوس وعاد يقول من جديد :

دعوه يا اخوتى يفرغ كل ما فى جعبته عساه أن يتخفف . تكلم يا مانولى . لابد وانك تستشعر الآن بعض الراحة .

ـ « وأنا اتحدث يا أبانا ، اشعر أن الكلام يخفف عنى .. ان الاعتراف سر ، سر عظيم ! الآن قد استعدت شجاعتى ، سأكشف عن كل شيء ، كل شيء ! » .

وضع القسيس راحته على كتف مانولى كأنما يريد أن يمده ببعض القوة وقال له :

ـ اننا نصغى اليك يابنى ، تكلم يا ولدى !

ـ ثبت الى رشدى منذ تلك اللحظة التى فضح فيها ياناكوس حقيقة مشاعرى عارية . أبصرت الهاوية ، وتوقفت . حدثت نفسى : « ألا تخجل يا مانولى ؟ أتحسب الصلب لهوا ولعبا ؟ أتتوهم أنك قادر على أن تخادع الله والناس على هذا النحو ؟ تحب لينيو ، وتهوى مضاجعتها ثم تريد أن تصدق انك المسيح ؟ عار عليك أيها الدعى . تدبر أمرك أيها المرائى واختر أيهما ! ووطدت العزم منذ تلك اللحظة « لن اتزوج ! لن ألمس امرأة ! سأظل طاهر الذيل ! » .

مرة أخرى لم يتمالك ياناكوس نفسه وصاح قائلا :

ـ قديس انت يا مانولى ، هذا ما كنت أعتقده ، وصرحت به يا مانولى .

وقال مانولى :

ـ انتظر انتظر . سترى ما يقف له شعر رأسك . لم أفرغ بعد من سرد كل خطاياى .. اتخذت قرارى بالنسبة للينيو ، وحدث نزاع بينى وبين سيدى ، وقصدت الجبل أنشد الخلوة بعيدا عن الغواية . قلت لنفسى « هنالك فوق الجبل حيث الهواء نقيا ، سأنذر نفسى للمسيح(. .... ثم فى اللحظة التى تهيات فيها لاتخذ طريقى صاعدا وكنت قاب قوسين أو أدنى من الخلاص .. آه ويا للعجب .. هنالك عند بئر القديس بازل ، عند مشارف القرية كان الشيطان ينتظرنى »

وتنهد مانولى · بدأ وجهه ينز ثانية ، ومسحه بمنديله · ظل واجما لفترة طويلة ، ويداه ترتجفان كأن بهما حمى ·

وقال القسيس :

ـ تشجع يا مانولى فانى آثم كبير ، خطاياى تفوق خطاياك . سأعترف لكم يوما ما ، وسوف تقشعر أبدانكم فرقا · أنا ، هذا القسيس الماثل أمامكم ، لطخت يدى بدم انسان · تملكنى الشيطان ذات يوم : كنت لا زلت فى ريعان شبابى ، وحرارة الشباب تسرى فى دمى · كنت راعيا ، ونزلت الى القرية لأحتفل بعيد القيامة مع بعض أصدقائى . واخذت معى حملا لنشويه على السفود (كان الوقت ظهرا ، والأشجار مزهرة ، والأرض تتضوع عطرا · واتخذنا مجلسنا مع أهل القرية فوق العشب · أوقدنا النيران ، وتهيأنا لكى نشوى حملان عيد القيامة على السفود . وبدانا كما هى العادة بوضع سقطها فوق الجمرات حتى نأكلها أولا الى حين يتم الشواء · وأكلنا الكبد والأمعاء مزة مع كئوس النبيذ ، ومع الشراب اشتدت حميتنا · وبعد أن نضج الحمل طرحناه على ظهره فوق العشب ، أمسكت بسكين كبير وشحذته ، ثم هممت لأشق البهيمة · وفى هذه اللحظة عينها وسوس الى الشيطان بأن أصيح وأنا اقهقه عاليا : « آه ، لو ان ثمة قسيس هنا لقطعت رقبته ! » كان الشيطان كما أقول لكم ، هو الذى حرضنى على أن أقول هذا ، وهو الذى تحدث بلسانى · ذلك لأننى قسيس ، وكنت أجل القسيسين · اعتدت كلما ابصرت أحدهم فى الطريق ان أهرول نحوه وأقبل يده · ولكننى قلت ذلك وبهذه الصورة على سبيل الدعابة ، فقد شربنا وانتشينا · واذا بفلاح يجلس الى جوارى مخمورا مثلى ، سمعنى وصاح بى ضاحكا : « ثمة قسيس وراءك . نفذ كلمتك ان كنت رجلا ! » واستدرت ، وأبصرت قسيسا ، فانقضضت عليه وقطعت رقبته »

رسم القسيس فوتيس علامة الصليب · وظل الجميع صامتين فى وجل . غاص كل منهم في أعماق نفسه ، يبصر ذاته ويرتجف ·· كم من جرائم القتل ، وكم من الفضائح ، وكم من الأعمال المشينة تضطرم فى أعماق نفوسنا ! اننا نلتزم الخير خوفا · تظل شهواتنا طوال حياتنا دفينة مهتاجة محتدمة الأوار تسمم دمنا . ولكننا نكبح جماح النفس ، نخدع جيراننا ونموت كرماء فضلاء · لا نقترف اثما فى وضح النهار طوال حياتنا · ندعى الفضيلة خداعا ولكننا لا نخدع الله فالله خير الماكرين .

واخيرا قال ميشيل بصوت مخنوق تنكره عليه :

ـ أنا ، أنا أكثركم شرا يا أبانا ، اذا سقط أبى مريضا استشعر بهجة شيطانية · يهب شيطان بداخلى ويرقص طربا ، ذلك لأننى ضيق بأبى ، أراه عقبة فى طريقى ، وأتمنى له الموت · ليمت ـ هذا الرجل الذى أتى بى الى العالم والذى أحبه ! لست أدرى كيف تكون نفس الشرير ، ولكن نفس الرجل الأمين ، الرجل الصالح هى الجحيم ! جحيم تسكنه الشياطين · ان كل من يخفى الشياطين داخل ذاته ، ويحول دونها والقفز الى خارجها لتقترف أفعالا منكرة ، ان تسرق أو تقتل ، كل هؤلاء نسميهم أناسا أبرارا ، ومسيحيين مخلصين ·· ولكننا جميعا فى أعماق نفوسنا ، أستغفر الله ، مجرمون وقتلة ولصوص !

واجهش ياناكوس بالبكاء · نظر هو الآخر الى أعماق ذاته فارتاع من هول ما رأى · ومد القسيس يده وقال :

ـ يا أطفالى ، سيأتى دور كل منا ليعترف .. الآن دور مانولى . لقد فتح لنا قلبه ، فاغلقوا قلوبكم · دعوه ينهى ما بدأ ·· تكلم يا مانولى· هل رأيت الآن ؟ هل فهمت ؟ كلنا أسوأ منك · أنا القسيس ، وميشيل الرجل البار المحسن ، وفخر قريتكم !

مسح مانولى عينيه اللتين أغرورقتا بالدموع · واستجمع شجاعته ، وواصل حديثه :

ـ كان الشيطان جالسا يا اخوتى عند حافة البئر يبتسم لى: كاترينا الأرملة ، عاهرة قريتنا . زينت شفتيها بالخضاب ، وفتحت بعض صدرتها ، وامتد بصرى حتى لمح حلمتى ثدييها ، وتدافع الدم الى رأسى ، وأصابنى دوار . تحدثت الى فى ضراعة ، ولم تكن فى نفسى رغبة الا فى شيء واحد فقط ، ان أهم بها والقى بنفسى فوقها . لولا خوفى من الناس ، وخوفى من الله .. ففررت هاربا .. هربت من أمامها ولكننى أخذتها معى فى فكرى ودمى . ولم يفارق طيفها أحلامى ليل نهار · وتظاهرت بأننى أفكر فى المسيح ، كذب وبهتان ، انها هى من كانت تشغل فكرى ·

وذات مساء أحسست اننى لم أعد أطيق صبرا ، واغتسلت ، وتمشطت ، واخذت طريقى الى القرية .. كنت قاصدا الأرملة . حدثت نفسى قائلا : « اننى ذاهب اليها لأنقذ روحها · سأتحدث اليها وأهديها الى طريق الرب .. « كذب ! كذب ! كنت ذاهبا اليها متلهفا على مضاجعتها · ثم ····· »

وتوقف مانولى ثانية عن الحديث ، كان يلهث . التفتوا كلهم نحوه وتطلعوا اليه في حنان . تغير مانولى أمام عيونهم . اذ كان يسيل من لحم وجهه المنتفخ سائل عكر يتجمع ويتجلط قطرة قطرة فوق شاربه ولحيته .

أمسك القسيس بيد مانولى بين راحتيه ، يربت عليها ، وقال لينهى كلامه :

ـ ثم جاء الخلاص .. افهم الآن يامانولى . أدركت الآن الطريق الخفى الذى سلكه الرب لخلاصك . انها لمعجزة عظيمة يا اخوتى ! من ذا الذى يستطيع أن يرجم بالغيب ويظن بنفسه القدرة على معرفة السبل الخفية الغريبة التى يأتى منها الخلاص لأرواحنا .. ؟

ثم فجـأة أكمل حديثـك يا مانولى ، فقد نال منـك التعب ـ ثم فجأة أحسست بوجهك ينتفخ ، يكسوه لحم مقزز ، ويصير جرحا كريها .. ليس بشيطان يامانولى هذا الذى استقر على وجهك . ان الله هو الذى الصق هذا القناع على وجهك لينجيك . انه كان بك رءوفا رحيما .

وتمتم قسطندى :

ـ انا لا افهم شيئا . لا افهم شيئا .

وتمتم كل من الصديقين الآخرين :

ـ ولا أنا .. ولا انا .

اما مانولى فقد ظل وحده صامتا يتنهد .

وربت القسيس فوتيس على يد مانولى ، كأنه يود لو استطـاع أن يشاركه آلامه .

ـ كنت فى طريقك الىالهاوية يامانولى ، كنت على شفا هوة وتوشك أن تتردى فيها فثبت الله هذا اللحم على وجهك ليوقفك . كنت فى طريقك لتقترف اثما ، تدخل مخدع الأرملة ، ولكنك الآن كيف لك أن تتطلع اليها بوجه كهذا ؟ وكيف لها أن تتطلع هى اليك ؟ احسست بالخجل فقفلت عائدا من حيث أتيت . وتحققت لك النجاة لحظة أن عدت ادراجك .

اخفى مانولى وجهه فىمنديله الكبير . ولاذ بالصمت . كان صدره يهتز من أثر النشيج . وغمغم قائلا :

ـ الحمد الله .

ثم لاذ بالصمت ثانية .

نكس الأصدقاء الثلاثة رءوسهم أيضا والهلع يقتلهم . اقشعرت أبدانهم ، اذ أحسوا أن الله يسد علينا السبل كليث يحاصرنا . تحس أحيانا بأنفاسه ، وتسمع زئيره ، وترى عينيه الثاقبتين تخترقان الظلام.

ويبدو أن القسيس خمن ما يدور بخاطرهم . فقال لهم :

ـ يا اطفالى ، ثمة عين بداخلنا مفتوحة ليل نهار ترقبنا . وثمة اذن مفتوحة فى سويداء قلوبنا تسمعنا : هى الله .

وصاح ميشيل :

ـ كيف يتركنا الله نعيش على ظهر الأرض ؟ لماذا لا يقضى علينا ويطهر الخلق ؟ .

وأجاب القسيس :

ـ لأن الله يا ميشيل صانع خزف ، يصنع مخلوقاته من طين .

ولكن ياناكوس أحس بصبره ينفد .

ـ جميل جدا حديثك يا أبانا . ولكن معنا الآن رجل مريض . الا تستطيع أن تضع يدك عليه وتصلى من أجله ؟ ألا نستطيع نحن جميعا أن نصلى معا وندعو الله الرحيم أن يشمله برحمته ؟

وأجاب القسيس فوتيس :

ـ مانولى ليس بحاجة الى صلاة مثل ما هو ليس بحاجة الى تعاويذ أو تمائم . ان صلوات الآخرين لن تجدى معه . فالخلاص يعمل بداخله ليل نهار ، فى بطء وداب . ألم تروا ياأخوتى كيف تدخل الدودة شرنقتها المحكمة الغلق وتختفى بداخلها اذا حل فصل الشتاء ؟ يتشوه راسها وتصير فظة المظهر ، وتلبث فى مكانها جامدة ، ويتم خلاصها رويدا رويدا وسط الظلام وفى داخل أحشائها . اذ يختفى وراء كل هذا القبح وبر خفيف ، وعينان براقتان ، وجناحان . وفى صبيحة يوم من أيام الربيع الجميلة تثقب الشرنقة وتخرج منها فراشة . وهكذا يعمل الخلاص بداخلنا وسط الظلام .. تشجع يامانولى ، سر على دربك ، فوراء وجهك يكمن الخلاص . تشجع وكن على ثقة ! .

ورفع مانولى عينين ضارعتين تطلع بهما الى القسيس وساله :

ـ والى متى أنتظر يا أبانا ؟

ـ هل تتعجل يا مانولى ؟

وأجاب مانولى فى خجل :

ــ لا ، لا ،وقتما يشاء الله .

وقال القسيس :

ــ ان الله لايتعجل أبدا . انه ساكن ، يرى المستقبل كأنه ماض ، اذ أنه يعمل فى نطاق الأبدية . المخلوقات الزائلة التى لا تدرى ماذا سيحدث غدا هى وحدها التى تتعجل بدافع من الخوف والقلق . دع الله يعمل فى صمت ، ولتكن مشيئته . لا ترفع رأسك ولا تسائل . فكل سؤال خطيئة .

كانت الشمس في منتصف طريقها ، تسقط أشعتها عمودية قطرة قطرة فوق الرءوس الخمسة المتدانية ، اذ اقتربوا من بعضهم البعض فى مودة صامتة .

وفجأة صاح ناى نيكوليو فوق المنحدر الآخر للجبل ، طروبا ، دفاقا ، شجيا . وقال ميشيل وعلى شفتيه ابتسامة :

ــ نيكوليو .. هو الآخر يقاسى ويحاول ان يخفف عن قلبه .

أرهفوا جميعا السمع وأنصتوا . كان لحن الراعى يتكلم ويضحك ويرقص وسط هذا الهجير . واذا بفراشة مرقشة بلون برتقالى ترف بجناحيها لحظة حول الرءوس الخمسة ثم تهبط فوق شعر القسيس فوتيس . خفقت بجناحيها ، ودست خرطومها بين الشعر الأشيب اذ حسبته نوتا شوكيا مزهرا . ثم طارت عنه وحلقت عاليا جدا واختفت فى ضوء الشمس .

وبعد لحظات ارتفع صوت مانولى :

ــ يا أبانا ، يا اخوتى ، أسألكم الصفح ، وعسى الله أن يغفر لى ! انى آنس راحة الآن وكأن ثقلا عظيما قد انزاح عن قلبى . ها أنذا بفضلك يا أبانا أرى وأفهم وأرضى ! أخال أوجاعى الآن كأنها صليب أحمله ،و أصعد به راضيا مستسلما . واعرف أن الصلب بعده القيام. ترى هل ستكون لدى القدرة على حمل صليبى ؟ أعينونى يا أصدقائى حتى لا أسقط ! .

ونهض الأب فوتيس وهو يقول :

ــ كلنا يد واحدة . كنت اتحدث هذا الصباح الى عشيرتى فوق الجبل ، لأننا ايضا نصعد الجبل راضين مستسلمين وعلى كتفنا صليبنا

الثقيل ، نتعثر ونشكو ونمل .. تحدثت اليهم وصحت بهم قائلا : « كلنا يد واحدة ، فبذلك يكون خلاصنا ! » .

وقال باناكوس :

– ولكن في هذه الحالة فان الألم والمرض والخطيئة ......

فقال القسيس :

– وهكذا تستطيع الديدان داخل شرنقتها ان تتحول الى فراشات.

وتذكر ما كان يقرأه الأصدقاء الأربعة فقال لهم :

– « طوبى للحزانى لأنهم يتعزون » .

وقفز مانولى في نشوة غامرة : فالقسيس سيفسر له الكلمة الصعبة

– يا أبانا . ما معنى « يتعزون » .

– أولئك الذين سيجدون السلوى . سيجدون دواء لأسباب معاناتهم .. أى طوبى لكل من يعانون لأنهم سينعمون برحمة الله الواسعة . أما أولئك الذين لا يعرفون المعاناة فلن ينعموا بتلك البهجة السماوية . انظروا اى خير قدسي فى المعاناة .. هل تعى ذلك يامانولى ؟

ولكن مانولى اشتد به الاعياء فترك نفسه يسقط فوق كتف ميشيل . اغمض عينيه واسترخى ثم اغفى واستسلم فى وداعة للنوم .

رفعه رفاقه في حنان وأرقدوه على حصير ثم خرجوا في هدوء .

وقال القسيس :

– تنزلت العناية الالهية على مانولى فى صورة نوم . لنتركه وحده يا أبنائى فى رعاية الله .

وأخذوا طريقهم الواحد وراء الآخر ونزلوا صامتين ، القسيس يتقدمهم ، حاسر الرأس ، وشعره الأشيب يرفرف فوق كتفيه .

* * *

قبيل المساء فتح مانولى عينيه فأبصر رجلا جالسا بجورا فراشه يرقبه فى الضوء الكابى ، يحدق فيه بعينين ضاريتين مسجورتين متفرستين فى حذر واستغراب . وكانت تفوح من فمه رائحة الخمر نفاذة قوية . ابتسم له مانولى وقال :

– مرحبا بالأخ بانايوتى .

لم يجب بانايوتى . وانما مال برأسه الضخم الأشقر فوق مانولى

يحدق فيه بعينيه ، ويمط شفته السفلى ، فتكشف عن أسنان كبيرة صفراء حادة .

وسأله مانولى وهو يرتجف ، اذ حسب نفسه فريسة حلم كئيب .

ـ هل تريد منى شيئا ؟

فتح بانايوتى فمه بصعوبة ، وخرجت كلماته مدغومة متعثرة :

ـ أنا هنا منذ ساعة منحنيا فوقك ارقبك .

واعاد مانولى سؤاله :

ـ هل ثمة ما تريده منى يا أخى ؟ لماذا تنظر الى هكذا ؟

وخار بانايوتى فى غضب :

ـ لا أستطيع أن أنظر اليك الا هكذا ... لا أستطيع .

ثم قال على الفور :

ـ سيكون موتى على يديك يامانولى !

جلس مانولى على حصيره وقال :

ـ أنا ؟ أنا ؟ ماذا فعلت لك ؟

ـ فعلت أسوأ ما يمكن أن يفعله بى انسان ، عليك اللعنة . قتلت فى نفسى كل بهجة عرفتها فى حياتى ، أنا الانسان التعس. لم أعد أطيق احتمالا . أتيتك بهدية . انتظرتك حتى تصحو من نومك ثم أقدمها لك ـ خذها .

ودس يده فى قميصه واستل سكينا كبيرا ، ووضعه على ركبتى مانولى .

وغمغم قائلا :

ـ خذها ، خذها عليك اللعنة واقتلنى . ضع خاتمة لفعلتك التى بدأتها ، انك ستعمل عملا طيبا . اقتلنى !

وصاح مانولى :

ـ بانايوتى ، أخى ، ماذا فعلت بك ؟ لماذا تتحدث الى هكذا ؟ أنا أقتلك ؟ »

وحاول أن يمسك بيده ، ولكن بانايوتى دفع ذراع مانولى بعيدا فى هياج . وزأر :

ـ « لا تلمسني . دع كلماتك الرقيقة فانها تثير اشمئزازي . اقتلني . قلت لك ضع خاتمة لفعلتك التي بدأتها . ماذا أفعل بحياتي الآن اقتلني ! » .

واجهش مانولي بالبكاء .

وتمتم ثانية :

ـ « باناليوتي ، ماذا فعلت ، ماذا فعلت لك يا أخي ؟ »

وأجاب باناليوتي :

ـ لي أناس يعملون لحسابي . يتبعون كاترينا حيثما تذهب . ثمة امرأة عجوز تسكن بجوارها استأجرها . تتوارى وراء بابها ليل نهار ترصدها . رأتك في ليلة قريبة تدخل بيتها متلثما . مكثت معها ساعة وبضع الساعة . ومنذ تلك الليلة ترفض كاترينا أن تفتح لي بابها ، وهي دائمة البكاء ، هكذا قالت لي المرأة ... تبكي من ؟ من أجل من عزفت عن الطعام وبدأت تذوي؟ من أجل من تأبى أن تفتح بابها لي ؟ من أجلك أنت ، أنت ، أيها المسخ ، يا من تعافك نفس كل من ينظر اليك ، أنت ! أنبأوني بحالتك التي صرت اليها ، وسررت لسماعي النبأ . حدثت نفسي قائلا : « الآن تخلصت من هذا الوغد الذي يلعب أمامنا دور القديس عندما تراه كاترينا ستشمئز لمرآه وتتخلص منه . وهكذا سأتخلص منك أنا أيضا » .

« ورغم هذا لم تخجل من ذهابك اليها وأنت على هذه الحال ، ومكثت عندها ساعة ونصف . أي سحر هذا الذي سحرتها به ، هه ؟ ها هي بدلا من أن تشمئز منك اذا بها لا تستطيع أن تسلوك . تلطم وتبكي منادية باسمك أنت أيها المجذوم القذر ! لا جدوى من ضرب زوجتي كل يوم ، فلم يعد هذا يخفف عني شيئا . أطأ ابنتي تحت قدمي دون أن أستشعر راحة . أغلقت ورشتي ، وأدمنت الشراب ، وأصبحت أهيم على وجهي في الطرقات والصبية في ذيلي يقذفونني بكلمة تحز في قلبي كأنها سكين ... وأنت تعرف هذه الكلمة ... تعرفها ! لعن الله تلك الساعة التي ناداني فيها هذا القسيس ، ذو اللحية التي تشبه لحية التيس، بتلك الكلمة هناك في حانوته القذر. فمنذ ذلك اليوم وأنا محطم النفس .

ـ اني محطم النفس ، لم أعد أطيق احتمالا ، وأتيتك مع المساء

بهذا السكين · قم يامانولى ان كنت رجلا واقتلنى ! انى أقبل يدك ، أقتلنى ففى ذلك راحتى ·

أحنى مانولى رأسه بين ركبتيه ولم يعد قادرا على أن يكتم نشيجه· وسأل نفسه :

ـ ماذا أستطيع أن افعل · كيف لى أن أنقذ هذه الروح الضارية التى تكابد الحب ؟

وصاح بانايوتى وقد جن جنونه :

ـ دع البكاء أيها الدمية · خذ السكين كما أقول لك ولا تخف · لقد شحذتها جيدا وهاك عنقى فاقطعه ·

ومد رقبته الطويلة الى مانولى ·

وساله مانولى :

ـ لماذا لا تقتلنى أنت ؟

وأجاب بانايوتى فى قنوط :

ـ أى خير لى فى قتلك ؟ ستزداد تعاستى ، سأخسر بذلك كاترينا الى الأبد · قتلك لى فيه وحده خلاصى ، وسآخذك معى الى الجحيم ·

وانخرط في نحيب ·

بكى كثيرا وهو يخور كما يخور العجل ، ورقبته لا زالت ممدودة ·

وأخذه مانولى بين ذراعيه وهو يبكى مع بكائه وتحدث اليه قائلا :

ـ بانايوتى ، أسألك الصفح يا أخى ، أسألك الصفح ، لن أرها بعد اليوم، لن أقف ببابها ثانية لأدخل بيتها، أنا الذى سأموت وتتخلص أنت منى · أنا ، أنا ، أنا ، أقسم لك · أنا الذى سأموت · الا ترى حالى التى صرت اليها ؟ لقد تهرأجسدى · أنا الذى سأموت يا أخى ، لا تبك ·

ولكن بانايوتى استمر فى خواره · وانتزع رقبته فى عنف من بين ذراعى مانولى ، وهب واقفا · وخطا خطوتين ناحية الباب وهو يترنح · حاول أن يجتاز العتبة بيد أنه تعثر وسقط على الأرض سطيحا ·

واندفع مانولى نحوه لينتشله ، ولكنه سبقه واعتدل واقفا · وسار يترنح مخمورا للغاية حتى بلغ الباب وهو يخور ·

وفى هـذه اللحظة ظهر نيـكوليو مع قطيعه • اندفع بانايوتى نحو الأغنام وأخذ يتعقبها ويقذفها بالحجارة وهى تجرى أمامه مذعورة •

وصاح نيكوليو فى غضب :

ـ ايه ، ايه ! دع أغنامى فى سلام !

ولـكن باناپوتى أخذ يلتقط الحجارة من على الأرض ، يقذف بهـا الأغنام وهو يسب ويلعن •

واستصرخ الراعى الصغير كلابه •

ـ عليه ••• عضوه ، عضوه •

وأخذت الكلاب تعدو وراءه ، ولسانها يتدلى من بين فكيها •

اندفعت الكلاب نحو باناپوتى الذى أسند ظهره الى صخرة ليلتقط بعض الحجارة الكبيرة ويقذفها بهـا • أحدقت الـكلاب بباناپوتى وهى تنبح ، وبدأ هو الآخر ينبح ، واندفع نحوها ، ولكن خانته قدماه وخر الى الأرض • تحامل على نفسه ليقف ، بيـد أنه سقط ثانية • انقضت عليه الكلاب المهتاجة ، نشب كلب أنيابه فى ساقه ولم يتركه يفلت من بينهـا ، ووثب آخر فوق رقبته وعض ذقنه : واصطبغت لحيـة باناپوتى بلون الدم الأحمر •

وصاح نيكوليو فى ثورة :

ـ عليه ••• غليه •••

سمع مانولى الصياح والنباح، فخف مسرعا الى باناپوتى لنجدته• كان الراعى الصغير يتطلع الى المشهد ضاحكا •

وصاح بمانولى :

ـ دعها يا سيدى ، دعها تأكله !

نادى مانولى الكلاب وأمسك بعصـا وطردها بعيدا ثم استدار الى باناپوتى ليأخذ بيده • ولـكنه كان قد لاذ بالفرار ينزل المنحدر وهو يصرخ •

اعتلى نيكوليو الصخرة المرتفعة ، ووضع راحتيه حول فمه وصاح بأعلى صوته :

ـ يهوذا ••• يهوذا •••

وردد الجبل صدى صيحته •

وصاح مانولي :

ـ أسكت · ألا تشعر بالأسى له ؟

وعاود نيكوليو صياحه وهو يقذف حجرا بكل ما أوتى من قوة :

ـ يهوذا !

كان الليل يزحف ، دهم سفح الجبـــل ، وأخذ يتقدم صاعدا الى قمته · وبدأت الظلمة تلف الكون · وربضت الكلاب عند قدمى نيكوليو تلعق جراحهـــا · ووقف الكبش الكبـــير داسوس باليته الشحيمة عند مدخل المرعى · أخذ يصل بجرسه بطريقة أبوية ، وينتظر القطيع حتى يتجمع ثانية خلفه ليبدأ رحلة العودة الى الحظيرة ·

عاد مانولى الى الكوخ · وأخفى السكين المسنونة تحت وسادته ، ثم علق أيقونة الصلب على الجدار فوق حشيته ·

وتمتم قائلا :

ـ يا الهى ، ضع يدك على قلبه وامنحه الشفاء · هو أيضا يعانى، وأنت صاحب القوة المكين ، ارفع عنه العذاب وهبه من لدنك العزاء !

***

جريمة قتل في القرية

انقضت أيام منذ أحد الاعتراف ـ كما أسموه فيما بعد ـ وهو اليوم الذى فتح فيه مانولى قلبه ، وتخفف مما يثقله ·

كانت الشمس فى عليائها والأرض من تحتها تعملان معا فى توافق ودأب طوال هذه الفترة على انضاج الحب · يبست السنابل الممتلئة لبنا · وصبغ الخشخاش الحقول بلونه الأحمر · وجمعت الطيور المغردة شعرا وقشا وطينا لتبنى أوكارها · رقدت الأنثى فوق البيض باسطة عليه جناحيها ، وجثم الذكر أمامها فوق غصن شجرة يغنى لها مشجعا · وبين حين وآخر يتساقط الرذاذ ، عزيزا بعد طول انتظار ، فينعش الأرض ببعض الرطوبة ، ولكن سرعان ما تعود الشمس الى الظهور ، تطارد السحب لتواصل عملها القديم قدم العالم فى خدمة الناس الطير ·

أكل الشيخ بطرياركاس وشرب ، وتشاجر أيضا : حينا مع لينيو التى استبدت بها رغبة مجنونة فى الزواج ، فأهملت أعمال البيت ، لتقضى كل وقتها فوق الجبل ، وحينا آخر مع ابنه الذى أقبل على القراءة كأنه شيخ من فضلاء المجتمع أو راهب فاشل ·

كان يزجره قائلا :

ـ القراءة جعلت لعامة الناس والمدرسين ، أما ابن كبير الأعيان فقد

خلق لحياة الترف والخمر المعتقة وزوجات الآخرين ٠ أنت عار أسرتنا يا ميشيل ٠

يراه يخرج بين حين وآخر لزيارة ماريورى خطيبته ، ولكنه يعود كل مرة أكثر حزنا ووجوما ٠ ويهز الشيخ رأسه فى ازدراء ٠ ويحدث نفسه : « اعتاد أبى أن يمتطى صهوة جواده ويطوف بالقرى حيث يلقى عشيقاته ٠ يعقل دابته فى حلقة بالباب ، واذا أبصر الزوج مطية أبى فانه يغير اتجاهه وينتظر حتى ينصرف أبى ثم يعود الزوج الى بيته٠ وأنا أيضا كانت لى عشيقاتى ، اعتدت أن أذهب اليهن فى هدأة الليل كلص واستمتع بحظى من المجون ٠ أما هذا الولد فله خطيبة أحسب انه لم يلمس منها ، أستغفر الله ، أكثر من أطراف أناملها ٠ كيف لها هذه المخلوقة التعسة أن تحتمل الذبول ، وصدرها المريض ؟ المرأة ريحانة جميلة : اذا لم تتعهدها بالرى ، ذبلت ٠٠ يقينا ستنتهى سلالة بطرياركاس الى مآل سيء ، لقد محيت معالمها ، انها على وشك أن تزول ! ٠

والعجوز لاداس لا يرى ياناكوس حتى يستوقفه ويقول له :

ـ هات ياياناكوس الجنيهات الثلاثة ، هاتها بفوائدها ، والا فمن الخير لك أن تعرف أيها الصعلوك أنى سأجبرك على بيع حمارك ٠ أنا أيضا فقير مسكين ، فلا تحاول أن تخرب بيتى ٠

وساءت الأحوال فى بيت القسيس جريجوريس ٠ مضت شهور على القرية بغير زواج أو تعميد ، ولم يستجب واحد من أهل القرية لداعى الموت ٠ وحفار القبور لا يبرح واقفا عند مشارف الجبانة يضع راحته فوق عينيه يتطلع الى القرية ، فلا يبصر أحدا ، ويرهف السمع : وأجراس الحداد خرساء ٠

وهمهم قائلا :

ـ ألن يفكر الشيطان فى انتزاع روح واحد أو اثنين ٠ سيقتل الجوع أطفالى ٠

ولزمت الأرملة بيتها ، وأغلقت بابها عليها ، فلم تعد تفتحه لأحد ٠ وبانايوتى يطوف ببيتها مخمورا ، يلقى بتهديداته عن يمين وعن شمال ٠ وتملكت الفتية شهوة حارقة ، وما عاد أمامهم منفذ ينفسون به عن عنفوانهم فبدأوا يتسكعون حول بيوت المحصنات من النساء ٠

وضج بالشكوى كل من لهم زوجات حسناوات :

ـ اللعنة على الأرملة ! تلعب الآن دور المرأة المحصنة ، وليس ثمة من يدفع الناس الآن عن بيوتنا · لم نعد نسمع سوى أغاني التشبيب تحت نوافذنا أثناء الليل وأطراف النهار ·· انّ شرف القرية في خطر !

وكل يوم يلتقي أهل القرية ساعة الأصيل في مقهى قسطندى ، بعد أن يكون التعب قد نال منهم كل منال في نضالهم مع الأرض ، ومن أجل رفع الماء لري الحدائق وبساتين الخضر خوفا من الجفاف · كانوا يدخنون النارجيلة ، ويتبادلون بضع كلمات قليلة في اعياء شديد ، ثم سرعان ما يخيم عليهم صمت ثقيل · ولم يشأ الحظ أن يواتي القرية ولو بمجنون يلهو أهلها بمشاكسته ، ويضحكهم · بل ولا حتى بغراب أو شحرور يصفر كما يصفر الانسان ويعينهم على ازجاء وقتهم · لا شيء غير التلاقي كل مساء في المقهى ، واليوم كالأمس ·

كان بانايوتي أحيانا يمر بهم مخمورا تماما ، بيد أنه لم يكن مصدر راحة لهم ، وذلك لأنه شرس الطباع · اذا ما أثقلت عليه يلتقط الحجارة ويقذفك بها في وجهك · ألم يحدث بالأمس فقط أن حطم نظارة ناظر المدرسة الذى تصادف وجوده في المقهى ، وتلقى منه حجرا أصابه بين حاجبيه ·

وكان الأغا بين الحين والحين اذا ما أصابه اكتئاب وألم به حنين غامض يدعو أهل القرية الى الرقص تحت شجرة السنار · ولكن كيف لهم أن يرقصوا بقلوب فارغة مكرهة ؟ ومن ثم كان رقصهم يفتقد البهجة · فسرعان ما يمله أهل القرية ، وينصرفون عنه ليدخنوا النارجيلة ويملأوا المقهى بهمسات كظيمة · واذا سكر أحدهم أو كسرت ساقه أو وجد لصا في بستانه ، يعلو الضجيج حول هذا الحدث ، ولكن للحظة قصيرة ، ثم سرعان ما يخفت الضجيج ، وترتد القرية الى صمتها الثقيل ·

* * *

لكن وياللهول ، فذات صباح جميل ، طلع على الناس خبر مروع ، سرعان ما تناقلته الألسن وطرق الأبواب يبذر الهلع : « وجد يوسوفاكي مقتولا في مخدعه عند الفجر » ·

وعندما أسفر الصبح ، انسلت من بيت الأغا مارثا ، جاريته العجوز · خرجت وجسمها يرتعد فرقا ، قاصدة صديقة حياتها الخالة ماندالينيا ·

وما ان أغلقت الباب وراءها حتى صاحت قائلة :

ـ هلكت القرية .. هلكت القرية يا عزيزتى ماندالينيا ؟ وجـد يوسوفاكى مقتولا .

ـ من ذا الذى جرؤ على قتله ؟ انك أتيتيننى بخبر كأنه الصاعقة ستحرقنا جميعا . من فعل ذلك يا عزيزتى ؟

ـ لم يكن فى البيت أحد مساء أمس : لا أحد سوى الأغا ويوسوفاكى وحسين وأنا .. لا أحد سوانا ! إسرعى كى تنذرى المسيحيين ليأخذ كل منهم حذره ، ويهرب كل من يستطيع منهم الهرب لينجو بنفسه .. فى نفسى شكوك .. أشك ولكننى لست على يقين ، لذا لا داعى للكلام .

وما ان فرغت من كلماتها هذه حتى انسلت عائدة مقوسة الظهر ، تسير بمحاذاة الجدران الى أن دخلت بيت الأغا وأغلقت الباب بالرتاج .

أمسكت العجوز ماندالينيا بمنديلها الأسود وخفت الى أهل القرية ، تنتقل من باب الى باب تبذر الفزع ممزوجا ببهجة خفية مستترة . هجر الرجال أعمالهم وتجمعوا فى المقهى ليروا ما قد يحدث . كانوا يختلسون النظرات الى شرفة الأغا . الأبواب والنوافذ كلها موصـدة . وبين الحين والحين تتناهى الى سمعهم أصوات صرخات حادة عاتية أو طلقة مسـدس أو قعقعة شىء يتحطم تحت الأقدام . ثم يعود الصمت ثانية .

والتقى الأعيان وشيوخ القرية فى بيت القسيس جريجوريس ،والهلع يتملكهم . وقلب الشيخ بطرياركاس يكاد يتصدع من الروع .

طفق يقول وقد زادت تهتهته :

ـ اذا لم نعثر على القاتل فانا هالكون . سيلقى الأغا بنا جميعـا فى السجن . واذا كان مخمورا فربما يرسلنا الى المشنقة .

وتنهد العجوز لاداس :

ـ سيلزم كلا منا بدفع دية القتيل .

وقال ناظر المدرسة :

ـ سيغلق المدرسة والكنيسة ويضطهد سلالة الاغريق .

وكان القسيس جريجوريس يذرع الفناء جيئة وذهابا ،ويحرك حبات مسبحته فى عصبية . أحس وكأن القرية كلها معلقة برقبته . ظل يحدث نفسه قائلا :

ـ إنا مسئول عن هذه القرية . ائتمننى الله على أرواح أهلها .أمرنى

سبحانه قائلا : « خذ حملانى وارعها » اذن لا مناص من البحث عن القاتل ومعرفته ٠

طاف بكل أهل القرية يسألهم الواحد بعد الآخر لعله يهتـــدى الى قاتل هذا الغلام التركى اللعين ، ولكن دون جدوى ٠ وتفكر وتدبر ولكن عبثا ٠٠ الشيء المؤكد أن القاتل مسيحى ، فليس ثمة بالقرية سوى ثلاثة من الأتراك ـ الأغا وحارسه ويوسوفاكى ، ومن عداهم فهم مسيحيون : « الويل لنا لو كان القاتل مسيحيا ، ستضرم النار فى القرية كلها وتعمها المذابح ٠

ووصل قسطندى مقطوع الأنفاس :

ـ الأغا يجول بناظريه بين البيوت ، يلوح بمسدسه ويطلق النار على كل ما تبصره عينه ، ويحطم كل ما تصل اليه يده فى بيته ـ المقاعد ودمجانات العرقى والجرار ـ ثم يلقى بنفسه فوق جثة يوسوفاكى وينخرط فى نواح وعويل ٠ هذا ما أنبأتنى به مارثا العجوز ٠٠

وانفتح الباب مرة ثانية ودخل ياناكوس ٠

ـ خرج حسين الى الشرفة ونفخ فى النفير ٠

وظهر ثالث :

ـ أرسل الأغا مناديا يجوس خلال القرية ٠ انه الآن بالميدان ليعلن شيئا ما ٠

ـ ماذا يقول ؟

ـ لم أع شيئا مما قال يا أبانا ٠ التقطت أذنى بعض أسماء ولكننى لا أذكرها ٠

وزمجر الشيخ بطرياركاس وقد انتفخت عروق رقبته حتى تكـاد تتمزق :

ـ اذهب الى الجحيم ٠

وقال القسيس جريجوريس آمرا :

ـ ليذهب أحدهم ويأتنا بالأخبار ٠ اذهب أنت يا ياناكوس ٠

فى هذه اللحظة ترامى الى سمعهم صوت المنادى يقترب ٠ وهرول الجميع الى الباب وفتحوه ٠ توقف المنادى عنـــد مفترق الطرق ، وتنحنح

ليجلو صوته ، وضرب الأرض بعصاه ، ثم اشرأب بعنقه · وارتفع صوته متموجا كمزمار رتيب · وفتح الجيران فرجة من أبواب بيوتهم خلسة :

ـ اسمعوا يا أهل القرية ، اسمعوا يارعايا ، افتحوا آذانكم واسمعوا جيدا ، أمر من الأغا : القسيس جريجوريس والأعيان : بطرياركاس ، ولاداس ، وحاجي نيكولا ناظر المدرسة ومعهم بانايوتي السروجي وشهرته آكل الجبس ويعرف أيضا باسم يهوذا ، عليهم جميعا أن يمثلوا فورا أمام الأغا في بيته · يجب على بقية الرعايا أن يلزموا جميعا بيوتهم · محظور التوجه الى الحقول ، كل منكم يلزم بيته وينتظر · اسمعوا يا رعايا ، اسمعوا يا أهل القرية ، ألا قد بلغت فاحذروا !

أوشك الشيخ بطرياركاس أن يخر الى الأرض منهارا ولكن أسنده قسطندى ، وأجلسه على الاريكة الحجرية · وخفت اليه ماريورى تهوى له · وارتمى لاداس على الحائط أصفر الوجه مثل الليمونة ، فاغرا فاه · أشفق عليه ياناكوس فدنا منه وقال له :

ـ تشجع يا سيدى يا عضو مجلس الاعيان · هل من وصية توصينى بها أنفذها لك ؟

نظر اليه العجوز نظرة بلهاء ، وسأله واللعاب يسيل من فمه :

ـ هل هو أنت ياياناكوس ؟ من أنت ؟

ـ طبعا هو أنا ، أنا ياناكوس البائع المتجول · كنت أسألك ان كان ثمة ما توصينى به لأحمله من اجلك ·

ودبت الحياة فى عينى لاداس العجوز ثانية وقال :

ـ أيها التعس · هات الجنيهات الثلاثة والا فالويل لك منى !

دخل القسيس فى هذه الأثناء ، واضعا حول رقبته صليبه الفضى الذى نقشت على أحد وجهيه صورة الصلب ، وعلى الوجه الآخر صورة القيام · وكان ممسكا بعصاه الطويلة ذات المقبض المصنوع من الصدف · ووقف أمام أيقونة المسيح ، ورسم علامة الصليب · وتمتم قائلا :

ـ يسوع ربى ، هذه لحظة عصيبة ، أعنى وأعن المسيحيين · أبسط يدك المقدسة فوق القرية · أشدد من أزرى وقنى شر الهوان ·

وخر راكعا أمام الأيقونة ، وأخذ يحدق بعينيه فى وجه المسيح الهادىء الحالم ·

وعاه يقول :

ـ أعوذ بك يا يسوع من شر الهوان ٠

ثم رسم علامة الصليب ثانية ، وخرج الى الفناء ٠

وقال بصوت يتصنع الوقار والهدوء ٠

ـ هيا يا اخوتى ٠ تقدمنا يا شيخ بطرياركاس ، لا تنسى أنك عمدة القرية ورئيس أعيانها ٠ سيد القوم ليس من يأكل ويشرب أكثر من غيره وانما من يتصدر قومه فى ساعة الخطر ليذود عنهم ٠ وهذه هى اللحظة التى تثبت فيها انك سيد القوم حقا ٠ تقدم وأنت يا شيخ لاداس لا تجلب العار الى القرية ، كن شجاعا! لاتتباكى أمام الأغا ، تماسك كرجل شجاع٠ نحن أبرياء ، ولكن اذا اقتضى الواجب أن نموت فداء القرية اذن فما أعذب الموت . أنا أيضا أحب متاع الحياة الدنيا ولكننى أوثر عليه حياة السموات. نحن على العتبة الآن : الأرض من ورائنا ، والسماء أمامنا ، ولتكن مشيئة العلى القدير ٠ أما أنت يا حاجى نيكولا فليس عندى ما أقوله لك ٠ أفنيت حياتك تقص على الأطفال قصص أبطال الاغريق وشهداء المسيحية ، وحانت اللحظة التى ينبغى أن تذكر فيها كل ذلك وتثبته عملا ٠ لا تدع تلاميذك ينظرون اليك فيروك ممتقع الوجه ، ترتجف فرقا ٠ واجه الموت كبطل وشهيد ! هل نحن مستعدون يا اخوتى ؟ ٠

قال الشيخ بطرياركاس وهو يتحامل على نفسه لينهض :

ـ مستعدون ٠ لا تجزع يا أبانا ٠ الجسد فى خوف أما الروح ٠٠ لا ، لن أجلب العار لاسمى ٠

واستعرض القسيس جريجوريس رفاقه : « الأب لاداس حزامه مفكوك ، وسرواله يوشك أن ينزل ، تعال يا ياناكوس ، اربط حزامه وشده الى خصره بقوة حتى لا يجعلنا سخرية أمام الناس »٠

اقترب ياناكوس ، وشد الحزام بقوة حول خصر الشيخ لاداس الذى وقف رافعا يديه الى أعلى كطفل أسلم نفسه لمن يلبسه ملابسه ٠

ثم عاد القسيس وأصدر أمره ثانية :

ـ امسح له فمه أيضا ياياناكوس لأنه يريل ٠ الى اللقاء يا صغيرتى ماريورى متمنيا لك الصحة ٠

وقال حاجى نيكولا :

ـ نحن رءوس القرية وان العالم كله لينظر الينا ٠ هيا بنا باسم المسيح والاسكندر الأكبر !

ورسم كل منهم علامة الصليب قبل أن يجتاز العتبة · القسيس فى المقدمة وخلفه الأعيان الثلاثة ، وفى المؤخرة ياناكوس وقسطندى ·

وقال ياناكوس لقسطندى :

ـ لماذا بعث الأغا فى طلب بانايوتى المسكين هو الآخر ؟ ما شأنه هو بالأعيان ·

ـ قيل ان هناك من رآه فى منتصف ليلة أمس وهو يطوف ببيت الأغا مخمورا ويصرخ متوعدا ·

ـ ولكن ما علاقته هو بيوسوفاكى ؟ انه يلاحق الارملة ·

ـ أنى لى أن أعرف يايانا كوس ؟ لقد فقد الأغا صوابه وهو لا يدرى ماذا يفعل · أبلغتنى جاريته مارثا أنه يهدد بأنه سيخرج الى القرية على ظهر جواده ويقطع رأس كل من يلقاه من الكفار · اللهم احفظنا ·

كانت الأبواب تفتح خلسة ليشهد الناس أعيان القرية يتقدمون ببطء فى طريقهم الى بيت الأغا · وكان الجميع يرسمون علامة الصليب كأنما يمر بهم موكب جنائزى ·

وقال رجل عجوز :

ـ انى اغفر لهؤلاء الاعيان كل ما أكلوه أو اقترفوه فى حياتهم · ها هم الآن يدفعون ثمن كل هذا دفعة واحدة ، انهم يردون ديونهم ·

كانوا يسيرون فى تؤدة وتأن كأنما يودعون · وكان القسيس جريجوريس يتلفت حينا الى باب فتح خلسة ، وحينا يرفع رأسه الى نافذة ويقول :

ـ لا تخشوا شيئا أيها المسيحيون · الله أكبر ·

وتعلق الأب لاداس التعس بذراع الشيخ بطرياركاس ، وكان يقول له وقد أشرق بالدمع :

ـ يا سيدى الرحيم · كن بجانبى حتى تكون سندا لى ·

ورثى لحاله العمدة الشيخ ، فقال له :

ـ أخائف أنت ؟

وأجاب الأب لاداس بصوت واهن :

ـ نعم أنا خائف ·

وقال العمدة :

ـ وأنا خائف مثلك ولكننى أتظاهر بعكس ذلك • فهذا ما يقتضيه واجبى •

وهز الشيخ البخيل رأسه دون أن ينبس ببنت شفة •

ها هم الآن يمرون ببيت الأرملة ، فتحت كاترينا الباب واستشعرت رغبة فى أن تصرخ قائلة :

ـ « تشجعوا يا سادتى ، تشجعوا » ، ولكنها لم تجسر على ذلك •

لم يعرها أحد من الاعيان التفاتا • بل على العكس حثوا الخطى كأنهم يجتازون دربا دنسا ، ووضعوا راحتهم على أنوفهم •

لم يتوقف غير ياناكوس وقسطندى :

وقال قسنطندى :

ـ صباح الخير يا كاترينا • ألم تسمعى المنـادى ؟ ادخلى ، وأغلقى عليك بابك •

وسألها ياناكوس بصوت خافت :

ـ هل رأيت بانايوتى ؟ استدعاه الاغا أيضا •

وأجابت الأرملة :

ـ لم أره منذ زمن طويل يا جارى • ولكن لا بد وأنه يتسكع قريبا من هنا • فقد سمعته يصرخ منذ هنيهة • كان فى جدال مع حسين الذى حاول أن يقبض عليه •

وعاود قسطندى كلامه لها :

ـ ادخلى وأغلقى عليك بابك •

وواصلوا مسيرتهم • وعندما أشرفوا على الميدان ظهر ميشيل يعدو نحوهم ، واقترب من أبيه •

وقال الشيخ :

ـ ميشيل ، وداعا يا عزيزى •

وقال الابن وهو ينحنى على يد أبيه يقبلها :

ـ تشجع يا أبت •

واستدار القسيس جريجوريس وقال :

ـ عد يا ميشيل الى البيت ، وأنتما أيضا ، ياياناكوس وياقسطندى، فانا سندخل عرين الأسد ، ولكن الله سيدخل معنا • لا تخافوا •

كان باب بيت الأغا مفتوحا على مصراعيه · وقال القسيس :

ـ باسم المسيح !

ثم خطا بقدمه اليمنى ليجتاز العتبة · وتبعه الآخرون · وزلت قدم لا داس العجوز لكن العمدة الشيخ أمسك به ·

كان الفناء الواسع مهجورا يغطيه البلاط والعشب · وبغلة الاغـــا تطل برأسها من باب الحظيرة وهي تصهل · وكلب طويل الشعر يتمرغ فى الروث مد اليهم رقبته ونبح نباحا عنيفا لكن دون أن يجشم نفسه عنـاء النهوض من مكانه ·

وظهر حسين الحارس الخاص عند مدخل البيت ، ممتقع الوجه ، أحول العين ، كانت ذقنه ترتجف ، وظهرت بشاربه خيوط بيضاء ، اذ أنه لم يجد فى ذلك اليوم فسحة من الوقت ليصبغه بالصبغة السوداء · كان مرتديا زيه الرسمى كاملا كأنما اليوم يوم عيد · وتدلى سيفه الكبير من حزامه الأحمر العريض ·

وتجهم لمرآهم وعوى :

ـ اخلعوا أحذيتكم يا كفرة · الأغا ينتظركم ·

وأقبلت مارثا العجوز الحدباء وأعانت الاعيان على خلع أحذيتهم ثـم صفتها أمام الباب ·

وهمست لهم قائلة :

ـ تشجعوا يا سادة ، تشجعوا ·

وتساندوا على بعضهم ، وارتقوا سلما خشبيا ضيقا حتى بلغوا القاعة الكبيرة · كانت النوافذ كلها مغلقة باحكام · فلم تستطع عيونهم أن تميـز شيئا فى بادىء الأمر · ولكنهم استشعروا جميعا خوفا كأنما ثمة وحش كاسر يقبع فى ركن من الأركان يحدق فيهم بعينيه ويتهيأ للوثوب عليهم ·

وتشبث الشيخ لاداس وهو يرتجف بذراع الشيخ بطرياركاس · وخطا القسيس جريجوريس خطوة الى الأمام ثم اتبعها بأخرى ، وعيناه تبحثان فى الظلام عن المكمن الذى يتربص فيه الأغا · كانت القاعة عبقة برائحة العرقى والتبغ ، وتفوح فيها رائحة جسد بشرى عفن ·

وفجأة دمدم صوت مروع كأنه الزئير انبعث من ركن قصى على اليمين :

ـ يا كفرة !

والتفتوا جميعا ناحية الصوت ، وتبينوا مكان الأغا · كان جالسا فوق

حشية كبيرة ، مسندا ظهره الى الحائط ، ومسدسة الفضى الكبير معلق بحزامه وأمامه زجاجة كبيرة من العرقى ٠

وأجاب القسيس فى هدوء :

ـ طوع أمرك يا أغا ٠

وزأر الصوت ثانية :

ـ يا كفرة ! تعال يا حسين !

كان الحارس واقفا بالباب ينتظر أوامر الاغا ٠ خف اليه ، ووقف أمامه يتلقى أوامره :

ـ هات سيفك وانتظر !

وبدأ القسيس يتكلم ثانية :

ـ سيدى الأغا ٠٠٠

ولكن الأغا لم يمهله حتى يتم حديثه :

ـ يا كفرة ، أحدكم غرس سكينه فى قلبى ٠ حبيبى يوسوفاكى ٠٠

ولكن صوته احتبس ٠ خنقه النشيج ٠ وجفف دموعه بحركة مهتاجة ٠ وملأ كأس العرقى وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة ٠ وتنهد ، ثم قذف الكأس فارتطم بالحائط وتهشم وتناثرت شظاياه ٠

وصرخ :

ـ من الذى قتله ، هه ؟ لا يوجد فى القرية سوى الكفرة ، ومن ثم فان قاتله كافر من بينكم . هل هو أنت يا بانايوتى ، أيها البهيمة السكير ؟

وانبعثت من خلفهم فى الركن المقابل صوت كأنه الخوار ٠ فاستداروا واستطاعت عيونهم أن تميز وسط الغبش بانايوتى الضخم ملقى على الأرض موثوقا الى حلقة مثبتة فى الحائط ٠ لابد أن رأسه قد شج لأن ناظر المدرسة الذى كان يقف فى المؤخرة أبصر الدم يقطر من جبهته ورقبته ٠

وعاد الأغا يخاطب الأعيان بصوت مثل النباح :

ـ سألقى بكم جميعا فى السجن ٠ سأشنقكم فوق شجرة السنار الواحد بعد الآخر كل صباح حتى أهتدى الى القاتل ٠ سأبدأ بكم ، فالأعيان أولا ثم أتبعكم بآخرين وآخرين وهكذا ٠٠ ثم يأتى دور النساء ، سأشنقهن جميعهن حتى أفنى القرية عن آخرها ٠٠ هذا اذا لم تدلونى على القاتل ٠ هل تسمعنى يا صاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس ؟ هل تسمعونى

يا رعايا ماذا جنى حبيبى يوسوفاكى حتى تقتلوه ، هه ؟ هل مس أحدكم بأذى ؟ هل قال كلمة سيئة فى حق أحـــد ؟ كان يقضى وقته جالســا فى الشرفة يمضغ اللبان ويغنى . هل فعل بكم شرا يا كفرة ؟ لماذا قتلتموه ؟

وعاود القسيس جريجوريس حديثه :

ــ أقسم لك يا أغا بالعلى القدير ..

ــ اخرس . سأنتف شعر لحيتك شعرة شعرة ، أنت لن أشنقك ، سأضعك على خازوق أيها الخنزير المبطان ! ماذا فعل بك حبيبى يوسوفاكى ؟

ثم انخرط فى البكاء .

وخجل الشيخ بطرياركاس من أن يترك القسيس يواجه العاصفة وحده فقال :

ــ يا أغا . تعرف يا أغا أننى كنت دائما ثابت الولاء لك ..

وصرخ الأغا فى عويل :

ــ اغلق فمك يا خنزير . تركت لك الحبل على الغارب أيها الكرش الضخم . سأقطعك اربا اربا بسكين صدىء . سأتسلى بتقطيعك أسبوعا كاملا حتى أمتع منك يدى . أنا واثق تماما أيها الكافر القذر أنت لست قاتله ، ولكن يغيظنى أن أراك حيا وحبيبى يوسوفاكى ممددا فى الحجرة المجاورة مقتولا .... سأقوم لأضرم النار فى القرية كلها ، لن أترك منها شبرا واحدا ، سأحرقكم معها يا سفلة .

ووقف الأغا مغيظا حانقا :

ــ من ذاك الذى يقف فى المؤخـرة يا بطـرياركاس ؟ دعـــه يرينى نفسه ؟

ارتعدت فرائص الأب لاداس حتى كاد يغشى عليه ، وتهته بالكلام :

ــ انه إنا يا أغا .

وعوى الأغا :

ــ آه .. آه .. سأقيم جنازا ملوكيا لحبيبى يوسوفاكى . سأبعث فى طلب مقرئين من اسطمبول ليرتلوا له القرآن ، وسأشترى له شموعـا من سميرنا ، وتابوتا مصنوعا من خشب السرو ليكون عطر الرائحة .. وأنا بحاجة الى مال وفير لأوفى به كل هذه الطلبات .. سأفتح خزائنك

يا منجم الذهب العتيق ، وأفرغ كل ما فيها من الذهب ·· هل تعرف لمن كنت تكدس الذهب طوال كل هذه السنين ، هه ؟ لحبيبى يوسوفاكى !

انهار العجوز لاداس وخر الى الأرض · وأجهش بالبكاء ·

ـ الرحمة يا أغا · اقتلنى أولا قبل أن أشهد هذا الهلاك المروع ·

ولكن الأغا كان يتحدث الى حاجى نيكولا :

ـ وأنت يا ناظر المدرسة ، تجمع صبية الروم لتفتح أعينهم ·· أنت سأقطع لسانك وألقى به الى كلبى · لماذا تبقون على قيد الحياة ، لماذا ؟ هل تعيشون وحبيبى يوسوفاكى ميت ؟ لا ، قلبى لا يحتمل ذلك · ان هـذا يقتلنى كمدا ! ·· حسين ، هات السوط ·

وأسرع الحارس وأنزل السوط من على مشجبه وناوله للأغا ·

ـ افتح الشباك حتى أرى وجوههم !

ورفع الأغا السوط فى هياج · ومع ضوء النهار الذى اتسـل من النافذة ظهر وجه الأغا مجعدا ، طاعنا فى السن ، كالحا · ساعات قليلة من الحزن غيرته تماما · وابيض شاربه وتهدل حتى أخفى شفتيه · وأخذ يقضم أطراف شاربه بين أسنانه ويعوى ·

وانهال بسوطه على الرعايا الأربعة يجلدهم ، حينا على الوجه ، وحينا على اليدين ، وحينا على الصدر · وسرعان ما ارتمى الشيخ لاداس فوق الأرض يتدحرج · ووطئه الأغا بقدميه ، ثم وقف فوقه حينا يبكى ، وحينا يقهقه ، ثم انهال عليه ضربا مبرحا دون أن تأخذه به رحمة ، وهو يسب ويعوى ·

فاضت الدموع من عينى الشيخ بطرياركاس ، ولكنه زم شفتيه حتى لا يسمع له صوت · واستند ناظر المدرسة الى الحائط رافعا رأسه ، والدم يسيل من صدغيه وذقنه · والقسيس فى وسطهم عاقدا ذراعيه الى صدره ، يتلقى ضربات السوط ويتمتم :

ـ يسوع ، يسوع ، أعوذ بكَ من الهوان ·

وأرغى الأغا وأزبد ، وتناثر لعابه فوق وجوههم ، وأخذ يضرب هنا وهناك كالمجنون · وأخيرا وبعد أن كلت ذراعه ألقى بالسوط بعيدا ·

ثم صاح من جديد :

ـ الى السجن ·· الى السجن · وغدا نبدأ الشنق ·

ودنا من بانايوتى وبصق على وجهه وقال له :

ـ سأبدأ بك يا آكل الجبس .

ثم استدار الى حسين وقال بصوت مخنوق :

ـ آتنى بحبيبى يوسوفاكى ...

فتح الحارس بابا ، ثم سمع بعد قليل وهو يجر السرير المعدنى الصغير الذى وجد فيه الغلام عند الفجر غارقا فى دمه .

ارتمى الأغا فوق الجثة وانهال عليها تقبيلا وهو يئن ويتوجع .

فك الحارس وثاق بانايوتى من الحلقة ، والتقط السوط من على الأرض وطرقع به فى الهواء ، ثم صاح :

ـ الى السجن يا كفرة .

وساق الخمسة أمامه وهم يتعثرون فوق الدرج .

* * *

جثم الرعب فوق القرية ، فأصبحت الطرقات مقفرة ، والحوانيت مغلقة . ودفن الرعايا نفوسهم داخل بيوتهم ، فلم تعد تسمع لهم همسا ولا تكليما. ينصتون للصمت فتقشعر منهم الابدان . وبين الحين والحين ينسل شبح من باب الى باب يهمس بالأخبار : لم يخرج الاعيان بعد .. يقال ان هناك من سمع دوى طلقات مسدس .. وبعد قليل تسرى اشاعة أخرى : زج الأغا بالأعيان فى السجن .. نزل حسين الى الميدان وكان معه حبل وقطعة صابون ووضعهما تحت شجرة السنار .. ثم لا يلبث أن يحمل رسول نبأ آخر « الأغا يهدد باشعال النار فى القرية كلها اذا لم يعثر على القاتل ، وسيحرقنا معها .

احتضنت النسوة أطفالهن وصحن :

ـ لقد هلكنا .. لقد هلكنا .

ونكس الرجال رءوسهم يلعنون اليوم الذى ولدوا فيه رعايا .

والأم بنيلوب وحدها فقط هى التى ظلت جالسة تحت التكعيبة تغزل الجورب هادئة غير مكترثة . سمعت من قال لها ان زوجها مقبوض عليه وأن الأغا سينشقه ، أو هكذا قيل ، فوق شجرة السنار وأنه سيمحو

القرية عن آخرها ٠٠ فهزت رأسها لحظة ثم حدثت نفسها في غير مبالاة :
« وهذا أيضا قدر مقدور ٠٠ » ثم انكبت على عملها تغزل الجورب ٠

ولاذ ياناكوس بحظيرته يحادث حماره :

ــ وأنت يايوسوفاكي ماذا ترى في كل ما حدث ؟ اننا في ورطة ، وأخال ان الأمور ستسوء أكثر وأكثر ٠٠ يقال ان الأغا سيحرق القرية ، وسيحرقك معها يايوسوفاكي ٠٠ مارأيك في هذا ؟ ماذا لو انسللنا تحت جنح الظلام نحن الاثنين ؟ اننا لا نعول أحدا ، لا أطفال ولا كلاب فما الذى يقعدنا ؟ ولكن أليس من العار أن نهجر القرية في لحظة الشدة ؟ ما رأيك يا حبيبي يوسوفاكي ؟ ليس لي من سمير غيرك أحادثه ٠ أفضيت اليك بكل ما يدور بخلدي ٠ فما رأيك يايوسوفاكي ؟ ٠

ودس الحمار رأسه حتى أذنيه في مذوده ، وبدأ فكاه يعملان في نهم ، وصوت سيده يتناهى الى سمعه كأنه صوت نبع يفيض ٠٠ وظن أن ياناكوس لا زال كعادته به يردد على سمعه كلمات التدليل ، فهز ذيله في حبور ٠

ومع المساء بدأت الأبواب تفتح خلسة وتطل من فرجتها بعض الرؤوس ٠ كان ميشيل أول من فتح باب بيته ٠ وصعد على الفور الى بيت القسيس جريجوريس ليواسي خطيبته ٠ وخرج قسطندى ليفتح مقهاه ، ولكن لحظة أن وضع المفتاح لمح تحت شجرة السنار كرسيا وفوقه أشياء لم يستطع أن يتبينها على البعد ٠ اقترب منه ثم سرعان ما جفل في هلع : حبل وقطعة صابون ! أعاد المفتاح الى جيب حزامه ، وقفل راجعا يسير بمحاذاة الحائط ٠

كانت عادة الأغا في مثل هذه الساعة من النهار ، عندما يبدأ الليل يرخي أستاره ويسود الكون سكون حلو وديع ، أن يجلس الى شرفته واضعا ساقا فوق ساق والى جانبه يوسوفاكي يصب العرقي ويشعل له الغليون ٠ أما هذا المساء فالأبواب والنوافذ مغلقة ، والشرفة مهجورة ٠ كان الأغا يئن وينوح ٠ آه ماأقسى الأغنية المحببة الى نفسه وما أشد بطلانها : « الدنيا والحلم شيء واحد ٠٠ » احتضن بين ذراعيه الجسد الميت الصغير ٠ وحدث نفسه قائلا : « لا انه ليس حلما ، أبدا ليس حلما ٠٠ » ثم اجهش بالبكاء ٠

ومسح حسين أيضا عينيه الحولاوين ، وأخذ يروح ويجيء وهو يندب وينوح بصوت خفيض : « حبيبي يوسوفاكي ٠٠ » ثم يرتعد خشية أن يسمعه سيده ٠ وكان بين الحين والحين يمسك بالسوط في هياج وينزل الى

البدروم وينهال بسوطه فى ثورة وجنون ، ويعول على نحو ما يفعل الأغا ...

وبعد أن يستشعر بعض الراحة ، يصعد ثانية ويطوف حول السرير المعدنى الصغير · وأحيانا يجد الاغا وقد مال فوق الجسد البارد لغلامه ،وراح فى اغفاءة من أثر الحزن وشدة السكر · فينحنى هو الآخر فوق يوسوفاكى ويقبل فمه قبلة حارة شهوانية ويعض بحرقة شفتيه المكتنزتين اللتين علاهما الشحوب وان كانتا لا تزالان تتضوعان برائحة اللبان ، ثم يرتمى على الأرض يتمرغ فوقها ·

وجلس القسيس جريجوريس فى زنزانته ، وهز بانايوتى، وقال له:

ـ هل أنت الذى قتلت يوسوفاكى يا يهوذا اللعين ؟ اعترف حتى ننجو وتنجو القرية معنا ··

فقال آكل الجبس بصوت كأنه النباح وهو يمسح الدم الذى يسيل من رأسه المشجوج :

ـ الى الجحيم جميعا ! ولتذهب القرية الى الجحيم أيضا ·· كلكم وأنا معكم ·· ففى ذلك شفاء نفسى ·

وأسند الشيخ بطرياركاس ظهره الى الحائط وهو يلهث · وتمتم بدوره :

ـ أنت الذى قتلته يا ملعون ، أنه أنت ، أنث يا يهوذا ·

وعاد السروجى يجأر قائلا :

ـ يا وغد · ما شأنى أنا به ؟

وسكت ولكنه كان يضطرم غيظا · فصاح ثانية :

ـ انها غلطتكم عليكم اللعنة ، جميعكم ! هذا القسيس القذر وإنتم أعيان القرية وناظر المدرسة · أنتم والأرملة التى تتأبى على الآن ولا تدخلنى بيتها · أنتم جميعا ·

ولم يلبث أن عاد يصرخ قائلا :

ـ أردتم أن تجعلوا منى يهوذا ·· وها أنذا أصبحت يهوذا !

وعاود القسيس حديثه متكلفا الرقة :

ـ اعترف يابانايوتى بأنك قاتله وسوف يغفر المسيح لك خطاياك· كنت أنا المسئول حتى هذه اللحظة عن أرواح أهل القرية ، أما الآن فانك أنت يابانايوتى المسئول عنها · قم واعترف لتنقذهم ·

وهنا ضحك آكل الجبس ضحكة عالية ساخرة ·

ـ بحق الشيطان انها لفكرة رائعة تلك التى أقنعتمونى بها الآن · وددت لو أننى كنت قاتله حتى أشرككم معى فى جريمتى ! ولكن سبقنى اليها غيرى ·· بوركت يداه ! ·· سبقنى غيرى ! ولكن لا بأس ! سيذهب معى الى الجحيم رؤساء الأعيان والقساوسة ونظار المدارس ·

ورفع لاداس العجوز رأسه التى أدمتهـا ضربات السوط · وصر بصوته :

ـ اسمع يابانايوتى · اعترف وسوف أعطيك ثلاثة جنيهات ذهبا · سأبيع حمار ياناكوس فهو مدين لي بها · سأبيع الحمار وأعطيك الجنيهات الثلاثة ·· هل تسمعنى ؟

بسط له بانايوتى يده بحركة استهزاء وقد تباعدت أصابعه الخمسة وقال له :

ـ خذ أيها البخيل العجوز ، هاك خمس جنيهات ·

فى هذه اللحظة فتح الباب ودخل الأغا · وصرخ :

ـ يا كفرة · غدا موعدكم مع المشنقة · أعددت الحبل والصـابون والكرسى تحت شجرة السنار · غدا الأربعاء ، سأبدأ بأحقـركم شأنا : بانايوتى آكل الجبس · وموعدك أيها البخيل القذر يوم الخميس ·· وأنت أيها الناظر موعدك الجمعة يا أعلم العلماء · والسبت موعدك يا صـاحب الفخامة ،أيها الوغد باطرياركاس · والأحد موعد القسيس ، ساعة قداسك أيها الكلب القذر · وهكذا يكون المجموع خمس رقاب · ولقد أعددت لكم خمس حبال تنتظركم تحت شجرة السنار · هذه هى الوجبة الاولى · وبعدها سأصطاد خمسة آخرين ، أول من تقع عليهم يداى · ثم يأتى بعدهم غيرهم وغيرهم وهكذا ·· حتى أعثر على القاتل ، لن أدفن حبيبى يوسوفاكى ولن أسبل جفنيه ، بل سأضعه تحت شجرة السنار حتى تنعم روحـه بمرآكم ·

وما ان فرغ من كلمـاته هذه حتى خرج وصفق الباب وراءه بقوة وغضب · وأبصر حسينا ينتظره ممسكا بالسوط · فقال له :

ـ حسين ، اتبكى أنت أيضا ياصديقى المسكين ٠٠ كفكف دموعك ، فلا يليق بنا ان يرانا الكفرة نبكى ٠ اذهب وائتنى بياناكوس البائع المتجول ، مره أن يخف الى المدينة ويشترى لى بخورا من أجود أنواع البخور وأغلاها ثمنا ، وشموعا ، وقماشا من الجوخ الأسود ، وكعكا ٠ قل له أن يحضر لى كل هذا غدا صباحا مع أول النهار ٠٠ آه ، وأيضا حزمة من الحبال الغليظة ، لأن القسيس التيس ضخم الجثة ثقيل الوزن ، وهذا الشيخ بطرياركاس أضخم منه واثقل وزنا ٠٠ اذهب ٠

وطرق حسين باب ياناكوس بقوة وعنف ولكن عبثا ٠ كان ياناكوس قد غادر بيته قاصدا الجبل ليحذر مانولى من النزول الى القرية والا قبض عليه ٠

* * *

فرغ مانولى من حلب النعاج ، ووضع قدر اللبن فوق النار ٠ وجلس نيكوليو بجواره مسلحا بملعقة خشبية كبيرة ، يحرك اللبن ، ويدندن بلحن٠

كان مانولى يعجب لمساعده ، فهو دائما خفيفا نشطا صافى المزاج ، وكثيرا ما كان يسأله : لماذا أراك يانيكوليو دائم الغناء ، تثب هنا وهناك مثل الجدى ، لا يطمئن بك مكان كأنما ضاق عليك الجبل ؟

ويجيب الراعى الصغير :

ـ هل نسيت يا مانولى أننى فى الخامسة عشرة من عمرى ؟ لماذا لا تتوقع اذن أن يبدو العالم صغيرا جدا فى ناظرى ، ولايطمئن بى مكان ؟

ولكن لينيو لم تكن فى عينيه صغيرة جدا ٠ اذا ما صعدت اليه خلسة لتلتقى به فوق الجبل كان نيكوليو يرتمى بين ذراعيها ، وتضمه اليها ، ويتمنى لو لم تخله أبدا ٠

غلى اللبن ، وها هو مانولى جالس الآن بجانب الموقد ، يقرأ فى الانجيل الصغير ، ويقلب صفحاته على ضوء اللهب ٠٠ كانت هذه هى متعته الوحيدة ، وكثيرا ما كانت تستعصى عليه معانى بعض الكلمات ، بيد أن قلبه يهتدى الى تأويلها ، فتفيض معانيها واضحة فى يقين ؛ وتسرى الكلمة المقدسة فى عروقه بردا وسلاما كأنها ماء يفيض من نبع ٠

أى الهام قدسى كان يستشعره ، وتهيم معه روحه وجدا ٠ يخال كأنما كشف عنه الحجاب فشهد المسيح لأول مرة وسمع صوته ٠ أحس وكأنه شهد المسيح حقا ، يرنو اليه بعينيه ، ويتحدث اليه بصوت هادىء

حنون يأخذ بالألباب ، يقول له : «اتبعني !» ومنذ تلك اللحظة سار مانولى في سكون ونشوة غامرة وراء المسيح ، حينا فوق عشب الجليل الأخضر ، وحينا على الشاطىء الرملي لبحيرة جينيسارت وحينا ثالثا فوق الطرق الحجرية لليهودية .. ومع الغسق يستلقى عند قدمى المسيح تحت شجرة زيتون . يرقب من خلال أوراقها الفضية النجوم المرتعشة ، ما أبدع الوجود فى صحبة المسيح ، السماء زاهية عميقة ، والهواء صاف عليل كروح نقية ، والأرض تتضوع مسكا .

وذات يوم ذهبا سويا لحضور عرس فى قرية كنعان . دخل المسيح البيت فى لباس عرس . وابتهج الحاضرون لرؤيته ، وعلت وجوههم حمرة خجل كعذارى مخطوبات . ونهض العروسان ، وتبادلا قسم الزواج ، ثم تربع الضيوف فوق الحشايا ، وشرعوا يأكلون ويشربون . ورفع المسيح كأسه يبارك العروسين ، وتكلم كلمات قليلة بسيطة واضحة ، ولكن أحس معها العروسان فجأة أن زواجهما سر عظيم ، وكأن الزوجين ، الذكر والأنثى هما العمادان اللذان تقوم عليهما الارض فيمنعاها من السقوط .. كان الحفل بهيجا صاخبا ، وفرغت الكئوس من خمرها تنشد المزيد . والتفتت أم المسيح الى ابنها وقالت له : « يابنى لقد نفد الخمر .. » واعتملت فى صدر المسيح قوة جبارة ، وعلى الفور بسط يده ، وأمر الطبيعة أن تغير مسارها . ونهض المسيح من مكانه متأنيا كواحد من فراخ النسور يجرب جناحيه الصغيرين لأول مرة للطيران ، ويرف بهما فى خوف وحذر ، وخرج الى الفناء، وانحنى فوق جرار الماء الست ، وتطلع الى وجهه فوق صفحة الماء فيها . وما أن انعكس على صفحتها وجه المسيح حتى استحالت خمرا . ثم استدار المسيح لمانولى الذى تبعه ، وابتسم له ..

وتذكر مانولى يوما آخر ، خرج فيه مع المسيح . كان القيظ شديدا. وتجمع آلاف البشر على شاطىء البحيرة . وركب المسيح سفينة ، وتبعه فيها مانولى . وأودع مانولى قلبه الكلمة الطيبة ، واستقرت فيه كحبة قمح .. وأحس مانولى كأن قلبه أرض طيبة تبذر فيها الحب فيخرج نبتة ، وتكون النبتة نصلا ، والنصل سنبلة ، والسنبلة خبزا محفورا عليه بخطوط عميقة صليب كبير .

وفى يوم ثالث طافه خلال حقول القمح . كان الوقت ظهرا ، وأحسا بالجوع . مد المسيح يده وقطف سنبلة . وقطف تلاميذه كل منهم واحدة، وكذلك فعل مانولى . وبدأوا يأكلون ما فيها من قمح حبة بعد أخرى . ما أطعمها هذه الحبات الخضراء التى تفيض لبنا ، لقد أشبعت الجسد والروح

وفوق رءوسهم زقزقت العصافير ، واقتفت أثر المسيح كأنها بعض تلاميذه • وتحت أقدامهم تناثر النوار بديعا زاهيا على نحو لم يعرفه سليمان فى كل مجده •

ودعاهم أحد الفريسيين الى بيته • فوقف مانولى عند الباب يرقب ما حوله • لم يستقبل الفريسى المسيح بما هو أهل له من التمجيد • لم يغسل له قدميه ، ولم يسكب العطر على يديه وشعره ، ولم يقبله قبلة السلام •• ويا للعجب ، فبينما هم يأكلون فى صمت ، تضوع الجو عطرا • لقد دخلت امرأة عارية الصدر ، شقراء الشعر ، تحمل بين يديها صندوقا من المرمر مملوءا عطرا • ما ان وقع بصر مانولى عليها حتى توجس خيفة •• ترى من تكون تلك المرأة ؟ سبق له أن رآها فى مكان ما ، ولكنه لا يذكر أين كان هذا اللقاء • وجثت المرأة على ركبتيها عند قدمى المسيح ، وكسرت الصندوق ، وسكبت ما فيه من عطر فوق القدميين المقدستين ، ثم أرسلت شعرها ، ومسحت به قدمى المسيح وهى تنتحب •• ومال عليها المسيح ووضع يده المقدسه فوق الشعر الأشقر ، وقال بصوت عذب حنون : « مغفورة لك خطاياك يا أختاه ، لأنك أحببت كثيرا •

فاض قلب مانولى ، وأغلق الانجيل الصغير • كانت النار لاتزال موقدة ، تتراقص السنتها جذلة ، والكوخ تسوده عتمة زرقاء ونيكوليو يروح ويجىء يدندن باغنية وقد انهمك فى اعداد الطعام •

كان قلب مانولى يفيض حبا وحنانا وسعادة • أحس بعواطفه الجياشة تفوق طاقته ، ولا بد أن يقاسمه العالم فرحته • واحتدمت فى نفسه رغبة عارمة فى أن يخرج الى الدنيا ليبلغ الكلمة الطيبة للناس والحجارة والماشية • فصاح :

ـ ايه يانيكوليو • دعك من الغداء وتعال اجلس الى جانبى • يجب أن تسمع أنت أيضا كلمة الرب لتكون انسانا كاملا • فلست حتى الآن سوى وحش برى •

استدار الراعى الصغير ، ونظر الى مانولى وانفجر ضاحكا :

ـ لا حاجة بى اليها يا شيخ مانولى • دعنى وشأنى فانى قانع بما أنا فيه •• هل تريد أن تعكر صفو مزاجى ؟

ـ سأقرأ عليك بعض آيات الانجيل لتلمس بنفسك ما فيها من طلاوة

ـ لك ذلك اذا مرضت ، أما الآن فلا حاجة بى اليها كما قلت لك •• لقد أعددت الطعام ، تعال لتأكل •

– لست جوعانا • كل أنت •

بعد هذه الكلمات فتح مانولى الانجيل الصغير ثانية ، وانحنى عليه قرب النار وبدأ يقرأ •

« ان أراد أحدكم أن يأتى ورانى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى فان من أراد أن يخلص نفسه يهلكها • ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها • لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ أو ماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه » •

أدرك مانولى معنى هذه الآيات بوضوح تام • واغلق الانجيل ، وأغمض عينيه أيضا – •• آه ، النفس فى كفة والعالم كله فى الكفة الأخرى ، لكن النفس أعز قيمة وأكبر وزنا • اذن لماذا الخوف من الموت ؟ لماذا نذل أمام سطوة الارض ؟ لماذ تقشعر أبداننا اذا ما خطر ببالنا أننا سنخسر الحياة الدنيا ؟ لماذا الخوف ولنا روح خالدة ؟ وهى أحق بالخلاص •

كان ياناكوس واقفا بالباب منذ لحظة يرقبه • لم يلمحه أحد • كان نيكوليو يوليه ظهره منكبا على طعامه ، يأكل بنهم لعل الطعام يمنحه القـوة اذ ربما تأتى لينيو هذا المساء •• من يدرى ؟ وهو بحاجة الى القوة لتكون له زادا فى صراعه معها • وكان مانولى مغمض العينين ، هائما فى سعادة تجــل عن الوصف •

وحدث ياناكوس نفسه قائلا :

– ان روحه هائمة فى الفردوس • اذا لزمت الصمت فلن يخرج منها• ليس لى الا أن أتحدث اليه •

واجتاز العتبة وهو يصيح :

– ايه يامانولى ، مانولى • طبت مساء • انى سعيد برؤيتك •

وثب مانولى مذعورا لسماعه صوت بشر •

فتح عينيه ، وحملق بهما وسأل :

– من هناك ؟

– هل نسيت صوتى يامانولى ؟ أنا ياناكوس •

– معذرة يا عزيزى ياناكوس • كنت غائبا عن الوجود • لم أدرك أنه أنت • أى ريح طيبة ساقتك الى هذه الساعة فوق الجبل ؟

– بل هى ريح سموم يا مانولى • أنت تعيش فى الفردوس ، وانا – أستغفر الله – آتيك بأخبار من الجحيم •

ـ عن القرية ؟

ـ نعم ، عن القرية • وجد يوسوفاكى هذا الصباح مقتولا • وجن جنون الآغا : ألقى القبض على القسيس جريجوريس والاعيان وبانايوتى • زج بهم فى السجن • وغدا موعدهم للشنق الواحد بعد الآخر • علقت الحبال بشجرة اسنار • عقد الأغا عزمه على ان يبدأ غدا بشنق بانايوتى المسكين ، كما هى العادة دائما •• ويقول انه سيتبعهم بآخرين وآخرين وهكذا •• سيبذر الموت فى القرية حتى يهتدى الى القاتل • حل الدمار بالقرية فلا تسمع فيها غير النواح • الابواب موصدة • انا هالكون • أتيتك يامانولى كي أنبئك بالخبر حتى لا تنزل الى القرية خشية أن يقبض عليك • أنت هنا بمأمن ولا ريب •

لمع وميض فى عينى مانولى • قال لنفسه : « واتتك اللحظة التى تثبت فيها أن روحك خالدة ! » ولكنه حرص على اخفاء سروره • كان يصغى الى صديقه وهو يتحدث اليه لاهثا ، بينما لا يفتأ يكرر بينه وبين نفسه • ها هى ذى اللحظة المواتية ، ها هى ! اذا أفلتت منى فقد خسرت خسرانا مبينا » •

وسأل :

ـ هل أكلت ياياناكوس ؟

ـ لا يامانولى ولكننى لست جوعانا •

ـ وأنا أيضا لم أكن أشعر بالجوع • ولكن الشهية تأتى مع الاكل • سنأكل معا ونحن نتكلم • وسوف تنام الليلة هنا • وغدا عندما يطلع النهار باذن الله ، نرى ما قد يكون •

وتطلع ياناكوس الى صديقه مشدوها :

ـ كيف تتكلم يا مانولى بمثل هذا الهدوء الشديد ؟ ألم تفهم ما أقول ؟ قريتنا فى خطر •

وأجاب مانولى :

ـ أعرف القاتل • لا تخف فلن تهلك القرية •

وأسقط فى يد ياناكوس • وقال :

ـ تعرف القاتل ؟ وكيف كان ذلك ؟ من هو ؟ من ؟

وقال مانولى وهو يبتسم :

• لا تتعجل • لماذا العجلة ؟ غدا تعرف كل شيء •• اصبر قليلا • لنأكل الآن ونتحدث سويا ثم ننام • ستسير الامور سيرا حسنا باذن الله •

ثم صاح قائلا :

ـ ايه يانيكوليو • أفسح لنا مكانا • فنحن جوعى مثلك !

تربعا على الأرض ، ورسما علامة الصليب وأقبلا على الطعام • كان ياناكوس يرفع عينيه بين الفينة والفينة يتطلع بهما الى مانولى • انه يستطيع أن يميز من خلال هذا اللحم المتشقق الذى يغطى وجهه عينين غائرتين تلمعان فى هدوء وسعادة •

وحدث نفسه :

ـ لا أفهم شيئا •• لا أفهم شيئا •

جثم عليهما صمت ثقيل ضاق به ياناكوس فعزم على الكلام :

ـ كيف تقضى وقتك وحيدا هنا يامانولى ؟

وأجاب مانولى وهو يشير الى الانجيل :

ـ ولكننى لست وحيدا • المسيح معى •

ـ وماذا عن مرضك ؟

ارتعد مانولى مأخوذا ، اذ كان قد نسيه تماما •

ـ أى مرض تقصد ؟ آه ، نعم ، لا زلت آثما ياياناكوس فلم يزايلنى بعد معنى هذا أن روحى لم تبرأ بعد مما فيها من شر • لعل الله يشملنى بواسع رحمته •

وقال نيكوليو وهو يمسح فمه :

ـ أما أنا فسأنصرف • القمر هلال ، ولن يغمض لى جفن • سأتجول قليلا •

والتقط عصا الرعى ورحل عنهما وهو يصفر •

وقال مانولى :

ـ هيا بنا الى النوم ياياناكوس ، اذ يجب أن نستيقظ غدا فى ساعة مبكرة • والنوم يكشف البصيرة • هذا بعض ما علمتنيه حياة الوحدة هنا • فالله يتحدث الى النيام أكثر مما يتحدث الى الايقاظ •

افترشا بساطا عريضا فى الفناء ليستمتعا ببرودة الجو • كان الهواء

عبقا برائحة السعتر . وارتفع صوت الليل حتى غمر السكون . وبدأ الهلال يعتلى صفحة السماء .

وقال ياناكوس الذى جفاه النوم :

ـ أنا دائم التفكير فى بانايوتى المسكين .

وقال مانولى بصوت خفيض :

ـ وأنا أيضا . أفكر فيه أكثر من غيره .

ـ نفس الشيء بالنسبه لى ، هو أكثر من سواه . ولكن لماذا ؟

ـ لأنه أحب كثيرا يا ياناكوس ، وحطمه الحب . روحه كبيرة وملعونة كان عبدا لعواطفه وشهواته فتورط فى كثير من المشاكل . وأثار هـذا حنقه ، واندفع يناطح برأسه محاولا الهرب ولكنه سيىء الحظ ، فلم يزده ذلك الا تورطا ... التمس ايذاء من حوله ، ولاذ بالخمر والسباب لعله يجد فى ذلك بعض الراحة لنفسه . ولكنه كان يغوص أكثر فأكثر .. لو أنه أحب قليلا ...

ثم استطرد مانولى مصححا ما قال :

ـ لا . لا . ليس قليلا ، بل لو أنه أحب أكثر وأكثر ربما كان فى ذلك خلاصه ...

أحس ياناكوس برغبة فى أن يطيل الحديث . فقال :

« أراهن بحياتى أنه ليس هو قاتل يوسوفاكى . أرجوك يامانولى أن تفصح لى حتى يهدأ خاطرى . هل هو بانايوتى ؟

ـ هيا الى النوم ياياناكوس . لا . ليس هو .

وقال ياناكوس :

ـ الحمد لله .

ثم أغمض عينيه وعاوده الهدوء .

وكان مانولى متلهفا الى أن يخلو بنفسه فاستسلم هو الآخر للنوم . كان طوال الأيام الاخيرة يؤثر أن يبقى مغمض العينين حتى ولو كان ذلك فى وضح النهار : اذ كان يخيل اليه أن هذا خير ما يعينه على أن يستبطن ذاته على نحو أوضح .

فثمة قصة كان قد سمعها فى الدير من معلمه القسيس ماناس ، وكثيرا

ما تطوف بخاطره فى هذه الايام وتلح عليه • اذ زاره ذات يوم راهب وقضى معه سحابة نهاره • ففتح عينيه للحظة ثم عاد واغمضهما • فقال له ماناس: « افتح عينيك يا أبانا • افتحهما لتشهد بديع خلق الله » • ـ فأجاب الراهب « أنا اغمض عينى فاشهد الخالق ذاته » • •

وهكذا كان مانولى يغمض عينيه ليشهد المسيح ، ويسمع صوته • يقرأ آية من الانجيل ثم يغمض عينيه ، ويهيم بروحه معها • وفى هدأة الليل ، اذا كان الجو رطبا منعشا ، فانه يستطيع أن يرى بوضوح المسيح فى ثياب بيضاء يتقدم تلاميذه • ويلحق به مانولى خلسة ، يمشى وراءهم فى صمت وسكون •

وتمتم وهو يغمض عينيه :

ـ غدا ينتظرنا عمل كبير ، عمل هام وعسير • عونك يا يسوع •

ثم تنهد وعاد يقول : « عونك يا يسوع » كانما يناجى المسيح يدعوه اليه فى سكون الليل •

وتنزل عليه المسيح • اذ استيقظ مانولى ساعة السحر ورسم علامة الصليب • كان الحلم لا زال يشغل فكره ، ساطعا متالقا كنجمة الصباح :

تراءى له أنه يمشى على حافة بحيرة لازوردية • كان فى عجلة من أمره وشق طريقه فى لهفة وقلق بين عيدان الغاب وأوراق الصفصاف ، مسرعا فى خطوه • وبعد أن تقدم قليلا اذا بعيدان الغاب وأشجار الصفصاف تستحيل بشرا ، آلافا من الرجال والنساء • ساروا جميعا خلفه • وهبت ريح ، وصاح معها الجميع : « اقتلوه ! اقتلوه ! »

حاول الهرب ، واذا بيد تلمس كتفه ، وصوت يقول : « هل تؤمن ؟ وأجاب مانولى : أومن يا الهى • وعلى الفور سكتت الريح ، وعاد الرجال والنساء سيرتهم الاولى ، عيدان غاب وأشجار صفصاف • وارتفعت أمامه شجرة سنار تغطيها العصافير ، وبدت له الشجرة تصدح وتغرد • واذا بجثة معلقة على أحد فروعها تتأرجح فى الهواء • وتوقف مانولى مبهوتا ، ثم قفز فى مكانه كانما يحاول الهرب واذا بالصوت يناديه من جديد :

« لا تقف ، تقدم » •

وصرخ مانولى صرخة أيقظته :

ـ لا تقف ، تقدم •• انه صوت الرب فلأواصل السير •

وهب واقفا • اغتسل ، ومشط شعره ، وارتدى أحسن ثيابه ، ودس الانجيل فى صدرته ، وهز ياناكوس •

صاح به فرحا مسرورا :

ــ ايه ياياناكوس •• استيقظ أيها الكسول •

فتح ياناكوس عينيه • وتطلع الى صديقه متعجبا •

وقال له :

ــ أراك ترتدى لباس عرس يا مانولى ، وعيناك تلمعان • أى حلم جميل تراءى لك ؟

وقال مانولى :

ــ هيا بنا • لا نريد أن نضيع الوقت • فكر فى الهلع الذى يحيـــق ببانايوتى • فكر فى الموت الذى يتهدد القرية • هيا أسرع !

***



الفـــداء

أى نشوة غامرة يستشعرها المرء حين يستيقظ مبكرا ذات صباح وقد أضمر فى نفسه قرارا حاسما وخطيرا • اتخذ مانولى طريقه الى القرية نازلا من الجبل ، خفيفا كأنه ملاك ، محلقا فلا تكاد قدماه تمسان الأرض • أحس فجأة كأن الملائكة باسطة أجنحتها ، تحمله فوقها ، وتطير من صخرة الى أخرى ، كان أشبه بسحابة تسوقها ريح رخاء •

ووراءه ياناكوس يعدو لاهثا ، عاجزا عن اللحاق به • وصاح قائلا :

ــ قل لى يامانولى ، أراك مسرعا كأن لك أجنحة تطير بها .. تمهل قليلا حتى الحق بك !

ولكن مانولى أحس كأن أجنحة تحمل قدميه ولا يقوى على الانتظار. ماذا عساه أن يقول للأجنحة ؟ هل يقـــول لهـــا : « أسكني ولننتظر ياناكوس ؟ .

وصاح قائلا :

ــ أود أن أنتظرك يا ياناكوس ، ولكنى لا أملك ذلك • لا تبطىء • أسرع أنت أيضا •

كانت نفس الأجنحة التى حملته حين تبع المسيح مغمض العينين يطوف خلال الديار يبذر الكلمة الطيبة فى الأرض الطيبة وبين الحجارة . كان يتبع المسيح وتلاميذه المؤمنين ، طائرا خفيفا جذلا ، من جنيسارت

الى اليهودية ، يحوم فوق القرى الصغيرة الحبيبة : كفر ناحوم ، وقانا، والمجدل ،والناصرة . ثم انطلق دفعة واحدة الى السامرة ، واجتازها حتى بلغ أرضه الحبيبة حول أورشيلم – بيت عينيا ، وبيت صيدا ، وأريحا ، وعمواس . وها هو اليوم يحلق مثلما كان مع المسيح ، كأنه عاد يقتفى اثر المسيح الذى يتقدمه الى ليكوفريسى . أحس بجسمه خفيفا ، يقل وزنه شيئا فشيئا . وبينما هو كذلك شعر بوخز يملأ صفحة وجهه ، وقشور تتساقط تباعا من فوق خديه وفمه . خيل اليه وكأن لحم وجهه يتخلص من اساره كزهرة يتفتق عنها كمها ، ليصبح وجهه غضا مثل الجمار .

توقف مانولى مبهوتا . كان قلبه يخفق بشدة . راى بعينى رأسه يدا تتصفح وجهه ، تربت عليه فى هدوء وعلى مهل ، يدا حانية كنسيم الصباح فوق الجبل .

كان واثقا من ذلك ولكنه لم يجسر على رفع يده ليلمس وجهه ويطمئن الى ما راى . وإرتجف ، وحدث نفسه قائلا :

– المعجزة ! المعجزة !

لحق به ياناكوس لاهثا . رفع عينيه الى مانولى وتطلع اليه ، وندت عنه صرخة :

– مانولى ! مانولى !

وارتمى بين ذراعيه .

رفع مانولى يده يتحسس صفحة وجهه بأصابع نهمة مشوقة . ذاب عنه اللحم البشع مثلما يذوب الشمع . التأم الجلد المتشقق وعاد وجها بشريا أملس من جديد . وتمتم مانولى وهو يرسم علامة الصليب:

– الحمد لله .. الحمد لله أن غفر لى خطاياى .

وصاح ياناكوس وقد فاضت عيناه بالدمع :

– عزيزى مانولى .. دعنى أقبل يدك .. انتصرت على الغواية ، وتطهرت روحك وزال عن وجهك أثر الشيطان !

مد ياناكوس يده الخشنة وتحسس براحته وجه صديقه ، وظل يربت عليه فى صمت فترة طويلة .

وقال مانولى :

ـ هيا بنا . لا نريد أن نضيع وقتنا .

أشرقت الشمس ، وعلا صياح الديكة فى الحقـول من تحتهما . ونبحت كلاب القرية . وتراءت لهما بيوت القرية من خلال غلالة رقيقة من الضباب .

واستدار مانولى لرفيقه وقال له :

ـ عليك ياياناكوس أن تسلم دون اعتراض بكل ما اقول او أفعل هنالك فى القرية . اعلم أننى لست أنا الذى أتكلم ، وانما أفعل ما يأمرنى به المسيح . امتثل لأمره ولا شىء سواه . هل تفهمنى ياياناكوس ؟

أحس ياناكوس فجأة وكأن صديقه يودعه . فسأله فى قلق :

ـ ماذا ستفعل ؟ وماذا تنوى أن تقول ؟

ـ قلت لك كل ما يأمرنى به المسيح ولا شىء سواه . أنا نفسى لا أعرف تماما ما سيكون ، بيد اننى على يقين منـه . وأنت أيضـا يا ياناكوس كن على يقين من ذلك وأنبىء ميشيل وقسطندى بما أقول حتى يلزما الصمت .

توقف ياناكوس منزعجا . وعاد يسأله من جديد :

ـ ماذا ستفعل ؟ وماذا تنوى أن تقول ؟

ـ لا تقف ، تقدم ! .. هذا ما قاله لى المسـيح فى منامى البارحة .

ـ لا تقف يا ياناكوس كن مؤمنا وتقدم . ألم تر توا كيف زال عنى خاتم الشيطان ؟ هل تعرف لماذا ؟ لأننى سمعت نداء المسـيح واستجبت له ، وهأنذا أتقدم منذ مطلع الفجر . وأنا لا أفعل ذلك عن غير رغبة منى ، بل ارقص طربا . وكنت تنادينى : قف ، ولكن كيف لى ان اقف ياياناكوس والمسيح يتقدم أمامى بخطوات واسعة ؟

ولكن ياناكوس هز رأسه وقال :

ـ انا اثق بك يامانولى . لمست بيدى المعجزة التى تجلت على صفحة وجهـك . ولكننى لا أثق بنفسى . لو فعلت شيئـا خارقا يفوق طاقة البشر ساصرخ حتما .. ساصرخ يامانولى . اننى بشر ، ولو اصابك شىء فلن أتخلى عنك بل سأقاوم .

ـ واذا كان هذا هو أمر الله ؟

عاد ياناكوس يقول :

ـ سأعترض وأقاوم . أستغفر الله .

وقال مانولى بصوت آمر :

ـ ألا تخجل ؟ ألا تخاف ؟ لندع هذا . خير لك أن تصمت . لنتقدم .

أسرعا فى خطوهما . وما ان اقتربا من القرية حتى رأيا قسطندى وقد خف اليهما . وصاح بهما حين أبصرهما :

ـ يااخوتى ، الى أين ؟ عودا من فوركما . كنت صاعدا الجبل فى طريقى اليكما احذركما من النزول الى القرية . ستحدث اليوم هناك أهوال .

وساله مانولى :

ـ تقصد بانايوتى ؟

ـ الحبل ينتظره فوق شجرة السنار . نفخ الحارس فى النفير ساعة الفجر . امر أهل القرية ، رجالا ونساء ، أن يتجمعوا حول شجرة السنار ليشهدوا بأعينهم حتى يستبد الهلع بقلوبهم .

تملك الخوف ياناكوس ، فاستدار ناحية الجبل وقال :

ـ هيا بنا نعود من حيث جئنا . تعال معنا ايضا يا قسطندى .

ـ أنا .. لى زوج واطفال لا أقوى على تركهم . أما انتما فانى استحلفكما باسم المسيح أن ترجعا .

وقال مانولى وهو يواصل السير ابتغاء ملكوت السموات :

ـ لا . بل باسم المسيح يجب أن نواصل المسير . وسوف نواصل حتما . تعال ياياناكوس ولا تخف . اثمة من يسير أمامنا ويشير الينا . الا تستطيع أن تراه ؟ انه المسيح ، فلنتبعه .

وفى هذه اللحظة فقط لمح قسطندى وجه مانولى صافيا نقيا . فصاح قائلا :

ـ مانولى . كيف حدثت المعجزة ؟

وأجاب مانولى مبتسما :

ـ مثلما تحدث المعجزات دائما . فى هدوء شديد وبساطة تامة وعلى غير انتظار . لا داعى للتباطؤ يا اخوتى ، هيا بنا نسرع .

أمسك بذراع قسطندى وحثا خطواتهما نحو القرية ، ومن ورائهما ياناكوس متأففا .

وقال مانولى :

ـ *لا تخف ياقسطندى فلن تهلك القرية . فأنا أعرف القاتل .*

ولهذا اسرع اليها .

توقف قسطندى وقد تهلل فرحا :

ـ من هو ؟ من يكون ؟ هل أراكه الله فى منامك ؟ من هو ؟

وقال مانولى بصوت آمر حنون :

ـ لا تسألنى عن شىء . لا تقف . تقدم .

واندفعوا ثلاثتهم ، وسرعان ما بلغوا القرية كأنهم خيول راكضة . كان نفير حسين يدوى يستحث أهل القرية بنبرة غاضبة . فتحت الأبواب وخرج أهـــل القرية رجالهـــا ونساؤها . وشموا جميعا علامة الصليب واسرعوا فى وجل الى الميدان .

وصاح بهم ياناكوس :

ـ تشجعوا يا اخوتى . ان الله كبير .

وهمهم عجوز وهو يجرى ممسكا بيد حفيده :

ـ الى الشـــيطان أيها الأبله المجنون . لو كان الله كبيرا فهذه هى اللحظة التى يثبت لنا فيها ذلك . سله أن يكشف لنا عن القاتل .

وقال الأب كريستوفيس وهو يعدو :

ـ اتوابيوسوفاكى وطرحوه تحت شجرة السنار ، وصفوا حوله الشموع والبخور والكعك . ترمل الأغا وطار صوابه .

كان المسيحيون يسرعون الى الميدان أفواجا متلاحقة . وابصر ميشيل على البعد مانولى ورفيقيه فخف للقائهم . كان شاحبا بائسا . ولكن ما أن رأى وجه مانولى حتى صاح فرحا وعانقه .

ـ شفيت يامانولى ، شفيت ! « الحمد لله » .

وسأله مانولى :

ـ ماذا عن بانايوتى ؟

ـ سيجيئون به بعد لحظة . لقد أوسعوه ضربا ، هذا المسكين .

اقتربوا من الميدان . كانت الشمس تطل على الارض من فوق حافة الأفق ، والنسيم يهب عليلا رخيا ، والقرية يغمرها نور يجدد الحيـاة . وشجرة السنار مورقة خضراء يانعة . تسمع لأوراقها حفيفا جذلا حين يداعبها النسيم . ورفع الشيوخ أبصارهم يتطلعون اليها فى فزع . كم من مرة كانوا يستيقظون من نومهم مع الصباح يتطلعون الى فروعها ليروا يونانيا معلقا عليها لأنه تجاسر على أن يرفع رأسـه مطالبا بالحرية ؟ .

وارتفع صوت الحارس فظا قاسيا :

ـ افسحوا .. افسحوا ياكفرة !

وسار فى المقدمة بخطوات واسعة يشق الطريق بكل ثقله ، ومن ورائه حمالان يحملان السرير المعدنى الصغير وقد تمدد فوقه جثمان الغلام القتيل . غطاه الأغا من رأسـه حتى أخمص قدميه بالورود والياسمين . لم يظهر منه سوى وجهه الأصفر وشعره المجعد ، وشفتاه المشوهتان من أثر العض . ووضع بجانبه حفنة لبان ليمضغها فى عالم الأرواح .

وسار فى المؤخرة بانايوتى متحاملا على نفسه ، يداه موثوقتان من خلاف ، ورأسه تغطيه الجروح ، وجسده أزرق من أثر ضربات السياط ، عيناه وحدهما تدب فيهما الحيـاة ، يحملق بهما فى أهل القرية بنظرات ملئوها الكراهية .

وصاح به واحد من اهل القرية :

ـ أيها الوغد ، ألا ترحم نساء القرية وأطفالها ؟ اعترف .

توقف بانايوتى ثائرا مهتاجا وجأر :

ـ ومن منكم كان يحس بالرحمة نحوى ؟

وبلغ شجرة السنار وقد خارت قواه فأسند ظهره الى جذعها الغليظ . حاول أن يمسح بكتفه العرق المتصبب من جبهته .

وفي هذه الأثناء وضع الحمالان يوسوفاكي تحت ظل شجرة السنار. وأشعلا شمعتين كبيرتين عند قدميه ، وألقوا بحفنة من البخور في مبخرة بها جمرات متوهجة .

اقسح مانولي ورفاقه لأنفسهم طريقا بين الحشد ، واتخذوا مكانا في الصداره بجوار جثة الغلام . وسرعان ما لمحهم بانايوتي . نظر اليهم بعينين مسجورتين . وحرك ذراعيه كأنما يريد أن يكسر القيد ، وخطا خطوة نحوهم ثم صاح فجاة :

— عليك اللعنة يا مانولي !

ثم عاد وأسند ظهره الى شجرة السنار خائر القوى .

واجاب مانولي :

— تشجع يا أخي . ثق بالله !

ولم يكد بانايوتي يفتح فمه ثانية حتي دوت صيحة مزعجة خرجت من باب الأغا وتناقلتها الأفواه وكان لها صليل يثير الهلع .

— الأغا !

وتقدم الأغا وحده حاسر الراس ، متورم الجفنين من حرقة البكاء ، مرتديا سروالا موشى بالفضة وحول وسطه حزام أحمر عريض، ومسدس فضي ، وسيف عريض له مقبض أسود . كان يمشي بخطوات بطيئة متثاقلة ، ينقل قدميه بحذر ، خشية السقوط فيكون سخرية القوم . فالروميون جميعهم عيونهم مثبتة عليه ، ومن العار أن يروه مخمورا أو مفتما ، او متهالكا في مشيته . صبغ شاربه وحاجبيه بصبغة سوداء غليظة . كان يرفع يده اليمنى بين آونة وأخرى ينتف بها شعرة من شاربه ويلقى بها الى الأرض . كان عابس الوجه متجهما ، مسجور العينين ، يحدق بهما كثور يتهيأ للهجوم . ضمخ شعر رأسه وابطيه بالمسك ، وعبق الجو اثناء سيره برائحة وحش برى هائج .

تحاشى النظر الى يوسوفاكي خوفا من ان تغلبه عبراته على غير ارادة منه . واتجه مباشرة حيث وقف في مكانه تحت شجرة السنار . واقترب الحارس من بنايوتي ، وأمسك به بكلتا يديه ، ودفعه بوحشية الى الأرض ، فتدخرج عند قدمي الأغا . ووطىء الحارس جسد السروجي الهامد ليثبته على الأرض ، وانتظر ..

رفع الأغا يده ، وأعلن على الملأ بصوت أبح :

ـ ياكفرة ! ساشنق واحدا منكم كل يوم ، حتى تكشفوا لى عن القاتل . كل القرية ستاخذ طريقها الى هنا تحت شجرة السنار . حبيبى يوسوفاكى فى كفة ، والعالم كله فى الكفة الأخرى . ساشنق العالم كله ، يا كفرة .

احتدم غضبه ، وازداد هياجه أثناء الكلام ، وضرب الأرض بقدميه على نحو ما يفعل الحصان . وتفرس القوم رجالا ونساء بعينين تفصحان عن لهفة لابادتهم جميعا . وفاحت رائحة من فمه وشعره وابطيه . توقف عن الكلام وبدأ يركل بانايوتى ، ويطأه بقدميه . وغطى شفتيه زبد أصفر .

وصرخ فيه :

ـ هل أنت قاتل يوسوفاكى أيها الكافر الدنس ؟ هل أنت قاتله ؟ اعترف !

لم ينبس بانايوتى ببنت شفة وقنع بالأنين .

وتصبب الأغا عرقا ، وأحس بالتعب ، واستدار ناحية حارسه حسين وصرخ .

ـ أشنقه .

وفى تلك اللحظة دوى صوت يقول :

ـ انتظر ! انتظر ! أنا أعرف القاتل !

رفع الحارس يده عن رقبة بانايوتى . وتدافع الناس ، وسرت بينهم صيحات فرحة ، بينما استدار الأغا ناحية الصوت وصاح :

ـ من المتكلم ؟ ليتقدم ويرينى نفسه .

تقدم مانولى فى هدوء شديد حيث وقف أمام الأغا . ووثب الحارس فى مكانه وأرهف السمع . كانت ذقنه ترتجف ، وحال لونه كليمونة صفراء .

وقال الأغا وقد امسك بذراع مانولى وهزه فى هياج :

ـ هل أنت الذى تعرف القاتل ؟

ـ نعم أعرفه .

ــ من هو ؟
ــ أنا

ومرت هزة كبيرة بين القوم تنم عن الفرح ، فقد انزاح الهم عن قلوبهم • ووشمت النساء علامة الصليب • وأشرقت الوجوه • واستردت القرية أنفاسها ، فقد قدر لها النجاة •

وصاح الأغا وهو يلوح بالسوط :

ــ اسكتوا يا كفرة .

لوح ياناكوس بذراعه وهو يصيح :

ــ غير صحيح ! غير صحيح !

وصاح قسطندى وميشيل وهما يحاولان الاقتراب من الأغا • ولكن الجموع ألقت بنفسها فوقهم ، وكتمت أصواتهم :

ــ اهداوا . اهداوا . انه هو . انه هو ! لا تقولوا شيئا حتى ننجو!

وضحك حسين ضحكة مجلجلة اهتز لها كيانه . واندفع ليمسك بمانولى ويضع الحبل حول رقبته . بيدان الأغا دفعه بعيداً عنه ، ودنا من مانولى ، وحدق فى عينيه •• وزأر :

ــ هل هو انت يا كافر ؟

ــ أنا

ــ انت قاتله ؟

ــ أنا كما أقول لك : أشنقنى . اطلق سراح باناپوتى فانه برىء .
وحملق باناپوتى فى مانولى بعينين واسعتين . فتح فمه ، ثم أغلقه .
كان هلعا ، واحتبس صوته . لم يدر شيئا مما يدور حوله .. هل مانولى هو القاتل حقا ؟

وصاح به صوت فى أعماق نفسه : « لا ! لا ! مستحيل ! « لو كان يفعل هذا ابتغاء نجاتى اذن فعليه اللعنة . فأنا لا أريد ذلك » .

حاول أن يثب ويصرخ . « لا أريد » ولكن الحارس أمسك بالسوط وصاح :

ــ كفى هذا يا كافر .

افاق الأغا تماما ، وتفرس فى مانولى يحاول ان يفهم شيئا . وقال:

ـ ولكن لماذا ؟ ماذا فعل بك ؟

ـ لم يفعل شيئا يا أغا ، ولكن الشيطان أغوانى وحرضنى على قتله . اذ بينما كنت غارقا في نومى أثناء الليل سمعت صوتا يقول لى « اقتله » . نزلت الى القرية قبل الفجر وقتلته . لا تسألنى عن شيء أكثر من ذلك . اشنقنى .

اندفع حسين نحوه والحبل فى يده . أمسك بذراع مانولى . وفى هذه اللحظة ندت من بين صفوف النساء صرخة مولولة :

ـ انه برىء يا أغا . لا تصغ الى كلامه . انه برىء ! برىء ! برىء !

ودوت صيحات من حول كاترينا :

ـ اخرسى يا عاهرة .

وتدافعت النساء نحوها يردن كتم انفاسها .

وصاحت الأرملة :

ـ انه يدين نفسه لينقذ القرية ! ألا تأخذكم به رحمة ؟

ولكن النسوة كن قد طرحنها ارضا ومضين يطأنها بأقدامهن .

وجاهدت الأرملة لتخلص نفسها وهى تصيح :

ـ مانولى ! حبيبى مانولى ! .

وصاح الأصدقاء الثلاثة بدورهم بعد ان شقوا لأنفسهم طريقا ووصلوا أمام الأغا .

ـ انه برىء ! برىء ! برىء ! .

وقال ميشيل :

ـ يا أغا اراهن برأسى ان كان هذا الفتى هو القاتل . انه راعى أغنامنا ، وهو قديس بكل معنى الكلمة ، فلا تمسسه بسوء .

استبدت الحيرة بالأغا وهو يتفرس فى مانولى ، بينما الصيحات تقرع أذنيه . ثم تطلع الى يوسوفاكى ، فاحتدم الغضب فى صدره ، وفقد صوابه . لم يعد يستبين شيئا ، واحس بدوار . وسأل نفسه وهو يحملق في مانولى : « هل هو قاتل ؟ أم مجنون ؟ ام قديس كما يقولون ؟ ليأخذنى الشيطان فلم أعد أدرى من امرى شيئا ! .

تملكه الغضب ، وجن جنونه ، ثم استدار الى حسين وأصدر اليه أمرا وهو يشير الى مانولى :

ــ الى السجن . سأتخذ قرارى غدا .

ثم وجه حديثه الى الحشد :

ــ عليكم اللعنة يا كفرة . اغربوا عن وجهى .

وتفرق الجمع ، يتنازعهم شعور بالخوف والسرور . وتلاقى الجيران من النساء والرجال يتبادلون الرأى فيما شاهدوه من أحداث ، ويشكرون الله ان عرفوا القاتل .

كان كل منهم يسأل الآخر :

ــ هل تظن أنه مانولى ؟ ولكنه قديس حقا ..

وأجاب آخر :

ــ لا تشغل البال بذلك يا جارى . ماذا يهم أن كان هو أم غيره ؟ لقد اعترف وهذا يكفى . سيشنق وننجو نحن ، وهذا هو المهم ، وما عدا ذلك ليس الا ترهات لا نأبه لها . ليغفر الله له .

ــ ولكن لماذا يدين نفسه ؟ انا لا افهم شيئا . ليس هو القاتل يقينا ، حتى وان زعم ذلك ..

ــ آه ، مانولى ــ ؟ أنت لا تعرفه ، انه ملتاث ، هذا المسكين ، تتراءى له احيانا أوهام وخيالات . يزعم انه يفعل ذلك لينقذ القرية .. لا ، هل تصدق ذلك ؟ أيهلك نفسه ليخلص غيره ؟ .. هل لو كانت لديه ذرة من عقل كان يقدم على مثل هذا ؟ ابدا . ولكن دعه وشأنه ان كان هذا هو ما يريده لنفسه .

والتقى الأصدقاء الثلاثة فى بيت ميشيل . ظل ياناكوس يضرب راسه بجماع يده .

ــ انها غلطتى ، غلطتى انا ! كم أنا ابله ! كان أولى بى ان امنعه من النزول الى القرية . كان احرى بنا لو لم ننبئه بشىء . ولكن هل كنت أتصور ذلك ؟

وتمتم ميشيل :

ـ انه قديس يهب حياته فداء للقرية لينقذها .

وصاح قسطندى :

ـ يجب أن ننقذه . يجب ... يجب .

وقال ميشيل :

ـ لو اننى أوتيت القدرة على ان افعل ما فعله مانولى ، لما رغبت فى ان ينقذنى احد .. ألم تر كيف كانت عيناه تلمعان ؟ وكيف كان وجهه مشرقا ؟ كان كمن يسكن الفردوس . فلماذا نرده الى الأرض ثانية ؟ ليتنا نكون معه .

وصاح ياناكوس فى حماس :

ـ اننا نســـتطيع ذلك . ليس علينا الا أن نذهب ثلاثتنا الى الأغا ونقول له اننا تسللنا ليلا الى بيته وقتلنا يوسوفاكى . وليشنقنا جميعا ويعلقنا على شجرة السنار . هيا بنا نذهب جميعا الى الجنة الواحد فى اثر الآخـر .

وهز ميشيل راسه وقال معترفا :

ـ انا لا اقوى على ذلك ياياناكوس . كيف لى ان أترك ماريورى ؟

وقال قسطندى :

ـ ولا أنا ، فلى زوجة وأطفال .

وتروى ياناكوس وتدبر أمره وقال لنفسه :

ـ ولا انا ايضا ، فلى حمارى ولا أطيق البعاد عنه ! .

ولكنه لم يصرح بذات نفسه .

فى هذه الأثناء كان الأعيان الأربعة قابعين فى السجن ، مسندين ظهورهم الى الحائط فى انتظار ما قد يجد . تكوموا بجوار بعضهم داخل الطابق السفلى ، ولم يكن فى استطاعتهم وهم فى هذا المكان الغائر أن يسمعوا شيئا مما يدور فى الخارج . وانسل شعاع ضوء كابى من طاقة مستديرة فى أعلى السقف .

وتأوه الشيخ بطرياركاس :

ـ انى جائع ..

وقال القسيس جريجوريس :

ـ كلنا جوعى وظماء ولكن يجب أن تدخل التجربة بصبر وجلد . الله معنا في عرين السباع . ثقوا بالله .

ثم استدار الى من بجواره وقال :

ـ تشجع يا أب لاداس . ها أنت ترى الآن أننى كنت على حق ؟ كم من مرة قلت لك : « لماذا تكنز الأموال ياشيخ لاداس ؟ لن تأخذ خزائنك معك الى القبر . افعل خيرا : فالخير وحده هو الباقى لك حتى يوم الحساب ، وهو شفيعك أمام الله . ما رأيك الآن ؟ الا تأسى على مافاتك ؟ .

وتنهد الشيخ لاداس . وادار رأسا طويلا كرأس طائر نتف ريشه ، وحدج ناظر المدرسة بنظرة كلها كراهية ، ولكن دون ان ينبس بكلمة .

وقال القسيس جريجوريس :

ـ موعدك غدا يا شيخ لاداس . ستمثل بين يدى الله غدا . يجب أن تعترف . اركع وتذكر كل ما اقترفت من آثام ، واسأل الله الصفح والغفران . لا زالت أمامك فسحة من الوقت .

واجاب الشيخ لاداس الذى بدا عليه الهم :

ـ لم اقترف اثما فى حق أحد ، كما لم أفعل خيرا لأحد . لم اقتل احدا . أنا برىء .

وصاح الشيخ بطرياركاس :

ـ الم تقترف اثما فى حق احد يا شيخ لاداس ؟ سافشى كل أسرارك أيها البخيل العجوز فى هذه اللحظة التى تقف فيها على حافة القبر ، اذ لم أعد أطيق كتمانها . لم ترتكب اثما فى حق أحد ، هه ؟ من الذى باع بيت الأرملة أنزينا ؟ ومن الذى باع كرمة العجوز انستى ؟ من الذى عرضها فى المزاد ؟ واليتامى الذين يهيمون على وجوههم الآن يتسولون فى الطرقات ـ من الذى دفعهم الى هذا السبيل ؟ وابنتك ارجيرولا التى هى من دمك ولحمك ، من تسبب فى موتها ؟ أنت ، أنت نفسك ، بسبب بخلك وسعارك ! اذهب اليوم لتمثل بين يدى الله يحاسبك وترد ما عليك من ديون ! .

جن جنون الشيخ لاداس ، ودبت فيه الحياة من جديد ، وابتعد بظهره عن الحائط ، وقال بصوت كانه الصرير :

ـ ترى القشة التى فى عين أخيك ولا ترى الخشبة التى فى عينك . هل بلغت بسيادتكم الجراة الى حد اتهام الآخرين ؟ ولكن للأسف ،

لو سمحت لنفسى ان أنشر غسيلك القذر فلن انته من ذلك غدا . ماذا فعلت أنت فى حياتك على الأرض ايها الخنزير النبيل ؟ اكلت على نحو ما يأكل الغول ، وشربت كأنك تعب فى قربة مثقوبة ، واغتصبت النساء، وملأت القرية بأبناء السفاح ، وكذلك فعلت فى القرى المجاورة .. قضيت حياتك تنبلا كسولا ، تتعاون مع الأتراك ، تداهنهم وتتذلل لهم وتقدم لهم فروض الولاء والطاعة .. الأعيان والقساوسة بل والأساقفة، توددتم كلكم الى الاتراك وكنتم يدا لهم .. زوجك أنت ، وقد كانت زوجة قديسة ، الست أنت الذى قصفت عمرها ؟ ضاقت ذرعا بنزواتك وملاحقتك للنساء . أنت الذى سقتها الى حتفها ، تلك المسكينة .

وهب الشيخ بطرياركاس واقفا . حاول ان يمسك بتلابيب لاداس، ولكن تدخل زميلاهما وباعدا بينهما .

ثارت ثائرة الشيخ لاداس . اعتاد طوال حياته أن يترك الناس تقول عنه ما تشاء ، ويصمت هو ، ويتظاهر بالغباء . فقد ذل هو الآخر للأتراك ، وقدم لهم فروض الولاء والطاعة ، وتقول على الناس وكذب ، كل هذا ليتودد الى أصحاب السلطان . ولكنه الآن يقف امام الموت وينفجر . أراد أن يفشى بكل شىء ، أن يقىء كل ما ابتلعه فى حياته ، ويثأر لنفسه ، ويبطل دعواهم أنهم خير منه . لذلك فقد قال ما قال واعيا به عامدا متعمدا . اذن ليفضح كل بذاءاتهم ، واى بأس فى ذلك ؟ هل به حاجة اليهم بعد اليوم ؟

واستدار ناحية القسيس جريجوريس وبدأ صوته يصفر :

ـ وأنت أيها القسيس الدعى ، يا من تطالبنا بأن تعترف على يديك . حدثنى بأى وجه ستمثل بين يدى الله ؟ تروح وتجىء بين القرية مزهوا مختالا كالديك .. وقداستكم ايضا تأكلون بنهم كأى شره مسعور ، واذا طرق مسكين بابك وأنت جالس الى طعامك تحشو كرشك ، فانك تجيبه بصوت يذوب حلاوة ووداعة : « حن الله عليك يا أخى ، فانى جائع مثلك » . كل ذلك بينما الدسم يقطر فوق شعر لحيتك التى تشبه لحية التيس ! الويل كل الويل للمسكين الذى توافيه منيته ولا يملك ما يدفعه اجر دفنه : تتركه فى العراء حتى يتعفن . دائما يدك ممدودة تبيع المسيح بثمن غال : مبلغ وقدره كذا نظير المباركة ، ومبلغ وقدره كذا أجر التعميد ، مبلغ وقدره كذا لقاء عقد القران ، مبلغ وقدره كذا أجر التناول ـ بل وصل بك الأمر الى حد ان سلكت سلوك المرابين ووضعت تعريفة لدخول الجنة يا مصاص الدماء : « يا رعايا

ادفعوا والا فلن تدخلوا » يا للوقاحة حين تطلب الاعتراف من الشيخ لاداس ، هذا الرجل القديس الذى عاش حياته جائعا ، محروما من كأس نبيذ يشتهيه ، مهلهل الثياب ، حافى القدمين ، خاوى البطن كأنه رسول حقيقى ·· هذا هو أنا ـ هل رأيت ؟ ·· ثم تطالبنى أنا بأن أعترف لك أنت أيها المبطان » ·

كان القسيس جريجوريس ينصت له منكسا راسه فى تواضع مسيحى زائف ، بينما كان الغضب يضطرم فى صدره . كان يود لو استطاع أن يلوى ذلك العنق اليابس . ترى أين كانت تعبىء هذه الجيفة كل ذلك الحقد ؟ اذن هذه هى سريرته التى كان يضمرها طوال تلك الأعوام ·· هذا الكريه العجوز · ها هو الآن يقىء ما فى نفسه ويفضح دخيلته ·

وتصنع الحسرة وقال :

ـ استمر ، استمر يا عزيزى لاداس · عانى المسيح أكثر مما أعانيه أنا الآثم المسكين · سخروا به واغتابوه وجلدوه وصلبوه ولم يشك · فهل لى أن أشكو أنا ؟ استمر ، استمر يا عزيزى لاداس ·

لم يكد الشيخ لاداس يهم بفتح فمه حتى تدخل ناظر المدرسة صائحا :

ـ عار علينا يا اخوتى · لم يبق من عمرنا غير سويعات واذا بنا نقضيها فى الحديث عن شئون الدنيا وآلامها بدلا من أن نتوجه بأرواحنا الى الله ·· اهدأ يا شيخ لاداس ، افضيت بكل ما فى قلبك ، وحسبك ما قلت · اهدأوا يا اخوتى واقلعوا عن المنازعة · ان خطايا البشر بغير حدود ·

وضحك الشيخ لاداس تهكما وقال :

ـ أيها الناظر التعس ، ماذا عساى أن اقول لك ؟ النظافة والقذارة عندك سواء · لست واسع الحيلة راجح العقل ، ومن ثم فانك لا تقوى الا على عمل النزر اليسير خيرا كان أم شرا · أحببت أن تقدم خيرا كثيرا يا صديقى المسكين ولكنك عجزت · واحببت ان تقترف شرا كبيرا ولكنك عجزت ايضا · لا شىء سوى تفاهات لا يؤبه لها · لك روح تاجر وضيع · تبيع بثمن بخس الألواح والطباشير والورق الشفاف والكراسات ··· ناظر مدرسة وكفى ، هذا هو أنت · كنت أيضا تبيع الطباشير كمن يبيع الجبن ـ كلمات طنانة جوفاء تؤمن بها احتفظ بها لنفسك ·

كان يتعجل ان يقول كل شىء ويريح نفسه · فاستدار الى الباقين:

وعوى والغضب فى عينيه :

ـ مالى اراك تنظر الى عابس الوجه ؟ حاق الفعل السيء بأهله .. وها أنت حاولت أن تسيء الى فارتد السيف الى نحرك . ولعل فى ذلك عبرة لك .

رفع القسيس جريجوريس عينيه وأوما الى الشيخ بطرياركاس وقال:

ـ لا ترد عليه .

فكظم رئيس الأعيان غيظه ولزم الصمت .

وهب ناظر المدرسة واقفا اذ سمع وقع خطوات تقترب . جمد الدم في عروقه ، وتمتم قائلا :

ـ ها هم ..

استدار القسيس جريجوريس الى الشيخ لاداس وبسط اليه يده يباركه . وقال بصوت وقور :

ـ ليغفر الله لك يا أخى . ليغفر لك كل ما تفوهت به . أفرغت كل ما فى نفسك من قذى وتخلصت منه . وها أنت أيها التعس قد اعترفت عن غير قصد منك . ليغفر الله لك كل ما تقدم من ذنبك . انهض ياشيخ لاداس . حان دورك ، وهذا موعدك .

ولكن الشيخ لاداس خر الى الأرض منهارا وجسده ينتفض .

تردد صوت سباب وصياح ووطء بالأقدام . ودفع الحارس الباب بمنكبه ففتح على مصراعيه ، وقذف ببانايوتى ومانولى الى داخل الزنزانة بقوة حتى أنهما ارتطما بالجدار . ثم اغلق الباب .

وصاح بطرياركاس :

ـ مانولى !! .. ماذا جاء بك الى هنا ؟ لماذا أتوا بك ؟

وقال ناظر المدرسة :

ـ الا زلت حيا يا بانايوتى ؟ ألم يشنقوك ؟ حمدا لله .

وجار بانايوتى وهو يخطو ناحية الركن الذى يقبع فيه :

ـ لا زالت حيا ، لعن الله من كان سببا فى ذلك .

ورفع الشيخ لاداس عينيه وحملق بقوة فى بانايوتى ، ومد يده يتحسسه .

ـ ألا زلت حيا حقا ؟ لماذا لم يشنقوك ؟ هل أسف الأغا على مافعل؟ هل غير رايه ؟

كان قلبه يخفق بقوة حتى كاد يتصدع وهو يطرح أسئلته ٠

ولم يجب عليه احد ٠

وقال القسيس جريجوريس :

ـ استلق يا مانولى حتى تسترد أنفاسك ٠

وطلب منه العمدة بطرياركاس بصيغة آمرة :

ـ حدثنا يا مانولى ، فلم نعد نطيق الانتظار ٠ هـــل عثروا على القـــاتل ؟

واجاب مانولى :

ـ نعم ، عثروا عليه ٠

وصاح الأربعة بصوت واحد ، وقد تدافعوا نحوه :

ـ من ؟ من ؟ من ؟

واجاب مانولى :

ـ انا ٠

ـ أنت ؟

وجفل الأربعة ، وتراجعوا الى الوراء محملقين فى مانولى ، فاغرين أفواههم ٠ وخيم عليهم الصمت لفترة طويلة ٠

وصاح الشيخ بطرياركاس اخيرا بعد أن استعرض فى رأســـه حياة مانولى :

ـ مستحيل ! مستحيل ! لا ، لا ، هذه نهاية العالم !

وقال ناظر المدرسة :

ـ انا أيضا لا اصدق ٠ لماذا قتلته ؟ هل تستطيع ان تقتل يامانولى؟ لا ، ابدا ، انت لا تستطيع ذلك ٠

كان القسيس جريجوريس هو الوحيد الذى ظل يتطلع الى مانولى دون أن ينبس بكلمة ٠

وسأله بطرياركاس :

ـ لماذا لا تجيب يا مانولى ؟

وقال مانولى وهو يمسح العرق الذى تصبب من جبينه :

ـ أجيب عن اى شيء يا سيدى ؟ انا القاتل وليس عندى ما اقوله غير هذا . أليس فى ذلك الكفاية ؟

وصاح الشيخ لاداس :

ـ نعم ، حسبنا هذا يا ولدى ! عثروا على القاتل ونجونا نحن . ان الله موجود .

زحف مانولى حيث جلس تحت شعاع الضوء الذى ينسل من الكوة . واخرج الانجيل من جيب سترته وفتحه كيفما اتفق وبدأ يقرأ ، ونسي كل ما حوله .. دخل السفينة مع المسيح ، واندس بين الرسل . وابحروا فوق بحيرة جينيسارت . ومع المساء هبت ريح هوجاء .. وكان المسيح متعبا ، اذ قضى سحابة نهاره يعلم الجموع . فاستلقى على الشباك عند مؤخر السفينة ونام .. ولكن ريح الشمال هبت عنيفة عاتية أكثر واكثر . كانت تهب من فوق جبال جيلاد ، ترتطم بماء البحيرة ، وهاجت الأمواج ، وبدات تضرب السفينة الصغيرة فى ثورة وغضب . وتملك الهلع تلاميذ المسيح . كانوا يتمتمون قائلين :

ـ انا هالكون ! انا هالكون ! لو كان السيد يستيقظ . ولكن لم يجسر أحدهم على ان يقطع النوم المقدس . واقترب منه بطرس ، وانحنى فوقه ، وتطلع اليه على ضوء ومض البرق ، فاذا وجه المسيح هادىء ، سعيد مبتسم .

تجمع التلاميذ خلف بطرس وصاحوا به :

ـ ايقظه ! ايقظه ! .

استجمع بطرس شجاعته ، ومد يده ، ومس كتف المسيح فى رفق . وقال :

ـ يا سيد ، نجنا فانا هالكون .

فتح المسيح عينيه ، وتطلع الى تلاميذه وهم يرتعدون فرقا . هز رأسه وقال لهم فى مرارة :

ـ بعد كل هذا الوقت بينكم ولازلتم لا تؤمنون بى .

وتنهد ، ونهض من نومه ، ووقف عند مؤخر السفينة ، ورفع رأسه ، وانتهر الرياح قائلا :

ـ اهدئى .

وأشار الى البحيرة الهائجة وقال :

ـ اسكنى .

وصار هدوء عظيم . هدات الريح ، وسكنت الأمواج ، وسطعت النجوم ثانية ، وعاد الوجود بسام المحيا .

هز مانولى رأسه وحدق فى رفاقه الخمسة . كانت عيناه الزرقاوان براقتين فرحتين هادئتين مثل مياه بحيرة جنيسارت .

بدأت الحياة تدب من جديد فى الأب لاداس ، ها هوذا يقف الآن على قدميه ، يروح ويغدو ، ويفرك يديه ببعضهما سعيدا .

ـ « حمدا لله أن عثروا على القاتل ونجونا نحن . مسكين انت يا مانولى . أنا حزين عليك ولكن أيا كان الحال فليس الأمر شرا الى هذا الحد . فأنت فقير معدم خادم ، ثم لا زلت حدثا . لم تذق حلاوة الحياة بعد . فلا بأس أن لقيت حتفك . انه لمن حسن الحظ أن اعترفت أنت ونجوت أنا » .

وقف فى مكانه ، ونظر بطرف عينيه الى رفاقه ، وزم شفتيه . وحدث نفسه قائلا :

ـ كيف لى بحق الشيطان أن أصلح ما بينى وبينهم ؟ كيف لى وقد نجوت أن أصلح ما بينى وبين هذا القسيس التيس ، وبطرياركاس اللعين الذى دعوته بالخنزير النبيل ؟ أما عن ناظر المدرسة فأنا لا أعبأ به . ولكن ماذا عن الآخرين لقد تسرعت وسبق السيف العذل ، ولكن لازالت هناك فرصة ، ومن حسن الحظ أننى نجوت .

كان الشيخ بطرياركاس يحدق فى مانولى الذى انكب على قراءة الانجيل . كان متحيرا من أمره . ومال على القسيس وهمس قائلا :

ـ يا أبانا ، عندى فكرة .

أدرك القسيس جريجوريس ما يعنيه ، وتنحنح ثم قال :

ـ لا تسأل عن شيء يا عمدة • دع الأمور تجرى كما يشاء لها الرب•

ـ ولكن ماذا لو كان بريئا ؟ ماذا لو كان فعل هذا من أجل خلاص القرية ؟ هل نتركه وشأنه ؟ أليست هذه خطية ؟ هل تتحمل وزر ذلك ؟

وقال القسيس :

ـ ان الله غفور رحيم • سيغفر لى خطاياى •

ـ قد يغفر لك الله ، ولكن ماذا عن الناس ؟

قال القسيس وهو ينفخ متأففا :

ـ اذا كان ما بينى وبين الله عمار فلا يعنينى أمر البشر •

ـ ثم •••

وتدخّل ناظر المدرسة الذى كان قد دنا منهما واستمع الى حديثهما، فاضاف قوله :

ـ لا داعى لأن نرهق أنفسنا بالبحث فى ذلك ، ولندع الامور للخالق •• فكل شيء بمشيئته •• ثم يجب ألا ننسى أن مانولى يخلص روحه أيضا • وهذا شيء له قيمته بكل تأكيد •

وزايد القسيس على ناظر المدرسة فقال :

ـ بل هذا أقيم شيء • سيخسر الحياة الدنيا ويكسب الحياة الآخرة •• مثل ذلك كمثل من يعطى مليما من النحاس ويجزى عنه مليونا من الجنيهات ذهبا •• لا تجزع ، فان مانولى يعرف جيدا ماهو مقدم عليه•

وقال ناظر المدرسة وهو ينظر الى مانولى مبتسما :

ـ انه قرد ذكى حقا •

رفع مانولى عينيه من على الانجيل ، كان وجهه وضاء مشرقا • وفى هذه اللحظة دخل الحارس حسين وانقض عليه ، وأمسك بتلابيبه •

وصاح به :

ـ تعال هنا يا كافر • الأغا يريد أن يراك •

وتمتم مانولى :

ـ باسم المسيح •

كان الأغا فى حجرته متربعا فوق حشية ، يدخن غليونه الطويل ، ويوسوفاكي مسجى بجواره ٠ الوقت ظهرا ، والحر هجير ، وجثة يوسوفاكى بدأت تفوح منها رائحة العفن ٠٠ دلفت مارثا الحدباء الى الحجرة فى سكون ، متأبطة حزمة من الورد والياسمين وزهر العسل ٠ ألقت بحملها كومة واحدة فوق الجثة التى بدأت تتحلل ، ثم ولت مسرعة ، إذ لم تقو على تحمل الرائحة ٠

كان الأغا غارقا فى حزنه ، فلم يشم الرائحة ٠ يدخن غليونه شارد الفكر فى تأمل عميق ، مكدودا ، ساكنا ، لا يفتأ يردد منذ الصباح قوله: «قدر مكتوب ٠٠ قدر مكتوب ٠٠» والتمس فى تأمله هذا عزاء هدأ من روعه ٠ ألقى بمسئولية خطايا البشر على الله ، وارتاح لذلك ٠ وهل لنا أن نعترض على الله ؟ هكذا أراد ، وهكذا كتب علينا فى لوحه المحفوظ ٠ فما من شيء يحدث الا باذنه ٠ ليس لنا الا أن ننكس الرأس خضوعا ، ونصمت اذعانا ٠٠ أليس هو الذى كتب منذ الأزل أن يلتقى أغا ليكوفريسى بيوسوفاكى فى سميرنا ؟ أليس هو الذى قدر فى سابق علمه من الذى سيقتل يوسوفاكى ؟ أليس هو الذى كتب فى لوحه المحفوظ أن نعثر على القاتل ؟ ٠٠ كل شيء مكتوب علينا ٠٠

أبصر مانولى يدخل ، فوضع غليونه على الحصير الذى كان جالسا عليه ، ثم عقد ذراعيه ٠

وقال فى هدوء :

ـ اصغ جيدا يامانولى الى ما سأقوله لك الآن ٠

ثم التفت الى حارسه وقال :

ـ ليس بى حاجة اليك الآن ٠ انتظر خارج الباب ٠

ـ رأيت فى منامى الليلة أنك لست قاتل حبيبى يوسوفاكى ٠٠ أسكت يا كافر ، دعنى أتكلم أنا ٠٠ أنت أقدمت على ذلك لكى تخلص القرية ٠ لا بد أنك قديس أو مجنون ٠٠ ولكن هذا شأنك ٠٠ ثق أن كل شيء سيتم حسب ما أردت ، سأشنقك ٠ ولكن ثمة شيئا واحدا أريد أن أعرفه يا مانولى : هل حقا أنت الذى قتلت غلامى يوسوفاكى ؟

استشعر مانولى أسى لحال الأغا ٠ لم يسبق له أن رأى حزنا كهذا٠ لم يعد الأغا ذلك الوحش الكاسر الهائج ٠ أحاله الحزن انسانا ٠ وتردد لحظة ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ورفع رأسه وقال :

ـ يا أغا ، انه الشيطان الذى حرضنى على فعلتى . قدر مكتوب على أن أكون أنا قاتله .

أسند الأغا ظهره الى الحائط وأغمض عينيه . وغمغم :

ـ الله .. الله .. العالم حلم ، أصبحت يتيما .

وفتح عينيه ، وصفق بيديه . ودخل حسين ، فقال له :

ـ خذه . اشنقه على شجرة السنار ساعة الغروب .

***

فى هذه الأثناء كان الرفاق الثلاثة ، ميشيل وقسطندى وياناكوس يطوفون ببيوت القرية ، يطرقون أبوابها ، ويتوسلون الى أهلها ألا يدعوا بريئا يلقى حتفه .

ظل ياناكوس يصيح قائلا :

ـ مانولى برىء .. برىء ! انه يفعل هذا ابتغاء خلاص القرية ..

ورد عليه عجوز من رجال القرية :

ـ حسن ، ماذا تريد منا أن نفعل ؟ اذهب الى الأغا وقل له ان مانولى ليس هو القاتل .. ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ سيبدأ الأغا فى شنق أهل القرية الواحد بعد الآخر حتى يفنى القرية عن آخرها . ومن ثم يلقى آلاف من الأبرياء حتفهم بدلا من برىء واحد .. هل هذا عدل ؟ وهل فى ذلك خير لنا ؟ أليس من الخير أن يموت واحد فقط بدلا من آلاف ؟ فضلا عن أنه هو الذى أراد ذلك لنفسه . دعه يموت لننجو نحن وأطفالنا ثم نصنع له بعد ذلك أيقونة نضىء حولها الشموع ونمجده كقديس . أما الآن فليلقى منيته أولا .

وتحدث رب أسرة كبيرة الى ميشيل ، وسأله فى ضيق :

ـ أيها السيد الشاب ، هل لك أطفال ؟

ـ لا .

ـ حسن . اذن ليس لك أن تتكلم ودعنا فى سلام .

والتفتت الى ياناكوس امرأة عجوز تهدهد حفيدها فوق ركبتيها ، وقالت :

ـ مالى أراك تلح هكذا ياياناكوس ؟ ليمت ألف مانولى فداء حفيدى .

ومسح ياناكوس عينيه وقال فى حسرة :

ـ انهم وحوش كواسر ، ذئاب وثعالب .

وأجاب ميشيل :

ـ لا ، ليسوا وحوشا كواسر ياياناكوس ، بل هم بشر وكفى .. هيا بنا لا نريد أن نضيع وقتنا ولتكن مشيئة الله .

واستاء ياناكوس لذلك فقال :

ـ أنت تفكر فى أبيك ، اذ سيفلت الشيخ بهذه الطريقة .

نظر ميشيل اليه بعينين دامعتين .

وصاح ياناكوس :

ـ آسف يا ميشيل . لم أعد أدرى ما أقول .

وما أن بلغا الميدان حتى أبصرا كاترينا فى أجمل زينتها . كانت قد غسلت شعرها من فورها ، وارتدت أحسن لباسها . خفت اليهما كأنها يخت ملكى ناشر شراعه يمخر عباب البحر بأقصى سرعته .

وسألها ياناكوس :

ـ الى أين ياكاترينا ؟

وصاحت الأرملة مولولة وقد فاضت عيناها بالدمع :

ـ يا جبناء ، هل ستتركون مانولى فريسة للموت . أنا لن أفعل مثلكم . سأذهب لأقابل الأغا .

وصرخ قسطندى :

ـ الأغا ؟ ماذا تريدين منه ؟ هل تنوين العودة الى مضاجعته ؟ بدأت تحنين الي عشاقك القدامى ؟ .

وقال ياناكوس :

ـ حتى أنت ياكاترينا ، ذهب الحزن بعقلك .. اذهبى اليه وافعلى ما تقدرين عليه .. رعاك الله .

وقال قسطندى الذى أسف لسخريته بها :

ـ ولكن قد يقتلك الأغا وهو فى سورة غضبه . ارجعى ياعزيزتى المسكينة كاترينا ..

وردت الأرملة :

ـ سئمت الحياة · حسبى أن أخلص مانولى ·

ثم انسلت الارملة داخل فناء بيت الأغا وغابت عن الانظار ·

وتمتم ميشيل حين أبصرها تدخل بيت الأغا مرفوعة الرأس ، وقد كان الباب مفتوحا على مصراعيه ·

ـ انها خير منا جميعا ··

كان الجو حارا ، والزمن ثقيلا ، وانبعثت من القاعة الكبيرة رائحة خانقة تفوح من الزهور والجثة المتحللة ·· أسند الأغا رأسه الى السرير المعدنى الصغير وراح فى سبات · كان يبتسم وهو نائم · لابد أنه يحلم، تتراءى له مأساته كابوسا عابرا ، وسيجد نفسه فى صحوه جالسا فى شوفته وبجانبه يوسوفاكى يملأ له كأس العرقى ··

وثمـة حمامتان تحومان فوق الشرفة ، تلتقيـــان وتقبلان بعضهما بمنقاريهما ثم تهدلان · يتردد هديلهما فى سمع الأغا وهو نائم فيبتسم· وفى الفناء من تحتهما كان الصنبور مفتوحا ينساب منه الماء فتسمع لصوته خريرا · والكلب باســط ذراعيه بالوصيد فوق الحجارة يلهث · وقط أسود كبير سمين ، لاذ بالظل وعيناه الخضراوان تلمعان فى سحر وقلق·

اجتازت كاترينا الفناء بسرعة خاطفة خشية أن يلمحها الحارس أو أن يكشف سرها نباح الكلب · ولكن الحارس لم يلمحها ، والكلب شم رائحتها فتعرف عليهـــا ، وهز ذنبه راضيا مرحبـا · والتقطت الأرملة أنفاسها · وأحست برائحة غريبة مقززة تمسك بخناقها ، فالجـو عبق برائحة عطرة وكريهة معا ·· كانت كاترينا تعرف مداخل البيت ومخارجه جيدا · فكم من مرة فتحت لها مارثا الباب خلسة أثناء الليل وقتما كان الأغا لا زال وحيدا · كان هذا قبل رحلته الى سميرنا ، تلك الرحلة التى عثر فيها على حبيبه يوسوفاكى فى حى‌ستركى · رأى يوسوفاكى جالسا فوق مقعد صغير مطعم بالصدف وسط مقهى ويغنى أغانى آمان · وما أن وقعت عليه عينا الأغا حتى فقد صوابه · ومنذ تلك اللحظة نسى كاترينا تماما ، ولم يعد لها مكان فى قلبه · وكثيرا ما حاول الحارس أن يذكره بالأرملة ، ولكن الأغا كان يضحك من كلامه · وذات يوم قال له : « أيها العجوز الطيب يحكى أن الباشا دعا ذات يوم أحـد أصدقائه ليكون له نديما فى شرب العرقى · ولم يقدم له مزة سوى اناء به زيتون وآخر به كافيار · واذا بالصديق لا يأكل غير الكافيار ولم يقرب الزيتون · فقال

له الباشا : « كل زيتونا أيضا يا سعادة البـك » • وأجاب الصديق : « الكافيار لا يدانيه شيء ياسـعادة الباشا ، وأنا مولع به حبا » • هل فهمت يا حسين ؟ حبيبى يوسـوفاكى هو الكافيار •• وأمسك الحارس عليه لسانه ، ولم يذكر له الأرملة منذ ذلك اليوم •

كانت كاترينا قد اجتازت الفنـاء ودلفت الى البيت • وتوجست خيفة : المرآة المكبيرة والحشايا والكراسى المبطنة والمدفأة النحاسية الضخمة والأريكة ، كلهـا كانت هدفا للأغا ، نفس فيهـا عن غضبه وأحالها الى شظايا •

وسرت فى جسدها رعدة ، وحدثت نفسها قائلة :

ـ هكذا فعل بانايوتى أيضا من أجلى ••

سمعت وقع خطوات ، فتوارت خلف حشية مهشمة • ظهر الحارس عند الباب • أصبح شبحا حقيقيا ـ تغضنت وجنتاه ، وغارت عيناه في محجريهما ، وسال لعابه من بين شفتيه • توقف هنيهة وتلفت حوله دون أن يعى شيئا مما يراه ، وتنهد ثم خرج الى الفناء يترنح • قبع بجوار الكلب وأجهش بالبكاء •

وشمت الأرملة علامة الصليب • وتمتمت قائلة :

ـ «يسوع ربى ، أنت وحدك من يفهم المرأة ويغفر لها كل خطاياها• ها أنذا مهيأة لكى أمثل بين يديك» • كانت قد استحمت وارتدت أحسن ثيابها وضمخت شعرها بماء الورد •• وعادت تتمتم « يسوع ربى هاأنذا مهيأة •• »

ـ كاترينا يا عزيزتى ، ماذا تفعلين هنا ؟ عودى من فورك الى بيتك• ماذا تريدين يا منكودة الحظ ؟ •

استدارت الأرملة فرأت مارثا متأبطة حزمة زهور وتهم بالصعود الى الحجرة • كانت شاحبة الوجه ، شعثاء الشعر •

فقالت الأرملة :

ـ مارثا ، أريد أن أرى الأغا ••

ـ أتجسرين على ذلك ودم يوسوفاكى لم يجف بعد •• انه سيقطعك اربا اربا أيتها التعسة •

وعادت الأرملة تقول :

ـ مارثا ، أريد أن أرى الأغا ·· أريد أن أفضى اليـه بسر خطير · فأنا أعرف القاتل ·

وضحكت العبدة العجوز فى تهكم وقالت :

ـ مانولى ؟

ـ لا ، انه شخص آخر سواه ·· ستعرفين فيما بعد ما يقشعر له بدنك ··

حطت العبدة العجوز حزمة الزهور فـوق الدرج وصعدت الى حيث تقف الأرملة ، وشبت على قدميها ·

وقالت لها همسا ، وعيناها يومض فيهما بريق :

ـ من ؟ من ؟ هل شككت فيه أنت أيضا ؟ وأنا أيضا ·· وأنا أيضا ·

وقالت الأرملة وقد أسقط فى يدها :

ـ من ؟

تفرست العجوز فى وجهها ، وهزت رأسـها ، وانحنت على الدرج ورفعت حزمة الزهور ، وقالت :

ـ لا شىء · أنا لم أقل شيئا ·· سأذهب لأضع الزهور فوق هذا الغلام اللعين · بدأ يتحلل · ليأخذه الشيطان !

وبصقت على الارض اذ أحست بقرف · وفجأة انفجر ما فى نفسها من حقد وضغينة :

ـ وأنت أيضا يا جميلتى ستأكلك الديدان · وأنا مثلك · لك أن تزهى ما شاء لك ذلك ، فكلنا سواء ·

وتردد فى القاعة صوت دوى عنيف سمعت بعده صيحة غاضبة ·

ـ من هناك تحت ؟ مع من تتكلمين أيتها الحدباء العجوز ؟ اخرسى ·

انكمشت العجوز الحدباء بينما تقدمت الأرملة فى جرأة ترتقى الدرج ·

ـ أنا كاترينا يا أغا ·

ولول الأغا

ـ ياعاهرة · اخرجى من هنا ·

ولكن الارملة أعرضت عن كلامه وارتقت الدرج فى هدوء ٠

ونادتها الحدباء همسا من تحت الدرج :

ـ يا كلبة الا تخافين ؟

هزت لهـا كاترينا كتفيها وواصلت سيرها ترتقى الدرج ٠ وفجأة أبصرها الأغا قبالته ٠

القت الارملة بنفسها عند قدميه وصاحت به :

ـ عفوك يا أغا ، عفوك !

ركلها الأغا فى جنون ، فانكفأت على بطنها ثم انقض عليها ليلقى بها من فوق الدرج ٠ ولكن الأرملة أمسكت بحـاجز السلم وبطنها الى الارض واخذت تصرخ :

ـ اسمعنى يا أغا ٠ لم أعد أطيق كتمان السر ٠ أتيت لأرتمى عند قدميك ٠ يا أغا أنا التي قتلته !

جأر الأغا ٠

ـ أنت ؟ أهو أنت ياعاهرة ؟

واستدار ، عيناه تطوفان فوق الجدران بحثا عن سيفه :

ـ أنا يا أغا ، أنا ، كم أنا شقية ، أنا الذى قتلته بدافع الحب ٠٠ والغيرة ٠٠ كنت أغار منه ٠ منـذ أن وطئت قدماه قصرك وأنت منصرف عنى لا تنظر الى ٠ لم تعد ترسل مارثا تدعونى اليك ٠٠ كنت أبكى ٠٠ أضنانى السقم ٠٠ كنت أقـف خلف بابى آناء الليـل وأطراف النهار أنتظر ٠٠ ولا شىء ٠٠ لا شىء البتة ٠ مـلأ يوسوفاكى عليـك حياتك ونسيتنى ٠٠ قصدت العرافين على اختلاف شاكلتهم ألتمس منهم العون ٠٠ وذات ليلة استعنت بشىء من السحر ووضعته عند عتبة بابك وانتظرت ٠٠ ولكن عبثا ، يوسوفاكى ملأ عليك حياتك ونسيتنى ٠٠ أنا يامن أحببتك كثـيرا وأحرقتنى نار الوجد ، وأكلنى جحيم الغيرة حتى أذهبت عقلى ٠٠ وعندما انتصف الليل استللت سكينا ٠٠ ٠

وزحفت على بطنهـا حتى دنت من قـدمى الأغا ، واحتضنتهما ، وبدأت تعول :

ـ يا أغا ، أقتلنى يا أغا ! ما جدوى الحياة لى ؟ أقتلنى !

كان الآغا لا زال يبحث بعينيه فوق الجدران عن سيفه دون جدوى. بدأ البيت يدور أمامه ، وغامت عيناه فلم يعد يستبين شيئا .

واستلت الأرملة سكينا من داخل صدرتها ، واعتدلت لتجثو على ركبتيها ، وقالت :

ـ ها هي يا أغا السكين التي قتلته بها .. ثم عادت تقول وقد كشفت عن نحرها :

ـ ها هي ، بهذه السكين يا أغا .

تدافع الدم الى رأس الأغا ، واحمرت عيناه ، واستدار فوقع بصره على يوسوفاكي مسجى خلفه فوق السرير ، أصفر ، مفتوح العينين فاغرا فاه ، وذباب ضخم فيه سواد وزرقة حط على شفتيه ، يدخل ويخرج من فمه ومنخاريه .

عاد ينظر أمامه فأبصر الأرملة . فانقض عليها ، وأمسك بالسكين التي كانت في يدها تناولها له ، ولوح بها في الهواء ، ثم بطعنة واحدة غرس نصلها في قلبها حتى مقبضها . ثم ركلها بقدمه فتدحرجت فوق الدرج من أعلاه الى أسفله .

***

الطريق الصاعد

أثار دم الارملة ثائرة الأغا من جديد · فقد رأى لونا أحمر · وتطاير الدم الى رأسه فخضبه · واستيقظت في نفسه رغبته الاولى في ذبح أهل القرية جميعا ، رجالا ونساء ، حول الجثة التي كان يهيم بصاحبها عشقا وأردوه قتيلا · أمسك بالسكين ثانية والدم يغطى ذراعه حتى مرفقه · ونادى حسينا ·

ـ انزل الى الزنزانة واقبض على مانولى ، سقه أمامك الى شجرة السنار · وأنفخ في النفير وأدع الكفرة ليحضروا المشهد! أحضر يوسوفاكى تحت شجرة السنار حتى يعاين المشهد أيضا ·· أشنق هذا السافل سواء أكان هو القاتل أم لا · آتنى السوط ، سأنزل اليهم بنفسى أحطم عظامهم لأشفي غليلي ! ربما أشنق الخمسة جميعهم هذا المساء ، الواحد بعد الآخر، مذنبين كانوا أم غير مذنبين ، ولكن سأشنقهم جميعا · لماذا يبقون على قيد الحياة وحبيبى يوسوفاكى ممدد هناك قتيلا ؟ أسرع ·

وفاضت عينا الأغا بالدمع ثانية · واستدار ، ووضع السكين الملطخة بالدم بين الزهور فوق جثة يوسوفاكى · وقال :

ـ خذها معك يا حبيبى يوسوفاكى · ثم أقعى الى جانبه ، واتكأ على السرير المعدنى الصغير ، وبدأ يدخن · أغمض عينيه · وطافت بمخيلته حقول وجبال وقرى · تراءى له انه اتخذ طريقه من جديد فى رحلة من ليكوفريسى الى سميرنا · حينا راكبا عربة ، وحينا ممتطيا صهوة بغلته ،

وحينا على ظهر تلك الآلة الشيطانية التى أتى الينا بها الفرنجة ، عليهم اللعنة جميعا • وفجأة حدثت معجزة ذات صباح ! قصور وأسواق وجوامع وبشر يحصون بالآلاف ، وموسيقى وحدائق والبحر ! ثم اختفى كل شيء • لم يبق سوى مقهى تطل على الشاطيء • أبوابها مفتوحة ، والجو حار ، والشمس تأذن بالمغيب • كان الأغوات هناك • فرغ كل منهم من حمامه وتزين وصبغ شاربه • جلسوا جميعا فوق حصير فى شكل دائرة ، وبدأوا يدخنون النارجيلة • ودخل أغا ليكوفريسى • فماذا رأى وسط القاعة ؟ غلاما متربعا على كرسى كأنه العرش ، هو يوسوفاكى ، وكان يغنى : «دنيا تابير ، رويا تابير •• آمان ، آمان ! » وفى لمح البصر اختفى كل شيء : المقهى ، والأغوات ، والحصير ، والنارجيلات • لم يبق من سميرنا كلها الا هو وحبيبه يوسوفاكى أحدهما جاث على ركبتيه يتضرع ويتوسل ، والآخر يتدلل ويتمنع واللبانة فى فمه يلوكها ••

دخل حسين والسوط فى يده ، ووضعه على ركبتى الأغا • نكس الأغا رأسه ، وحملق بعينيه من تحت حاجبين كثيفين ينظر الى السوط ، شارد الفكر • الى أين يذهب ؟ لماذا يترك مكانه حيث هو على شاطيء البحر فى صحبة يوسوفاكى ؟ فأغمض عينيه ثانية وعاد الى سميرنا •

دوى صوت النفير فى الخارج •• قاربت الشمس المغيب ، ولم تختف حرارة الشمس • وسكنت أوراق الشجر • وجمدت القرية عزلاء منكمشة على نفسها تتقلى فوق حرارة الارض •

فتحت الابواب ، وخرج أهل القرية على نداء النفير ، الواحد اثر الآخر ، وتجمعوا حول شجرة السنار • البعض أثقله الهم ، فلاذ بالصمت ، والبعض مهتاج ضيق الصدر ، يروح ويجيء فى نقاش دائم : ترى هل قتله مانولى حقا ، أم لا ؟ هل هو المجرم أم سواه ؟

قال أحدهم وهو يهز رأسه : « لا يخدعنك السهو ! أنا لم أكن أثق أبدا بمانولى ، حينا مع الارملة ، والآن مع يوسوفاكى •• أف ! ما أقبحه! ليأخذه الشيطان !

ووصل خادم الكنيسة العجوز لاهثا • كان يحمل اليهم أخبارا تثير الهلع ، ولكنها تثلج صدره •

ـ كنت أمر أمام بيت الأغا ، هل تعرفون ماذا رأيت ؟ الحدباء العجوز تلطم صدرها وتنوح • قلت لها : ماذا بك يا أماه ؟ ـ قتلوا الارملة • ـ من هم ؟ ـ الأغا ! نحرها كما تنحر الشاة ، ثم قذف بها من فوق الدرج •

قل للمسيحيين أن يأتوا ليدفنوها فهى مسيحية أيضا ولها روح ، هـذه المسكينة ..

وقال عجوز صفراوى فى تهكم وسخرية :

ـ ندفنها ؟ وماذا أيضا يا شماس ؟ ليحرقها الله فى نار جهنم .

آذنت الشمس بالمغيب . وحومت الاطيار حول شجرة السنار تبحث عن مأوى تسكن اليه لتقضى ليلتها . ولكنها أبصرت تحت الشجرة حشدا من البشر يدور بينه لغط مزعج . تملكها خوف ، فشردت تحلق هنا وهناك فى تردد وقلق ، تنتظر أن ينفض هذا الحشد اللجب وتأنس الى أوكارها.

وفجأة دوى صرير الباب الثقيل لبيت الأغا . فتح الباب ، واشرأبت الأعناق . وندت آهة ، سرت بين الجمع كموجة تردد صداها فى الهواء . وظهر مانولى فوق عتبة الباب هادئا ، مبتسما ، موثوق اليدين من خلاف، دامى الوجه والذراعين .

توقف لحظة كمن يريد أن يودع أهل القرية . لم يمهله الحارس الذى كان فى اثره ، وعاجله بضربة موجعة بالسوط . واجتاز مانولى العتبة فى صمت ، ومن ورائه رجلان يحمـلان السرير المعـدنى الصغير يرقد فوقه يوسوفاكى تحت أكوام من الورد .

تقدم مانولى بخطى ثابتة . كان يجول بعينيه فى هدوء بين الوجوه التى تحيط به ، والمنازل والاشجار ، وينظر على البعد الى حقول القمح وقد انحنت سنابلها تحت ثقل حباتها الناضجة ، تلمع فى بريق كبريق الذهب تحت أشعة الشمس الغاربة . وحدث نفسه قائلا : « حمدا لله الذى من علينا بمحصول طيب هذا العام . سيجد الفقراء حاجتهم من الطعام ».

وفجأة وقع بصره على رفاقه الثلاثة تحت شجرة السنار ، ينظرون اليه بعيون دامعة . ابتسم لهم مانولى ، وأومأ اليهم برأسه مودعا . وتوقف لحظة ، ونظر الى الناس من حوله وصاح قائلا :

ـ وداعا أيها الأصدقاء ، فانى راحل عنكم .

ثم دار بعينيه ونظر الى أصدقائه الثلاثة وقال :

ـ أيها الاخوة ميشيل وياناكوس وقسطندى انى راحل . وداعا .
وصاح الاصدقاء الثلاثة بأصوات مخنوقة :

ـ برىء ! برىء ! برىء !

وصاح ياناكوس بأهل القرية الذين لزموا الصمت وهم يشهدون ما يدور أمام أعينهم :

ـ هل ماتت مشاعركم؟ أولى بكم أن تخروا أمامه ركعا أيها الجاحدون. انه يموت من أجلنا وابتغاء خلاص القرية . ألا تفهمون ؟ انه يحمل خطايانا جميعا مثلما فعل المسيح . أيها الاخوة ...

لم يمهله الحارس : اندفع نحوه والسوط في يده ، والتف السوط حول رقبته .

ظهر الأغا عند عتبة الباب ، وسرعان ما خيم السكون . أفسح له الجمع طريقا . وتقدم الأغا ، ثقيل الخطوات ، مكتئب الوجه ، منكس الرأس .

توقف عند شجرة السنار . ودون أن يلقي نظرة الى مانولى أصدر أمره الى حارسه :

ـ اشنقه .

وانقض الحارس الضخم فوق مانولى وأطبق بكلتا يديه على رقبته . وفي هذه اللحظة دوت صرخة مولولة :

ـ يا أغا ! يا أغا !

كانت مارثا العجوز تجرى نحوه لاهثة الانفاس متأبطة صرة من الملابس . وامتقع وجه حسين ، وسقط الحبل من يده ، وأسند ظهره الى شجرة السنار وهو يرتجف . وخرت الحدباء العجوز الى الارض عند قدمى الأغا وصرخت :

ـ يا أغا ... أنظر ، أنظر !

وفكت الصرة عند قدمى الأغا ، وصفت فوق الارض قميصا وسروالا ونعلين ، كلها ملطخة بالدماء . انحنى فوقها الأغا وصاح :

ـ ملابس من كل هذه ؟

وأجابت مارثا العجوز :

ـ ملابس حسين . حارسك يا أغا .

واستدار الأغا ، وحدج حسين بنظرة . كان قد سقط على الارض تحت شجرة السنار . وبهت أهل القرية .

وانقض عليه الأغا بوثبة واحدة ، يهزه فى عنف وهو يقول :

« حسين مختار ! »

تكور الحارس على الارض ، وأخفى وجهه بين يديه الضخمتين المشعرتين . وأخذ يخور كما يخور العجل :

ـ الرحمة

اقترب الاصدقاء الثلاثة ، وقلوبهم تخفق فى عنف حتى توشك أن تتصدع . وتحرك الحشد كموج بشرى ، أحاط بالأغا والحارس ومارثا . ودنا باناكوس خلسة من مانولى ، وفك وثاقه ، وأمسك بيده وقبلها .

رفع الأغا رأسه ، وتطلع الى أهل القرية ، ورأى وجوههم متهللة ، فلوح بسوطه وصاح :

ـ انصرفوا يا كفرة . أغربوا عن وجهى والا فالويل لكم .

واندفع نحو الحشد ، وانهال عليهم بسوطه رجالا ونساء كأعمى لا يميز شيئا . وبدأ الزبد يغطى فمه .

أقفر الميدان فى لمح البصر . تفرق الجمع مذعورين ، كل الى بيته. أما أكثرهم جرأة فقد توارى وراء زوايا الجدران يرقب ما قد يحدث . وانصرف الرفاق الثلاثة ومعهم مانولى ، واتخذوا لهم مجلسا بجانب حائط فى الطرف المقابل من الميدان حيث يمكنهم أن يشهدوا ويسمعوا كل مايدور هنالك .

كان الأغا يجأر :

ـ انه أنت يا قذر ! انه أنت يا كلب ! .

كان واقفا فوق الحارس يطأه بقدميه ويبصق عليه . واستل سيفه، ثم أغمده ثانية . وانحنى على الارض والتقط بعض الحجارة وأخذ يقذفه بها فوق رأسه . لقد فقد صوابه فلم يعد يدرى أى ميتة يختارها له .

كانت العجوز مارثا تجرى هنا وهناك ، تقفز ، وترقص ، فرحة متهللة . تجمع الملابس داخل الصرة ، ثم تبسطها على الارض كاشفة عن بقع الدماء فيها . لا تكف عن ترديد نفس الكلمات وكأنها تتغنى بموال :

ـ سمعته يا أغا وهو يرتقى السلم عندما انتصف الليل .. وترامت الى سمعى يا أغا صرخة واهنة كصرخة طير ذبيح .. ولكن كيف لامرأة

بائسة مثلى أن تجرؤ على فتح فمها ؟ وها أنت ترى بعينيك الآن الملابس والدم !

وعادت تصف الملابس من جديد تعرضها على الأرض كاشفة عن بقع الدم ...

وفجأة سئم الأغا ترديدها • فرفسها فى كليتيها وتدحرجت العجوز فوق الارض ، تصرخ صرخات معولة كقط ذبيح • ثم تحاملت على نفسها هاربة من أمامه الى بيت سيدها • وقبعت عند عتبة الباب كخفاش، عيناها مثبتتان على الأغا والحارس ترقبهما •

وغمغمت قائلة :

ـ الآن ليفقأ كل منكما عين الآخر أيها التركيان القذران ! حسبى أنى عثرت على بغيتى وليذهب كل شىء بعد ذلك الى الجحيم •

جثا الأغا على الارض ، ولكم حارسه بجماع يده لكمة قوية أقعدته أمامه وجها لوجه ، أنفاهما متلاصقان • وجمدا فى مكانهما فترة طويلة بغير حراك • غابت الشمس ، وتجاسرت الطيور ، اذ اختفى الحشد عن أنظارهما ، وعادت الى أوكارها فوق شجرة السنار •

ظل الرفاق الأربعة رابضين فى مكمنهما قبالة الحائط فى وجل • كانوا ينتظرون حدوث مشهد مروع يوشك أن يقع •

وتمتم مانولى :

ـ « انى أشفق على هذا الحارس المسكين » •

وأجاب ياناكوس :

ـ « أسكت • ان الله لا يشفق عليه » •

وفجأة هب الأغا واقفا وزأر كالأسد •

ـ « قف ، يا كلب » •

قفز الحارس واقفا على قدميه • استل الأغا سيفه ثم هوى به مرتين وثلاثا فوق الحارس ، يبتر أنفه وأذنيه ، وطوح بهم الأغا بعيدا • لم يحرك الحارس ساكنا ، ولم يصرخ • ظل واقفا فى مكانه جامدا كأنه جذع شجرة يقلمها بستانى • ونزف دما ، وسال الدم على الأرض ليصنع بركة من الدماء ممزوجة بالطين •

ولوح الأغا بالسوط وصاح :

ـ « اجر حول الشجرة » .

وبدأ حسين يعدو مترنحا حول شجرة السنار .

وزأر الأغا من جديد :

ـ « قف » .

وتوقف الحارس . انقض عليه الأغا ، ومزق عنه سرواله ، وأمسك بعضوه وبتره بضربة واحدة من سيفه ، وطوح به فوق جثة يوسوفاكى وسط أزهار الياسمين . وهنا ندت عن الحارس صرخة مروعة خر بعدها الى الأرض . أمسك الأغا بعنقه ، ورفعه وأقعده فوق الكرسى ، ووضع الحبل حول رقبته ، وركل الكرسى ، وتأرجح الحارس في الهواء بعد أن تقطعت أشلاؤه فى وحشية والدم يغطى جسده .

مسح الأغا العرق الذى تصبب من جبهته بيده الملطخة بالدماء فاصطبغ وجهه كله بلون الدم . وخر الى الأرض لاهثا محملقا بعينيه فى حارسه فاغرا فاه . وظل الأغا هكذا فترة طويلة . وبعد أن شفى غليله نهض من مكانه . ودون أن يلقى نظرة الى الرجل المعلق ، أو الى يوسوفاكى ، عاد الى بيته يترنح فى مشيته . وفتح الباب برفسة من قدمه وخر الى الأرض سطيحا مغشيا عليه فوق بلاط الفناء ، وكان لسقوطه دويا .

***

فى هذه الآونة كان الشيخ بطرياركاس يسأل رفاقه :

ـ « ترى ما الذى يحدث الآن فوقنا ؟ » .

كانوا جميعا مستلقين على الأرض ، وقد أسندوا ظهورهم الى الحائط وأداروا رءوسهم ناحية الباب السفلى منتظرين ما يحدث .

وأجاب الشيخ لاداس الذى بدأ يسعى لاصلاح ما بينه وبين ذوي السلطان ، يداهنهم ويتزلف اليهم .

ـ « سأقول لك أنا يا عمدة . مانولى الآن ـ ليغفر الله له ـ معلق فى الهواء ، سواء أكان هذا خطأ أم صوابا ، ولكن ماذا يعنينا فى ذلك . المهم أن نفلت نحن وننجو بأنفسنا . وبعد لحظة سيأتى الحارس ويصيح : أخرجوا يا كفرة ، انطلقوا الى بيوتكم ! » سيركلنا بقدمه ، وسوف نعود الى النور والى أعمالنا . أما فيما يتعلق بما دار بيننا من حديث هنا ، فليذهب أدراج الرياح وعفا الله عما سلف . أليس كذلك يا عمدة ؟ ألست معى أنت أيضا ، يا أب جريجوريس ؟ .

وقال القسيس جريجوريس لنفسه :

ـ « قسما لأفقأن عينك أيها الخنزير القذر » ·

ولكنه لم يفصح عن سريرته · اذ تذكر أنه مسيحى وقسيس · فأبدى له البشاشة تكلفا ، وحدثه بصوت معسول :

ـ « لننجُو أولا بعون الله يا شيخ لاداس ، وما عدا ذلك سيطويه النسيان · نحن رجال عشنا معا لحظات عصيبة ، وما بدر منا ليس الا هنات لا يؤبه لها · أنا عن نفسى نسيت كل ما كان » ·

وقال الشيخ بطرياركاس بادى الغضب :

ـ « لن أنسى لك أبدا أنك دعوتنى « الخنزير النبيل » ·

اذ كان هذا النداء طعنة له فى الصميم لأنه يصدق عليه تماما ·

وقال الشيخ لاداس متظاهرا بالدهشة :

ـ « هل تفوهت بشىء كهذا يا عمدة ؟ أنا أسحب هذه الكلمة · ما أتعسنى · ذهب الخوف بصوابى فخلطت فى الكلام · قصدت أن أقول « السيد النبيل » فقلت « الخنزير النبيل » · »

ورفع بانايوتى رأسه الضخم المصاب بالرضوض ، وصاح :

ـ « اذهبوا الى الشيطان يا عصبة من الجبناء · كل منكم يخشى الآخر ويشمئز منه ، ولكن يخاف البوح بما فى نفسه · تتهادنون يا حفنة من الكسالى ابتغاء نهب الفقراء من الناس · ولكننى أنا البغيض الى نفوس الناس جميعا لا أخافكم · أيها القساوسة والأساقفة والسادة العمد والأعيان وناظر المدرسة انى أبصق عليكم جميعا » ·

ـ كان ناظر المدرسة على وشك أن يفتح فمه ليهدىء من حدة الحديث عندما انفتح الباب · ودخلت مارتا العجوز ، ولمعت عيناها فى الضوء الكابى تبرق بنظرات حادة ·

وصاح الشيخ بطرياركاس وهو ينهض من مكانه :

ـ « ايه يا مارتا ماذا وراءك من أخبار عن العالم العلوى ؟ » ·

كشفت العجوز عن أسنانها فى ضحكة بلهاء ، ومدت يدها على نحو ما يفعل الشحاذون وأجابت قائلة :

ـ « لن أبوح بشىء حتى تملئوا يدى هذه بالعملات الذهبية » ·

وقال الشيخ لاداس وهو يتباكى :

ــ « أيتها السليطة العجوز ، ألا تأخذك بنا رحمة ؟ نحن فقراء معوزون ، هل تريدين أن تمتصى دماءنا ؟ » .

وسألها القسيس جريجوريس :

ــ « هل تحملين لنا أخبارا طيبة أم سيئة . يجب أن نعرف أولا ، ثم نتفق بعد ذلك » .

ــ « قلت لك يا أبانا لن أبوح بشيء . ألا تفعلون قداستكم نفس الشيء ، تمدون يدكم قبل أن تبدأ ترتيل « كيريالايسون » ؟ لماذا تريد منى أن أكون خيرا منك ؟ افتحوا حوافظ نقودكم يا سادة باسم ما أنشده لكم من خير » .

كان الشيخ بطرياركاس أول من فتح حافظة نقوده ، وأخرج منها جنيها ذهبيا . ثم التفت الى القسيس وقال له :

ــ « هيا يا أبانا ، انهم يدعونك القسيس النبيل فلا تتوانى . وأنت يا شيخ لاداس افتح جرابك وادفع ، يا من دعوتنى باسم «الخنزير النبيل» من الخير لك أن تنزف بعض دمك حتى يشتد ساعدك للهجوم أيها التعس . وأنت يا ناظر المدرسة تعال وادفع شيئا . حقا لست ثريا ولكن ادفع ما تجود به حتى ننتهى مما نحن فيه . ان المرأة العجوز تحمل الينا أخبارا طيبة ، ألا ترى ذلك فى عينيها اللامعتين ؟ » .

دس كل من القسيس وناظر المدرسة يده فى حافظته ينقب فيها . وتنهد الشيخ لاداس وقال للمرأة العجوز فى توسل وضراعة :

ــ « لو قلت لك أنى مدين لك بهذا المبلغ ، ألا تقبلين أيتها الأم الطيبة مارثا ؟ سأكتب لك ايصالا بذلك » .

ــ « يا الله ؟ حياتك لا تساوى فى نظرك عملة ذهبية حقيرة أيها البخيل ؟ هيا تشجع قليلا وافتح حافظة نقودك .. »

واستدارت ناحية بانايوتى وقالت له فى سخرية :

ــ « أما أنت يا آكل الجبس فلا أنتظر منك مليما . لا بد أن الأرملة تركتك خاوى الوفاض مفلسا » .

وعوى بانايوتى :

ــ « اخرسى أيتها الحمارة العجوز . انتظرى حتى أقيس حدبتك

لأصنع لك سرجا يحمى ظهرك ، أيتها العجوز الحيزبون » .

ـ « لا تغضب يا آكل الجبس المسكين . أتيتك بأخبار تعنيك أنت أيضا : لقد نجوت . نجوت أيها العاشق التعس ! وانتقلت كاترينا الى العالم الآخر » .

جحظت عينا بانايوتى ، وحاول الكلام فلم يستطع . فبدأ يعوى ويندب .

وواصلت العجوز كلامها :

ـ « قتلها الأغا منذ لحظة . غرس سكينه فى قلبها وقدمها هدية الى الشيطان » .

تمرغ بانايوتى على الأرض ، وأخذ يضرب الحائط برأسه . وبدأ يزأر كوحش مفترس ينادى الأرملة .

قبعت الحدباء العجوز عند عتبة الباب تحاول أن تستفزه :

ـ « من قال لها أن تكون جميلة ؟ من طلب منها أن تكون عاهرة ؟ من طلب منها أن تذهب الى الأغا ؟ نالت ما تستحقه . غرس سكينه فى قلبها ثم قذف بها من حالق فسقطت تتدحرج فوق الدرج » .

ولكن بانايوتى لم يسمع ما قالته ، كان يتلوى ، يعض الأرض ، وينادى الأرملة بصرخات معولة .

فرغ الشيخ بطرياركاس فى هذه الأثناء من جمع الأموال ، وملأ بها راحة العجوز الحدباء . وسرعان ما انطلق لسانها تقص عليهم القصة كاملة . كانت تتحدث اليهم وهى تضحك وترقص وتقلد الأغا والحارس ، حينا تعوى ، وحينا تضحك فى سخرية .. ورسم القسيس جريجوريس علامة الصليب وقال :

ـ هيا بنا نخرج . مبارك اسم الرب . دخلنا الى هنا أناسا بسطاء مكتوب علينا الموت ، وها نحن نخرج أبطالا وشهداء للمسيح .

وقال الشيخ بطرياركاس بدوره :

ـ هيا بنا . لقد فزنا .

وقال العجوز لاداس :

ـ كلفتنى هذه المشكلة جنيها . ولكننى سأستعيد مالى عندما أخرج .

ولأبدأ بهذا الكلب المدعو ياناكوس ‥ سأستولى على حماره ٠

وقف القسيس جريجوريس عند عتبة البـاب ، ووشم فوقها علامة الصليب ثم التفت الى رفاقه وقال :

ـ غدا يا اخوتى يجب أن يختلى كل منا بنفسه ويصلى صلاة الشكر٠ لقد كنا أبطالا ومسيحيين فى سلوكنا ٠ وخرجنا مظفرين من هذه المحنة المروعة « المجد لله » ٠

وقال ناظر المدرسة :

ـ أما أنا فسوف أكتب للتلاميذ موضوعا انشائيا عن الشـــهادة والبطولة عند سلالة الاغريق ٠

خرج القسيس جريجوريس أولا ، شامخ الرأس ، مختــالا كتيس يتصدر القطيع ٠ وسار من ورائه الشيخ بطرياركاس كالح الوجه جوعان٠ وفى اثره ناظر المدرسة مزهوا فخورا أن أبدى بسالة ، ولم يصـــدر عنه ما يشين أسلافه ٠ وجاء فى المؤخرة لاداس العجوز رافعا بيديه سرواله الذى قطعت تكته ٠

وصاحت العجوز الحدباء التى كانت تنتظرهم قرب الباب والمفتاح فى يدها :

ـ هيا يا آكل الجبس ٠ اخرج أنت أيضـــا ٠ أصبحت أرمل أيها التعس ، وكذلك أصبح الأغا فكن رفيقا له ٠

وجأر السروجى :

ـ ليخرج كبار الحمير أولا ٠ سأخرج وحدى ٠

وقبض على يده ونهض :

ـ أيهـــا القسيسون والأساقفة والسادة العمد والأعيـان وناظر المدرسة ‥ انى أبصق عليكم جميعا ٠

لم يستطع القسيس أن يكبح جماح نفسه أكثر من ذلك فرماه بقوله :

ـ يهـــوذا ٠

قال كلمته هذه ثم ولى مسرعا ٠

وخف وراءه بانايوتى يريد اللحاق به ويشده من لحيته ٠ ولـــكن

القسيس كان قد سبقه الى خارج البيت يرسم علامة الصليب فى الفناء • وتبعه رفاقه الثلاثة يغذون السير •

***

أقبل الليـــل ، وأقفرت الطرق ، وآوى أهل القرية الى بيوتهم ، وجلسوا الى موائدهم يأكلون ويشربون ، وازدادوا لأنفســهم هــذا المساء كاسا على غير العادة احتفالا بهذا اليوم المشهود ، وتجاذبوا أطراف الحديث ، تجرى على ألسنتهم أسماء مانولى وحسين والأرملة والأغا ويوسوفاكى ومارثا العجوز • الشيوخ من الرجال يستعيدون ذكريات الماضى ، والنساء يثرثرن بالقيل والقال ، والأطفال يتخذون مما حدث مادة لذكريات المستقبل •

جلس الشيخ بطرياركاس الى مائدة حافلة بأطايب الطعام • استحم، وغير ملابسه ، وتهندم ، ولينيو تروح وتجىء فى نشاط وبشاشة ، متوردة الوجنات • أعدت دجاجة مسلوقة لسيدها ، وحساء بالبيض والليمون حتى يسترد قوته • وجلس ميشيل قبالة أبيه يرقبه وقد أقبل على الطعام كذئب نهم ، يلتهم ما أمامه فى سعار ، والعرق يتصبب فوق جبهته ، وكله رغبة فى أن يستعيد ما خسره من قوته • كان يرقب الشيخ فى ذهول ، وينصت له وهو يتحدث ويضحك ويمضغ • ثم يقول بينه وبين نفسه :

ـ ها هو ذا أبى ! ها هو ذا أبى ! •

كان الشيخ يقول والطعام يملأ فمه :

ـ لقد أفلتنا • الآن يا ميشيل ، بعد أن وقفت وجها لوجه أمام ملاك الموت ، عرفت ما هى الحياة •• يجب ألا تترك لحظة واحدة من الحياة دون أن تغتنمها يابنى •• عليك يابنى أن تغتنم كل لحظة من حياتك ، كل واشرب ومتع نفسك قبل فوات الأوان •• تخيل مثلا أننى لم أنج فماذا كان مصير هذه الدجاجة ، كنت سأخسرها ••

وظل ميشيل ينظر اليه صامتا جزعا ، ويحدث نفسه :

ـ ها هو ذا أبى ! ها هو ذا أبى ! •

وجلس القسيس جريجوريس فى الفناء تحت التكعيبة التى تدلت منها عناقيد الكرم • انكب بدوره على الطعـام ، يأكل ولا يهدأ جوعه • وهبت نسمة صيف عليلة ، وتضوع عطر الريحان والياسمين • وأقبل عليه القط ، يهر ويتمسح بساقيه • وقفت ماريورى بجـانبه ممسـكة بزق

النبيذ ، تملأ الكأس بعد الكأس لأبيها ، ودموع الفرح تجرى فوق وجنتيها الشاحبتين ·

أكل الشيخ المبطان وشرب وتجشأ ·

ـ لم يهن قلبي لحظة واحدة · تصرفت كقائد وممثل حق للرب في ليكوفريسى · تحدثت الى الأغا رابط الجأش ، ثابت الجنان ، ودافعت عن المسيحية ، وواجهت الموت في السجن ببسالة ·· يحق لك يا عزيزتى ماريورى أن تكونى فخورة بأبيك ·

واتخذ لاداس العجوز مجلسه فوق الأريكة الحجرية في فناء بيته ، حافى القدمين ، بغير حزام حول وسطه · أخذ يلوك خبزا بغير ادام ، ويمسك بين الحين والحين بزيتونة يمضغها في تأن وعلى مهل ، ويتحدث بطلاقة الى زوجه بنيلوب · قص عليها ما حدث بكل تفاصيله ، فعل هو كذا ، وفعلوا هم كذا ، قال كذا ، وقالوا له كذا ، وأن المحنة كلفته كثيرا ·

تأوه حين تذكر ذلك ، وتملكه غضب ، وعاد الى حجرته · فتح خزانته ، وأخرج منها دفاتر الحساب ، ودنا بها ليقرأها تحت ضوء عقب شمعة · بلل اصبعه بلعابه ، وبدأ يقلب الصفحات ليرى من مدينا له بمال ، وكم يبلغ دينه ، وتاريخ السداد ، وقيمة الفوائد · وابتسم في رضى ·

ـ غدا صباحا يا عزيزتى بنيلوب سأسترد كل أموالى · أفلت من بين براثن الموت وهأنذا قد نجوت ، وحسبى ما قدمت من أفضال · أنا مدين لك ، اذن لك أن تأكلنى ، أنت مدين لى ، اذن لى أن آكلك ·· بسرعة ودون ابطاء قبل أن تمضى بنا الحياة ! ما رأيك في هذا يا عزيزتى بنيلوب ؟ ·

ولكن عزيزته بنيلوب لم تكترث بما يقول ، عيناها البليدتان تنظران في هدوء الى أبر التريكو وهى تعمل بها · بدت وكأن ملاك الموت يقف قبالتها ، وتتعجل الانتهاء من عملها قبل فوات الأوان وتفرغ من الجورب الذى في يدها · لم تستشعرهما لغياب زوجها ، مثلما لم تستشعر بهجة لعودته اليها ، حين أقدم يطأ بقدميه أرض الفناء من جديد ، ويمسك بسرواله ، يهرش ويتحدث دون توقف ·

طال الحديث بالناس في تلك الليلة · ظلت المصابيح مضاءة حتى انتصف الليل · ثم أطفئت المصابيح الواحد بعد الآخر ، وأغمضت القرية عيونها ثم أغفت واستسلمت للنوم ·

***

بعد أن أطلق سراح الأعيان ، ترك ميشيل أصدقاءه وخف للقاء أبيه ٠

واقترح قسطندى على رفيقيه :

ـ ما رأيكما لو ذهبنا ثلاثتنا لنأكل معا فى بيتى ؟ ستكون فرصة نحتفل فيها بقيامك يا مانولى ٠

كانت زوج قسطندى معتدلة المزاج ذلك المساء ، اذ قضت يوما من أيامها الصافية ، فلم تزور عنهم حين أبصرتهم ٠ شمرت عن ساعديها ، وأوقدت الفرن ، وانهمكت فى اعداد العشاء ٠ مدت السماط ، وأحضرت النبيذ ، ووضعت جرة الماء فى الهواء لتبرد ٠

وهمس قسطندى فى أذن ياناكوس :

ـ أختك لا نظير لها الليلة ، انها تقبل على عملها فى البيت كلما كانت صافية المزاج ، وهى لا نظير لها أيضا اذا ما تكدر مزاجها ٠ حمدا لله أن كان حظنا سعيدا الليلة ٠

ثم قال بصوت عال :

ـ مرحبا بكم وأهلا يا اخوتى ٠

وأجاب الضيوف :

ـ « أهلا بك ٠ تحياتنا لبيتك وزوجك » ٠

ثم أقبل ثلاثتهم ، وقد عضهم الجوع ، على الأكل والشراب ، ووقفت بجانبهم سيدة البيت تخدمهم ٠

رفع ياناكوس وقسطندى كأسيهما ، وقرع كل منهما كأسه بكأس مانولى ٠

وقال كل منهما وهو ينظر الى مانولى نظرة ود وحنان :

ـ المسيح قام ٠

ـ ولكن مانولى لزم الصمت ، لم يتكلم ، ولم يبتسم ٠ كان غارقا فى فكره ٠ لا ريب أنه كان سعيدا بنجاته ، فلا زال على قيد الحياة يشارك أصدقاءه الأكل والشراب ، يتجاذب معهم أطراف الحديث ، وينعم ببرودة نسيم المساء حين يمس جبهته التى يتصبب منها العرق ٠٠ رغم أنه كان يتوقع لنفسه الليلة مكانا آخر غير هذا المكان ، وارتسم على وجهه حزن سماوى ٠

وقال ياناكوس :

ـ لا تحزن يا مانولى • الجنة جميلة حقا ، ولكن الأرض لا تخلو من جمال أيضا ••

ثم أضاف ضاحكا :

ـ على الأقل لن تجد فى الجنة قسطندى وياناكوس • ذلك لأن كلينا يا عزيزى الهمام قسطندى ، سنذهب الى الجحيم كمـــــا تشير بذلك كل الدلائل ـ ولكن لن نكون فى الدرك الأسفل منها ، وانما على السطح » •

وضحك الثلاثة ، وعادوا يملأون الكئوس •

وقال قسطندى بصوت خفيض خشية أن تسمعه زوجه :

ـ أنا حزين على الأرملة المسكينة • لهفى على مثل هذا الجمال • أى مصير ينتظره » •

قال ياناكوس :

ـ من يدرى ؟ ربما تسكن كاترينا الجنة مع مريم المجدلية الآن فى هذه الساعة التى نتكلم فيها • تتأبط كل منهما ذراع الأخرى ، وتتريضان فوق العشب الخالد • تطلان على الأرض من عليائهما وتضحكان ••

وقال قسطندى :

ـ بل ربما تتحسران ، لأن كلتيهما أحبت الحياة الدنيا كثيرا •• ماذا ترى يا مانولى ؟ •

وأجاب مانولى :

ـ أنا أغبط الأرملة • أغبطها ولا أحزن عليها • لماذا الحزن ؟ يقينـــا أنها الآن تسير فى الجنة تحف بها الملائكة ، لا تتحسر على الأرض ولا تبتسم لها • لقد نسيتها تماما • ومحى هذا العالم الأرضى من ذاكرتها ، مثلما محا الله الجذام من على صفحة وجهى فلم يبق منه أثر •

ترامت هذه الكلمات الى سمع زوج قسطندى فتطلعت الى وجه مانولى لأول مرة ، كانت قد سمعت أنه تورم وغطاه الجذام ، ولكنه الآن نظيفـــا وضاء المحيا • كانت على وشك أن تسأله كيف حدثت هذه المعجزة ، لكن الرجال استرسلوا فى حديثهم ، وهى اليوم ذات مزاج معتدل فلم تشأ أن تعكر عليهم صفو الحديث • وقنعت بأن توليهم أذنها تنصت لما يقولون •

وما أن تطرق حديثهم الى الأرملة حتى تململت فى مكانها ، وكشفت عن أنيابها لتعضهم بأسنانها ولكن ما لبثت ان زمت شفتيها ، وأقلعت عن عزمهـــا .

وتساءل قسطندى :

ـ وماذا عن حسين الحارس المسكين يا مانولى ؟ كان كلبا مسعورا رغم أننى آسى عليه فى أعماق نفسى ..

واجاب مانولى :

ـ لو كان مسيحيا وتاب وأناب ، فمن يدرى ؟ فان الله قادر أن يضع يده سبحانه على راسه ويقول له : « مغفـــــورة لك خطاياك لأنك أحببت كثيرا » .

وصاح ياناكوس :

ـ لو كان الأمر كذلك وعلى نحو ما تقول ، اذن سيدخل الجنة فى خاتمة المطاف كل الخطاة واللصوص والقتلة ..

وتمتم مانولى :

ـ الجنة للخطاة .

وقال قسطندى الذى بدأ ينتشى :

ـ اذن لنشرب فى صحة حسين الحارس . لنشرب أيضا فى صحة الأغا ، هذا الأرمل التعس . ذلك لأنه هو الآخر أحب كثيرا . لنشرب فى صحة يوسوفاكى الذى مات ميتة ظالمة ! هل اقترف اثما هذا المسكين ؟ كان يمضغ اللبان ويغنى آمان . ماذا فعل غير هذا ؟ .

وقال ياناكوس وهو يقهقه :

ـ وحتى لو كان فعل ما هو أكثر ، فانه لم يمس غيره بضر ، وربما يعود ذلك عليه بالخير العميم .

أومأ اليه قسطندى باشارة من يده ليسكت ، وغمز له بعينه ناحية زوجه التى كانت تطل من النافذة وتتظاهر بأنها تتطلع الى النجوم . وفهم ياناكوس ما يعنيه ، ولزم الصمت .

وقال قسطندى :

ـ لنشرب نخب من تشاءون فيما عدا ذلك العجوز لاداس أو القسيس جريجويس ، فهذا محال ·

وصاح ياناكوس وقد لعبت الخمر برأسه :

ـ ولم لا ؟ ان نبيذك جيد يا قسطندى ، وسأشرب نخبهما أيضا ·

وعاد يملأ الكاس ، وافرغه فى جوفه دفعة واحدة وقال :

ـ فى صحة الأب لاداس ، ولتكن الجحيم مثواه ·

ثم ملأ الكأس ثانية وتجرعه دفعة واحدة وقال :

ـ فى صحة القسيس جريجويس ، ولتكن الجحيم مثواه أيضا ·

ثم عاد يقول :

ـ هل ثمة آثم آخر نحتفى به ونشرب نخبه ؟

شربوا نبيذا بوفرة ، وفاضت قلوبهم عاطفة ، وامتلأت جوانحهم حبا ·

وتحدث مانولى الى نفسه قائلا :

ـ المسيح مثل النبيذ ، يفتح قلب الانسان حتى يسع العالم كله · وهكذا يفتح أبواب الجنة حتى يجد كل الخطاة مكانا لهم فيها ··

وتطلع الى رفيقه فى مودة وحنان ، وقد تماسكت أذرعهما ويضحكان فى صخب ·

وقال ياناكوس :

ـ وبانايوتى ! لقد نسينا يهوذا · فى صحته يا يعقوب الرسول ·

واجاب قسطندى :

ـ فى صحته يا بطرس الرسول ·

وتجرعا كأسيهما ·

استدارت اليهما زوج قسطندى · فقد أوشكا أن يعبآ كل ما لديها من نبيذ · وبدأ الغضب يعرف طريقه اليها ·

وقالت بلهجة صارمة :

ـ أفرطت فى الشراب يا قسطندى ·

وانكمش قسطندى على نفسه وقال :

ـ حقا • لا تغضبى يا زوجى • آتنا جرة الماء نتبرد بها •

قصدت المرأة البئر • ووضع قسطندى اصبعه على شفتيه • وقال هامسا :

ـ حذار يا أصدقائى فقد بدأت تغضب •

وقال ياناكوس :

ـ هيا ننصرف • لننصرف من هنا • لا داعى لأن نورطك فى مشكلة •

ـ لا ، لا • أمكثا ولنلزم الهدوء • لنشرب ماء فى صحتها ربما تطيب نفسها لهذا وتهدأ • أنت لا تعرف النساء يا ياناكوس •

وعادت زوج قسطندى تحمل الجرة • أخذت الأكواب وغسلتها ثم ملأتها بماء بارد • رفع الرجال أكوابهم وشربوا نخبها •

قال ياناكوس :

ـ فى صحتك يا أختى العزيزة • سقاك الله من رحيق الجنة وأثلج صدرك مثلما سقيتنا الليلة وأثلجت صدورنا • لا يوجد فى الدنيا أخت ولا زوجة خير منك • حيثما ذهب قسطندى فانه يتغنى بفضائلك •

وقال قسطندى فى جبن :

ـ فى صحتك يا زوجى •

ثم غمز بطرف عينه الى أصدقائه وقال :

ـ أقسم لك أننى أفضل أن أذهب معك الى الجحيم ولا أبقى وحدى فى الجنة •

وقال مانولى :

ـ فى صحتك يا سيدتى • عفوك • يومنا يوم عظيم اد نجت قريتنا • سيعوضك الله خيرا عن هذا اليوم الذى أزعجناك فيه •

وشربوا وأحسوا بالانتعاش • وخبت النار فى عروقهم شيئا ما • وأخرج قسطندى كيس التبغ من جيبه ولف سيجارة ثم ناول الكيس لرفيقيه • ونهضوا من مكانهم بعد ذلك وخرجوا الى الفناء حيث جلسوا فوق

الأريكة الحجرية .. وبدأت الزوجة تنظف المـــائدة وهي تغمغم بكلمات مبهمة .

كان الجو عطرا ، تفوح من السهل رائحة القمح الناضج . وفي وسط الفناء تعلو شجرتان ، وتضوع الليل برائحتهما .

ترامى الى سمعهم وقع خطوات تقف عند الباب واذا بطارق يطرقه . ونهض قسطندى دهشا .

ـ أنا يا قسطندى . افتح . أنا ميشيل .

تهلل قسطندى وفتح الباب وبانت ملامح ميشيل في غبش الليل . وقال :

ـ تركت أبي الشيخ بعد أن أكل وشرب ونام . تركته وأتيت اليكم من فوري .

واتخذ ميشيل مجلسه في هدوء بجانبهم فوق الأريكة الحجرية . وسرعان ما أحس بسكون رقيق يحتويه ، فآثر الصمت ، اذ لم يرغب في أن يعكر صفو هذا السكون .

أسند مانولى رأسه الى الجدار . وبدأ يحملق في النجوم ، وأصبحت نفسه كصفحة السماء الساطعة بضوء النجوم ، ثم علا صوته رقيقا وسط سكون الليل :

ـ العبد في تفكير والرب في تدبير . لم يشأ لي أن أموت هذه الليلة وأرحل عنكم يا اخوتي . من يدرى ؟ لله حكمة في ذلك . لعل لنا بقية من حياة على هذه الأرض ، ولا زال مقدورا علينا أن نجـــاهد ابتغاء خلاص الروح .. ايه .. اتخذت يا اخوتي هذا المساء قرارا حاسما .

فرغ من كلماته هذه ثم رفع ناظريه الى السماء يتطلع الى الطريق اللبني .

بدأ قسطندى وياناكوس يفيقان . أخذت أبخرة النبيذ تتصاعد الى رأسيهما تسرى في جسدهما ويشيع معها دفء حلو . لمس ميشيل ركبة مانولى كأنما يريد أن يقول له :

ـ وأنا معك أيضا .

كانوا وحدهم وسط هذا الظلام في عزلة عن العالم كله . النسيم عليل . والنجوم من فوقهم ينعكس ضوءها الواهن على صفحة وجوههم فيضيئها . والظلام يلفهم حتى لا يكاد يميز أحدهم الآخر .

استجمع مانولى شجاعته وقطع السكون بصوته :

ـ في أول عهدى بالدير ، وقبـــل أن يأتي الشيخ بطرياركاس

ليخرجني منه الى الحياة الدنيا ، كنت جالسنا ذات يوم الى جانب معلمي الأب ماناس ـ أتمنى له حظا سعيدا ان كان لايزال حيا ، وأسكنه الله فسيح جناته ان كان ميتا ـ ٠٠ قص علي في ذلك اليوم مغامرة قال لي انها حدثت لصديق له من الرهبان ٠ وقد نسيت هذه القصة طوال الأعوام الماضية ، ولكنني هذا المساء أراها تعود الى ذاكرتي ولا تبرحها ، ولعل الله وحده هو الذى يعلم لماذا ٠٠

وفجأة قطع مانولي كلامه ، اذ ألفى رفاقه صامتين وهو لا يكاد يستبين وجوههم وسط ظلام الليل ٠ فقال :

ـ هل بكم رغبة في النوم ؟ ٠

أحس قسطندي كأن في قوله هذا اهانة ٠

فقال :

ـ حاشا لله ٠ لماذا تقول لنا ذلك يا مانولي ؟ ٠

وقال ياناكوس بدوره :

ـ كلنا آذان صاغية كما لم تكن كذلك من قبل يا مانولي ، لا تجرح مشاعرنا ٠ استمر ٠

ـ حسنا ٠ كان حلم حياة هذا الراهب ـ صديق معلمي ـ أن يمن الله عليه بواسع رحمته ويزور القبر المقدس ، ويسجد أمامه ٠ فبدأ يطوف بالقرى يجمع الصدقات ٠ ومضت السنون وهو على هذا الحال حتى أصبح شيخا ، وجمع خلال هذه الفترة ثلاثين جنيها ، وهو قدر من المال يفي بحاجته للقيام برحلته ٠ واعترف ٠ واستأذن معلمه ، فأذن له ، وبدأ رحلته ٠

ولم يكد يخرج من الدير حتى أبصر رجلا فقيرا ، مهلهل الثياب ، شاحب الوجه ، حزينا ، منحنيا على الأرض يجمع الأعشاب ٠ وما أن سمع الفقير عصا الحاج تدب على الحجارة حتى رفع رأسه وسأله :

ـ الى أين يا أبانا ؟ ٠

ـ الى القبر المقدس يا أخي ، في أورشليم ٠ سأطوف به ثلاثا ثم أسجد أمامه ٠

ـ كم من المال معك ؟ ٠

ـ ثلاثون جنيها ٠

ـ أعطنيها ، فان لي زوجا وأطفالا يتضورون جوعا ٠ أعطنيها وطف حولي ثلاث مرات ، ثم اركع أمامي واسجد ، وارجع بعد ذلك الى الدير ٠

أخرج الراهب الجنيهات الثلاثين من حافظته وأعطاها كلها للفقير ، وطاف حوله ثلاثا ، وركع وسجد أمامه • ثم عاد بعدها الى الدير •

أطرق مانولى برأسه وصمت • وكان رفاقه الثلاثة لا يزالون يصغون الى صدى كلماته داخل نفوسهم ، ولزموا الصمت أيضا ، وقلوبهم تفيض وجـــدا •

رفع مانولى رأسه وقال :

ـ علمت بعد ذلك أن الراهب الذى عزم على السفر ليحج الى القبر المقدس هو معلمى نفسه ، الأب ماناس • وأبى ، تواضعا ، أن يقول لى ذلك صراحة • وها أنذا الليلة ، وبعد هذه السنين الطويلة ، عرفت من هو ذلك الفقير الذى التقى به معلمى فور مغادرته للدير •

صمت مانولى ، اذ بدأ صوته يتهدج • ودنا رفاقه منه وهم جلوس فوق الأريكة الحجرية • وسألوه فى لهفة :

ـ من هو ؟

وتردد مانولى لحظة • وأخيرا سقطت كلمته من فمه كثمرة ناضـجة تسقط فى الحديقة وسط سكون الليل :

ـ المســـيح ! •

وهب الرفاق الثلاثة وقوفا • خيل اليهم وكأن المسيح ظهر أمامهم فى عتمة الليل، حزينا، فقيرا فى لباسه، مضطهدا من البشر، دامى القدمين من طول المسير ، طريدا بغير مأوى • وأنسوا فى نفوسهم رهبة وفرحا من هذا الحضور الخفى • ولبثوا ساعة لا ينبســـون ببنت شفة • اذ ماذا يقولون ؟ والى من ينظرون أو يوجهون الحديث ؟ لم يبصروا أحدا • ومع ذلك شعروا به يملأ عليهم وجدانهم كأنهم لم يروا كائنا واقعيا محسوسا مثل ما كان هذا الحضور الخفى الذى جلس بينهم فى شكل انسان متواضع غاية التواضع •

وكان ياناكوس أول من فتح فاه • وصاح وعيناه تدققان النظر فى الظلام •

ـ من هناك ؟ •• من هناك ؟ •

قالها وكأن ثمة طارقا بالباب • ثم عاد يسأل ثانية ويده ممدودة فى الظلام :

ـ من هنـــاك ؟ •

تحركت أوراق شجرة التين ، فســمع لها حفيفا • وتضوع الليل

ثانية بشذى القمح وزهر العسل والتين وملأوا صدورهم بهذا الأريج ، وشعر كل من الرفاق الأربعة كأن الحضور الخفى يسرى فى جسدهم من رأسهم حتى أخمص القدم · وتذكروا طفولتهم ، يوم أن كانت القلوب نقية ، وكيف كان هذا الحضور الخفى ذاته يسرى فى نفوسهم ويستحوذ عليهم بعد التناول فى يوم الجمعة الحزينة ·

أحس ميشيل برغبة فى أن يعانق صديقه مانولى ، ولكنه أمسك عن ذلك وقال له :

ـ مانولى ·· فى اللحظة التى رأيتك فيها تخرج من بيت الأغا موثوق اليدين من الخلف تسير هادئا طروبا ، ثابت الجنان لتواجه الموت من أجل خلاص القرية ، أحسست بأن هواء جديدا ونورا غريبا يحف بك · خلتك وكأنك أصبحت سامقا ، رقيقا كاللهب · ووطدت عزمى منذ تلك اللحظة : حيثما تذهب سأتبعك ، وحيثما تقودنى سأكون وراءك ، وبأى شىء تأمرنى به سأكون طوع أمرك ·

وصمت لحظة ·· وبدا عليه التردد · ثم عاد يقول بنبرة حازمة وبصوت يكاد يكون همسا :

ـ الآن بعد أن رأيت أبى وهو يأكل ويشرب وينام أحسست أنى أقرب اليك منه يا مانولى ، وأكثر ارتباطا بك · انى مدين لك من الآن بالطاعة دونه ·

حاول ياناكوس وقسطندى الكلام ، ولكن اختنق صوتاهما فانخرطا فى البكاء ·

ظهرت زوج قسطندى عند عتبة الباب · سمعت نشيجهم ، فهزت رأسها ، ودخلت ثانية · وأمسك مانولى بيد ميشيل ، وضغط عليها بين راحتيه · وقال :

ـ يا أخى أنت خير منى ، وأكثر نقاء ، وأقرب الى المسيح · لا تزعجك وساوس الشيطان ، وتهتدى الى الصراط المستقيم على نحو أكثر منى بساطة ويقينا · كان دون ما أبغى مجاهدة نفس ومكابدة لا ينتهيان ، ورغم ذلك لم أبلغ الغاية ـ أما أنت فقد بلغت غايتك بخطوات ثابتة ودون أن تتقطع منك الأنفاس · وتضحيتك عزيزة المنال : لك بيت شريف ، وأب هو سيد القرية ، ولك جاه وثروة ، وحسب ونسب · أما أنا فليس عندى ما أضحى به قربانا للرب ، ومع ذلك فانى أذوق العذاب ألوانا من أجل التضحية بهذا اللاشىء ·· وها أنذا مثل معلمى الأب ماناس ، أنا الانسان الحقير الشأن ، أضع لنفسى خططا طموحة تقصر دونها همتى · ضاقت على

المرعى ، كما ضاقت على القرية • كنت أتحرك شوقا لكى أركب سفينة ضخمة أبحر بها إلى نهاية العالم بحثا عن الخلاص • توهمت أن القبر المقدس هناك فى الطرف الآخر من الدنيا ، تفصلنى عنه بحار وقفار ، فاحتقرت هذا الركن من العالم الذى أنبتنى فيه الرب •• أما الآن فقد أدركت الحقيقة : المسيح موجود فى كل مكان ، يجوب القرى ويطرق الأبواب ، يقف أمام قلب كل منا يسأله الصدقات • انه فقير جائع شريد، هكذا هو المسيح وهكذا يقف على مشارف قريتنا التى يهكنها وينعم بخيراتها أناس مثل الأغا ولاداس والقسيس جريجوريس • انه فقير وله أطفال جوعى • يتسول ويطرق الأبواب ويناجى القلوب ، فلا يلقى غير الصدود جوابا ، يطردونه من باب الى باب ، ومن قلب الى قلب •

نهض مانولى مشرق الوجه وسط عتمة الليل •

وصاح برفاقه قائلا :

ـ يا اخوتى أولى بنا نحن أن نرحب به ، ونفتح له أبوابنا وقلوبنا • لم أكن أره أو أسمعه قبل ذلك • أما الآن فانى أراه وأسمعه • بالأمس حين أتانى ياناكوس يزورنى فى خلوتى ، كنت أسمعه ينادينى باسمى واضحا• ونزلت الى القرية ، حسبته دعانى الى الموت • ولكن لم تكن لهذا دعوته لى • وعرفت السبب الآن واتخذت لذلك قرارى » •

وارتفع صوت وسط الظلام • يبدو أنه كان صوت قسطندى يقول :

ـ أى قرار هذا يا مانولى ؟

وقال مانولى بعد لحظة تأمل :

ـ أى قرار ؟ كيف لى أن أعبر عنه بالكلمات ؟ انى عاجز عن ذلك • أحسب أنى لا أستطيع أن أعبر عنه قولا بل عملا ، اذا ما شاءت ارادة الله ذلك • يا اخوتى ، وطدت العزم على أن أغير حياتى تماما ، وأقطع صلتى بالماضى ، وأرحب بالمسيح ، والزم صحبته على طول الطريق • سأكون المبشر به ، وأمشى أمامه أنفخ فى النفير وأصيح بالناس • أما ماذا سأقول فهذا ما أجهله الآن ، ولست أعبأ بذلك • فعندما أفتح فمى ، سيضع المسيح كلماته الصادقة على لسانى • هذا هو قرارى يا اخوتى الذى وطدت العزم عليه •

وسكت • وانقضت فترة طويلة من الزمن لا تسمع فيها نأمة فى الفناء سوى حفيف أوراق شجرة التين • ثم عادت الأصوات تعلو والأسئلة تتردد من جديد •

فسأل ياناكوس :

ـ وماذا عنا نحن ؟ أنا وحماری وبضاعتی وتجارتی التی أتکسب منهـــا ؟ .

وقال قسطندی :

ـ وأنا ماذا عن زوجی وأطفالی ومقهای ؟ .

وقال میشیل :

ـ أنا لا أطرح سؤالا . فقد اتخذت قراری مقدما . اتخذته هـــذا المساء قبل أن آتیکم : سأترك بیت أبی .

لزم مانولی الصمت . انه یستطیع أن یمیز وجهی یاناکوس وقسطندی علی ضوء النجوم یتفحصان وجهه فی تساؤل ، ویتلهفان الحصول علی الاجابة ولکن بماذا یجیب ؟ کیف یتخذ لهم قرارا بنفسه ، ویقلب حیاتهم رأسا علی عقب ؟ فلکل امریء ساعة موقوتة یجد فیهـــا الخلاص لنفسه . وکل انسان هو الحکم ، وحده دون سواه ، وهو وحده القادر علی أن یقرر کیف ومتی یکون الخلاص .

وتکلم أخیرا وقال :

ـ یا اخوتی ، قرار الانسان مثل ثمرة الشجرة . تنضج فی صبر وأناة ، متأثرة بأشعة الشمس والمطر والریاح . وتســـقط اذا ما حانت ساعتها . تجملوا بالصبر یا اخوتی . لا تسألوا أحدا سوی أنفسکم . ستحین ساعتکم المبارکة أیضا ـ وهنا ستشعرون أنکم لستم بحاجة الی سؤال انسان . ستجدون أنفسکم فی هدوء وسکینة ، تهجرون الزوجـة والأطفال والأقارب والتجارة . ستعتقون أنفســـــکم من کل هذه الجواهر التافهة وتهتدون الی الجوهرة العظمی ، الی المسیح » .

وقال یاناکوس :

ـ انك أنت الذی تهدینا الی الطریق یا مانولی . أرید أن أتبعك .

وقال مانولی وهو یضغط علی ید صدیقه المتسرع :

ـ لا تتعجل یا یاناکوس . دعنی أناضل وأکابد وحدی ، ولأکن أول من یبدأ .

وبسط قسطندی ذراعه کأنما یرید أن یستوقفه وقال :

ـ لن تنصرف . لن ترحل عنا ! .

ـ والی أین أذهب یا قسطندی ؟ هل نسیت أین اهتدی معلمی الی

القبر المقدس ؟ ان من يناضل ويكابد فوق قطعة من الأرض فانه يناضل ويكابد فوق الأرض كلها . سأكون معكم دائما . هنا فى ليكوفريسى ، وفوق الجبل ، فوق أرضنا نحن . اختار لنا الرب بواسع رحمته هـــذه البقعة من الأرض وأمرنا بأن نكافح هنا ونجاهد . كل بقعة من بقاع الأرض هى أيضا قبر مقدس .

مرة أخرى خرجت زوج قسطندى ، ووقفت عند عتبة البـــاب ، وغمغمت بشىء . وقف مانولى وتطلع الى النجوم وقال :

ـ يا اخوتى ، انتصف الليل . حان الوقت لكى أعود الى الجبل . كان المسيح معكم ، فالى اللقاء .

وقال ياناكوس :

ـ سننصرف نحن أيضا . أحسب أن أختى تريد أن تنام .

وقالت هى فى ضجر :

ـ تجاوزنا منتصف الليل .

حيا الثلاثة سيدة البيت تحية المساء وحاولوا أن يلاطفوها بكلمات ودود . وأسفوا اذ سيتركون قسطندى أعزل بين براثنها .

وقال قسطندى وهو يصحبهم حتى باب البيت :

ـ طبتم مساء يا أصدقاء . الى اللقاء . رعاكم الله .

وتمتم ياناكوس بعد أن أغلق الباب :

ـ مسكين أنت يا قسطندى ! لا أتمنى لنفسى أن أكون مكانك .

كانت القرية غارقة فى نوم عميق ، يلفها ليل الربيـــع الساجى الأنيس . ونبح كلب على البعد . ومضت النجوم كنصال السيوف فوق رءوس الرفاق الثلاثة .

ساروا طريقهم كله فى صمت تام . اذ ماذا بقى لهم من كلام ؟ لقد قالوا كل شىء .

وأخيرا سار مانولى وحده ، بخطوات خفيفة سريعة ، كأنما حملته أجنحة الملاك ثانية ، قاصدا الجبل . واتخذ الطريق الصاعد .

***



عربة من نار

بينما البعض من بنى البشر أضلته الحياة الدنيا وأعمته الشهوات ، والبعض الآخر يكابد فى نصب ليعلو فوق طبيعته البشرية ابتغاء ملكوت السموات ، كانت سنابل القمح تنضج على عودها فى هدوء ووداعة وأثقلها الحب فانحنت الى الأرض تنتظر الحصاد .

ومع مطلع الفجر خرجت الفتيات حاملات مناجل الحصاد ، وتفرقن وسط السهل ، وقد عصبن رءوسهن بمنـــاديل بيضاء لتقيهن حرارة الشمس . وطوى النسيان الخطر الذى أحدق بالقرية وهزها من الأعماق . وبدأت الفتيات يثرثرن بأصوات خفيضة وتند عنهن ضحكات عالية، حينا يذكرن الأرملة ، فتحمر وجناتهن لذكرها ، وحينا يذكرن حسينا وكيف رأينه صباح الخميس معلقا على شجرة السنار عاريا من أسفل ، خصيا بصورة مخجلة ، وكانت الجثة المعلقة على الشجرة تهتز مع حركة الريح ، فيسمع لها صرير ، وقد عض القتيل على لسانه الذى تدلى من فمه أحمر قانيـــا .

وتألقت وجوههن عندما جاء ذكر مانولى على ألسـنتهن . وتذكرن كيف طارد الأغا أمهاتهن من الميدان وهرولن فى هلع الى بيوتهن ، وطفقن بعدها يتحدثن عن مانولى وكيف ظهر عند باب الأغا عزيزا متكبرا ، رشيقا أشقر الشعر كأنه ملاك . وقلن يومها ، شنع أهل السوء عليه حين زعموا أن الجذام شوه وجهه ، كذب وبهتان يا عزيزتى ، كلها أكاذيب وافتراءات ، كان وضاء المحيا كأنه شمس الضحى .

شقت الفتيات طريقهن وسط الحقول وأقبلن على عملهن بالمناجل يحصدن القمح حتى تمتلىء احضانهن بالحب ثم يكدسنه أكواما عالية خلفهن • لم يتوقفن أبدا ، رغم العمل ، عن الثرثرة وتبادل النكات الماجنة عن شباب القرية ، ويتخذن من نقائصهم مادة للدعابة والمرح •• هذا له حدبة ، وذاك مقوس الساقين ، وآخر مصاب بتأتأة فى الحديث •• ويضحكن من أعماق قلوبهن •

وخرجت زوجة بانايوتى أيضا ومعها ابنتيها بيلافيا وكريسولا لحصاد حقلهن الصغير المتواضع • ترى الزوجة وقد أثقل قلبها الحزن ، مترهلة الجسد ، زامة شفتيها فى مرارة ، طاعنة فى السن قبل الأوان ، مرتدية ثياب الأرملة التى فقدت زوجها فعصبت رأسها بمنديل أسود ، سارت فى المقدمة كسيفة البال واجمة • لماذا جاءت الى الدنيا ، وماذا جنت فى حياتها حتى يعاقبها الرب الرحيم ويبتليها بما هى فيه من شقاء ؟ أى ذنب جناه زوجها حتى يلقى به الى الحضيض ويصبح الانسان السكير المحطم أضحوكة القرية ؟ كان فى شرخ شبابه جديرا بكل خير ، مقلا فى كلامه ، مجدا فى عمله ، حييا لا يجرؤ على أن يرفع عينيه اليها اذا ما تصادف مروره أمام باب بيتها وهى من يطمع فى الزواج بها • كانت الابنة الوحيدة لأسرة واسعة الثراء وهو الفقير ، وذات يوم أرسل اليه أبوها ، الذى رحل عن الدنيا الآن ، وقال له : اسمع يا باناتيوتى ، انى أحبك ، أنت فقير حقا ولكنك مجد ، وفى ، أمين • أعرف أنك تحب ابنتى ، خذها فهى لك وانى أبارك زواجكما • وتزوجها ، وسارت الأمور على خير وجه ، حتى كان ذلك اليوم المشئوم حين اعترضت الأرملة طريقه •

وتمتمت قائلة :

عليها اللعنة هذه الزانية ، هى سبب كل ما حدث •• الهى هل تسمع دعاء الصالحات المحصنات من النساء ؟ ان كان كذلك فاسمع دعائى : « أسالك اللهم أن تلقى بها الى الجحيم لتحترق مع يهوذا خالدة فيها أبدا » •

ولكنها لم تكد تتفوه بهذا الاسم حتى اقشعر بدنها • خيل اليها وكأنها تدعو الرب أن يجمع بين الأرملة وزوجها الذى يلقبه الناس بيهوذا ، وأن يكون لقاء خالدا الى أبد الآبدين ، حتى ولو كان هذا فى الجحيم • وجمدت فى مكانها فى حيرة وهلع • وخلفها ابنتاها ، سمراوين ، ملفوفتى القوام ، غندورتين ، يغطى وجناتهما وشفتيهما العلويتين زغب أسود رقيق ، وتفوح منهما رائحة عرق نفاذة ، تثرثران وتضحكان ••

وقالت كريسولا وهى الأخت الصغرى :

ـ أمي عاودتها بعض أفكارها التى تنوشها • أنظرى اليهـا كيف جمدت فى مكانها •

وقالت بيلافيا ضاحكة :

ـ أراهن أنها تذكرت الأرملة •

وضحكت الأختان بملء فيهما •

مر بهما الأب لاداس ، حافى القدمين ، مقوس الظهر ، غارقا فى فكره ، وحانت منه التفاتة فوقع بصره عليهن وهن يطأن أرض الحقل الهزيل ، ومناجل الحصاد فى أيديهن •

فسأل الأم :

ـ هل هذا حقلكم ؟ أليس لكم غيره ؟ •

وأجابت الأم وهى تتنهد فى حسرة :

ـ هذا كل ما نملك يا أب لاداس • بعنا كل ما كان لدينا ولم يبق لنا غير هذا •

ألقى الأب لاداس نظرة الى رقعة الأرض ، وقدر مساحتها بعينيه ، وخمن ما يمكن أن تغله من حبوب ، وهز رأسه المعروقة ، وسار فى طريقه دون أن ينبس بكلمة كانت اهانات بانايوتى لا زالت تطن فى رأسـه ، تطوف بخاطره كل صباح ، ويقسم مع كل صباح أن يستولى على كل ما بقى لديه من أرض أو كرمة عنب : « سألقنك درسا فى معنى الأمانة والوفاء أيها الكلب القذر ، حتى تعرف من هو لاداس على حقيقته » •

سار فى طريقه ، يقف قليلا عند كل حقل ، ويقدر فى ذهنه ثمنه وغلته • اذ اعتاد أن يخرج كل عام مع موسم الحصاد ليقوم بجولة استطلاعية بين الحقول ، ويعيد الكرة مع موسم قطاف العنب ، ويكررها مع موسم جمع الزيتون ، واصبح عقله سجلا يثبت فيه كمية القمح والنبيذ والزيت الذى يجنيه كل واحد من أبناء القرية ليعرف ان كان سيجنى ما يكفيه مؤونة عامه أم أنه سيضطر الى الاقتراض • ويدبر الأب لاداس أمره ، ترى هل يقرض هؤلاء ؟ وان كان كذلك فكم وبأى فائدة ؟ •

هكذا كانت عادته كل عام • وخرج الشيخ لاداس اليوم ليبدأ جولته ، ولكنه هذه المرة تساوره رغبة محمومة فى الاستيلاء على كل شىء ، فمنـذ اليوم الذى أفلت فيه من بين براثن الموت استبد به جنون التملك ، تملك أكبر قدر ممكن من الحقول وبساتين الكرم وأشجار الزيتون ، وجمع كل ما تصل اليه يده من عملات ذهبية فى خزائنه ، ما دامت هناك بقية من حياة

لله على ظهر الأرض • وشد حزامه حول بطنه أكثر من ذى قبل ـ وبدأ منذ البارحة بأن اقتطع جزءا من الزيتون الذى يتناوله كفاتح للشهية ـ ويكتفى الآن بشرب الماء الذى من به عليه الرب الرحيم • وقر عزمه على أن يصرف النظر عن الملبس حتى لا ينفق ماله بغير وجه حق ، وطفق يكرر على مسامع رفيقة حياته التى تجلس قبالته واجمة غير مكترثة بشىء فى الحياة « لم يعد هناك وقت ياعزيزتى بنيلوب ، قد توافينى المنية ، لذا لابد وأن أتعجل • ماذا ترين فى هذا يا عزيزتى بنيلوب ؟ » •

***

وبينما كان الرعايا وبناتهن مقبلون على العمل فى الحقول لحصاد القمح تحت وابل المطر الذى يتساقط هنا وهناك فوق السهل ، كان الأغا حبيس داره • لزم القاعة الكبيرة ، يهيم على وجهه فيها ، يذرع القاعة جيئة وذهابا مخموراً ، حينا تتعثر قدمه فيسقط على الارض سطيحا ، وحينا آخر يتربع فوق حشيته ويقضى سحابة نهاره عازفا عن الأكل والشراب ، مقبلا على تدخين غليونه ، متأملا الحياة الدنيا الباطلة وعبثها وهو ينعم النظر الى سحابات الدخان تتصاعد من غليونه حلقات متتابعة ثم تختفى فى الهواء •

وذات صباح نهض الأغا فجأة ، وارتدى ملابسه ، ودعا العجوز الحدباء وقال لها :

ـ اسمعى ياصديقتى ، أسرجى الفرس، وضعى زادا من الخبز واللحم فى الخرج ، ولا تنسى زجاجة العرقى • انى مسافر الى المدينة ، ومن هنـاك سأستقل الآلة الشيطانية الى سميرنا • ارعى البيت ، ولا تسمحى لأحد بالدخول ، وقبل كل شىء حذار أن تشم قطة رائحة عن سفرى ، والا فالويل لك إيتها التعسة ، سأقطع أنفك وأذنيك وحدبتك • هل تسمعين ما أقول ؟

وأجابت العجوز مارثا :

ـ سمعا وطاعة يا أغا ، سافر على بركة الله •

ورددت فى سريرتها : « مسافر لياتى بيوسوفاكى آخر من سميرنا ، عليه اللعنة » •

وبعد أن جن الليل ، واطمأن الأغا الى أن لن يراه أحد ، امتطى صهوة فرسه وسرى خلسة الى خارج القرية •

وتمتم الأغا بكلمات لطم معها خده :

ـ ليعلم أننى قضيت أياما طويلة قبل أن أفكر فيما أنا ذاهب اليه ، انه يستحق كل هذا •

* * *

بعد أيام انتهى الحصاد ، ورفع الفلاحون أكوام القمح الى حيث آلات الدرس ، وبدأوا درس الحبوب وتذريتها ثم تخزينها ، وأخذ بانايوتى كل حصيلته من القمح الى الطاحونة وطحنها ، وحمل الدقيق الى بيته ، وأمر زوجته وابنتيه أن يبدأن عجن الطحين وخبزه • وبعد أن تم له ما أراد أخرج مسدسه من مخبأه وتوسط فناء البيت وشرع يطلق مسدسه فى الهواء • فقد عرفت القرية بغياب الأغا ، وتجرأ بنايوتى ولم يعد هناك من يخشاه • وكان بين كل طلقة وأخرى يصيح فى وجه زوجته وابنتيه •

ـ بره ، اخرجن ، اغربن عن وجهى • الى الشيطان ، أريد أن أبقى وحدى •

وتدخلت جاراتهن وجثون عند قدميه يسترحمنه بعائلته ، بينما وقفت زوجته وابنتاه ينتحبن • ولكن كل هذا ضاعف من ثورته وبدأ يصيح فى هياج : « بره ، اخرجن وأمسك بهن من شعورهن ، وجرهن الى خارج البيت، وأغلق باب بيته عليه بالقفل والمزلاج • وبعد أن أصبح وحده أخرج دمجانة العرقى من المخزن وبعض السجق والجبن ، وصف الارغفة الساخنة حوله فى شكل دائرة واستلقى وسط الفناء تحت ظل شجرة الزيتون •

وبدأ يأكل ويشرب ، وبين الحين والآخر يستل مسدسه ويطلق طلقة فى الهواء ، يستلقى بعدها على ظهره نصف عارى ، ويخرج لسـانه الى السماء ويصيح : خذ هذه لك ، أيها الخنزير• ثم يقبل على الاكل والشراب من جديد •

اعتاد الجيران سماعه أياما وليالى متصلة وهو يخور ويطلق الرصاص فى الهواء ، وبين الحين والحين يرفع عقيرته بالغناء • وبح صوته مع الايام وتناقصت طلقات الرصاص • وذات يوم اختلس الجيران النظر اليه من خصاصة الباب فرأوه مستلقيا على ظهره ، عاريا تماما ، وقد لطخ القىء لحيته الحمراء ، ويصرخ بصـوته الأبح متحديا السماء : « خذ ، هذه لك ، أيها الخنزير » •

وفى صباح اليوم التالى لم يسمع غير طلقة واحدة من المسدس تبعتها أنات خرساء وتنهدات مكتومة ثم كان صمت مطبق ثقيل • وتجمع الجيران ونظروا من خصاصة الباب : كان بنايوتى متكفئا على وجهه ، جامدا بغير حراك وحوله القىء والطعام وسط بركة من البول •

وقال أندونيس الحلاق :

ـ هيا نكسر الباب ونفتحه ، اذ لو كان ميتا فان جثته سيصيبها البلى والعفن وتنشر المرض فى كل انحاء القرية •

وقال الشماس :

– يجب أن نستدعي أولا القسيس جريجوريس ٠

وانطلق يعدو فى الحال ٠

كان القسيس جريجوريس لا زال يذكر الاهانات التى وجهها اليه بانايوتى فى السجن ، فأصدر أمره قائلا :

– اكسروا الباب وافتحوه عنوة ، لا بد وأنه أسلم الروح وأخذها الشيطان ٠ ادفنوه أنتم ، فليس عندى ما أقدمه له ٠

كسرت زوج بانايوتى وابنتاها الباب ، وانتشلن السروجى من وسط القذر الذى أحاط به ، وحملنه الى داخل البيت ، وأرقدنه فوق حشية ٠ كان شاحبا شحوب الموت ، هزيلا اذ فقد نصف وزنه ٠ ويبدو أنه تمرغ فوق شظايا من الزجاج المكسور ، اذ تغطى جسمه جروح كثيرة ٠ ولكن لازالت فيه بقية من الحياة٠ وأقبلت زوجه عليه تغسله كما تغسل حصانا، وابنتاها تحملان دلاء الماء من البئر وتصبانها فوقه ٠ وبدأ يفيق رويدا رويدا ، وفتح عينيه ، ولم يكد بصره يقع على زوجته وابنتيه وهن يحطن به حتى ثارت ثائرته من جديد وصاح غاضبا :

– أخرجن ٠٠ أخرجن ٠٠

وهب جالسا يبحث عن مسدسه ، ولكن خانته قواه فهوى على الأرض ٠

واقترح أندونيس عمل كاسات دم له تطوعا ، الا أن النسوة من جيران بانايوتى منعنه من ذلك ٠

– وأين هذا الدم الذى ستأخذه منه ياأندونيس ؟ انه أصفر كالليمونة سندعو الأم مانداليينيا ترقيه وتطرد عنه الشيطان الذى تقمصه ٠

وأطلق صبى ساقيه للريح ليدعو الطبيبة العرافة العجوز ٠

وبينما كانت النسوة فى انتظار قدوم مانداليينا اقترحت احداهن أن يقدمن له شراب الليمون بدون سكر، واقترحت أخرى أن يضعن قالب طوب ساخن فوق بطنه ٠ وأكدت لهن امرأة عجوز أنه اذا ما بصقت كل واحدة منهن ثلاث مرات عليه فان العفريت سيتولاه الفزع ويولى الأدبار ٠

وقبل أن تنتهى النسوة الى قرار ، وصلت الام مانداليينيا تهرول فى شغف ومعها صديقات العمر من عدة التطبيب : ثلاث حقائب صغيرة: الاولى بيضاء تحوى كل أنواع النباتات العطرية ، والثانية سوداء وبها أنواع مختلفة من المساحيق وقوارير صغيرة ، والثالثة زرقاء وتحتوى على حبوب سوداء

وشطايا زجاج آخضر وبعض القار ، وقطعة من الصليب المقدس ، وبعض أزهار أخذتها من الكنيسة يوم الجمعة الكبيرة ، وعظمة خفاش • وانحنت العجوز فوق بانايوتى ، وحملقت فيه باهتمام شديد ثم هزت رأسها ، وانتحت بزوجته جانبا فى أحد الاركان •

وهمست لها قائلة :

ـ أنت امرأة تعسة يا ابنتى • قلبى يكاد ينفطر حزنا عليك •• ليس هذا بانسان ، انه شيطان مريد • هو الآن خائر القوى ، لذلك ترينه هادئا وديعا • ولكن ما ان يقف على قدميه ثانية حتى يعود الى ما كان عليه من جديد • كان زوجى الراحل مثله تماما ولكن حمدا لله أن اختطفه الشيطان سريعا •• سأقول لك كلمتين ، ولكن أقسمى أولا أن حديثى اليك سيكون سرا دفينا لن تبوحى به لأحد حتى ولو كان للالاه نفسه •

وقالت المرأة العجوز وهى ترتجف قبل أن تسمع شيئا :

ـ أقسم لك على هذا •

وقالت المرأة العجوز وهى تشير الى الحُقيبة السوداء •

ـ أنظرى الى هذه •• بها مسحوق سحرى يفعل المعجزات • أعطه جزءا منه على طرف اصبعك فانه يسلم الروح بعد أيام قلائل فى هدوء وأمان • ما رأيك فى هذا ؟ وبهذه الطريقة تتخلصين منه يا عزيزتى المسكينة •

وصاحت المرأة البائسة :

ـ بحق السماء لا تحدثينى عن شىء كهذا •

وأجابت العجوز وهى تهز كتفيها :

ـ كما يحلو لك • لا أبغى غير مساعدتك ، ويؤسفنى أنك ترفضين ذلك •

وفى غيظ شديد دست الحقيبة السوداء فى صدرتها وأخرجت الحقيبة البيضاء التى تحوى الأعشاب وبدأت تعد دواءها • صنعت نقيعا من الأعشاب وصبته فى فم الرجل المريض • وأخذت قطرات من زيت مصباح العذراء وخلطته بحبات من الفلفل الاسود ودلكت جسده • ثم وضعت حجرا ساخنا فوق بطنه • وأخرجت الحقيبة الزرقاء وتناولت منها قطعة من القار وصهرتها ورسمت صليبا فوق العتبة • وبعد ذلك أخرجت النسوة كلهن خارج البيت وأغلقت الباب ، ودنت من الرجل الذى كاد يفارق الحياة وبصقت على وجهه ثلاث مرات • وصاحت فى وجهه ثلاث مرات كذلك :

ـ ليأخذك الشيطان يا يهوذا •

وهرولت الى خارج الدار •

وقالت للنسوة .

ـ دعنه فى سلام • لقد رقيته ، وبعد ثلاثة أيام سيكون صحيحا معافى •

وجمعت كسرات الخبز التى تركها فى الفناء ، والسجق الذى بقى معلقا على شجرة الزيتون ، وأخذت كل هذا أجرا على عملها • ثم رسمت علامة الصليب وانصرفت •

سارت فى طريقها وهى تتمتم قائلة :

ـ الرجال كلهم وحوش مفترسة ، عليهم اللعنة • آه لو كان الأمر بيدى لأعطيتهم جميعا الواحد بـعد الآخر هذا المسحوق الذى أعرف سره ليذهبوا جميعا الى الشيطان •

وبينما كانت تدير المفتاح فى القفل لتدخل بيتها ، أبصرت ياناكوس يمرأمامها ساخطا وقد أمسك بزمام حماره • وصاحت به :

ـ هيه ، انتظر لحظة ياناكوس عليك اللعنة • ما الذى أصاب ابن أختى ؟ ألا تاخذكم به رحمة ؟ أدرتم رأسه ، وها هو الآن يعيش وحيدا فوق الجبل هناك كطائر الوقواق ، وانكب على الانجيل يقرأه ، أو هكذا يقال ••• هل سمعت بشىء كهذا فى حياتك ؟•• الانجيل !•• بدلا من انجاب الأطفال من لينيو •••

ـ هل هذا هو عرفانكم بجميل الرجل الذى هم ليجود بروحه من أجـل خلاص القرية ؟ ظننت أننى سـأرى من يخر ساجدا عنـد قدميه يقبلهما • الىالجحيم أيها الرجال والنساء الأقذار ••• حفنة من الـكلاب القذرة •

كانت المرأة العجوز داخل بيتها قبل أن يتم ياناكوس كلامه، ولكنها قفزت الى الخارج ثانية وقالت :

ـ انتظر حتى تسقط مريضـا يوما ما ، وعندئذ سأنشب مخالبى فيك وآخذ بثأرى منك •

ثم صفقت الباب وهى تقهقه •

لم يكن ياناكوس راغبـا فى المشـاجرة مع أحد • اذ كانت روحه معلقة بجبل ساراكينا • فهو عائد لتوه من هناك ورأى ماتقطعت له نياط قلبه • تم بناء عدد قليل من الأكواخ ، ولكن اللاجئين بحاجة الى الخشب لتسقيفها • والأطفـال يجلسون أمام الكهوف ، وقد أسقمهم الهزال ، وعلا وجوههم الشحوب ، وسئموا كل شىء حتى اللعب ، وارتسمت على

جباههم علامات الهم ، وزاغت منهم الأبصار كأنهم شيوخ تقدمت بهم السن . وعلى مرمى البصر منهم ، تحت سفح الجبل ، سهل أخضر وافر المحصول ، أقبلت اليه فتيات بمناديلهن البيضاء لحصاده . وسعت بعض الأمهات من اللاجئات يجمعن الأعشاب وأخريات يشعلن النار ، ولكنهن لا يجدن الزيت والزيتون ... لا شيء على الاطـلاق . قوتهم فوق الجبل أعشاب ينضجونها فى الماء . وانطلق الرجال الى القرى المجاورة بحثا عن العمـل . وحمل القسيس فوتيس الانجيـل ، ووضع زكيبـة على ظهره وخرج يتجول بين القرى كشحاذ يجمع الصدقات لشعبه .

وأبصر ياناكوس شيخا مسنا يستخرج الماء من تجويف فى صخرة ليروى بها رقعة صغيرة من الأرض زرعت خضارا .

ـ كيف حالك يا عمى ؟ وكيف حال قريتكم الجديدة ؟

وأجاب الشيخ :

ـ حمدا لله . لا زلنا صامدين .

ـ الأطفال أسقمهم الهزال ، واستحالت سيقانهم الى عصى نحيلة .

ـ ايه ... لا يحزنك هـذا ، غدا سـيقوى عودهم . قـد يموت البعض ، وهذا شيء محزن حقا ، ولكن الرجال، بارك الله فيهم ، سينجبون غيرهم . بذرة الانسان خالدة كما تعلم . هل لك أطفال ؟

ـ لا .

لا ! ماذا تنتظر اذن؟ أسرع وانجب بعض الأطفال ، نحن لاتنقصنا النساء والحمد لله . خذ دورك وأسهم بنصيبك بوضع لبنة فى البناء .

وانتقل ياناكوس الى مكان آخر . وتعرف عليه بعض أهالىساراكينا، فخفوا للقائه والترحيب به . وأحاطت النسوة بالحمار ، يتطلعن في غبطة ونهم للخرجين المليئين .. ومدت فتاة صغيرة يدها وبسطت شريطا أحمر وحملقت فيه ببصرها ، وتحسسته بأطراف أناملها ، وتنهدت في حسرة ، ثم أعادته مكانه في الخرج .. وامرأة سمراء حامل ، مدت يدها وأخرجت من الخرج مشـطا أبيض مصنوعا من العظم وتفرست فيـه ولم تستطع أن تحول نظرها عنه ، أحست أنها عاجزة عن أن ترده الى مكانه ثانية ، أخذت عيناها الملهوفتين تتنقلان بين ياناكوس والمشط الذى فى يدها . غابت مع أحلامها حينا من الوقت . تخيلت أنهـا امتلكت المشط وهربت به دون أن يلحظها أحد ، وهى الآن تجلس أمام الكهف تمشط شعرها فرحة جذلة تحتأشعة الشمس .

أخذ ياناكوس فى الحديث مع الرجال . وكان بين الحين والحين ينظر

بطرف عينه الى النساء وقد أحطن بحماره ، وأيديهن تنقب فى شهوة وشغف داخل الخرج ثم ترتد فارغة كليلة • ولمعت عينا ياناكوس ووثب فى مكانه ، وأمسك بنفيره ونفخ فيه ، ثم وضع راحتيه حول فمه كمكبر للصوت وبدأ ينادى :

ـ أمشاط ، مرايات ، قطن ، ابر ، مشابك ، قماش ، أشرطة ... خذن ما يحلو لكن أيتها النسوة الطيبات • لا أريد نقودا ، ستدفعن لى الثمن فى العالم الآخر •

لم تصدق النساء آذانهن • تحفزن أول الأمر لكى يندفعن ناحية الخرج ، ولكنهن أجفلن وتراجعن • وقالت احداهن :

ـ انه يمزح ، سنكون سخرية • ارفعن أيديكن •

وقالت المرأة الحامل :

ـ لا أظنه يمزح •

واختطفت المشط وضمته الى صدرها وولت مسرعة •

وأقبلت الفتاة الصغيرة على عجل واختطفت الشريط الأحمر وهى تصيح :

ـ وأنا أيضا فزت بهذا •

وقفزت من حجر الى حجر كأنها عنزة صغيرة •

وضحك ياناكوس وهو يتأمل هذا المشهد • واعتلى صخرة ، وقال بصوت عال :

ـ تعالوا ، خذوا كل ما فى الخرج ، كونوا شجعانا يا أحبائى ، انى جاد ولا أهزل • لن أسألكم ثمنا عليه • سأتقاضى الثمن فى الآخرة، وانى على ثقة •

وانقضت النسوة على الخرج كأنهن الطير • لم يسعفهن الوقت للاختيار، كانت كل منهن تأخذ أول ما يقع عليه يدها ، وتجرى بعيدا بأقصى سرعتها • وتعالت صيحات متهللة ... وفى لمح البصر اختفى كل شى •

وصاح به شيخ :

ـ ترى هل أنت مجنون أم قديس ؟ أيهما أنت يا أخ ياناكوس ؟

وضحك ياناكوس وقال :

ـ لا ، بل أنا مرابى • سيدفع لى الرب الرحيم ثمن كل هذا مع الفائدة أيضا •

ـ سمعت يا بنى أن أجدادنا كانوا اذا ما أقرضوا مالا يتسلمون ايصالا بذلك الى أن يدفع لهم الثمن فى العالم الآخر . ولكنهم كانوا أصحاب ايمان وعقيدة .

وأجاب ياناكوس :

ـ وأنا أيضا صاحب ايمان وعقيدة .

وشد لجام حماره ، وقال لهم :

ـ طبتم سلاما ، والى اللقاء .

وانصرف والغبطة تملأ جوانحه .

* * *

وفى طريق عودته ، وقبل أن يلتقى بالأم ماندالينيا ، التقى عند سفح جبل ساراكينا بنيكوليو حاملا شاة فوق كتفيه متجها الى القرية .

ناداه ياناكوس :

ـ هيه يانيكوليو . كيف حال مانولى ؟

استدار نيكوليو وهو يضحك وقال :

ـ انه دائم القراءة والتأمل ، هذا الرفيق المسكين ... أما أنا فسوف أتزوج وها أنذا أحمل هذه الشاة الى سيدى .

ودار على عقبيه ، فأثار سحابة من الغبار حوله ، وبدأ يرقص والشاة حول رقبته . كان وجهه يتألق تحت أشعة الشمس كأنه قطعة من البرونز ، وإسنانه بيضاء متلألئة .

وأردف قائلا :

ـ سأتزوج لينيو أيها الشيخ ، هل سمعت عن لينيو ؟

وضحك ضحكة صافية ـ وقال :

ـ هل لك فى حكمة يايا ناكوس .

ـ قل يا نيكوليو فأنت عبقرى مبدع .

ـ الحياة فرص يغتنمها السباقون .

ثم انطلق يعدو صوب القرية .

* * *

حقا ما قال نيكوليو ، فقد انقطع مانولى للانجيل ، يقرأه ويتأمله أثناء الليل وأطراف النهار . انكب على الكتاب المقدس ، وكان فى أول أمره يكابد فى عناء ويتصبب عرقا أمام كلماته ، يتهجى حروفها فى محاولة

منه لكى يسبر غور معانيها الخفية • وكم كانت شاقة وعسيرة تلك المهمة كانت كل كلمة من كلماته أشبه بحبة اللوز ، ودونه والثمرة الحلوة بداخلها جهد وعناء ، فلا بد له أولا أن يكسر القشرة الصلبة التى حولها• ورويدا رويدا مع الأيام ومع عاطفة الحب الغامرة لانت القشرة الصلبة ، تصهرها أنفاسه الحارة فتتفتق الكلمات وحدها وتكشف عن معانيها فى سهولة ويسر • وفجأة وضح أمامه كل شىء : لقد استحال المسيح الى جسد بشرى دافىء ، تنزل الى الارض يعظ الودعاء والبسطاء من الناس ويبلغهم الكلمة الطيبة • وبدأ مانولى منذ تلك اللحظة يقتفى أثر المسيح ، يتبعه خطوة خطوة فى غير مشقة أو عناء ، منذ أن ولد فى بيت لحم وسط الرعاة – ومانولى أحدهم – وهم يرتلون : « أوصانا فى الأعالى • مبارك الآتى باسم الرب » • واقتفى الأثر القدسى للمسيح حتى يوم الصلب • وشاهد الصليب المخضب بالدماء ، وعاين القيام المجيد عندما قام المسيح من القبر فى يوم سطعت شمسه ودخل قلب مانولى •

وكان مانولى يمسك بين الحين والآخر بكتلة الخشب التى نقش عليها وجه المسيح ، يجوفها بحيث تصبح قناعا يلائم وجهه • وذات يوم وبينما كان مقبلا على عمله هذا ، منكبا عليه ، طافت بخاطره ذكرى عالم اللاهوت الذى أتى الى الدير من اسطمبول ليحتفل بعيد القيامة ، وكان مانولى آنذاك لا يزال حديث عهد بالدير • ففى صباح يوم سبت النور ارتقى هذا العلامة المنبر متأبطا أضابير ضخمة • وتحدث الى الرهبان البسطاء على مدى ساعتين كاملتين ، واستخدم فى حديثه اليهم ألفاظا غريبة متقعرة مما يستخدمها المثقفون عادة ليفسروا بها سر القيام • وكان الرهبان حتى ذلك الوقت يرون قيام المسيح حدثا طبيعيا جدا وبسيطا للغاية ، ولم يسألوا أنفسهم أبدا كيف كان هذا أو لماذا حدث ••• كان قيام المسيح يبدو لهم بسيطا مثل انسلاخ النهار من الليل ، وشروق الشمس كل يوم بعد الظلام• ولكن اذا بهذا العلامة اللاهوتى الحصيف يخرج عليهم بكل كتبه وعلمه ليشوش أفكارهم ••• وبعد أن عاد الى صومعته قال له الأب ماناس :

– ليغفر لى الرب يامانولى ، فهذه أول مرة فى حياتى أفتقد فيها الاحساس بقيام المسيح •

وبين الفينة والفينة يضع مانولى القناع على وجهه ليتبين ان كان قد تلاءم مع وجهه أم لا • وذات مرة فاجأه نيكوليو والقناع على وجهه فأغرق فى الضحك وقال :

– أخالك يا شيخ مانولى ارتددت الى طفولتك ثانية • ها أنت تلعب

بالاقنعة والعرائس · ماذا دهاك ؟

وابتسم مانولى ، وقال فى هدوء :

ـ لا · أنا لا ألعب ·

كان نيكوليو يحوم حول مانولى منذ أيام عدة ، يود أن يفضى اليه بشىء ، بيد أن الكلمات كانت تجف على لسانه ويحس بغصة فى حلقه· ولكنه حسم أمره اليوم · دنا من مانولى وجلس بجواره وانحنى عليه يتطلع الى كتلة الخشب المحفورة ، بينما كان يفكر فى شىء آخر · وأخيرا لكز ركبة مانولى بركبته · وصاح بعدها بأعلى صوته كأنه يناديه من فوق الجبل المقابل :

ـ مانولى · اسمع يامانولى ·

ـ تكلم يانيكوليو فانى أسمعك · ولكن لا تصرخ هكذا · تحدث بصوت خفيض فلست أصم ·

ـ سأقول لك شيئا ، ولكن أسألك ألا تغضب · هل توافق ؟

ـ لن أغضب يا نيكوليو · قل ما تشاء · ولا تلكزنى فى ركبتى فان هذا يؤلمنى ·

وصاح نيكوليو ، وهو يقبض على عصاة الرعى بقوة ، ويتهيأ لضرب مانولى اذا ما حاول أن يهجم عليه ·

ـ سأتزوج بلينيو ·

وابتسم مانولى وقال :

ـ أعرف ذلك ·

واتسعت عينا نيكوليو دهشا ، وقال :

ـ تعرف ذلك ؟ تعرف ولا تنقض على تمسك بخناقى ؟ قسما بهذا الخبز لو أننى مكانك لقتلتك ·

ـ انى أبارك زواجكما · أتمنى لكما الصحة والسعادة ، وأتمنى لكما حياة مديدة ··· أن تمتد بكما الحياة حتى يتقدم بكما السن وتنجبا أطفالا كثيرة ، ويكونوا رجالا بررة أنقياء ·

وأطرق نيكوليو لحظة برأسه متأملا ، ثم تمتم قائلا :

ـ هذا ··· هذا ما لم أكن أتصوره ، انه فوق طاقتى ! اذن أنت لا تريد قتلى ؟

بسط مانولى ذراعيه واحتضن الراعى الصغير ·

ولكن ساور الراعى الصغير القلق ، وعاد يقول :

ـ هل حقا لا تريد قتلى ؟

وضحك مانولى وهو يقول :

ـ لا ، لا يا عزيزى نيكوليو · لا أريد قتلك ·

وهب نيكوليو واقفا فجأة وقد تملكه الخوف · وألقى نظرة مودعة الى مانولى الذى انكب على عمله من جديد يحفر كتلة الخشب ·

وحدث نفسه قائلا :

ـ مسكين هذا الفتى · انه ليس على ما يرام · لقد اصابه مس من الجن ·

وبدأ يقفز من صخرة الى أخرى ، ويضع اصبعيه فى فمه ويصفر · وأقبلت الكلاب تعدو ، وتجمعت الأغنام · واستعاد نيكوليو هدوءه وسط الحيوانات التى عرفها وألفها ، وعرفته وألفته ·

وطافت لينيو بخـاطر مانولى لحظة من الزمن ، ورأى غمازتيها · كانت خفيفة نضرة يسيل لها اللعاب··· وأسند كتلة الخشب الى ركبتيه، وهام مع أفكاره فترة طويلة من الزمن ·

وأخيرا تمتم قائلا :

ـ انى أباركهما · استننا الطريق الذى رسمه الرب الرحيم للانسان على الأرض · أما أنا ،فانى أكابد لأشـق لنفسى طريقا آخر ـ لا زوجة ولا أطفـال ولا متع ، سأزهد فى الحيـاة الدنيا وأنفض الأرض من تحت قدمى ··· هل أنا على صواب فى ذلك ؟ كان يسوع المسيح على صواب، وهو الرب الهنا ، هكذا كان ، أما الانسان ؟ أليست هذه جرأة منه تفوق طاقة البشر حين يحاول أن يقتفى أثر الرب ويتشبه به ؟

لم يهتد الىاجابة فى نفسه على سؤاله هذا · وقد اعتاد أن لا يسأل نفسه فى اللحظات الخطيرة الحرجة ويؤثر أن يتقدم بخطى ثابتة وفى ايمان· وان كان فى غير هذه اللحظات يسائل ويتردد ويزن الأمور ويتدبرها · ولكنه لم يشعر فى يوم من الأيام بمثل ما يشعر به اليوم من ايمان يملأ قلبه ، وسعادة خالصـة تغمره ، اللهم الا يوم أن خرج يسـعى الى حتفه بظلفه وهو موثق اليدين من خلاف ·

ومنذ أيام قصد جبـل ساركينا ، يسـأل القسيس فوتيس العون والمساعدة فى بعض ما غمض عليـه : فربما صـادفت القسيس فى أيامه الأولى نفس المحنة التى يعانى منها مانولى الآن ، وربما اسـتطاع أن يمد له يد المسـاعدة · ولكنه لم يجد القسيس هنـاك ، اذ كان قد خرج فى

جولته بين القرى المجاورة يجمع الصـدقات · وعاد مانولى الى خلوته ، وأمسك بالانجيل : فهو ملاذه الذي يلهمه الاجابة على كل سؤال ·

فتح الـكتاب الصغير مثلمـا يفتح الناس أبواب بيوتهم المطلة على البحر على مصراعيهاـ فى يوم قائظ · واستغرق مع الآيات المقـدسة ، وأحس بالراحة والانتعاش، ونسى الأسئلة التى كانت تلح عليه وتؤرقه· لم تعد أفكاره تنهال عليه بالأسئلة ، اذ كان قلبه يفيض بالاجابة على كل ما يعن له ، وأنار الله بصيرته ·

ونهض واقفا بعد أن فـرغ من اللمسـات الاخيرة لقناع المسيح ، ووضعه على وجهه فكان ملائما تماما ·

وقال :

ــ حمدا لله أن فرغت منه ·

وقبله ، ثم دخل الكوخ ، وعلق القناع فوق الجدار بجوار الأيقونة العتيقة التي تمثل الصلب وعصافير الجنة حول الصليب ·

* * *

لن تذهب كاترينا الأرملة هذا العام للاحتفال بعيـد القديس ايليا ··· كانت قد اعتادت فى مثل هذا اليوم من كل عام أن تنهض من نومها، وتضمخ شعرها بزيت الغار ، وتدعك أسنانها بورق شجر الجوز ، وتقلد عنقها بقلادة من الأحجار الكريمة الزرقاء تقيهـا عين الحسود · ثم تأخذ الطريق الجبلى الصاعد الى القديس ايليا ، تصعد اليه وحدها دون رفيق ــ فلا أحد يرضى بالاقتراب منهـا · وتخر ساجدة ، كغيرها من النـاس ، أمام الأيقونة · وقد يزدريها النبى العاتى المهول ، وينظر اليها غاضبا ، ولكنه يعجز عن الفكاك من الحجر الذى نقش عليه ، أو أن يخرج من تحت نذور الفضة التى تكدست فوقه وسجنه تحتها أولياؤه · ولكن الأرملة التى كانت تعرف عنه ذلك ، كانت تواتيها الجرأة على أن تتقـدم نحوه وتقبله دون خوف بشفتيها المصبوغتين بالخضاب ··· ولكن ها هى الآن ترقد تحت الثرى ، واختفت معهـا آثارها ــ الشـعر المضـمخ بالعطر ، والشـفاه المصبوغة بالخضـاب ، والوجنـات المتوردة ، والجيـد المرمرى اللامع ··· ربما لم يبق منها غير أسنانها لا زالت تلمع كما يلمع الحصى الأبيض على شاطىء النهر ·

وبانايوتى عاجز هو الآخر عن مشاركة الناس احتفالهم هذا العام· لا زال طريح الفراش ، يهدد ويتوعد كمن أصابه مس · ولكن ابنتاه فتحتا باب دارهما، وهما الآن تصعدان الجبل مع الصاعدين· · سمراوان جميلتان، بضتان ، يعلو شفتيهما زغب أسود رقيـق ، ويتصبب من تحت ابطيهما

العرق ، ومع العرق تفوح رائحة المسك • كانتا أشبه باثنتين من اناث الذئاب ، أضناهما موسم التسافد ، تطلقان نظرات نهمة متضرعة يمينا ويسارا تتحرقان شهوة بحثا عن ذكر • آه لو كانتا بقرتين اذن لخارتا فى حزن ، أو لبؤتين اذن لزأرتا ليلا وسط الغابة ، أو قطتين اذن لتمرغتا على ظهريهما فوق الرغام وتسلقتا الأسطح وهما تموءان • ولكنهما امرأتان لذلك فانهمـا تغضان من طرفهما فى خبث اذا مر بهمـا فتى ، حتى اذا ما تجاوزهما غرقتا فى ضحك كله دلال ، وتتخذان منه مادة للسخرية • « أنظرى اليه هذا المسكين ، انه مقوس الظهر • هل رأيت ساقية؟ كأنهما دبوسين ••• أين لنا بفتى وسيم ! » تسخران منه ، وتثيران حفيظته ، لا لشىء الا لأنه مر بهما كريما دون أن يهرول نحوهما ملهوفا •

وخرج أندونيس الحلاق أيضا ليشارك فى الاحتفال • لحيته طويلة ــ فقد تزاحم عليه الناس وتضاعف عمله فلم يجد وقتـا ليحلق لحيته • وهو يقدس النبى ايليا ويكبره : فكل رجال القرية يقصدونه للتزين قبل ذهابهم للاحتفـال • ويصـاب أكثرهم ببعض آلام البرد عنـد عودتهم ، فيلحون فى طلبه لعمل كاسات الدم ، وهو مصدر دخـل مضمون له • اذن لماذا لا ينظر الى النبى ايليا نظرة اكبار واجلال ؟ وهو خبير فى خلع الأسنان ، ويعرف النـاس عنـه ذلك • ولكن الأشقياء من أهـل القرية أسنانهم قوية قادرة على تكسير حبات الجوز • وتعلموا طريقة جديدة لخلع الأسنان اذا ما تخلخلت احداها ، فلن يكلفهم ذلك أكثر من خيط يربطون به السنة ويجذبونها بقوة فتنتزع من منبتها ••• ترى أى شيطان هداهم الى هذه الحيلة ؟•• وليس عليهم بعد ذلك الا أن يشربوا بعض العرقى ، وبعد ساعة يعودون الى تكسير حبات الجوز ويأكلونها مزة مع الشراب •

وسار أصـدقاؤنا الهوينى فى مؤخرة الركب يتجـاذبون أطراف الحديث فى دعة • كان ميشيل وياناكوس فى بداية الأمر يسيران خلف القسيس جريجوريس ، أحدهما عيناه على حماره الذى امتطته ماريورى يحثه بين حين وآخر بنداء محبب اليه ليطمئن باله الى أنه بجانبه ••• والآخر بجانب ماريورى يرافقهـا فى مسيرتها ، ويبادلها نظرات مشوقة لهفى • فميشيل معجب بخطيبته ••• ببياض بشرتهـا ورشاقة عودها وحيائها • وهى معجبة به أيضا ، لا تمل النظر الى محيـاه الحنون الوديع وشعره الأسـود المموج ، وهيئته الوقورة المهيبة • وتحت أشعة شمس الأصيل الحانية ، وضوئها الخافت الذى يغرى بالخطيئة ووسط هذا الحشد اللجب الذى يرتقى الجبل ، غاب الحبيبان عن الوجدان ، وذاقا فى صمت مع الخيال طعم القبل وأحضان المستقبل •

فتحت ماريوري عينيها الكليلتين على اتساعهما وثبتت نظراتها فى الهواء فأبصرت ماريورى أخرى تحتضن طفلا وتلقمه ثديها .

وما ان وقع بصرها على قمة الجبل الصلدة حتى تمتمت قائلة :

ـ يا نبينا ايليا ، انى أطمع فى رحمتك ، وأسألك أن أنجب طفلا مثلها .

وأتى قسطندى وراءهم ، هو وعائلته ، يسير على مسافة غير بعيدة عنهم . زوجته فى المقدمة تمتطى صهوة بغل وطفلاها خلفها ، وقسطندى يسير على قدميه صامتا . ماذا عساه أن يقول ؟ وعن أى شىء يتحدث ؟ لقد قالوا كل شىء وأعادوا قوله مرات ومرات ، حينا حديثا كله مودة ، وحينا آخر خصاما وشجارا . ولا زالت الزوجة حتى الآن تثور فى وجه زوجها ، وتدخل معه فى شجار ، ولكن قسطندى القى السلاح ولاذ بملكوت السموات كما قال من قبل وقنع بالصمت .

ووجد الرفاق الثلاثة أنفسهم ، عن غير قصد منهم أو تدبير ، وقد انفصلوا عن الركب وساروا فى المؤخرة .

وتساءل قسطندى :

ـ أين مانولى ؟ ألم يأت معكما ؟ أم ترى أنه تخلف عن الاحتفال ؟

وأجاب ميشيل :

ـ ذهب لزيارته بالأمس فى المرعى ، بيد أننى لم أجده هناك . ناديت نيكوليو وسألته عنه فقال لى : « خرج مع مطلع الفجر قاصدا النبى ايليا . حمل معه جرة ماء وحزمة من أغصان شجر الغار ولم يرجع بعد. انه غريب الأطوار ، لم يعد سويا مثلما كان ... وغدا يتبين لك صدق كلامى يا سيدى ... سينتهى به الأمر الى الجنون ... بل انه بدأ يفقد عقله بالفعل . قلت له اننى اغتصبت منه لينيو فلم يقتلنى لذلك . وهو اليوم منكب على القراءة والترتيل . وغدا سيقذف الناس بالحجارة » .

وأغرق الرفاق الثلاثة فى الضحك .

وقال ياناكوس :

ـ حقا تغير مانولى ، فلم يعد كما عهدناه سابقا . صدقونى ان شئتم يا اخوتى ، وربما أرى الأشياء على غير حقيقتها ... ولكن حدث ذات ليلة ، وكنت معه وقتذاك ، أن كان جالسا فوق الأريكة الحجرية ، مسندا رأسه الى الحائط ، فرأيت هالة من النور حول رأسه . كانت اكليلا من النور مثل هالات النور التى تحيط بالقديسين فى أيقوناتهم ... هل تصدقون ما أقول ؟

وقال ميشيل :

ـ أنا أصدق ما تقول ٠

وقال قسطندى :

ـ وأنا أيضا ٠

ثم لفهم الصمت ٠

أصبحت الكنيسة الصغيرة على مرمى البصر الآن ، بيضاء ناصعة ، فقد طليت بالجير منذ أيام قلائل ، وتحيط بها صخور شماء ٠ وهذه هى الصورة التى يبدو عليها النبى المهول فوق الأيقونات ، يظهر بين صخرتين كبيرتين مبسوطتين كأنهما جناحان عن يمين وعن شمال ٠ وبالفعل فقد أصبحت هاتان الصخرتان الوعرتان أشبه بجناحين للنبى ايليا فى وحدته فوق قمة الجبل الشاهقة يحملان الكنيسة بعيدا الى عنان السماء ٠

وترى بجانب الكنيسة أطلال صومعة كانت فى قديم الزمان سكنا لراهب زاهد لاذ بها ليكفر فيها عن خطاياه ٠ ولا زال هناك المقعد الذى كان يجلس عليه وقد نخره السوس الآن ، وترى مسبحته معلقة بمسمار فوق صخرة كبيرة ، وحبلا متسخا كان يستخدمه كحزام يشده حول وسطه ، وصليبا صغيرا له شرابة سوداء بطرفه ٠ وعلى مسافة غير بعيدة ترى صليبا معدنيا يشهد على مكان رمسه ، وحجرا نقش عليه اسمه الذى محته الأيام ٠

ومع مطلع الفجر ارتقى الشماس الجبل قاصدا الكنيسة الصغيرة لينظمها استعدادا للاحتفال ٠٠٠ يضىء المصابيح ، ويزين الكنيسة بأغصان شجر الغار ٠ ولكنه لم يكد يفتح الباب حتى صرخ صرخة عالية، وجمد فى مكانه مأخوذا ٠ وطفق يتمتم : « كيريا لا يسون ٠٠٠ كيريا لا يسون ٠٠٠ كيريا لا يسون » ويرسم علامة الصليب المرة بعد الأخرى فى لهفة وخوف ٠ كانت الكنيسة الصغيرة نظيفة تماما ، متألقة ، أرضها مكنوسة ومغسولة ، وجدرانها أزيل عنها الغبار ، والشمعدانات نظيفة، والمصابيح ملئت زيتا ، والأيقونات مزينة بأغصان شجر الغار ٠٠٠ ونار موقدة أحرقت فيها عيدان البخور ، فتضوعت الكنيسة عطرا ٠

مسح الشماس جبهته بيديه وقد ألجمه الخوف فلم يجسر على الدخول كان يخشى أن يكون الملاك لا يزال بداخل الكنيسة مختبئا وراء المذبح ٠ وتذكر ما حدث له ذات صباح فى كنيسة القرية حين ذهب لينظمها فوقع بصره على كبير الملائكة ميخائيل بداخل الكنيسة على يسار الحجاب ، وبسط الملاك جناحيه فى بطء ورف بهما خفيفا ثم غاب عن الأنظار ٠ ومنذ تلك اللحظة وهو يفزع لرؤية الملائكة والمعجزات ٠

وجلس عند عتبة الباب · وكان بين الفينة والفينة يختلس نظرة عجلة الى داخل الكنيسة · ومضت الساعات تباعا ، ولم يظهر الملاك ، وبدأ الشماس يسترد شجاعته رويدا رويدا · وشعر بالجوع ، ففتح جرابه وأخرج منه كسرة خبز وقطعة جبن · ولكنه أحس انقباضا فى حلقه يعوق مرور الطعام ، فتناول زجاجة النبيذ وعب جرعات منها ، فانتعش لذلك قليلا ، وانبسطت عضلات حلقه ، وأقبل على طعامه · وبعد أن فرغ الشماس العجوز من طعامه وشبع ، استجمع شجاعته ورسم علامة الصليب ، واجتاز العتبة فى جراءة واقدام ، ودخل الكنيسة · وخر ساجدا أمام النبى ايليا ، وفى تواضع ذليل أزاح ستار الحجاب وجال بعينيه فلم يجد أحدا ·

وقال :

ـ حمدا لله أن نظم كل شيء وغادر المكان ونجوت منه ·

وأراد أن يزجى وقته ، فبدأ يكنس ويغسل البلاط وينفض الغبار ، ويلمع الشمعدانات ويصف الصحاف الفضية فوق النضد ، كان الشماس العجوز مغرما بهذه الكنيسة الصغيرة ، اذ أنها ترتبط بحياته ارتباطا وثيقا فهو الابن الوحيد لأبيه الذى توفى منذ زمان طويل · وحدث أن ألم به مرض وهو لا يزال فى المهد صبيا · وقصد أبوه النبى ايليا ، بعد أن يئس تماما من شفائه ، ونذر له طفله الوليد أن يعمل شماسا فى خدمته اذا برىء من مرضه وعاد صحيحا معافى · وقد كان ، شفى الطفل واستعاد صحته ، وأوفى أبوه بنذره ·

وتذكر الشماس حياته الماضية وتنهد · ظهرت علامات غريبة يوم ميلاده · ولد منذ خمس وسبعين عاما ، ظهر يوم الجمعة الكبيرة ، وفى نفس الساعة التى صلب فيها المسيح · وأعلنت القابلة أن الطفل سيصبح أسقفا يوما ما · وكان أبوه مسيحيا تقيا ورعا ، سليل أسرة عريقة ذات جاه · لذلك فقد آلى على نفسه منذ تلك اللحظة أن ينذر ابنه الوحيد لدراسة اللاهوت ليحقق هذه النبوءة التى أصبحت أمل حياته · وسارت الأمور وفق ما يحب ويهوى · فقد بز أسقف المستقبل أقرانه ، وتميز عليهم فى دراسته ، وكان ذكيا تقيا · وأتم دراسته بمدرسة المدينة ، وحاز تقدير « جيد جدا » وتهيأ للسفر لدخول معهد اللاهوت العالى فى القسطنطينية ··· ولكن ، وبينما كان يتأهب للسفر ، حدث ذات مساء أن خرج ، وكان الليل ساجيا ، وسار فى درب مقفر ، وفجأة اعترض الشيطان طريقه · كان اسمه كيرياكولا : سمراء ، قصيرة ، تناهز الثانية عشرة من العمر ، نافرة الثديين فى امتلاء ، يعلو شفتيها خال الحسن

والجمال . وفقد أسقف المستقبل صوابه ، ودارت رأسه ، وتعقب الفتاة. أسره هواها ، وسباه خال الحسن والجمال على شفتيها . توسل اليه الأب المسكين الا يحيد عن طريقه الموسوم الذى اختاره له الرب ، وذرف الدمع ، ولكن عبثا . لم يجد كل هذا فتيلا مع أسقف المستقبل ، وأصر على الزواج بها ولا أحد سواها ، ... هى أو الموت انتحارا ... وتزوج بها .

وكثيرا ما يعزى نفسه قائلا :

ـ حمدا لله أن أصبحت شماسا ولم أضل الطريق .

وهكذا مضت الساعات تباعا وهو غارق حينا مع ذكرياته عن حياته الماضية ، أو مكبا حينا آخر على عمله المألوف . وبدأت الشمس تميل ناحية المغيب . وعاد الشماس الى حيث كان يجلس فوق العتبة يمتع نفسه بالنظر الى الحجيج وهم فى طريقهم صاعدين الى الكنيسة . ظل فى مكانه لا يبرحه كان اليوم يوم الاحتفال بميلاده هو ، وها هم أصدقاؤه يفدون الى داره يهنئونه ويتمنون له عمرا مديدا .

وترامى الى سمعه نهيق الحمير ، يكاد يسمعه واضحا . ونهض من مكانه ، وأمسك بالحبل ، ودق الجرس الصغير لحن العيد .

كان القسيس جريجوريس أول من ظهر من الحجيج ، ممتطيا صهوة بغلته ، تخاله متربعا على العرش. وهرول اليه الشماس ليرحب به ويعينه على النزول .

وقبل أن تمس قدما القسيس الأرض ، سأل الشماس قائلا .

ـ هل كنست الكنيسة ونظفتها وطليت الشمعدانات ؟

وفى خضوع وذلة أجاب من كان يود أن يصبح أسقفا يوما ما :

ـ كل شىء على ما يرام يا أبانا .

لم يجرؤ على أن يقص عليه المعجزة ، اذ أراد أن ينسب الفضل الى نفسه .

ـ هل وضعت الصحاف فوق النضد كما أمرتك ؟ قلت لك ثلاث صحاف : واحدة للبابا ، والثانية للقديس والثالثة للشموع ...

وأعاد الشماس اجابته الأولى بصوت ذليل :

ـ كل شىء على ما يرام يا أبانا .

فى هذه الأثناء وصل الحجيج ، وتوافدوا على الكنيسة ، ووضعوا سنابل القمح وعناقيد الكرم فوق النضد ، وأخرج كل منهم حافظة نقوده

ووضع تقدمته فى صحفتى البابا والقديس ، ثم اشترى شمعة وذهب فى خشوع ليخر ساجدا أمام النبى المهول • ظهر النبى فى ايقونته راكبا عربة من نار ، تشدها أربعة خيول أرجوانية اللون ، وتقف به عند حافة هاوية سحيقة ، ومرتديا رداء كهنوتيا أرجوانيا أيضا ، وألسنة اللهب تصاعد من رأسه • تراه مندفعا بسرعة مروعة فوق الجبل حتى تخال العربة معلقة فى الهواء • وسقط منها ناسك وسط جلاميد الصخر ، ووضع راحته فوق عينيه وهو يحملق مذعورا •

وهمست امرأة شابة استحوذ عليها الاعجاب بالنبى :

ـ انها الشمس ••• انها الشمس ، يا عزيزتى •

وقالت أخرى :

ـ بل انها القديس ايليا ، لا تخسرى تقواك يا عزيزتى ماريورى •

وقالت ثالثة :

ـ كلاهما سواء • هيا نركع له وننتهى من ذلك •

***

غربت الشمس ولم تسطع النجوم بعد ، فلا زال النهار يقاوم فى يأس • تسلق الجبل ولاذ بالقمم المرتفعة ، ولكن الليل يقتفى أثره ، يتسلق خلفه ويتعقبه من صخرة الى صخرة حتى بلغ معقله الأخير فى الكنيسة البيضاء الصغيرة ، كنيسة النبى ايليا • وانهار النهار ولم يعد يقوى على المقاومة فقفز الى السماءواختفى هناك •

وفى هذه اللحظة وصل لاجئو جبل ساراكينا ليحتفلوا بدورهم • تعساء يثيرون الرثاء ، ثيابهم مهلهلة ، وجناتهم غائرة من أثر الجوع • يتقدمهم القسيس فوتيس ممسكا فى يده بعصا الراهب المعدنية الصغيرة• وكانوا آخر من وفد الى الكنيسة ، لا يملكون ما يضعونه فى الصحاف ، فاكتفوا بالتوجه صفر اليدين ناحية القديس وخروا أمامه سجدا خشعا •

وتفرس الأب فوتيس فى القديس وتمتم : « نسألك الصفح والمغفرة أيها النبى المهول • كنت مثلنا فقيرا مهلهل الثياب • لم تكن تملك غير النار العظيمة • ولا زلنا نمسك بقبس منها، نحن معشر اللاجئين الى جبل ساراكينا • يسعدنا أن نحييك يا رفيق • »

وسجدوا ثانية ، ثم خرجوا وتفرقوا بين الصخور وراء أهل ليكوفريسى ذوى القوة واليسار • وخف اليهم أصدقاؤنا الثلاثة ، رحبوا بهم وقبلوا يد القسيس •

وقال له ميشيل خجلا :

– نسألك الصفح عن أهل قريتنا ، فان حقائبهم مليئة •

وقال القسيس فوتيس :

– بل ليغفر الله لهم ، انه هو الغفور لا أنا •

وصمت ، ولكن عيناه كانتا تطلقان لهيبا • اذ عاد من جولته اليوم خاوى الوفاض ، لم يتصدق عليه أحد • وكان يتأمل فى غضب ، من فوق الصخور العالية ، الحقول التى حصدت حتى تخاله النبى ايليا يخطو وسط اللهب •

وقال القسيس فوتيس :

– الأرض أرضهم ، فليتمتعوا بها • وليمنحنا الرب السماء فتكون نصيبنا •

ثم لاذ بالصمت •

وبسط الحجيج سجاجيد مختلفة ألوانها حول الكنيسة الصغيرة ، وفتحوا حقائب مملوءة طعاما ، وبدأت أسنانهم تعمل مضغا فى الطعام • ومالت زجاجات النبيذ على أفواههم ، ومالت معها الأعناق • وتردد صوت كركرة النبيذ ، واستحالت خلوة النبى الجادة الى مكان يعج بالضحكات والصخب •

وأضاءت بعض المصابيح بنورها وسط الحجارة ، وألقت بضوئها على وجوه النساء المخضبة بلون أرجوانى ، ونحور الفتيات الرخصة الرشيقة ، وشوارب الرجال الخشنة • وعلق فانوس كبير فوق حائط الكنيسة فأضاء نوره الوجنات البضة واللحية المثلثة للعمدة بطرياركاس، وظهرت الى جواره لحية بيضاء شائكة مع الفكين وهما يمضغان الطعام • جلس رئيسا القرية وكبيراها ، العمدة والقسيس ، جنبا الى جنب • وفى بعض الأحيان كان يسقط شعاع من ضوء المصباح على يدى ماريورى الواهنتين النحيلتين وهى تشوى اللحم ، وتخدم السيدين النهمين اللذين لا يشبعان أبدا •

وخبت المصابيح وانطفأت الواحد بعد الآخر • وزحفت الظلال ، وغطت المنطقة المحيطة بالصخور المقدسة ، وتاهت كلها فى الظلام • ولم تعد تسمع غير ضحكات غنجة للفتيات وتأوهات ذات دلال ، ثم سرعان ما خيم الصمت • وبدأت كائنات من البشر تزحف كالعقارب بين الصخور مثنى مثنى لتحتفل بنبى النار على طريقتها الخاصة •

ودعا الرب النهار فلبى الدعاء ، وظهرت الشمس فى عربة من نار كما يظهر النبى ايليا تماما . ونهض البشر على أقدامهم وتثاءبوا وتمطوا وسعلوا ومسحوا عيونهم بأيديهم ، واحتسوا القهوة ليكمل صحوهم . ودق الناقوس الفضى الصغير دقات سريعة جذلة رن صداها الواهن بين جنبات الجبل ، وانتشر الصوت فى كل الأرجاء يقطر تباعا كأنه شلال تتساقط مياهه دفاقا ثم تنتشر لتغمر السهل .

وظهر مانولى وسط الآكام، متكئا على عصا الرعى، هادئا ، مبتسما.

وتفرس بعينيه فيمن حوله حتى وقع بصره على رفاقه واقفين فوق صخرة شاهقة يجولون بنظراتهم القلقة بحثا عنه ناحية الجبل حيث يقيم هناك . وأحس بالغبطة لمرآهم ، وخف اليهم يقفز فوق أجساد بعض الحجيج الذين تمددوا على الأرض ، وفتح ذراعيه وضمهما الى قلبه . وندت عنهم صيحة عالية .

وقال ياناكوس :

ـ قضينا الليل بطوله ننتظرك . لماذا لم تحضر ؟ قلت لنا ...

وقاطعه مانولى متسائلا :

ـ هل كل شىء معد !

لم يصدق الرفاق الثلاثة آذانهم وقالوا .

ـ معد ؟ أى شىء كان ينبغى أن يكون معدا ؟

وقال مانولى مبتسما :

ـ الأرواح لتستيقظ ، والظهور لتتلقى الضربات ، والأفواه لتصرخ !

وأمسك ياناكوس بذراع صديقه وسأله :

ـ هل ثمة فكرة جاهزة فى رأسك ؟ انى معك رهن الموت والحياة .

وأجاب مانولى :

ـ ليس ثمة فكرة فى رأسى . ولكن ربما الرب بواسع رحمته لديه ما يشاء أن يبلغه . لذلك يجب أن نكون على أهبة الاستعداد .

ودارت عيناه فيما حوله ، ثم قال :

ـ أحب قمة الجبل هذه . وأحب هذا النبى الذى اتخذ النار مطية له ، وضرب الأرض بقدميه وارتفع عنها بعيدا الى عنان السماء .... بل

أشعر اليوم أني أحب أهل القرية ، أبدانهم نظيفة ، عيونهم لامعة ، ثيابهم مهندمة أنيقة ، ويبدو أنهم على أهبة الاستعداد ، البعض لتشتعل فيه النار ، والبعض الآخر ليشعلها ، ترى هل نحن على أهبة الاستعداد أيضا ؟

وفي هذه اللحظة دمدم صوت كهزيم الرعد عند الهيكل . هو صوت القسيس جريجوريس . بدأ القداس فصمت الرفاق .

وتزاحم الناس داخل الكنيسة حتى لم يبق فيها موضع لقدم . ووقف من لم يسعدهم الحظ ، خارج الكنيسة فوق الصخور ، وتسللت التراتيل الى الخارج من الباب الأمامي ومن النافذة الصغيرة في الخلف . وتردد صوت شجي حنون كان رجع صدى أرواح أسلافنا الأول الذين أبدعوا هذه التراتيل للاله الرب .

انتهى القداس ، وخرجت الجموع . واعتلى ناظر المدرسة صخرة كبيرة ، كان شاحب الوجه . وشرع يتحدث الى الناس بصوت أجش يعدد لهم فضائل النبي ايليا ويتغنى بمآثره . وسرعان ما انتقل فجأة ودون أية مقدمات الى تعديد مناقب سلالة الاغريقي . وبدأ يقارن بين أبوللو والنبي ايليا ، ثم قارن بين النبي ايليا ونور الشمس ، وأخيرا بينه وبين الروح الخالدة لشعب اليونان التي تعقبت ظلام البرابرة ودحرته تماما . وفي مهارة فائقة انتقل من حديثه هذا الى الكلام عن الاحتلال التركي . كان حريصا غاية الحرص في حديثه أول الأمر ، وفجأة أفلت منه الزمام ، وأطلق لعواطفه العنان ، وفي صراحة متناهية ودون مواربة بدأ ينشد النشيد الوطني .

وبهت الحجيج أول الأمر ، ولكن بدأت تسري حرارة النشيد في دمهم ، وأنشدوا معه في قوة وانفعال وحماس بطولي :

أيتها الحرية ، أعرفك من ومضة سيفك البتار ...

وفجأة رأت الجموع النبي ايليا وقد تحول الى فرق من الفدائيين الذين حاربوا الاحتلال التركي الطويل على قمم الجبال الوعرة وقد ارتدت تلك الفرق الزي الوطني الذي يتميز بخفين أحمرين لينين ، وتسلحت بالبنادق .

ومال مانولي على رفاقه الثلاثة وأعاد سؤاله من جديد :

ـ هل أنتم على أهبة الاستعداد ؟

وأجابوا جميعا في صوت رجل واحد :

ـ نعم ، نحن على أهبة الاستعداد ، تقدم باسم يسوع المسيح ٠

لم تكن لديهم فكرة واضحة عما ينوى مانولى أن يقوله أو يفعله ، أو لأى شيء ينبغي أن يكونوا على استعداد ، ولكنهم شعروا فى أعماقهم أن أرواحهم يقظى متأهبة لكل شيء ٠

وفرغ ناظر المدرسة من حديثه ، وبدأ ينزل من فوق الصخرة ودمه يغلى فى عروقه من حرارة الحديث ٠ واغرورقت بالدمع عينا الشيخ بطرياركاس ، ورفع القسيس جريجوريس يده ليبارك قطيعه ٠ فالآن وقد انتهوا من أداء فريضتهم تجاه الرب يحق لهم أن يمرحوا ، ويطلقوا لأنفسهم العنان للاحتفال بالعيد ٠

وفى هذه اللحظة تقدم مانولى وانحنى أمام القسيس وقبل يده واستأذنه فى الحديث الى الجموع ٠

وأبصر القرويون مانولى ، فخفقت قلوبهم لمرآه ٠ انهم اليوم أنقياء النفس يتحلون بخلق يوم الأحد ٠ وتذكروا أن هذا الفتى الأشقر كان من الشجاعة الى حد أن وضع روحه على كفه استعدادا ليجود بها من أجل خلاصهم ٠ وصدرت عن أفواه الناس جميعا تمتمات مرحة مشرقة تعبر عن ترحيبهم واحتفائهم به ٠

وتجهم القسيس جريجوريس ومال عليه وسأله :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ هل يمكنك أن تخطب فى الناس ؟ وعن أى شيء ؟

وأجابه مانولى :

ـ عن المسيح ٠

وارتد القسيس الى الوراء مذهولا وقال :

ـ المسيح !!! ولكن هذا صميم عملى أنا ٠

وقال مانولى فى اصرار :

ـ.. أمرنى المسيح أن أتحدث الى الناس ٠

وقال القسيس جريجوريس ساخرا :

ـ ألم يحدث بالمناسبة أن أوضح لك المسيح ما تقول ٠

ـ لا ، ولكنه سيملى على ما أقول عندما أبدأ الحديث ٠

وخطا ميشيل خطوة نحو القسيس وقال :

ـ يا أبانا ، يريد مانولى أن يتحدث الى أهل القرية ، ونحن جميعا نتوسل اليك أن تأذن له ٠ ان من حقه أن يتحدث الى الناس ، فقد تقدم

ليهب روحه ابتغاء نجاتنا وقتما كان الخطر يحدق بالقرية كلها -

وقال الشيخ بطرياركاس بدوره :

ـ ائذن له يا أبانا ، انه ولد طيب همام ·

واعترض القسيس بقوله :

ـ انه سيتحدث عن أشياء لا علم له بها ·

وتدخل ياناكوس :

ـ هذا لا يهم · قداستكم تعرفون هذه الموضوعات حق المعرفة وسوف توضحونها له ·

وصاح قسطندى :

ـ دعه يتكلم ، دعه يتكلم ·

وتشجع أهل القرية فنهض ديمترى الجزار وأندونيس الحلاق والشيخ كريستوفيس وبدأوا يصفقون ويصيحون :

ـ دعه يتكلم ، دعه يتكلم ·

وهز القسيس جريجوريس كتفيه استخفافا وقال :

ـ لكم ما تريدون · أسكتوا ولا داعى لهذه الضوضاء ·

وفى تأفف واشمئزاز وضع يده على رأس مانولى وقال له :

ـ أسال الله أن يلهمك الصواب وينير بصيرتك ···

ثم عقد ذراعيه الى صدره وانتظر ليسمع ما عساه أن يقول ·

تقدم مانولى بضع خطوات الى الأمام حتى توسط الجمع · ودحرج ياناكوس وقسطندى حجرا كبيرا ليقف فوقه مانولى · وأحاط به أهل القرية رجالا ونساء · واقترب منه أيضا القسيس فوتيس وشعبه · وأومأ هذا برأسه تحية للقسيس جريجوريس فتظاهر بأنه لم يره ·

واستدار مانولى ناحية الشرق ورسم علامة الصليب ، ثم بدأ حديثه :

ـ اخوتى ، أحب أن أتحدث اليكم عن المسيح · وانى أستميحكم عذرا ، فلست بالمثقف الذى يجيد صياغة العبارات الرشيقة الفصيحة · حدث ذات مساء وبينما كنت جالسا عند حظيرة الرعى والشمس تأذن بالمغيب أن أتانى المسيح ، وجلس الى جوارى فوق المقعد الحجرى · جلس فى بساطة وهدوء كأنه جار أنيس · كان يحمل على كاهله زكيبة

فارغة • وتنهد قبل أن يتركها تسقط عن كاهله الى الأرض • كانت قدماه متربتين ، والجروح الأربع التي أصابت جسده المقدس من المسامير قد انتكأت من جديد وعاد الدم ينزف منها • وقال لى بصوت حزين : « هل تحبنى ؟ » وأجبت : أجل يا سيدى • مرنى أن أموت من أجلك • » وهز رأسه المقدس وابتسم • ولم يفعل شيئا • واحتوانا الصمت لفترة غير قصيرة • وانتابنى خوف عقد لسانى ، فلم أجرؤ على الكلام • وبعد قليل قلت له : هل أنت متعب يا سيد ؟ قدماك علاهما التراب والدم ، من أين أتيت ؟ » وأجابنى قائلا : « فرغت من جولة بين القرى ، وزرت ليكوفريسى أيضا • أطفالى جوعى • أخذت معى هذه الزكيبة لأجمع فيها الصدقات • أنظر هأنذا أعود أدراجى والزكيبة فارغة تماما • انى متعب ... » •

وصمت ثانية • وشخص كل منا ببصره الى الشمس الغاربة • وفجأة ارتفع صوته المقدس الذى أثقله الندم :

لماذا تدعى حبى وترضى بالقعود هنا هادئا ، عاقدا ذراعيك الى صدرك ؟ هل تطمع فى الراحة ؟ تنعم بالأكل والشراب وتقرأ كلماتى كما يحلو لك ، وتبكى لسماعك قصة صلبى ، ثم تذهب بعد ذلك كله الى السرير لتنام قرير العين هادىء البال • ألا تخجل من هذا ؟ أهكذا يكون حبك لى ؟ هل هذا هو ما تسميه الحب ؟ قم •

وقمت ، وألقيت بنفسى عند قدميه المقدستين باكيا وأنا أقول :

ـ الهى وقعت فى الخطيئة • أسألك الصفح والغفران • مرنى وأنا عبدك المطيع •

فقال لى :

أمسك بعصا الرعى واذهب الى الناس • اجمعهم حولك وتحدث اليهم ولا تخف •

ـ وماذا عساى أن أقول يا سيد ؟ لست مثقفا ، كما أننى فقير خجول • عندما أبصر حشود الناس ينتابنى خوف وأعدو هاربا • والآن ترسلنى لأتحدث اليهم • ماذا عساى أن أقول لهم ؟

ـ اذهب قل لهم انى جائع أطرق أبوابهم وأمد اليهم يدى وأصرخ صدقة أيها المسيحيون •

ضاق صدر القسيس جريجوريس ، وبدأ يهتاج لهذا الحديث • وتململ فى مكانه • وتثاءب الشيخ بطرياركاس ، وبدأ يدبر فى نفسه وسيلة ينسل بها من وسط هذه الجموع وينأى بعيدا عنها ، اذ أنه

أحس بالجوع ، واقترب الشيخ لاداس من القسيس وأسر اليه بكلمات :
— ستنتهى هذه المسالة نهاية سيئة • مره بالسكوت •

ولكن أهل القرية كانوا يصـــغون اليه فاغرين أفواههم • تمـــلأ صدورهم انفعالات جياشة، وبدأ يستبد بهم خوف غريب رويدا رويدا• خيل اليهم وكأنهم رأوا المسيح حقا ، ضامرا نحيلا ، شريدا حافى القدمين ، يطرق أبوابهم يسألهم الصدقات فيصدونه ويصرخون فى وجهه من وراء أبوابهم : « اليك عنا ، حن الله عليك » • ألم يطردوا القسيس فوتيس على هذا النحو منذ أيام عندما أتى اليهم حافى القدمين يحمل زكيبة فارغة على كاهله ؟

التقط مانولى أنفاسه • وتساقطت حبات من العرق فوق جبينه • جال بعينيه بين الجموع ، وتفرس وجوههم الواحد بعد الآخر ، وارتسمت على وجهه أمارات التأنيب والمرارة ، وكذلك سيماء العزة والكبرياء ، حتى أن الجموع كانت تشخص اليه فى حيرة ودهشة •

ورسمت امرأة عجوز علامة الصليب • وهمست فى أذن جارتها :

— رحمـــاك يا رب • هل هذا هو مانولى حقا ، راعى غنم الشـــيخ بطرياركاس ، وابن أخ الأم مانداليـنيا ؟ أبدا ، لا يمكن أن يكون هو باى حال من الأحوال — اغفر لى يا رب خطيئتى هذه — هل تنزل المسيح الى الأرض ثانية بسبب خطايانا ؟ ما رأيك فى هذا يا جارتى ؟

— اسكتى يا أمبيرسيفون • أسكتى فانه سيتحدث ثانية •

بسط مانولى ذراعيه عن يمين وشمال وصاح :

— اخوتى ، أخواتى ، يا أهل ليكوفريس رجالا ونساء ، اننى لم آت اليكم بدافع من نفسى • اذ كيف لى وأنا الخادم الوضيع ، والفقير المعدم، أن أجرؤ على الحديث اليكم ، وألقن الدروس لسادة القرية الأثرياء ذوى الحسب والنسب ، والأعيان أصحاب المقامات الرفيعة ، والى من هم أكبر منى سنا ؟ لم آتيكم بدافع من نفسى وانما أرسلنى اليكم المسيح • وكل ما أفعله أننى أردد على سمعكم الكلمات التى أمرنى أن أبلغكم اياها • انه يستصرخكم قائلا : « صدقة أيها المسيحيون فانى جائع » ان من يجود بما عنده على الفقير فانما يقرض الله قرضا حسنا • ومنذ أيام ذهب واحد من أبناء قريتنا لزيارة اخوتنا اللاجئين فوق جبل ساراكينا • كانوا جياعا لا يجدون ما يسدون به رمقهم ، عراة لا يملكون ما يسترون به أجسادهم، بلا مأوى لا يجدون مكانا يتوسدونه • وحمل اليهم كل ما يملك من حطام هذه الدنيـــا ، ونادى عليهم : « تعالوا يا اخوتى ، خذوا ما يحلو لكم ،

لنقتسم معا كل ما أملك لا أسألكم عليه ثمنا ، ولا تحسبنه منة • وانما أقرضه الله ليجزيني عنه خيرا يوم الحساب •

ضاق الشيخ لاداس ولم يعد يحتمل المزيد • وأحس بغصة في حلقه • وأشار الى القسيس جريجوريس اشارات تعني أن يخرسه ، ولكن دون جدوى • وأخيرا تدخل هو بنفسه • وعوى بأعلى صوته •

ـ معنى هذه أن سيادتكم تطالبوننا أن نوزع كل ما جمعناه رزقا حلالا بعرق الجبين ، ونحصل مقابل ذلك على كمبيالة تسدد لنا في العالم الآخر ؟ يالله !! أى تفكير هذا ؟ ابتغاء العمل الطيب لا غير لنطلى به جدران بيوتنا • سأقول لك كلمة واحدة يا بنى ولا تضيق بها : أنت لم تفهم على وجه الدقة ما قاله لك المسيح • عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة ، هذا هو رأيي •

وقاطعه ياناكوس :

ـ دعه يواصل حديثه يا أب لاداس • لقد عرفت من الذى أرسله الينا • المسيح هو الذى يتكلم بلسانه •

وثارت ثائرة الشيخ لاداس وصاح :

ـ هل هو أنت يا ياناكوس الذى تواتيك الجرأة على أن ترفع صوتك ؟ ألا تخجل ، انتظر حتى نسوى حسابنا سويا •

وأراد ناظر المدرسة أن يلقى ببعض الأفاوية التي اعتاد أن يهدىء بها الأمور اذا استفحلت •

ـ كل ما تقوله يا مانولى كلام طيب وجميل ، ولكن لا يمكن تحقيقه • انك تحرث في البحر يا صديقي • لسنا آلهة وانما نحن بشر • ومن ثم ينبغي أن تقومنا حسب مقاييس البشر •

وأجاب مانولى :

ـ وهذا هو عين المقياس الذى اخترته • هذا هو المقياس الذى أقيس به • وانى أسأل كل من جشم نفسه مشاق الحضور الى هنا للاحتفال ، من منكم المسيحى ؟ فالمسيحيون جميعا يؤمنون بالعالم الآخر • وما معنى الايمان بالعالم الآخر ؟ معناه أن أعمالنا في هذه الدنيا سيزنها الرب الهنا في العالم الآخر ويقدرها حق قدرها • سيعاقب المسىء ويثيب المحسن • ان من يقدم حسنة لاخوته في هذه الحياة الفانية سيجزيه الله عنها خير الجزاء في الحياة الخالدة • ولهذا يا أب لاداس أقول لك ان عشرة عصافير على الشجرة خير من عصفور واحد في اليد •

وتمتم الطائر الجارح العجوز : « انك لأحمق حقا » .

وصاح بعض أهل القرية من ذوى النفوس النقية الطاهرة :

ـ حسنا ، ما الذى يجب علينا ان نعمله ؟ بماذ أمرك المسيح ؟ تحدث الينا يا مانولى بوضوح وبساطة حتى نفهمك ونرى ان كان هذا ممكنا أم لا .

وقال شيخ لازال قوى البدن صحيحا معافى :

ـ لا تطلب منى ان اجود بكل ما عندى واتخلى عن كل شىء . فهذا عين المستحيل ودونه خرط القتاد .

وقال مانولى :

ـ ها نحن فى موسم الحصاد يا اخوتى ، ونحمد الله ان بارك لنا فى حصاد هذا العام . وبعد أيام يحين موسم قطاف العنب ، وبعده بقليل يكون موسم جمع الزيتون . حسنا ، لنستمع معا الى صوت المسيح الذى تتقطع له نياط القلوب : « يا أهل ليكوفريسى الأبرار ، يقف ببابكم اخوة لنا مضطهدون طردوا من ديارهم ، والشتاء على الأبواب وسيلقون حتفهم من أثر الجوع والبرد والحزن ... والأب الهنا الرحيم يبسط لوحه المحفوظ ويشهد أهل ليكوفريسى ، ويثبت فى لوحه أسماءهم جميعا وتواريخ ميلادهم وكم من الأموال يملكون وبكم من أموالهم جادوا على المساكين . فيكتب على سبيل المثال : أنستاسيوس لاداس بن ميخائيل ، فى يوم كذا يملك كيت وجاد منها بكذا . وفى يوم القيامة سيرد له الرب ما جاد به بفائدة قدرها كذا .

عاد الشيخ لاداس ينظر اليه وهو يضحك فى استخفاف وقال ساخرا :

ـ اذا اعتمدت على هذا فحصادك الريح ...

وواصل مانولى حديثه :

ـ وهكذا يا حضرة الناظر يتضح لك اننا نستخدم المقياس البشرى الذى طالبتنا به . على كل صاحب أرض أن يقرض الله عشر محصوله بعد كل حصاد كما يأمرنا بذلك المسيح ، لنساعد اخوتنا فوق جبل ساراكينا عاما أو عامين حتى يقفوا على أقدامهم . وثمة شىء آخر . هناك من يملك أرضا زراعية مهملة أو أرضا بورا أو أرضا لا يجد متسعا من الوقت لبذرها وفلاحتها . أليست هذه خطيئة فى نظر الرب ؟ لنعطها لهم يتولون بذرها وحرثها ونقتسم غلتها معهم مناصفة : وهذا من شأنه أن

يعود بالثراء على القرية ، وبالخير على هؤلاء الجوعى ويتوفر لهم طعامهم الذى يحتاجون اليه · تعسا لكل من أرتضى لنفسه من أهل ليكوفريسى أن يطعم حتى يتخم ولا يفكر فى أطفال ساراكينا · كل انسان يموت جوعا فوق أرضنا معلق برقابنا ويشدنا الى الدرك الأسفل من النار · كم عدد سكان ليكوفريسى ؟ الفان ؟ كل من يموت جوعا فى ساراكينا سيتحول الى ألفى جثة تتعلق حول رقابنا كأنها عقد يحيط بها · وذات يوم سنمثل أمام الرب الهنا وحول رقابنا هذا العقد الذى تتألف حباته من جثث الجوعى ·

سرت رجفة بين أهل القرية · ورفع البعض يده عن غير وعى منه يتحسس رقبته · ورأى البعض بعينيه ألفين من أهالى ليكوفريسى معلقين فى الهواء يساقون زمرا الى الجحيم يوم الحساب ، كل منهم يحمل حول رقبته مسبحة حباتها من الجثث يتفاوت عددها ، بعضها عشرا أو خمس عشرة أو عشرين · والملائكة صافات من حولهم تسد أنوفها من هول الرائحة النتنة التى تنبعث منها ·

وصاح أندونيس الحلاق الذى لا يملك سوى بضع أشجار كرم وحقل صغير :

ـ لك ما تريد · أمسك أنت أيضا بكتاب يا مانولى واكتب فيه : أنا أندونيس يانيديس بن ثراسيفولوس ، حلاق ليكوفريسى ، أتعهد بأن أقدم عشر محصولى لاخوتى اللاجئين فوق جبل ساراكينا · وأقدم ذلك قرضا للرب الهى · أكتب ذلك عندك يا مانولى ، والرب الرحيم يسجل ذلك فى كتابه أيضا وأنا أومن به ·

وعلت أصوات كثيرة ولوحت أيدى هنا وهناك ·

ـ وأنا أيضا ، وأنا أيضا ، أكتب يا مانولى ·

وأشرقت عيون بالدمع · وفاضت أخرى خوفا وجزعا · وحملقت عيون فى مانولى حقدا وكراهية · وانسل الشيخ بطرياركاس خفية وتوارى وراء صخرة كبيرة ووضع أمامه فوق أوراق الليمون خنزيرا رضيعا مشويا بقى منه بعد عشاء البارحة ·

وتمتم وهو يلوك طعامه فى نهم :

ـ لا أمل فيه هذا المسكين مانولى · لن يمضى وقت طويل حتى يطاردونه ويقذفونه بالطماطم الفاسدة ·

وفى هذه اللحظة رفع القسيس جريجوريس يده غاضبا ، وحاجباه

يرتعشان في حركة هستيرية تخال لو أنك لمستهما بطرف اصبعك لتطاير منهما الشرر • وصاح :

– يا أبنائي أهل ليكوفريس • استمعوا • استمعوا الى ، لايخدعنكم كلام هذا الأفاق فتقعوا في حبائله • خذوا حذركم • تذكرون أن العالم يرتكز على أربع أعمـــدة • الاعمدة الثلاثة الأولى هي الايمـــان والوطن والشرف • والعماد الرابع العظيم هو الملكية : لا تحاولوا الاخلال بها • الله بواسع حكمته يوزع الثروات حسب ناموس لا نعلمه نحن لأنه ناموس الرب يعرفه هو وحده • وعدالة الرب شيء ، وعدالة الانسان شيء آخر • خلق الله الغني والفقير • وتعسا لكل من يتجرأ على الاخلال بهذا النظام فانه بذلك ينتهك ارادة الله • واني نادم أن أذنت لك بالكلام يامانولي ، أيها المارق انزل واذهب لترعى غنمك • فهناك مكانك الذى حدده لك الرب • عليك أن تلزم مكانك هناك ولا تبرحه • ولا تطمع فيما هو أعلى من ذلك • لا تحاول أن تنمو في مكان غير المكان الذى وضعت فيه بذرتك• واعلم أن كل هذه الترهات التى تفوهت بها هي كلام ضد ارادة الله ، فهو المدبر صاحب الأمر والنهي ، وكل ما يحدث في العالم يحدث حسب مشيئته •

وبدأ القسيس جريجوريس يخرج عن الموضوع • اذ استدار ناحية القسيس فوتيس الذى ظل طوال ذلك الوقت يستمع الى ما يقال مطرقا برأسه • وصاح :

– اسمعنى أيها القسيس فوتيس • كنا نعيش في هدوء وسلام ، ننعم بالوفاق في قريتنا ويسود النظام حتى أتيت بعصابتك ، وبعدها عم الشقاق • فلم نعد نسمع الآن غير الشكوى والفضائح والسرقات • وتجرأ الفقراء يحاولون رفع رءوسهم والأغنياء لم يعد يهنأ لهم نوم • ولكن صبرا سيعود الأغا قريبا ، وسيخر مجلس الأعيان عند قدميه ، يتوسل اليه أن يطردك بعيدا حتى يسود السلام ربوع القرية من جديد • اذهب الى أى مكان آخر ، تصحبك عنـــاية الرب ، ولكن ليكن مكانك بعيدا عنا • وها أنذا قد أبلغتك كلامي •

ورفع القسيس فوتيس رأسه وقال في هدوء :

– أنت على حق يا أبانا فيما تقول • فكل ما يحدث في العالم انما يحدث بمشيئة الرب • وعندما تكلم مانولي انما كان ينطق بكلمات فاض بها قلبه ، وكانت هذه ارادة الرب • وأثقل الحزن قلوب بعض أهـــالي ليكوفريس حين سمعوا قصة آلامنا ، وفاضت عيـــون بالدمع ، وفتحت

بعض خزائن الطعام ... كل هذا حدث لأن الرب أراد ذلك . واذا كنا قد أتينا الى هنا لننغص عليكم حياتكم الهادئة الوادعة فقد حدث ذلك ايضا لأن الرب أراده . لأن المياة التى تظل راكدة زمنا طويلا لا بد وأن تفسد ، وكذلك الروح ، تفسد اذا عاشت فى دعة وسكون زمانا طويلا . وقد أرسلنا الله اليكم لنكون الريح التى تثير العاصفة فتحرك صفحة الماء وتبعث فيها الحياة من جديد ، وتدب الحياة فى النفوس الميتة من جديد .

والتفت ناحية أهل ليكوفريس :

ـ اخوتى ، كنا من قبل مثلكم : أصحاب أراضى وأملاك ، نعيش حياة رغدة . واليوم أصبحنا معدمين نمد أيدينا بالسؤال . قمت بجولة بين القرى ، طرقت الأبواب كلها الواحد بعد الآخر ، وعدت بعد ذلك الى شعبى صفر اليدين . لو كان الأمر يتعلق بى وحدى ما كنت أبالى أيضا، فقد عاشوا حياتهم ، ولكننى حزين من أجل الأطفال ، كل يوم يموت أحدهم جوعا ، ومن بقى منهم جيا لا تقوى ساقاه على حمله . ترى ما الذى يحتاجون اليه ؟ كسرة خبز ، وقطرة زيت ، وخرقة يتدثرون بها . لو توفرت لهم هذه التوافه التى تلقون بها الى الكلاب أو بين القمامة فستكتب لهم الحياة من جديد . ان كنت أسأل صدقة فاننى أسألها من أجل هؤلاء الأطفال . من أجلهم أمد يدى وأصيح بأعلى صوتى : « صدقة أيها المسيحيون » .

وأطرق الأب فوتيس برأسه ثانية ، وعاد الى صمته ، أصفر الوجه فى لون الشمع ، واسع العينين ، عاقدا ذراعيه الى صدره ، ترى ذراعيه تلمعان وقد نتأت عظامهما تحت هذا الجلد الرقيق الشفاف .

وتردد صوت نشيج بين الناس هنا وهناك . انخرطت ماريورى فى البكاء وهى تحاول جاهدة أن تكتمه . واذا بفتاة عروس تخلع عقدها الذهبى من حول جيدها وتواريه فى خجل كأنها سرقته . واستمع ديمترى الجزار الى صوت الرب يتحدث اليه بين جوانحه قائلا :

ـ عندى عجل سمين كنت أعده لأذبحه يوم الأحد القادم وأبيعه للقرية ، سأذهب به الآن الى أهل ساراكينا وأقتسمه معهم هناك . انك على حق يا مانولى . انى لأستحى أن أرى الطعام أمامنا نملأ منه البطون بينما اخوة لنا يموتون جوعا بجوارنا .

وأخذ الحماس بقلب أندونيس :

ـ سأصعد الى جبل ساراكينا مساء السبت وأحلق لهم جميعا مجانا . وأخلع لهم أسنانهم مجانا لمن شاء منهم ذلك .

وجرف التيار ناظر المدرسة ، وتغلب على خوفه :

– عندى بعض كتب الهجاء ، وغيرها من كتب الأطفال ، وعندى بعض الألواح والأقلام ، وخريطة لليونان العظمى ، سأضعهما تحت تصرف أهل ساراكينا .

وتمتم الشيخ لاداس فى حنق شديد :

– ليأخذك الشيطان .

وحدج القسيس جريجوريس أخاه بنظرة مغيظة دون أن ينبس بكلمة .

ودنا مانولى من القسيس فوتيس وقبل يده . وقال بصوت عال :

– ها أنت يا أبانا ترى بعينيك . يجب ألا تيأس . لا زال المسيح حيا ، ولا زال يمشى على الأرض ، تفتحت له القلوب تحتفى به ، تشجع يا أبانا .

وتقدم الأصدقاء الثلاثة ، ومن ورائهم ديمترى الجزار ، وأندونيس الحلاق يسيران فى وجل . ثم تقدم من بعدهم بعض القرويين بخطوات مترددة . وأخيرا حذا حذوهم ناظر المدرسة وفى نفسه خوف وقلق وتردد .

واستدار القسيس فوتيس اليهم ورسم الصليب وقال :

– لننصرف يا أبنائى ، فنحن أيضا لنا كنيسة صغيرة أقمناها داخل كهف قديم كان كنيسة فى قديم الزمان . لنذهب معا نمجد الرب . يومنا يوم عظيم ، ارتجف له قلب الانسان ولان معه .

والتفت الى الناس الذين تفرقوا وبدأوا يفتحون حقائبهم التى أثقلها الطعام ، يخرجون منها لحما ونبيذا وقال :

– الى اللقاء يا أهل ليكوفريسى . كلوا واشربوا هناء وصحة وعافية. وامنحنا بركاتك يا أب جريجوريس .

وزأر القسيس البدين :

– بل لعناتى أيها المتمردون ، واللعنة على كل من يتبعك أيها الأثيم .

ورد عليه القسيس المهلهل الجائع بصوت هادىء رقيق وهو يشير بأصبعه النحيل الى السماء :

– لعل الرب الذى مايز بين الظلمة والنور أن يكون حكما بيننا . فهو وحده من نثق به ؟

***

لعنة القسيس

كان القسيس فوتيس وأصدقاؤه الأربعة أمام الكهف الذى تحـول الآن الى كنيسة · جلسوا فوق أرائك حجرية نحتها المسيحيون الاول يوم أن هربوا من اضطهاد عبدة الأوثان ، فلاذوا بهذه الكهوف واتخذوا منها مأوى لهم ·

وعبق الجو برائحة النعناع والسعتر · وبدأ الليل زحفه ، وألقى بظله على الأرض أزرق شفافا · وساد السكون · غير أنه بين حين وآخر يطرق أسماعهم أنين طائر من طيور الليل برحه الجوى ، أو صرخة آخر يجد بحثا عن دودة أو فراشة أو فأر ينقض عليه ويلتهمه · ودنت إلنجوم هذا المساء حتى تخالها معلقة بين السماء والأرض ·

وران الصمت على الرفاق الخمسة فترة طويلة من الزمن ·

قضوا نهارهم يتنقلون من كهف الى كهف ، يتحدثون الى اخوتهم الذين غلبوا على أمرهم ، فملأ الأعجاب جوانحهم بهؤلاء الرجال : اذ كيف لاءموا حياتهم مع هذا المكان الموحش ، وكيف يعمل القسيس فوتيس فى دأب لا يعرف الكلل ، يسأل الناس الصدقات ، ويشاور قومه فى الرأى، ويشد من أزرهم ، ويبتهل الى المسيح أن يتنزل الى الأرض فوق ساراكينا وليكوفريسى ليشهد ويحكم ·

وبعد أن أضناهم التعب والأسى ، أتوا الى حيث جلسوا فوق الأرائك الحجرية التى نحتت فى الصخر يتأملون الليل وقـد هامت أرواحهم ·

وجاشت صدورهم هذه الليلة بانفعالات غريبة ترتجف معها أجسادهم • احسوا كأنهم طردوا من كل الديار ، فلاذوا أخيرا بهذا المكان حيث قبعوا أمام الكهف وكأنهم يدبرون مؤامرة • ما هى مؤامرتهم ؟ انهم هم أنفسهم لا يعرفون ، ترى ما الذى ستفعله هـذه الأرواح الخمسة ؟ ما الذى فى استطاعتهم أن يطوحوا به ؟ ما هو العالم الجديد الذى يستطيعون بناءه ؟ وكان الجو الذى يحيط بهم ما زال يخفق ساخنا • وأحسوا بأن ثمة وجودا سماويا قدسيا حاضرا معهم ولا يبصرونه •

وأراد ياناكوس أن يخفى انفعاله فقال :

ـ ليلتنا ليلة جميلة حقا •

وارتجفوا فرقا لسماعهم صوت انسان ؛ اذ كان السكون أشبه بحلم جميل صدعه ذلك الصوت فانتفض مذعورا يوشك أن يفر هاربا •

وتجرأ قسطندى وقال :

يا أبانا ، مضت أربعة شهور منذ أن اختارنا مجلس الأعيان وحدد أدوارنا لتمثيل السر فى رواق الكنيسة • الا أن مشاغلنا ومتاعبنا اليومية أبعدتنا عن الطريق المرسوم طوال هذه المدة ، ونسينا هدفنا • وهذا هو الوقت الذى اجتمع فيه شملنا لنتدبر أمرنا • ولكن ماذا نحن فاعلون ؟ وكيف ؟ لابد وأن قداستكم تعلمون ذلك حق العلم ، اننا نسألك العون•

مضت فترة دون أن يجيب القسيس فوتيس • بدا وكأن فكره يحلق بعيدا وتأخر حينا حتى يعود •

وأخيرا دنا القسيس من أصدقائه ، وسمع السـؤال وابتسم ثم قال :

ـ ما الذى ينبغى أن تفعله يا قسطندى ؟ استمر فيما أنت عليه ، ولا شىء آخر • لقد سلكتم يا أبنائى الطريق السـوى ، الذى يؤدى الى الآلام المقدسة وصلب المسيح • وليس ثمة طريق خير منه •

واحتج مانولى فى خضوع :

ـ ولكن ما الذى نفعله ؟ نحن لا نفعل شيئا يا أبانا •••

وتنهد ميشيل في حسرة وقال :

ـ لا شىء ، لا شىء البتة .

وضغط القسيس على يدالعمدة الصغير فى حنان وأجاب قائلا :

ـ هل نسيت السلال يا ميشيل • وهـل نسيت ياباناكوس يوم دعوت المساكين ليقاسموك بضاعتك ابتغاء أن تدخل على قلوبهم المسرة ؟ وأنت يا قسطندى ، أنت الانسان البسيط الذى كان بالأمس صاحب مقهى متواضع ، ألم تترك عملك لتصـعد الى الجبل وتقاوم الظلم ؟ وها أنت على استعداد لملاقاة الموت من أجل فكرة تؤمن بها • ألم يحمل مانولى كل خطايا قومه وسعى راضيا الى الموت لخلاص قريته ؟ حتى بانايوتى ، هذا الرفيق التعس ـ ماذا يفعل سوى أنه يعد نفسه لهذا الدور الرهيب ، دور يهوذا ؟ انكم تعدون أنفسكم يا أبنائى ، تعدون أنفسكم دون أن تعلموا ذلك ، وهذا هو الطريق السوى .

ثم خيم صمت طويل • وتنهـد مانولى ، وهـو يحملق فى نجم يتراقص مبتسما على صفحة السماء . فصديقنا الراعى يعرف هذا النجم حق المعرفة ويحبه .كثيرا ما كان ينظر اليه وهو راع صغير ، يسخر منه النجم ويظنه مانولى نجم الصباح حتى انه كان يجمع اغنامه ويسوقها الى المرعى ، انه المشترى . وقال مانولى لنفسه وهو ينظر الى النجم كأنه رفيق صبا : « أولى بنا ان نسميه النجم الخداع » .

اطرق قسطندى براسه ، وغشى قلبه حزن عميق . احس أنه هو الوحيد الذى لم يفعل شـيئا ، لا شىء على الاطلاق • وآلمه كثـيرا أن يكون هو آخرهم جميعا ، حتى يهوذا سبقه فى ذلك .

وهز ياناكوس رأسه غير قانع بما قدم . وقال لنفسه : « لم افعل شيئا . قدمت بعض النقود ، جدت ببعض بضاعتى هدية لهم • ولكن هذا كله شىء لا يستحق الذكر . التضحية الحقة هى أن أجود بحبيبى يوسوفاكى . وهذا هو ما انتظره منك ياياناكوس . ترى هل تطيق ذلك ؟ فكل ما عدا ذلك هباء .

مرة أخرى هامت روح القسيس فوتيس بعيدا . حلقت فوق ربوع وطنه ، وتنقلت بين أماكن يأنس اليها ويعرفها حق المعرفة ، ثم عادت أدراجهـا حتى اسـتقرت أخـيرا فوق جبـل قفر يسمى جبل ساراكينا . كان الظلام دامسا ، وضوء النجوم شاحبا هزيلا ، فلا يكاد يميز فى وضوح الوجوه الأربعة الحبيبة والصخور ترتفع خلفها •

وارتفع صوت القسيس عميقا قويا مفعما رقة وحنانا :

ـ يا أبنائى ، يبدو لى احيانا أن روح الانسان تشبه زهرة الليل .

تظل داخل اكمامها طوال النهار وتتفتح مع ظلام الليل وتملأه بشذاها العطر . وهذا ما يحدث معنا الليلة ، فبرغم عتمة الليل التى تحتوينا حتى لا أكاد أراكم بوضوح أشعر كأن روحى تتفتح . وعدتكم ذات يوم فوق الجبل الذى يعيش عليه مانولى أن أقص عليكم قصة حياتى . ترى هل تذكرون ذلك اليوم ؟ أحسست ذلك المساء بالخجل عندما انحنيتم أمامى تقبلون يدى وأنتم لا تعرفوننى من أنا وأى يد تلك التى تقبلونها .

وتأثر مانولى من هذا الكلام وقال :

ـ ونحن أيضا تفتحت أرواحنا الليلة يا أبانا . كلنا آذان صاغية.

وبدأ القسيس فوتيس حديثه على نحو ما يبدأ الرواة عادة : بطيئا فى ايقاع وقال :

ـ قرب بحر مرمرة وعلى الجانب المقابل لمدينة القسطنطينية تقع قرية صغيرة ساحرة الجمال غنية بالحدائق الممتدة على طول الشاطىء . اسمها أرتاكى . وهى مهبط رأسى . كان أبى قسيسا صارما ، صموتا ، فظا غليظا .. يشبه وجهه وجوه الزهاد المنقوشة فوق جدران الكنائس القديمة . وكان جدى قسيسا كذلك . ورغبا فى أن أصبح قسيسا بدورى . بيد أننى كنت راغبا عن هذا كارها له فى أعماقى . كنت أحلم بالأسفار والتجارة ، وأن أملأ خزائنى ذهبا لأشترى به بعد ذلك بنادق أسلح بها رجالى ، وأحرر ارتاكى من الاتراك . ولدت ثائرا كما ترون ، وامتلأ رأسى بأمانى تقصر دونها الهمم .

لم أكن أخشى أحدا فى حياتى غير أبى . كنت ارتعد منه فرقا ، واذا كنت قد انتظمت فى دراستى بالمدرسة وبززت أقرانى فلم يكن ذلك عن حب للدراسة وانما عن خوف . وأتممت دراستى بالمدرسة ، وحزمت أمى حقائبى (وقد كانت أمى رحمها الله امراة تقية ورعة) وضعت فى الحقائب ملابس ، وأيقونة تعميد المسيح وبعض البسكويت ، وجوزا وعنبا وتينا جافا ممزوجا بالسمسم . وأرسلوا بى الى القسطنطينية حيث معهد اللاهوت .

ولكن واأسفاه ، من أين لى الصبر والتقوى زادا أتزود بهما فيكونا لى عونا على مواصلة دراسة اللاهوت ؟ كنت ثائرا متمردا لا يهدأ لى بال . قضيت حياتى هناك أذرع القسطنطينية طولا وعرضا كمن أصابه مس ، مسحورا بجمالها الذى يخطف بريقه الأبصار . تسلطت على فكرة واحدة : كيف لى أن احرر هذه الأراضى والمياه المقدسة من الاتراك ..

وذات يوم نشبت حرب ١٨٩٧ (١) وشب معها حريق فى رأسي ، فمضيت أصرخ : « دقت الساعة لتلقى بالأتراك الى الجحيم » وقررت أن أنسل سرا فوق ظهر قارب ، ونجحت فى ذلك . ورسوت عند ساحل اليونان ، وارتديت ملابس الثوار ، وتسلحت ببندقية ، وتمنطقت بحزام من الاعيره النارية ، وانطلقت فى طريقى مع بعض الثوار الى حرب الأتراك .

وصعد الأب فوتيس زفرة حارة ، ثم قال بصوت ساخر يفيض مرارة:
ــ آه . كانت حربا غير متكافئة . كنا كمن يضرب فى حديد بارد . . لعنة الله على الدولة يا أبنائى ، نعم عليها اللعنة . فهى التى ألحقت بسلالتنا الدمار .

وأمسك عن الكلام لحظة ، وسرح فكره ، ثم لوح بيده كمن يلقى بعار الوطن وراء ظهره ، وعاد الى حديثه :

ــ لنعد الى حديثنا عن معامراتى . ان اليونان بلد خالد ، بوسعها أن تخاطر بأعمال كثيرة ، ولديها الوقت الكافى لاصلاح ما فسد . ولكن هل بوسعى أنا ، المخلوق الوضيع الزائل ، أن أحلق فى الفضاء وحدى ؟ ولكن باختصار . بعد ان حفيت قدماى ، عضنى الجوع وترهل بطني حتى أصبح كالبالونة الفارغة ، حدث ذات يوم وبينما كنت اتسكع على على أرصفة بيريه بحثا عن قارب يحملنى الى أرتاكى أن وقع بصرى على بعض اللاجئين اليهود ، رسوا بزورقهم على رصيف الميناء . ونظرا لأننى ابن قسيس ، أبا عن جد كما قلت لكم ، فاننى ما كنت أرى يهوديا حتى أذكر أن اليهود هم الذين صلبوا المسيح ، فيغلى الدم فى عروقى . وقضيت يومى فوق الرصيف أمتع ناظرى برؤية هؤلاء اليهود بأنوفهم الطويلة المقوسة ، ولحاهم الحمراء الشعثاء ، وعيونهم المتورمة الكدرة ، وعباءاتهم الكالحة البالية . قضوا وقتهم فى صياح وصراخ ، يدفع بعضهم بعضا فى سباق من أجل النزول الى البر . وفجأة ندت صرخة حادة : لقد زلت قدم فتاة يهودية وسقطت فى الماء وغاصت فى اليم كما يغوص الحجر . ولم يبد واحد منهم حراكا لانقاذها . ولم أحتمل ما رأيت . وحدثت نفسي : « انها بشر مثلنا ، فلها روح هى الأخرى . والقيت بنفسى الى الماء كما انا ، وأمسكت بها من شعرها وانتشلتها

(١) سادت اليونان فى تلك الفترة حركة فكرية ثورية دفعت الحكومة اليونانية الى الدخول فى حرب ضد الاتراك عام ١٨٩٧ لاستعادة الاراضى اليونانية التى كانت خاضعة آنذاك للامبراطورية العثمانية . وانتهت تلك الحرب بهزيمة اليونان . . . . (عن الترجمة الفرنسية) .

خارج الماء ، وصعدت بها الى الرصيف . وسرعان ما تدافعت النساء لاسعافها وتدليكها حتى تفيق . ووقفت تحت الشمس أجفف ملابسى . وفى هذه الأثناء التفت ناحيتها ورأيتها : شقراء ذات أنف أقنى ، وجلد غطاه النمش . وفتحت عينيها الزرقاوين ورنت الى كأن هناك من قال لها إنها مدينة نى بحياتها . ورأيت عينيها واستبد بى فزع ، اذ سقطت بدورى في بحر أزرق أغوص فى مائة ولا منقذ .

وتهدج صوت القسيس ، وهز راسه . وقال بعد لحظة صمت :

ـ هذا العالم سر غامض . وعقل الانسان قاصر عن بلوغ حكمة الله فى تدبيره لشئون خلقه ، فالخلاص والهلاك يأتيان من حيث لا يتوقع الانسان ، حتى أننا لا نعلم أى الطرق تؤدى الى الجحيم وايها الى الفردوس . خيل الى آنذاك اننى أقدمت على عمل طيب ، اذ أنقذت نفسا بشرية . ولكن الحقيقة أننى منذ تلك اللحظة وطئت بقدمى الطريق المؤدى الى الجحيم .

لم أكن حتى ذلك الوقت قد دنست نفسى بامرأة . أنتم شباب أصغر منى سنا ، وقد أخجل من الحديث اليكم عن خطيئة شهوة الجسد ، ولكننى سأعترف أمامكم فى صراحة وبساطة : وقعت فى الخطيئة مع هذه الفتاة . ومنذ ذلك الوقت تغير طعم كل شىء على لسانى ، الماء والنبيذ والخبز والنهار والليل ، أصبحت كلها ذات مذاق جديد لم احسه منها قبل ذلك . واختفى الله من أمامى . واختفى مع الرب أبى وأمى والفضيلة والأمل . ورآنى رجل من أبناء قريتى وأخبر أبى بكل ما رآه . وأرسل الى القسيس الشيخ رسالة أحرق حوافها الأربع علامة على الغضب . قال لى فيها : « ان كنت تقترف الخطيئة مع هذه اليهودية فقد حقت عليك لعنتى ولا أريد أن أراك ثانية أمام عينى » . وقرأت الرسالة مع خليلتى اليهودية وأغرقنا فى الضحك .

وحدث لى ذات يوم ـ وسبق لى أن قصصت عليكم هذا ـ أن ذهبت الى قرية صغيرة لى بها بعض الأصدقاء لنحتفل معا بعيد القيامة . وصحبتنى الى هناك خليلتى اليهودية . وقصدنا حديقة اتخذنا فيها مجلسنا لنأكل ونشرب . وعندما أمسكت بالسكين لأقطع الشاة صحت بأعلى صوتى ، على سبيل المزاح لا غير : « آه لو وقع بصرى الآن على قسيس فانى سأقطع رقبته » . وصاح بى جار يجلس مع المجموعة : « ثمة قسيس يجلس خلفك » . واستدرت ورأيت القسيس

فانقضضت عليه وقطعت رقبته . لماذا ؟ لأن اليهودية كانت معى وخجلت أن أبدو أمامها فشارا لا يبر بكلمته .

وزج بى الى السجن . وكانت اليهودية تزورنى كل يوم ، وتغسل ثيابى ، وتحضر لى الطعام والسجائر . وكانت تمد يدها من بين القضبان لتربت بها على وجهى وشعرى دامعة العينين . كانت تبكى ليل نهار حتى أصابها النحول وأضناها السقم .. وذات يوم لم تحضر كعادتها ، وانتظرتها فى الغد ولكنها لم تأت ، لا فى الغد ولا بعده .. ورأيت فيما يرى النائم القديسة العذراء متشحة بالسواد . وخيل الى أنها تتراءى لى عن بعد ، صغيرة جدا ثم بدات تكبر وتكبر رويدا رويدا كلما اقتربت منى . وكانت شفتاها ترتجفان ، اذ كانت تتمتم بكلمات لم اسمعها لأنها كانت لا تزال بعيدة عنى . وأرهفت السمع . واتضح لى صوتها ، وارتفع رويدا رويدا ، والعذراء تكبر وتكبر أمام عينى كلما دنت منى . وأخيرا وقفت قبالتى ، وسمعت كلماتها واضحة تقول : « انها ستموت .. انها ستموت .. ماتت » وقفزت من نومى فزعا . وفهمت ما تعنى .

كانت ليلة حالكة السواد ، والمطر ينهمر مدرارا . وتسللت الى فناء السجن . لم أكن أعرف على وجه التحديد ما أنا مقدم عليه . وتلاشت أمامى حدود القدرة البشرية ، كنت على ثقة أننى قادر على عمل أى شىء ، أستطيع أن أتسلق سور السجن وأهرب ، وأمر بالحارس دون ان يرانى . واذا رآنى واطلق الرصاص فلن يصيبنى . أعمانى الحب والحزن ، وفقدت معهما صوابى . استعرضت فى ذهنى موضع السجن واخترت المكان الذى يمكن لمجنون أو يائس أن يختاره ليتسور منه جدار السجن . وتحسست طريقى واهتديت الى ذلك المكان تحت جنح الظلام . وتعلقت بالحجارة ، وبدات أتسلق كقط مفترس . كنت اخشى ضوء النهار ، ولكننى كما قلت لكم نسيت حدود طاقة البشر ، تسورت الجدار وهبطت الى الجانب الآخر . كان المطر يهطل مدرارا كسيل منهمر . ولم يكن هناك من يرانى . فأطلقت ساقى للريح .

تنفس الصباح مع وصولى الى بيتها . طرقت الباب ولكن كيف يسمعنى انسان وسط هذا الطوفان الطامى ؟ فتسورت الجدار ، واجتزت الفناء ، وانسللت خلسة الى مكان السلم ، وصعدت الدرج ، وفتحت باب حجرتها . وناديت عليها بصوت هامس خفيض ، ولكن لا مجيب .. سكون مطبق . أشعلت عود ثقاب ، فألفيت الفتاة اليهودية مسجاة فوق سريرها شاحبة جامدة بغير حراك ،ملتوية الشفتين جاحظة

العينين فى هلع .. تجرعت السم فى تلك الليلة ذاتهـا ، لم تعد تقوى على احتمال الفرقة أكثر من ذلك فانتحرت .

ونهض القسيس فوتيس ونظر حواليه كمن يبحث عن مهرب ، ثم جلس ثانية خائر القوى كأنه عائد من رحلة طويلة من الطرف الآخر للعالم . ولزم الصمت فترة طويلة .

وسأله الاربعة وهم يلتقطون انفاسهم بصعوبة :

ــ ثم ماذا بعد يا ابانا ؟

وقال القسيس :

ــ هذه هى قصتى .

وسأله مانولى :

ــ ثم ماذا حدث لك ؟ كيف عدت الى طريق الرب ؟

ــ روح الانســان سر غامض . أضلنى الحب وأبعدنى عن الرب ، أما الحزن ، بارك الله فيه ، فهو الذى أعادنى اليه ثانية . قصدت جبل آثوس . وكانت الخلوة مصدر خير لى أول الأمر وارتحت لها . وهدأت روحى قليلا . ولكن اليهودية اقتحمت على خلوتى مرة أخرى ، وضاع الهدوء ، وقضت على وحدتى صيحات الفرح وأنات النشــيج . ولم أقو على احتمال ذلك وذهبت الى سيدى واعلنت له اننى غيرت رأيى واريد العودة من جديد الى الحياة الدنيا . ومنحنى بركاته ،وغادرت الدير . وطالت بى المســيرة ، حتى وصلت الى قرية صغــيرة . وسمعت صوتا يهتف بداخلى . « ابق ها هنا » . واذعنت لهذا الهاتف . وتزوجت بعد ذلك ورسمت قسيسا هناك . وقررت أن القى بنفسى بين احضان العذاب والآلام فى هذا العالم ، التمس فيهما السلوى والنسيان . وفعلت ذلك . ودهم المرض حياتى ، اذ أصاب زوجتى ووافتها المنية ، ومات اطفالى من بعدها ، ووجدت نفسى وحيدا من جديد ، أقف جريحا امام الرب وجها لوجه . ثم جاء اليونانيون ومن بعدهم الأتراك .. وتعرفون بقية القصة . حمدا لله على كل مكروه ابتلانى به ، وكل خير أنعم به على .

وانحنى الأصدقاء الأربعة ليقبلوا يد القسيس المعذب .

وتمتم القسيس وهو يتنهد :

ــ انى متعب ، نال منى التعب . عشت حياتى معكم مرة ثانية . أن رحيق هذه الدنيا عقوبة وعزاء مر المذاق . اناجى الرب احيانا :

« الهى حياة الدنيا جحيم لا يطاق ، لولا هذا الأمل العظيم الذى يراودنا طمعا فى ملكوت السموات .

وران عليهم الصمت من جديد . ونهض القسيس فوتيس ورنا بعينيه تجاه الشرق ، ورشم الصليب فقد تنفس الصباح .

***

قضى الشيخ بطرياركاس ليلته تلك أرقا جالسا فوق سريره يصيخ السمع للباب الخارجي عسى أن يسمع خطوات ابنه عندما يدخل الى الفناء .. ظل ينصت طوال ليلته ، وكلما سمع وقع أقدام في الطريق نهض واقفا وأطل من النافذة ، ولكن لا أحد . وأشعل سيجارة ، وأتبعها بغيرها وغيرها ، ثم ألقى بنفسه بكل ثقله فوق السرير ثانية . وعند الفجر غلبه النعاس : ورأى فيما يرى النائم نسرا ينقض من عليائه الى الفناء ويختطف ديكه الأبيض ، أحب شيء لديه ، والذى احتفظ به لنسله . أنشب النسر مخالبه فى الديك واختطفه وارتفع به الى عنان السماء ،وقتما كان الديك يصيح ابتهاجا بمقدم الصباح ..

ونهض من نومه مذعورا ، واحس برعشة تسرى فى جسده .

ورسم الصليب وتمتم :

ـ اللهم اجعله خيرا .

وصفق بيديه ونادى لينيو . أتت اليه والنوم لا يزال يغالبها ، مرتدية لباس النوم ، فبدت شبه عارية ، شعثاء الشعر ، لامعة العينين ، نافرة الثديين كأنهما يحاولان الفكاك من صدرتها البيضاء . وقال لها :

ـ اسمعي يالينيو ، هل عاد ميشيل ؟ أين قضى ليلته ؟ أين نام ؟

ـ لم يعد ياسيدى . نظرت داخل حجرته وانا فى طريقى اليك فلم أجد بها أحدا ، وفراشه كما هو لم ينم عليه أحد .

وضحكت ضحكة العارف ببواطن الأمور وقالت :

ـ ماتت الأرملة . الله اعلم أين يذهب الآن شباب القرية الذى يقضى ليلته خارج بيته .

ـ أخبريه فور وصوله اننى اريد ان اراه .. انتظرى .. ما الذى فعلته بالأمس أثناء الاحتفال ؟ اذ لم يقع بصرى عليك .

واحمر وجه لينيو خجلا ، وضحكت فى دلال ، ولم تجب على السؤال .

ـ أيتها العاهرة الفاجرة . ألا تطيقين صبرا لأيام قلائل ؟ اتفقنا

على أن يتم عقد قرانك يوم الأحد القادم حتى تطمئن نفسك ، ثم لا تطيقين صبرا . ستنعمين بالهدوء الذى سيفتقده نيكوليو أيتها الابنة التعسة .. هل تسمعين ما أقول ؟ أراك شاردة الهب ، ترى أين تهيم روحك الآن أيتها الرعناء ؟ .

وضحكت لينيو وهى تميس بقدها فى دلال ، وأجابت :

ـ فوق الجبل .

وحقا ما قالت . اذ شرد فكرها الى الجبل ، هنالك تحت ظل شجرة سنديان خضراء مورقة .. كانت قد عادت من جبل ساراكينا متصببة عرقا ، متقدة الوجنات . وما ان سمع نيكوليو وقع خطواتها حتى استدار ناحيتها ، وثغا كما يثغو التيس ، وتعلق بجيدها وطرحها أرضا فى وحشية وصمت .. ودنا منهما الكبش الكبير ، وتحسسها بفمه ، وشم رائحتها فتعرف عليها ، وثغا هو الآخر مثلما فعل سيده ، ولبث بالقرب منهما وهو يلعق شفتيه .. وفجأة طرق سمعها الصوت الأجش لسيدها العجوز ، فوثبت فى مكانها .

ـ أين سرح فكرك أيتها العاهرة الصغيرة ؟ ألم تسمعى حديثى اليك ؟ الا زال فكرك هائما هنالك فوق الجبل ؟

وأجابت لينيو :

ـ طوع أمرك يا سيدى .. معذرة فلم اسمع ما قلت .

ـ طلبت منك قهوة (سكر زيادة) .. أشعر بدوار ، فلست على ما يرام .. ربما كان الجوع سبب ذلك ..

ولكن لينيو كانت خارج الباب قبل أن يكمل الشيخ كلامه ، تثب فوق الدرج وهى تقعقع بقبقابها ..

واغمض العجوز عينيه ، واستعاد حلمه من جديد : « النسر .. ترى ماذا يعنى ؟ لا أعرف . أسألك اللهم أن تكلأنا برحمتك وتقى بيتى الشر .

أشرقت الشمس ، وامتلأت دروب القرية بأصوات الرجال وثغاء الماشية ونهيق الحمير . خرجوا جميعا بشرا وحيوانات الى العمل ، وكلهم يحيى مطلع اليوم الجديد .

أحضرت لينيو القهوة المحلاة بالسكر . وجلس العمدة قرب

جريجوريس البارحة وأخبره أنه بينما كان يستمتع بأكل الخنزير الرضيع في هدوء وغبطة استنفر مانولى الفلاحين ، زاعما أن المسيح يأمر كلا منا أن يقدم نصيبا معلوما من دخله الى شعب ساراكينا • والأدهى من ذلك أن بعض السذج صدقوا ما قال • وذلك الثعلب العجوز المدعو بالقسيس فوتيس ، حقيبة القمل ، الذى يمثل دور الناسك ، أسهم بدوره في تأنيب الناس وبذر الشقاق • وانقسم أهل القرية الى معسكرين : الحثالة في جانب وأكابر القرية في الجانب الآخر .. « انتظر ، انتظر ، هناك ما هو أدهى وأمر : ابنك ميشيل كان أول من انحاز الى الرعاع ، وأخذ يتوعد القرية . وها نحن الآن وقد ابتلينا بهذا الملعون المدعو مانولى ، هذا المرائى الحقير ، يخرج علينا ويرفع علم الثورة والعصيان • يرى في نفسه الزعامة ، ويضم ابنك الى عصابته . ثم هذا التيس العجوز الذى يعلمهم • هل سمعت ما أقول ياعمدة ؟ اذا لم يتولنا الرب ويعيد الأمور الى نصابها فانا هالكون •

وتمتم العمدة بطريازكاس :

ـ يا صديقى أنا الذى سأضع للأمر حدا بيدى ، فان الله لا يأبه لمثل هذه التوافه من الأمور • هل تحسبين أن لدى الله متسعا من الوقت ليبحث مشاكل البشر جميعا فردا فردا ؟ انا المسئول هنا عن وضع الأمور فى نصابها فى قرية ليكوفريسى • وسوف أعرك أذن ابنى الآن ، وبعد ذلك يأتى دور هذا الأبله مانولى •

فى هذه اللحظة انفتح الباب الخارجى وانسل ميشيل خلسة .

هب العجوز من مكانه ، وأطل من النافذة وصاح :

ـ نعمت صباحا يابنى . هل طاب نومك الليلة ؟ لعلك تتفضل بالصعود الينا لنتمتع برؤياك •

وقال الفتى لنفسه :

ـ حذار يا ميشيل • امسك عليك لسانك • لا تنس أنه أبوك •

وأجاب :

ـ انى قادم يا أبت •

وصعد الدرج الحجرى ، وحيا الشيخ تحية الصباح . ولكن الشيخ لم يتفضل حتى بالنظر اليه : اذ حاول التظاهر بالغضب • كان

حتى تلك اللحظة يتوعد ابنه ، ولكن ما ان رآه ينسل خلسة الى الداخل حتى تذكر الشيخ أيام شبابه . كان ينسل خلسة الى الداخل وقتما كان فى مثل عمره ،وهنا فى هذا المنزل ذاته ، بعد سهرة ممتعة مع خليلاته . وما ان تذكر الشيخ هذا حتى رق قلبه لابنه وقال لنفسه : كنت مثله تماما ، ولكننى اعتدت أن أقضى ليلتى فى الخارج مع شهواتى ، أما هو فانه يتبادل القصص عن الرب الرحيم مع أصدقائه المجانين .. ياللسماء ، من يدرى ، ربما كان هذا أيضا نوعا من شهوات الشباب . انه شاب وعسى أن يبرأ من ذلك قريبا .. وبينما كان يفكر فى هذا ظل موليا ظهره لابنه ، محاولا أن يستثير فى نفسه الغضب . ولكنه أحس أن الغضب لا يستجيب لندائه ، وانما يأتيه على مهل فاستدار الى ابنه فجأة غاضبا من أنه لم يوفق فى استثارة غضبه . وصاح :

ـ ما هذا الذى أسمعه الآن . هه ؟ ألا تخجل من نفسك ؟.ألا تحترم مركزك ؟ هل نسيت من أنت ، وابن من ، ومن جدك ؟

وأحس بالسعادة ، اذ أنه ما ان بدأ الحديث حتى سرى الغضب فى عروقه . وصاح بصوت جهورى :

ـ أمنعك من أن ترى مانولى بعد ذلك .

وتردد ميشيل فى الاجابة ، وقال فى نفسه :

ـ صبرا انه أبوك . ليس القوى من يثور ويغضب وانما القوى من يملك نفسه عند الغضب . فاملك زمام نفسك .

ـ لماذا لا تجيب ؟ أين قضيت ليلتك هائما على وجهك ؟ فوق جبل ساراكينا ؟ مع هذا القسيس الصعلوك ، ومانولى الخادم باعث النهضة؟ صحبة جميلة حقا ! هل انحدرت الى هذا المستوى أيها التعس ؟

وأجاب الابن فى هدوء :

ـ ابى ، لا تسب اناسا هم أفضل منا ..

وهنا هب العمدة واقفا وقد اهتاج حقا .

ـ ماذا تقول ؟ هل فقدت صوابك ؟ أفضل منا ؟ هذا القسيس المهلهل ، وخادمنا !!

ـ هذا القسيس المهلهل كما تسميه انما هو قديس . ليس فينا نحن سلالة السيد بطرياركاس من يستحق أن يفك رباط حذائه .

طوح العجوز بسيجارته بعيدا ، وتدافع الدم الى رأسه الثقيل .

وواصل ميشيل حديثه فى هدوء ودون شفقة :

ـ أما عن مانولى ، فان شئت أن تعرف فأنت تعلم حق العلم انه بينما كنتم جميعا ، أعيانا وعمدا وقساوسة ونظارا تسلمون فى خنوع وترتعد فرائصكم فرقا داخل السجن ، لا تفكرون فى القرية بل فى انفسكم وكيف تفلتون بجلدكم ، فان هذا الخادم هو الذى هرع لينقذ الناس جميعا حين قال : « انه أنا ، أنا قاتل التركى . أشنقونى » . من اذن الرجل الذى اثبت عن جدارة فى مثل تلك اللحظة الحرجة ، انه رئيس هذه القرية حقا ؟ هل هو أنت يا صاحب السيادة بطرياركاس، أو ربما صاحب القداسة القسيس جريجوريس ؟ لا ، لا ، انه مانولى . ومنذ تلك اللحظة أصبحنا له أتباعا فهو رئيسنا وعمدتنا .

وارتمى العجوز على ظهره فوق السرير ، وذراعاه مبسوطتان على امتدادهما ، وفى حلقه غصة .

وأطبق ميشيل شفتيه خجلا ، اذ نسى النصائح التى اسداها الى نفسه ورد على أبيه وأغلظ له القول على غير ارادة منه . فاقترب من أبيه الشيخ يسوى له الوسائد .

وسأله :

ـ هل تريد شيئا يا أبت ؟ هل تحب أن تعد لك لينيو عصير ليمون؟

وحملق العجوز فى ابنه بعينين دهشتين وتمتم قائلا :

ـ انت مثل امك تماما . نعم ، أنت صورة مطابقة لها . ظاهرك رحيق معسول ، وباطنك سم زعاف .

وطرفت عينا ميشيل ، وغام الهواء الفاصل بينه وبين أبيه ، وفجأة تراءت له أمه ، شاحبة ، آسية ، كلها نبل وتواضع . وشخص ميشيل ببصره الى ذلك الطيف الذى تراءى له بغتة . وتمتم « أماه » . وخفق الهواء ، وارتعش الضوء ، وسرعان ما توارى الطيف القدسى كأنه ومض البرق .

وسأله الأب :

ـ فيم تفكر ؟

واجاب الابن :

ـ امى ، أمى . أسأت معاملتها ، يا أبت .

ورد الأب غاضبا :

ـ أنا رجل ، ويجب أن أعامل النساء بخشونة . هذا هو

ما يرضيهن • ولكن عسيرا عليك أن تفهم ما أقول فلا زال لبن أمك بين شفتيك •

ـ أسأل الله أن يبقى هذا اللبن أبدا بين شفتى •

مرة أخرى ظهر طيف الأم بينهما ، غاضبا متجهما هذه المرة .. وهزت الأم رأسها وهى تنظر الى ابنها راضية مؤمنة على ما يقول . ومدت اليه يدها كأنها تباركه • واذا بصوت هو صوت أمه ينبعث من بين أعماق ميشيل يقول له : « ارفع رأسك يا بنى فأنت رجل ، وليس لك أن تخشاه مثلما كنت أخشاه أنا • خذ بثأر أمك يا مشيل وقل له كل ما كنت أخشى أن أقوله له • انى أباركك •

وأحس الابن بالعزم والتصميم يملآن قلبه ، وأسند مرفقه الى الشباك وانتظر .

ونهض الشيخ وهو يتنهد . ودنا هو الآخر من الشباك وقال :

ـ اسمع .

ورد الابن وعيناه فى عينى أبيه :

ـ هاأنذا أنصت لك •

ـ اتخذت قرارا ، ولك أن تتخذ قرارا أيضا . لك أن تختار بيننا ، اما أنا أو مانولى . اما أن تترك مانولى وعصابته ، او تترك بيتى .

واجاب ميشيل :

ـ بل أترك بيتك .

ودارت عينا العجوز فى محجريهما مذهولا •

وصاح :

ـ أتحب هذا الخادم أكثر من حبك لأبيك ؟

أنا لا أحب مانولى أكثر منك ، أبدا ، ما شأن مانولى بهذا ؟ اننى أختار المسيح . هذا هو سؤالك لى على حقيقته دون أن تدرك معناه . وها انذا أجبتك على سؤالك .

صمت العجوز ، وأخذ يذرع الحجرة بخطوات واسعة ، ثم توقف ثانية أمام ابنه •

وقال بصوت اثقله الأسى :

ـ ما اعتراضك على ؟

ـ لا شيء ولكنك أكرهتنى على الاختيار ، وقد اخترت . ولا أملك غير ذلك .

وتهاوى العجوز بكل ثقله متهالكا فوق السرير · وأمسك برأسه المحموم بين يديه · وشعر كأن كبده يحترق ·

ثم قال بعد هنيهة بصوت خفيض :

ـ اذهب ، اذهب ، لا أريد أن أراك ثانية .

واستدار الابن . فأبصر اباه واهنا ، خائر القوى ، رأسه بين راحتيه ، وأحس بالأسى نحوه · ولكن صوتا بداخله يصيح به آمرا فى عسف « اذهب » ·

ودنا من أبيه ، وجثا أمامه على ركبتيه ، وقال :

ـ يا أبت ، انى ذاهب ، ولكن هل لك أن تباركنى ؟

وأجاب الشيخ :

ـ لا .. لا أستطيع .

ونهض ميشيل وذهب ناحية الباب وشعر الأب برغبة فى أن يناديه « ياطفلى » ولكنه خجل من أن يذل نفسه ، فآثر الصمت .

وفتح الابن الباب واستدار ناحية أبيه ثانية وقال :

ـ وداعا يا أبت ·

واجتاز عتبة الباب .

***

مضت فترة طويلة ولينبو لا تسمع شيئا من الحوار · فصعدت الدرج خلسة ، وأسندت أذنها الى ثقب المفتاح تسترق السمع · سمعت غطيطا عميقا ، تتخلله تنهدات متقطعة ، وصريرا يصدر عن السرير ·

وتمتمت قائلة :

انتهى الشجار ، ونام الشيخ ، وثمة كابوس يعذبه . سينهض من نومه وقت الظهيرة جوعان ·· كأنه غول نهم · اذن لأذهب وأذبح له دجاجة ·· آه من هذا الكرش الواسع ، ضاقت حيلتى معه ·· نظل نحشوه ولكن دون جدوى ، لا يشبع أبدا ، انه حفرة مالها من قرار ·

ونزلت الدرج ، ودخلت عشة الدجاج لتنتقى دجاجة تذبحها . وقع بصرها على الديك الأبيض يختال مزهوا بعرفه القرمزى ، والدجاجات من حوله تنقر الارض وتقأقىء · وقفت لينيو برهة تتحرق شوقا لرؤية دجاجة ترقد على الأرض فى استسلام ويعتليها

الديك الأبيض ، ثم ينهض بعدها ويقف الى جانب الدجاجة مختالا ، ويبسط عليها جناحيه ويصدح بصوته فى مباهاة . فقد اعتادت أن تمتع ناظريها بهذه المشهد أعواما طوالا ؛ وتستشعر معه نشوة غامرة ، ويحمر وجهها حتى اذنيها . كانت تسقط مشاعرها على هذا المنظر ، فتحس كأنها هى التى طرحت نفسها أرضا وفوقها ثقل لذيذ ممتع مثل ثقل الرجل . ولكن أى رجل ؟ أول عهدها بهذه المشاعر وهى صبية صغيرة لم تكن تتبين وجه ذكر واضح المعالم معروفا لها على وجه التحديد . وبعد ذلك كانت تراه مانولى ، وأصبح الآن وجه نيكوليو . ومضت شهور عدة ولم يتبدل هذا الوجه بعد .

بحثت بنظرها بين الدجاج ، ووقع اختيارها على دجاجة كبيرة رقطاء . لم تكد تمد يدها لتمسك بها حتى جثمت الدجاجة الرقطاء على الأرض ، وبسط الديك جناحيه فوقها يحتضن الدجاجة ويخفيها تحتهما . ولعقت لينيو شفتيها اليابستين بلسانها ، وتأججت النار فى عروقها . وأشفقت على الدجاجة فاختارت غيرها .

أعدت المائدة وقت الظهيرة ، ووضعت بيضة فى الحساء . وانتظرت أن يناديها سيدها ، فقد تأخر عن الموعد المعتاد .

وتمتمت :

ـ أخذ زمانه هذا العجوز الشره . لم يبق الا أن يرحل الى العالم الآخر .

وأحست بقلق لهذا الخاطر .

ـ أسألك اللهم أن تمهله حتى مساء الأحد القادم أو صباح الاثنين على أكثر تقدير . والا ماذا يحدث لزواجنا ، ومتى يتم ؟ لم أعد أطيق الانتظار أكثر من ذلك .

وصعدت الدرج ثانية ، وفتحت الباب فى هدوء ، ودققت النظر داخل الحجرة . كان العمدة ممددا فوق السرير ، ساكنا بغير حراك ، وعيناه مفتوحتان تحملقان فى السقف . خمدت حركته كما خمدت أناته . ودخلت لينيو الحجرة مذعورة : ترى هل مات ؟ ولكن الشيخ طرف بجفنيه :

وأرادت أن تطمئن نفسها فنادته :

ـ سيدى ، وضعت البيضة فى الحساء . حان وقت الغداء .

ودارت عينا الشيخ تنظرها ، وزام قائلا :

ـ لا أشعر بالجوع · لست على ما يرام يالينيو · استدعى القسيس جريجوريس ·

وجلس العجوز ، ممتقع الوجه أزرقه ، وقد ارتسمت عليه خطوط حمراء · وصرخت لينيو ·

ـ لا تخافى · لم أمت بعد · وانما أريد فقط أن أتحدث الى القسيس فى موضوع ما · هل ميشيل فى الدور الأرضى ؟

ـ لا · دخل حجرته ليغير ملابسه ، وارتدى الملابس التى يرتديها كل يوم ، ثم خرج من البيت حاملا صرة ·

ـ ألم يقل شيئا ؟

ـ لا شىء ·

ـ أرسلى من يستدعى مانولى من الجبل ، ليأخذه الشيطان· يجب أن يحضر لمقابلتى فورا ، قبل غروب الشمس · هل سمعت ما أقول ؟ انصرفى ·

ـ ألن تأكل ؟

وتفكر العجوز لحظة ثم قال :

ـ ماذا أعددت من الطعام ؟

ـ حساء الدجاج المفضل لديك ·

ـ أعصرى كثيرا من الليمون فى الحساء · سأنزل الآن ·

واسرعت لينيو بالنزول ، تقفز السلالم خفيفة جذلة : « يقينا انه سيبقى على قيد الحياة حتى صباح الاثنين · ان وجهه يثير فى نفسى القلق · سأذهب الى أندونيس ليعمل له كاسات دم ، حتى لا توافيه المنية سريعا » ·

***

فى هذه الأثناء كان ميشيل قد ارتقى الجبل متأبطا صرته · لم يجد مانولى فى الحظيرة ، فجلس فوق المقعد الحجرى الى جوار الباب · كانت الظلال تنحسر ، اذ اقتربت الظهيرة · وظهرت كنيسة النبى ايليا فوق الجبل المقابل وكأنها ذابت تحت أشعة الشمس العمودية ·

وأغمض ميشيل عينيه · كان واهن القوى ، فارغ القلب ولكن راضيا ، كمن شفى من مرضه وشيكا · وحدث نفسه قائلا : « انها نهاية كل شىء ، وبداية جديدة لكل شىء · يايسوع ، حددت لنا معالم الطريق،

اسألك العون والتأييد حتى ابلغ غايتـه • أعرف أنك هنـاك عند نهاية الطريق تنتظرنى » •

وفتح الصرة وأخرج منها الانجيل الذى ورثه عن أمه ، وهو انجيل كبير ذو غلاف مفضض مصنوع من جلد الخنزير ، وله مشبك على هيئـة سلسلة وبداخله ورقة من أوراق شـجر الغار يسـتخدمها كفاصل بين الصفحات • ومال برأسه فوق الكتاب المقدس وقرأ :

ـ « أعداء الانسـان أهل بيته • من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى • ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى • ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى • »

قضى أياما عدة مع كلمات المسيح هـذه يقرأها ويعيد قراءتهـا من جديد ، يحاول أن يفهمها ويستوعبها • بدت له أول الأمر وكأنها كلمات قاسية غير انسانية • كان يسائل نفسه : « أليس ثمة سـبيل آخر غير هذا السبيل أيسر على الانسان وأقرب الى قلبه وعواطفه ؟ هل لابد للانسان أن يدفع دمه ثمنا لخلاصه ؟ لماذا يكون الأب والأم عقبة تعترض الطريق ؟ الا يمكن أن نحبهما معا ونسمو سويا فى طريقنا الى الرب ؟ لماذا كتب علينا أن نقتلع الجذور العميقة فى الأرض لنرقى الى السماء ؟

ألحت على ذهنه أسئلة كثيرة جدا، ولكنه عجز عن أن يهتدى الى اجابة شافية على احداها • وكم من عجب اذ شعر أن قلبه يتخفف رويدا رويدا من ثقل الأرض ، ويسمو شيئا فشيئا صوب السماء ••• حتى أنه أحس فى تلك الليلة أنه معلق بين السماء والأرض •••

وبعد الظهر بقليل عاد مانولى من المرعى • ودهش لرؤية صـديقه فوق الجبل فى مثل تلك الساعة • وقال له ميشيل موضحا :

ـ تركت بيت أبى يامانولى • طلب منى الشيخ أن أختار ، واخترت طريق المسيح •

وقال مانولى وهو شارد اللب :

ـ ولكنه طريق شاق وعسير يا ميشيل ، وأكثر مشقة على الأغنياء • فمرحبا بك •

ومد مانولى السماط • ولم يطعم الصديقان غير لقيمات • وقص عليه ميشيل ما حدث بينه وبين أبيه والقرار الذى اتخذه •

ـ أحسست أننى لم أعد أقوى على مواصلة طريقى القديم يامانولى• عشت حياة سهلة رغدة • بدا لى العالم وهما باطلا ممعنا فى بطلانه ، طالما

معنا في ظلمه ، وأن سبيلي في الحياة كانت سبيلا معوجا • ولم أعد أطيق المزيد ، وأحسست بالخجل •

وكرر مانولي حفاوته بصديقه :

ـ مرحبا بك • الطريق وعر ، والمرتقى شديد الانحدار يدمي القدمين في أول المسير يا ميشيل • ولكن ستنبت لك أجنحة مع الأيام ، وتحملك الملائكة بين ذراعيها ، وترتقي جبل الرب برغم وعورته الشديدة فرحا طروبا تترنم باسمه •

ثم وقف وأمسك بعصا الرعي •

ـ أرسل لي أبوك رسالة يستدعيني للمثول أمامه فورا • أستطيع أن أخمن ماذا يريد • الى اللقاء هذا المساء •

وقال ميشيل :

ـ كان الله معك •

* * *

جثت لينيو على ركبتيها وسط الفناء ، متوردة الوجه ، وشمرت عن ساعديها وانهمكت في تلميع الأواني النحاسية التي منحها لها سيدها الشيخ كصداق لها ، وكان في عطائه كريما سخيا • كانت لينيو تدعك النحاس بهمة لا تعرف الكلل وهي تتغنى ، وصوتها يشق الهواء ويتردد صداه حتى يصل الى الجبل • بينما وقف نيكوليو تحت ظل شجرة البلوط يصيخ السمع وقد أمسك بالناي الطويل يرد عليها بألحانه • وتلاقى غناؤهما فوق أسطح بيوت القرية ، فكانت النسوة العجائز يتأففن ، والعرائس يبتسمن ، والصبايا يتنهدن •

ظهر مانولي عند منحنى الطريق • وسمع شدوها وابتسم •

وحدث نفسه :

ـ انها فرس حرون • نعم ، انها كذلك حقا • ولكن طفلا صغيرا استطاع أن يستأنسها •

رفعت لينيو وجها يكاد يتقد نارا ، وأبصرت مانولي وهو يجتاز العتبة •

وقال لها من كان خطيبها يوما ما :

ـ لك الصحة والبهجة يالينيو • أراك تتهيئين • اتمنى لك عرسا سعيدا •

واجابت لينيو في سخريه :

ـ لك العقبى • أتمنى أن تختطفك فتـاة جميلة • هيـا أسرع فان السيد ينتظرك •

وعادت الى غنائها وقـد تضـاعفت سعادتها ، وكأنها تود أن تظهر لفتاها الأسبق أنها لا تعبأ به فى قليل أو كثير ، بعد أن عثرت على خطيب أفضل منه ، وكان لسان حالها يقول : « ان هذا سيقتله كمدا » •

كان الشـيخ بطرياركاس يشـعل السـيجارة اثر الأخرى ، ينفث دخانها فى الهواء ويهضم الدجاجة التى أكلها وهو جالس فى انتظار مجىء مانولى • وارتدى لباس الرئاسة ، وظل حافى القدمين • وأحس بسخونة تسرى فى جسده • واربد وجهه وتلون بلون الباذنجان ، ونفرت عروق رقبته وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، وهو يرغى ويزبد غضبا • وكلما أنهكه التعب وخارت قواه ألقى بنفسه فوق السرير •

طفق يحدث نفسه قائلا :

ـ انهـا غلطتى ••• غلطتى أنا ، أخطأت حين أشـفقت عليـه وأخرجته من الدير حيث كان يعيش كالحصى ، وأردت أن أخلق منه رجلا بمعنى الكلمة • عملت عملا خيرا من جانبى ولكن ••• صدق هذا الأحمق المدعو لاداس • كم من المرات قال لى: من يفعل الشر يتهيبه الناس ويحترموه، ومن يفعل الخير لن يكون حصاده غير النكران والتحقير • » وكنت أسخر من كلامه هذا ، والآن بان لى صدق كلامه ، وها هى المشـاكل تمسك بخناقى » •

وفجأة أحس بغناء لينيو يسرى فى دمه •

ـ لتذهب الى الشـيطان هذه الصبية الفاجرة • لعـل الله يعجل بزواجها حتى تهدأ نفسا ، والا فانها ستقلب القرية رأسا على عقب •

واندفع ناحيـة الشـباك ليناديها ويأمرها بالسـكوت • ولم يكد يطل من الشباك حتى انفتح باب الحجرة ، واستدار فأبصر مانولى أمامه عند عتبة الباب • فقفز فى الهواء والغضب يتطاير كالشرر من عينيه • وصاح فيه :

ـ أدخل ••• أدخل •

وصفق الباب بعنف وراء مانولى ، ودفع به الى الحائط •

ـ هل هـذا هو عرفانك بالجميل أيهـا الجحود ؟ هه ؟ آتى بك الى منزلى فتجلب له الشر والتعاسة • كنا على ما يرام قبل أن تحل بالقرية ، بيتنا بخير وسلام ، والقرية هادئة وادعة • وأتيت أنت أيها النبى القذر لتخل بالنظام وتثير الفتن ••• لماذا ؟ بأى حق تطوعت من تلقاء نفسك

لانقاذ القرية ؟ هذا عملى أنا . لماذا تتدخل فى أمور لا تعنيك ؟ هل تريد أن أفصح لك عن السبب ؟ أردت أن تظهر أمام الناس كقديس ، تحاول أن تغرر بالسذج لكى يؤمنوا بك ، وتدعو الى الثورة يوم الاحتفال بعيد النبى ايليا .

وذهل مانولى عند سماعه الجملة الأخيرة وقال :

ـ الثورة .

ـ ماذا كنت تقصد اذن بكل تلك البذاءات التى تفوهت بها فوق الجبل قبل أول أمس ؟ لماذا ندفع العشور لحملة القمل ؟ كيف نتساوى نحن وهم ؟ أن نكون كلنا اخوة ، كلنا حملة قمل ؟ أليس كذلك ، هه ؟ أهذا هو ما تهدف اليه ؟ ونعطيهم حقولنا أيضا مناصفة !! بأى حق هذا؟ ولكنها ملكنا نحن . انها مالنا وحقنا ودمنا . ألا ينبغى علينا أيضا فى مثل هذه الحالة أن نقتسم معهم لحم أجسادنا ونعطيهم بعضه ليأكلوه ؟ انها نهاية العالم !

واستبد به الذعر عند ذكر هذه الجملة ، فحدج مانولى بنظرة مفزعة .

ـ حدث ذات يوم أن رفع «الكرش» لواء الثورة واحتل مكان الرأس ليصبح صاحب الأمر والنهى . ترى هل لم يقص عليك أحد هذه القصة، أيها القدم ذو الرأس الفارغ ؟ ـ وكانت نتيجة هذه الثورة أن بدأ القذر يخرج من الأنف والفم والعينين ، فلقى الرجل حتفه . لذلك لا تحاول أن تغير الناموس الذى فرضه الله . ليبق « الكرش » مكانه ، والرأس حيث هو يأمر وينهى ، وأنا الرأس .

وكان أثناء الكلام يذرع الحجرة كالوحش المفترس داخل القفص ، يضرب الجدار بعصاه ويبصق على الأرض . ويتمتم قائلا :

ـ اذا لم يكن هناك أغنياء أيها الأبله ، فمن الذى سيقدم الصدقات اذن للفقراء ؟ ألم تفكر فى هذا ؟ أى منزل تقصده الحالة ماندالينيا لتجد عملا فيه ؟ وأين تجد سيادتكم مكانا تعملون فيه خادما ؟

وبلغ هياجه غايته وصاح بأعلى صوته :

ـ أيها الشحاذ المتشرد الذى يرعى فى جسمه القمل ، لا تملك شبرا واحدا من الأرض وتصيح « نحن اخوة » لماذا ؟ ينبغى أن نقتسم ما نملك ونعيش اخوة حسب ما تقول ، حتى يمكنك أن تلتهم نصف ممتلكاتنا ... من الذى ملأ رأسك بهذه الأفكار أيها الأفاق ، هه ؟

وأجاب مانولى :

ـ المسيح ٠

ـ ليأخذك الشيطان ، أى مسيح تقصد ، هه ؟ مسيحك أنت لا أنا ٠ ابتدعت مسيحا جديدا ، متمردا على شاكلتك ، حقيرا يرعى القمل فى جسده ، يتضور جوعا ٠ وتتحدث عن لسانه بكل ما يحلو لك ثم ترفعه عاليا كما ترفع علم الكنيسة وتعوى : « نحن كلنا أبناء لأب واحد كلنا اخوة ، لذلك هات الشواء لنأكل سويا ٠ لا لن تذوق طعمه »

وألقى بسيجارته من النافذة ، وبصق فى الفناء ، ورجع الى مانولى، وأمسك بتلابيبه وصاح فيه :

ـ عليك أن تترك خدمتى فورا ، فى هذه الليلة ٠ اذهب والحق بالشحاذين أمثالك ٠ ليقتسموا معك القشر الذى يملأ رأسك والقمل الذى يرعى فى جسدك ، ومملكة السماء التى تدعو اليها ٠

وانفتح الباب وهو يقذفه بهذه الكلمات وظهر القسيس جريجوريس فى أبهة الاساقفة ٠ وقال :

ـ معذرة يا عمدة أن تأخرت ٠ كان ذلك بسبب مرض ابنتى ماريورى ٠

والتفت وراى مانولى فتجهم وجهه ٠

وقال الشيخ بطرياركاس :

ـ يا صاحب الغبطة ، لم يبق شىء على حاله هنا ٠ انقلب العالم رأسا على عقب ٠ العمدة مانولى الواقف هنا يريد أن يشعل النار فى العالم ٠ وابنى الرقيق الوديع وقف الى جانبه ورفع لواء العصيان هو الآخر ٠ أعلننى بذلك هذا الصباح ، قائلا « سأترك البيت وسوف أفارقك يا شيخ بطرياركاس ، فقد اخترت طريق المسيح ٠ كأن طريقى هو طريق العداء للمسيح ٠ انها نهاية العالم ٠ من حسن الحظ أنك أتيت يا أبانا فى الوقت المناسب لنضع الأمور فى نصابها ٠

وقال القسيس جريجوريس وهو يشير باصبعه الى مانولى :

ـ ها هو عدو المسيح ٠ هو الذى يبذر الشقاق بيننا ، وهو الذى يفسد عقول الناس بأفكار سخيفة ٠ ما هذه الترهات التى قئتها أمامنا يوم الاحتفال : أيها المحتال ؟ أقسم لك بشرفى انها ثورة الذنب ضد الرأس ٠

وأجاب مانولى :

ـ كلمات المسيح أن أحسنوا الى المساكين • ومن يملك ثوبين يعطى واحدا ، نحن جميعا اخوة • وليس عندى ما أقوله لك غير هذا •

واربد وجه القسيس جريجوريس • وأبى على نفسه أن يحاج خادما فوجه حديثه الى العمدة :

ـ هذا الآدمى انسان خطير على المجتمع • يجب أن تطرده من خدمتك بل ويجب أن يطرد خارج القرية حتى لا يلوثنا • فهو الذى أدار رأس ابنك يحاول بدسائسه هذه أن يكتسب أهمية وشأنا ويجمع النـــاس وراءه • أطرده • انه ليس براع ولا حمل ، بل ذئبا •

ابتعد مانولى عن الحائط وتقدم خطوة الى الأمام وعقد يديه الى صدره وقال :

ـ وداعا يا سيادة العمدة ويا صاحب الغبطة فانى راحل •

ورفع القسيس يده وزأر :

ـ أخرج لعنة الله عليك •

ورد مانولى :

ـ بل لعنة الأعيان والقساوسة • أنتم أيها القساوسة الذين صلبتم المسيح • لو عاد الى الارض ثانية ستصلبونه من جديد • وداعا •

واتجه الى الباب فى صمت ، وفتحه ، ثم استدار وقال فى هدوء :

ـ وداعا •

ونزل الدرج وأحس أنه خفيف مرح كأنما تحمله الملائكة •



العميل

أظلمت الدنيا حين أخذ مانولى طريقه الى الجبل . وتلبدت السماء بالسحب ، وهبت ريح دافئة من الشرق ، وتساقطت قطرات من المطر بللت يديه ووجهه ، كما بللت الأرض العطشى . وتهلل جسد مانولى ، اذ كان ظمآنا مثل السهل والجبل .

وحدث نفسه وهو يصعد الجبل :

ـ عجبا لهذا الوجود ! انه معجزة حقا ! اذا فتحت عينى أرى الجبال والسحاب والمطر يساقط ، واذا أغمضت عينى أرى الله خالق الجبال والسحاب والمطر .. حيثما نولى وجوهنا فثم وجه الله .. فى ضوء النهار أو فى عتمة الليل .

نسى تماما العمد والقساوسة ، وتخلص من كل الاهتمامات الباطلة ، وتعالى فوق المسرات الصغيرة والمكابدات العابرة ، ونعم بالمسرة العظمى والمكابدة الكبرى ، فهو الآن أمام الرب وجها لوجه . .

ـ فبعد أن طرده سيده الذى تفانى فى خدمته أصبح لزاما عليه أن يودع الجبل الذى أشرب فى قلبه حبه . وسيكون وداعه له غدا مع مطلع الفجر . سيحمل صرته المتواضعة على كاهله ويمسك بعصا الرعى ويرحل وحده ، أعزل مثل يتيم لا عائل له ولا سند ، ويسير فى طريق قفر موحش يصعد ويصعد دون أن ينتهى .

وهطل المطر ، واشتد قصف الرعد على البعد قويا يصك الآذان ، وحث مانولى الخطو . كانت الريح من خلفه تدفعه الى أمام ، وخيل اليه وكأن للريح يدان وصدر يصعد الزفرات .

ولمح على البعد ضوءا خافتا • عرف فيه نافذة كوخ المرعى الصغيرة وحدث نفسه قائلا :

ـ لا بد وأن نيكوليو قد استسلم للنوم الآن بعد أن فرغ من حلب اللبن وتناول العشاء • اذن فهذا الضوء يعنى أن ميشيل فى انتظارى • وخفق قلبه بقوة وعنف عندما تذكر صديقه •

وتمتم قائلا :

ـ لا طاقة له بذلك • عاش حياة السادة ، واعتاد الطعام الرغد ،وألف النوم على الفراش الوثير ، وأنس الى الدفء وأن يكون البيت حماه • خير له أن يعود الى البيت • عليه أن يتذرع بالصّبر ، فلم تحن ساعته بعد • سواء أراد ذلك أم لم يرد فان الثراء يثقل الروح ويعوقها عن الحـركة الحرة الطليقة • وهناك ماريورى أيضا ، تربطه هى الاخرى بالأرض رغما عنه •

وتذكر كلمات المسيح القاطعة القاسية :

«ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله» •

ألفى ميشيل جالسا قبالة المدفأة يحملق فى النار • وقال بصوت فيه رنة فرح وهو يمسح بيده العرق الذى بلل شعره ووجهه :

ـ طاب مساء الفتى سيد الجبل • غدا صباحا ساودع هذا الكوخ العزيز وأرحل بعيدا ، فقد طردنى أبوك •

وجلس أمام النار ، وقص على ميشيل بصوت هادىء رزين كيف ألفى العمدة الشيخ ثائرا يتميز من الغيظ ، وكيف استخدم العمدة ألفاظا قاسية فى حديثه اليه وطرده فى النهاية ، وكيف آنزل القسيس لعنتـه عليه •

واختتم حديثه قائلا :

ـ حدث كل شىء كما كنت أتوقع تماما ، ومثلما كان مقررا له أن يحدث • لست نادما على شىء • كان مفروض على أبيـــك أن يطردنى ، ومفروض على القسيس أن يلعننى ، كما أنه مفروض على أن أرحل •

وأمسك ميشيل بيد صديقه ، وضغط عليها فى لهفة وشـــوق وقلق :

ـ وأين سنذهب الآن ؟

ـ سيبدى الليل لى المشورة • يتنزل الرب الينا عادة على هيئة حلم

ونحن نيام ويهدينا الى الطريق · لم أحسم أمرى بعـــد ، والأمر بيـــده تعالى · سنرى غدا فلا تجزع ·

وقال ميشيل :

ــ هل تذكر الليلة التى قضيناها معا فى فناء قسطندى ؟ هل تذكر ما قلته لك تلك الليلة ؟·· حيثما تذهب يامانولى سأذهب معك ، وها أنذا أعيدها ، وأقولها لك الليلة ·

ــ على رسلك يا ميشيل · لا تتسرع · وان غدا لناظره قريب ·

ورقد الاثنان وقد نال منهما التعب · وتضاعف وابل المطر عنيفـــا بهيجا · وانتعشت الاعشاب الجافة فوق الجبل ، وتضوع أريجها ، وهبت الرياح موجات متتابعة تأتى من بعيد عبقة بعطر شجر الصنوبر · وتنفست الأرض وفاح عبيرها الطيب · وتفتح قلب مانولى أيضا كأرض هامدة أصابها الطل فاهتزت وربت ·

ترى هل هذه هى اجابة الرب ؟ ترى هل تنزل الرب الليلة على هيئة مطر غزير يهطل فى سخاء ؟ احتفى مانولى بالرب ، وأحس بالسعادة تغمره من رأسه حتى أخمص قدميه · وكذلك طيور الليل التى آوت الى أوكارها بين الصخور وفوق الشجر ·· أحست بالرب يتنزل فوق أجنحتها الندية المبتلة ·

وأنصت ميشيل لصوت المطر المتساقط ، وتنسم عطر الأرض الندية، وجفاه النوم · تذكر ماريورى وخفق قلبه فى ضيق وجزع ، وثارت شجونه مع الأرض المبتلة · كانت فى آخر لقاء له معها شاحبة واهنة بغير خضاب· وظلت تسعل ومنديلها فوق فمها ، ولكن المنديل هذه المرة لم يكن أبيض كالعادة ، بل أحمر حتى لا يظهر عليه لون الدم · وقالت له يومذاك :

ــ عزيزى ميشيل ، انى راحلة · سيصحبنى أبى الى المدينة ليعرضنى على الأطباء هناك · فحالتى ليست على ما يرام ·

وتنسم ميشيل أريج الارض ، وأحس بقلبه يرتجف وتمتم قائلا :

ــ لا زال قلبى متعلقا بالأرض ، نعم لا زال ·

واحتوى النوم ميشيل ومانولى رويدا رويدا وسط هذه الليلة المطرة· وعندما أسفر الصباح فتحا أعينهما فأبصر الجبل الذى اغتسل فى تلك الليلة يبتسم لأول شعاع من أشعة الشمس ، والسحاب كالقطن المندوف يغطى أديم السماء ، وقطرات من المـــاء لا زالت عالقة بأغصـــان الشـــجر تلمع وترتعش ·

وأنزل مانولى من على الحائط أيقونة الصلب وعصافير الجنة التى أهداها له ميشيل · وأخذ قناع المسيح الذى نحته ، وجمع بعض الملابس وحزم كل هذه الأشياء فى صرة ووضعها فوق المقعد الحجرى ·

وكان ميشيل يرقبه فى صمت · وجلس الاثنان وشربا بعض اللبن دون أن ينبس أحدهما بكلمة · ثم وقف مانولى · كان نظره يتنقل فى هدوء ما بين الكوخ والمقعد الحجرى والصخور المحيطة والجبل وكأنه يودعها جميعا وداعا صامتا · وأخيرا التقط عصا الرعى ·

ووقف ميشيل وقال :

ـ ترى هل حسمت أمرك يامانولى ؟ هل سترحل ؟ والى أين أنت ذاهب ؟

ـ وداعا ياميشيل · أتمنى لك التوفيق ·

ـ قل لى الى أين ؟

ـ الى ساراكينا · سأذهب لأقاسمهم الجوع ·

ـ ألا تريدنى أن أذهب معك ؟

ـ ليس بعد · تجمل بالصبر · عندك أبوك وخطيبتك ، أما أنا فليس لى أحد ، فالأمر سهل على يسير ·

ـ ولكنه مكتوب : « من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى · ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى · »

ـ أعرف ذلك يا ميشيل · ولكن هل انقطعت كل صلة تربطك بالأرض وبأبيك وزوجتك ؟ لا ، ليس بعد · لذلك عليك أن تتذرع بالصبر · ستحين ساعتك ، فلا تكن عجولا هكذا · ستأتى ساعتك فى هدوء كطائر الحجل ، يسير فلا تسمع لخطوه صوتا ·

ـ ولكننى لا أريد العودة الى أبى ·

ـ لك ما تريد · لا تعد اليه · ابق هنا ، بين ساراكينا وليكوفريس وانتظر حتى يأتى طائر الحجل ، أعنى ساعتك المحددة · الى اللقاء قريبا ·

ومد يده الى ميشيل الذى أمسك بها فى لهفة وقال :

ـ مانولى ·· لن يمضى وقت طويل حتى أراك ثانية وألحق بك · أقسم لك على هذا · أرجو أن يكون لقاؤنا قريبا ·

وتأبط مانولى الصرة ، ورسم الصليب وانطلق فى طريقه · وحملته

أجنحة الملائكة من جديد · وبدأ مانولى يطير من صخرة الى صخرة· واقتربت منه كنيسة النبى ايليا رويدا رويدا تتلألأ وسط الآكام فوق قمة الجبل وقد كستها أشعة شمس الصباح بلون وردى · وعندما وقع بصره عليها لوح لها بعصاه محييا ، وصاح صيحة طروب عالية كأنه نسر تعرف على وكره القديم ·

***

قضى الشيخ بطرياركاس سحابة نهاره فى انتظار ابنه عسى أن يعود · وانتظر يوما ، ويومين ، وثلاثة ولكن دون جدوى · وتملكه اليأس ،وأرسل بعض أقاربه ليتحدثوا اليه ، وكان ناظر المدرسة آخرهم · وفى النهاية بعث فى طلب ياناكوس وقال له :

ـ أسألك معروفا يايانا كوس ، أن تذهب لزيارة ابنى وتتحدث اليه فأنت من خلصائه ، عسى أن يستمع اليك ·

وهز ياناكوس رأسه وأجاب قائلا :

ـ أحسب يا عمدة أن لو سارت الامور على نحو ما هى عليه الآن فلن يمضى طويل وقت حتى آخذ سبيلى وأنا أيضا الى الجبل · فأرسل غيرى ·

وحضر بانايوتى لمقابلته ·

ـ يا عمدة ، حصلت على بعض التفاصيل من مصدر موثوق به · اتخذ مانولى ساراكينا وكرا له · يجمع اللاجئين هناك ويتحدث اليهمويستنفرهم ويعلن عليهم أن من حق الجائع نهب الشبعاع · تذكر كل ماأقوله لك فيوم يعضهم الجوع سينزلون الى قريتنا كالذئاب الجائعة ينهبونها ·

وتوقف لحظة ، وبدا عليه التردد ، وتنهد ، وجال ببصره حواليه ،ثم مال على أذن الشيخ وأسر اليه بكلمات ·

ـ فى نفسى شكوك يا عمدة ·

ـ قل ما عندك بصراحة يا باناپوتى فانى مصغ لك · وأنت لا تحب أحدا لذلك فانك ترى الأمور رؤية واضحة · أفصح ·

ـ مانولى اشتراكى · ·

وهرش العمدة رأسه وقال :

ـ اشتراكى ؟ ماذا يعنى هذا ؟

ـ يعنى : عليك أن تعمل لتأكل ، واذا أردت شيئا فاسرقه · انهم عصابة من قطاع الطرق ، ذاع صيتهم فى هذه الايام ، وينتشرون فى جميع أرجاء الأرض ·

ـ وهل تظن ·· ؟

ـ أنا واثق من هذا · هؤلاء الناس لهم أتباعهم في كل الاقطار ، بل وفى كل قرية مهما كانت صغيرة · انهم ينبثون فى كل زوايا الارض · حيثما ذهبت تجدهم اذا ذهبت الى الصحراء تجدهم هناك ، واذا بحثت عنهم وسط العائلات تجدهم ، ارفع أى حجر تجدهم تحت ذلك الحجر · ومانولى رسولهم الى ليكوفريسى ·
ـ أى كلام خطير هذا الذى تحدثنى به يابانايوتى · ان حديثك يقشعر منه بدنى هولا · فصح ·
ـ نعم ، انها مسألة قاتلة ومفزعة · انهم شياطين مردة · هل راقبت مانولى ؟ انه يلعب دور القسيس · يزعم أنه لا يأكل اللحم ، ولا يكذب أبدا ، ولا يشتهى النساء وها أنت تراه أخيرا ممسكا بانجيل صغير لا يفارقه ـ وكلما وقع بصره على أحد سرعان ما يمسك بالانجيل ، يفتحه ويقلب صفحاته ليوهم الناس أنه منكب على قراءته ·· نفاق ورياء · ويوم أن كان مساقا الى المشنقة ، هل تعرف ماذا حدث ؟ استمع الى ما أقول فهو حديث ترتعد منه فرقا · عرف أن العجوز مارثا عثرت على ملابس حسين الملطخة بالدماء ، فتواطأ معها على ألا تظهرها الا فى آخر لحظة · لماذا ؟ حتى يؤمن الناس بأن مانولى على استعداد لأن يجود بحياته من أجل خلاص القرية ـ حيلة توسل بها ليذيع صيته كصاحب فضل ومنة، فيقف الناس الى صفه، ثم اذا ما واتت اللحظة المناسبة يدفعهم وفقا لأوامر تصدر اليه من الخارج لقطع رقاب العمد والأعيان » ·

تهاوى الشيخ بطرياركاس فوق الكرسى ، ودفن رأسه بين يديه · وتمتم قائلا :

ـ رحماك يارب · رحماك يارب · انها نهاية العالم اذن ·

وفجأة هب واقفا يحملق بعينين متورمتين ، وقد التوت شفتاه ، وتلعثم بكلمات :

ـ ولكن ·· ماذا عن ابنى ·· ؟ ·

ـ نصب مانولى شباكه حوله يا عمدة ، وغرر به · أصبح ابنك عميلا دون أن يدرى · ألم تر كيف ذهب الى الجبل ليلحق به بعد ما ترك بيتك ؟ ولن يمضى وقت طويل حتى يذهب ياناكوس أيضا الى هناك ، وقسطندى فى اثره ·· سيهجر كل منهما بيته وأسرته ليلحق بهم ·· انه شىء كالمرض المعدى ياعمدة · يصاب به شخص وينقله بالعدوى الى غيره · ويبدو أن أندونيس الحلاق على وشك أن تصيبه العدوى ، وكذلك ديمترى الجزار · واذا أردت أن تعرف رأيى فان العدوى سوف تستشرى حتى تصيب ناظر المدرسة ··

ـ ما هذا الكلام الذى تقوله يا بانايوتى ؟ انها نهاية العالم .. سأذهب الى القسيس جريجوريس أشاوره حتى نضع الأمور فى نصابها ..

ـ واذا شئت أن تعرف شيئا عن القسيس فوتيس والشرذمة المهلهلة التى يجرها وراءه حيثما ذهب ، فهم جماعة من العملاء وفدوا الى ليكوفريسى، يزعمون ان الاتراك طردوهم من ديارهم .. وضحوا بأنفسهم من أجل بلدهم .. هل تصدق هذه الأخبار المختلفة ؟ انهم كما أقول لك فتية بعثت بهم موسكو . أرسل اليهم مانولى رسالة قال فيها : «الناس فى ليكوفريسى لا تعانى نقصا فى الخبز ، كل شىء موجود بوفرة هنا ، تعالوا نستبيح خيراتها . عمدة القرية عجوز مخرف ، ولن يقاوم أبدا . وها أنت قد رأيت بنفسك كيف ظهر مانولى والقسيس فوتيس معا وفى وقت واحد كلصوص السوق . لعلك لاحظت الاشارات التى تبادلاها بطرف أعينهما . ولهذا السبب خرج مانولى ، بعد أن طردته من بيتك ـ هل تعرف وجهته ؟ توجه الى ساراكينا مباشرة . المسألة فى غاية الوضوح يا عمدة .

كان الشيخ بطرياركاس يستمع الى هذا الكلام وهو يذرع الحجرة طولا وعرضا . وتوقف فجأة يتدبر الأمر :

ـ اذهب الى القسيس جريجوريس ، قل له اننى فى مسيس الحاجة اليه . لا بد وأن أراه الليلة .

ـ سافر القسيس جريجوريس هذا المساء مع ابنته الى المدينة . سيعود غدا . أخذها معه ليعرضها على الاطباء ، اذ أنها تسعل وتبصق دما . حالتها سيئة تماما .

وصاح العجوز حانقا بصوت يدمدم كالرعد :

ـ ليأخذك الشيطان . ألا يوجد عندك اليوم غير المصائب تتحدث عنها منذ مطلع الفجر ؟

ـ أنا أقص عليك ما أعرف يا عمدة . صدق أولا تصدق ، كما يحلو لك ، فان هذا شأنك أنت . ضايقتك مدة طويلة ، وانى آسف على ذلك . سأنصرف .

وقال العجوز بينه وبين نفسه :

ـ الى الجحيم يا يهوذا الاسخريوطى .

ثم قال بصوت عال :

ـ الى اللقاء يابانايوتى . واذا وصل الى سمعك أى شىء ...

ـ اهدأ بالا يا عمدة ، فأنا لا يفوتنى شىء .

وانصرف وهو يمشي بخطوات ثقيلة كخطوات الدب وابتسامة شريرة تضيء وجهه المجدور ·

وألقى الشـــيخ بطرياركاس بنفسه فـوق السرير · وطفق يجتر حديث باناريوتى اليه · وعبثا حاول أن يهدىء من روعه ·

ـ أعوذ بالله ، يبدو لى أننا سنقع فى ورطة لا مخرج منها · وضع الله غشاوة على عيوننا فلم نبصر شيئا · قسما ليس فى القرية من تنبه الى هذا ـ لا القسيس ، هذا الثعلب العجوز ، ولا ناظر المدرسة بكل ما يحمل من أسفار ، ولا أنا ·· هل كان يمكن أن يدور بخلدى أن عندى جاسوسا يعمل فى خدمتى · أرادوا أن يشعلوا الفتيل من بيتى لتشب الحرائق فى كل أنحاء القرية · آه يا شيخ بطرياركاس ، رغم انك رئيس هذه القرية فقد خانتك فطنتك ، تنتظر حتى يأتى هذا الدب المفترس ليكشف العصابة عن عينيك · لا بد وأن نطرد هذا الخنزير مانولى بعيدا ، وتطرد هـــؤلاء الشراذمة حملة القمل من وكرهم فى ساراكينا ·· هؤلاء الأقذار · لا بد وأن نطهر الارض التى حولنا ، ونعيد للشرف والعدالة سلطانهما على القرية من جديد · غدا سأحسم الامر مع القسيس بعد عودته ·

وهدأت هذه الفكرة من روعه · وأغمض عينيه · وحاول أن ينام · وامتنع عليه النوم · وسمع غناء لينيو فى الطابق الارضى تهدل كالحمامة انها قلقة لا يطمئن بها مكان ، تظل تدور وتدور فى البيت فى انتظـــار صديقاتها لتعرض عليهن جهاز عرسها ، منهمكة فى عرض قطع الجهـــاز بطريقة بارعة وسط الدهليز الطويل، حتى تبدو وكأنها أكثر من حقيقتها· ووضعت اكليل الزواج المصنوع من زهر الليمون بين الشموع البيضـــاء الكبيرة وحبات البندق المغلفة بالسكر ·

ومع المساء سينزل نيكوليو من فوق الجبل ، مرتديا لباس العرس الجديد ، الذى أهداه اليه سيده بمناسبة الزفاف ، وعاصبا شـــعره الاسود بالمنديل الحريرى الاحمر الذى أهدته اليه لينيو · وغدا الاحدسيكون الاحتفال بالزواج ، والعروس التى ســـــيصبح اسمها بعد ذلك زوج نيكوليو ، ستمتطى صهوة بغل مطهم بسرج أحمر ، يحملها الى عش المستقبل ·· الى الجبل والحظيرة ·

كان الشيخ مستلقيا فوق سريره ينصت لغنـــاء لينيو ، وصيحات صويحباتها المرحة عند وصولهن ، وضحكاتهن ·· وتذكر زفافه ، وقتمـــا كان فى الثانية والعشرين من العمر ، رشيقا أنيقا مثل القديس جورج ، وانطلق بحصانه الابيض ليأتى بخطيبته · يستطيع أن يتخيلها الآن ، واقفة

على عتبة بيت أبيها وقد غطت وجهها بنقاب أبيض حسب ما تقضي بـه التقاليد ، حتى لا يظهر وجهها · وظل العريس يصرخ فى أبويها نافـد الصبر : « ارفع الغمامة حتى تسطع الشمس » · وشبت حمـاته فوق أطراف أصابعها ، وأغرورقت عيناها بالدمع ،ورفعت النقاب · وأضاء كل ما حوله ــ العروس والعريس ، الآباء والاصدقاء ، الخيل والبغال ، وستائر مختلفة ألوانها ــ كأن الشمس قد سطعت بالفعل فى التـو واللحظة ·

رف خيال الشيخ بطرياركاس بجناحيه الكبيرين وعبر الزمان · مضت السنون واظلمت الشمس · وترهل القديس جورج وتضخم كرشه · ولكن لا زالت الحمية تسرى فى دمه ·· كانت تعمل فى خدمتـه ببيت العمدية فتاة حرون تدعى جارفاليا · يستطيع أن يذكر الآن بوضوح ثدييها الناهدين النافرين ، وردفيها الثقيلين ينوء العالم بحملهما ، وكعبيها كحبتى التفاح · ذات ليلة نزل العمدة الدرج خلسة فى هدوء ، حـذر صرير درجات السلم فتسمعه زوجته التى تقدم بها السن قبل الأوان · وانسل الى الحجرة التى تنام فيها جاروفاليا ، وضاجعها فوق سريرهـا وانجب لينيو · وها هى لينيو الآن تزف الى عريسها ·

وابتسم العمدة العجوز · ونسى كل ما قاله له بانايوتى · ونسى أن ابنه هجر البيت · دبت الحياة من جديد فى الاعوام الماضية التى طواها النسيان ، واستيقظت فى نفسه كل ملذات أيامه الخوالى ، ونزواته والمآدب التى كانت تحفل بالأرانب وطيور الحجل والسمك البورى والدجاج والخنازير الرضيعة ، والحملان المشوية على السفود ، والفطير باللحم المفروم، والشواء والمحار ، والبقلاوة والرقاق والقطايف والخمور المعتقة والكافيار ــ وغيرها من الأصناف التى التهمها فى نهم شديد ·

وتمتم : الحمد لله ، عشت حياة طيبة استمتعت بها ·

وسكرت رأسه بهذه الذكريات ، فاغمض عينيه واستسلم للنوم ·

* * *

فى هذه الأثناء كان القسيس جريجوريس فوق صهوة بغلته الشهباء، وماريورى ابنته فوق حمار ياناكوس فى طريقهما الى الجبل الذى أوى اليه ميشيل · اذ تضرعت الفتاة الى أبيها أن يتكرم عليها بهذا الصنيع ·

ــ يجب أن أراه يا أبى ، يجب أن أراه ، فانا لا أدرى ان كنت سأعود ثانية أم لا ·· وصرخ فيها أبوها بصوت متهدج ، تقطعه نوبات النشيج :
ــ لا أحب أن أسمع منك هذا الكلام · ربنا كبير ، ستبرأين من علتك

وفى عيد الميلاد سنحتفل بزفافك · سأرقص فى هذا اليوم حتى ادحل السرور على قلبك ·

ولكن الفتاة ألحت عليه متوسلة اليه :

ـ لنأخذ طريقنا الى الجبل ، حتى أراه مرة أخرى ·

ـ كما تشائين يا طفلتى · هل يسعنى أن أرفض لك طلبا ؟

وبعد هذه الكلمات شد لجام بغلته لتأخذ الطريق المؤدى الى الجبل ·

كان ميشيل جالسا فوق المقعد الحجرى وحيدا · بينما ارتدى نيكوليو لباس الزفاف ، واعتنى بغسل شعره المموج وعصبه بالمنديل الحريرى الأحمر ، وأمسك بعصاه وسندها الى رقبته فوق كتفيه ، وظهر عند أول الطريق فوق الجبل وقد تهيأ ليتخذ سبيله الى بيت العرس ·

وصاح بميشيل الذى كان يتأمله فى صمت واعجاب :

ـ طبت مساء ياسيدى · انى ذاهب لأتزوج· أبلغ تحياتى الى البوم·

ورنت ضحكته العالية بين جنبات الجبل ·

ومر بجانب القطيع فوضع اصبعيه السبابتين فى فمه وصفر للقطيع مودعا · ثم وقع بصره على الكبش داسوس بقرونه الحلزونية ، والجلاجل حول رقبته · ووثب داسوس نحوه ، ثم وقف أمامه يحدجه بنظراته · وأحس نيكوليو برغبة عارمة فى أن يمسك بالكبش من قرنيه ويصارعه · فخطا نحو الكبش وبدأ مصارعته معه ·

وبعد أن أشبع رغبته صاح به :

ـ اليك عنى أيها العجوز ذو القرنين · اذهب الى نعاجك ، أما أنا فذاهب الى لينيو · الى اللقاء يوم الاثنين · بركاتك يا صديقى داسوس·

وبدأ يدب بقدميه فوق المنحدر ، وكعباه يحدثان قعقعة عالية ·

وسمع ميشيل أصـــواتا تقترب منه ، فنهض واقفا · لمحت عيناه بين الصخور القسيس جريجوريس يتقدم ، ومن ورائه حبيبته ماريورى · فخفق قلبه فى جزع · وتمتم قائلا :

ـ ترى ماهى وجهتها؟ لماذا أتيا الى هنا؟ لا بد وأن حدث شىء سيىء وخف للقائهما ·

وقال القسيس :

ـ عزيزى ميشيل ، يسعدنا لقاؤك فى خلوتك · اننا فى طريقنا الى المدينة ، وأبت ماريورى أن ترحل دون أن تودعك · حالتها الصحية سيئة

الى حد ما ، لذلك سنذهب الى المدينة لنتبين حقيقة مرضها ·

ورنت الفتاة الى حبيبها بعينين تفيضان اعجابا، واحمر وجهها خجلا· وقالت بصوت واهن :

ـ وداعا يا ميشيل ·

أعانهما ميشيل على الترجل ، وجلس ثلاثتهم فوق الاريكة الحجرية· واعتلت الشمس صفحة السماء وغرق السهل على البعد فى بحر من نور وان كان يغشاه بعض الضباب · وحوم فوقهم غرابان ينعبان · وتجهم القسيس لمرآهما ، ولم ينبس ببنت شفة · ولكن الفتى والفتاة لم يلحظا شيئا · وأمسك ميشيل بين يديه بأصابع خطيبته النحيلة التى يتألق فيها الخاتم الذهبى ·

وقال القسيس :

ـ سالقى نظرة على قصرك هنا ·

ودخل الحظيرة رغبة منه فى أن يترك الخطيبين وحدهما ·

وسأل ميشيل خطيبته فى جزع :

ـ هل ساءت حالتك ياصغيرتى ماريورى ؟ ان الله كبير ياعزيزتى ، فلتكن ثقتك به سبحانه · لا بأس عليك ، سوف تتحسن حالتك· تشجعى فالشهور تمضى سراعا ، وعيد الميلاد بات وشيكا ·

وقالت ماريورى فى حنان :

ـ نعم ، عيد الميلاد بات وشيكا ·

وبعد لحظة صمت قالت :

ـ هل تخاصمت مع أبيك ؟

ـ دعك من أبى ، فالأمر مؤلم للغاية · دعينا من الحديث فى هذا الموضوع ياماريورى · انى أحبك ، ولا اريد أن افقدك · أنت الشىء الوحيد الذى يربطنى بالارض ولا شىء سواك · أنت فقط ، هل تفهمين ماأقول ؟

ـ واذا قدر لى ألا تمتد بى الحياة ، فماذا أنت فاعل ؟

وبسط ميشيل ذراعه ووضع راحته على شفتيها وقال :

ـ أسكتى ·

وحانت فرصة لماريورى كى تطبع قبلة على راحة ميشيل ·

وفاض الدمع ساخنا من عينيها الجميلتين البائستين · وقالت بصوت هامس : « حبيبى » ·

وظهر القسيس جريجوريس عند عتبة الحظيرة . وقال :

ـ يجب أن نسرع ياماريورى حتى لا يدهمنا الليل . هيا بنا على بركة الله .

والتفت الى ميشيل وقال له :

ـ كنت أود أن أتحدث اليك ياميشيل ، ولكن لنرجىء الحديث الى حين عودتى . متى ستعود الى أبيك ؟

وانحنى ميشيل ليقبل يده وأجاب :

ـ وقتما يشاء الرب يا أبانا .

وحدجه القسيس بنظرة قاسية وقال :

ـ ياميشيل ، ان الرب ينتظر أحيانا أن يلمح اليه قلب الانسان باشارة منه .

وأحس برغبة فى أن يستطرد فى الحديث معه ، بيد أنه أحجم عن ذلك .

وقال ميشيل :

ـ الى اللقاء . كان الله معكما .

وأمسك بيد ماريورى النحيلة بين يديه للحظة . وقال هامسا :

ـ أنت وحدك ياماريورى . لا تنسى ذلك .

وأدار وجهه ليوارى دموعه ، ثم ارتقى صخرة عالية ، وظل يودعهما بنظراته وهما فى طريقهما الى المدينة .

وحدث نفسه :

ـ نعم لا زال قلبى متعلقا بالارض ..

وتجول بين ربوع الجبل ، ثم سرح الطرف الى السهل تحت قدميه. بدأ موسم قطاف العنب . وترامى الى سمعه شدو النساء اللائى أسكرهن أريج العناقيد . كن يقطفن العناقيد الناضجة ويلقين بها فى السلال ، وقد خضب دم الكرم أيديهن . ويتعقبن بنظراتهن الفتية يحملون السلال بعيدا ، فيتنهد البعض منهن ، وتلوح أخريات فى خفة ونشاط ، والجميع يروح عن نفسه بترنيمات خافتة .

وتوقف ميشيل وقد أثقل قلبه الحزن ، خيل اليه أن ما يسمعه ليست أغانى قطاف العنب ، بل نواحا جنائزيا .

وجمد فى مكانه ، وأحس أن الحياة تدور من حوله دورات متعاقبة لا نهاية لها . دارت عجلة الحياة دورتها الابدية حتى بلغت الآن موسم

قطاف العنب ·· وستأتى قريبا دورة جمـــع الزيتـون ، ثم دورة ميلاد المسيح ·· وبعد قليل ستزهر أشجار اللوز ، ويبذر الفلاحون القمح من جديد ، وبعده يكون الحصاد ·· وشعر ميشيل بنفسه كأنه يدور مع هذه العجلة ، تعلو به وتهبط تحت أشعة الشمس وتحت وابل المطر · وأحس كأن الليل والنهار موثوقان معه بهذه العجلة ، تعلو بهما وتهبط دائما أبدا وكذلك المسيح ، وليدا جديدا ثم شب وترعرع وأصبح رجلا سويا، وتقدم بخطوات كلهـــا عزم وتصميم لينشر كلمة الرب ، ثم صلب ، وقام من جديد ، ونزل الى الارض مرة أخرى فى العام الذى يليه ليصلب ثانية··

أحس ميشيل بخديه ترتجفان ورأسه يدور · تشـبث بصخرة الى جواره كأنما يريد أن يوقف العجلة ويعوقها عن الدوران · ولكنه خر الى الارض ، وفجأة ودون سبب واضح انخرط فى بكاء شديد ·

* * *

لم يغادر الشيخ بطرياركاس فراشه صباح اليوم التـالى ، الأحد · قضى ليلته أرقا مسهدا · واذا أغفى لحظة دهمه كابوس ، وتدافع الدم الى رأسه ، وأحس بالاختناق · بعث الى ابنه يدعوه لحضور زفاف لينيو وكان رد الابن عليه : «ان كانت دعوة لحضور وفاة فنعم ، أما زفاف فلا» · وتلقى الشيخ هذه الاجابة كأنها طعنة فى قلبه ·

وفاض الدمع فى عينيه وتمتم :

ـ ماذا جنيت عليه ؟ ماذا فعلت له ؟ انه أحب انسان الى قلبى فى هذا العالم ، فلماذا يصدنى ؟ ترى ما الذى فعلته به ؟

واستعاد الشيخ حياته ، وتذكر أباه يوم أن تقدمت به السن ، وفى نوبة غضب قرر ألا يفتح فمه بكلمة · وظل دائما مطبقـا شفتيه ، حينا يمسك بالسوط يلهب به ظهور رعاياه من الرجال والنساء ، وحينا يلتقط الحجارة ويقذف بها الفتيات وهن فى طريقهن الى النبع فيهشم لهن الجرار· وكان يأكل كما يأكل الغول ، ويشرب كما يشرب البقر ، ولم يعرف المرض فى حياته · وكم من عجب أن نبتت له أســـنان جديدة ، وهذا ما أذهل الناس جميعا · وفى يوم صحو جميل سقط فى هوة فوق الجبل ولقى حتفه · وتملك الشيخ بطرياركاس الفزع عندما تذكر هذه الحـادثة وما أعقبها · فعندما بلغه النبأ : « قتل أبوك » غرق فى نوبة ضحك مجنونة· وفزعت القرية جميعها من هذا القلب الجاحد لكل عواطف البنوة · ولكنه واصل ضحكه وأحس كأنما يروح عن نفسه بذلك الضحك · اذ بدا له أن صخرة كبيرة كانت تسحقه تحتها قد انزاحت عنه فجأة · وأخيرا بدا

الابن يتنفس بحرية ، وكان عسيرا عليه أن يكتم فرحته ..

وارتعد العمدة الشيخ عندما تذكر ذلك الضحك .

ـ أليس من المحتمل أن ميشيل يشعر هو الآخر بأن ثمة صخرة تسحقه تحتها وتكتم أنفاسه ؟ ترى هل لا بد أن ندفع مقابلا لكل شيء في هذا العالم ؟ ـ وهل سيضحك ميشيل بدوره ؟

ودارت عيناه فزعتين في محجريهما .

ـ بيد أنني كنت أحب أبي ، كنت أحبه يقينا .. وكذلك ميشيل يحبني دون شك .. ماذا اذن ؟ اني لا أفهم شيئا . هل مكتوب على الانسان أن يضيق الابناء في النهاية بمن أتوا بهم الى هذه العالم ، ويكرهونهم ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لست أدري .

تأمل الشيخ بطرياركاس كل هذا وتنهد ، وتقلب فوق فراشه حتى اهتزت أرض الحجرة لثقله . ومع المساء فتحت أبواب البيت لاستقبال المدعوين . وعندما وصل القسيس جريجوريس بدأت الاغنيات تتردد . ونهض العمدة مرغما ، واغتسل ، وارتدى ملابسه وتزين وهو ينفخ كالثور . وصبغ شاربه وحاجبيه ، وضمخ شعره بماء الورد ، ونزل الدرج ليحضر زواج ابنته بخادمه .

كان الخطيبان يتألقان نظيفين ، فقد اتخذ كل منهما زينته ، وارتدى أحسن ثيابه . وبدأ العرق يتصبب منهما ، وتنبعث منهما رائحة كرائحة الخيل اثر خروجها من البحر . يخال من ينظرهما أن لو بقي هذان الكائنان وحدهما على ظهر الارض فسرعان ما يعمران الارض بنسل جديد من البشر .

واتخذ العمدة مجلسه الى جانبهما . فهو وكيل العروس وشاهد الزواج ومن ثم عليه أن يقوم باستبدال اكليلي العرس . وبدأ القسيس جريجوريس ترانيمه ، بينما وقف الشماس يطوح بالمبخرة الفضية ، واصطف المدعوون حولهم ، كل منهم يحس بالاعتزاز اذ أتيح له أن يشارك في حفل الزفاف . ووقفت فتاتان صغيرتان تنتظران ، وفي يد كل منهما صحفة مليئة بالحلوى .

وكان القسيس جريجوريس متسرعا للغاية حتى أنه كان يتعثر . لم يكن كعادته ، اذ حلقت أفكاره بعيدا مع ابنته التي فحصها الاطباء هذا الصباح وهزوا رءوسهم . كان يسرع في ترتيله ويدغم الكلمات وهو يتعجل الانتهاء من مهمته . وكذلك كان العروسان قلقين ، يتحرقان شوقا أن يتركهما الناس وحدهما ، ولا يفهمان سببا لكل هذه الحفاوة . والشيخ بطرياركاس يتعجل هو الآخر انتهاء الحفل ، فان ساقيه كادتا تخونانه

ولا تقويان على حمله • ولكن الكبرياء أرغمه على أن يعض على النواجذ ويتحامل على نفسه •

وبعد أن انتهت مراسم الزواج قال :

ـ يا أصدقائى ، يحتفل اليوم نيكوليو ولينيو بزفافهما ، فمرحبا بكم فى منزلنا • كلوا وأشربوا ما طاب لكم حتى تملأوا البطون ، فقد ذبحنا عددا وفيرا من الحملان ، والنبيذ موجود بوفرة والحمد لله • لقد حان موسم قطاف العنب وسرعان ما نملأ البراميل الى حافتها من جديد ، لذلك أدعوكم أن تفكوا أحزمتكم واشربوا هنيئا •

واستدار ناحية العروسين وقال لهما مهنئا :

ـ حياة مديدة ياطفلى • أتمنى أن تمتد بكما الحياة حتى يتقدم بكما لسن ، وتنجبا أبناء وأحفادا ، وتعمرا الارض بنسلكما وتخلدا سلالة الانسان • لا تنكسا رايتكما أمام ملاك الموت ، لأننا نبذر وهو يحصد وسنرى لمن سيكون النصر • هل سمعت ما أقول يانيكوليو ؟ أطلق قذائفك ، وابذر ما استطعت الى البذر سبيلا •

وانى استميحكم عذرا يا أصدقائى أن أذهب الى الفراش ، فانى أشعر ببعض التعب • أما أنتم فكلوا واشربوا ، اليوم عيد فابتهجوا واضحكوا حتى يسفر الصباح • وأنتن أيتها الصبايا وأنتم أيها الصبية الذين لم يسود شاربكم بعد ـ لكم جميعا أطيب التمنيات ـ أتمنى أن يأتى دوركم سريعا ، ونحتفل بزفافكم ، وليتنى أعود من جديد كما كنت القديس جورج الفتى لأقدم لكم دمجانة النبيذ •

وضحك الحضور • ورفع العمدة يده اليمنى محييا ، وأسرعت فتاة صغيرة تفتح له الباب • وتوقف العمدة عند العتبة ، واستدار ناحية القسيس جريجوريس الذى كان يطوى رداءه الدينى ، وقال له :

ـ ياأبانا ، بعد أن تتناول لقمة اصعد الى الدور العلوى لنتحدث سويا •

ولكن القسيس نهض واقفا على الفور • وقال :

ـ سآتى معك ياعمدة • كان الله معكم يا أصدقائى

والتفت الى العروسين وقال :

ـ زواجا سعيدا يا طفلى •

وانصرف الشيخان، وتنفس الحضور الصعداء ، واقبلوا على الطعام •

ودخل الحجرة زعيما القرية وأخطر رجالها شأنا ، وأغلقا الباب عليهما • ومن تحتهما دارت رءوس المدعوين ، وتحول النبيذ واللحم الى

غناء ورقص وضحكات عالية وزفرات شبقة · ولم يسمع الشيخان شيئا وهما فى الطابق العلوى ، فقد كانا غارقين لآذانهما فى همـــوم خطيرة تعذبهما ·

تمدد الشيخ بطرياركاس فوق سريره وأطلق للســانه العنان حتى أنه نسى نفسه · كان يتـــحدث عن الاشتراكيين كما صورهم له خياله ، أنصاف آدميين ، أنصاف وحوش ، يتدفقون من الشـمال ، وفى أقدامهم نعال من حديد يقدح منها الشرر حين تدق على الارض فتشتعل النيران فى القرى · ويتصدر مانولى هذه الزمرة وقد تحول هو الآخر الى نصف وحش، وتتصاعد ألسنة اللهب من فيه ، ويشير باصبعه الى ليكوفريسى ·

وقال القسيس جريجوريس :

ــ ومعهم أيضا فوتيس ، هذا القسيس المارق طريد الكنيسة ، انه معهم ، وهو زعيمهم ·

ــ نعم القسيس فوتيس أيضا ، وكل عصـــابته من المهلهلين الذين تجمعوا فوق ساراكنيا · انهم يتأهبون للانقضاض على قريتنا · كنت على حق عندما قلت «انها ثورة الذنب ضد الرأس ··» ولهذا السبب يا أبانا أردت أن أراك ، لنتدارس الامر معا ، ونتبين أفضل السبل لوضع الامور فى نصابها ·

كان القسيس جريجوريس ينصت له · وبين الفينة والفينة يتجدد الغضب فى صدره ، ولكن سرعان ما عادت أفكاره الى ماريورى ، وغامت الدنيا أمام عينيه ، وملأ الطنين أذنيه ، فبات لا يسمع شـــيئا من كلام الشيخ ·

وطال بهما الحديث حتى انتصـف الليــل ، وأضناهما الارهاق ، واكتفيا بما قيل ، وضاقا ببعضهما ونظر كل منهما الى الآخر فى كراهية· وقال القسيس جريجوريس فى نفسه : « ليته يصـــاب فى لسانه بقرح يخرسه » · وقال بطرياركاس فى نفسه : « ألن يرحل هذه الليلة ؟ هذا الخنزير البدين سيزهق روحى » ·

مرة أخرى تذكر القسيس جريجـــوريس ابنته ماريورى ، وعاوده التفكير فيها · لقد تركها وحدها هنالك فى العيادة ، داخل حجرة صغيرة خانقة ، لها كوة تطل على فناء ضيق · وقال له الاطبــاء « يجب ان تبقى هنا تحت الملاحظة فترة من الزمن ، وســـنخبرك فيما بعد بالنتيجة · وسرت رعدة فى جسد القسيس التعس وسألهم : «هل حالتها خطرة؟»· « ثمة خطر ، وثمة أمل أيضا ياأبانا ، وعلينا أن نتذرع بالصبر · الموت

والحياة يتصارعان فى دم ابنتك ، وسنرى لمن الغلبة فى هذا الصراع» .
وتضرع الأب : « أخبرونى بالحقيقة كلها » . « أفضينا اليك بالحقيقة يا أبانا . عد الينا بعد شهر » . وقال القسيس «سأصلى للرب . أبذلوا جهدكم من جانبكم ، وسنبذل نحن من جانبنا كل ما نستطيع . وداعا ، كان الله فى عوننا . كانوا فى عجلة من أمرهم ويريدون التخلص منه سريعا ، حتى يتسنى لهم زيارة مرضى آخرين فى انتظارهم .

وفجأة نهض القسيس ومد يده الى بطرياركاس . وتنهد وقال :

ـ طاب مساؤك يا عمدة . سنعاود الحديث فى كل هذا غدا .

ـ هل لن تبقى معنا قليلا يا أبانا ؟ لماذا العجلة ؟ معذرة .. نسيت أن أسألك عن أخبار ماريورى . ماذا قال الاطباء ؟

ـ يبدو أنه ليس ثمة خطر . المسألة غير ذات بال ، وانما هى فتاة كغيرها من الفتيات يصيبها التحول . ويرون أن من الخير لها أن تتزوج سريعا .

ثم أراد أن يحول الموضوع وجهة أخرى فقال :

ـ وماذا عن ميشيل ؟ انى قلق عليه يا عمدة .

وأجاب الشيخ بادى الغضب :

ـ لا داعى للقلق ، فانه شاب صغير طائش وغدا يثوب الى رشده . يجب أن نتخلص من مانولى أولا وبذلك تستقيم الامور .. طبت مساء يا أبانا .

وبعد أن فرغ من كلماته استدار سريعا بوجهه ناحية الحائط .

وتناهى الى سمعه وقع أقدام القسيس وهو ينوء بثقله فوق الدرج . وهمهم :

ـ يزعم هذا القسيس العجوز أنه قلق . وأنا أيضا قلق على ماريورى أيها الشيخ . لو كان لا بد وأن يتزوج ابنى بفتاة مصدورة تلوث نسلى فالموت خير لها حتى تعيش فى سلام . انى حزين عليها ، حزين على هذه المسكينة ، والله على ما أقول شهيد ، ولكن خير لها أن تموت .

***

بينما كان أعيان ليكوفريسى يدبرون أمرهم للتخلص من مانولى ، كان مانولى يجلس مع القسيس فوتيس ، يفكران معا فى الشتاء المقبل ، وعن وسيلة لانقاذ اللاجئين فى ساراكينا من الموت جوعا وبردا هذا الشتاء .

قال القسيس فوتيس :

ـ العمل هو المنقذ الوحيد . العمل والمحبة .

وجمعا الرجال والنساء القادرين على العمل ، وقسماهم جماعات متفرقة ـ جماعات أخوية ـ وعينا لكل جماعة أخوية مسئولا عنها يقودها، ويكون أكبر الاخوة أو أكبر الامهات سنا • وبعثا بهم الى القرى المجاورة للبحث عن عمل • وانتشروا في الارض في اتجاهات مختلفة ولم يخلفوا وراءهم فوق جبل ساراكينا غير الشيوخ من الرجال والنساء لرعاية الاطفال •

ورافقهم القسيس فوتيس في طريقهم بعض الوقت وعبر لهم عن تمنياته الطيبة بقوله :

ـ اعملوا يا أطفالى في حراسة العناية الالهية • اعملوا واجمعوا كل ما تستطيعون ، فاكهة وزيتا ونبيذا وثيابا • ليكن وطننا الجديد في ذاكرتكم دائما ولا تنسوه • أنظروا الى النحل حين يترك خلاياه وينتشر فوق السهول والجبال يجمع الرحيق ، ألا يعود الى وطنه محملا بالرحيق لخلايا الشمع الصغيرة والنحل الرضيع ؟ كونوا مثل النحل يا أطفالى • اذهبوا وليكلأكم الله بعنايته •

وكثيرا ما كان يصاحبهم مانولى ، ويخرج معهم الى العمل • يبث فيهم الشجاعة ويشد من أزرهم أثناء الطريق ، ويدلهم على القرى المحيطة، ويبين لهم أى الاشياء هم في مسيس الحاجة اليها أكثر من غيرها ، وأى الابواب لهم أن يطرقوها • وبعد أن اطمأن الى أن كلا منهم وجد عملا عاد الى ساراكينا • وجمع الاطفال حوله هو والقسيس فوتيس واستخدما الالواح التى أعطاها لهم حاجى نيكولا ناظر المدرسة ، وبدأا في تعليمهم الحروف الهجائية •

واذا جن الليل جلس الاثنان معا ، فوق الأريكة الحجرية بجوار الكنيسة يتجاذبان أطراف الحديث •

وذات مساء قال القسيس فوتيس :

ـ اسمع يامانولى ، ان الله موجود بكل كيانه في كل شيء حتى في أصغر حصاة وأدنى الحيوانات وأكثر النفوس اظلاما • لنبذل كل ما في وسعنا حتى نرى قريتنا أو خليتنا يشع ضوءها في كل النواحى بالوجود القدسى • ولنكن نموذجا للجد والنجاح والاتحاد • لا تنس أن العمل الطيب حتى وان كان وسط صحراء قفر مائرة ، له صداه الذى يتردد في كل أرجاء العالم •

ورفع مانولى عينيه ونظر الى القسيس فوتيس • خيل اليه كأن وجهه الضامر الجرىء نار متأججة وسط الظلام ، وكأن يديه المرفوعتين الى السماء تلوحان لهيبا يتراقص •

وأجاب مانولى فى حمية :

ـ نعم ، كل انسان قادر وحده على أن يخلص العالم . كانت هذه الفكرة تراودنى دائما يا أبانا ، وكنت أرتجف منها . هل نتحمل نحن هذه المسئولية الكبرى ؟ ماذا يجب علينا أن نفعل اذن قبل أن نموت ؟ ما الذى يجب أن نلتزم به ؟ وما هو طريق الخلاص ؟

وصمت . كان الظلام دامسا . أشعلت النساء النار ليعددن الطعام . وجلس الأطفال القرفصاء من حولهن فى انتظار الطعام وقد عضهم الجوع ..

وضع مانولى يده فوق ركبة القسيس فوتيس الذى غرق فى تأملاته دون أن يجيب عليه .

وسأله هامسا :

ـ كيف لنا أن نحب الرب يا أبانا ؟

ـ بأن نحب الناس يا بنى .

ـ وكيف لنا أن نحب الناس ؟

ـ بأن نقودهم الى الصراط المستقيم .

ـ وما هو الصراط المستقيم ؟

ـ الطريق الصاعد .

***

أنت الذي قتلته .. أنت

في اليوم التالي ، وبعد أن انتصف النهـــار تقريبا ، عاد الأغا من سميرنا . لم يكن وحده ، كان وراءه غلام تركي جديد ممتطيا صهوة مهر كستنائي . كان الغـلام خبيث النظرات ، فظ الطبـاع فيه خلق الذكر الصغير . لم يكن يمضغ لبانا ، ولم يكن يغني «العالم حلم» بل كان دائما جوعان عطشـان ، ومن ثم تراه دائم الأكل والشراب . يصرخ ويسـب ويتوعد ، ويتدلل على الأغا ويأمره . والأغا العاشق المسكين يلتهمه بعينين نهمتين ، ويتجاوز عن كل نزواته . كان اسـمه ابراهيم ويناديه تدليلا براهيماكي . يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، له شفتان مكتنزتان يخططهما زغب كثيف .

نقب الأغا الأرض بحثا عنه حتى اهتدى اليه في ضاحية سـيئة السمعة من ضواحي سميرنا . ترى كل بيت فيها يعلق فانوسا احمر عند الباب علامة عليه تميزه . كان الغـلام يبيع بذور عبـاد الشـمس بعد تحميصها ، وعوازل من المطاط يستخدمها الرجال لمنع الحمل ، وأسماكا مشوية ، وزهور ياسمين . يجمع كل هذا مختلطا ببعضه في سلة واحدة ، ويعرض بضاعته على الناس . وترى الضاحية مع الغسق وقد باتت مزارا تفد اليها مواكب متتابعة من الرجال ، شبابا وشيوخا ، يفدون اليها من كل أرجاء المدينة بحثا عن لحظات يستمتعون فيها باللذة ، وينسون معها هموم يومهم . وتقف النسوة على عتبات بيوتهن مخضبات الوجوه بطريقة فاضحة ، أنصاف عراة ، وعلى شفاههن ابتسامة تستثير الشهوة . عندما

وقع نظر الأغا على براهيماكى شغف به حبا ، فدنا منه ، وراوده عن نفسه، وساوم الغلام ، ثم اتفقا فى نهاية الأمر • واشـترى الأغا للغلام مهرا كستنائيا ، وحلة جديدة من فاخر الثياب ، وساعة فضية ذات سلسلة ، وزجاجة مسك ، وكيسا به باقة من زهور القرنفل والقرفة • وأخذه بعد ذلك الى الحمام حيث استحم هناك ، ومزج ماء الحمام بزيت عطرى • ثم اصطحبه الى حلاق ليقص له شعره ، ويعطره بماء اللافندر • وأخيرا أسلمه الى يد واحد من أصدقائه القـدامى ، وهو شيخ تركى يعمـل (خوجه) ليعلمه بعض الحيل •

وبهذه الطريقة حصل الأغا فى النهاية على براهيماكى نظيفا معطرا مدربا • واستقبلت مارثا المحظى الجديد بتأفف ، وحدجته بنظرة من رأسه الى أخمص قدميه ، ثم ندت عنها ضحكة ساخرة فى شماتة • وحدثت نفسها :

ـ ستكون نهايتك على يد هذا اللقيط يا أغا •

وتوسط الأغا الفناء وسألها وهو يترجل عن بغلته •

ـ ما الأخبار مارثا ؟ هل من وفيات أوزيجات ؟ ألا زال الشـيخ بطرياركاس والقسيس جريجوريس على قيـد الحيـاة ؟ ألم يتضـارب الروميون ؟ هل لم يفقأ كل منـهم عين الآخـر ؟ أخال أننى غبت أعواما طوالا •

والتفت الى براهيماكى وقال :

ـ هذه هى الأم مارثا عبدتنا المخلصة • هى امرأة طيبة ، وربة بيت ممتازة كتوم أمينة •• تعيبها حدبتها الصغيرة ولكنك ستألفها •• افعل بها ما تشأ ، اضربها ، اقتلها ، ضاجعها فهى لك •

وامتعض براهيماكى ، ووضع يده فوق حدبة العجوز وأغرق فى الضحك • ثم قال :

ـ ماذا عساى أن أفعل بها ؟ انها ناقة وأنا أهديها اليك •

وتركهما ليتفقد مسكنه الجديد •

وقال الأغا :

ـ لا تعيئى بكلامه يا مارثا ، انه مهر صغير • لذلك ترينه يندفع ويعض ، ولكن اهدئى أنت واحتمليه • وأنا أيضا سأهدا معه وأحتمله • صبرا يا مارثا ، صبرا غدا سيتعلم •

وعاد براهيماكى الى الفناء • وسأل الأغا :

ـ ألا توجد حسناوات في قريتكم هذه ؟ لا بد أن تدعوهن يوما للرقص هنا حتى أراهن وأنتقى من بينهن من تروقنى ٠

وقفز الأغا وقال :

ـ اسمعني : ولا كلمة من هذا ٠ هل تفهم ما أقول ؟ كل من فى هذه البلدة روميون ٠ ولا أريد مشاكل ٠ الزم مكانك ٠

وقال المهر الذى لا يعرف معنى الحياء وهو يضحك بصوت عال :

ـ بل هن اللائى يلزمن مكانهن فوق حجرى ٠ أعدى المائدة أيتها العجوز الحدباء فانى جائع ، وتنهد الأغا اذ تذكر حبيبه يوسوفاكى ٠ كان له فم ولكن لا يتكلم ٠ تقول له غننا يايوسوفاكى فيغنى ٠ أشعل لىغليونى فيشعله ٠٠ هيا الى الفراش فيذهب طائعا ٠٠ أما هذا فهو شيطان فى جلد انسان ، ولكن ما العمل ؟ بيد أن هذا الحيوان له سحره وفتنته أيضا ٠

وقال :

ـ لك ما شئت يابراهيماكى ٠ كل شيء سيكون معدا ، ولكن صبرا قليلا ٠ هيا يا مارثا اذبحى لنا دجاجة ٠

وبعد ساعة جلس الأغا ومهره الى المائدة وأكلا وشربا ما شاء لهما من الطعام والشراب ، ثم دخلا الى حجرتهما وأغلقا عليهما الباب ٠ ما الذى حدث داخل الجدران الأربعة ، لا أحد يعرف ، ولكن مع المساء خرج الأغا من حجرته راضيا ، منهك القوى ، منتفخ العينين ٠ ونادى مارثا :

ـ اذهبى الى بطرياركاس وسليه أن يحضر ، فانى أريد أن أتحدث اليه ٠ اذ أن براهيماكى يصر على رؤية النساء وهن يرقصن أمامه ، وهل نستطيع أن نرفض له طلبا ؟ هيا ضعى الخمار على وجهك واذهبى من فورك ٠

* * *

ألفت مارثا بيت بطرياركاس مقلوبا رأسا على عقب ٠ الكلاب تدخل وتخرج من الباب المؤدى الى الفناء كأنها امتلكت البيت ٠ وبضع خادمات يجمعن فضلات الطعام ، وينظفن الموائد ، ويكنسن ٠٠٠ أما لينيو فقد رحلت مع عريسها الى الجبل ليسكنا حظيرة مانولى ٠ واليوم أصبحت الكلمة فى البيت للأم ماندالينيا ، فهى التى ترقب الخادمات وتصدر اليهن أوامرها ٠ وأمسكت بخرج تحشوه بكل ما تصل اليه يداها ، أحيانا تدس فيه بعض الاشياء خفية ، وأحيانا جهرا وعلانية ٠ وبين الفينة والفينة تصعد الدرج لتلقى نظرة على سيدها وتطمئن على حالته ٠

لقد ساءت حالة العمدة الشيخ منذ ذلك اليوم · استيقظ من نومه نصف مشلول ، عاجزا عن تحريك ذراعه أو ساقه اليمنى ، والتوى فمه ·

وظلت الأم ماندلينيا تكرر على سمعه قولها :

ـ لا شيء البتة ، لا شيء ، لاتقلق ياعمدة · سأدلك جسمك، وبعدها يعود كل شيء كما كان · انها نزلة برد ·

ولكن الشيخ كان يحملق في خمول وبلادة الى النافذة المقابلة للسرير ، ولعابه يسيل من فيه ·

ولم تكد عين الأم ماندلينيا تقع على مارثا العجوز حتى خفت اليها تمنعها ، فهي لا تطيق رؤية الحدباء العجوز ·

ماذا تريدين يامارثا ؟ هل ثمـة شر جديد حل بالقرية ؟ هل عاد الأغا ؟ تكلمني فانى لا أطيق صبرا ·

ـ تريثي قليلا ، مابالك تسدين على الطريق أيتها العرافة القذرة · أريد مقابلة العمدة لأمر هام ، ولا مناص من ذلك ·

ـ لن تريه ، وأنا أصـدقك القول ، فلا داعى للالحاح · لا يمكنك ذلك ، فقـد ألم به مرض عضال وأصبح مشلولا · بعث فى طلب ابنه ، يبدو أنه أصيب بضربة · استعصى عليه الكلام فبات يتلعثم ويريل دون انقطاع · لا يمكنك مقابلته ·

ـ دعينى أدخل حتى أراه بعينى أنا ، إبعدى عن طريقى · الأغا هو الذى أرسلنى ·

ـ لا ، لن أدعك تدخلين ·

ـ بل سأدخل رغما عنك ·

وتضاربتا ، وهرع الخدم اليهما ، وباعدا بينهما · وتحايلت الحدباء حتى وصلت الى السـلم وصعدت الدرج مندفعة بأقصى سرعتها ، كأنها عنكبوت مزق عنه نسيجه · فتحت الباب ، ودلفت الى داخل الحجرة · فتح العمدة الشيخ عينيه ورآها ، ولكن لم يبد حراكا ·

وقالت العجوز :

ـ يا عمدة ، أنا مارثا · يبعث اليك الأغا بتحياته · يسـألك أن تتفضل بالحضور اليه لمقابلته · اذ يود أن يتحدث اليك فى موضوع ما ·

وهنا حرك الشيخ رأسه فى بطء وأناة · وتحركت شفتاه ، وغمغم بكلمات لا تبين ، ودنت منه مارثا ، بينما دخلت ماندلينيا فى تلك اللحظة ثائرة غاضبة ، ودفعتها بعيدا عنه وانحنت فوق الشيخ :

ـ ماذا تقول يا عمدة ؟

وحرك الشيخ شفتيه ثانية ، وتلعثم بكلمات مدغمة ، واستدارت ماندالينيا ، وقالت للعجوز الحدباء :

ـ يقول لك اذهبى الى الشيطان .

ولكن العجوز أصرت فى عناد وقالت :

ـ ماذا أقول للأغا يا عمدة ؟

وتحركت شفتا العجوز ثانية ، ودنت منه الأم ماندالينيا للمرة الثانية ثم قالت :

ـ يقول ، له ليذهب هو الآخر الى الشيطان .

وهزت العجوز الحدباء رأسها ، ثم دنت من السرير ، ومالت برأسها فوق الشيخ المريض وهمست له قائلة :

ـ يا عمدة ، الأغا يعد العدة لكارثة ، هل تسمعنى ؟ أتى بشيطان جديد من سميرنا سيشعل النار فى بلدنا . هذا الوغد يطلب أن تحضر كل بنات القرية أمامه ويرقصن فى الميدان تحت شجرة السنار ، حتى ينتقى من بينهن من يشاء .. كان أجدر بك أن تسقط مريضا فى لحظة أخرى غير هذه يا عمدة .

وفتح الشيخ عينين واسعتين ، وتدافع الدم الى وجهه ، واستجمع كل قواه وقال :

ـ أبدا ، لا يمكن .

ثم سقط رأسه ثانية فوق الوسادة .

وصرخت الأم ماندالينيا :

ـ ستقضين عليه يا حدباء ، عليك اللعنة ، اذهبى الى الجحيم .

وأمسكت بمارثا من حدبتها وألقت بها بعيدا .

وعادت الى السرير . وبدأت تدلك جسد الشيخ بزيت الكافور . وخفف هذا بعض أوجاعه وفتح عينيه .

وخرجت من فيه كلمات متلعثمة فى صعوبة ومشقة :

ـ ارسلى من يستدعى القسيس جريجوريس .

ثم أغمض عينيه ثانية .

فى هذه اللحظة انفتح الباب ودخل ميشيل .

وصاح فى المرأة العجوز وهو يقترب من السرير :

ـ ابعدى .

وجمعت العجوز عقاقيرها واختفت ٠

وقف ميشيل جامدا يحملق فى أبيه والدموع تفيض من عينيه ٠ تررم وجه الشيخ ، وامتقع لونه ، وتهدلت لحيته وسقطت فوق رقبته ٠ وتدلى الجانب الأيمن من فمه ٠

فتح الشيخ عينيه وابتسم عندما رأى ابنه أمامه ٠ ومد اليه يده اليسرى وتمتم قائلا :

ـ ها أنت ٠٠٠٠

ومال عليه ميشيل وقبل اليد الممدودة اليه ٠ وتعلقت عينا الشيخ بابنه ينظر اليه نظرة عميقة يائسة كأنه يستودعه ٠

ثم بسط اليه يده ثانية وتمتم قائلا :

ـ وداعا فانى راحل ٠

واستجمع كل قواه محاولا التحدث اليه بكلمات واضحة قدر الاستطاعة :

ـ يا بنى ، انى راحل عن هذا العالم ٠ سأترك المائدة ٠ ها أنذا أرفع فوطتى بعد أن انفضت الوليمة ٠٠ ان كنت قد أغلظت لك القول مرة فانى أسالك الصفح والمغفرة ٠ فأنا أب لك وأحبك ٠ والحب يعمى الانسان فيقسو حينا على من يحب ٠ أطلب منك شيئا واحدا فقط ٠

ـ قل يا أبت ما هو ٠

ـ ماريورى ٠٠٠٠

وصمت ولم يتكلم ٠ وتصبب العرق فوق جبينه ٠ ومال عليه الابن، ومسح وجهه بمنديله ٠

ـ ماريورى ـ اسمعنى = مصابة بداء وبيل ٠ لا تتخذها زوجة لك ، فانها ستلوث دمنا ٠

هل تسمعنى ؟

ـ أسمعك يا أبت .

ـ هل ستفعل ما أطلبه منك ؟

لزم ميشيل الصمت .

هذا هو الصنيع الوحيد الذى أطلبه منك ٠ هل تقرنى على ذلك؟ قل نعم حتى ألقى الموت هادىء البال ٠

ومضت لحظات والشيخ ينظر الى ابنه فى وجل .

وأخيرا تمتم ميشيل :

ـ نعم ..

وأغمض الشيخ عينيه وقال هامسا :

ـ هذا كل ما اريده منك ، ولا شيء أكثر من ذلك .

وذهب ميشيل الى الشباك ، وأطل منه . كان الليل يرخى سدوله ، وبدأ الفلاحون يعودون أدراجهم من بساتين الكرم وقد اضناهم التعب . ومرت فتاتان تتجاذبان أطراف الحديث ، تحملان جرتين فوق كتفيهما . واجتاز الشيخ لاداس الطريق ، مقوس الظهر ، حافى القدمين ، مخضب اليدين بعصير العنب .. اذ كان يقطف العنب فى كرمته .

وتململ الشيخ فوق سريره وتنهد . واستدار ميشيل ناحيته . وأشار اليه أبوه أن يدنو منه . وقال :

ـ لا تنصرف . انتظر .

ـ لن أنصرف . نم يا أبت ..

وتناهى الى سمعه على البعد صوت فتاة تغنى بالقرب من بئر القديس بازل . كانت تغنى حبها بموال فيه أنين وشجن ، تنفس به عن حزن عميق ، كأنها أول من عرف الهوى ، وأول من ذاق طعم العناق وما فيه من راحة للنفس . وفكر ميشيل في خطيبته . واحس برغبة فى أن ينفس هو الآخر عن نفسه ويبث أشجانه فى صيحة عالية تلتقى على البعد بنوح الفتاة .

وفجأة لمح القسيس جريجوريس بلحيته البيضاء عند مدخل الفناء . اتجه ميشيل صوب الباب وهو يمشى على أطراف أصابعه ، وفتح الباب فى هدوء حذرا أن يوقظ أباه ، وانتظر عند أول الدرج .

واخيرا وصل القسيس ، يمشى بخطوات متهادية وقور . وسأله ميشيل فى قلق :

ـ ماذا قال الأطباء يا أبانا ؟

ـ ليس بها داء يابنى . بعد شهر تعود سليمة كآلة الكمان .

ورمق بعينيه داخل الباب المفتوح .

ـ يبدو أن العمدة مريضا . فقد بعث فى طلبى .

ـ يبدو أن حالته سيئة يا أبانا .. أدخل .. خفف الوطء حتى لا توقظه .

لم يكن العمدة الشيخ نائما • فتح عينيه عند سماعه همسا يدور بالقرب منه . وتمتم قائلا :

ـ مرحبا بك يا أبانا .

ـ ماذا دهاك يا عمدة ؟ آمل الا يكون شيئا ذابال • تشجع •

ـ لا شيء يا أبانا • حم القضاء • اجلس ، أود أن أتحدث اليك • اقترب ياميشيل •

وبدأ يتحدث اليهما بكلمات مدغمة متلعثمة شوهاء • قص عليهما دعوة الأغاله وأن يوسوفاكى الجديد يريد كل بنات القرية ليرقصن أمامه حتى ينتقى من بينهن من تحلو له •

وهب القسيس واقفا وصاح فى حدة :

ـ أبدا مستحيل ، الموت خير لهن من هذا .

وقال الرجل الذى اشرف على الموت :

ـ افعل ما يمليه عليك واجبك • أما أنا فلن أكون معكم بعد الآن • سيحتل ميشـــيل مكانى • وأغمض عينيه خائر القوى ، ثم أمسك بيد جريجوريس وقال له :

ـ تعال الليلة لتقدم لى التناول .

وسار القسيس جريجوريس ناحية الباب وتبعه ميشيل •

ـ لا تترك أباك يا ميشيل ، فان حالته سيئة للغاية . لعل الله أن يكلأه بعنايته .

وتفكر لحظة ثم قال :

ـ اما الآغا ، فانى سأذهب اليه فورا ، سأتحدث اليه في ذلك الموضوع • نسأل الله أن يقينا شر هذا العار •

وعاد ميشـــيل وجلس الى جانب أبيــه الشيخ • ســـهر الى جواره طوال الليـــل ، عيناه مثبتتـــان على الوجه المريض الشـــاحب ، والشفتين الملتويتين ، والوجنتين المتهدلتين ، والشعر الأشيب الذى بلله العرق • وقال فى نفســه :

ـ كان هذا الرجل أبى .. كان العمدة بطرياركاس صاحب الحول والطول ، وكان فى شبابه رشيقا مثلما كان القديس جورج . تخاله فارسا على صهوة جواده ، حتى وان كان يمشى على قدميه . ذاق أطيب انواع اللحوم ، وشرب أجود أنواع النبيذ ، وضاجع نساء ذوات حسب

ونسب ، كما ضاجع خادمات وراهبتين ورئيسة دير . وملأ بيوت الآخرين بأبناء السفاح ..

مضت الساعات تباعا ، والقرية تغط فى نومها . وعاد القسيس ، واعترف العمدة الشيخ ، ومنحه القسيس الغفران ، وقدم له التناول ، وانصرف وترك ميشيل وحده مرة أخرى فى رفقة الجسد الهامد الذى كان أباه يوما ما . قضى ميشيل ليلته مسهدا . وما أن تنفس الصباح حتى نبح كلب أحد الجيران . ونهض ميشيل واتجه ناحية الشباك . بدأت السماء تصطبغ بلون وردى ، ولكن لا زال الناس والأشجار والطير والماء يلفهم النعاس . كان كل شيء هادئا تماما عدا ذلك الكلب الذى كان ينبح فى جزع .

وسمع الشيخ بطرياركاس نباحه وفتح عينيه . وكان كبير الملائكة يرف بجناحيه السوداوين فوق سريره . وندت عنه آهة أسلم بعدها الروح .

وانفتح الباب ، وظهر القسيس جريجوريس عند عتبته . دنا من السرير ، ووضع يده على قلب العمدة الشيخ ، كان قد توقف عن الخفقان . واستدار ناحية ميشيل ، ونظر اليه فى عبوس وشراسة .

وصاح بصوت مخنوق :

ـ أنت الذى قتلته .. أنت .

وهب ميشيل مذعورا ، ونظر الى عينى القسيس ، وحاول أن يفتح فمه ولكنه لم يستطع .

* * *

انهار عماد من عمد ليكوفريسى . ولم يكد الخبر ينتشر ويطرق الأبواب الواحد بعد الآخر حتى اهتزت له القرية ، « مات العمدة الشيخ » . حتى الأغا نفسه الذى استيقظ توا من نومه ، وجلس فى شرفته بعينين نصف مغمضتين يستعيد كل ما رآه وما فعله فى أحلامه تلك الليلة ، لم يكد يستمع الخبر حتى نظر فى حيرة وارتباك الى مارثا العجوز وهى تنعى اليه النبأ . وقال :

ـ هل مات ؟ مات دون رجعة ؟ هل انهار البرج ؟ ستصبح القرية كسيحة من بعده . لا بد انى كنت غارقا فى نومى حتى اننى لم أسمع جلبة والعماد ينهار .

وعادت المرأة العجوز تؤكد له .

ـ كانت كلاب القرية تنبح طوال الليل يا اغا وعرفت حينذاك ما حدث . قلت لنفسي لا بد أن كبير الملائكة نزل الى القرية ليختطف روحا كبيرة . راته الكلاب وفزعت منه .

وقال الأغا وهو يرتشف قهوته :

ـ كان رجلا هماما ، من النوع الذي يدخل الجنة . كان يحب الحياة الرغدة المتعة . عرف كيف يعربد ويتخذ المحظيات .. لهفي عليه أن لم يكن مسلما حتى كان يدخل جنتنا حيث أنهار الخمر والولدان المخلدون والحور العين . هذا هو خير مكان لك يا عزيزي بطرياركاس المسكين ، ولكن سبق السيف العذل وفات الأوان .

وظهر براهيماكي ، أشعث الشعر ، مثقل العينين من أثر النعاس ، عاري الصدر ،مطبوع فوق رقبته خال جميل يشد الأنظار . وشردت أفكار الأغا ، وبسط يده النهمة ، يداعب بها الشعر الأسود المموج والعنق الدافيء ، وتهادت راحته فوق الخال الجميل واحس كأنه دخل الجنة .

وامسك الغلام الشرس بيد الأغا ، وطوح بها بعيدا في غضب وسأله: متى سترقص النساء ؟

ـ لا تكن عجولا هكذا ، ارجوك . سأفعل كل ما يروق لك ، ولكنني لا أريد أن أثير ثائرة القرية ضدي .. زارني مساء أمس قسيسهم وقال لي : « أعفنا يا أغا من هذا العار ، والا فانك ستثير عاصفة هوجاء . صبرا قليلا سنجد مخرجا لذلك .. لهذا أسألك الصبر يا حبيبي براهيماكي وثق أنه سيأتي العيد الذي يرقصن فيه جميعهن بمحض ارادتهن ، ودون اكراه .. ووقتئذ ستراهن .

ولكنه أحس بالحماسة وهو يتكلم ، وصرخ بصوت غاضب :

ـ ولكن عليك أن تعلم قبل هذا كله أنني لم آت بك الى هنا لازوجك .

***

في هذه الأثناء فتحت بوابة بيت بطرياركاس على مصراعيها ، ووضع الميت وسط الفناء . وتوافد اهل القرية جميعا ليودعوا الجثمان الوداع الأخير . نسوا كل سيئاته ، ولم يذكروا غير حسناته ، فترى أهل القرية لا يملون اطراء فضائل المتوفى وتعديد مناقبه . حتى بانايوتي جاء ليقبله قبلة الوداع ، ولم يستطع أن يحبس دمعة ترقرقت في مآقيه . ووضع شفتيه الغليظتين فوق الجبين البارد وتمتم قائلا :

ـ اغفر لى وليغفر الله لك .

وحضر الشيخ لاداس كذلك ، وقبله بدوره ، ثم ألقى نظرة فاحصة الى منزل العمدة · وطافت بخاطره وسط هذا الموكب الجنائزى المهيب · بساتين الكرم ومزارع الزيتون والحدائق التى كان يمتلكها المتوفى ، وتنهد : « انى أشفق على كل هذه الثروة !! سيبددها ميشيل سريعا ، لا بد ان افتح عينى .. لا أخشى احدا غير القسيس .

وأرادت الأم ماندلينيا ان تولول وتندب الميت ، فنزعت عنهـا وشاحها وطوحت به وحلت شعرها وأصبح مهوشا . ولكن ميشيل دفعها جانبا وقال لها :

ـ لا أريد صراخا وعويلا . أسكتى .

ووقف ناظر المدرسة أمام القبر المفتوح ، وألقى خطبة عصماء . عاد فى حديثه الى اليونان القديمة ، وذكر قادتها من امثال ميلتيادس وثيميستوكليس ، وتحدث عن الحروب مع الفرس ، ثم انتقل الى الحديث عن الاسكندر الأكبر والمسيح . وسرد تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، وأسهب فى الحديث عن القديسة صوفى · وتأجج حماسة وتصبب عرقـا عندما أتى ذكر القسطنطينية واستيلاء الأتراك عليها . وهنا لم يستطع أن يخفى عبراته ونشيجه ·· واستبدت الحماسة بالحاضرين عندما رأوه يبكى ويصيح فى انفعال شديد :

« مرة أخرى ، ومهمـا طال المدى ستعود القسطنطينية الينـا من جديد ، وسنحتفل بتقديم القداس فى سانت صوفيا (١) . والتقط نفسا عميقا ، وجفف عرقه ثم واصـــل حديثه سريعـــا عبر سـنوات العبودية وتوقف عند الثورة الوطنية عام ١٨٢١ (٢) ثم قفز قفزة جريئة واحدة وصلت به الى القبر المفتوح تحت قدميه ، ورأى فيه العمدة بطرياركاس .

أضنته رحلته الطويلة عبر القرون ، فتوقف لحظة يلتقط انفاسه ويمسح نظارته التى أغبشت بعد أن خالطها العرق · ثم استجمع قواه ، وبدأ تأبينه للميت :

لن ننسى جورج بطرياركاس المأسوف عليه · فقد كان ممثلا أصيلا لسلالة اليونان القدامى ، وحفيدا أصيلا للامبراطورية البيزنطية العظمى،

---

(١) مقطع من اغنية شعبية يونانية . (عن الترجمة الفرنسية) .

(٢) بداية حرب التحرير اليونانية . (عن الترجمة الانجليزية) .

وابنا أصيلا لأبطال ثورة ١٨٢١ • حافظ هذا العمدة النبيـــل ، باصرار وعزم لا يلين • على رسالة الجنس الهيلينى التى هى نضال للانسان من أجل الحرية !! .

كان فى ساعة الخطر أول من يعرض صدره له لملاقاته ، متأهبا دائما ليجود بحياته . كان جورج بطرياركاس مثله كمثل الاسكندر الأكبر ، حافظ على شـعلة اليونان وضـــاءة موقدة دائما أبدا في هذه القرية الواقعة فى قلب آسيا ، ولم يسمح للبرابرة ان يطفئوا نور اليونان

ان موت جورج بطرياركاس خسارة قومية لا تعوض لو لم يترك وراءه خليفة له ، ابنا جديرا باسمه هو ميشيل . فانه سيواصل بدوره التراث البطولى الذى استنه أبوه المجيد .

وصدق الحضور كل ما قاله ناظر المدرسة . عرفوا لأول مرة انهم خسروا بطلا مغوارا فبداوا يبكونه .. وأمسك ياناكوس وقســطندى بذراعى ميشيل وسارا به بعيدا عن القبر الذى وقف أمامه جامدا يرقب الكفن وهم ينزلون به تحت الأرض . لم يكن يفكر الا فى شىء واحد .. كلمة القسيس : « أنت الذى قتلته •• أنت » سارا به بعيدا ، ثم بدأوا ثلاثتهم طريقهم عائدين فى صمت .

عادوا الى البيت الكبير وقد أصبح فارغا • وأغلقوا الباب خلفهم ، وتوسط ميشيل الفناء ، وتهاوى الى الأرض ، حيث كانت جثة ابيه مسجاة هذا الصـــباح • مال برأسه وقبل الأرض • وفجأة هب واقفا ، باسطا ذراعيه على امتدادهما كأنه يتهيأ للرقص . أحس فى أغوار نفسه بنشوة غير انسـانية غامرة . حقاً انه يملك بين جوانحه قلبا انسانيا ملأه الحب لأبيه كما ملأه الأسى على وفاته . وله عينان فاضتا بالدمع حزنا عليه ، ولكنه مع هذا أحس فى أعماقه بفرحة لا انسـانية وبالخلاص .

ونادى ماندالينيا :

ـ اعملى لنا قهوة ، وأحضرى لنا بعض النبيذ ، واذبحى الديك الأبيض ، وأعدى لنا الطعام • أسرعى •

ونظر اليه أصدقاؤه فى دهشة ممزوجة بالقلق • عيناه مغرورقتان بالدموع ، ولكن صوته صاف طروب • بدأ يذرع البيت هنا وهناك ، وكأنه يراه لأول مرة ، يدخل خزائن المؤن ، يكشف أغطية الجرار ويقرع البراميل ليرى ان كانت مليئة أم لا ، وفتح خزائن المـــال •• ثم عاد وجلس الى المائدة التى أعدت ، وجلس ياناكوس عن يمينه وقسطندى عن يساره ، وصب النبيذ في الأقداح ، ورفع كأسه وقال :

— كل هذا الكلام الذى تفوه به ناظر المدرسة عن أبى هناك وسط المقابر هو محض هراء . لم يكن أبى بطلا ، ولم يحدث أبدا أن عرض صدره لملاقاة الأخطار . ولم يتخذ فى حياته قرارا فيه شهامة وجرأة . كان حقا صديقا لطيف المعشر ، يحب حياته الوادعة ، ويفزع من الموت ، هذا كل شيء . ليحفظ الله روحه .

« أما حديث ناظر المدرسة عن سلالة اليونان فهو عين الحق . فكل يونانى فى هذا العالم حتى الوضيع منهم والأمى ، هو سيد كبير فى هذا العالم دون أن يعلم ذلك ، اذ أنه يحمل على كاهله مسئولية كبرى . ان أى يونانى لا يتخذ فى حياته ، ولو لمرة واحدة ، قرارا بطوليا فانه يخون تقاليد جنسه ... وبينما كان يتحدث هذا الدعى الملقب بناظر المدرسة فزعت حين رأيت اننى بصدد أن أشق نفس الطريق الذى سلكه أبى ، الطريق السهل اللين المريح ، وفجأة أحسست بالخجل من ذلك . وأمام قبر أبى أقسمت لنفسى أن أشق الطريق الوعر النبيل ، الطريق الذى سلكته سلالتنا منذ آلاف السنين ...

كان ياناكوس يستمع بانفعال لكلمات صديقه وسأله :

— أى طريق هذا ؟ أى طريق تعنى يا ميشيل ؟

— الطريق الصاعد . ولهذا السبب أسألكم أن تقدموا الى جميلا يا أصدقائى ورفاقى . بعد أن يجن الليل نذهب معا الى ساراكينا لنقابل مانولى والقسيس فوتيس . قضيت الليل كله أرقب أبى وهو يعانى سكرات الموت ، وأقلب فى تردد فكرة فى رأسى دون أن أحسم أمرى . بيد أننى اتخذت قرارا حاسما وقتما كنت أمام القبر . سأفصح لكم عنه عندما يلتئم شملنا نحن الخمسة هذا المساء . أسألكم العون يا اخوتى .

وأعلن الصديقان :

— نحن معك حتى الموت يا ميشيل .

وشربا فى صحته ، وأقبلوا على طعامهم فى غير شهية .

***

مال ميزان النهار ، وجلس القسيس فوتيس ومانولى أمام الكهف يتجاذبان فى هدوء ودعة أطراف الحديث . عادا لتوهما من جولتهما فى القرى المجاورة حيث قضيا نهارهما فى مساعدة رفاقهم بحثا عن عمل . قاما برحلتهما مشيا على الأقدام ، وأرهقهما التراب والقيظ . والتقيا أثناء عودتهما بالشيخ كريستوفيس وعلما منه بنبأ وفاة الشيخ بطرياركاس ، وأنه ووري التراب .

وقال كريستوفيس المكارى بسخريته المعهودة :

ـ أسفى على هذه الآلة التى كانت تخرج الروث واللقطاء اذ تتوقف الآن عن العمل . كم من الأرامل خلفهن وراءه فى قريتنا والقرى المجاورة. أطال الله عمرنا .

ـ متى حدث هذا ؟ وكيف مات ياشيخ كريستوفيس ؟

ـ يقولون انه أكل خنزيرين رضيعين عشية وفاته ، أثناء زفاف ابنته . ويبدو أنه أراد أن يلتهم معهما ديكا روميا محشوا ولكن شلت يده اليمنى ، وحملوه الى سريره ، ووجدوه فى الصباح جثة هامدة . ألقى ناظر المدرسة خطبة عصماء عدد فيها مناقبة . ولكننى أقسم أننى لم أفهم كلمة واحدة مما قال . وبكيت لا لشىء الا لكى أبكى مع الباكين . وبعد ذلك أخذت حفنة من التراب حثوتها فوق كرشه . وكانت هذه هى آخر قضمة يأكلها من الخنزير الرضيع . أسأل الله العلى القدير أن يكلأ كرشه بعنايته .

وما أن فرغ من كلامه حتى انطلق فى طريقه . وبعد قليل وردت فكرة الى خاطره أضحكته وصاح :

ـ سمعت يا أبانا فوتيس أن باب الفردوس ضيق جدا ، ويبدو أن البدين لا ينفذ منه . ولكن أحسب أن ثلاثتنا سينفذون منه دون جدال يحيا الفقر .

وقال القسيس فوتيس لمانولى :

ـ الأب كريستوفيس له طريقة لاذعة فى عرض الأشياء . لاذعة ولكنها صادقة فى نفس الوقت . نعم ، عسير على الغنى أن ينعم بالخلاص. لا يكفى الانسان أن يكون حلو الشمائل ، لطيف المعشر . بينما يعرف أن هناك جوعى ولا يقتسم معهم ثروته ـ قد يغمض عينيه ، وتسلبه عاداته السيئة كل مظاهر الشجاعة ... لم يبق علينا الآن الا أن نرى ميشيل ماذا هو فاعل الآن . هذا ما أنتظره لأرى .

وقال مانولى :

ـ انى واثق منه .

ـ لعل الله يسمع نداءك ، ولكننى رأيت كثيرين فى حياتى ...

وقبل أن يتم حديثه رأى الأصدقاء الثلاثة أمام الكهف . ونهض القسيس ومانولى . وقالا لميشيل :

ـ لك منا العزاء يا ميشيل . حفظ الله روحه وأطال عمرك .

وجلس الأصدقاء الخمسة ولفهم صمت طويل . وأخيرا تكلم ميشيل :

– يا أبانا ، يا اخوتى ، بكيت أبى الشيخ ، فقد كنت بعض لحمه ودمه . فجعت فى وفاته ، بيد أننى فى نفس الوقت ، وليغفر الرب لى ، أحسست أننى أصبحت طليقا ، كأنما انزاح عنى ثقل كبير كان يجثم فوقى . وبدأت أحس منذ اليوم أننى أنا ، وأنا وحدى ، المسئول عن كل أعمالى . وأمامى طريقان : طريق سلكه أبى وكان يشدنى اليه ، وطريق آخر شاق وعر يشدنى اليه المسيح ... فأى الطريقين أختار ؟ وحسمت رأيى هذا الصباح وأنا واقف أمام القبر . وأسألك يا أبانا ، وأنتم يا رفاقى ، أن تساعدونى على الوفاء به .

وصمت ، وأسند راحته الى ركبة القسيس فوتيس وكأنه يقول له « عونك » .

أمسك القسيس فوتيس بيد ميشيل ، واحتضنها بين راحتيه النحيلتين . وقال :

– نحن معك يا ولدى فى هذه الساعة العصيبة . تكلم وكن واثقا بنا .

– ورث أبى عن أبيه ، وورث هذا عن أجداده ضياعا واسعة وأشجارا كثيرة . تمتعوا جميعا بهذه الثروة ما شاء لهم ذلك . وكانوا بين الحين والآخر يلقون ببعض الفتات للمساكين ثم يموتون وهم راضون بما فعلوا لأنهم أدوا واجبهم على خير وجه ، أو هكذا كانوا يظنون . وأنا أيضا كنت أظن ذلك ... حتى أتت اللحظة الموقوتة ، والفضل فى ذلك لمانولى ولك يا أبانا فوتيس ، وكشف الرب الغشاوة عن عينى ، وأبصرت كل شيء . أنار الله قلبى ، ولهذا بت أعانى ... واتخذت قرارى اليوم : سأوزع كل ما أملكه على المساكين . لن أبقى حتى على الفتات الذى كان أجدادى يلقون به لمن يتضورون جوعا . سأقدمه كله لمجتمعكم ، الى ساراكينا ، فهل تقبل يا أبانا ؟

كان الجميع ينصتون له ورءوسهم مطرقة . ولم يرفع أحدهم رأسه بعد أن فرغ ميشيل من حديثه . ران عليهم صمت طويل وسط حلكة الليل . وفجأة تردد صوت نشيج مكتوم صادر عن القسيس فوتيس . ولم يتمالك ياناكوس نفسه . فاندفع ناحية ميشيل وضمه الى صدره بقوة وحرارة . وحاول أن يقول شيئا ولكن عجز لسانه عن الكلام ، واختنقت الكلمات فى حلقه ، واذا به يضحك ويرقص . وأخيرا استطاع أن يلفظ بضع كلمات :

ـ وأنا أيضا أهب حمارى لمجتمع ساراكينا • لا أملك شيئا غيره من حطام الدنيا • فخذه يا أبانا •

ونهض القسيس فوتيس ، ووضع راحتيه فوق رأس ميشيل المنكس •

وقال :

ـ يا بنى ، أكرهتنى الحياة على أن أتجرع الكثير من الكئوس المرة ، ولكنك أنسيتنى كل هذا ، جازاك الله يا ميشيل عن هذا خير الجزاء فى الدنيا والآخرة • انك بصنيعك هذا أنقذت آلاف الأرواح من الموت والعار • أنقذت هؤلاء اللاجئين وأطفالهم وذريتهم من بعدهم • بوركت يا ميشيل •

وأخفى مانولى رأسه بين يديه ، وانخرط فى نحيب • لم يشعر فى حياته بمثل ما يشعر به اليوم من فرحة غامرة ، حتى يوم أن خرج من بيت الأغا ورأى شجرة السنار التى سيشنق فوقها ••• فرح لأنه رأى أن كلمة الله فى النهاية هى العليا ، لها القوة والسلطان على كل طيبات الحياة الدنيا • ما أيسر على الانسان المعدم أن يضحى بهذا العدم أمام الرب ، ولكن ما أشق على الانسان الذى يملك الثروة والجاه أن يضحى بكل ما يملك • وها هو ميشيل يضحى بكل ما يملك • وأحس ما نولى بالفرحة والتأثر يغلبانه ، فظل مكانه جالسا مطرقا برأسه عاجزا عن الكلام ••• وفجأة شب واقفا وعانق ميشيل وقبله ، وانخرط فى البكاء •

وكان قسطندى ينظر ويسمع منقبض الفؤاد • وقال لنفسه :

ـ لم أقدم شيئا ، ولم أفعل شيئا ، لم أتخل عن أى شىء باسم محبة المسيح • حتى أطفالى وزوجتى ، لا شىء ، لا شىء البتة •••

وكان ميشيل يرقب فى صمت القمر الذى يلين الجبل تحت أشعته يرتقى كبد السماء ، هادئا مبتسما ، يسكب رحيقه المسكر فوق ساراكينا •

كان الليل ساجيا وديعا ذلك المساء ، والقمر يسير الهوينى متهاديا الرقراقة • وأحس بانقباضة فى قلبه ، وحدث نفسه قائلا :

ـ لست أهلا لشىء ، لا أستحق شيئا أبدا • ان ما أقدمت عليه لم يكن عن جود وسخاء ، وانما عن خوف • أخشى أن أكون أنا الذى قتلت أبى بسبب خطأ اقترفته • ثمة خطيئة كبرى تجثم على صدرى وتثير فى نفس الهلع • وهأنذا أتخلى عن كل شىء ابتغاء سكينة النفس ، حتى

أنسى وأنام ، واطرد تلك الـــكلمات المفزعة : « أنت الذى قتلته .... أنت » .

***

وفى اليـــوم التالى ذاع الخبر بين أهل القرية ، وكان لوقعه دوى القنبلة « سيتنازل ميشيل عن كل ثروته للاجئين المهلهلين ســكان جبل ساراكينا » ولم يكد الخبر يبلغ آذان القسيس جريجوريس حتى هرع الى الشارع منتعلا خفين باليين، أشعث الشعر بغير حزام حول خصره أو قبعة على رأسه . خف لملاقاة ميشيل فى بيت أبيه .

ألفى الباب مفتوحا ، فاندفع مهرولا فوق الدرج . وفاجأ ميشـــيل وهو منهمك فى الكتابة بجوار النافذة . كان يكتب الى ماريورى ، وها هو يقضى فترة طويلة مع عبارة استعصت عليه لا يدرى كيف يصوغها لها ، يود أن يقول لها انه يحبها حقا ، مولع بها ، ولكنه فى ذات الوقت مضطر الى أن يهجرها . حاول ذلك مرات عديدة ، ولكن الكلمات التى يخطها قلمه تبدو له وكأنها كلمات قاسية لا تليق . انه عاجز عن أن يصوغ عبارة واحدة تعبر فى ذات الوقت عن حلاوة الحب ومرارة الانفصال . «دائما» و «أبدا» كلمتان متمايزتان تماما ، وما يبحث عنه ميشيل هو كلمة واحدة تعبر عن هاتين الهوتين المهولتين : لوعـة الحب وجحيم الفراق فى قلـب الانسان .

فى هذه اللحظة انقض عليه القسيس جريجوريس بردائه الكهنوتى كأنه اعصار هائج .

وصاح فيه وقد تقطعت به الأنفاس :

ـ ما هذه المصيبة الجديدة التى أسمع عنها يا ميشيل ؟ يشاع أنك ستتنازل عن كل أملاكك لهؤلاء المهلهلين المعدمين الذين يسكنون جبـــل ساراكينا . انها جريمة ، هل تسمع ما أقول ؟ يا للعار .

مزق ميشيل الرسالة التى كان يكتبها . وحملق بعينيه فى القسيس الغاضب دون أن يجيب .

ـ ألا تحترم ذكرى أبيك على الأقل ؟ ألا يكفيك أنك قتلته ، وها أنت تقطعه اربا اربا وتجود به على هؤلاء الحفاة العراة الفاسقين . ألا تخشى الله ؟

ـ ولكننى يا أبانا أفعل ما أفعل لأننى أخشى الله . يقول يســـوع المسيح : « ماذا ينفعك أن تحفظ الوصايا كلها ؟ فهذا وحده لا يكفى . ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز

فى السماء وتعال اتبعنى » . وفعلت يا أبانا ما أمرنى به يسوع المسيح . فلماذا تلومنى على ذلك ؟

استبد الغضب بالقسيس جريجوريس ، وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا كأنه وحش كاسر ، ويعض أصابعه من الغيظ .

ـ لماذا لا تجيب يا أبانا ؟ ألم أفعل ما أمرنى به المسيح ؟ نعم أم لا ؟ ... نعم أم لا ؟ أجبنى .

ـ انك بأفعالك هذه تقوض أركان المجتمع . هذا كل ما أعرفه . اليك خاتم ابنتى ، هذا هو جوابى . لن أقبل هذا الزواج بعد الآن . لن يمضى وقت طويل حتى أراك هائما على وجهك فى الطرقات ، حاملا زكيبة على ظهرك تسأل الناس الصدقات .

وأجاب ميشيل فى هدوء :

ـ وما قيمة هذا كله ان كنت سأفوز بمملكة السماء ؟ ما قيمة هذه الحياة يا أبانا ؟

ـ أنت مجنون . لم تعد تعى ما تقول .

ـ لا ، بل أنا مسيحى يا أبانا ، هذا كل ما فى الأمر .

ـ سأحرمك من الكنيسة أنت ومانولى . كلاكما خائنان . نعم أنتما خائنان ، وان شئت الحقيقة ثلاثتكم ، أنتما وهذا الوغد القسيس فوتيس. نعم ، نعم ، دعك من نظراتك هذه ، فأنا أعرف سركم .

وقال ميشيل دهشا :

ـ سرنا ؟ أى سر تعنى ؟

ـ أنتم عملاء ، تتلقون أوامركم من بلد أجنبى للقضـــاء على الدين والوطن والعائلة والملكية ، العمد الأربعة التى يقوم عليها العالم . ومانولى عليه اللعنة هو قائدكم . وأتى القسيس فوتيس من الطرف الآخر للعالم لينفذ أوامر سادته ويزعم أنه يحمل انجيلا جديدا .

وقال ميشيل معترضا :

ـ كأنك تقول ان المسيح اشتراكى .

ـ أى مسيح ؟ المسيح الذى صـــنعتموه من نسج خيالكم يا قاطعوا الطريق !! ليس هذا بمسيح انه عدو المسيح .

لم يعد ميشيل قادرا على أن يمسك بزمام نفسه . هب واقفا على قدميه وقال :

ـ أنتم الذين غيرتم المسيح وصورتموه حسب هواكم أيها القساوسة

والأساقفة والأعيان • صنعتم مسيحا على شاكلة الشيخ لاداس ، مرائيا آكلا للسحت ، كذوبا ، جبانا ، مرابيا ، تمتلىء خزائنه بالجنيهات الذهبية التركية والانجليزية ••• مسيحكم جعلتم منه شريكا فى الجريمة مع كل قوى البطش على ظهر الارض ليبقى على لحمه وماله •

وزأر القسيس ، وتناثر اللعاب من فمه على الجدار :

ـ ترى هل تعلن الحرب علينا يا سيد ميشيل ؟ •

ـ أنا لا أدعو الى الحرب بل أدعو الى العدالة ، ولكن حذار ، اذا هاجمتمونا فاننا سندافع عن أنفسنا • المسيح الحق معنا نحن . هو قائدنا، وسترى ذات يوم أهل ساراكينا المهلهلين فى وضع أفضـــل منكم أنتم يا أثرياء ليكوفريسى •

ووثب القسيس ، وضرب جبهته بيده فى عنف كأنما أدرك فجأة :

ـ اذن لهذا السبب تنازلت عن أراضيك وديارك لشعب ساراكينا ، حتى يمكنهم الدخول الى ليكوفريسى ويفرضون سلطانهم علينا • لا ، لا لن يطأوا قريتنا • لن يكون ذلك أبدا • ولو أتوا سنطردهم من أرضنا • وفى هذه الأثناء لن تجد حقولك وبساتينك وأشجار الزيتون من يحرثها أو يسقيها • سيكون مصيرها الجدب والخراب • انى أرفع يدى واقسم : سأقف على المنبر يوم الأحد القادم وأعلن قرار الحرمان ضدكم جميعا أيها المرتدون •

وبعد أن أقسم وتوعد اتخذ سبيله الى الخارج وصفق الباب وراءه •

وأطل ميشيل من النافذة يشيعه بنظراته وهو يجتاز الفناء ، يجرجر نعليه الباليين • وملأ الهواء رداءه فانتفخ حتى ارتطمت أطرافه بقوائم باب الفناء• وغاب القسيس عن ناظريه عند منعرج الطريق • ولم يعد يسمع ميشيل غير نباح الكلاب التى فزعت منه حين مر بها •

وعاد ميشيل الى حيث كان يجلس بجوار النافذة ، وبدأ من جديد يسطر رسالته الى ماريورى • فاضت الكلمات فى خاطره هذه المرة كأنها تفيض من نبع ، وقص عليها كيف أن أباها تركه توا ، ثائرا مهتاجا ، بعد أن علم أنه سار حسب تعاليم المسيح ، اذ تقاسم أملاكه مع المساكين ، ولذلك رد اليه خاتم الخطبة •

ثم بدأ يحدثها عن مدى حبه وولهه بها ، وكيف تملأ عليه فكره وقلبه ليل نهار ، وأن الحماة يدونها طريق حزين قاس • وبينما كان يبثها حبه فى رسالته ، أحس أن هذا الحب ينمو ويكبر مع كلامه ، ويملأ قلبه بدفء لا نظير له •• بدا وكأن كل كلمة حب يخطها ليواسى بها ماريورى تخلق معها العاطفة التى لم تكن تجد التعبير عنها من قبل ••• وفى النهاية رأى

الحياة بدون ماريورى استشهادا يفوق طاقة البشر .... وفاض الدمع من عينيه .

وتمتم قائلا :

ـ لم أكن أعرف انني أحبهـــا الى هذا الحد ، أبدا لم أكن أعرف ذلك ...

وفي هذه الأثناء كان القسيس جريجوريس فى طريقه يبحث عن أخيه ناظر المدرسة ثم الشيخ لاداس وغيرهما من أعيان القرية وكبار ملاكها . وبعد أن أوضح لهم القضية ، اتفقوا معه على أن الخطر الذى يحدق بالقرية خطر داهم ، وهذا يقتضى تكاتف كل القوى المخلصة لتضرب بقوة أعداء المسيح على أم رأسهم وبأسرع ما يمكن قبل أن يستشرى الشر ويلوث كل القرية . وكان ناظر المدرسة هو الوحيد من بين الحضور الذى قدم بعض الاعتراضات التى تتسم بالخنوع . ولم يكد أخوه يرفع عقيرته حتى انكمش وتوارى سريعا داخل قوقعته .

اتفق الحضور على أنه اذا ما آلت أملاك بطرياركاس الى شـــعب ساراكينا فلا بد من طردهم عنوة ، وأن القسيس جريجوريس سيعلن قرار الحرمان من الكنيسة يوم الأحد بعد القداس . واتفقوا على أن يكون قرار الحرمان قاصرا بادىء ذى بدء على مانولى زعيمهم . واذا لم ترعو عصابة حملة القمل فسيأتى دور شركائهم ميشيل وياناكوس وقسطندى والآخرين . وتحدث القسيس جريجوريس بصوت كهـــزيم الرعـــد . قال « لا بد أن نستأصل شأفة كل عوامل الفســـاد فى قريتنا ولا نبقى الا على البذرة الطيبة » .

وهرول مسرعا يكتب لابنته ويحيطها علما بالأفعال الكريمةالتى قام بها خطيبها الغر ، وأن من الخير لها أن تطرده من قلبها . وأكد لها أنه قادر على أن يأتيها بزوج أكثر منه اتزانا وتقوى بعد أن تعود ، باذن الله ، الى القرية وقد استردت صحتها . والحق يجب أن نشكر السماء على أن ميشيل ألقى بالقناع وكشف عن وجهه قبل أن يتم الزفاف وعرفنا أنه أفاق . ثم أرسل بعد ذلك فى طلب باناريوتى وقال له :

ـ افتح عينيك يابانايوتى . اذهب الى ساراكينا بين الحين والآخر ، وارقب ما يحدث هناك ، وحاول أن تعرف ما يفعلون وما يقولون ، وأحطنا علما بكل هذا . عدونا واحد يابانايوتي ، وحيث أنك انسان قوى الشكيمة فاننا قد نحتاج اليك دائما .

وأجاب بانايوتي :

ـ انني أشمئز منكم جميعا ، ولكنني أشمئز أكثر من هذا الخنزير مانولى والشمامسة الذين يلحقون بذيله ، يحاولون أن يظهروا لنا فى ثوب المسيح والرسل • لهذا السبب وحده أضع جهدى فى خدمتك • وليس معنى ذلك أننى لا أشمئز منك أيضا :

ومد له القسيس يده ليقبلها ، ولكن بانايوتي أدار له ظهره ، واتجه ناحية الباب •

وقال أثناء خروجه :

ـ لم يسبق لى أن قبلت أيدى قذرة أو أطرافا دنسة •

★ ★ ★

وفى صباح يوم الأحد بكر أهل القرية جميعا ، رجالا ونساء ، فى الذهاب الى الكنيسة • البعض استبد به الضيق ، والبعض الآخر لا يخفى فرحته • ولم يتخلف أحد عن الحضور حتى المرضى والصبية فقد حضروا جميعا ليشهدوا المصير الذى ينتظر كل من ينكر المسيح ، فيكون ذلك عبرة لهم فى مقبل حياتهم •

كانت الكنيسة تطن كخلية نحل هاجمها زنبور • ووقف الشيخ لاداس فى مقصورة الأعيان منتفخ الأوداج • وقد شاء أن يحتفى بهذا اليوم المهيب فانتعل حذاءه الذى اشتراه من المدينة يوم أن كان يستعد للزواج ، ولا يلبسه غير مرة واحدة كل عام ، يوم عيد القيامة • وضاق عليه الحذاء حتى بات يؤذى قدميه مما اضطره الى أن يحجل ويمشى مشية الغراب • لذلك كان يحمل حذاءه فى يده بعد أن يترك بيته ، ولا ينتعله الا عند باب الكنيسة ، ثم يخلعه ثانية بعد القداس ويمسكه بقوة تحت ابطه كأنه كنز ثمين يخاف عليه ، ويذهب الى بيته •

ورأى الناس بانايوتي يقترب من الكنيسة التى لم يدخلها منذ شهور طويلة • كان وجهه المجدور منبسط الأسارير ، وقد وضع سيجارة خلف أذنه ليدخنها بعد صدور قرار الحرمان تعبيرا عن سروره وفرحته •

ووصلت الأم ماندالينيا ، متشحة بالسواد ثائرة • أتت لتشهد سقوط ابن أخيها عدو المسيح والذى جلب العار لبيتها الكريم • لقد تنبأت بذلك وقالت « هذا الولد سيلحق اللعنة بنفسه ، بسبب قراءاته الكثيرة » • وها هى الآن منشرحة الصدر اذ صدقت نبوءتها ، وها هو يخرج من الكنيسة مطرودا ليلقى به فى الجحيم •

وأقبل ميشيل شاحبا حزينا ، مرتديا ملابس الحداد · لم يرقأ له جفن ليالى طويلة ، واذا أغفى تراءى له طيف أبيه مع مطلع الفجر ، يحدجه بنظراته ، ويهز رأسه كأنه يلعنه · اصطحب ميشيل صديقيه ياناكوس وقسطندى ، وفى اثرهما أندونيس الحلاق وديمترى الجزار ·

وأسر ديمترى الى صديقه الحلاق بكلمات :

ـ سأذبح شاة وأحملها الى أهل ساراكينا لنحتفل هناك بقرار الحرمان · تعال معى لتأكل نصيبك ·

وأعلن الحلاق ·

ـ أما أنا فسوف أذهب الى هناك لأشذب لحية مانولى وأعطره بأجود أنواع ماء اللافندر · ها هى عدتى والزجاجة فى جيبى ·

واتخذ ناظر المدرسة مجلسه بجانب الكورس ليرتل الترانيم · كان متجهما كما هى عادته فى أيامه السيئة · فهو غير راض عن هذا الحفل غير الانسانى · ففى رأيه أنه اجراء ظالم ـ الدافع اليه ضغينة شخصية ، ومصالح دنيئة ، ولكنه لا يجرؤ على أن يرفع صوته معترضا · فقد كان منذ نعومة أظفاره يخاف أخاه الأكبر القسيس جريجوريس الذى اعتاد أن يضربه بقسوة أثناء اللعب وهما فى ميعة الصبا · ولم يتمكن من التغلب على هذا الخوف حتى بعد أن أصبح رجلا أعزب ناهز الستين من عمره ·

ظهر القسيس جريجوريس ثائرا مهتاجا بلحيته البيضاء التى تحاكى لحية الرسل والأنبياء · فرغ من القداس سريعا ، اذ كان متعجلا ، وكذلك كان أهل القرية · ثم اعتلى المنبر ، فاشرأبت الأعناق وشخصت اليه الأبصار فى وجل · ودق جرس الكنيسة دقات الحداد ، فها هى ذى نفس قد هلكت ·

أطل القسيس من عليائه على قطيعه ، وجال ببصره بينهم ، وعبس وبسر ، وأغلظ من صوته : وتحدث بصوت كهزيم الرعد دوى تحت قبة الكنيسة :

ـ اخوانى المسيحيين · الكنيسة حظيرة، خرافها المؤمنون الصديقون، والمسيح راعيها · والقسيس هو ممثل يسوع المسيح على الأرض · واذا أصاب شاة مرض معدى فان الراعى يخرجها من حظيرته وقاية لغيرها من العدوى ، ويلقى بها بعيدا فى هوة سحيقة فريسة للموت · يشق على نفس القسيس أن يرى نفسا ملوثة ، بيد أن واجبه يملى عليه أن يكون عنيدا فى غير رحمة ابتغاء خلاص الأرواح السليمة النقية ·

وثمة شاة جرباء تضمها حظيرتنا المسيحية • أعنى بها أيها الاخوة المسيحيون المدعو مانولى • لقد تمرد على المسيح ، ويقضى واجبنا أن نوجه له ضربة قاصمة فى الصميم • ثار ضد وطننا ، وضد الأسرة والملكية • أعلن لواء الثورة ، لواء أحمر ليغرقنا جميعا فى بحر من الدماء • انه يتلقى أوامره من بلد أجنبى • يتهدد عقيدتنا ووطننا وشرفنا خطر داهم ، ويقتضينا الواجب أن نحرمه من الكنيسة • ومعنى هذا أن نعزله عن الماشية السليمة ، ونلقى به بعيدا الى هاوية الشيطان ، حتى يهلك هو ونضمن الخلاص لنا جميعا • وانى أنزل من فوق المنبر لأطرده بعيدا •

ونزل من فوق المنبر ، وهرع الشماس اليه حاملا كأس القداس ، به ماء مقدس • غمس القسيس مرشة الماء المقدس ، ورش الماء فى الهواء، وأعلن بصوت كأنه قصف الرعد :

– اخرج من هنا ، اخرج من هنا محروما •

وتقدم خطوة الى الأمام ورش الماء فى الهواء من جديد وهو يصيح :

– اخرج من هنا ، اخرج من هنا محروما •

وطفق يردد كلماته هذه وهو يتنقل بين أرجاء الكنيسة ، وكأن مانولى يملأ عليه الهواء ، خافيا عن الأعين ، وملاك الرب يتقدم القسيس ليطرده بعيدا • وظل ينثر الماء فى الهواء دون كلل حتى بلغ باب الكنيسة• وتفرق القرويون بعيدا فى فزع كأنهم يخشون أن تمسهم الروح الملعونة التى تتراجع أمام القسيس خطوة فخطوة حتى تخرج من باب الكنيسة •

وما أن بلغ القسيس عتبة الكنيسة حتى لوح بالمرشة فى قوة ، ونثر بعض ما بقى فيها من ماء فى الهواء ، ثم استدار ناحية أهل القرية وقال :

– صيحوا أيها الاخوة المسيحيون ، صيحوا معا بأعلى صوتكم « مانولى محروم من الكنيسة » •

وتعالت صيحات عالية اهتزت لها الكنيسة • ورفع كل الحاضرين أيديهم وصاحوا ثلاثا :

« مانولى محروم من الكنيسة » •

ولوح القسيس بالمرشة لينثر الماء المقدس للمرة الأخيرة وصاح من جديد :

– اخرج من هنا ، اخرج من هنا محروما •

وأغلق الباب بعنف • وتنفس الحاضرون الصعداء ، كأن الشيطان قد انصرف عنهم وتطهر الهواء •

وتوسط القسيس الكنيسة وقال :

ـ أيها الاخوة المسيحيون ، من الآن فصاعدا لا يقترب أحدكم منه ، لا يمدن أحدكم اليه يدا ليعطيه كسرة خبز أو كأس نبيذ • لا يفتح أحدكم فمه بتحية له • كل من يقع بصره منكم عليه يبصق على الأرض ثلاث مرات، ويوليه ظهره • لقد أنكر المسيح ، ولذلك ينكره المسيح • أنكر الدين والوطن والأسرة والملكية • وهذه كلها تنكره بدورها • ليكن مثواه نار جهنم خالدا فيها أبدا • آمين •

وصاح الجميع فى حقد وكراهية وارتياح :

ـ آمين

ودمدم صوت بانايوتى حتى فاق صوت الجميع « آمين » .

وفى هذه اللحظة رن صوت هادىء وسط الكنيسة :

ـ يا أبانا ، مانولى ليس وحده ، فأنا معه . أريد ان احرم معه من الكنيسة ـ انا ميشيل بطرياركاس .

وارتفع على الفور صوت آخر فى غضب :

ـ وأنا ياناكوس البائع الطواف وساعى البريد أعلن أننى معه أيضا •

ـ وانا قسطندى صاحب المقهى .. انا أيضا معه .

وسرت هزة بين صفوف الجمع . وابتعد أهل القرية جانبا ، واصبح الأصدقاء الثلاث وحدهم وسط صحن الكنيسة .

وجأر صوت التسميس جريجوريس :

ـ سيأتى دوركم يا رسل الشيطان ، انتظروا ولكن كنيسة المسيح بدافع من الحلم والرأفة تمهلكم علكم تتوبون وتندمون • ان صاعقة المسيح معلقة فوق رءوس الناس تنتظر فى قلق • وأنا أفوض أمركم الى الله ان شاء يغفر لكم ويشملكم بعنايته .

وصاح ياناكوس :

ـ سيحكم الله بيننا يا أبانا ، وهو خير الحاكمين • فهو وحده سبحانه من نثق به دونك أنت • وتطاير الشرر من عينى القسيس وزأر :

ـ لقد قضى الله بيننا ، واصدر حكمه على لسانى . انا قسيس ليكوفريسى • أنا لسان الرب • ورد عليه ميشيل :

ـ القلب الطاهر هو وحده صوت الرب • وقلبنا طاهر يا أبانا •

ثم توجه بالحديث الى رفيقيه :

ـ هيا بنا يا اخوتى . لننفض تراب ليكوفريسى عن أقدامنا . وداعا يا أهل ليكوفريس .

ولم يجب عليه أحد . ورسمت النسوة علامة الصليب فى فزع ، وبصقن فى صدورهن ، وهن يتمتمن :

كيريالايسون ، كيريالايسون .

وعاود ميشيل الكلام :

ـ وداعا يا أهل ليكوفريس . مسيحنا فقير مضطهد ، يطرق الأبواب فلا يفتح له أحد . أما مسيحكم فغنى من الأعيان ، يعيش على وفاق مع الأغا وينعم بالحياة الرغدة . يغلق بابه عليه بالمتاريس حتى يأكل طعامه بعيدا عن أعين الناس ، ولا يلقى لأحدهم بالفتات . مسيحكم أكول مبطان ، ويعلن رغم ذلك على الملأ : هذا العالم يسوده العدل والأمانة والمحبة ، وهو خير العوالم قاطبة . ليكن الحرمان نصيب كل من يحرك اصبعه ليهز أركانه ، « ومسيحنا فقير ، ينظر الى الأجساد التى أسقمها الجوع ، والأرواح التى أضناها الخوف ، ويصيح بأعلى صوته : » هذا العالم يسوده الظلم والجور والخيانة ، أولى به أن يهلك ويبيد .

ورفع القسيس جريجوريس رداءه الكهنوتى واندفع نحوهم مهرولا وهو يزأر :

ـ أيها المارقون أخرجوا من بيت الرب .

وهاج أهل القرية وماجوا ، وقفز الأب لاداس من المقصورة ، ولوح بانايوتى بقبضته . وتعالت صيحات الغضب :

ـ اخرجوا من هنا ، اخرجوا :

وقفز ياناكوس الى الأمام ليضرب كل من يعترض طريقه ، ولكن ميشيل امسك بذراعه وقال :

ـ هيا بنا ، وليحكم الله بيننا وهو أعدل الحاكمين .

ورسم علامة الصليب فوق عتبة الكنيسة ، ثم خرج . وسار من ورائه ياناكوس وقسطندى ، انسلا خفية وسط الحشد ، ومن ورائهما بمسافة غير بعيدة اندونيس الحلاق وديمترى الجزار .

وفجأة دوت صيحة قوية خلفهم :

ـ هل ستهجرنا ياقسطندى ؟ هل ستهجر زوجتك وأطفالك وتحرم من الكنيسة ؟

واستدار قسطندى ، فأبصر زوجته تجرى نحوه والهواء يطوح بشعرها . وتوقف لحظة مترددا . ولكن ياناكوس امسك به وشده بقوة :

ـ هيا بنا ، لا تنظر الى الوراء .

***



مناوشات أولية

عاد القسيس جريجوريس الى بيته مغيظا حانقا تضطرم نار الغضب فيه من راسه حتى أخمص القدمين كأنما مست يده لساعته الصاعقة التى كان يلوح بها متوعدا .

كان يحدث نفسه : « ينبغى أن تكون لكلمة القسيس سطوتها وقوتها ، أن تبيد وتقتل ان شاءت . فاذا ما قال القسيس لأحد : عليك اللعنة فلا بد وأن يسقط الملعون لساعته ميتا . وبذلك يتخلص العالم من كل أعداء الرب ، ويسود السلام والعدالة .

ودار بمخيلته موكب من البشر يضم كل من يود أن يرديهم قتلى ان استطاع الى ذلك سبيلا . اولهم مانولى ، وهو اخطرهم ، لا لشىء الا لأنه لا يوجد ما يؤخذ عليه ، يعيش بلا خطيئة .. لا يسرق ، ولا يكذب ولا يزنى ولا يحلف .. لذا يجب أن يكون أولهم . ويأتى بعده مباشرة ، ان لم يكن معه في آن واحد ، هذا الوغد المدعو بالقسيس فوتيس . انه يكرهه ، يود لو استطاع أن يفقأ عينيه حتى يشفى غليله . كل شىء فيه يثير حنقه وغضبه . طلعته الرهبانية الناسكة ، وعيناه اللتان تتأججان نارا ، وصوته العميق . بل وقبل كل هذا أنه مقل فى طعامه ، لا يذوق الخمر ، وليست له سقطات تؤخذ عليه ، ويتمتع بحب شعبه له كله عن بكرة أبيه . آه لو استطاع أن يلقى به فوق الرغام ويجبره على أن يعض الارض بأسنانه ، ويمزق لحيته ، ويجدع أنفه . وكلما فكر فيه

القسيس جريجوريس وأطال التفكير كلما ازدادت ثورته اشتعالا . حتى أنه لم يعد يدرى على وجه الدقة أيهما ـ مانولى ام القسيس فوتيس ـ ينبغى أن يقطع دابره أولا وقبل غيره .

ويأتى بعدهما دور ياناكوس وقسطندى ليجهز عليهما . فقد اختار كل منهما لنفسه طريق السوء ، ويضربان مثلا سيئا لأهل القرية ومن الخير أن نقضى عليهما . وماذا عن ميشيل ؟ وهنا صمت لحظة يتفكر . وتمتم « لننتظر الى حين ، ولنمهله قليلا .. » أما عن الأب لاداس فهذا ممكن دون ريب . يجب قتله . لا لأنه شحيح أثيم ، ألقى بمئات اليتامى الى قارعة الطريق ، ولكن لأنه دعاه ذات يوم فى السجن بصاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس .

هؤلاء الخمسة هم الوجبة الأولى . وبعدهم . يوما بعد يوم . سيودى بكل من يعارضه . وثمة حساب قديم يود أن يسويه مع بعض المطارنة فى المدينة بل ومع الأسقف ذاته . لا بد وأن يستأصلهم جميعا ... ويستأصل معهم بعض الرعاع الذين سخروا منه وآذوه ببعض حيلهم وقت أن كان طالبا .. هذا ان كان منهم من لا يزال على قيد الحياة .

وتنهد القسيس جريجوريس وهو يردد بينه وبين نفسه : « نعم ، ينبغى أن يكون للقسيس سلطاته وسطوته » .

وبعد أن تفرق أهل القرية ذهب بعضهم الى الميدان ، ولبث البعض الآخر فى فناء الكنيسة . وانطلقت الألسن فى حماسة وانفعال تحكى وتناقش ماحدث . امتلأت حياة أهل القرية بالأحداث وأصبحت ذات معنى : رأوا المشانق ، وموت مشاهير الأعيان ، ومقتل غلام تركى ، ورقبة أرملة تنحر ، وهاهم اليوم يشهدون بأعينهم حرمانا كنسيا . واشعل باناليوتى سيجارته ، وجلس تحت شجرة السنار يدخنها وينفث الدخان فى متعة وتلذذ . ويقول لنفسه : « كل شىء يسير على خير وجه . انها مناورة موفقة تؤتى ثمارها . نعم سأقطع دابرهم جميعا . المسيح والرسل ، وليتلقفهم الشيطان جميعا . وجذب الأنفاس الاخيرة فى لذة غامرة ، ثم نفث الدخان من منخاريه ، وبصق على الارض ، ونهض ليتخذ طريقه الى ساراكينا يتجسس على أهلها ويرى ما يحدث هناك .

اتخذ لنفسه طريقا لا يعرفه سواه . ومر فى طريقه بشيخ من اهل ساراكينا يجمع الحطب وبعض فروع الشجر ليستخدموها وقودا لهم . وقال له باناليوتى :

ـ صباح الخير أيها الشيخ ، كيف حال الدنيا معكم ؟

ـ بخير يابني . ألا تعرف اخبارنا ؟ أظن أننا حصلنا على بعض الحقول وبساتين الكرم عطاء وكرما تقينا الموت جوعا نحن الفقراء التعساء . نحمد الله على ذلك . وغدا سننزل الى ليكوفريسى لنقطف الكرم .

ـ تقصد يا جدى أن بعض رجالكم سيذهبون غدا لقطاف العنب ؟

ـ يقينا ، عندنا بعض الصبية والبنات القادرين على العمل . ستجدون الفرصة سانحة غدا لتمتعوا أنظاركم بهم اعجابا بعملهم .

وواصل بانايوتى طريقه . وقال لنفسه « انى سعيد الحظ باكتشافى هذا ، سأقصد القسيس العجوز لأنبئه بالخبر .

ووصل الى صخرة اتخذ منها برج مراقبة سرية . اذ يستطيع أن يرقب من ورائها كل مايدور بين الكهوف . وانبطح على الارض ليرقب الأحداث عن كثب .

***

لا بد وأن القسيس فوتيس قد فرغ من القداس ، فثمة حشد من الشيوخ وعجائز النساء وبعض الاطفال تجمعوا أمام الكهف الذى اتخذوه كنيسة لهم . وها هو ذا القسيس فوتيس ومانولى يتحدثان اليهم . وأرهف بانايوتى السمع . تناهت الى سمعه كلمات متفرقات بين الحين والحين ، ولكنها غامضة مبهمة . حاول أن يجمع هذه الشذرات المهوشة من الألفاظ مع بعضها البعض عسى أن يخرج منها بشيء : وادرك منها أن مانولى كان يتحدث اليهم قائلا : ان من حرمنى من الكنيسة هو القسيس جريجوريس وليس الرب الهنا ، وشتان بين الاثنين .

وأبصر بالقرب منهم نارا موقدة . ورأى ديمترى جاثيا على ركبتيه أمامها يشوى شاة على السفود ، بينما وقف الى جوار، ياناكوس ممسكا بسكين فى يده يغرسها فى اللحم بين حين وآخر ليتبين ان كانت قد نضجت أم لا . كانا يتبادلان حديثا يضحكهما . ووقف أندونيس على بعد خطوات منهما يصبن لحية شيخ ليحلقها له . وهرع الأطفال اليه ليأخذ كل منهم دوره ويقصوا شعورهم . وها هم يقضون وقتهم في اللعب حوله الى أن يحين دور كل منهم . وأقبل قسطندي يحمل بعض الماء ، ويعاونه فى ذلك بعض النسوة العجائز .

وقال بانايوتي بصوت كأنه الخوار :

ــ اقسم بشرفى انهم يقضون هنا وقتا ممتعا . ليس ثمة ما ينغص عليهم حياتهم .. تعال ياقسيس جريجوريس الى هنا وانظر ماذا يحدث ــ لترى ما سميته بالصاعقة !!! هل هذه هى جهنم التى تحدثت عنها ؟ ليأخذك الشيطان !

وزحف على بطنه ليقترب منهم قليلا . واشرأب بعنقه ليطل من فوق الصخرة . وتساءل فى نفسه :

ــ هه .. واين ميشيل . انى لا أراه بينهم . لا بد وانه أنتحى مكانا يندب فيه حظه هذا السفيه . فالحياة معه تسير من سيىء الى اسوأ : فقد أباه ، ذلك الخنزير النبيل ، وبدد هذا المجنون ثروته ، والقى القسيس بخاتم الزواج فى وجهه .. وها هو الآن وقد اصبح يتيما فقيرا أرمل .

وترامت الى سمعه صيحات وضحكات . يبدو أن أحد اللاجئين حصل على ماندولين وبدأ يعزف عليه . ورفع ياناكوس وديمترى الشاة بعيدا عن النار ، ووضعاها فوق الحجارة . وهرع حشد الجوعى من اهالى ساراكينا واحاطوا بالشواء . وبدأ بعضهم يدق على الآنية القديمة ويرقصون طربا . واقترب القسيس فوتيس بدوره ، ورسم الصليب ، وبارك الشاة ، وأنهمك فى تقطيعها شرائح صغيرة ، ثم وزعها عليهم ، كأنها قربان مقدس . وجلس الجميع على الأرض ، وتعالت الضحكات، وصدح الماندولين . وفجأة وقف مانولى ينظر حوله فى قلق . ونادى :

ــ ميشيل .. ميشيل ..

ولكن عبثا ، فلم يجد لندائه صدى .

كان القسيس فوتيس يحرك ذراعيه على امتدادهما . كان فرحا جذلان ، ويتحدث بصوت عال . وسمع بانايوتى كلامه بوضوح .

كان يقول : يا اولادى نحن نعيش يوما مباركا . كل ما تنبأ به المسيح لتلاميذه ينزل علينا اليوم سلاما وبركة . قال المسيح : « طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . افرحوا وتهللوا . لأن أجركم عظيم فى السموات . فانهم هكذا طردوا الأنبياء من قبلكم » . تلك هى كلمات المسيح يا أطفالى وها أنتم ترون اليوم : الناس يوجهون الينا السباب ، يعيروننا ويطردوننا ، لا لشىء الا لأننا نحب المسيح . وهاهو رفيقنا مانولى حرمه القسيس الأكول المبطان من الكنيسة صباح اليوم . ولكننا نحمد الله على أننا نسلك الطريق السوى . المسيح يسير أمامنا ونحن فى اثره . افرحوا وتهللوا ياأطفالى . المسيح قام .

وملأ القسيس كوبا خزفيا بالماء وشربه دفعة واحدة .

وخار بانايوتى :

ـ حقا هؤلاء ليسوا بشرا ، انهم وحوش كاسرة . دقت الأجراس لحن الحداد ، وصدر قرار حرمانهم ، وطردوا من الكنيسة .. وها هم الآن غارقون فى الضحك ويسخرون من هذا كله .. من أين لهم بهذه النشوة ؟ أقسم بدينى ؟ انهم ممسوسون . حقت على اللعنة ان كنت أفهم شيئاً !

وأشراب بعنقه ليستمع الى الحديث بوضوح اكثر . وفجاة شعر بيد تطبق على رقبته كالكماشة . وهز نفسه فى خوف وثورة . ورأى ميشيل ينحنى فوقه ويحدجه بنظرة قوية وعلى وجهه ابتسامة .

وسأله فى رقة :

ـ ماذا تفعل هنا يابانايوتى ؟ هل تراقب ما يحدث ؟ لماذا لا تأتى معنا وتشاركنا طعامنا ؟ هيا تعال معى ..

وامسك بذراعه وجذبه فى حنان .

ولكن بانايوتى تكور حول نفسه كالقنفذ . وصاح :

ـ لا ، لن آتى معك . لا أريد شيئا من طعامكم . لا ارغب في مرافقة احد منكم أيها المرتد . دعنى وحدى .

ـ الا تخجل يابانايوتى ؟ رجل طيب مثلك يتصف بالصراحة والامانة ـ ثم تعمل لحساب الأوغاد والطفيليين ؟ ترى هل هم الذين ارسلوك الى هنا للتجسس ؟

ـ أنا لا أعمل لحساب أحد . أنا وحدى ياميشيل ، أعيش وحدى داخل جلدى وجثتى هذه كما يعيش الذئب ، الا تدرك هذا ؟ انى ضيق الصدر من الناس جميعا ـ منك ومن الآخرين . اهدأ ولا تتحدث الى فانى أعض .

وجلس ميشيل الى جواره وقال له :

ـ ماذا دهاك أيها التعس بانايوتى ؟ تغيرت تماما منذ بضعة شهور وأصبحت انسانا آخر غير ما كنت . حقا كنت دائما فظا ، ولكنك لم تكن شريرا أبدا . هل ثمة من أساء اليك يابانايوتى ؟ من هو ؟ ماذا دهاك ؟ .

ـ ثمة أحداث كثيرة ، ليأخذنى الشيطان . أشياء كثيرة حدثت لى وانت تعرف كل شىء . اذن لماذا تسألنى ؟ أنت تعرف كل شىء .

وسأله ميشيل فى خجل :

ـ هل هـذا لأنهم أختـــاروك لتمثل دور يهوذا ؟ ولكنها تمثيلية فقط يا أخى ، تمثيلية مقدسة ، انها مجرد تمثيل وليست من الحقيقة فى شيء .. هل مانولى سيصبح المسيح حقا ويظل كذلك الى الأبد ؟ هل أنا حقا يوحنا ، تلميذه المفضل ؟ كيف واتتك مثـل هذه الفكرة ؟ انها خطيئة ترتكبها . المسألة ببساطة لأن لك لحية حمراء ..

وصاح بانايوتى فى هياج :

ـ سأحلقها .. سأحلقها هذه القذرة .

وانفجر ميشيل ضاحكا وقال

ـ هيا تعال معى ، فالحلاق معنا هنا .. تعال سأحلقها انا لك ، وسوف يهدىء هذا من روعك .

ـ سأشعل فيها النار بنفسى . سأشعل فيها النار واقذف بها الى الشيطان .

قال بانايوتى هذا ثم وثب كأنما اتخذ قرارا حاسما .

ـ هنا ، سأفعل ذلك فورا .

عاد ميشيل يتوسل اليه من جديد بصوت حنون :

ـ تعال معنا ، تعال ، وسترى بعينيك كيف سيحتفى بك الناس ويستقبلونك بالأحضان . لا ينقصنا سواك حتى تكمل سعادتنا .

ولـكن بانايوتى هرب من أمامه وتوارى وراء الصــــخرة ثم اتخذ طريقة نازلا الى القرية . والتفت وراءه لحظة فرأى ميشيل يرقبه فوق الربوة حزينا .

وصاح بانايوتى :

ـ الى الشيطان جميعا . انتم والآخرين .

واشار بيده الضخمة الى ساراكينا من ناحية ، والى ليكوفريسى من ناحية أخرى .

***

نام ميشـــيل فى تلك الليلة فى نفس الـــكهف الذى يأوى اليه مانولى . أحضر من بيت أبيه كل ما يستطيع من حشايا وملابس ووزعها على المعدمين حتى أنه لم يبق شيئا لنفسه ، ثم أعلن للقسيس فوتيس ؟

ـ يا أبانا ، من اليوم فصاعدا ، سأترك ليكوفريسى وألوذ بالمكان الذى يظلك . سأعمل معــكم ابدا . وسوف أناضل معكم ، اشاركـكم الهزيمة والانتصار . لم أعد أطيق هواء السهل .

وأجاب عليه القسيس :

ـ نرحب بك جنديا فى جيشنا يا بنى • سنتسلق الجبل معا ، وسوف نجد الرب فى قمته • اعتدت الحياة الرغدة بيد أنك تضم بين جوانحك روحا مقدامة وقلبا كبيرا وسوف تكون أفضل رجالنا فى المعركة• فمرحبا بك •

وقال مانولى :

ـ تعال ياميشيل تشاركنى قصرى ، وهو الكهف القائم بجوار الكنيسة • ستجد هناك أيقونة الصلب التى أهديتها لى ، الأيقونة التى تحوم فيها عصافير الجنة .

وحمل ميشيل أمتعته وانجيله المفضض الكبير ، وقصد الكهف• ونام ليلته هناك . ورأى حلما أفزعه . رأى ماريورى سجينة داخل برج شاهق الارتفاع ، يحرسها كلبان أسودان كبيران يمنعانها من الهرب • وكان ميشيل واقفا أسفل البرج يغنيها احدى أغانيه ، لتطل عليه اذا ما سمعت صوته • وفجأة رأى أبواب البرج الحديدية تفتح وخرجت ماريورى مرتدية ثوبا فى لون اللازورد يجرجر ذيله على الأرض • وكانت تتحلى بثلاث زهور • زهرة فوق مكان القلب، وأخرى عند خصرها والثالثة عند ركبتها • ورأى الكلبين الأسودين يعدوان فى صمت وقد تدلى لسانهما ، أحدهما أمامها والآخر خلفها ، وكانت ماريورى تمسك بمنديلها الصغير الأبيض تمسح به فمها • ورأى عند قاعدة البرج زورقا ضيقا يشبه التابوت • واستحالت الارض من حولها الى بحر • ركبت ماريورى الزورق وانطلق بها . وما أن بدأت مسيرتها بالزورق ، حتى استدارت لتلقى اليه نظرة مودعة • ولوحت له بمنديلها الصغير الذى خضبته بقع الدماء الحمراء • وصرخ ميشيل صرخة صاكة أستيقظ بعدها من نومه فزعا•

أيقظت الصرخة مانولى ، فسأل ميشيل :

ـ ماذا بك يا ميشيل ؟

ـ رأيت كابوسا يامانولى ، رأيت كلابا سوداء وزورقا ركبته ماريورى وانطلق بها بعيدا .

وارتعد مانولى . ولكن لم ينبس ببنت شفة اذ سمع صوت أجنحة رئيس الملائكة ميخائيل ترف فى الهواء •

وانسل ضوء واه ضعيف الى داخل الكهف ليربت على وجهيهما ويهدهد الانجيل الكبير الذى وضع فى كوة داخل صخرة •

وهب مانولى من نومه وقال :

ـ لدينا أعمال كثيرة اليوم • أبلغنا ما يقرب من عشرين فتى من رفاقنا ممن يعملون فى القرى المجاورة لكى يستعدوا للنزول الى

ليكوفريسى لحصاد بساتين الكرم التى تنازلت عنها ياميشيل لجماعتنا. بارك الله فيك يا عزيزى ميشيل . انقذت أرواحا كثيرة .

ـ لم يكلفنى شيئا أن أجود بما أملك . ولذلك لا أظن ان هـذا يكفى لخلاص نفسى يامانولى . التضحية هى العمل الذى يكلف ، وأنا لم أضح بعد . كانت تضحية كبرى من ياناكوس حين قدم حماره .

تأمل مانولى كلام صديقه لحظة . ثم قال :

ـ أعتقد أنك على حق ياميشيل .

وصل أمام الكهف ما يقرب من عشرين رجلا وامرأة ، وقد انخرطوا فى الحديث . وعندما راوا ميشيل يخرج من الكهف هرعوا اليه يشدون على يديه .

قالوا له :

ـ أصبحنا بفضلك نملك أرضا من جديد ، نحن الشعب المسكين المعدم . نسأل الرب أن يقدس روح أبيك .

وفى لمح البصر تراءى له وجه أبيه متوردا بدينا مغرورق العينين بالدموع ، وحدجه بنظرة فيها تأنيب . وتحركت شفتاه الملتويتان حركات فهم منها أنه يقول له : لماذا قتلتنى ؟ لماذا ؟ ولكنه أشفق عليه وتوارى عن ناظريه .

واطرق ميشيل براسه وقال :

ـ فعلت ذلك حتى يتغمد الله روح أبى برحمته .. أسأل الله أن يستجيب لدعائى ..

ثم أردف قائلا بعد لحظة من التردد :

ـ كانت هذه هى آخر وصاياه . هو الذى أوصانى ان أوزع كل املاكه على الفقراء .

واستدار مانولى ونظر الى صديقه ، ثم دنا منه وأمسك بيديه . وهز ميشيل راسه وادار وجهه ليخفى دموعه .

واقبل القسيس فوتيس ، وقال :

ـ يا أولادى ، ارسموا علامة الصليب ، واذهبوا على بركة الله لحصاد بساتين كرمنا . سيقودكم مانولى . ها نحن يا أطفالى فى طريقنا لنمتلك حقولا ، ونضرب بجذورنا في أعماق الأرض . ما كان حلما حتى يومنا هذا سيصبح حقيقة من الآن فصاعدا . نحن نملك الآن أرضا وأشجارا سنفلحها معا ، وستمتع بثمارها معا . ان يكون بيننا غنى

ولا فقير . سنكون أسرة واحدة متماسكة متحابة . نسأل الله أن يوفقنا لنكون مثلا يبين كيف يجب أن يعيش البشر معا فى مجتمعاتهم ، وكيف تسود العدالة الأرض . وبفضل عناية الرب والعذراء سيكون يومنا بداية موفقة . اذهب معهم يا مانولى لتدلهم على الطريق ، فأنت تعرف موقع بساتين الكرم . وسأذهب أنا مع ميشيل الى المدينة لنوثق العقود التى تؤول بمقتضاها أملاك العمدة بطرياركاس الى مجتمعنا .

رسم الرفاق علامة الصليب ، وتصدر مانولى فريقه ، وانطلقوا فى طريقهم . كانت البهجة تملأ صدورهم ، وبدأوا يغنون أغانى قطاف العنب ، دون أن يفكروا فيما يخبئه لهم القدر هناك فى ليكوفريسى .

* * *

هرول بانايوتى البارحة فور عودته من ساراكينا الى بيت القسيس جريجوريس وابلغه النبأ .

ــ سيأتى هؤلاء الناس غدا لقطاف العنب . فاستعد لذلك .

كان القسيس جريجوريس جالسا الى مائدة الطعام ، فسقطت الشوكة من يده . وصاح :

لن يطأوا ارض القرية . لن يمسوا حبة عنب واحدة أبدا ، لن أسمح لهم بذلك . سأذهب فورا لمقابلة الأغا .

وارتدى رداءه الدينى الذى يلبسه فى أيام الأعياد ، وعلق حول رقبته صليبه الفضى الثقيل ، وأمسك بعصاه ذات المقبض العاجى ، واتخذ طريقه الى بيت الأغا يمشى بخطوات متأنية وقور .

كان الأغا قد فرغ من طعامه توا ، وبدأ يحتسى قهوته . وجلس الى جانبه براهيماكى يلف سيجارة لنفسه ، موليا ظهره للأغا . ويبدو عليهما أنهما تشاجرا من جديد ، اذ كان الأغا عابس الوجه وهو يحتسى القهوة كأنه يتجرع سما .

ظهر القسيس جريجوريس عند الباب ، ذليلا متضائلا . وانحنى أمام الأغا وقال :

ــ تحياتى اليك ياأغا .

لم يكلف الأغا نفسه عناء الالتفات اليه . وقال فى امتعاض :

ــ أنا أعرفك من صوتك يا قسيس . ترى أى متاعب جديدة أتيتنى بها ؟ تعال أمامى حتى أراك . هات كرسيا واجلس عليه .

وصفق بيديه . واقبلت المرأة الحدباء . فقال لها آمرا :

ــ قهوة للقسيس أفندى .

ثم نظر الى القسيس وقال :

ــ تكلم .

وبدأ القسيس كلامه :

ــ يا اغا ، تعلمون سيادتكم ، وأنتم خير العارفين ، أن العالم معلق بخيط واحد . اذا قطع هذا الخيط سقط العالم وتفتت .

وقال الأغا في ازدراء :

ــ واي جديد فى هذا . ان بغلتى نفسها تعرف ما تقول . هيه ، استمر .

ــ ثمة شخص يحاول أن يقطع هذا الخيط يا أغا .

تحسس الأغا مقبض سيفه ، وهم بالوقوف كانما يستعد للانقضاض . وصاح :

ــ من هو حتى أقطع رأسه ؟ قسما بالله دلنى على هذا الشخص ، وسوف ترى ماذا أنا فاعل به .

وأجاب القسيس :

ــ الاشتراكى !

ترك الأغا سيفه يسقط فى غمده .

ــ كيف تتصور أننى مستعد لأن أغادر ليكوفريسى ، وأترك براهيماكى ، وأتخلى عن راحتى وهنائى . ثم أذهب الى الشيطان هكذا ببساطة بحثا عن العدو فى آخر الدنيا بين الثلوج حتى أمسك به وأقطع رقبته ؟

ازدرد القسيس فنجان القهوة دفعة واحدة وتنهد .

ــ أيها القسيس المبارك ، هذا اللعين الذى تحدثنى عنه بعيدا جدا عن هنا ، فدعك من الحديث عنه . انه بعيد عنا تماما فكيف الوصول اليه ؟ ليس عليك الا أن تمثل دور القسيس البرىء الطيب ــ صدقنى فأنا أحب لك الخير من قلبى ــ وانا سأفعل نفس الشىء حتى نعيش حياتنا فى سلام ، وبعدنا الطوفان .

ــ ولكن لا حاجة بك الى الانتقال من ليكوفريسى يا أغا . لقد أرسل ذلك البلد العدو بالفعل بعض رجاله الينا . انهم هنا فى ليكوفريسى ، وهم يتهيأون لقطع الخيط . اديت واجبى فى الكنيسة هذا الصباح ، وليس عليك الا أن تؤدى واجبك بدورك .

ـ نعم ، أسرت الحدباء الى بشىء عن هذا ، بيد اننى لم أفهم منها كلمة واحدة .

ـ أصدرت قرار حرمان من الكنيسة لمانولى راعى اغنام بطرياركاس ، طردته من حظيرة المسيح .

ـ لماذا يا قسيس ؟ انه ولد طيب هذا الفتى المسكين . لا يعيبه سوى ان به بعض الجنون . الم يكن على استعداد لان ينقذ القرية ؟ وهذا ليس بالأمر السهل ياقسيس ، ليس امرا سهلا ابدا .

ـ نفاق ورياء يا أغا ، كذب وبهتان . تعلمون انه فعل هذا لحاجة فى نفسه .. ان يخدع اهل القرية .

وهرش الأغا راسه . وبدات أعصابه تتوتر . وصاح :

ـ كفى هذا . اخرس يا قسيس . انكم ايها الروميون تولدون النملة . كيف يمكن لعاقل ان يستسيغ ما تقول ؟ أفعالكم شىء ، واقوالكم شىء وما فى رأسكم شىء ثالث لا علاقة له بالاثنين . كفاك أيها القسيس حتى لا تصيب رأسى بدوار . دعنى وحدى ، فانى ضيق الصدر ولست اليوم على ما يرام . فضلا عن أننى تشاجرت اليوم مع هذا الشيطان براهيماكى .

قال العبارة الأخيرة وهو يشير الى براهيماكى .

كان براهيماكى يدخن سيجارته فى صمت ، ينفث الدخان ليتصاعد الى السقف ، ويكشف عن أسنانه البيضاء الحادة كأسنان الكلب ، ولكنه لم يكد يسمع اسمه حتى التفت الى الأغا فى غيظ وثورة :

ـ قل للقسيس ما اتفقنا عليه ، والا فاننى سأغادر القرية عائدا الى سميرنا . هذه القرية مقبرة .

وتظاهر بأنه يهم بالوقوف ، ولكن الأغا امسك به من كتفه .

ـ اجلس ايها الشيطان . ابق في مكانك . سأقول له .

ثم توجه بالحديث الى القسيس جريجوريس .

ـ قسيس افندى ، ماذا تريدنى ان أفعل ؟ أتهتنى تطلب منى خدمة . ما هى ؟ افصح ، وسوف نساوم . ولكن تكلم فى وضوح وأوجز حتى أستطيع ان افهمك . لا تعقد الأمور . هل تفهم ما قول ؟ فان مخى ليس آلة حاسبة ، بل هو مخ بسيط . ادخل فى الموضوع . وهأنذا أنصت لك .

اقترب القسيس بكرسيه من الأغا وبدأ يحدثه بايجاز :

ـ يا أغا ، هذا الغر الأبله ، ابن المرحوم بطرياركاس تنازل عن ثروته للشحاذين سكان ساراكينا .

وقاطعه الأغا :

ـ حسن ، هذا حقه ، فهي ثروته . أليست ثروته ؟ له أن يفعل بها ما يشاء .

ـ نعم هذا صحيح ، ولكن ما يجب أن تعرفه هو أن هؤلاء الاراذل هم أتباع العدو أرسلهم الى هنا ليقطعوا الخيط .

ـ هه . ما هذا الكلام الذى تقوله يا قسيس ؟ أوضح يا قسيس . قل كل ما عندك .

ـ سأقول كل شيء . يتزعمهم القسيس فوتيس ومانولي . سيأتون غدا لحصاد بساتين الكرم ، اذ يزعمون أنها بساتينهم .. هل تعرف معنى هذا ؟ ستكون لهم قدما راسخة فى قريتنا ـ فى قريتك يا أغا ، ثم يستولون عليها شيئا فشيئا ، ويطردوننا منها وبذلك يقطعون الخيط .

ـ ماذا تريد اذن ؟

ـ غدا عندما يأتى الاشتراكيون يجب ان تقف بنفسك عند مشارف القرية وتطردهم .

ـ ولكن لماذا تسألنى أن أطردهم يا قسيس ؟ اليست بساتين الكرم ملكهم هم ؟

ـ لا

ـ كيف لا ؟ ان رأسى يكاد يتصدع . ألم يتنازل ميشيل لهم عنها ؟ وبذلك آلت اليهم . اليس كذلك ؟

ـ قلت لك لا يا أغا . اننا بصدد ان نعلن أن ميشيل انسان غير متزن .

ـ غير متزن ؟ وما معنى هذا الآن ؟ أوضح .

ـ أعنى أنه ليس بكامل قواه العقلية ، لا يعى ما يفعل ، وبذلك فان الهبة غير صحيحة ولا جائزة .

ـ ولكن هل هو مجنون فعلا ؟ أقسم بدينى انه يتمتع بكامل قواه العقلية .

ـ الجنون والعقل مرتبطان ببعضهما يا أغا . ولا أحد يعرف اين

ينتهي هذا وأين يبدأ ذاك . لذلك فاننا سنبحث عن وسيلة نثبت بها جنون ميشيل .

إمسك الأغا برأسه بين راحتيه ، وفجأة انفجر ضاحكا . وقال :

ـ فهمت ، فهمت . أنتم أيها الروميون تتمتعون بذكاء القردة وخبثها . سيأتي يوم تضعون فيه العالم داخل حبة وتبتلعونها .

ـ ماذا ترى يا أغا ؟

ـ اسمعني يا قسيس جريجوريس . أوراق اللعب فوق المنضدة ، واللعب خذ وهات . سأقف عند مشارف القرية كما تطلب ، واطرد هؤلاء الشياطين الفقراء أهل ساراكينا ، ولكن عليك من جانبك ، أنت .. خذ وأعط ، هل تعرف مقصدى ؟

واربد وجه القسيس الذى ادرك ما يرمى اليه الأغا .

ـ هل تفهم ؟ سأفعل ما تطلبه منى يا قسيس ولكن عليك أن تفعل انت من جانبك ما أطلبه منك .

وقال القسيس بطرف شفتيه :

ـ قل ماذا تريد يا أغا ، واذا كان ذلك فى مقدورى .

ـ انه مطلب بسيط للغاية . لا تبتئس . ها هو براهيماكى موجود . انه يطلب بأى ثمن أن ترقص بنات القرية أمامه ذات يوم حتى ينتقى من بينهن من يشاء .

ـ هذه مسألة خطيرة يا أغا .

ـ خطيرة أم غير خطيرة ، لا بديل سواها . ألا يمكنك أن تفهم ما اقول ؟ .. انظر الى هذا الشيطان . انه غلام شبق فى الخامسة عشرة من عمره . من منا يستطيع أن يكبح جماحه ؟ أنت ؟ أم أنا ؟ ولكن عليك أن تحاول . انه قادر على أن يلتهمنا نحن الاثنين دفعة واحدة . لا يكبح جماحه غير امرأة . لذلك لا بد وأن نهتدى الى امرأة تروضه . انه الآن أشبه بمهر شموس ، تحاول أن تركبه فيلقى بك أرضا . ولكن اذا روضته تستطيع أن تمتطيه ويلتذ بركوبك ويهز لك ذيله .

كان براهيماكى يضحك وهو يسمع هذا الكلام ، كأن هناك من يدغدغه .

وتمتم القسيس :

ـ من المؤسف حقا أن ماتت الأرملة .

ــ لنبحث عن غيرها يا قسيس ..

وقفز براهيماكى وصاح :

ــ أريدها فتاة فى ميعة الصبا ، بضة غير حدباء ، بيضاء كالخبز ، ويجب أن تكون امرأة فارك تقاومنى وأصارعها ثم ألقى بها تحتى وهى تصرخ وتبكى وتشد شعرها ، ففى ذلك متعة كبرى .. هـل يمكن الحصول عليها يا قسيس ؟

وشرد القسيس بفكره يتأمل ثم قال :

ــ يجب أن نهتدى الى فتاة يتيمة ليس لها من يذود عنها فى القرية حتى نتجنب الفضيحة . لا أخشى غير الفضيحة يا أغا ، ولا شىء سواها ... أمهلنى يا أغا ..

وقاطعه براهيماكى :

ــ ماذا ؟ ماذا يريد ؟

ــ يطلب مهلة قصيرة يبحث لك فيها عن المرأة التى تطلبها يا ابن الزنا . انه على حق فيما يقول هذا القسيس . أتظن أنه يحتفظ بهن عنده فى عشة الدجاج ، هل تظنهن دجاجا ، وليس عليه الا ان يمسك بمن تروقك منهن ؟ ثم هناك شىء آخر ، لا أريد أن أراك متجهما هكذا ، أتفهم ، والا قسما بالله سأخصيك حتى تستريح وتريح . هل تسمع ما أقول ؟ أسكت ! وان كنت متعجلا الى هذا الحد فاليك مارثا .

بصق براهيماكى على الأرض وقال :

ــ أف . أنا لا أريدها !

ــ اتفقنا يا قسيس . لا تعبأ بكلامه . سأمهلك بضعة أيام .. عرفت أوصاف المراة التى يطلبها ــ صغيرة بضة ، بيضاء ، حيية .

وتنهد القسيس فى استسلام ونهض وهو يقول :

ــ موافق يا أغا ، وغدا فور وصول أهل ساراكينا .

ــ لك ما أردت ، موافق . ومن جانبك .

ــ سأحاول أن أهتدى .. وليغفر الله لى .

وقال الأغا وهو يضحك :

ــ لا عليك يا قسيس ، فانه سيغفر لك بكل تأكيد . فالرب يغض الطرف ، ويعرف الحياة أيضا .

غادر القسيس بيت الاغا قلقا مهموما . فهذا العمل لا يلقى هوى في نفسه ، ولكنه مكره عليه . انه على استعداد لأن يقدم على أى شيء الا أن يترك القرية تسقط بين يدى القسيس فوتيس ليقضى عليها .. فالدين والوطن والشرف والملكية ، كلها في خطر ..

ودعا أعيان القرية وذوى الأملاك فيها ، وتحدث اليهم فى هذا الشأن ، فقال لهم :

ـ غدا سيهبط علينا حملة القمل لحصاد بساتين الكرم التى منحها لهم هذا الملعون التعس ميشيل .. وعلينا جميعا نحن الحاضرين هنا أن نشهد ـ بل ونقسم على هذه الشهادة اذا اقتضت الضرورة ـ بأن ميشيل لم يكن طفلا سويا منذ نعومة أظفاره . هل تفهمون ما أعنى ؟ انه يرى أشباحا ، أو أنه مجنون ، لا أدرى ما هى العبارة على وجه الدقة . المهم أنه انسان غير متزن . وأن أى محتال ، وليكن القسيس فوتيس على سبيل المثال ـ يستطيع أن يوقع به فى حبائله ، ويغرر به حتى يوقع على أى أوراق يطلبها منه .. ويترتب على هذا بطلان الهبة ، ومن ثم فان بساتين الكرم لا يحق أن تؤول الى المتشردين الذين ينزلون بجبل ساراكينا ، وكذلك بالنسبة للحقول والحدائق والمنازل .. وبطرياركاس لم ينجب أطفالا غيره ، ولذلك يتعين أن تؤول هذه الثروة الى المجتمع ، أى الينا .. هل توافقون ؟

وأجاب الأقطاب معجبين بدهاء القسيس :

ـ موافقون .

ـ أتيت توا من بيت الأغا ، ووصلت معه الى اتفاق . وبعد أخذ وعطاء أقنعته بأن يظهر عند مشارف القرية فوق صهوة جواده مدججا بالسلاح . انه لن يسمح بدخول الاشتراكيين حملة القمل . وأنتم عليكم أن تتجمعوا كلكم ومعكم خدمكم وكلابكم وعصيكم لكى تعضدوا الأغا .. شيء واحد فقط أحذركم منه .. حذار من أراقة الدماء حتى ولو كان جرحا طفيفا . لا تنسوا أننا مسيحيون وعلينا أن نحب أعداءنا .

ثم ارسل بعد ذلك فى طلب بانايوتى . وجاءه مع المساء ، وقد تغيرت صورته حتى لينكره من يعرفه . أحرق لحيته ببعض جمرات الفحم الموقدة ، وأصابت الحروق وجنتيه وعنقه حتى غطتهما القروح . وقص شعره بمقص كبير مما يستخدم لجز صوف الماشية .

لم يستطع القسيس أن يمنع نفسه من الضحك رغم كل همومه

وقال له :

– هل تعرف ماذا فعلت بنفسك أيها الأبله ؟

وجأر بانايوتى .

– هذا شأنى أنا . لا تكثر من الأسئلة يا ابانا ، والا سأغادر المكان وأتركك دون معين . وأنا أعرف أنك بحاجة الى .

– لا تغضب يا بانايوتى . لم أقصد اهانتك . اسمع . انى بحاجة اليك غدا . خذ هراوتك الكبيرة ، واذا أتى مانولى معهم فأوسعه ضربا . فهو طريد الكنيسة ودمه مباح ، ولن يمنعك أحد عنه . يمكنك أن تقتله اذا شئت . اذهب والله معك .

– دع الله بعيدا عن هذا يا ابانا . لا تشركه فى دسائسنا . أنت تفزع من القسيس فوتيس ، وانا أكره مانولى ، هذه هى القضية . فلا تشرك الآلهة والعذراء المقدسة فى ذلك . فهذا لا يعنينى فى شيء ولا علاقة لى به . وأنت من الدهاء بحيث تعرف ما أعنيه . والى اللقاء غدا .

واتجه ناحيــة البــاب ، وتوقف لحظة عند العتبة ، ونظر الى القسيس وقال :

– كلانا اخ للشيطان . هذا هو الواقع .

***

نزل أهل ساراكينا من أعلى الجبل وهم يتغنون ،بينما سار مانولى فى مقدمتهم غارقا فى تفكير عميق . وظل يردد بينه وبين نفسه :

– اسأل الله ان يقينا شر الصدام وسفك الدماء .

ولم يكد اهل ساراكينا يقتربون من القرية حتى راوا جمعا من الناس حول بئر القــديس بازل ، البعض يجلس على الأرض ، والبعض الآخر يتجول ممسكا بهراوات غليظة . وتناهت الى أسماعهم صيحات التهديد والوعيد .

توقف مانولى واستدار الى رفاقه وقال لهم :

– اعتقد يا اصدقائى انهم سيقاوموننا .. لتبق النساء هنا فى انتظارنا ، ولنتقدم نحن الرجال ، والله خير معين . سنتقدم وكونوا على ثقة من ان الحق الى جانبنا . ولكن اذا ما أصروا على القتال بأى ثمن فاننا لن نقاتلهم ، فهم أخوة لنا قبل كل شيء ، وانما سنتوجه فى

هذه الحالة الى الأغا ، فهو حاكم القرية ، وسيفصل بيننا . وليس ثمة ادنى شك فى ان بساتين الكرم آلت الينا ، وأصبحت ملكا لنا الآن ، ولذلك فانه سينصفنا .. تقدموا يا اخوتى باسم المسيح ! .

جلست النساء في دائرة وسط الآكام ، وواصل الرجال مسيرتهم . لم يطل بهم المسير اكثر من مائة خطوة حتى راوا حجرا يطن فى الهواء فوق رأس مانولى . وتبعه آخر ، وغيره كثير . وهكذا أصبح الهجوم وشيكا . وتحركت مجموعة الرجال التى اجتمعت حول البئر ، وساروا تجاههم لملاقاتهم ،وكان على راسهم بانايوتى بلحيته المحروقة يتقدمهم بخطوات تشبه خطوات الدب .

وزأر لوكاس العملاق حامل العلم :

ـ ماذا نحن فاعلون ؟ لن نتركهم يتخذون منا أهدافا لحجارتهم دون أن نرد عليهم . اجمعوا حجارة يا أصدقائي وارجموهم .

وقال مانولى معترضا :

ـ حسبكم ،لا تسفكوا الدماء يا اخوتى .

وتعالت صيحات غضب مغيظ من حول بئر القديس بازل :

ـ ارجعوا ، ارجعوا يا حملة القمل . لن يطأ احدكم ارض قريتنا . ارجعوا .

وتقدم مانولى رافعا يده الى أعلى علامة أنه يريد التفاوض معهم .

ـ اخوتى ، اخوتى ، اسمعونى .

ـ يا طريد الكنيسة ، يا لص ، يا قاتل ، يا اشتراكى .

واندفع أهل ليكوفريسى نحوه وقد استشاطوا غضبا وثورة . وبسط باناپوتى ذراعيه . وخار كالعجل :

ـ لن يمسه أحد . اتركوه لى فانا المختص به ، انا وحدى الذى سأنازله .

ثم انقض على مانولى .

وسرعان ما احاط أهل ساراكينا بقائدهم .

والتقط لوكاس حجرا كبيرا فى يده وصاح باعلى صوته :

ـ لو مس احدكم مانولى فانى سأهشم راسه كالبطيخة .

ونفذ الشماس تعليمات القسيس جريجوريس اليه . بدأ يعدو هنا وهناك وهو يصيح.

ـ انه محروم من الكنيسة . اضربه يابانايوتى ، اطرحه أرضا ، فان بدك ستتطهر من دمه .

وأقبل ناظر المدرسة لاهثا :

ـ اخبرونى يا اصدقائى باسم المسيح ، ماذا حدث ؟ كفوا ايديكم .

وصاح الشماس :

ـ يحاولون غزو قريتنا لاحتلالها .

وصاح أهل ساراكينا :

ـ بل نحن نبغى حصاد بساتين كرمنا . فهى ملكنا ، أعطاها لنا ميشيل .

وعوى الأب لاداس بصوت كالصرير وهو يتوارى خلف ناظر المدرسة:

ـ صدر اعلان بأن ميشيل مجنون ، ومن ثم فان الهبة غير صحيحة.

ـ الهبة غير صحيحة ، أخرجوا ، أخرجوا يا قطاع الطرق ، يا خونة.

فى هذه اللحظة انقض بانايوتى برأســـه على مانولى مثلما ينقض الثور . ولكن لوكاس اندفع نحوه بكل قوته وهو يحمل حجرا كبيرا فى يده . وضربه فوق ركبته ، وترنح بانايوتى ثم انقض عليه لوكاس وطرحه أرضا ، وجثم فوق ظهره ، وأوسعه ضربا مغيظا . واستجمع بانايوتى كل قوته وأفلت من تحته ، وامسك بلوكاس من خصره . وتصارعا كل منهما يخور بصوته ويتدحرج ، وكان صراعهما سجالا بينهما .

والتقط الشماس حجرا واتخذ مانولى هدفا له .

وصرخ :

ـ يا محروم ، يا اشتراكى .

وطار الحجر فى الهواء ليضرب مانولى فى جبهته ، وتفجر الدم ، وفاض على صفحة وجهه . وصاح أهل ساراكينا :

ـ سيقتلون مانولى ، اهجموا عليهم .

وبدأوا هجومهم على أهل ليكوفريسى .

وتقاتل أهل ساراكينا مع أهل ليكوفريسى . ولاذ الأب لاداس

بالفرار . وحاول ناظر المدرسة ان يتدخل ، ولكنه تلقى الضربات من كلا الجانبين .

وهرع صبى الى القرية وهو يصيح بأعلى صوته فى غبطة وفرح :

ـ قتل مانولى المحروم ، قتل مانولى الاشتراكى ، افرحوا وتهللوا.

سمع قسطندى صياحه ، فاندفع خارجا من مقهاه ، وامسك بعصاه ، وهرول مسرعا .

ونادى على الصبى وهو يجرى :

ـ اين ؟ أين ؟

ـ عند بئر القديس بازل .

واتجه قسطندى الى هناك ، ونار الثورة تكاد تحرقه . والتقى فى طريقه بياناكوس ودون أن يحدث أحدهما الآخر ، جرى الاثنان معا .

تلاحم أهل ساراكينا مع أهل ليكوفريسى حول بئر القديس بازل حتى أصبحوا كتلة واحدة تتدحرج بين الصخور يصدر عنها زئير عال . وفقدت نساء ساراكينا صوابهن ونزلن أرض المعركة واسهمن بنصيب فى القتال بأذرعهن التى اشتدت مع عملهن فى وطنهن الجديد ، ووجهن اللكمات كما تلقين مثلها كالرجال تماما .

وعلا صوتان فيهما خشونة وجزع :

ـ مانولى ، مانولى ..

كان مانولى جالسا فوق صخرة يضمد جرحه ، وسمع الصوتين، وتعرف عليهما ، فرفع رأسه وشخص ببصره اليهما . وصاح :

ـ ها انذا يا اخوتى ، لا تجزعا

وفى هذه اللحظة ذاتها عوى الأب لاداس ، فرحا مغتبطا ، من فوق صخرة ارتقاها :

ـ ها هو ذا الأغا ، ها هو ذا الأغا ..

وسمع الناس صهيل الفرس وهى تعدو والشرر يتطاير من تحت سنابكها . وظهر الأغا عند البئر بمسدسه الفضى ، وسيفه الطويل ، وطربوشه الأحمر ، ثملا تماما . وشد اللجام بقوة حتى أن الفرس تقهقرت الى الوراء . وتمالك نفسه فوق السرج خشية الوقوع ، وتشبث بمعرفة الفرس . امسك الأغا بمسدسه وأطلق رصاصة في الهواء ودوى صوته كهزيم الرعد :

ـ ياكفرة .

وفى لمح البصر تفرق هذا الخليط البشرى ، وانفصل الجمعان ، وأصبح اهل ساراكينا فى جانب وأهل ليوفريسي فى جانب آخر ، وقد تمزقت ثيابهم ولطخها التراب والدم . لم يبق على ارض المعركة سوى ناظر المدرسة وحـده ، طريحا على الأرض بين الفريقين وقد اصيب اصابات خطيرة ، وعبثا يحاول النهوض على قدميه حتى يحيى الأغا التحية الواجبة .

ونظر الأغا الى أهل ساراكينا بعينين تقدحان شررا ، وصرخ من جديد :

ـ ياكفرة .. لماذا اتيتم الى قريتى .. هه ؟ ارجعوا ، ارجعوا أيها المتشردون .

وتقدم مانولى الصفوف وتكلم :

ـ يا أغا لنا بساتين كرم فى ليكوفريسى ، أتينا لحصادها ، فهى ملك لنا .

ـ اذهب الى الشيطان . منذ متى وهى ملك لكم ؟ هه ؟ بأى حق آلت اليكم ؟ من أين سرقتم هذه البساتين يا حملة القمل ؟

واشرأب الاب لاداس بعنقه من فوق صخرته وضحك فى سخرية .

وأجاب مانولى :

ـ أعطاها لنا ميشيل .

وقال الأغا :

ـ هذا كله لا قيمة له ، أيها الحمقى البؤساء ، فان توقيعه لا يعنى شيئا ، فهو لم يبلغ سن الرشد بعد .

وتكلم الأب لاداس من مخبأه ، ليصحح كلام الأغا .

ـ ليس السبب صغر سنه بل جنونه .

ـ نفس الشىء أيها الشيخ السفيه . اخرس .

واستل مسدسه وصوبه ناحية الأب لاداس . وتهاوى الشيخ وراء الصخرة وهو يصيح :

ـ الرحمة ، الرحمة .. حقا ما تقول .. هو عين الصواب .. لم يبلغ سن الرشد بعد .

وانفجر الأغا ضاحكا ، واغمد مسدسه في جرابه . ثم قال موجها حديثه الى أهل ساراكينا :

من منكم المدعو مانولى ؟ ثمة ضباب يحجب عنى الرؤية الواضحة . ليتقدم الى هنا .

واقترب مانولى من فرس الأغا وقال :

ـ ها أنذا .

ـ حسن. أنت ولد طيب. أنت كذلك حقا يامانولى رغم كل اقاويلهم عنك . اقترب منى أيها الكافر . اسمع ، قل لى بصراحة ما معنى اشتراكى ؟ لقد صدعوا رأسى بهذه الكلمة . قل لى هل هو رجل أم حيوان أم وباء عضال مثل الكوليرا ؟ فأنا لا أعرف شيئا عنه .. هل تعرف أنت ؟

وأجاب مانولى :

ـ نعم يا أغا أنا أعرف .

ـ اذن ، أستحلفك بالهك أن تحدثنى عنه حتى أعرف أنا أيضا .

ـ الاشتراكيون هم المسيحيون الأول يا أغا ...

ـ دع المسيحيين الأول حيث هم يا كافر ، لا تشوش أفكارى . عندى ما يكفى من العرقى لذلك . ما شأنى أنا بالمسيحيين الاول ؟ .. أنا أسألك ما معنى اشتراكى ؟

وتحدث الأب لاداس بصوت أخنف :

ـ سأوضح أنا لك يا أغا . انهم يطالبون بألا يكون هناك غنى أو فقير بعد اليوم ، وانما أن يكون الناس فقراء كلهم ، ألا يكون ثمة اغاوات أو رعايا بعد الآن ، ويتحول الناس جميعهم الى رعايا . بل والاكثر من هذا لن تكون هناك امرأة زوجة لك او زوجة لى بل النساء كلهن مشاع بين الناس جميعا .

وزأر الأغا :

ـ لا أغاوات ولا رعايا ؟ هل معنى ذلك أنهم يريدون أن يقلبوا نظام الله رأسا على عقب ؟ ابتعدوا عن هنا بهذا الوجه النكد .

وبسط راحته أمام وجه مانولى وقد باعد بين أصابعه فى حركة استنكار كأنما يلعنه وقال له :

ـ افتح عينيك وانظر الى يدى : هل كل أصابعى متماثلة ؟ هناك أصابع صغيرة وأخرى كبيرة ، الله هو الذى خلقها على هذه الصورة . وهكذا

أيضا خلق الناس جميعا ، بعضهم صغير والآخر كبير ، بعضهم سادة وغيرهم عبيد . وكذلك أيضا خلق الاسماك في أعماق البحار ـ الكبير منها يأكل الصغير . وبنفس الطريقة وضع الرب الماشية الى جانب الذئاب لتأكل الذئاب الماشية . هذا هو نظام الله ، ثم تأتون الآن أيها الاشتراكيون .. عليكم اللعنة .

ثم استل سيفه ، بعد أن فرغ من كلامه ، ونخس الفرس وهجم على أهل ساراكينا .

وصرخت النســـاء صرخات صاكة وهرولن في ذعر ناحية الجبل ، وتراجع الرجال في ذهول وحيرة . ولم يبق غير مانولى الذى ثبت فى مكانه راسخا .

وصاح فيه الأغا :

ـ أنت يا كافر ، ابعد عن هنا والا قطعت رأسك . ألا تخاف ؟

وقال مانولى :

ـ بل أخاف ، ولـكننى أخاف الله وحده ، أما البشر فأنا لا أخافهم أبدا .

وأغرق الأغا فى الضحك ، قال :

ـ أقسم لك بدينى أنك مجنون تماما .. بيد أنك خفيف الظل . تعال معى الى بيتى ولتكن سميرا لى . لا فرق عندى بين البلهاء والقديسيين ، فهما شىء واحد . وأنت مجنون وقديس فى آن واحد ، أنت دعابة مقدسة ، هذا رأيى . تعال معى أقدم لك الطعام والشراب والملبس وأخلق منك رجلا .. ألا تريد ذلك ؟ اذهب الى الجحيم اذن أيها الأبله . ابعد من هنا ، فقد غيرت رأيى فيك ولن أقتلك .

والتفت الى أهل ليكوفريسى الذين أطربهم سماع الأغا وهو يدافع عنهم وقال لهم :

ـ وأنتم أيها الكفرة لستم مجانين ولا قديسين ، اذهبوا الى الشيطان . كروش متخمة وصعاليك .. أغربوا عن وجهى .

وسرعان ما ابتعد أهل ليكوفريسى فى وجـــل . وانحنى ياناكوس وقسطندى فوق ناظر المدرسة وانتشلاه من فوق الارض ، وأخذا بيده وعادا به الى داره . كان الرجل البائس يعرج ويعانى ألما موجعا فى قدميه .

وقال لهما معترفا :

ـ نلت جزائى الذى أستحقه · لست حملا ولا ذئبا ، بل لقيطا تعضنى الذئاب وتبول على الماشية · أنا أعرف جيدا طريق الحق والصواب ولكننى أسكت عنه ، فالخوف يملأ قلبى · كيف لى أن أرفع رأسى وأنا البائس الفقير · انى أخاف ·· والنتيجة ما ترون ، وطئنى أهلى ليكوفريسى وأهل ساراكينا بأقدامهم دون أن تأخذهم بى رحمة · وهم على حق فى ذلك · أقسم بدينى أنهم على حق ، ونلت جزائى الذى أستحقه ·

ونظر الى رفيقيه اللذين يعينانه على المسير ، وسألهما فى اعجاب :

ـ وأنتما ، ألا تخافان شيئا ؟

وأجاب يانوكوس :

ـ بل نخاف ، ولكننا نتظاهر بالشجاعة كما ترى · أوضح لك ما اختلط أمره على ؟ أنظر الى : انى أتظاهر بالشجاعة ، بينما يرتعد بدنى فرقا · ولكن الشيء الغريب أننى مع التعود على التظاهر بالشجاعة أجدنى رويدا رويدا شجاعا حقا · هل عرفتما أعنى أيها الشيخ ؟ ترى ماذا تقول لك كتبك الكثيرة عن هذا ؟ أصدقك القول أننى لا أفهم بوضوح، فانا حمار ·

وابتسم ناظر المدرسة رغم ما يعانيه من ألم · وقال :

ـ أود أن أتنازل عن كل معلوماتى لأصبح مثلك يا ياناكوس ·· وماذا عنك يا قسطندى ؟

ـ أنا ؟ أنا أسوأ حالا من ياناكوس · أؤكد لك هذا ، أسوأ منه فعلا · الخوف يملأ قلبى ، أرتعد فرقا وأرتجف ، ويهرب الدم من عروقى · ولكننى أشعر بالخجل · ولو حدث أن تخليت عن كل شىء فى حياتى لأسلك طريق المسيح ، فثق أن هذا لن يكون بدافع محبة الخير ، أو الشجاعة، ولكن بدافع احترام النفس لا غير · سأرتجف وارتجف فرقا ، ولكننى لن أتراجع هل تفهمنى ؟

وأضاف ياناكوس :

ـ أما مانولى فهو أفضلنا جميعا ، اذ أنه لا يتكلف الشجاعة وانما هو شجاع حقا ·

رحلة بأقدام عارية

فى اليوم التالى ، ومع مطلع الفجر ، اتخذ ميشيل طريقه نازلا من الجبل . كان يتميز من الغيظ ، ويقول لنفسه :

– سأذهب من فورى الى بيت القسيس أنتف شعر لحيته ، وسأذهب الى الأعيان أصب عليهم لعناتى وأفضح سوءاتهم . سأدق أجراس الكنيسة أدعو القرية جميعها لتشهد وتسمع .

كنت تراه حينا ثائرا مهتاجا ، وحينا هادئا ساكنا يقلب الامر فى رأسه بحثا عن أقسى الكلمات ، ولا يدرى من أين يبدأ .. لم يغمض له جفن طوال الليل . وطلع الفجر عليه وعيناه مفتوحتان . وتراءى له طيف أبيه . عاد الرجل الميت الى الظهور من جديد ، ووقف الى جانب فراشه ، يهز رأسه وينظر اليه بعينين فيهما تأنيب .. وتحركت شفتاه ، وسمع ميشيل صوته الضعيف الواهن يأتيه من العالم الآخر : « لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ .. ولم يقل شيئا آخر .

هب ميشيل من مرقده ، وأمسك بعصاه وهرع الى القرية وهو يرتجف

قصد بيت القسيس لتوه ، دفع الباب ودخل . اجتاز الفناء ، وألفى القسيس جالسا بجوار النافذة ، منحنيا فوق رسالة يقرأها والدموع تفيض من عينيه .

ولم يكد يبصر ميشيل حتى أسرع باخفاء الرسالة داخل جلبابه . ولكن ميشيل استطاع أن يلمح الخط الذى سطرت به الرسالة وتعرف عليه

وادرك كل شيء ، وزايله الغضب • رأى الموت يرف بجناحيه فى الهواء ، فانقبض قلبه • تمالك القسيس نفسه، وكفكف دموعه ونظر الى ميشيل• وتحدث اليه ساخرا :

ـ اى ريح طيبة حملتك الينا يا فتى ؟ سرعان ما ضقت باهـــل ساراكيثا ؟ حياة الراهب قاسية ، لذلك عد الى بيتك وقريتك وانعم بثروتك أيها البائس •••

واضاف فى قلق :

ـ ترى هل لم توقع أى أوراق بعد ؟ •

ـ أنا لا أملك شـيئا الآن ، لا شيء البتة ، أسقطت عن كاهلى كل احمالى واصبحت حرا •

وعاود القسيس سؤاله فى انزعاج :

ـ هل وقعت أوراقا ؟

ـ نعم •

وضرب القسيس الشباك بقبضته فى قوة وزار :

ـ أنت مجنون ، مجنون ، هلكت أيها التعس • ها أنت الآن أصبحت عبدا لذلك القسيس الافاق • لهفى على كل هذا الثراء الضائع •

وأحس ميشيل بالغضب يعتمل فى صدره ، وعاود كلامه ثانية :

ـ بل أصبحت حرا، وانما أنت العبد ياأبانا• لهفى على هذا الرداء القدسى الذى ترتديه •

وقال القسيس بصوت خافت حزين مفعما ضغينة وحقدا :

ـ واجهت كثيرا من المشاكل ابتغاء مصلحتك ومصلحة ابنتى •• والآن انتهى كل شيء •

ـ ماذا قالت فى رسالتها ؟

أخرج القسيس الرسالة وقال :

ـ هاك اقرأها •

أمسك ميشيل بالرسالة • بللتها الدموع • ترى هـــل هى دموع القسيس ؟ أم دموع ابنته ؟ انه لا يدرى • قرأ ميشيل كلمات الرســالة فى تأن وصعوبة ، وترقرقت الدموع فى عينيه •

ـ •• ساءت حالتى يا أبت • معذرة ان كنت أثقلك بالهم ، لكن

المرض اشتد على ·· أذوى يوما بعد يوم ، أوشك أن أودع الحياة · لم يعد يكترث بى الأطباء ، يمرون بفراشىدون أن يتوقف أحدهم ليلقى نظرة على وأسقطوا اسمى من قائمة مرضاهم · وها أنذا أرقد هنا وعيناى مثبتتان على السقف كأنه السماء ، فلم يعد لى سماء غيره· ربما أهدأ مع الموت، بل وأسعد به ، لولاك أنت يا أبى · ستبقى وحيدا بعد وفاتى ، ولن تجد من يسهر على خدمتك أو يقدم لك كوب ماء ·· انى حزينة من أجلك ومن أجل خطيبى السابق · ربما يحزنه موتى ، ولكننى لا أكف عن البكاء كلما تذكرته ·· لماذا ؟ لماذا ؟ ماذا جنيت ؟ لم أكن أطلب فى حياتى غير بيت وطفل ·· أما الآن ···

لم يستطع ميشيل مواصلة القراءة · ووضع الرسالة فوق قاعدة الشباك ، واتجه ناحية الباب · وقال :

ـ حسن ، سأنصرف ·

ـ لكن ماذا كنت تريد منى ؟ لماذا أتيت ؟

ـ لا شىء البتة · لا أريد شيئا · ماذا عساى أن أطلب منك ؟ سلاما

ـ ما أقسى الرب على بنى البشر ، يضربهم بقوة فى غير هوادة أو رحمة ·· ترى ماذا اقترفت فى حق الله ؟

كان ميشيل قد بلغ عتبة باب الفناء ، ولكنه استدار فى ثورة وغضب·

ـ بل أنت أحق بهذه الضربة من لدن الله يا أبانا · أنت الذى تملأ قلبك الشهوات الدنية ، أنت دون ابنتك ·

وتمتم القسيس والدموع تفيض من عينيه :

ـ عرف سبحانه أين ينزل ضربته على ، وقد فعل ···

وتملكه الغضب فجأة ، و قفز الى وسط الفناء حافى القدمين· وصاح بصوت فيه أنين ونواح :

ـ انها غلطتك ، غلطتكم جميعا · غلطة مانولى وقسيس ساراكينا صاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس ، وأنت معهم · أنتم سبب كل ما حدث ، بخديعتكم وخيانتكم · كنا نعيش فى هناء قبل أن يحدث كل هذا ، كانت الامور تسير حسب سنة الله وتدبيره لشئون خلقه ، ولولا ذلك لشفيت ابنتى من مرضها، ولما قتلت أباك بسبب سلوكك المشين، ولأصبح لى بعد عام حفيد أحتضنه بين ذراعى ·· ولكن وا أسفاه ·· غرر بك مانولى ، هذا الفاسد المتشرد · وجاء من بعده القسيس ذو اللحية الشبيهة بلحية التيس ، هذا الثعلب العجوز ، عليه اللعنة · والنتيجة أن مات أبوك

حزنا وكمدا ، وبددت ثروتك ، وألقيت أنا بخاتم الخطبه فيوجهك · وساءت حالة ابنتي وتدهورت لسماعها النبأ · والآن ، انتهى كل شيء ، فقد هلكت وضاع الأمل ·· أنت المسئول عن موتها أيضا أيها الشقى التعس · قتلتها مثلما قتلت أباك · كانت تصارع المرض في شجاعة هذه البائسة ، أما الآن ···

وأخذ يذرع الفناء بخطوات واسعة ، يتوعد ويتنهد ، وينتحب · واستبد به غضب شديد ·

ـ كنت على صواب حين أعلنت على الملأ أنك انسان غير متزن ، مجنون وتوقيعك غير ذى قيمة · سأنزع عنك كل أملاكك وأعطيها للمجتمع ، وبسبب ساراكينا عليه اللعنة ، لن يذوق منها حبة عنب واحدة ، ولا حبة زيتون أو حبة قمح ·· أبدا ، أبدا · لن تسير الأمور حسب هواك · أقسم أني سأنتقم منك لأبيك ولابنتي ·· وسوف ترى ، سترى بعينيك أنني جاد ولا أهزل · لا تضحك ، سأذهب الى الاسقف وأحيطه علما بكل شيء ، ومعي كل أهل القرية شهود على صدق ما أقول ، حتى الاغا نفسه فانه يقف الى جانبي · سأحرمك من كل شيء ·

وقال ميشيل الذى انفطر قلبه لما يبديه القسيس من أسف وكراهية :

ـ نعم ، كل الناس معك ما عدا الله · هل لك قلب يرضى بموت شعب بأكمله جوعا فوق ساراكينا ؟ ألا تخشى الله في ذلك ؟

ـ لو ماتت ماريورى سأتحول الى وحش كاسر · لن تأخذنى رحمة بأى انسان · لن أخشى الله أو الناس · سأطرح عنى ردائى الدينى وأحمل سلاحى وأقتل الناس جميعا · لماذا يقتل الرب قرة عينى ماريورى ؟ ماذا فعلت؟ هل يوجد على الأرض من هو خير منها وأكثر براءة ووداعة؟ سأقتل مانولى قبل أى انسان آخر ، ففى قتله دواء لكل الشرور · لم يشنقه الأغا ، ولكن سأشنقه أنا · يمثل أمامنا دور القديس والشهيد والبطل بينما يبيع نفسه ·· الخائن ، المرتد ، العميل ·

وجن جنون القسيس ، وأرغى وأزبد ، وأخذ يلوح بقبضته فوق رأس ميشيل وزأر :

ـ ابعد عن هنا ، لا أريد أن تقع عينى عليك مرة ثانية ، أغرب عن وجهى ان كنت لا تريدنى أن أهشم رأسك فوق هذا الجدار ·

وتهاوى الى أرض الفناء فوق الحصباء ، فاغرا فاه ·

لم يكن فى البيت أحد سواهما · وانحنى ميشيل فوق القسيس

البدين ، واستجمع قوامه وانتشله من فوق الارض • ودخل به المنزل ، وطرحه فوق حشية • وذهب الى المطبخ وملأ كوب ماء ، وقدمها له • أمسك القسيس بالكوب ، وشرب الماء رشفات صغيرة ، وفتح عينيه •

وتمتم :

ـ ميشيل ، انا رجل بائس محطم . طعننى الله فى قلبى طعنة نجلاء، ولا أستطيع أن أندم ، لا أستطيع ذلك •• لا أستطيع أن أصفح عن أحد ، أيا كان هذا الانسان • أغرب عن وجهى ، لا أريد أن تقع عينى عليك مرة أخرى •

ودبت فيه الحياة ، واستعاد قوته • نهض واقفا ، واجتاز الفناء ،وفتح الباب :

ـ أخرج ولا تطأ بيتى بقدميك مرة ثانية •

وصفق الباب وراءه •

* * *

خرج ميشيل ، وهام على وجهه بين دروب القرية • أحس كأنه ضل طريقه فى مكان غريب عنه تماما • خيل اليه أنه يمشى فى حلم ، يرى البيوت والحانات وشجرة السنار لأول مرة • وعندما مر ببيت أبيه توقف طويلا يتأمله ، كأنما يبذل جهـدا كبيرا ليتذكر شيئا •• وهم باجتياز العتبة ليدخل البيت ، ولكنه توجس خيفة • خشى أن يرى وسط الفنـــاء رجلا ميتا طويل القامة بدينـا مكفنا بأعشاب اجتثت من الأرض ، باسطا ذراعيه يسد عليه الطريق •• وارتعد فرقا ، وهرول بعيدا • وتذكر كلمات الاتهام التى يوجهها اليه القسـيس دائما .. أنت الذى قتلته ، انت .. وتراءت له هذه الكلمات كأنها جثث موتى ، سلسلة طويلة من الموتى ، تتعقبه وتجرى فى اثره .

وتوقف عند طرف القرية • وسأل نفسه : « لماذا أتيت الى القرية ؟ نعم، لماذا ؟ كنت غاضبا وتلاشى غضبى • ولكن لماذا ؟ وفجأة طافت بخاطره صورة ماريورى • رآها مسجاة على الأرض أمامه ، شاحبة الوجه ، شاخصة العينين ، وعلى فمها منديل أحمر صغير •• وتمتم قائلا « هذه القرية تعج بالموتى والأشباح • لا بد أن أرحل عنها •

تكاثرت السحب، واحتجبت الشمس، وأظلمت السماء ، وهبت ريح على غير انتظار ، وارتعدت الأشجار ، وتساقطت أوراق ميتة فرشت الارض ببقع صفراء كأنها بدن عليل •

ومر به بعض أهل القرية ، وتظاهروا بأنهم لم يروه ، وحثوا الخطى،

وتواروا عن ناظريه . وبكى طفل عندما وقع بصره عليه . وظهرت امرأة عجوز عند باب بيتها ورأته ، فرسمت علامة الصليب وأغلقت بابها من فورها . وهرعت الى زوجها الكهل الذى كان ينقب فى الفناء بحثا عن شعاعة شمس يدفىء بها عظامه الواهنة . وهمست له :

ـ ميشيل ابن عمدتنا الراحل يقف بالخارج . آه لو تلقى عليه نظرة انه يثير الأسى والرثاء .. لو ترى الحالة التى صار اليها ، يا رحمن يا رحيم، أصبح هزيلا شاحبا ، غائر العينين .

وهز الشيخ رأسه وقال فى كراهية :

ـ نال جزاءه . بدد ثروته هذا الابله ، وها هو الآن يهيم على وجهه فى الطرقات .. هل هو حافى القدمين ؟

ـ لا ، فلا زال ينتعل حذاءه القديم .. يا له من مسكين . صدقوا حين قالوا عنه انه مجنون .

وقال الشيخ فى تهكم :

ـ هذه هى نهاية سلالة بطرياركاس . أكلوا وشربوا ما طاب لهم الاكل والشراب وجامعوا النساء ، وها هو مصيرهم الذى آلوا اليه الآن . أقسم بدينى أن الرب عادل فى قصاصه منهم ، رغم كل ما قد يقال. اسمعى يا زوجتى اذا طرق بابك يوما فاعطه كسرة خبز ، حتى يقال اننا تصدقنا على آل بطرياركاس .

ورسم الرجل علامة الصليب ، ثم تمتم فى رضا .

ـ الحمد لله .

ودوى على البعد قصف الرعد . واشتدت برودة الريح ، وحملت معها نذيرا بسقوط المطر . وارتجف ميشيل .

وفجأة اتخذ قرارا . سأذهب الى ياناكوس .

وعاد أدراجه الى القرية .

بدأت تتساقط قطرات غليظة من المطر . وأقفرت دروب القرية . ومر ببيت الارملة ، وتوقف برهة ، ثم دفع الباب . كان الفناء مهجورا ، وزهور القرنفل ذاوية . ودلف الى داخل البيت : سرقت الحشايا والكراسى وخزانة الارملة . وتهشمت قوائم السرير الخشبية ، وتحطم شيش النوافذ ، ولم يبق منه غير واحد معلق على محوره ، تلطمه الريح فيصر صريرا كأنه نواح ينعى الحياة الغابرة. ألف المارة أن يرتادوا البيت ليلوثوا جدرانه وأركانه .

وتمتم ميشيل :

ـ آه لك أيتها المسكينة كاترينا ٠٠ أمتعت واستمتعت ٠ كل ماشهدته هذه الحجرة من متع وملذات ذهب وولى ٠ أف لهذه الدنيا ، ما أحقرها ٠

وسمع صوت فأر يقرض الخشب ، اتخذ لنفســه وكرا بين عوارض سقف الخشبية ، وانهمك في القرض دون كلل كأن الله أوكل اليه مهمة التهام سقف الأرملة ٠

أغلق ميشيل الباب وراءه ، وأخذ طريقه الى بيت ياناكوس ٠

وسرح مع أفكاره وهو في طريقه ٠

ـ مؤكد أن دخول كاترينا الجنة بكل خطاياها أكثر ضمانا من دخول القسيس جريجوريس بكل مسوحه الكنسية ٠ من يدرى ، فربما تسكن الجنة الآن ، تجلس الى جانب مريم المجدلية يتجاذبان معا أطراف الحديث ٠

وأحس بقلبه وقد تخفف شيئا ما من بعض همومه التي أثقلته ٠

وطرق باب ياناكوس ٠

كان ياناكوس في الحظيرة منذ أن تنفس الصبح ٠ ذهب اليها ليودع حماره ٠ فقد وعد أهل ساراكينا به ، ولكنه تلقى بالامس رسالة من الاب لاداس يقول له فيها :

ـ اما أن ترد لى الجنيهات الثلاثة أو أستولى على حمارك ٠ تدبر أمرك جيدا اذا كنت لا ترضى بدخول السجن ٠

ضم الى صدره رقبة رفيقه القوية الدافئة ، وانخرط في نشــيج وهو يبثه حديثا كله حب وحنان ٠

ـ حبيبي يوسوفاكي ٠ الناس لئام ، يغارون منا ، ويسعون من أجل الفرقة بيننا ٠٠ ترى من سيزورك بعدى كل صباح ، يتحدث اليك ، ويربت عليك ، ويملأ مسقاتك بالماء القراح ومذودك بالعلف ؟ من سيبحث لك عن العشب الغض وســط الحقول ويقدمه لك طعاما هنيئا منعشــا ؟ ليس لى سواك في هذه الدنيا ٠ لم أكن أعبأ بكل ما أصادفه من متاعب وشرور كنت أضحك من هذا كله ، لأنني أعرف أنني سأعود الى بيتي حيث ألتقى بك يا حبيبي يوسوفاكي ، فترنو الى بعينيك البريئتين ، وتهز لى ذيلك ، وبعــدها نشــق طريقنا معا ، أنت أمامى ، وأنا خلفــك ، نطوف بالقرى نبيع بضاعتنا ونشترى غيرها ، ونتكسب خبزنا رزقا حلالا بعرق الجبين ٠٠ أما الآن ، ترى ماذا سيكون مصيرك بين يدى هذا العجوز الشــحيح الذى يسعى للفرقة بيننا؟ في ذلك هلاكنا نحن الاثنين يا حبيبي يوسوفاكي

اللعنة على اللئام من البشر وجنيهاتهم الذهبية ، واللعنة على القدر الظالم الذى جعلنا فقراء معورين ٠٠ وداعا يا حبيبى يوسوفاكى ٠

وانحنى على حماره ، وقبل عنقه الدفىء اللامع ، وربت بيده فى رقة وحنان على بطنه وكفله ، يداعب بأنامله شـــعره المخملى الابيض ، وتحسس ذيله والدموع تنساب من عينيـــه ٠٠ كان يوســافاكى سعيداً بصاحبه يهدهده ، فهز رأسه بقوة ، ومط رقبته ، ورفع ذيله ، وبدأ ينهق بصوت خفيض عذب حزين ٠

وسمع ياناكوس صوت طرقات على الباب ، فهب مذعورا ٠ ولكن ما ان رأى ميشيل يدخل حتى ذهب عنه الخوف ٠

وابتدر صديقه بالتحية ٠

ــ صباح الخير يا ميشيل ٠

كانتا عينا ميشيل محتقنتين ٠

ــ ماذا بك يايانا كوس ، هل تبكى ؟

وحجل ياناكوس ، وكفكف دموعه ٠ وقال :

ــ عودة الى الطفولة من جديد ٠٠ كنت أودع حمارى ٠٠ طلبه الأب لاداس ٠ ليأخذه الشيطان ٠

وسأله ميشيل :

ــ هل عندك ما تقدمه طعاما لى ؟ انى جوعان ٠ تركت الجبل مع مطلع الفجر وها هو الوقت قد قارب الظهيرة ٠ اسمع يايانا كوس ٠ سأذهب بعد ذلك مباشرة الى الأب لاداس ٠ لن يأخذ الحمار لأنه ملك ساراكينا ٠

وهز ياناكوس رأسه ، اذ سمع أن القسيس وصل الى اتفاق مع الأغا، وأرسل الى الاسقف فى هذا الشأن ، ولن يسمح لميشيل بأن يمس شيئا من ارثه حتى يصدر حكم بشرعية توقيعـــه ٠ ثم ان القرية عـلى استعداد للادلاء بشهادة زور وتقول أن ابن بطرياركاس لا يتمتع بكامل قواه العقلية ٠

وفجأة قال البائع الطواف :

ــ أقسم بدينى لو أخذ الحمار منى لأشعل النار فى بيته ٠

ودخل البيت ، وأعد بعض البيض المسلوق ، وخبزا وجبنا وعنبا ٠ كان المطر قد توقف ، فجلسا وسط الفناء ليأكل مع صاحبه أمام الحظيرة ووقف الحمار الى جانبهما يأكل هو الآخر قانعا راضيا ٠

وتنهد ياناكوس :

ـ ما أجمل صحبتنا نحن الثلاثة هنا . وهذا اللص العجوز يريد أن يفرق بيننا .. ونهض ميشيل وهو يمسح فمه وقال :

ـ سأذهب اليه الآن . لن يأخذه منك .

ـ كان الله معك يا ميشيل . أبذل ما فى استطاعتك .

***

تربع الأب لاداس وزوجه على الأرض أمام الطبلية يتناولان غداءهما . طرحت بنيلوب الجورب الذى تغزله الى جانبها فوق الكرسى . والقت فى فمها بضع لقيمات وكأنها تلقى بها فى ثقب ضيق ، ومضغتها على مهل ، فى بلادة وصمت . أما الشيخ فقد كان منشرح الصدر ، منطلق اللسان ، يلقى على سمعها بحديثه الذى يقوله وحده دون أن تشاركه الكلام .

ـ الأمور تسير على خير وجه ياعزيزتى . حمدا لله . قسيسنا شيطان مريد داخل مسوح كنسية . كسب الاغا الى صفه ، وها هو ذا قد كتب الى الاسقف أيضا . وسوف ترين ، لن يمضى وقت طويل حتى تقع كل أملاك بطرياركاس فى يدى . يقولون انها ستؤول الى المجتمع ، ايه ، لا تصدقى هذا يا عزيزتى بنيلوب . اتفقت على كل شىء مع القيس ودبرنا أمورنا . ستعرض الممتلكات كلها للبيع فى المزاد ، سيأخذ القسيس نصيبه ، هذا الخنزير كان يحاول أن يبقى عليها لنفسه ، ولكنك تعرفين أننى لا يمكن أن أسمح له بذلك مهما كلفنى الامر . ووصلنا الى اتفاق بعد مساومة . وخلال أيام قليلة ستستولى على حمار ياناكوس طريد الكنيسة . سيكون لك يا عزيزتى بنيلوب . تركبينه لتسرى عن نفسك ، وتتنزهين به حول حقولنا . انه حمار وديع طيع ، وله برذعة .. هل رأيتها ؟ كلها مغطاة بالوبر ـ تجلسين فوقها كأنك ملكة . ولما كنا وحدنا ـ لا أطفال لنا ولا كلاب ـ لا نحمل هموما أو متاعب تشغلنا فاننا بالفعل يا عزيزتى بنيلوب ملك وملكة . آه يا عزيزتى ، لو اعيش مائة عام اخر أو مائتين لوقعت كل ليكوفريسى بين براثنى . هل تعرفين لماذا ؟ لأن الناس جميعا أدعياء بلهاء ، ينفقون أموالهم على شراء الملابس والأحذية ، ناهيك عن انجاب الاطفال . وكل هذا كلف كثيرا ، وحيث ان النقود مستديرة فانها تتدحرج وتفلت منك .. أما نحن .. فى صحتك يا عزيزتى بنيلوب .

وملأ كوبه بماء قراح ، أفرغه فى فمه ، وطرقع بلسانه فى متعة وتلذذ .

واردف قائلا :

ـ ما قيمة النبيذ اذا قورن بالماء الذى أنعم به علينا الرب بواسع رحمته ؟

دفع ميشيل الباب وفتحه دون أن يطرقه ودخل · وتجهم الاب لاداس لمرآه ·وحدث نفسه « لا بد وأنه يبحث عن نزاع · أنا لا أحب نظراته سامثل عليه دور الغبى ·

وقال بصوت عال :

ـ مرحبا بسيدى ميشيل · اجلس · أعتقد أنك اكلت ·

ونهضت الأم بنيلوب ، ورفعت المائدة ، واخذت جوربها وانتحت ركنا حيث انكبت على عملها تغزل ·

وقال ميشيل :

ـ أيها البالوعة ، ماذا ستفعل بكل هذه الحقول وبساتين الكرم وحدائق الزيتون ، والبيوت والخزائن المكدسة بالذهب عندك ؟ هل ستحمل كل هذا معك الى القبر ؟ بينك وبين القبر خطوة واحدة ولم تشبع بعد ؟ وتحاول الآن أن تستولى على حمار ياناكوس المسكين ·· الا تخشى الله ؟ الا تخجل أمام الناس ؟ ·

هرش الشيخ رأسه الاشهب المخروطى وقال فى سريرته :

ـ اقسم بدينى أنه فقد صوابه فعلا · لا زال يقحم الله فى شئونى الخاصة سأتحدث اليه حديثا لينا رقيقا خشية أن تصيبه نوبة وينقض على بقبضته ·

وتصنع الرقة والمسكنة وهو يجيب عليه :

ـ عزيزى ميشيل، ماذا تريدنى أن أفعل ؟ الحق حق· انسان مدين لى بثلاثه جنيهات دهبية ، ماذا أفعل معه ؟ أنا فقير محتاج مثل غيرى من الناس ·

ـ واذا كتبت لك ايصالا بأننى مدين لك بهذا المبلغ ووقعت عليه ؟

وسعل الشيخ ثم قال :

ـ عزيزى ميشيل ، يؤسفنى أن أقول، مع احترامى لك ، أن السنة السوء تحاول أن تشكك فى توقيعك ·· أستلحفك باسم المسيح الا تغضب من قولى ، أنا لا أصدق كلمة واحدة من كل هذه الاقاويل ، ولكننا بشر ـ مثلنا كمثل الآلات الدقيقة اذا ما سقط منها مسمار ·

وثب ميشيل مهتاجا ، وامسك بالكرسى الذى كان سيجلس فوقه ورفعه الى أعلى ثم ألقى به الى الأرض · وقال لنفسه : « انهم بهذه الطريقة

سيدفعوننى الى الجنون حقا ٠٠ » واقترب من الشيخ ، وحدجه بنظرة تقدح شررا ٠

لاذ الأب لاداس بركن يحتمى به ، وتعلق بالشباك ، والقى بنظرة الى الفناء ٠٠٠ وقال لنفسه « الحمد لله ، الباب الخارجى مفتوح ، لوساءت الأمور سأنسل من هنا وهرع الى الشارع ٠٠ »

وصاح بصوت متهدج :

ــ لو استطعت أن تدفع لى المقابل نقدا ٠٠٠

وصاح ميشيل وهو يحصر الشيخ فى الركن ويضيق عليه الخناق:

ــ سأذهب الى البيت أبحث لك عن نقود هناك أيها المتشرد السفيه ، أيها المرابى الخنزير ٠

وقال الشيخ :

ــ ختم الأغا على بيتك بالشمع الأحمر اليوم ٠ وسرعان ما أمسك الشيخ عن الكلام ، وقال لنفسه : « زل لسانى ٠ ما كان ينبغى أن أقول له هذا ٠٠٠ فان ذلك سيثير ثائرته ٠ ولكن سبق السيف العذل ، هلكت وقضى الأمر » ٠

أمسك ميشيل رأسه بين راحتيه ، اذ شعر برأسه يتصدع ٠

وصاح : « أقسم لكم باسم يسوع المسيح انكم تدفعوننى دفعا الى الجنون ٠ أوضح يا شيخ لاداس ٠ هل تطردوننى من بيت أبى ؟ ٠ أقسم بشرفى أننى ساصب البترول على القرية كلها وأشعل فيها النار ٠ لا تذهب أيها السفيه ،الى أين ؟ تعال هنا أيها الخنزير » ٠

وانقض عليه ليمسك به ، الا أن الشيخ استطاع بقفزة واحدة أن يكون عند الباب ٠ واندفع ميشيل وراءه كالسهم ، وأطبق على رقبته٠ وجثا العجوز على ركبتيه وهو يصرخ صريخا كالصرير ٠

ــ من فعل هذا ؟ القسيس ؟ أم الأغا ؟ أم أنت ؟

ــ لا ، لست أنا يا ميشيل ٠ لست أنا ، وسل الأم بنيلوب تشهد على صدق ما أقول ٠ كنت داخل بيتى وأغلقت على بابى ٠٠ ولكننى سمعت ٠٠٠ سل الأم بنيلوب ٠٠٠ أظن أن الأغا ذهب الى هناك هذا الصباح ومعه آبونا جريجوريس ٠٠٠ وقيل لى أن الأسقف سيأتى هو الآخر من المدينة ومعه بعض الأطباء ٠

وصاح ميشيل فى فزع :

ــ أى أطباء ؟ أى أطباء ؟

ـ اتركنى يا ميشيل ، أتوسل اليك ... لا تطبق على عنقى هكذا فانى أكاد أختنق ... سأقص عليك كل شيء . لا تخنقنى .

أمسك ميشيل به من قفاه ورفعه الى أعلى وأوقفه على قدميه .

ـ تكلم أيها الشيخ القذر . قص على كل شيء دون أن تحذف حرفا .

ـ بنيلوب ، آتنى بكوب ماء ... فانى أحس بغصة .

ولكن بنيلوب واصلت غزلها . لم تسمع شيئا ، ولم تبد حراكا . كانت تغزل وتبتسم هادئة ، ساكنة ، كأنها فى عالم الأموات .

وقال الشيخ :

ـ دعنى أغلق الباب حتى لا يسمعنا الجيران . وقفز الشيخ الى الطريق ، وأطلق ساقيه للريح وهو يصيح :

ـ النجدة يا أهل القرية ، النجدة . ميشيل يحاول أن يخنقنى .

واستبد الفزع بالجيران وأغلقوا عليهم الأبواب . وواصل الأب لاداس عدوه وصياحه ، يبذر الفزع فى القرية حتى وصل الى بيت القسيس جريجوريس . وظهر القسيس عند عتبة داره .

ـ النجدة يا أبانا ، ميشيل أصابته نوبة ، يريد أن يخنقنى . ادخلنى الى بيتك .

ولكن القسيس بسط ذراعيه ليسد عليه الباب . وقال له :

ـ اجر يا شيخ لاداس . أصرخ بأعلى صوتك حتى تهيج أهل القرية جميعا . أصرخ بكل ما أوتيت من قوة حتى يسمعك كل من فى القرية ويصدقون ... هيا انطلق فى طريقك واعد .

ثم أغلق بابه فى وجهه .

وتساقط المطر ثانية . أدرك الأب لاداس حيلة القسيس وأعجب بها ، فواصل عدوه هنا وهناك ، يقف عند كل ناصية ويصرخ صرخات مولولة . وعثر على حبل فالتقطه من على الأرض ، ولوح به كشاهد على صدق ما يقول .

اقتحم ميشيل على بيتى ليخنقنى ، وها هو الحبل . النجدة يا اخوتى . ليفتح لى احدكم بابه ويدخلنى . ميشيل يطاردنى ، يحمل معه البترول ليحرق القرية .

ولا يكاد يرى بابا يفتح حتى يجرى بعيدا عنه ، ويستمر فى صيحاته المولولة .

أتى معه ببعض البترول ليشعل النار فى القرية ، النجدة ، النجدة •

وسرعان ما ساد القرية هرج ومرج • أمسك البعض ببنادقهم ، واحتموا بالأبواب فى انتظار ميشيل حين يقتحم عليهم بيوتهم • وخرج الأغا الى شرفته •

ـ ليذهب اثنان من الأقوياء الأشداء ويقبضا عليه • أين بانايوتى؟

وأتى اليه بانايوتى على عجل •

ـ فى خدمتك يا أغا •

ألقى اليه الأغا بحبل وقال له :

ـ خذ هـذا واجر وراءه ، أوثق يديه ، وائتنى به ••• انتظر واسمعنى : سألحقك ابتداء من اليوم بخدمتى ياباناتيوتى لتكون حارسا لى • أنت انسان حرس قوى شديد البأس تنبح كالكلب • تتوفر فيك صفات الحارس الذى أحتاج اليه • انتظر حتى ألقى اليك بطربوش حارسى القديم عليه اللعنة • سترتديه من الآن فصاعدا • اذهب ، أتمنى لك حظا سعيدا •

واستدار وأخذ الطربوش من فوق المشبك المعلق عليه وألقى به الى باناتيوتى •

ـ خذه لعل الخير يأتيك معه •

ثم نظر الى براهيماكى الذى كان يجلس وراءه يدخن فى تراخ ، وينفث سحابات الدخان من أنفه • وقال له :

ـ يبدو لى يا عزيزى براهيماكى أنهم دفعوه دفعا الى الجنون ، هذا المسكين •

وقال المهر غاضبا :

ـ متى سيأتونى بالنساء • أقسم اننى أصبحت على شفا الجنون •

أمسك باناتيوتى بالحبل والطربوش ، وقصد بيت الأب لاداس •

ولكن ميشيل كان قد غادر البيت • جرى بعيدا ، واختار الدروب والأزقة الجانبية حتى لا يراه الناس • وكان الناس يغلقون أبوابهم اذا مر بهم ، والنساء يصرخن فزعا وخوفا •

وما ان بلغ الطريق المؤدى الى الجبل حتى توقف عن الجرى بعد أن تقطعت به الأنفاس • وتساقط المطر رقيقا حانيا بعد أن كان سيلا طاميا • وأحاطت بالجبل غلالة رقيقة من الضباب ، وغطى الماء السهل • وتوارى

ميشيل وراء صخرة ينتظر حتي تنقشع السحب ويصحو الجو • وأحس بجفاف فى حلقة •

وحملق فى المطر • وانصت لخرير الماء المتساقط من فوق الصـــخور كالشلالات• وسبحت أفكاره مع المياه الجارية، وجرفتها معها الى السهل• كانت افكاره تجرى مع الماء فوق الأرض وتزداد معها وتتضخم ، وتأتيها روافد تصب فيها من كل جانب حتي أصبحت شـلالا قويا هدارا يفيض على القرية كلها • وانبسط صدر ميشيل• وأخرجت الأرض أحياء وأمواتا علاهم الطين ، ســاروا فوق الســهل وتحت وابل المطر بخطوات هادئة وقور • وأقبلوا نحوه فى موكب طويل • كان يتقدمهم رجل ميت طويل القامة ، بدين ، مبطان ، أزرق اللون في خضرة : انه العمدة • كان كيوم الحشر • نفخ الملاك فى النفير ، وخرجت الديدان البشرية من تحت الطين•

كان ميشيل قد قرأ منذ أيام قلائل رؤيا يوحنـا • وازدحم رأسه بالملائكة والنفير والعاهرات والجوارى يمخرن عباب البحار ذات الشطآن المائجة ، وفرسان يمتطون صهوات جياد سوداء وخضراء وحمراء وبيضاء، تخوض بأقدامها فى بحار من دماء ••• وحملق ميشيل ببصره فى المطر، وأنصت لخرير الماء المتساقطوانتفضت وجنتاه• وشعر كأن الأرض تتفتت من تحته • وبدأ الظلام يلف الأرض، فقد جن الليل مبكرا• واستمر هطل المطر حزينا ، رتيبا ، وكأنه يصرفى عنـاد على أن يغرق العـالم ويفتت الأرض من تحته •

وفاض الدمع من عينيه ، وتمتم قائلا :

ـ يا الهى ، أنت وحدك الباقى الذى لا يتغير • لولاك يا الهى لما وجد الانسان من يأمل فيه ويتعلق به ، يوم أن يختفى كل شيء ، وتتحلل الدنيا وتغيب عن الوجود • والا ففيمن يكون أمل الانسان ورجاؤه ؟ هل فى المرأة التى يحبها ؟ أم فى الأب الذى انجبه ؟ أم فى البشر ؟ كل شيء يذوى ويتفتت ويزول ويختفى وأنت وحدك يا الهى الباقى الموجود ، فكل شيء هالك الا وجهك • دعنى أركن اليـك ، أنت دون سـواك ، وثبت أقدامى يا الهى فانى أكاد أفقد صوابى •

❋ ❋ ❋

قضى القسيس فوتيس ومانولى ساعات طويلة داخل الـكهف فى انتظار ميشيل حتى استبد بهم القلق •

وقال مانولى :

- الانتصار فى هذه المعركة يا أبانا يتطلب منا نضالا شاقا وعسيرا. ترى هل تستحق الحياة الدنيا كل هذا العناء والوقت ؟

ومضت عينا القسيس فوتيس وقال فى حسم :

- نعم تستحق ، وتستحق الكثير . أتى على حين من الزمن اعتدت فيه أن أحدث نفسى قائلا « لماذا النضال والعناء من أجل الحياة الدنيا ؟ ما قيمة هذا العالم كله ؟ أنا طريد منفى من السماء وأتلهف شوقا للعودة الى وطنى ومنبتى ... ولكننى فهمت أخيرا . لا يدخل السماء الا من يعقد له لواء النصر أولا على الأرض ، ولن يعقد لواء النصر على الأرض الا لمن يناضل فى حماس وجلد ، ودون كلل أو مهادنة . الأرض للانسان هى المنطة التى يقفز من فوقها الى السماء . وكل القساوسة والشيوخ من أمثال جريجوريس ولاداس ولأغا ، وذوى الأملاك ، هم قوى الشر التى تجمعت ، وكان نضالنا ضدها قدرا مقدورا . ولو وضعنا ايدينا الى جنوبنا دون أن نبدى حراكا فاننا نلقى بأنفسنا الى التهلكة ، هلاك على الأرض ، وهلاك فى السماء .

- ميشيل رقيق غاية الرقة ، ألف الحياة السهلة الرغدة ، ومن ثم فانه لن يقدر ...

- نحن نقدر . ولننتظر ما سيأتينا به من أخبار هذا المساء . فان كانت أخبارا سيئة ، سأسافر من فورى غدا الى الأسقف ، وأسأله أن يحكم بيننا بالعدل . الشتاء على الأبواب ، ويجب ألا يحل علينا ونحن عراة جياع بلا مأوى .

وتمتم مانولى :

- آه لو استطعت أن أقدم دمى فداء للأرواح المعرضة للهلاك والخطر ...

- من اليسير على المرء أن يقدم دمه دفعة واحدة دون أن يبذله قطرة قطرة فى النضال اليومى . لو سألنى سائل أى الطرق تؤدى الى السماء فانى أجيب : « أشقها » . لذلك عليك بالطريق الشاق العسير يا مانولى . تشجع .

ولزم مانولى الصمت . أحس أن القسيس على صواب فيما يقوله ، ولكنه كان قلقا . انه لا يستطيع أن ينسى السعادة القدسية التى غمرته يوم أن تقدم ليجود بحياته . لم يخب هذا اللهيب بعد ، لا زال يتأجج بداخله ، بعيدا عنه فى ذات الوقت ، كأنه الفردوس . فالنضال اليومى يبدو له شيئا بطيئا مملولا خاملا ، وهو الانسان العجول .

وصمت الاثنان ، وأصاخا السمع الى صوت المطر المتساقط، وخرير الماء فوق الصخور • وبين الحين والآخر تبرق السماء ومضة تمزق عتمة الليل وتدخل الكهف فتضيء وجهين شاحبين ورقبة وذراعا ، ثم يسود الظلام من جديد •

وفجأة سمعا وقع أقدام مسرعة •

واندفع مانولى الى الخارج وصاح :

ـ ميشيل !

وتعانق الصديقان في الظلام ، ودلفا الى الكهف •

وقال القسيس فوتيس :

ـ مرحبا بعزيزنا ميشيل • ما وراءك من أخبار عن ليكوفريسى ؟

ـ توقيعى غير ذى قيمة وضع الأغا أختاما على أبواب بيت أبى ، وسيأتى الأطباء ليعلنوا أننى مجنون ••• وأخيرا فان ماريورى تلفظ أنفاسها ••• هذه هى أخبارى ، ولا حق لكم فى الشكوى فقد أتيتكم بأخبار لا تقدر بثمن •

وترك نفسه يسقط الى الأرض ، وأسند ظهره الى الصخرة • وبعد صمت قصير حاول أن يطلق بعض الدعابات •

ـ لا حق لكم فى الشكوى ، فأنا لم آتيكم صفر اليدين •

ونهض القسيس فوتيس وهو يقول :

ـ نحن لا نشكو، وهكذا يكون الرجال : أنيتحملوا المعاناة والظلم، ويناضلون دون كلل أو استسلام • ونحن لن نستسلم ولن نكل أبدا يا ميشيل • وغدا سأتوجه الى المدينة لأناضل •

وهز ميشيل رأسه •

ـ افعل كل ما يلهمك به الرب يا أبانا • لقد تعبت وسئمت • ولا أستطيع أن أفعل شيئا أكثر من ذلك ••• استبد بى الغضب لحظة وأنا فى القرية • وراودتنى نفسى أن أخنق الأب لاداس ، وأغرق القرية بالبترول ، وأشعل فيها النار • ولم أكد أهم بذلك حتى أحسست بالتعب الذى ثبط همتى ، وتولانى خوف لذت بعده بالفرار

وأمسك مانولى بذراع صديقه فى الظلام ، وأحس كأنه يتلظى نارا • وقال له :

ـ لنواصل نحن النضال يا ميشيل •

توقف المطر عن السقوط ، ونهض القسيس فوتيس • وقال :

ـ طبتما مساء · سآوى الى مخدعى أدبر أمرى لرحلة الغد · سنبدأ رحلتنا مع مطلع الفجر يا مانولى ·

واختفى القسيس فى الظلام ·

وتنهد ميشيل ، وقال :

ـ ما أشق الحياة وما اقساها· هل لك أن تسدى الى خدمة يامانولى· غدا عندما تذهب الى المدينة ، أرجوك أن تزور ماريورى وتبلغها تحياتى· هذا كل شىء ·

واستلقى فوق حشيته ، وأغمض عينيه فى انتظار وجه أبيه يطالعه فى منامه ·

* * *

وفى الغد سار مانولى والقسيس فوتيس فى طريقهما صامتين لم يتبادلا غير كلمات قليلة · كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وان كان المطر قد توقف بعد أن كان بالأمس طوفانا طاميـــا · وغطى الوحل الأرض ، وها هما يخوضان فيه بأقدام عارية · يشقان طريقهما فى صعوبة كبيرة الواحد وراء الآخر ·

سارا وسط حقول خصبة مغطاة بالأشجار والكرم ، تتسع أمامهم السهول حينا ، وتضيق حينا آخر · وفجأة انقشعت السحب ، وسطعت الشمس ، وظهرت قطع زرقاء من السماء صافية وضاءة منعشة · واطل عليهما من فوق ربوة عاليــة عمودان أثريان من المرمر يشع منهما بياض ناصع ·

وتنهد مانولى :

ـ كل هذه الأراضى كانت أرضنا نحن اليونانيين يوما ما ···

وتوقف القسيس فوتيس لحظة ، وشـــخص ببصره الى العمــودين المكسورين ، ورسم علامة الصليب كأنه يمر باطلال كنيسة قديمة · واعتمل فى نفسه غضب شديد ، ولكنه لم ينبس ببتت شفة ·

واصلا طريقهمــا فى صمت ، كل منهما يحمل جرابه على كتفه · القسيس فى ردائه الدينى المرقع ، ومانولى فى ملابسه الرثة الخشنة ·

وكلما مرا بقرية نبحت كلابها، فتفتح أبواب وتطل رءوس ،وتحملق فيهما عيون ، وبين الحين والآخر تترامى الى سمعهما كلمة ترحيب رقيقة « مرحبا بكما ، الى اين وجهتكما ؟ طريق الســـلامة » · ثم تغلق الأبواب ويعود رسولا الفقر ثانية الى وحدتهما فى طريقهما القفر ·

وعند الظهيرة توقفا عن المسير تحت ظل شـــجرة ليزدردا شيئا من

الطعام يستعيدان به قوتهما • وارتقيا حجرين وجلسا فوقهما ، ومن حولهما الأشجار العطرة ـ أشجار الندغ والسعتر والنعناع والفودنج والسحلب ـ وهي الأشجار التي أوسعتها الأمطار بالأمس ضربا بسياطها المنهمرة ، فجادت بشذاها العطرى • وبزغت الشمس لحظة ، وتزينت السماء بقوس قزح •

وتأمل القسيس فوتيس سحر السماء والأرض عقب المطر • وانفجرت أسارير وجهه الشاحب الحزين • وقال :

ذات يوم كنت فوق الجبل المقدس ، وقصدت الأب سوفرونيوس الذى كان يعيش فى خلوة بعيدة عن الدير ، فوق هوة سحيقة • وسألته : « كيف اهتديت الى طريق الخلاص يا أبانا سوفروينوس ؟ » وإجابني « لست أدرى يا بنى • اهتديت اليه دون علم منى أو تدبير •• استيقظت من نومى ذات صباح ، عقب مطر غزير استمر طوال الليل ، وأطللت من النافذة • هذا كل ما حدث» • هل هذا هو كل شيء يا أبانا سوفرونيوس؟ وهل تطمع فى أكثر من ذلك يا بنى ؟ رأيت الرب من نافذتى •• ومنذ ذلك الوقت وأنا أستيقظ مبكرا كل صباح لأرى الأرض عقب المطر وأذكر الناسك العجوز ، وتفيض نفسى شجونا • لا بد وأنه أودع روحه لبارئها منذ زمن طويل ، وهو الآن يتنزه بين مروج الفردوس • وربما يسقط الله المطر من سماء الفردوس ليدخل السرور على نفس عبده الصالح •

وارتجف مانولى : أحس أن كلمات القسيس أعطت الأرض المبتلة معنى ساميا رفيعا انتعش له قلبه •

وبعد ثوان من الصمت قال :

ـ شكرا لك يا أبانا • اعتدت أن أرى الله فى لحظات العسر والشدائد ، وأنت ترينى الله فى كل لحظة تمر بى • أبحث عنه فى الموت القاسى العنيف ، وأنت ترينى الله فى نضالنا اليومى المتواضع • وأدركت الآن فقط لماذا نقصد المدينة ومع من سنواصل نضالنا هناك •

ـ الانسان يا بنى لا يعثر أبدا على ما يجد فى اثره بحثا عنه • سنجد الله حيثما نولى وجوهنا وأينما ذهبنا • ولن نراه على الصورة التى يرسمها له اولئك الذين لم يروه أبدا ـ شيخا متورد الوجنات ، يجلس فوق سحاب كالصوف المندوف فى غبطة وبلهنية يصدر الأوامر ـ ولكننا سنجده صوتا ينبعث من أعماقنا ليعلن حربا : بالأمس كانت حربا ضد القسيس جريجوريس ولاداس ، واليوم حربا ضد الأسقف ، وسنرى ضد من ستكون حربنا فى الغد ••• ولكنها حرب دائما وأبدا ، حرب مقدسة يا بنى •

ثم واصلا المسير من جديد ، وبلغا مشارف المدينة مع الشفق ، ورأوا على البعد قباباومسجدا ومئذنتين ترتفعان فيقوة ورشاقة الى عنانالسماء· وعندما همـا باجتياز بوابة حصن المدينـة ، أذن المؤذن يدعو المؤمنين الى الصلاة بصوت آمر ولكنه حلو رقيق ·

وامتدت أمام بصرهما المدينة· تسلم بعض الجنود الأتراك نوبة الحراسة عند البوابة ورأيا الطرقات تعج بمن فيها من الأتراك - رجال يدخنون النارجيلة ، وبكوات يجلسون القرفصاء فوق حصير ، وغلمان سمان لهم صوت واهن رقيق كصوت الصـبايا ، يعزفون علىالطنبور ويغنون أغنيات أمان ، ونساء محجبات يمشين الهوينى، ويخطرن فى تصنع ظاهر ،وأتراكا حفاة بدانا ، فتحوا عقيرتهم ليعلنوا عن بضائعهم : فطيرا مقليا بالسمن ، وسحلبا دسما معطرا ، وفشارا ···

وآوى صديقانا المسافران الى منزل مسيحى بعد أن اضناهما طول المسير ··· كان الطابق الأرضى حظيرة للبغال والحمير · وصفت فى الطابق الأول ، وهو حجرة واسعة ، حشـايا من القش · وكان القسيس فوتيس يعرف صاحب المنزل الشيخ يبراسيموس ، وهو شـيطان داهية ، ذئب بحر ، كان يعمل قبطانا فى سالف أيامه ثم القى مراسيه أخيرا عند هذه البلدة المغلقة ، وتزوج ، بعد أن تقدمت به السن ، من فتاة هيفاء رشيقة القد ، من آسيا الوسطى ، وانجب منها أطفـالا · وفتح هذا المنزل حيث تقوم زوجه بأعمـال الطبخ ، ويقوم هـو بالأعمـال التى تتعلق بالرجال والحيوانات ، يلقى لكمة هنا ودعابة هناك · أصلع الرأس، ذو كرش كبير، يزعم أن كرشه يمنعه من الانحناء حتى يرى نفسه بعينيه ان كان ذكرا أم أنثى ···

ولم يكد يقع بصره على القسيس فوتيس حتى ترك منصـة الحساب وهرول اليه يستقبله ·

وصاح فى غبطة :

- أى ريح طيبةحملتك الينا؟ أنت الانسان الذى أحتاج اليه ياأبانا· اقترفت خطيئـة كبيرة من جديد · فذات يوم نسى حمـال حافظة نقوده هنا ، وكانت ملأى بالقطع الذهبية ورددتها اليه · ومنذ ذلك اليوم وأنا أشعر بتأنيب ضمير بسبب هـذه الخطيئة التى اقترفتها نفسى التعسة ، واشتد بى الحزن حتى يكاد أن يذهب عقلى ·

ولـكن القسيس فوتيس لم يكن فى حالة مزاجية تسمح له بتقبل الدعابة · وقال له :

ـ سنمكث عندك يومين يا شيخ يبراسيموس · هل لنا فى بعض الطعام نأكله ، وحشيتين ننام عليهما ··· نحن لا نملك نقودا ، وسجل علينا ايصالا بكل ما ننفقه · سأدفعه لك يوما ما يا كابتن ، ثق من هذا ولا تقلق ·

وضحك البحار القديم ضحكة عالية وقال :

ـ من طالبك بنقود يا ابانا ؟ اذا لم يكن معك نقود فان التجار البدان الأثرياء الذين ينزلون فى نزلنا معهم الكثير · سأطالبهم بضعف ما يتكلفون · وهكذا يعود الى حقى وزيادة · فضلا عن أننى لو عثرت على حافظة نقود فلن أردها ··· أهلا بكما · سنتناول عشاءنا الليلة معا · لستما زبائنى بل ضيوفى ··· هيه ··· يا كروستالينيا ·

خرجت من المطبخ امرأة فحلة ، واسعة العينين وتحمل طاجنا فوق رأسها ·

وأصدر اليها الأب يبراسيموس أمره :

ـ قبلى يد القسيس · سأتناول معه العشاء الليلة هو وصديقه · هل تفهمين معنى ذلك ؟ كستليتة من لحم الخنزير ·

وتقدمت السيدة كروستالينيا تتبختر فتهتز أردافها ، وقبلت يد القسيس ثم عادت الى المطبخ ·

ونادى عليها زوجها فى مرح :

ـ الى أين يا زوجتى ؟ لن يأكلك أحد هنا ، انتظرى قليلا حتى نمتع ناظرينا منك ·

وغمز بعينه للقسيس وسألها :

ـ كم عدد الكمثرى التى يتسع لها الكيس ؟

وقالت صاحبة المنزل الجميلة ، وقد احمر وجهها خجلا :

ـ ألا تخجل يا رجل من شيبتك !

وضحكت وأسرعت حيث توارت فى مطبخها ·

واغرق يبراسيموس فى الضحك وقال :

ـ نعم ، نعم ، ما أغرب المرأة يا أبانا · أنا لا أعرف رأى الكتاب المقدس فيها ،ولكننى واثق تماما من شيء واحد : أن الرب هو الذى خلق الرجل ، أما المرأة فقد خلقها الشيطان · هل تريد دليلا على ذلك ؟ سألت الناس جميعا « كم عدد الكمثرى التى يتسع لها الكيس » · ولم يعرف أحد اجابة على سؤالى · أما زوجتى ، هذه الداهية ، فقد عرفت الاجابة ·

قالت لى : « اثنتين » هل تصدق ؟ اثنتين » · انهـا زوجة شيطانة لها عينان مثل عيون المها ·

***

فى صباح اليوم التالى رسم القسيس فوتيس علامة الصليب وانطلق حافى القدمين الى دار الأسقفية · وفتحت له الباب فتاة بدينة من بنات الريف ، تفرست القسيس وحدجت بنظرها يديه الفارغتين ، وامتعضت وقالت له :

ـ جئت مبـكرا جدا · لم يصح السـيد من نومه بعـد · وجلس القسيس فوتيس فوق أريكة حجرية وسط الفناء فى انتظار السيد ·

ـ وتوافد الزوار بعده : رجالا ونساء ، كل منهم يحمل تقدمته فى يده ··· سـلة مملوءة بيضـا أو أرنبا أو كرة من الجبن او ديكا ··· وأخذت الفتاة القروية الهدايا من أصحابها وهى تبتسم لهم ، ودخلت بها الى البيت · وكانت تقدم لكل واحد كرسيا أو مقعدا يتناسب مع هديته·

وهمس شيخ يجلس بجوار القسيس فوتيس :

ـ هذه ابنة أخته ···

وبعد ساعة تنـاقلت الألسن الخبر من فم الى فم تعلن أن الأسقف صحا من نومه · سمع أحدهم السرير يئز ، وسمع آخر سـعاله ، وزعم ثالث أنه يسمع صوت غرغرة الماء فى فمه ·

وهز الجميع رءوسهم فى احترام واجلال ، وشخصوا بابصار خاشعة الى شيش النافذة المغلقة · ودوى صوت سعال قوى ، تبعته جلبة شخير ونخير وأخيرا قرقعة ماء يفرغها من فمه ·

وقال الشيخ :

ـ انه يغتسل الآن ···

وران عليهم سـكون عميق ليحظوا بسـماع الوحش المقـدس وهو يغتسل ·

وبعد ربع سـاعة ترامى الى سـمعهم رنين أطبـاق وأكواب وملاعق وسكاكين ، وصوت كراسى تنقل ·

ـ انه الآن يحتسى قهوته ···

ومضى نصف ساعة ، دوت بعده صيحات مولولة وصوت بكاء ونشيج·

ـ انه الآن يضرب ابنة اخته ···

ولم يمض وقت طويل حتى سمعوا صرير درج السلم ، وشخصا يتمخط بقوة وعنف .

ونهض الشيخ أخيرا وقال بصوت هامس :

ـ انه الآن ينزل الدرج .

وفعل الحاضرون مثل ما فعل تماما ، نهضوا وشخصوا بأبصارهم الى الباب. ودوى صوت جهورى ينادى :

ـ أنجيليكا ، آتني بأول الزائرين !

انفتح الباب ، واطلت منه الفتاة القروية بعينين حمراوين ، وأشارت الى القسيس فوتيس الذى تقدم نحوها ودخل . وأغلقت الباب بعده .

كان الأسقف جالسا الى مائدة مستديرة ، بدينا مكتنز اللحم قويا، له لحية بيضاء قصيرة وبروز فى أنفه كأنه الخرتيت . وقال :

ـ ها أنذا أنصت لك . أوجز . أظن أنى رأيتك قبل ذلك . ألست أنت اللاجىء ؟ تكلم .

أحس القسيس فوتيس لأول وهلة برغبة فى الخروج وأن يصفق الباب وراءه . هل هذا هو ممثل المسيح ؟ هل هذا هو من يعلم الناس المحبة والعدالة ؟ هل له أن يتوقع منه أن يرد له حقوقه ؟ ولكنه آثر ضبط النفس ، وتفكر فى أطفال ساراكينا والشتاء الذى يوشك أن يدهمهم . وفتح فمه ليتكلم . ولكن الأسقف أوقفه باشارة من يده .

ـ اذا أتيت مرة أخرى الى قصر الأسقفية فيجب أن تنتعل حذاءك .

وأجاب القسيس فوتيس :

ـ ليس عندى حذاء . كان عندى ، أما الآن فلا. ثم معذرة يا سيدى اذا قلت ان المسيح كان يمشى حافى القدمين .

وعبس الأسقف وبسر ، وهز رأسه توعدا وجأر :

ـ حدثنى عنك القسيس جريجوريس . أظنك تحاول أن تمثل أمامنا دور يسوع المسيح . وتدعى أنك ترسى دعائم المساواة والعدالة على الأرض ... ألا تخجل ؟ تطالب بأن لا يكون ثمة أغنياء وفقراء ، وبالطبع لا أساقفة كذلك ... أيها المتمرد .

وانتفضت اوداج القسيس فوتيس ، وضغط بأصابعه على راحة يده ، ولكنه تذكر من جديد ساراكينا ، فكظم غيظه ، وآثر الصمت .

ـ هل تخرجت من معهد اللاهوت بالقسطنطينية ؟

ـ لا يا سيدى ٠

ـ اذن بأى حق تواتيك الجرأة على الحديث معى ؟ ليس لى أن أتناقش معك يا أبانا ٠٠٠ أتيت تسألني معروفا ، فما هو ؟ حدثني عنه على عجل ، فثمة غيرك كثيرون ينتظرون مقابلتى ، وتروى فيما تقول ٠

ـ لم آتك لأسألك معروفا يا سيدى ٠ وانما أتيتك لأسألك تحقيق العدالة ٠

ـ مالى أراك تنظر بعينيك نظرات وقحة هـــكذا ٠ غض من طرفك عندما تتحدث الى ٠

جال القسيس فوتيس بعينيه فيماحوله ٠ رأى خلف الأسقف أيقونة المســـيح على الصليب ، وخزانة كتب ملأى بكتب مذهبة الحواف ٠ وأمامه صورة أكبر من الأيقونة ، صورة صاحب الغبطة الأسقف ذاته ، فى رداء الأسقفية الموشى بالذهب ، وفوق رأسه تاج يتألق ، وفى يده صليب مطليا بالذهب ٠ و أبدى الأسقف امتعاضه لسكوت القسيس ٠ فقال :

ـ يا أبانا ، تكلم أو انصرف ٠ ليس عندى وقت أضيعه سدى ٠

ـ ولا أنا يا سيدى ٠ انى منصرف ٠ قصدت ان أسالـكم العدالة ، ولكننى أدركت الآن ٠ سأسأله هو فى سماواته ٠

وأشار باصبعه الى المسيح المصلوب ٠

واستدار الأسقف وقال :

من ؟

ـ المسيح المصلوب ٠

جن جنون الأسقف ٠ وضرب المنضدة بقبضته :

ـ اذن فالقسيس جريجوريس على صواب فيما يقول٠ أنت اشتراكى٠

ورد عليه القسيس وهو يشير الى المسيح المصلوب :

ـ نعم ، ان كان هو كذلك ٠

ونادى الأسقف :

ـ انجيليكا ٠

وظهرت ابنة أخته البدينة ٠

ـ لو عاد هذا القسيس مرة أخرى ـ أنظرى الى وجهه لتعرفيه جيدا ـ فلا تدخليه ٠

وقال القسيس فوتيس فى هدوء :

ـ سيحكم الله بيننا يا سيدى الأسقف ؛ فلا تنزعج · سنمثل بين يديه ، أنا وأنت ،فى الآخرة حفاة الأقدام ·

وفتح الباب ، وخرج دون كلمة وداع ·

وهام على وجهه فى الطرقات ساعات طويلة ، ودخل الى السوق المغطى بالحصير ، وانتظر قليلا فى صحن أحد المساجد ، ثم اجتاز قنطرة صغيرة ، وتاه وسط بعض الحدائق ، ثم انسل الى حوارى القرية · وتلفت حواليه ولم ير شيئا · كان رأسه يغلى حتى غشى بصره · يفكر فى الأسقف وأطفال ساراكينا ، والشتاء الذى يطرق الأبواب ·

وفجأة وجد نفسه أمام نزل الأب يبراسيموس ·

وصاح به صاحب النزل :

ـ طار العصفور مبكرا ليتنزه ·

وجلس القسيس فوتيس خائر القوى ، كأنه عائد من آخر الدنيا· وأسند ظهره الى الحائط ، وأغمض عينيه وتنهد ·

* * *

أوفى مانولى بوعده ، وعاد ماريورى فى مستشفاها · كانت نائمة، فجلس بجوارها ينظر اليها ، وانتظرها ساكنا حتى تستيقظ ··· وكان كلما رنا اليها بعينيه أحس بقلبه ينقبض · أضناها السقم حتى صارت شبحا · أحاطت بجفنيها دائرتان زرقاوان كبيرتان ، ونتأت عظام جسدها من تحت جلدها اليابس ، وشحب وجهها وغار جلده وبرزت عظامه كأن الموت لعق هذا الوجه وأكل منه ··· بعثت من رمسها لحظة من الزمان، لعبت وضحكت وبكت وخطبت ، أمسكت بين يديها بكأس الحياة ملأى ، ولكن لم تمهلها الأرض حتى ترفع الكأس الى شفتيها فها هى تناديها لتعود الى مرقدها ···

وفجأة صعدت ماريورى زفرة عميقة ، وفتحت عينيها ، فرأت مانولى ·

وقالت له :

ـ طاب يومك يامانولى · هل أرسلك الى ؟

ــ نعم ياماريوزى ، أرسلنى اليك ميشيل .

ــ هل حملك رسالة لى ؟

ــ نعم ياماريورى ، لك تحياته .

ــ هل هذه كل رسالته ؟

ــ نعم هذه هى .

وابتسمت ماريورى فى مرارة . وقالت :

ــ ماذا أنتظر غير هذا الآن ؟ لا شيء غير كلمة تحية ، حسبى ذلك.

وأدارت وجهها بعيدا لتخفى عبراتها . ثم تمالكت نفسها وامسكت دمعها ، واستدارت الى مانولى وقالت له :

ــ مانولى ، عندى رسالة له أيضا .

وتحسست بيديها تحت الوسادة حتى عثرت على المقص .

ــ ساعدنى على الجلوس .

ورفعها مانولى بين ذراعيه ، ووضع الوسادة خلفها وأسندها اليها فى حرص شديد .

وخلعت ماريورى عصابة رأسها ، وحلت الشريط الحريرى الأسود الذى يربط ضفائرها الكستنائية . أمسكت بالمقص وحاولت أن تقص ضفيرتيها ، ولكن خانتها قواها، فلم تستطع .

وقالت :

ــ لا أستطيع يامانولى ، خارت قواى ، أعنى أنت على ذلك

وقال مانولى جزعا :

ــ هل تريدين أن تقصيهما ؟

فقالت بصوت واهن :

ــ قصهما أنت .

وأمسك مانولى بين يديه المرتحفتين بضفيرتى الفتاة الصغيرة الدافئتين .

وعاودت ماريورى طلبها :

ــ قصهما أنت .

قص مانولى احداهما ، واتبعها بالثانية . كان يرتعد كأنه يقص لحما حيا .

أمسكت ماريورى بالضفيرتين الطويلتين ، وتأملتهما طويلا . كانتا ملء راحتيها . وهزت رأسها العارى الذى سلبته شعرها . وفجأة انخرطت فى بكاء ونحيب . ومالت عليهما وكفكفت دمعها بهما، ثم لفتهما فى منديلها كأنها تكفن جثة طفل حبيب وعقدت المنديل وناولته الى مانولى .

وقالت :

ـ خذهما واعطهما له وقل له : « ماريورى تبلغك تحياتها » هذا كل ما أريد .



أمّا الجسد...

« كل شيء على ما يرام ، كل شيء على ما يرام ... » هكذا كان القسيس فوتيس يحدث نفسه وهو في طريق عودته من رحلته يخوض في الأوحال . « حمدا لله ان الأمور تسير على خير وجه » .

ويمشي وراءه مانولي ، محنى الظهر ، منكس الرأس تحت ثقل الضفيرتين في زكيبته ، كأنه يحمل على كاهله جثة امرأة ميتة .

تلبدت السماء بالغيوم ، ودوى قصف الرعد ، وبدأ المطر يهطل مدرارا .

ولا زال القسيس فوتيس يردد بينه وبين نفسه ، وهو يحث الخطى:

ــ كل شيء يسير على ما يرام ، وليس في الامكان أبدع مما كان .

كانت تلك كلماته التي يرددها ولا شيء سواها . وواصل سيره حثيثا حتى كأنه يعدو ، والمطر يلطم صفحة وجهه . وحوم فوقه سرب من طيور الكركي ، فلم يرفع عينه لينظر اليه . ثم بدأ يعدو بالفعل .

ومع الغسق طالعتهما قمة جبل ساراكينا الوعرة . والتفت الى مانولي ، وقال له بنبرة تفيض عزما واصرارا .

ــ سنناضل يامانولي، الناس جميعا في جانب ــ أساقفة وقسيسين وأعيانا ، وكلهم أناس أعمى الله بصيرتهم ، وفي الجانب الآخر ، نحن وحدنا ، حفنة من الحفاة يسير المسيح في طليعتهم . تشجع يامانولي فالنصر لنا .

وضاقت خطوته ،وهو يخوض فى الوحل ، وضحك عاليا :

ـ يسألنى لماذا لم أنتعل حذاء ، أراهن بأن قيافا وجه نفس السؤال الى المسيح ٠

* * *

قضى ميشيل هذين اليومين كروح هائمة معذبة ٠ بات يفزع من النوم ، اذ لا يكاد يغفو حتى يطالعه أبوه ، عاريا تماما ، يحدجه بنظرة كلها تأنيب ٠ وطفق يقول لنفسه فى جزع : « لو بقيت على هذه الحال أياما قلائل فسوف أفقد عقلى تماما » ٠

ولاذ بانجيله الكبير ، آملا أن تجنبه القراءة هذه الرؤيا المفزعة ، ولكن الحروف تراقصت أمام عينيه ولم يستطع أن يمسك بها ٠ وأغلق الكتاب ، وعاد يذرع الكهف بخطواته من طرفه الى نهايته ٠

وفى ذلك اليوم زاره ناظر المدرسة مع غبش الليل ٠ زعم له أنه جاء لينعم بصحبته ٠ بدأ حديثه اليه عن أبيه وخطيبته والشتاء المقبل ، وشعب ساراكينا التعس ، وأبدى دهشته كيف سيتحمل هؤلاء قسوة الشتاء٠ ثم تطرق الى موضوعات أكثر خطورة ـ عن الحياة والموت ، وواجب الانسان ٠٠٠ وأجابه ميشيل عن كل هذا ، ضجرا ، شارد اللب ، قلقا أن يعود الى خلوته من جديد٠ وثبت ناظر المدرسة عينيه على عينى ميشيل٠ وسرعان ما أدرك ميشيل حقيقة مهمته وهب ثائرا مغيظا ٠ وقال له :

ـ يا حضرة الناظر ، هل جئت لتتحقق ان كنت مجنونا أم لا ؟

فقال ناظر المدرسة محتجا وقد احمر وجهه :

ـ ماذا تعنى يا عزيزى ميشيل ؟

ـ أعرف أنك رجل فاضل ذو ضمير يقظ ٠ أتيت الليلة لتتأكد بنفسك ان كان أخوك القسيس كذابا أشرا أم لا ؟ ترى ما هى النتيجة التى وصلت اليها بنفسك يا حاجى نيكولا ، أيها الرجل الصادق الأمين؟

لزم ناظر المدرسة الصمت ولم يتكلم ٠

ونظر ميشيل الى ناظر المدرسة فى اشفاق وتمتم :

ـ صادق أمين ، ولكن روحك جبانة ٠٠٠ رغم ما تتحلى به من صدق وأمانة لا تجرؤ على الاجابة يا صاحب الروح الخانعة ٠

وقال ناظر المدرسة بصوت خفيض :

ـ لا ، لا ، لا أجرؤ ٠٠٠

ـ ترى لو سئلت هل تقول الحقيقة ؟

ـ نعم أعتقد هذا ، ولكن من المؤكد أنهم لن يسألونى عن شيء ·
ـ واذا لم يســالك أحد ، هل لن تبادر وتقف لتعلن الحقيقة على الملأ ؟

وسعل ناظر المدرسة دون أن يجيب ·

وفى النهاية استولى عليه الخجل وهو يقول :

ـ لا ·

ـ وأحس ميشيل بالأسى من أجله ، وان لم يزايله الغضب · وصرخ فيه :

ـ هل هذا هو ما تعلمه للأطفال ؟ هل لم يجدوا غيرك ليربى الجيل الجديد ؟

ونهض ناظر المدرسة وقد بداعليه الاعياء التام ·

وقال :

الروح متأهبة ، أما الجسد ···

ـ ان كانت الروح متأهبة ، فماذا يهم الجسد ؟··· انها تفعل به ما تشاء ·

وأحس ميشيل فى أعماقه أنه ينال من ناظر المدرسة لا لشيء الا لأنه على شــاكلته · كان يتحدث اليــه بهذه القسوة وكانه ينــكل بروحه ويعيرها ·

وواصل ميشيل حديثه :

ـ لماذا كان اللئام ذوى بأس وقوة فى هذه الدنيا ؟ ولماذا كان الأخيار ضعافا ؟ هل لك أن تفسر لى ذلك أيها الحكيم ؟

ـ لا ، لست أدرى ·

ثم أردف قائلا بعد لحظة :

ـ أخجلتنى يا ميشيل بكلامك ولك كل الحق فى ذلك · ولكن أخى القسيس أقوى منى · وكان دائما هو الأقوى · اعتاد أن يضربنى وقتما كنا صغارا · ولا زلت حتى الآن أشعر أننى عاجز عن أن أطاوله ·· لو لم يكن موجودا فربما ···

وتردد ميشيل لحظة ثم قال له دون اكتراث :

ـ اسمع ، الم تحدثك نفسك فى يوم من الأيام ياحاجى نيــكولا أن ترتكب جرما معه ـ أن تقتله ؟

وقفز ناظر المدرسة فزعا · وقال هامسا :

ـ أحيانا ... نعم أحيانا . ولكن نادرا ، وفى الأحلام فقط ...

ولم يكد يلفظ بهذه الكلمات حتى أحس بندم مر لما بدر منه . وضاق لأنه كشف عن سره الخفى . واتجه ناحية فتحة الكهف : لا زال المطر يتساقط ، والظلام حالك السواد .

وقال :

ـ سأنصرف . طبت مساء .

وقال ميشيل بنبرة ساخرة :

ـ الظلام دامس يا حضرة الناظر ، ولن يراك أحد وأنت عائد من ساراكينا لتقدم تقريرك الى أخيك القسيس . صحبتك السلامة .

عندما وصل ناظر المدرسة الى السفح لمح رجلين يصعدان الجبل ، وسرعان مالاذ بصخرة يختفي وراءها . وبعد أن ابتعدا عنه واصل طريقه من جديد عائدا ، يترنح فى مشيته .

وأحس بالسخط على نفسه وقال :

ـ ميشيل على صواب . نعم ، نعم ، أخى كذاب أشر ، وأنا امع ... صادق أمين أنا حقا ولكننى جبان . سأستجمع شجاعتى ، سأتوجه الى القسيس لتوى هذا المساء . سأصرخ بالحقيقة فى وجهه وليعيننى الرب على ذلك .

＊＊＊

وقف ميشيل أمام الكهف قلقا تائها، ينتظر عودة القسيس فوتيس ومانولى . ولم يكد يلمحهما حتى تثبت فؤاده . لم يعد وحده ، فقد عاد السلام ، واختفى الرجل الميت .

ـ مرحبا بكما . الوحدة قاسية ثقيلة .

وقال القسيس فوتيس :

ـ وكذلك كانت رحلتنا ، قاسية ثقيلة . ولكن كان الله معنا ، ومنحنا أجنحة أعاننا بها على مشاق الرحلة .

وقص عليه بكلمات موجزة مقابلته مع الأسقف والحديث الذى دار بينهما .

وتوجس ميشيل خيفة وقال :

ـ هى الحرب اذن !

وقال له القسيس فوتيس مؤكدا :

ـ نعم انها الحرب ، وهي حرب مقدسة • في أول الأمر كانت حربا ضد الأتراك وأغاواتهم ، والآن مع بني جلدتنا ، الأغنياء والأعيان • وهم أكثر ضراوة وشرا • ولكن المسيح ، الفقير الحافي القدمين ، معنا •

والتفت الى مانولي :

ـ صدقني يامانولي لم يكن المسيح دائما وأبدا على تلك الصورة التي نحتها له يوما فوق الخشب : رقيقا ، وديعا مسالما ، يدير خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن • بل كان محاربا صلبا عنيدا يسير في المقدمة ومن ورائه كل المعدمين على ظهر الأرض • « لم آت لألقى سلاما على الأرض : بل سيفا » • كلمات من هذه ؟ كلمات المسيح • ومن الآن فصاعدا سيكون هكذا وجه ربنا يسوع المسيح يامانولي •

واتقدتعينا القسيس حتى بدتا وسط ظلام الكهف كأنهما جمرتان تتأججان نارا •

وصمت برهة ثم عاود حديثه :

ـ اني سعيد يا أولادي • سعيد أن لنا مثل هذا القائد • من الخير أن تكون حملا وديعا ، ولكن اذا ما احدقت بك الذئاب فخير لك أن تكون أسدا هصورا •

وسمعوا نداء عند باب الكهف ، ولمحوا وجها ويدين ممدودتين •

وصاح ميشيل منزعجا :

ـ من هناك ؟

وصاح صوت في عتمة الليل وتحت وابل المطر ، كان صوت ياناكوس ، مفعما بالحزن والغضب :

ـ انه أنا يا اخوتي •• هجرت القرية القذرة ، وأتيت لألوذ بجبلكم•

وبسط الثلاثة أذرعهم مرحبين • وقالوا معا :

ـ مرحبا بك يايانا كوس •

وسأله مانولي :

ـ ماذا دهاك يايانا كوس ؟ ما الذي أتى بك في مثل هذه الساعة، تحت هذا السيل المنهمر ؟

أمسك ياناكوس بيد القسيس فوتيس وقبلها في رقة وحنان •

ـ استمعت الى كلماتك الأخيرة يا أبانا ، وأنا أقرك عليها • خير للمرء أن يكون حملا ولكن اذا أحدقت به الذئاب فخير له أن يكون أسدا هصورا •

وعصر شعره الذى بلله المطر ، ووضع صرة ملابسه على الأرض ، وجلس فوقها • وران صمت عميق •

وأخيرا تكلم ياناكوس :

ـ أتانى الليلة بانايوتى ، حارس الأغا الجديد ، يحمل ورقة عليها خاتم الأغا ، يعلنني فيها أنه أخذ حمارى مقابل دين استدنته من الخنزير لاداس •••

وغلبته عبرته ، ولكنه سرعان ما تماسك وتجلد ، وشب واقفا على قدميه وصاح :

ـ سأذهب ذات ليلة الى بيت هذا الملعون وأشعل فيه النار • نعم وبحق المسيح سأشعل فى بيته النار •

وقال القسيس :

ـ لا ، لست وحدك • صبرا ياياناكوس• سننزل الى هناك سويا •

وتساءل ياناكوس فى قلق :

ـ ألم تحن الساعة بعد ؟

ـ اقتربت الساعة ، وموعدنا معهم ليس ببعيد • ولهذا السبب أقترح أن يتعلم النساء والأطفال ، ابتداء من الغد ، كيف يستخدمون المقلاع • يجب أن نستعد •

ثم اتجه ناحية فتحة الكهف وقال :

ـ حسبنا هذا الليلة يا أبنائى • تجرعنا اليوم كل أنواع السموم على يد الناس ، وحسبنا هذا • حان وقت النوم • دعوا النوم يشفى جراحنا حتى نستعد للغد ولكل غد يأتى من بعده •• تعال ياياناكوس شاركنى صومعتى البائسة ، انى سعيد برؤياك بيننا •

ورفع ياناكوس صرته ، واقتفى أثر القسيس •

وأصبح الصديقان وحدهما • والتفت ميشيل الى مانولى وأمسك بيده • وسأله بصوت خفيض :

ـ ماذا ؟

أخرج مانولى منديل الفتاة من جرابه •

ـ مع تحيات ماريورى •

أمسك ميشيل بالمنديل ، وحملق بعينيه فى الهدية الحزينة ، وتحسسها بيد مرتعشة ، وفهم كل شىء • فك الضفيرتين الطويلتين ،

ودفن وجهه فيهما ، وانخرط فى بكاء شديد ، وانهال عليهما بقبلاته ·

ولبث كذلك فترة طويلة ، ثم رفع رأسه وسأل :

ــ هل حضرها الموت ؟

ولم يجب مانولى ·

***

بينما كان الرفيقان يتجاذبان أطراف الحديث على هذا النحو فوق جبل ساراكينا ، كان ناظر المدرسة يحمل قلبه بين راحتيه وهو فى طريقه لمقابلة القسيس جريجوريس · أخجلته كلمات ميشيل ، وبثت فيه الحماس وها هو لأول مرة فى حياته يقرر أن يقاوم أخاه ·

ألفى القسيس جالسا الى مائدته ، فرغ من تناول عشائه ، وكان العشاء وفيرا ، والطهى طيبا ، والنبيذ رائعا · وأشعل سيجارة وبدأ يدخنها فى متعة وتلذذ · ثمة ورطة سيقع فيها بعد ثلاثة أيام · فقد بعث اليه الأغا برسالة يوم الثلاثاء أبلغه فيها أنه صدق وعده ــ طرد أهل ساراكينا ، ووضع اختام الشمع على بيت بطرياركاس ، وجاء دوره ليبر هو الآخر بوعده ، ويلبى طلب براهيماكى · قضى القسيس ثلاثة أيام معذبا ، يفكر ليل نهار عله يهتدى الى فتاة صغيرة يقدمها للأغا دون أن تحدث فضيحة ، ولكن بلا جدوى · وأخيرا اهتدى اليها فى هذه الليلة ذاتها وهو يدخن سيجارته · وهدأ بالا ·

وتمتم وهو يملأ كأس النبيذ :

ــ الحل بين يدى · انه الهام من لدن الله · قسما بدينى أن الفتاة ستكون خير من يقوم بهذا الدور ، وهى تتحرق شوقا لذلك ، ولن يتحدث عنها أحد بكلمة ، كما سيسر بها الأغا ، ونضمنه الى جانبنا · الحمد لله ·

وفى هذه اللحظة دخل عليه ناظر المدرسة :

فقال القسيس دون أن يكلف نفسه عناء الوقوف ·

ــ طبت مساء يا نيكولا · من أين أتيت ؟ الوحل يغطيك تماما ·

واجاب ناظر المدرسة فى حماس :

ــ من ساراكينا ·

وتململ القسيس فوق كرسيه ·

ــ ماذا كنت تبغى من عش الزنابير اللعين هذا ؟ ألا تعرف أن ساراكينا وليكوفريسى بينهما حرب ، كل منهما تشهر سلاحها ضد الأخرى ؟

وقال حاجى نيكولا لنفسه :

ـ تشجع يا حضرة الناظر ، ها هى اللحظة الحاسمة · فاثبت أنك أهل بأن تكون سليل الاسكندر الاكبر ·

وآنس فى نفسه المخاطرة وهو يقول :

ـ ذهبت لأرى ميشيل · أردت أن أتبين بنفسى ان كان مجنونا حقا أم لا ·

وجأر القسيس :

ـ آه ، أردت أن تتبين بنفسك ، ثم ماذا ؟

ـ تحدثت اليه ساعة بأكملها فى شتى الموضوعات ، كبيرها وصغيرها ··

ـ حسنا ثم ماذا ؟

ـ عاقل تماما مثلى ومثلك ·

وهب القسيس لسماعه هذه الكلمات ، وصاح :

ـ ابق فيما يعنيك فقط يا حضرة الناظر ، لا تتدخل فى شئون الآخرين · هل طلبت منك الذهاب الى هناك ؟ أى شىء أجبرك على ذلك ؟

وتمتم ناظر المدرسة :

ـ أحسست بثقل يثقل ضميرى ·· كنت أشك أن الامر ليس صحيحا ·

ـ حسنا ، أنا لا أقبل هذا قط · هل هو أنت الذى تعلمنى ما هو صواب ، أنت أيها الأبله ؟ ميشيل مجنون ، هذا هو الصحيح ·

وجازف ناظر المدرسة بالرد :

ـ ولكنه ليس كذلك ·

ـ قلت لك انه مجنون · أنت لا ترى أبعد من أنفك ، لا تستطيع أن تتجاوز الأفراد ، أما أنا فلا أعبأ بالأفراد ، انما أعبأ بالجموع ·· فأنا قائد هذا الشعب ، أنا · هل فهمت أيها الأبلة ؟

ولم يحر ناظر المدرسة جوابا ·

وأردف القسيس قائلا :

ـ اذا ما وقع ظلم على شخص ، وكان هذا الظلم لصالح المجموع ، فهو العدل بعينه · ولكن عقلك قاصر عن فهم الأمور على هذا النحو ·

واستوى واقفا ، ويداه الى خصره ، أمام ناظر المدرسة الذى كان يستمع اليه مطأطىء الرأس ·

ـ لو سئلت ، فهكذا يجب أن تكون اجابتك . واذا لم تستطع فالزم الصمت .

ونهض ناظر المدرسة وهو يقول :

ـ سألزم الصمت . أما في أعماقي ...

وانفجر القسيس ضاحكا في تهكم وسخرية :

ـ ليكن في أعماقك ما يكون ، فأنا لا أعبأ بذلك في قليل أو كثير . لك مطلق الحرية بأعماقك هذه . ولكن حين يمتد الأمر خارج نفسك فيجب عليك أن تفكر مرتين وتتدبر أمرك .

ثم تابع حديثه بصوت لا يخلو من رقة :

ـ أنت أخي الأصغر ، نحن أخوان يا حاجي نيكولا ، ويجب أن نظهر أمام الناس رأيا واحدا ... وهو رأيي أنا . هل تسمعني ؟

أحس ناظر المدرسة برغبة في الصراخ « الى متى ؟ فأنا مثلك ، لي روح ولي رأي . لست على وفاق معك ، ولا يمكن أن أرضى بالظلم ، سأذهب الى ميدان القرية وأصرخ بأعلى صوتي وأعلن الحقيقة على الملأ » . ولكنه احتفظ برأيه لنفسه ، واتخذ طريقه الى الباب قانعا بقوله :

ـ طبت مساء .

أفرغ القسيس كأسه دفعة واحدة ، وغمغم في تأفف :

ـ يا لبذاءته . أنا لا يمكن أن أقبل ذلك منه . يقول رأيي الخاص ، يا للوقاحة .

وطوى منشفته ، ورسم الصليب ، وحمد الله أن أنعم على الناس بالطعام والشراب في سخاء ووفرة ، ثم آوى الى فراشه لينام وهو يقول لنفسه :

ـ غدا مع مطلع الفجر سأبعث في طلب مارثا .

***

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وصلت مارثا الحدباء تسب وتلعن :

ـ ترى ماذا يريد مني صاحب لحية التيس حتى يرسل في طلبي مع مطلع الفجر ، وهي الساعة التي يستيقظ فيها ابن الزنا ليصيح بي أريد هذا ، أريد ذاك ، دون أن يعرف ماذا يريد . كأني أمٌ لطفل رضيع ... افتحي عينيك يا مارثا ، لا تنسي يا منكودة الحظ أن الشيطان يختفي وراء كل كلمة ينطق بها هذا القسيس العجوز ، فحذار أن تقعي في الشرك .

دخلت مارثا • وكان القسيس متربعا فوق الحشية يرتشف القهوة• لازال جفناه منتفخين من أثر النعاس •

وانحنت مارثا حتى كادت جبهتها تمس الأرض ، وقبلت يد القسيس، ثم تراجعت الى زاوية من الحجرة وانتظرت وذراعاها معقودتان الى صدرها•

وأخذ القسيس يقلب فى رأسه الكلام الذى يريد أن يقوله لها ، دون أن يعرف كيف يبدأ معها الحديث •

وأخيرا قال :

ـ عزيزتى مارثا ، ستدخلين الفردوس يوما ممشوقة القد مثل غصن البان • ذلك لأنك رغم السنوات الطوال التى قضيتها فى خدمة الأتراك ، لم تنس المسيحية • وعندما تنزل بالمسيحيين نازلة لانلوذ الا بك • ولهذا دعوتك اليوم يا عزيزتى مارثا الطيبة •

وحدثت الحدباء نفسها :

ـ ها هو ذا القسيس الشيطان ينصب شباكه • يضع الجبن فى المصيدة ويفتح لى بابها ••• افتحى عينيك يا بائسة ولا تدخلى •

وقالت :

ـ كلماتك يا أبانا هى كلمات الرب ، وأنا طوع بنانك •

ـ تعرفين أن براهيماكى يطلب امرأة • وقد أبدى رغبة فى أن ترقص بنات القرية أمامه حتى ينتقى من بينهن من تروقه ، هذا الكلب • وانه لعار كبير والموت خير لنا منه • أليس كذلك يا مارثا ؟

وأمنت الحدباء العجوز على كلامه وقالت :

ـ الموت خير منه دون ريب •

وواصل القسيس كلامه :

ـ وفى نفس الوقت يجب ألا ندخل فى نزاع مع الأغا ، فمن الخير لصالح المجتمع ، أن نكسبه الى صفنا • وقد أعلن الأغا صراحة : « اذا لم تأت بامرأة لبراهيماكى سأعلن الحرب على مجتمعكم • هل تفهميننى يا مارثا ؟ سنهلك • اذن ما العمل ؟ هل نأت بامرأة لبراهيماكى أم نعرض المجتمع للهلاك ؟ ماذا ترين يا مارثا ؟ •

وأجابت المرأة العجوز وهى على ثقة من أنها تردد رأى القسيس :

ـ بل ليهلك المجتمع •

ـ ماذا تقولين يا مارثا ؟ وقانا الله كل شر • أيهلك المجتمع ؟ هل

نعرض المسيحية للهلاك ؟ رحماك يا الهى · لا ، لا يا عزيزى مارثا · تعالى نتدبر الأمر ·

ـ وردت مارثا على الفور :

ـ تدبرت أمرى ، والرأى عندى أن نبحث له عن امرأة ·

ـ حسنا ، لا فض فوك · أنت الآن عند حسن ظنى بك يا طفلتى · هل تعرفين صفات المرأة التى يطلبها ؟ بضة مكتنزة ، بيضاء كالخبز ، حيية ···

ـ بضة ، مكتنزة ، بيضاء كالخبز ، حيية ··· ايه ، ماذا تنتظر منى ان أقول يا أبانا ؟ لا أعرف امرأة اجتمعت لها كل هذه الصفات ·

ـ تفكرى قليلا يا ابنتى ، ان كنت تبغين اسداء خدمة لى ···

ـ ماذا أقول يا أبانا ؟ طفت بذهنى على كل بنات القـرية ، فيهن البضة الحيية ولكنها ليست بيضاء ··· وغيرها بيضاء حيية ولكنها ليست بضة ···

ـ هل تعرفين فيمن فكرت أنا ؟ بيلافيا ، كبرى بنات بانايوتى · أقول لك لماذا اخترتها هى ···

ـ ولكنها ليســـت بيضـــاء يا أبانا · ولك أن تعلم أنهم ينادونها بالسمراء ، وأحيانا بالسوداء ···

ـ هذا لا يهم يا عزيزتى مارثا · فهذا عيب يمكن اصلاحه · سأعطيك صندوق بودرة تدعك بها وجهها صباح مساء وتصـــبح بعدها بيضـــاء كالخبز ·

ـ فى هذه الحالة يا أبانا سيكون الأمر هينا ·

ـ ولكنها ··· هل تعتقدين أنها تقبل ذلك ؟

ـ هى؟ انها فتاة شبقة يا أبانا· انها براهيماكى الأنثى· براهيماكى رجل يكشف صراحة عن نزواته ، أما بيلافيا فامرأة توارى نزواتها ··· لست أدرى ما الذى يحدث وقتما يجمعهما الفراش · سينقض المنزل من تحتهما فوق رأسى ·

وضحكت الحدباء العجوز وهى تمسح أنفها المنساب بطرف كمها ·

وقال القسيس بجد وصراحة :

ـ ليكن هذا · لا تقفزى الى النتائج السيئة · يحسن بنا نحن الاثنين أن نتدبر خير السبل لتحقيق هذا · بانايوتى يعمل الآن حارسا خاصا

للأغا • ومن ثم لن يدهش أحد لذهاب بيلافيا الى بيت الأغا تحت ستار زيارة أبيها • وتستطيعين أن تدبرى الأمر يا مارثا ، فأنت خبيرة بهذه الأعمال • وعندما تذهب الى هناك سيراها براهيماكى • ولكن لابد وأن تعطيها البودرة قبل ذهابها •

وقام وفتح خزانة صغيرة وأخرج منها صندوق البودرة ، ووضعه فى يد مارثا • وقال :

ــ خذى • قولى لها يمكنها أن تخلطها بقليل من الدقيق حتى تقتصد •

هزت العجوز رأسها • وعرفت الطريق الذى يدفعها القسيس اليه ، وترددت •

وتروت فى أمرها ، ثم ردت عليه أخيرا •

ــ كل هذا حسن يا أبانا ، ولكننا نسينا شيئا واحدا ، وهو الأهم • • •

ــ ماذا يا مارثا ؟

ــ نفترض أن بانايوتى اكتشف الأمر ، فانه سيقتلنى أنا ثم يقتل براهيماكى وبعده قداستكم ، وأخيرا سيشعل النار فى القرية كلها • • • خير لك أن تفكر فى ذلك •

وهرش القسيس رأسه ، وقال :

ــ أنت على حق ، قد يقتلنى أنا أيضا • • • ولكن اذا لم يكن ثمه بد من هذا ،فماذا عسانا أن نفعل ؟ آه ، عندى فكرة ، سأطلب من الأغا أن يرسل بانايوتى فى جولة بعيدة •

ــ واذا حملت منه ؟

ــ من ؟

من تظن يا أبانا ؟ بيلافيا طبعا • • •

وصاح القسيس فى ضيق :

ــ قد يحدث هذا ؛ لا تتوقعين غير الشرور أيتها المرأة القذرة • لا لن تحمل منه •

ــ كيف عرفت هذا ؟

ولم يدر القسيس بماذا يجيب فقال :

ــ الله أكبر

وقالت الحدباء :

ـ ايه ... هل تظن يا أبانا أن الرب الرحيم يشغل نفسه بهذه الأفعال القذرة .

ـ ان كان الأمر كذلك فعليك أن تنهى هذه المسألة مع ماندالينيا . فهى تعرف أعشابا ...

وتمتمت الحدباء بطرف فمها :

ـ أعوذ بالله من الشيطان ... ترى هل هذا القسيس المبارك يمثل الرب أم الشيطان ؟

ـ فيما تفكرين يا طفلتى ؟

ـ أنت ممثل الرب يا أبانا ، هذا كل ما أود أن أقوله . فافعل ماتراه خيرا .

ـ انى أناضل من أجل خير المسيحية يا أم مارثا ، والله أعلم بذلك، وهو ولى التوفيق .. وسوف يعيننا ويوفقنا ... تعالى ، تشجعى يا طفلتى فآلامك لن تضيع هباء دون جزاء ...

وفتحت العجوز عينيها الواسعتين وقالت فى سريرتها : « هكذا كان يجب أن تبدأ أولا أيها التيس العجوز ...

وختمت كلامها بقولها :

ـ عظيم جدا ، قد يكلفنى هذا حياتى ، ولكننى سأبذل قصارى جهدى . ومن جانبكم آمل ن تبذلوا قداستكم قصارى جهدكم. أنا امرأة فقيرة مسكينة وحيدة ...

ـ لا عليك يا أم ، فلن تخسرى حياتك بسبب ذلك ... اذهبى الآن فورا ، وأتمني لك حظا موفقا . وسوف نتحدث سويا مرة أخرى . وأنا معك وثقى من ذلك .

وانحنت المرأة العجوز على يد القسيس وقبلتها . وقالت :

ـ بركاتك يا أبانا . أنا أفهم ما تريد ، وأنت تفهم ما أريد . سأذهب مهما كلفنى ذلك وازور بيلافيا . ستطير فرحا ، هذه العاهرة .

ـ كان الله معك . اسرعى وائتنى بأخبار سارة .

وربت على كتفها ثم حدبتها فى حذر . وقال :

ـ نخدمك فى فرحك يا مارثا . سأنبش الأرض بحثا عن فتى طيب لك ـ ولكن لعلاقة طيبة بريئة تنتهى بالزواج ، حتى تفلتين من بين أيدى الأتراك ... أسرعى .

وقالت المرأة بانفعال شديد :

ـ حاول جهدك يا أبانا ، وكن رحيما بى فانى وحيدة فى هذا العالم . انها خير مكرمة يا أبانا ، سيجزيك الله عنها خير الجزاء .

ثم خرجت وهى تجفف أنفها الذى بدأ ينساب من جديد .

ولم تكد تغلق الباب حتى تمتم القسيس :

ـ يا لها من عجوز سفيهة . صدقت ما أقول . ما أغرب المرأة ، اللهم احفظنا .

وانتظر يوما ويومين قلقا متوتر الاعصاب . وفى اليوم الثالث انفتح الباب ، ودخل بانايوتى وعلى رأسه طربوشـــه الأحمر الجديد . وفزع القسيس . استوى واقفا وقال :

ـ ماذا حدث يا بانايوتى ؟

ـ أرسلنى اليك الأغا ، يا أبانا .

ـ أى رسالة حملتها لتبلغنى بها .

ـ شىء يحيرنى لا أفهمـه . يبلغك تحيـــاته ، ويقول لك أصبـح براهيماكى هادئا وديعا أكثر من الحمل .

* * *

الذئاب تبحث عن فريستها

أقبل الشتاء فجأة ٠ وتجهم وجه الطبيعة ٠ وانهمر المطر مدرارا ، وهبت ريح ثلجية من الجبال ، وشحبت أوراق الشجر ثم افترشت الأرض وكدستها العواصف الهوج أكواما ، ثم أصابها البلى وتحللت وعادت الى الأرض التي منها بدأت ٠ واستحمت البذور في ماء الحقول ، وانتفخت وامتلأت عصارة ، وتهيأت لتشق الأرض وتتفتق براعمهـــا مع الربيع ٠ وكمنت الســـحالى فى جحورها ، واعتزل النحل فى خلاياه ، وتعلقت الخفافيش عناقيدا بالسقوف ٠ وتراجع كل الوجود فى ترقب وانتظار ٠

وعـاد أهل ليكوفريسى الى بيوتهم مبكرين ، لينعموا بالـدفء أمام المدفئة ٠ وأخرجوا من خزائن مؤنهم قمحا وزيتا ونبيذا ، من حصاد عامهم ابان الصيف ، ليأكلوا منه ويشربوا بوفرة وسخاء طوال فصل الشتاء ٠ وجادت مصابيح الزيت بضوئها على النساء اللائى جلسن حولها يغزلن وينقين القمح ، ويزجين الوقت بسماع أساطير قديمة أو أقاصيص خليعة ٠

وساق نيكوليو أغنامه الى الحظيرة ، ثم جلس الى المدفأة ، مسندا ركبته الى ركبة لينيو ٠ لقد غزلت لفافات عديدة من الصوف ، وهى الآن منهمكة فى نسج ملابس وقلانس للطفل المرتقب ٠ كبر بطنهـــا وتكور ومضى نيكوليو ينظر اليها كما ينظر الفلاح الى أرضه الخصبة ، أجاد حرثها وبذرها وينتظر الغيث ٠

وقالت لينيو :

ـ سنسميه جورج ، اقتداء باسم جده الشيخ بطرياركاس .

وقال نيكوليو معترضا :

ـ لا . بل نسميه هاريديموس اقتداء باسم أبى .

ـ لا ، قلت لك نسميه جورج .

ـ الكلمة للزوج دائما ، سنسميه هاريديموس .

وتخاصما فى دلال ومزاح حول هذا الموضوع ، وتشابكا وتدحرجا فوق السرير قرب النار ، وتعانقا عناقا حارا يشفى ظمأ قلبيهما ، وأصلح بينهما .

واعتاد القسيس جريجوريس أن يمتطى بغلته كلما صحا الجو ، ويذهب الى المدينة لزيارة ماريورى . وفى كل مرة يعود أكثر صمتا ويأسا عن ذى قبل . أظلم وجهه ، وقسا قلبه فبات كالحجارة أو أشد قسوة . وذات مرة التقى عند عودته ببيلافيا ، تخوض بقدميها العاريتين فى الوحل، ووجنتاها الممتلئتان متوردتان كزهر الربيع . وصاح فى ثورة على الرب :

ـ لماذا يا الهى تقسو على هكذا ؟ ماريورى تذبل وتذوى كشمعة تحترق ، وتمنح بنات السؤ وجنات متوردة .

وجلس براهيماكى هو الآخر أمام المدفأة يستدفىء بنارها . أصبح أكثر نحولا وطواعية ، يشعل للأغا غليونه ويملأ كأسه بالعرقى ، صموتا لا يتكلم ... والأغا يرمقه بطرف عينه ، ويبتسم فى خبث .

ـ ما رأيك فى الحياة هنا يا براهيماكى ؟ هل تريد العودة الى سميرنا ؟

ـ أنا راضى بالحياة فى ليكوفريسى . لن أتزحزح من هنا .

ـ روضتك المرأة أيها الشيطان التعس . نصحتك حين قلت لك حذار من النساء . ولكنك الححت فى القول ـ وبئس ما قلت ـ « أريد امرأة ، أريدها فورا » . انظر الى الحال التى صرت اليها الآن . أنت تستحق كل هذا .

والشيخ لاداس الذى ملأ البخل قلبه بالقسوة ، يخرج مع مطلع الشمس ليتجول حافى القدمين وسط حقوله وتتقدمه رفيقة حياته فوق حمار ياناكوس .

يقول لها :

ـ ها أنت ترين يا عزيزتى بنيلوب أن الله عادل لا يظلم أحدا . انه مثلى محب للخير ، يقرض النقود ، وهو عليم خبير بشئونه . لم نخسر

الجنيهات الثلاثة كما كنت تخشين · أصبح لنا حمارنا ، ويمكنك الآن أن تتأملي العالم من عليائك ··· آه ، كنت على صواب حين قلت لك « لو قدر لي أن أعيش مائتي عام أخرى لجعلت منك ملكة ·

وتجمع أهل القرية في مقهى قسطندى، يشربون السحلب، ويدخنون النارجيلة ، ويلعبون الطاولة ويلعب الصغار لعبة البجامون · وعبق جو المقهى برائحة التبغ والسحلب · واعتاد ناظر المدرسة أن يأتيهم مساء كل سبت ، فيلتفون حوله ، ويقص عليهم ملاحم الأجداد · وتلتهب مشاعره رويدا رويدا ، فيهب واقفا يلوح بذراعيه ، وتعلو عقيرته · ويصف أحيانا النارجيلات في جانب من القاعة ، ومناضد لعبة البجامون في الجانب الآخر ويصيح :

ــ ها هنا الفرس على اليمين يتأهبون للمعركة ، وهـا هم اليونانيون على اليسار ··· وأنا ميليتيادیس · كم فارسى هنـــاك ؟ مليون · وكم عددنا نحن اليونايون ؟ عشرة آلاف · واحد مقابل مائة · انتبهوا ، سيبدأ الهجوم ·

ويلقى ناظر المدرسة بنفسه فوق الكراسي فيقلبها حتى يكاد يحطم النارجيلات · ويتدخل قسطندى أثناء المعركة لينقذ حاجياته ·

ويتصبب العرق من وجه ناظر المدرسة ويعلن على الملأ :

ــ لقد هزموا شر هزيمة ألقينا بهم الى البحر في الماراثون · تحيـــا اليونان ·

وكان أهـل القرية يضحكون ويسخرون كلما بدأ المشهد · ولكن الحماس يجرفهم رويدا رويدا · فلم يكن أحدهم يرضى بالوقوف على اليمين مع الفرس ، بل يسرعون جميعا ليقفوا وراء حاجى نيكولا، أو ميليتيادیس·

ويصيحون بعد الفوز « برافو ميليتيادیس » ويطلبون الســـحلب للبطل المظفر ·

***

وفى ذات يوم نزل ياناكوس من الجبل الى القرية · كان الثلج يتساقط ، والشوارع مقفرة · تفرس بعينيه في المداخن التي يتصاعد منها الدخان ، وشم رائحة الطعام تفوح من الأوانى التى انهمكت ربات البيوت فى اعدادها · واستطاع أن يتعرف على نوع كل طعام من رائحته ــ هنـا بطاطس محمرة ، وهناك سجق مشـــوى على الفحم ، وثمة فطير مدهون بالزبدة ·· آه ، لا يحرمون أنفسهم أبدا هؤلاء الخنازير، يتخمون كروشهم الى آخرها · ليأخذهم الشيطان · وسار على بعد خطوات ، وتصاعدت رائحة

الخبز الساخن تدغدغ أنفه « خبز ··· خبز ··· » قالها وهو يتنهد ، ولعابه يسيل على شفتيه ·

حث الخطى ، حتى بلغ بيت الشيخ لاداس · ودار حوله دورة واحدة، ثم أتبعها بأخرى ، يستطلع الجدران ، والنوافـــذ وموقع الحديقـة خلف البيت · وتمتم : « الجـدار هنا منخفض ، حســن ··· » وتوقف مكانه فجأة ، وخفق قلبه خفقات قوية حتى كاد يتصدع، هاهو ذا حبيبه يوسوفاكي ينهق في الحديقة ، يبدو أنه شم رائحة سيده ·

مال ياناكوس بأذنه الى الحائط يتسمع النهيق في شوق وقلق· لم يسمع في حياته صوتا أعذب من هذا ، ولم ينهق يوسوفاكي أبدا نهيقا حنونا رقيقا كعهده به اليوم · وتذكر أيام الصبا ، كيف كان يقف تحت نافذة محبوبته يغنيها أغاني العشق والهيام ـ وهي زوجته الراحلة ، ولكن ما يسمعه الآن جد مختلف ، انه يسمع صوتا حنونا يثير الشجون والأسى ·

وفاضت عيناه بالدمع وهمس : « لا تجزع يا يوسوفاكي ، لا تجزع يا حبيبي ، سأخلصك مما أنت فيه » ·

وعاد ياناكوس الى الجبل تحت جنح الظلام ، مقرورا جائعا ، وجال بين الكهوف حيث تجمعت النساء وقد ضممن أطفالهن الى صدورهن ليدفئنهم ··· وقال لهن كلمة مواساة أثناء مروره بهن : « تشجعوا يا أحبائي ، عضـــوا على النواجذ · محنة وتزول » · وهمهم الرجال دون أن يرفعوا عيونهم اليه ، وهزت النساء رءوسهن وتنهدن ·

ـ ثقن بالله ، يا سيداتي ·

ـ حتى متى ، يا ياناكوس ؟

لم يدر ياناكوس بماذا يجيب ، فتركهن وواصل المسير ·

ـ ماذا يفعلون هناك في ليكوفريسي ؟ ألم تكن هناك ، يا ياناكوس ؟

ـ يتصاعد الدخان من مداخنهم ، ويملأون بطونهم ، عليهم اللعنة · جمعوا كرمنا ، ويشربون نبيذنا · وحصدوا زيتوننا ويملأون بطونهـــم بزيتنا · ولكن الله بصير بهم ، غير غافل عما يفعلون ·

ـ ومتى يحول عينيه لحظة ليبصرنا نحن أيضا ، يا ياناكوس ؟

مرة أخرى واصل ياناكوس سيره ، وانصرف عنهم دون أن يجيب ·

وجلس ثلاثة رجال داخل كهف يثرثرون في الظلام وقد تكأكأوا على بعضهم التماسا للدفء · توسطهم لوكاس ، هذا المارد الضخم حامل العلم· وقال أحدهم :

ـ هل رأيت الأطفال ؟ بدأت أجسادهم تنتفخ من أثر الجوع • ان طفلى لم تعد ساقاه تقويان على حمله •

وقال الثانى :

ـ أملنا فى الله وحده حتى الآن ، ولكن •••

وقال لوكاس :

ـ ان الله يعين كل من يعين نفسه ، اذا قبعت فى مكانك متواكلا ولم تتحرك فلن يتحرك الرب كذلك • حانت الساعة التى نضع فيها أملنا بين أيدينا ونسعى • ليس علينا الا أن ننزل الى القرية ونسلب منها كل ما تصل اليه أيدينا •• من هناك ؟ ادخل •

ـ أنا ياناكوس يا رفاق •

ـ لك تحياتنا يا أخانا • تعال ودس نفسك بيننا لتستدفىء •

وأجاب ياناكوس :

ـ اننى أغلى ، بل أحترق ، لا أشعر بالبرد • عدت لتوى من ليكوفريسى •

ـ متى سننجز ما اتفقنا عليه ؟

ـ ربما يكون ذلك الليلة • هل توافقون ، يا رفاق ؟

وصاح الثلاثة فى صوت واحد :

ـ نحن على استعداد • اضرب والحديد ساخن •

ـ وهو كذلك ، موعدنا الليلة ، وهو وقت مناسب • فالظلام دامس، والمطر ثلج طام ، والأغنياء سيقبعون فى بيوتهم يدسون أنفسهم تحت أغطيتهم ، وحيث انهم متخمون فانهم سيغرقون فى سبات عميق • لن يصادفنا أى انسان فى طريقنا •••

وعاودوا موافقتهم :

ـ نحن على استعداد • سننتظرك هنا ، حتى تمر بنا لتأخذنا معك •

ـ حسن أعدوا الزجاجات والزكائب • وأنت يا لوكاس ، هات المصباح المعتم •

ـ كل شىء جاهز هنا يا ياناكوس • أسرع •

خرج ياناكوس قاصدا كهف مانولى • وبينما كان سائرا فى طريقه أبصر ميشيل ممسكا بشىء بين ذراعيه ، يتأمله بعينيه على ضوء خشبة صغيرة مشتعلة •

اتجه اليه ياناكوس سيرا على أطراف اصابعه • لقد تغير ميشيل

خلال الأيام القليلة الماضية · أصبح صموتا لا يتكلم ، غارقا فى تأملات عميقة ، يهيم على وجهه وحده ، يتنقل من كهف الى كهف ، ينظر الى الناس بعينيه دون أن يتحدث اليهم بكلمة واحدة ·

مال ياناكوس على كتف ميشيل فرآه ممسكا بطفل صغير لم يتجاوز عامه الثالث ، جلد على عظم ، وبطن متورم ، وأطراف نحيلة كالبوص ، ونبتت فى ذقنه شعيرات طويلة ·

وقال ياناكوس بصوت خفيض ، حتى لا يزعج صاحبه :

ـ ميشيل ··· لا تنظر اليه ·

واستدار ميشيل وتمتم :

ـ انظر يا ياناكوس ، نبتت له لحية ··· لم يتجاوز عامه الثالث ونبتت له لحية من أثر الجوع · وجدته ملقى على قارعة الطريق ·

وكرر له ياناكوس ما قاله قبلا :

ـ لا تنظر اليه ·

وقال ميشيل من جديد :

ـ وجدته ملقى على قارعة الطريق · لم أعد أقوى على احتمال ذلك ، لم أعد أطيق يا ياناكوس · هل تستطيع أنت ؟

أمسك ياناكوس بذراعه وقال له :

ـ تعال معى ·

ـ انتظر ··· ألا ترى أنه يلفظ أنفاسه · حاول الطفل أن يصيح ولكنه لم يقو على ذلك · ظل يفتح فمه ويغلقه كسمكة ألقى بها البحر فوق الشاطىء ··· وحرك يديه الصغيرتين ، وفجأة تصلب جسده بين ذراعى ميشيل ·

وقال ياناكوس :

ـ تعال ، أتركه هنا ، وغدا نحفر له قبرا ····

ـ لا أحتمل أكثر من هذا يا ياناكوس ··· هل تحتمل أنت ؟

لم يجب ياناكوس ، وانما أمسك بذراع ميشيل بقوة ، وجذبه معه · وجدا مانولى جالسا فى زاوية من الكهف مطرقا ·

وسأله ياناكوس :

ـ ما عندك من أخبار يا مانولى ؟

ـ كل ما هو سىء يا ياناكوس · رفاقنا الذين يتجولون بين القرى عادوا الينا بقدر ضئيل من الخبز لا يكفى أبدا · أرسلنا بعض رجالنا الى

ليكوفريسى وردهم الأب لاداس . قال لهم : « المـــوت خير لكم . » أما القسيس جريجوريس فقد قال : « سلوا قســـيسكم فوتيس أن يأتيكم بمعجزة » وأرسل الينا ديمترى الجزار بعض اللحم ، وأفرغ قسطندى كل ما فى مخزنه المتواضع من طعام . وكل هذا لا يكفى لنعطى كل طفل قضمة واحدة ملء الفم .

ـ أين القسيس فوتيس ؟

ـ ها هو ذا قد أقبل .

دخل القسيس فوتيس وجلس دون أن ينبس بكلمة واحدة . عاد لتوه بعد أن دفن أخوين صغيرين ماتا جوعا فى وقت واحد ، وقد تشبث كل منهما بذراع أخيه . أحضرهما أبوهما فى دلو ، وكفنهما ببعض العشب ، اذ لم يجد خرقة يكفنهما بها . أخرجهما القسيس فى حرص شديد خشية أن يفرق بينهما ، ومددهما على الأرض ، ثم تلا عليهما صلاة الموتى . وعلى بعد خطوات منه كان أبوهما يحفر لهما قبرا صغيرا .

ران صمت عميق . وكان القسيس أول المتكلمين .

ـ ويل لمن يزن الرب بميزان القلب ، فانه هالك لا محالة . فان هذا يفضى به الى الزيغ ، ويكفر بالرب وينكره ...

وصمت ثانية ، فزعا من الكلمات التى يوشك أن ينطق بها لسانه . ولكنه لم يستطع أن يتراجع .

وهب واقفا وهو يصيح :

ـ أى اله هذا الذى يترك الأطفال فريسة للموت ؟

وقال باناكوس :

ـ يا أبانا ، أنا لا أزن الرب ، وانما أزن البشر . ووزنت أهـــل ليكوفريسى ، وحكمت عليهم فأدنتهم . سأنزل اليهم الليلة لأســلبهم ما يمنعونه عنا .

وتفكر القسيس لحظة . وطافت بمخيلته صورة الجثتين الصغيرتين المتعانقتين . وتمتم :

ـ أباركم . اذهبوا ، وانى أحمل هذه الخطيئة على كاهلى .

وقال باناكوس محتجا :

ـ بل أحملها أنا يا أبانا ، لا أتخلى عنها لك .

ونهض ثم قال :

ـ الرجال فى انتظارى . سأنطلق اليهم .

ـ باركم الرب . لن يمضى وقت طويل حتى ننزل جميعنا وفى وضح النهـــار .

وخرج ميشيل عن صمته لأول مرة وقال :
ــ انى ذاهب معكم ٠
ــ تعال يا ميشيل حتى يذهب عنك الوهن .

وأمسك بيده ، وتحسسا طريقهما فى عتمة الليل الحالك السواد . وعاد المرح الى نفس ياناكوس ٠

ــ بداية طيبة يا ميشيل ٠ سنزيل بها ما علانا من صدأ . رضينا بالقعود عسى أن تمطر السماء علينا من طيبات الطعام ما نأكله ٠ ولكن السماء لا تمطر طعاما ، وانما نسعى نحن اليه ونأخذه انتزاعا ٠ يجب ألا نركن الى الله فى كل شىء ، انه خير حقا ، ولكن له مشاغله أيضا ٠ لا بد أن نتحرك نحن قليلا ، كن عونا لنفسك تعينك السماء ٠ « أيها الذئب لماذا أراك غليظ العنق ؟ لأننى أجد بحثا عن فريستى » ٠ حسن ، ونحن كذلك علينا أن نجد بحثا عن فريستنا ، الليلة ٠٠ هيا أيها الزملاء ، لنبدأ » .

لمحه رفاقه الذين جلسوا فى انتظاره داخل الكهف حول نار خابية ، فقفزوا من فورهم .

وقال ياناكوس :

ــ الى الأمام باسم المسيح . باركنا قسيسنا أيضا . هيا بنا . لا تنتعلوا أحذيتكم الثقيلة وانما صفوها طابورا لتأتى وراءنا .

وانفجروا ضاحكين . فمن أين لهم تلك الأحذية ؟ ان اقدامهم ملفوفة بخرق .

ــ هل أتيت معك بالمصباح المعتم يا لوكاس ؟
ــ « لا عليك ، ها هو ذا » .

نظر اليه ياناكوس مبتسما ، وقال :

ــ هدية الكابتن التعس فورتوناس . أظنه الآن يتطلع اليه من مثواه في جهنم ويغرق فى الضحك .

سار ياناكوس ولوكاس فى المقدمة وتبعهما رفيقاهما ٠ وانطلق ميشيل وحده شارد الفكر .

قال لهم : « أدوا مهمتكم يا رفاق ولا تشغلوا بالكم بشأنى ، فانى ذاهب لأطوف بالقرية » .

كان الليل أسحم ، والمطر غزيرا ، والماء ينساب على الأرض جداولا ، تتجمع وتتساقط كالشلالات من فوق الصخور العالية ٠ وبين حين

وآخر يقرع سمعهم صوت طائر من طيور الليل كامن بين شقوق الجبل يصرخ صرخات اليمة شاكية : يشكو الوحدة وينادى الرفيق . وفجاة دوى على البعد ، عواء طويل ، هنالك فوق قمة جبـــل النبى ايليا . وتوقف الرجال الأربعـــة .

وقال ياناكوس :

ــ ذئب يتضور جوعا هو الآخر .

وقال لوكاس :

ــ ربما كان النبى ايليا يعانى الجوع أيضا .

وقال ياناكوس :

ــ لعل القديس الذئب يكون فى عوننا . هيا يا رفاق ، الحملان فى انتظـــارنا .

وواصلوا مسيرتهم . وتأبط لوكاس ذراع ياناكوس .

ــ « هل استقر رايك على المكان الذى نوجهاليه ضربتنا الأولى ؟ ».

ــ « طبعا ، أكثرهم ثراء ، وأقذرهم ، وأشدهم بخلا .. الشيخ لاداس . سنملأ زكائبنا وزجاجاتنا عن آخرها . سيجد فقراء ساراكينـــا شيئا يتبلعونه فيكفون عن العواء » .

ثم أردف قائلا بعد لحظة صمت :

ــ وفى ليلة أخرى سننزل الى القرية ونسرق بعض البترول إيضا .

ــ خبز وبترول . حقا ، أنت على صواب يا ياناكوس . الانســـان بحاجة الى كليهما ليحيا ويثأر . اذ لا يكفيه أن يحيـــا لمجرد الحيـــاة وحـــدها » .

توقف ياناكوس عند طرف القرية ، والتفت الى رفاقه وقال لهم :

ــ سأسير فى المقدمة ، فأنا أعرف الأرض جيدا ، واتبعونى ، الواحـــد وراء الآخر فى طابور منفرد . سأتسلق أولا .

شقوا طريقهم بين دروب القرية . كانت مقفرة تماما ، فقـــد انتصف الليل ، وغرقت القرية فى سبات عميق .

وقال ياناكوس لنفسه عندما بلغوا بيت الشيخ لاداس :

ــ شريطة ألا يشم رائحتى حبيبى يوسوفاكى فيشرع فىالنهيق .. اسأل الله أن يكون غارقا فى نومه .

أسند ظهره الى الحائط على امتداد قامته ، وانتظر رفاقه . وأتوا الواحد بعد الآخر .

وقال ياناكوس بصوت هامس :

ـ هيا بنا ننسل من وراء الحديقة ، فالجدار هنـــاك منخفض عن هنا . هات المصباح يالوكاس .. اتبعونى . خذوا حذركم .

وسأل احدهم :

ـ هل عنده كلب ؟ .

وأجاب ياناكوس :

ـ كيف يربى كلبا هذا الشيخ البخيل . الكلب يأكل ويتكلف طعاما .

ثم تحدث الى لوكاس :

ـ وأنت يا حامل المصباح ، ستبقى فى الخارج لتكون سلما لنا ، نتسلق فوق كتفيك لنصعد فوق الحائط ثم نقفز الى الداخل . واذا احسست بخطر فانعق كالبومة .. مستعدين يا رفاق !

ـ مستعدون .

واسند الشيطان العملاق ظهره الى الحائط ، وامسك بياناكوس ورفعه فوق كتفيه وقال :

ـ هيا باسم قديسنا الذئب ، اقفز .

وتخطى ياناكوس الحائط ، وقفز الى داخل الحديقة . وانتظر رفاقه ، الذين قفزوا فى اثره واحدا بعد واحد ، حاملين فوق ظهورهم الزكائب والزجاجات .

ـ اتبعونى ، فأنا أعرف الطريق .. انتبهوا .

واجتازوا الحديقة ، والفوا الباب الخلفى مفتوحا ، وانسلوا داخل البيت . وسمعوا غطيط نوم صاحب البيت يتصاعد في الدور العلوى .

- وقال ياناكوس :

ـ انه نائم ، نحن سعداء الحظ .

أشعل المصباح ، واهتدوا الى بـاب الكرار ، ودفعـــوه ودخلوا . وفاحت رائحة الزيت والنبيذ والتين المجفف والسفرجل ، وامتد ضوء المصباح الى كل أرجاء المخزن فكشف عن صفوف متراصة من الجرار الضخمة الملأى وبراميل النبيذ .

وهمس ياناكوس .

ـ اسرعوا يا رفاق . خذوا ما تشاءون بسرعة . هيا املأوا .

وفتح أحدهم صنبور البرميل ، وانساب النبيذ ليملأ زجاجته . وملأ آخر زكيبته قمحا . ورفع ياناكوس صفيحة زيت وملأ زجاجة معه ، ثم حشا زكيبة أخرى قمحا .

وتلفت حواليه فلمح سلما مسندا الى الحائط . فقال « الحمد لله ، يوجد هنا سلم أيضا ، ولولاه لما عرفنا كيف نرفع كل هذه الأحمال فوق الحائط ؟ اله اللصوص يساندنا . هيا يا رفاق ، لننصرف » .

وساروا كلصوص يحملون غنيمتهم على كواهلهم ، واجتازوا الحديقة عائدين . وأسندوا السلم الى الحائط ، وصعدوا الواحد اثر الآخر ، ومعهم أحمالهم الثقيلة ، وغنيمتهم الثمينة . وفتح لوكاس ذراعيه ليتلقى الزكائب والزجاجات ، ووضعها على الأرض . واتخذوا من كتفى العملاق العريضين متكأ ليقفزوا من فوقهما الى الأرض . كان ياناكوس آخرهم ، وجلس فوق الحائط وقد باعد بين ساقيه . لم يطاوعه قلبه على النزول .

ـ « انتظرونى يا رفاق دقيقة واحدة حتى أرى حمارى ثم اعود اليكم » .

واحتج لوكاس :

ـ دع الحمار فى حاله ياياناكوس وتعال انزل ، لا أحد يعرف ما قد يحدث ..

وتمتم ياناكوس :

ـ لا احتمل ذلك ، لا احتمل ، دقيقة واحدة يا رفاق وأعود اليكم .

ونزل الى الحديقة ثانية .

وتجهم رفاقه دون أن ينبسوا بكلمة . وارهفوا السمع وكلهم عيون يقظة خشية ان يمر بهم أحد فى الطريق ، او ينفتح باب .

وقال لوكاس لرفيقيه :

ـ اسبقانا أنتما الاثنان . فخير لنا أن نفترق . وسأنتظر أنا .

وساعدهما على حمل الزكيبتين فوق كتفيهما وانطلقا .

وبقى لوكاس وحده . وجثا متربصا على الأرض تحت وابل المطر ينتظر صديقه فى قلق . وفجأة دوى نهيق مرح مرحب ، كأنه نفير يوم الحشر . وتمتم لوكاس :

ـ ليأخذ الشيطان هذا الحمار ، سيوقظ كل الجيران .

وانفتح شباك داخل البيت ، وسمع صوت ينادى ، هو صـــوت الأب لاداس :

ـ يا أم بنيلوب . هل أنت نائمة ؟ ايه يا أم بنيلوب ، لماذا ينهق الحمار ؟

ولكن لم يجب عليه احد . وتوقف النهيق . وساد السكون ثانية لا يقطعه غير صوت المطر يقرع أرض الفناء . ورفع لوكاس رأســه وراى شبحا يخطو فوق الحائط .

وشب واقفا ، وامسك بقدمى ياناكوس .

ـ هيا بنا يا لوكاس ، لنبعد عن هنا ، اظن أن الشيخ قد استيقظ من نومه » .

وحملا الزجاجات على كاهليهما ، وانطلقا بأقصى سرعتهما .

وبعد أن خرجا من القرية قال له لوكاس :

ـ أشبعت رغبتك ، ورأيت حمارك .

وتنهد ياناكوس وهو يقول :

ـ نعم ، آه لو كان فى استطاعتى أن أصعد به فوق السلم . أقسم بشرفى لكنت اخذته معى ..

وبعد قليل سأل فى جزع :

ـ واين ميشيل ؟ .

ـ لا بد أنه قد فرغ من جولته بين دروب القرية وعـــاد أدراجـــه . هيا بنا نسرع خطونا .

ولزما الصمت .

* * *

قضى القسيس فوتيس ومانولى ليلتهما ساهرين فى انتظار عودة الرجال . وتنفس الصباح . ولمع ضوء خافت فى السماء ناحية الشرق ، وتوقف المطر ، ولكن لازالت السماء تنذر وتتوعد . وفجأة سمعا صفيرا واصواتا مرحـــة .

وهرع مانولى ناحية الصوت . وقال :

ـ ها هم .

وظهر القراصنة الأربعة مثقلين بأحمالهم . أشعلوا المصباح لينير لهم الطريق ، وبدت وجوههم على ضوء الفانوس وضاءة متألقـــة . ياناكوس فى المقدمة وعلى ظهره محجمة النبيذ .

ـ « اليكم تحيات الشيخ لا داس . هذا الشيخ البار المحسن

يبعث اليكم بهذا النبيذ لتشربونه فى صحته . يقول ليس هذا بالشيء الكثير حقا ولكن قلبى معه » .

وقال لوكاس وهو يضع المحجمة الثانية عند قدمى القسيس :

ــ وهذا زيت لتشحيم امعائنا ، ويقول ان كنتم بحاجة الى مزيد فالجرار ملأى .

وقال الآخران وهما يحطان عن كاهلهما زكيبتيهما المملوءتين :

ــ وها هو القمح حتى يجد الأطفال الصغار البؤساء خبزا يطعمونه لأنه حزين عليهم .

وضحك القسيس فوتيس وقال :

ــ نشكره على ذلك . لعل الله يجزيه عن ذلك بالربى . سأكتب اليه من فورى رسالة أبلغه فيها أن أربعا من الملائكة دخلوا منزله ليلا وأخذوا هذه الهدايا الثمينة وحملوها الينا فى ساراكينا على اجنحتهم . وحتى يتم كل شيء على الوجه الأكمل ، سأرفق بالخطاب كمبيالة مقبولة الدفع فى الحياة الآخرة .

وقال باناكوس ضاحكا :

ــ واكتب يا ابانا أيضا أن أحد الملائكة أراد أن يهشم الجرار والبراميل ، وبريق الزيت والنبيذ على الأرض ، ولكنه أشفق فى آخر لحظة ، لا عليه ، وانما على النبيذ والزيت .

وقال القسيس فوتيس :

ــ يا مانولى ، آتنا بكوب لنقدم الشراب للملائكة . ادخلوا وانفضوا أجنحتكم المبتلة ياسادة .

ودخلوا الكهف ، وشرب كل منهم كوبا بدوره ، وساد المرح .

ثم قال القسيس :

ــ فى صحة الشيخ لاداس هذا الانسان البار .

وقال مانولى :

ــ في صحة الملائكة .

وقال لوكاس :

ــ فى صحة قديسنا الذئب ، اذ عندما بدأنا مسيرتنا عوى الذئب فوق قمة ساراكينا ، ومدنا عواؤه بالشجاعة .

وقال باناكوس فى قلق :

ــ وماذا عن ميشيل . لم نره .

واجاب مانولي :

ــ عاد ، غارقا في الوحل ولم ينبس بكلمة . وهو نائم الآن .

***

نزل الشيخ لاداس الى الحديقة فى الصباح ، وانزعج عندما راى السلم مسندا الى الحائط . ودار على عقبيه ، ونادى على زوجته التى كانت تجلس بجوار النافذة تطل على الدنيا بعينين بليدتين .

ــ يا أم بنيلوب ، من الذى أسند السلم الى الجدار ؟ هل أنت .

ولكن الأم بنيلوب امسكت بالجورب وشرعت تغزل . ولم تعبأ حتى بالنظر اليه .

حمل الشيخ السلم على ظهره ، واعاده الى الكرار . وجال بعينيه وراى كل شيء فى مكانه : الجرار والبراميل والتبن المجفف والسفرجل. وتمتم :

ــ الحمد لله ، لحسن الحظ لم يدخل لصوص البيت . هذه المرة التعسة لم تعد تدرى ما تفعله . لا بد أن أفتح عينى أنا . سيأتى يوم تشعل النار فى البيت .

ودخل الحظيرة . كان الحمار فى مكانه ايضا .

وقال له فى غضب وهو يرفسه :

ــ ماذا دهاك الليلة . ايقظتنى من النوم بنهيقك ؟

ولكن الحمار لم يعبأ به . كانت عيناه الواسعتان هائمتين تحملقان فى لاشيء . خيل اليه أنه راى فى منامه صاحبه الحقيقى ، أتاه يزوره ليلا ، وربت فى رقة وحنان على رقبته وظهره وبطنه مثلما كان يفعل دائما . ورفع ذيله في سعادة ، واطلق لعقيرته العنان ينهق فى بهجة . وامسك سيده بخطمه بين راحتيه ليسكته . وقبل اذنيه ورقبته ، ثم اختفى عن ناظريه من النافذة المستديرة الصغيرة ..

وأطرق الحمار براسه ، واغمض عينيه وصلى لربه .. وهو اله له ذيل ضخم ، كث الشعر ، وراس حمار كبير ابيض ناصع البياض ، وسرج من المخمل الموشى بالذهب ، ولجام أحمر مطرز بحبات من الفضة والترتر ، تلمع كأنها النجوم الساطعة .

وصلى الحمار :

ــ يا الهى ، اسألك أن تحقق لى حلمى الذى تراءى لى البارحة .

***

فى الصباح الباكر ذاع نبأ المعجزة فى كل انحاء ساراكينا : نزل اثناء الليل أربعة ملائكة يحملون قمحا وزيتا ونبيذا للجوعى . وصدق السذج منهم النبأ ، ورسموا علامة الصليب . اما الخبثاء منهم فنظروا بطرف اعينهم الى ياناكوس ولوكاس وابتسموا . وانكبت النساء على القمح ينقينه ، وهن يتغنين بصوت حنون كأنهن يهدهدن طفلا لينـام ، أو يداعبن يسوع الطفل . واذا سقطت حبة قمح على الأرض ، انحنين فوقها فى لهفة ليلتقطنها ، اليست جزءا نفيسا من جسد الرب ، ويجب الا تلوثها الأرض ؟ وفى لمح البصر طحن بعض القمح فوق حجر ، وصنعن منه عجينا ، وقطعنه خبزا ، وانضجنه على الجمر ، بعد أن أضفن اليه شيئا من الزيت ليكسبه طعما لذيذا . ثم وزعن منه قضمة ملء الفم على كل الحاضرين كأنه قربان مقدس . وسرعان ما احسوا بالراحة تسرى فى لحمهم وعظامهم ، كأن الخبز هو جسد المسيح حقا .

ثم شرب كل منهم جرعة نبيذ ، ولم تستطع النساء ان يحبسن عبراتهن . وتنهدن :

ـ يا الهى قضمة خبز واحدة ملء الفم ، ورشفة نبيذ ـ هذا كل ما تحتاج اليه الروح لتشعر أن لها أجنحة تحلق بها .

وبعد الظهيرة حمل رجلان القمح على كاهليهما الى الطاحونة . وسارت النسوة معهما بعض الطريق يحرسن الحمل الثمين كأنهن يتوجسن خيفة ألا يعود اليهن ثانية .

وصاحت النسوة بالحمالين :

ـ متى ستعودان الينا بحملكما ؟

واجابا ضاحكين :

غدا صباحا ، فلا تجزعن .

وعمل ياناكوس خازنا لطعام شعب ساراكينا . فهو الذى يحتفظ بالمؤن ويوزعها على النساء كل صباح ، يعطى كلا منهن ما تحتاج اليه اوجبات النهار .

كان يقول احيانا :

ـ اقتصدوا يا أصدقاء ، وشدوا احزمتكم حتى يمضى الشتاء . فالملائكة مشغولون بأعمال أخرى ولا يمكنهم أن يحملوا الينـا ما نحتاج اليه كل يوم ..

كان قليل من الخبز وقليل من الزيت كافيين ليعيدا الحيـاة الى الشعلة التى كادت ان تخبوا . وبدأ الأطفال يستعيدون صحتهم ،

ويفش ورمهم ، وتتورد وجناتهم . وامتلأت أثداء النساء لبنا ، ولم يعد الأطفال الرضع يشكون من الجوع ويصرخون طوال الليل . وعادت البهجة الى الرجال ، واشتدت سواعدهم ، فشرعوا ينقلون الحجارة ليتموا بناء اكواخهم . وبين الحين والحين تسمع ضحكة او دعابة . واذا ابتعدت قليلا عن الكهوف فقد تقع عيناك على اثنين استعادا شيئا من القوة تعينهما على التقبيل والعناق .

وقال القسيس فوتيس يومذاك لمانولى :

ـ كل هذا القمح والزيت والنبيذ لا بد أن يصبح دما ، ولا بد أن نستجمع قوتنا لغزوة نشنها . لن نرضى بحال من الاحوال ان نعيش جوعى ونسرق . لابد أن ننزل الى القرية ونستولى على أراضينا ان طواعية أو كرها ، فهى وحدها عوننا على الحياة فوق هذا الجبل القاحل .

وقال مانولى :

ـ حان موعد تقليم الكرم ، وتشذيب شجر الزيتون ، وتسميد الأرض . ترى هل نتركها هكذا مهملة ؟ معنى هذا ضياع عام بأكمله . ماذا تنتظر يا أبانا ؟

ـ انتظر الاشارة يا مانولى . انتظر الصوت الذى ينبعث من باطنى ويعطينى الأمر . انت تعرف أننى لم اتخذ قرارا خطيرا قبل سماعى لهذا الصوت . والقرار الذى تطلبه يا مانولى قرار جد خطير ، ستسفك فيه دماء .

ـ أعرف ذلك يا أبانا ، ولكن فى عالم كعالمنا هذا ، عالم لا يعرف معنى الشرف والعدل ، هل يمكن أن يتم شىء بدون سفك دماء ؟ كنت أقول لنفسى : « سيرى اهل ليكوفريسى الحال التى صار اليها أطفالنا ، سيرون بطونهم المتورمة ، ووجناتهم الغائرة ، وسيقانهم النحيلة الضامرة . فتأخذهم بهم الرحمة . ولهذا السبب أرسلت أول أمس بعض الأطفال الى القرية .. هل تعرف كيف استقبلوهم هناك ؟ امسك بعض الناس بهراواتهم وطاردوهم بعيدا عن ابوابهم ، والبعض الآخر ألقى اليهم بكسرة خبز جافة ، كأنهم يلقون بها الى الكلاب .. واحد فقط هو الذى اشفق عليهم . هل تعرف من يا أبانا ؟ الأغا . رآهم من شرفته ينبشون الأرض بحثا عن بعض الحبوب أو قشر بطاطس أو قشر ليمون . وصاح : « ما هذه ؟ قردة صغيرة ؟ أم أقزاما ؟ ونزل من شرفته وفتح لهم باب داره وأدخلهم . ونادى على مارثا : « أعدى لهم المائدة يا مارثا . قدمى

لهم بعض الطعام ليأكلوه · انهم قردة صغيرة · أعطيهم شيئا يبتلعونه ، حتى يصبحوا بشرا .. » .

وصاح القسيس وقد لمعت عيناه من خلال دموعه :

ـ لم أكن أعرف هذا · لم تقصه على يا مانولى ·

ـ أخفيته عنك يا أبانا ، اشفاقا عليك . قلبك ملىء بالسم الذى تجرعته على يد البشر ، ولا زالوا يقدمون منه المزيد . فما جدوى أن اضيف المزيد الى هذا السم ؟ ..

ـ كان حريا بك أن تنبئنى بذلك يا مانولى . قلبى أثقلته الشجون. لو لم يفض قلب المرء بعاطفة الحب أو الغضب لماتت الدنيا وأجدبت ولما أقدم الانسان على شيء ·

وصمت ، وأحس باعياء مفاجيء · فجلس فوق صخرة ومال برأسه على صدره ، كأنه ينصت لشيء بداخله . وجلس مانولى قبالته ، يشخص ببصره الى السهل . أقلعت السماء ، واسودت الأرض التى اتخمها الماء حتى طفح على السطح . وهبت ريح رخاء . وتراقصت أوراق شجر الزيتون ، تعرض حينا لونها الفضى ، وحينا آخر لونها الأخضر الداكن . وغاصت بساتين الكرم فى الماء فبدت سوداء . وهم صقر عند قمة القديس ايليا بالطيران ، وبسط جناحيه فوق السهل .

ونهض القسيس فوتيس وقال :

ـ قلبى اثقلته الشجون ، انى منصرف .

ولم ينبس مانولى ببنت شفة . اذ أدرك أن القسيس متوتر ، مشدود الأعصاب وحدث نفسه : « من الخير الا اتكلم معه » .

تسلق القسيس فوتيس الصخور ، متخذا طريقه الى قمة الجبل. كان القديس ايليا يتألق فوق قمة الجبل ، أبيض ناصع البياض .

واصل القسيس صعوده ، مشدود القامة كأنه حد الحسام . يتوارى أحيانا وراء الصخور ليظهر ثانية وقد سار بعيدا . خلع غطاء رأسه ، وداعبت الريح شعره .

ولم يمض وقت طويل حتى رأى مانولى ظله أمام الكنيسة الصغيرة ، مرسوما فوق الجدار الأبيض فى حجم الصقر . وسرعان ما انفتح الباب ودخل القسيس وغاب عن الأنظار ·

وعاد مانولى على الفور الى كهفه . وأمسك بكتلة من خشب البلوط . وبدأ ينحت الوجه الجديد للمسيح .

***



الوجه القاسي للمسيح

بدا الليل يرخي سدوله ولم يعد القسيس بعد . وهبت ريح صرصر عاتية ، وتلبدت السماء بغيوم منذرة . وارتفع عواء الذئب من جديد ، بعيدا يمزق سكون الليل .

وقال ميشيل

ـ هيا بنا لنرى ماذا حدث له . فربما أصابه شيء ..

كانت هذه هي أول كلمات ينطق بها منذ أيام طويلة . فكلما مرت الايام غاص أكثر وأكثر مع تأملاته السوداء ، حينا يصعد الزفرات ، وحينا يشخص ببصره ناحية الكنيسة الصغيرة فوق الجبل ـ ثم يبتسم فى هدوء وسكينة . واحتفظ بضفيرتي ماريوري ، وربطهما الى صدره لصق جلده مباشرة ، وبين آن وآخر تراه يرتجف ، ويتحسس قميصه فى جزع ويمسك بهما خوفا عليهما من الضياع . واذا جن الليل واغفى تند عنه صرخة يهب بعدها واقفا ، ثم يعز عليه النوم بعد ذلك .

والتفت الى مانولي الذى جلس فى هدوء داخل الكهف وقال :

ـ هيا بنا لنرى ماذا حدث له . فربما أصابه شيء ..

كان ذلك في منتصف الليل تقريبا .

واجاب مانولى :

ـ لا ، لم يصبه شيء . أعرف هذا من هيئته حين قام من هنا وشق طريقه الى الكنيسة حتى خلت للحظة أنه انسان خالد .

ولم يطمئن ميشيل لكلام صديقه وتمتم :

ـ مضى وقت طويل .. وقت طويل .. ترى ماذا يفعل هناك ؟

ـ « انهما يتشاوران معا يا ميشيل . يتحادثان على انفراد ، ويعدان الخطة سويا ـ هو والقديس ايليا .. لا يمكن لأحد أن يدخل بينهما . انهما يحسمان الأمر » .

ـ « ولكن ألن يأكل شيئا الليلة ؟ ألن ينام ؟ البرد شديد الليلة حتى تجمدت الدنيا » .

ـ « ليست به حاجة الى أكل أو نوم ، كما أنه لا يشعر بالبرد . أؤكد لك انه لا يحتاج الى شيء من هذا وهو فى الحالة التى هو عليها الآن . فهو أشبه بالميت أو الانسان الخالد ، لست ادرى ماذا اقول على وجه الدقة .. انه ليس بحاجة الى شيء » .

ظهر ياناكوس فى هذه اللحظة يتأفف ويسب ويلعن .

وسأله مانولى :

ـ مالى أراك منحرف المزاج ، يا ياناكوس ، ترى ماذا دهاك ؟ كيف حال العمل يا أمين مخازن ساراكينا ؟

وأجاب ياناكوس قائلا :

ـ يقول المثل كيف حال صغارك يا سيد غراب ؟ انهم يزدادون سوادا يوما بعد يوم .

ثم أردف قائلا :

ـ بدأنا نجهز على البقية الباقية من الأغذية ، وقاربنا النهاية ، هذه هى حالنا . بعد قليل سنرى القاع .. ما العمل ؟ هل اجمع الصحاب مرة أخرى وننقض على السهل ؟ هذه المرة سيكون دور القسيس جريجوريس .

وقال مانولى :

ـ تمهل ، انه دور ليكوفريسى كلها .

واهتزت جوانح ياناكوس طربا ، وصفق بيديه .

وصــــاح :

ـ هل دقت الساعة ؟ هل قال القسيس ذلك ؟

ـ لم يقل شيئا بعد ، ولكننى أحسب أن الساعة قريبة .. قال ان قلبه أثقله الشجون .

ثم بدأ مانولى يقص عليه حديثه مع القسيس .

وتمتم ياناكوس ، وقد رجع عن رأيه فجأة :

ـ آه لو انتظر قليلا هذه المرة .. يمهلنى حتى أستعد ، فاننى لست مستعدا الآن .

والتفت اليه الصديقان يحاولان أن يتبينا وجهه فى الظلام .

وسأله مانولى :

ـ هل ينقصك شيء ياياناكوس ؟ .

ـ « ان شئت الحقيقة فنعم » .

ـ « أى شيء ؟ » .

ـ « البترول · أقسمت أن أحرق بيت الشيخ لاداس ، وأشـهدت الله على قسمى هذا » .

وقال ميشيل الذى استجمع شتات فكره ليتكلم :

ـ أنت قاس ..

ورد عليه ياناكوس :

ـ بل عادل ، لو تنزل المسيح اليوم الى أرض كهذه الأرض التى نعيش فوقها ، فماذا تظن أنه سيحمل فوق كتفه ؟ صليبا ؟ لا ، بل صفيحة بترول .

وثب مانولى ، وأسند ظهره الى جدار الكهف وهو ينصت اليه .

وسأل ياناكوس :

ـ ما رأيك فى هذا يا مانولى ؟ أراك صامتا لا تقول شيئا .

وتمتم مانولى بصوت متهدج :

ـ وكيف عرفت ذلك ، ياياناكوس ؟ .

ـ لست أدرى ، فأنا لم أتعلمه ، ولم ينبئنى به أحد ، ولكننى واثق منــه .

ثم استطرد قائلا بعد فترة صمت :

ــ بعد أيام قليلة سيهيم اطفالنا علي وجوههم ، وينبشون أكوام القمامة بحثا عن قشرة بطاطس ، أو بعض القاذورات ليطعموها ، بينما الخنازير السمينة تنظر اليهم وتضحك . وهكذا يرى أطفالنا المسيح فى أحلامهم ، ولهذا يسألونه أن ينزل الى الأرض . ولكنهم عندما يستيقظون من نومهم مع الصباح ينسون كل شيء ــ انهم اطفال ، أليسوا كذلك ؟ ــ ثم يعودون لينبشوا أكوام القمامة .

انصت له مانولى مبهورا دون أن ينبس بكلمة . أحس بقلبه يخفق فى عنف حتى يكاد يثب من بين جوانحه . فهذه هى الصورة التى راى عليها المسيح ليلة البارحة . ولكن لم تواته الجراة على أن يقص ذلك على احد . رآه يتنزل مع شعاع الشمس من فوق قمة جبل قاحل كجبل ساراكينا ، حافى القدمين ، لا يحمل فوق كتفه صليبا بل صفيحة بترول . وكانت عيناه مثبتتان على ليكوفريسى ينظر اليها بوجه قاسى حزين غضوب .

ونظر الى ياناكوس وقال له .

ــ أنت على حق ، ليس صليبا بل بترولا .

ــ سأنطلق لأبحث عن رفاقى من الوحوش الكوارس ، لم يعد هناك وقت نضيعه هباء .

وتوقف عند فتحة الكهف وضحك ، ثم قال :

ــ القسيس جريجوريس عنده مصباح غاز ، اذن لا بد ان عنده صفيحة بترول فى مخزنه ، وربما عنده صفيحتان . سأصحب لوكاس معى فهو سلم ممتاز . الى اللقاء غدا .

★ ★ ★

وفى رائعة النهار ، لمح مانولى القسيس فوتيس عند قمة الجبل وقد أخذ طريقه نازلا يثب من صخرة الى اخرى ، ورداؤه الكنسى يدف فى الهواء كأنه جناحان سوداوان ، وشعره منثور فوق كتفيه . اذا رأيته حسبته النبى ايليا ، فالسماء من خلفه حمراء ساطعة تتأجج نارا وقد انعكس عليها نور الشفق . وبدا القسيس كأنه يخطو وسط ألسنة من اللهب .

وأبصرته نسوة كثيرات ممن ذهبن ليملأن الجرار بالماء ، فتولاهن الفزع ، وندت عنهن صرخات عالية .

ـ « رحماك يا الهى ، افلت القديس ايليا من اساره فوق الجبل ـ وها هو ينزل الى السفح » .

وهرع اليه الرجال من داخل كهوفهم للقائه ، وسار مانولى فى مقدمتهم . استشعروا فجأة أن القسيس يحمل اليهم رسالة خطيرة .

وتساءل ياناكوس :

ـ ماذا يحمل بين يديه ، يارفاق ؟

لم يتم البائع الطواف ليلته ، فاحمرت عيناه ، ولم يجد فسحة من الوقت يغسل يديه اللتين تفوح منهما رائحة البترول .

دقق ميشيل النظر يحاول أن يتبين هذا الشيء . وقال :

ـ حقا ماذا يحمل بين يديه ؟

وصاح لوكاس الذى وقف في المقدمة ورائحة البترول تفوح منه ايضا :

ـ ايقونة ، انها أيقونة .

وقال مانولى فى نفسه :

ـ حمل الينا القديس ايليا ، هذا فال طيب .

اقترب القسيس ، وبانت ملامحه : وجه قاس كظيم . بدا كأنه لم ير الرجال الذين خفوا للقائه ، ولم يسمع نداءاتهم ، وكأن روحه لا زالت فى خلوتها الرهيبة فوق قمة الجبل مع النبى ايليا .

وقال مانولى :

ـ افسحوا له الطريق يا أصدقاء ، لا يتحدثن أحدكم معه ، فانه لا زال فى مناجاته مع الرب .

اصطف الرجال على الجانبين ، وكان القسيس ينهب المنحدر بخطوات واسعة ، يدفع بقدمه الحجارة فتتدحرج من تحته . ورأى كل منهم ما يحمله بين ذراعيه : أيقونة النبى ايليا ذات المعجزات .

واسر يا ناكوس الى لوكاس رفيق الليل :

ـ أشم رائحة البارود . أنظر الى وجهه .

وقال لوكاس :

– من حسن الحظ أننا أنجزنا عملنا فى الوقت المناسب • أكثر البيوت من الخشب صفيحتان فيهما الكفاية •

وأقبلت النسوة بدورهن • تسلقن المنحدر وهن يثرثرن عن المعجزات والقديسين والأحلام • واشرأبت أعناقهن ، وشخصن بأبصارهن الى القسيس وهو ينزل المنحدر • رأته احداهن يطير بأجنحة سوداء • وقالت أخرى انها ليست أجنحة بل رداءه ، ولكنها أكدت أن ثمة غرابا جاثما على كتفه وقد أمسك بجمرة بين منقاره يقدمها اليه ليأكلها • وفجأة صمت الجميع : لقد أقبل القسيس •

وصاح بالرجال دون أن يتوقف عن المسير :

– تعالوا معى •

ثم قال للنساء :

– وأنتن أيضا •

ومرق من أمامهم سريعا ، ممسكا بالنبى ايليا بين ذراعيه ، يضمه الى صدره •

وارتد الجمع الى الوراء كان طائرا كاسرا مرق بينهم ، ولطمهم بجناحيه القويين • وتبع الرجال قسيسهم فى دهشة وانفعال ، ومن ورائهم النساء وقد أمسكن عن الكلام •

اعتلت الشمس أفق السماء ، ترسل نورها الساطع من خلال السحب المتناثرة ؛ وبدت كأنها كرة بيضاء ملتهبة • وكأن السهل من تحتهم لا زال غارقا فى ضباب كثيف • وخرجت بعض عجائز النساء اللائى تأخرن عن اللحاق بالركب ، ووقفن أمام الكهوف ، ووضعت كل منهن راحتها فوق حاجبيها تستظل بها من ضوء الشمس ، وهى تحملق فى ذهول فى هذا الحشد النازل من قمة الجبل •

توقف القسيس فوتيس عندما بلغ موضع الكهوف • وضع الأيقونة فوق الصخرة ، والتف الجميع – رجالا ونساء وأطفالا – حوله فى دائرة •

وبسط ذراعيه وبدأ يتكلم • كان صوته أجش أول الأمر ، اذ كان يشعر بجفاف فى حلقه • وتزاحمت الكلمات على لسانه تتسابق سريعة تحاول أن تخرج كلها فى وقت واحد ، فاحتبست جميعها ولم تخرج كلمة منها • ورويدا رويدا انبسطت عضلات حنجرته ، وعادت لصوته قوته ، وتتابعت الكلمات فى انتظام • وقال :

ـ أيها الرجال اسمعوا وعوا · وأنتم أيتها النساء احتضن أطفالكن بين أذرعكن حتى يسمعوا هم أيضا ما أقول · أتيتكم من عربة النـــار ، وسأقودكم الى حيث قادتني · وسوف أكشف لكم عن كل ما استأمنتني عليه واستودعتني اياه · ليست الحياة ماء راكدا · الخنوع والاستسلام ليسا خير الفضائل ولا أحبها الى الرب · الرجل الصالح لا يحتمل أن يرى الأطفال تتساقط أمام عينيه على الأرض ، وتموت جوعا دون أن يهب ثائرا ويطلب الحساب حتى ولو كان من الرب الهنا ·

قصدت قمت الجبل لأتحدث الى سيدنا قديس جيلنا ، علنا ننتهي الى قرار يكون فيــه علاج لــكل شرورنا ومآسينا · فأطفالنا أطفاله وهو مسئول عنهم ·

ثم اســتدار ناحية الأيقونة يخاطبها وهو باســط اليهــا ذراعه على امتدادها :

ـ أنت مسئول عنهم يا نبي النــار ، ولهذا السبب ، ان شئت أن أكون صــادقا في حديثي اليــك ، قصــــدت عرينك · مثلي كمثل الفلاح المستأجر الذي يقصد صاحب الأرض ليرد اليه حساب أول العام ، محملا بالهدايا التي أخذها من حدائقه وبساتين كرمه ، وأنا أيضا حملت اليك آلام شعبي وأناته الموجعات ووضعتها عند قدميك ·

« قضيت الليل بطوله يا أطفالي ، واقفا أمام ذلك النبي أتحدث اليه · قصصت عليــه قصتنــا ، من نحن ، ومن أين أتينا ، وكيف حللنا بجبله نبحث عن مأوى تحت رعايته · كان يعرف كل هذا ، ولــكنني رأيت من الخير أن يسمع القصة من جديد · وأنصت لي ولم ينبس بكلمة » ·

« ثم حدثته عن جيراننا في ليكوفريسي ، قصصت عليه كيف عاملونا وكيف طردونا جميعهــم دون اســتثناء ، القسيس والأعيــان وكل أهل ليكوفريسي ، وكيف سلبونا حقنا ولم يسمحوا لنا بأن نفلح أرضنا التي منحها لنا ميشيل المحسن الجواد ··· أفضيت اليه بكل شيء ، وأفرغت مرارتي وأنصت لي دون أن ينبس بكلمة » ·

« ثم حدثتــه عن استشهاد شــعبنا ، وما يعانيــه من جوع وبرد ومرض ··· صحت به قائلا « وقاحة الأغنياء تفوق كل الحدود ، يا سيدنا اتخمت بطونهم حتى طفحت من البلعوم ، وفاض الكيل بنا ، هل تسمعنا يا صاحب عربة النار ، أيها الجبار ؟ قم واسرج خيلك وانزل معي · وانصت الي دون أن ينبس بكلمة » ·

وثارت ثائرتي . وتفرست فيه وانا احدث نفسي : « هل لن ينفطر قلبه لما أقول ؟ كيف يتحمل كل هذه الالآم ويرضي بهذا القدر من الظلم ، ويطيق مثل هذه الوقاحة ؟ ترى هل لن يترك أيقونته وينطلق معي ؟ ترى هل لن يسرج ألسنة اللهب ، ويمسك برقبتي ويرفعني ليجلسني الى جانبه وننزل معا الى ليكوفريسى ؟ » .

وتشبثت بالأيقونة ، وملت على أذنه ، وصحت : « ايليا ، ايه أيها الفارس ايليا ، اسمع لهذا النداء : أطفالنا لا يجدون ما يقتاتون به ، خارت قواهم ، سيقانهم تنهار من تحتهم من أثر الجوع ، يتوكأون على عصى ، وينزلون الى السهل وهم يحجلون كالغربان ليمدوا أيديهم بالسؤال الى أهل ليكوفريسى ... تعرف هذا يقينا ، لا بد انك سمعت عنه . رأيتك وأنت تنحنى من فوق قمتك لتشهد كل شيء ، ومست لحيتك أسطح بيوت ليكوفريسى ، ورأيت أطفالنا يبكون أمام الرب ...

« ظللت أتفرس فيه ، وأحسست بالدفء يسرى فى جسد النبى ، ودبت فيه الحياة ، ودبت فى نفسى الشجاعة من جديد » .

وصحت به :

ـ نعم تنازلت وملت بعربة النار لتنظر الى ما تحتك وتروى كيف استقبل أهل ليكوفريسى أطفالنا ، اسمع : أمسك بعض الأهالى بعصيهم ليطردوهم بعيـــدا عن أبوابهم ، وآخرون ـ هل رأيتم ؟ ـ ضربوهم دون رحمة أو شفقة .

« ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى جفلت خوفا وهلعا . خيل الى وكأن الأيقونة ارتطمت بى ، وكأن الحياة دبت فى الخيول الأربعة ، وكأن شفاه النبى تتحرك ، وكأننى سمعت صيحة كبرى عالية : « دعنى أذهب » .

« وفى هذه اللحظة قفزت الأيقونة بين ذراعى » .

وبهت الجمع . وتقطعت بهم الأنفاس . وجثت النساء باكيات أمام الأيقونة صاحبة المعجزات . ودنا منها الرجال الذين ســـحرتهم كلمات القسيس ، واشرأبوا باعناقهم يتطلعون الى النبى الذى تلفه ألسنة اللهب، ونزل اليهم من فوق الجبل .

وحيته النساء : « أهلا ومرحبا ، أيها النبى ايليا » .

وصاح ياناكوس :

ـ اعط الاشـــارة ، يا أبانا • عجل بها ونحن نملك بعض الطعام نستمد منه قوتنا • فالمؤن على وشك النفاد •

واقترب مانولى من القسيس ، وقبل يده وقال :

ـ ارفع ذراعك ، يا آبانا • هل دقت الســـاعة ؟ نحن على أهبة الاستعداد •

ورفع القسيس فوتيس ذراعه الى شعبه وصاح :

ـ بعد ثلاثة أيام يا أطفالى ، أى فى الثانى والعشرين من ديسمبر ، عشية ميلاد النور ، يكون ميلاد النبى ايليا • سيكون يوما عظيما • تأهبوا له يا رفاق ، رجالا ونساء • هو موعدنا للنزول الى القرية •

ومر الجميع فى موكب أمام الأيقونة ، وخروا سجدا • تراءى لهم النبى حيا ، رداؤه أتون نار تتراقص ألسنته مع الريح • ورأت النساء حبات العرق فوق جبينه ، وقبل الأطفال الأيقونة وأحسوا أن النبى يتحرك تحت شفاههم .

وشعر القسيس فوتيس باعياء شديد ، فأوى الى كهفه ، واستلقى على الأرض هناك • أغمض عينيه عسى أن يغلبه النعاس ، ويتنزل عليه الرب فى منامه ويتحدث اليه • وحمل مانولى أيقونة نبى النار بين ذراعيه ووضعها فى صدر الكهف وسط الظلام الى جانب أيقونة الصلب التى تحوم فيها عصافير الجنة •

* * *

بدأت ساراكينا منذ تلك اللحظة تطن كأنها معسكر حرب يتأهب للقتال • من لا يملك عصا انطلق بين ربوع الجبل يبحث عن شجرة بلوط ليقطع أحد فروعها ويتخذ منه عصا له • ومن يجيد استخدام المقلاع بدأ يدرب النساء والأطفال على استخدامه • ووزع القسيس فوتيس ما وقع تحت يده من أسلحة ، وخص بها الشجعان من الرجال ، وبدأ يتنقل بينهم، فى دأب لا يعرف الكلل ، ويلقى بتعليماته الى كل منهم •

وأقبل قسـطندى من القرية مع المساء ، وذهل حين ســـمع جلبة وضوضاء • ورأى الرجال منهمكين فى تدريب النساء على قذف الحجارة بالمقلاع ، أو تعليمهن كيف يصنعن الهراوات من فروع الشجر ، كأنهم يستعدون جميعا رجالا ونساء للحرب • وألفى مانولى ينحت فى عجلـة

الوجه الجديد للمسيح . كان هذا هو سلاحه الوحيد ، ويود أن يفرغ منه وشيكا حتى يكون كل شيء على أهبة الاستعداد .

جلس قسطندى الى جواره بادى القلق وقال له :

ـ أرجوك يا مانولى ، ان كان لديك متسعا من الوقت ، أن ترفع رأسك وتسمعني . لقد أتيتك بأخبار سيئة .

ـ مرحبا بها يا قسطندى ، فالجبال ألفت تحمل الثلوج ، وهى لا تخشاها . تكلم .

ـ ماتت ماريورى .

وألقى مانولى بقطعة الخشب التى ينحتها ، واتسعت عيناه فى انزعاج شديد . وقال فى وجوم كأنه يسمع عن الموت لأول مرة :

ـ ماتت ؟

ـ دهمنا الخبر بالأمس ، ساعة الظهيرة . وصرخ أبوها الشيخ صرخة زلزلت القريه . وامتطى على الفور صهوة بغلته وانطلق ينوح ويتوجع . وعندما بلغ المدينة الفى ابنته قد ووريت التراب ولم يتمكن من رؤيتها حتى يسبل لها جفنيها . وعاد هذا الصباح ، لو رأيته ما عرفته . ذهب الحزن بعقله . رأيته يطرق أبواب القرية ، فتوجست خيفة ، كما أشفقت عليه . كان يسير حافى القدمين ، مشعث الشعر ، يتنقل من بيت الى بيت يدعو أهل القرية لحضور التناول بالكنيسة . ودق الشماس أجراس الحداد . وترك الناس أعمالهم وقصدوا الكنيسة . جمعنا القسيس فى رواق الكنيسة ، ووقف فوق مقعد حجرى . كانت لحيته ترتجف حتى أعياه الكلام . ولكن عينيه المسجورتين كانتا تتقدان لهيبا . واستطاع فى النهاية أن يستجمع قواه ، وخرج من حلقه صوت جهورى :

ـ يا أبنائى . سأقول كلمتين اثنتين فحسب ، لا أستطيع أن أقول أكثر منهما ، فان قلبى يتمزق : ستقضى علينا ساراكينا .

وتوقف لحظة يلتقط أنفاسه ، ثم عاود الحديث :

ـ هبوا ، احملوا أسلحتكم وأنا فى المقدمة . هيا يا أطفالى ، اطردوا هؤلاء الوحوش الكواسر . انهم هم الذين بذروا الشر فى قريتنا السعيدة . فمنذ تلك الساعة التى وطئو فيها بأقدامهم قريتنا ، والتعاسة والموت تمطراننا بوابل ضرباتهما دون رحمة أو شفقة . وأول من يستحق اللوم فيهم

وأخطرهم هو مانولى طريد الكنيسة . أفسد عقل ميشيل بأفكاره التى وسوس بها اليه حتى أصابه الجنون . وهو المسئول عن فســخ خطبته لماريورى . وهو الذى قتل ابنتى وأودى بحياتها .

حاول أن يواصل حديثه ولكن أصابه دوار . ومد ذراعيه ليستند الى الحائط ، ولـكن أظلمت عيناه فلم يعد يبصر شيئا .. وفقد توازنه ، وسقط بكل ثقله فوق الرصيف الحجرى .

وصمت قسطندى . وشد مانولى طرف منديله الذى عصب به رأسه كأنه عمامة ، وعض عليه حتى يكتم نشيجه . وقال :

ـ ماتت ماريورى ... ماتت ... ماتت ...

وأخذ يرددها بغير زيادة .

والتفت الى قسطندى ، وسأله شارد اللب :

ـ وماذا ؟ وماذا ؟

أتيت لأخبرك يا مانولى حتى تكونوا على بينة ، وتأخذوا حذركم . أهل القرية جميعا ثائرون عاضبون بعد كـلام القسيس ، ويســتعدون لمهاجمتكم هنا . وهم يبحثون عن مبرر لذلك . أو عذر ينتحلونه ، وهاهم قد عثروا عليه ... الأغنياء يخشونكم ، لأنهم يعتقدون أنكم اشتراكيون ، والفقراء يكرهونكم لأن الأغنياء وضعوا لهم عصابة على أعينهم ، ولذلك فانهم سيكيلون اليكم ضربتهم وقتما يستطيعون الى ذلك سبيلا .... انهم أكثر منكم عدة وعددا ، والأغا يعاضدهم فاحترسوا .

ـ اسمع يا قسطندى ، ابحث عن ميشيل المسكين وأنعه بالنبأ . فأنا لا أستطيع ... فاتحه فى الموضوع برقة ، ذلك لأن عمدتنا الشاب قد تغير تماما فى ايامه الأخيرة وأصبح انسانا آخر . يروح ويجىء مطبقا شفتيه لا ينبس بكلمة ، ينظر اليك بعينيه وعقله شارد فى وادى آخر ، وتسأله فلا يجيبك ... واذا جن الليل يأوى الى فراشه وهو يرتجف فرقا، فقد بات يخشى النوم . سألته ذات يوم : « ماذا يخيفك يا ميشيل ؟ » وشق عليه أن يفتح فمه ، وأحس بالحيرة والارتباك وقال : « الرجل الميت ... الرجل الميت » . هيا تشجع ، يا قسطندى . ابحث عنه ، وسأبحث أنا عن القسيس لأتحدث اليه .

***

أمسك ميشيل بالانجيل المفضض الذى كان يقرأ فيه وضـــمه الى صدره وتمتم :

ـ انتهى كل شيء • لا أريد شيئا بعد الآن ، يا قسطندى • أمسك الرب بسكين وبتر حياتي نصفين • ألقى بالنصف الأول فى باطن الأرض، وها هو الآن يلقي بالنصف الثانى • وهكذا أصبحت الآن بكل كيانى تحت الثرى •

دهش قسطندى لهذا الهدوء الذى استقبل به ميشيل النبأ المروع • وأحس بالوجود ينقض من خلف ذلك الوجه الهادىء الساكن •

مرة أخرى قال الرجل الذى كان يوما ما عمدة القرية الشاب :

ـ انتهى كل شيء •

واستوى واقفا • وأمسك بحبل كان داخل فجوة في الصخرة ، وربط به الانجيل بقوة وكأنه يوثق حيوانا مفترسا خشية أن يعض •

ونظر الى قسطندى ، ثم هز رأسه وقال :

ـ أى طريق أسلك يا قسطندى ؟ وأقصد من ؟ الانسان ؟ هذا الكائن الدنس الذى يصـــيبه البلى والعفن • أم الرب ؟ الذى يترك الأب لاداس يعيش ويثرى ويقتل ماريوري . أم نفسى ؟ دودة الأرض التى تتاوى تحت اشعة الشـــمس ، ويسحقها حذاء فى الوقت الذى تقـــول فيه لنفسها « انى راضية سعيدة بحياتى تحت أشعة الشمس الدافئة ••• » هل تفهم شيئا من هذا ، يا قسطندى ؟

لكن قسطندى اب لأطفال ، فكيف له ان يفهم ؟ ونهض واقفا . وقال :

ـ انى ذاهب لمقابلة ياناكوس •

كان ياناكوس فى الكهف الذى تحول الى مخزن للمؤن ، يحســـب ما بقى من زيت ودقيق • أما النبيذ فقد نفد منذ أيام • وقال في نفسه :

ـ سنجد قوتنا ليومين أو ثلاثة على الأكثر ، بعدها ستكون الحرب ، وسوف نرى • الحياة مرض يمكن الشفاء منه • سأظل شجاعا طالما أنا على قيد الحياة ، قادر على أن أقول لنفسى اننى حى وحبيبى يوسوفاكى مثلى على قيد الحياة • لن أيأس ، فســـوف نلتقى يوما ما • الموت هو الشيء الوحيد الذى لا شفاء منه •

وصاح صوت من ورائه :

ـ أهلا ياناكوس . ماذا دهاك أيها الصديق العجوز ؟ ألم تعد تنزل الى القرية ؟

واستدار ياناكوس فأبصر قسطندى . وقال فى غبطة :

ـ أهلا بصديقي قسطندى . لا زلت أنزل قريتكم المباركة ، ولكن كيف لك أن ترانى ؟ فأنا أنزل اليها تحت جنح الظلام .

وقص عليه ضاحكا كيف نزل الى القرية مرتين كالذئب ، وشن فيهما غارة على بيتين . ثم قال فى ختام حديثه :

ـ أنظر ، الأطعمة التى سلبناها توشك على النفاد . ولكن ها هو البترول فى الركن . لم يمسه أحد بعد . ينتظر اللحظة التى يكشف فيها عن معجزاته .

سأله قسطندى فى لهفة وقلق :

ـ أية معجزات ؟

ـ حين يتحول الى لهيب ، يا قسطندى . أليست هذه هى وظيفته ؟ والا فلماذا خلقه الله ؟

وتفكر لحظة ثم ضرب جبهته بيده ، وقال :

ـ حسن اذ أتيت . أرسلتك العناية الالهية . هل لى أن أسألك مكرمة ؟ اليوم الأحد . وبعد غد الثلاثاء ... هل يمكنك أن تأخذ حمارى من الأب لاداس فى هذا اليوم ؟ قل له انك بحاجة اليه . اذا ما دفعت له الثمن سيعطيه لك . واحتفظ به فى بيتك طوال هذا اليوم . هل تفهمنى، لا أريد أن تمس النار شعره منه . سيكون فى بيتك آمنا .

وقال قسطندى فزعا :

ـ اذن أنت تضمر خطة لاشعال النار فى بيت الأب لاداس ؟

ـ ومن غيره كنا نتحدث عنه طوال هذا الوقت ؟ أليست هذه هى وظيفة البترول ؟ ان الرب الرحيم عليم بكل أفعاله .

ـ أحسب يا ياناكوس المكسب والخسارة لهذه العملية ، فربما أوقعك ذلك فى مشاكل .

ـ وزنت الأمر مرات ومرات ، يا قسطندى . والمسألة لصالحى أنا ، كأننى أعددتها لحسابى . وقد أنبأت بها نبينا ايليا ، أو الفارس ايليا كما يحلو لفسيسنا أن يدعوه ـ وأقرنى عليها .

وهرش قسطندى رأسه ، وقال :

ـ لا أفهم شيئا ٠

ـ أنت لا تفهم لأنك صاحب مقهى ، ولك زوجة وأطفال ٠ لوكنت جائعا لأدركت ذلك وقبلته ٠٠٠ ولكن كيف لك أن تفهم ؟ ولذلك تتصرف تصرفا أخرق ، تقبل يد الأغا القذرة ويد القسيس جريجوريس وغيرهما هذا هو السر ٠٠٠ لا تعبس أيها الصديق العجوز ، ستحين ساعتك وتدرك كل شيء ، فصبرا » ٠

تنهد قسطندى بعد لحظة صمت وقال :

ـ أنا معك يا ناكوس قلبا وقالبا ، لذا أسألك ألا تلومنى ٠ كثيرا ما تحدثت فى هذا مع أندونيس وديمترى ٠ ونحن نسأل ماذا يمكننا أن نفعل نحن من جانبنا ؟

ـ اذهب واسأل القسيس فوتيس ، فهو الذى سينبئك بكل شيء ٠ أما أنا فلا أطلب منك غير شيء واحد : أن يكون يوسوفاكى عندك فى بيتك يوم الثلاثاء ٠ وحذار أن تنبس بكلمة عن هذا لأحد ٠ هه ؟

* * *

انقضى يوم الأحد ، وأقبل يوم الاثنين ، وبدأ الثلج يتساقط عندما انتصف النهار ، واكتست قمة الجبل حلة بيضاء ٠ واتشح النبى ايليا بوشاح أبيض ، وانقضت الطيور الجارحة على السهول تتضور جوعا ٠ واصطبغت السماء بلون أحمر برونزى ٠

وانحنى مانولى فوق كتلة خشب البلوط منذ الصباح الباكر ٠ انكب عليها يحفرها بأعصاب مشدودة ٠ واضحت روحه كأنها ازميل نحات ، تقطع وتحز وتحفر فى شوق ولهفة لتحرر وجه المسيح السجين داخل الخشب ٠ وانبثق الوجه المقدس فى باطنه على الصورة التى رآه بها فى حلمه البارحة ، وجها قاسيا صارما غضوبا ٠ وثمة جرح غائر يمتد على طول وجنته حتى الذقن وشارب متهدل ، وحاجبان كثان ٠

انكب مانولى على عمله منذ الفجر ، يحاول جاهدا أن يخرج الوجه الصارم مطابقا تماما للصورة التى فى ذهنه ٠ كان يعمل بهمة لا تعرف الكلل فلا بد أن يفرغ منه وشيكا ٠٠ ومع الغسق ، أشرقت الطلعة القدسية ، وارتسمت فوق كتلة الخشب ٠ وهب مانولى مذعورا ٠

ودخل ميشيل فى هـذه اللحظة ، مكدودا يائسـا • ونظر الى كتلة الخشب المنحوتة ، فارتد الى الوراء فرقا •

وصـاح :

ـ ما هذا ؟ انها الحرب

وأجاب مانولى وهو يمسح العرق المتصبب فوق جبهته :

ـ لا ، بل المسيح •

ـ اذن ما الفارق بينه وبين الحرب ؟

وأجاب مانولى :

ـ لا فارق بينهما •

جن الليل ، وتساقط البرد كثيفا حانيا فى سـكون وتوارى كل شىء تحته • واختفى السهل من تحت الجبل • وتدانت السماء حتى التقت بالأرض •

أشعل مانولى مصباح الزيت • ورفع من فوق المشبك الوجه القديم للمسيح الذى نحته قبل ذلك ، ووضعه الى جانب الوجه الجديد •

وتمتم ميشيل فى وجل :

ـ شتان ما بين الاثنين • هل هما نفس الوجه ؟

ـ نفس الوجه • كان قبل ذلك صبورا وديعا ، هادئا ••• والآن قاسيا حزينا • هل فهمت ، يا ميشيل ؟

وصمت ميشيل لحظة ثم قال :

ـ لم أكن أفهم ذلك قبلا • أما الآن فقد فهمت •

ثم عاد الى صمته من جديد •

***

وأقبل الثلاثاء • ولم يكد يتنفس الصباح حتى كان أهل ساراكينا على أهبة الاستعداد • كانت قمة الجبل تتألق فى حلتها الناصعة البياض • وتوارى النبى تحت دثاره السميك • ولكن ما أن سقط عليه أول شعاع لشمس الصباح حتى دبت فيه الحياة ، واستيقظ فى وهج وردى •

وجمع القسيس فوتيس شعبه • وخاطبه قائلا :

ـ يا أطفالى ، سيتقرر مصيرنا اليوم • تجملنا بالصبر قدر المستطاع

حتى بلغنا حافة الهاوية • ولو انتظرنا قليلا ســــنتردى فيها لا محالة الأطفال أولا وفى اثرهم الرجال والنساء • وبات لزاما علينا أن نختار : اما الموت أو النضال من أجل الحياة • واخترنا النضال • هل توافقون ؟

ـ موافقون يا أبانا ، كلنا دون استثناء •

ـ سألت حارس الجبل الذى يقف هناك فوق رءوسنا ، أعنى الفارس ايليا ، وأقرنى بدوره • ثم استفتيت قلبى ، وأقرنى أيضا • نحن لم نلتزم بما نحن بصدده اليوم هكذا خبط عشواء ودون تبصر بل عن تفكرورية، كأناس أحرار • سنذهب لنطالب بحقنا ، ليس صدقة أو منة ، بل حقا وعدلا • لنا فى السهل حدائق وأعنابا وحقـــولا ، ولنا زيتونا وبيوتا ، فليعطوها لنا • نحن لا نبغى على حق أحد ، وانما نطالب بأن نعمل لأنفسنا، وفى أرضنا ، حتى نعيش • لسنا جيش عنف واغتصاب ، بل جيش من ضحايا الظلم ، تجرع الكأس حتى الثمالة •

ـ لن نكون أول من يعتدى • ولكن اذا ما اعتدوا فلنا أيدينا التى خلقها الله لنا لنرد بها الضربات • كيف للعدل أن يسود ، وكيف له أن يفرض نفسه على عالم يسوده الظلم والغدر اذا لم يكن عدلا مسلحا ؟ ونحن سنسلح العدل • تولوا هم تسليح الظلم ، وكان لهم ما أرادوا • وعلينا أن نثبت اليوم لهم أن للفضيلة رجالها • لم يكن المسيح حملا فقط ، بل كان أسدا هصورا كذلك • وســيأتى معنا اليوم كأســـد هصور •

نحت مانولى وجهه فوق الخشب • وها هو • هذا هو المسيح الذى سيتقدمنا ، زعيما لنا وقائدا •

بعد هذه الكلمات رفع الوجه القاسى عاليا • ومع نسيم الصباح ، تمايلت صورة المسيح فوق رءوس الأشهاد وكأنها تهدد وتتوعد • استطاع مانولى فى اللحظة الأخيرة أن يصبغ الجرح الذى يمتد بطول الوجنة حتى الذقن بلون أحمر • وهكذا بدت صورة المسيح لكل من اعتصرتهم الآلام ، مناضلا مقداما عظيما ، أثخنته الحروب بالجراح في قديم الزمان . ولكنه يتأهب لينقض ، ويواصل المعركة من جديد •

وصاح القسيس :

ـ ها هو قائدنا ، فارفعوا أيديكم تحية له •

ثم التفت الى لوكاس حامل الراية وقال :

ـ لوكاس ، ثبت هذا الوجه المقدس في رأس الراية ، وليتقدمنا ليلهب مسيرتنا حماسا وقوة • والآن ليأخذ كل منكم مكانه • أشرق نهار الرب ، فالى الأمام ، ليتقدم لوكاس أولا حاملا الراية ، ثم الرجال المدججون بالسلاح ، ومن ورائهم فى المؤخرة النساء والصبية ومعهم المقاليع.

وانتظمت الكتيبة ، ورسم كل منهم علامة الصليب • وأمسك القسيس فوتيس بأيقونة النبى ايليا بين ذراعيه ، وتقدم مانولى ليكون فى طليعة الرجال • واتخذ ياناكوس لنفسه مكانا وراءه متأبطا صفيحة البترول • واعتلى ميشيل صخرة يرقب المسيرة • وكان قد قال للقسيس فوتيس : « لن أذهب معكم يا أبانا ، فقد وهنت منى الذراعين كما ترى ، وخارت قواهما • أتمنى لكم التوفيق » •

ظل يرقبهم وهم يتحركون : أثمالهم بالية ، ترفرف فى الهواء ، أقدامهم حافية ، الا القليلين فقد انتعلوا جلد شاة أو خرقا بالية ، وجناتهم غائرة ، عظامهم ناتئة ، عيونهم ثقوب سوداء ؛ جوعى يقرصهم البرد ، فشرعوا يحثون الخطى التماسا للدفء •

وحط ياناكوس صفيحة البترول على الأرض لكى يدعك يده فى بعضها يدفئهما بعد أن تجمدتا من البرد • وصاح :

الن نغنى شيئا يا أصدقاء ؟ هل يذهب الناس الى العيد بأفواه مغلقة ؟ هيا بنا ، لنغنى أغنية حرب أو أغنية آمان أو نرتل مزمورا أو أى شىء يصادف هوى فى نفوسكم • لنغنى يا رجال ، ولنستدفىء بأغانينا •

وفجأة انبسطت الجوانح ، وانطلقت الأفواه ، وأعطى القسيس فوتيس اشارة ، وبدأ الجمع ينشد فى زهو أغنية الحرب القديمة التى كان يغنيها أسلافهم اذا ما خرجوا الى الحرب ضد البرابرة :

« يا الهى انقذ شعبك ، وبارك ورثتك على الأرض »

« يا الهى ، أعنا على سحق البرابرة » •

***

سفك الدماء

بدأت ليكوفريسي في تلك الساعة تتمطى وتنفض الكرى عن جفونها. كان البرد قارسا ، والثلج يغطي القرية ، والجبال من حولها بيضاء ناصعة . ولزم الناس بيوتهم ، وتدثروا فوق سررهم الدافئة الوثيرة ، ينفثون كسلهم بعد ليلة نحروا فيها الذبائح وملئوا منها البطون . ففي الليلة الماضية نحروا الخنازير ، وشيطوا جلدها على النار ، وأفرغوا أحشاءها ، ثم ناولوها نظيفة خالصة لزوجاتهم وبناتهم . ولم يبق لهؤلاء الا أن ينجزن عملهن اليوم : يصنعن الجيلاتين ، ويعملن السجق ، ويملأن القدور والجرار قديدا وشحما ...

لذلك كانت ربات البيوت هن أول من استيقظ في ذلك اليوم ، شمرن عن سواعدهن ، ووضعن القدور على النار ، وأقبلن على عملهن مع مطلع الفجر : يصحن الفلفل الأسود والكمون لعمل السجق ، ويعصرن نارنجا وليمونا لعمل الجيلاتين . وفوق رأس كل منهن الخنزير السمين معلق داخل المطبخ رأسه الى أسفل وردي اللون ، مغسولا ، نظيفا ، في انتظار الأيدي لتعمل فيه تقطيعا .

وقال الأغا لخادمته مارثا في تلك الليلة :

ـ الويل لك ، يا أم مارثا لو دخلت قطعة من ذلك اللحم الدنس الى بيتي .

ظل يسمع طوال يومه صراخ الخنازير التى تنحر فى أفنية البيوت • وطفق يقول بصوت عال :

ـ أف منكم يا كفرة ، تدنسون أنفسكم بلحم الخنزير ، وتسممون الجو بما تصنعونه من سجق مشو •

ولكن الأغا كان مولعا ، فى السر ، بسجق الخنزير • كان يؤثره على غيره مزة لشراب العرقى • وارتضى أن تقدمه له الحدباء الخبيثة كل عام مدعية أنه مصنوع من لحم الجمال • والأغا يعلم علم اليقين أنه ليس كذلك ، ولكنه يخادع نفسه حتى يتظاهر بالبراءة • وكان يقبل عليه فى نهم ، يأكل منه ، ويلعق أصابعه بعده، ويصر فى أعماقه على أن اللحم الذى يطعمه ، وهو الرجل الذواقة الخبير ، ليس لحم خنزير أبدا • لذلك كان يدعو الحدباء العجوز كل عام ، فى اليوم الذى تنحر فيه الخنازير ، ويلقى على مسمعها الحديث المعهود •

ـ ويل لك يا أم مارثا لو دخلت قطعة من ذلك اللحم الدنس الى بيتى •

وهى العبارة التى تعنى عنده :

ـ اذهبى ، واشترى لى كل ما تستطيعين من سجق وادعى أنه لك ، وآتنى به واقسمى لى بالأيمان المغلظة أنه لحم جمل •

وتجيب عليه الحدباء دون أن تبتسم :

ـ لا عليك يا أغا ، لا تقلق ، سآتيك هذا العام بكميات وفيرة من سجق الجمال ، ولا تخش شيئا أبدا وسوف أشترى بعضا منه لبراهيماكى أيضا •

* * *

فى هذه الأثناء كان المهلهلون الجوعى ينزلون بأقصى سرعتهم من فوق الجبل • وذات لحظة قال ياناكوس لمن هم بجواره :

ـ أحسن القسيس اختيار اليوم الذى ننطلق فيه الى القرية يا اخوتى • فالخنازير المذبوحة معلقة بالكلاليب ، مهيأة لشيها • أوقدت النسوة النار لتعد الخنازير لنا • وها قد حانت الفرصة أخيرا لتشحيم أمعاء الفقراء • ترى هل نحر الشيخ لاداس خنزيرا هو الآخر ؟ •

ولكن رفاقه الذين التهب حماسهم مع أنشودة الحرب لم يسمعوا شيئا مما قال ٠

بلغت الكتيبة السفح ، وبدأت تشق طريقها عبر السهل ٠ امتدت القرية أمامهم ؟ الثلج يغطي البيوت ، والدخان يتصاعد من المداخن ٠ وارتجفت مناخير الجوعى حين سرت فيها رائحة الخنازير التى تسلق لاستخراج الجيلاتين ٠ وتذكرت النسوة بيوتهن التى دمرت وباتت خرابا ، واستعدن فى مخيلتهن كل ما كن يفعلنه فى مثل هذا اليوم من كل عام ، وتنهدن ٠

وقبل أن يصل الجمع الى بئر القديس بازل ، توقف القسيس فوتيس وأشار بيده اشارة تعنى أنه يرغب فى الكلام معهم ٠ وصاح بهم :

ـ يا أطفالى ، خذوا حذركم ٠ سنتوجه أولا الى بيت الشيخ بطرياركاس ونتحصن هناك ٠ واذا كان باب البيت موصدا سنفتحه عنوة ، فالبيت بيتنا ، ومن حقنا أن ندخله ٠ وسوف نتفرق بعد ذلك وننتشر بين حدائقنا وكرمنا وحقولنا ، ونحتلها ٠٠ نسأل الله أن يقينا شرهم وان يمتنعوا عن مهاجمتنا ٠ ولكن اذا ما هوجمنا فسنرد بالمثل ٠ انها الحرب ٠ فنحن لا نطالب بغير حقنا ، وليغفر الله لنا ٠ استيقظت القرية ، وانى أرى رجالا منهم يتجمعون على البعد ، وأسمع دق الأجراس ، فكونوا على حذر ٠ والى الأمام باسم المسيح ٠

كانت الأجراس حقا تدق بعنف ، والقرية فى هرج ومرج ٠ وباناyوتى لم يغمض له جفن طوال الليل ، بعد أن شم رائحة لما قد يحدث ٠ خرج الى شرفة الأغا منذ الصباح الباكر ، وثبت عينيه على الجبل ٠ وان هى الا لحظة حتى لمح مع غبش الفجر أهل ساراكينا ينزلون من فوق الجبل ٠٠ وهرول فوق درج السلم ، وخرج الى الميدان ٠ وخف الى الكنيسة ، وأمسك بحبل الجرس وشرع يدق الجرس فى ثورة وغضب ٠

وفى نفس اللحظة كانت الأم ماندالينيا عند بئر القديس بازل تحمل جرتها على كتفها ورأت على البعد جيش الحفاة المهلهلين مقبلا فى صخب شديد ، فأطلقت ساقيها للريح عائدة الى القرية تصرخ وتولول :

ـ الجوعى قادمون ، طريدو الكنيسة مقبلون ٠٠ اقبضوا على أسلحتكم يا أهل القرية ٠

لم يكن أهل القرية قد نفضوا الكرى عن جفونهم بعد ٠ ولكن ما ان سمعوا دق الأجراس حتى هبوا من فراشهم ٠ وحين قرع آذانهم صراخ الأم ماندالينيا ، تلفع كل منهم بغطائه وهرع الى باب داره وفتحه وهرول

الى الكنيسة . وتركت ربات البيوت مطابخهن ، وأطللن من الأبواب أو النوافذ وهن يصحن بالرجال أثناء مرورهم ببيوتهن :

ــ ايه ، ماذا حدث ؟ لماذا تدق الأجراس ؟ .

ولكن الرجال واصلوا عدوهم وهم يلهثون دون أن يرد أحدهم جوابا .

سبقهم القسيس جريجوريس الى الكنيسة ، ووقف ببابها يلهث ويصيح :

ــ احملوا أسلحتكم يا أبنائى . هاهم الاشتراكيون ينزلون الينا من ساراكينا . لا تسمحوا لهم بأن يطئوا أرض القرية . عودوا الى بيوتكم وتقلدوا أسلحتكم ثم اقصدوا بئر القديس بازل وتجمعوا هناك جميعكم دون استثناء .

واستدار الى بانايوتى الذى تشبث بحبل الجرس يشده كالمجنون ،

ــ « بانايوتى ، اذهب الى الأغا وأيقظه من نومه . أطلب منه أن يمتطى بغلته ويخف الى بئر القديس بازل . قل له ان الاشتراكيين قادمون » .

وأقبل ناظر المدرسة مبهورا . نسى نظارته ، فكان يتعثر فى كل ما يصادفه يمينا وشمالا .

وصاح بأهل القرية متوسلا :

ــ لا تحملوا السلاح يا اخوتى . سأذهب لأتفاوض معهم . سنردهم باللين . انهم اخوة لنا ، فلا تغرقوا القرية فى الدماء .

وزأر القسيس مغيظا :

ــ ابق فيما يعنيك أيها الأبله . لا مساومة . دقت الساعة لكى نبيدهم . اهجموا على العدو ، يا رجال . السلاح ، يا اخوتى . الموت لحملة القمل .

تأججت نار الثورة فيهم ، وأسرع أهل القرية الى بيوتهم ، وتسلحوا بالهراوات والمسدسات والمناجل . وتسلح البعض بالسكاكين التى نحروا بها الخنازير البارحة . وهرعوا جميعا ، يصرخون ويولولون، فى اتجاه بئر القديس بازل .

ولحق بهم بانايوتى عدوا ، ووقف الى جانب القسيس . ولوح

بمسدسه ، وأطلق الرصاص فى الهواء . وصرخ : « الى الأمام يا أحبائى، ليأخذهم الشيطان » .

وانتزعت طلقة الرصاص الأغا من نومه . فضرب الأرض بسوطه ، وظهرت أمامه مارتا :

ـ اسمعى ، ما هذه الطلقة التى سمعتها ؟

ـ الاشتراكيون يغيرون علينا يا أغا .

ـ أى اشتراكيين أيتها الحدباء الشائهة ؟ انطقى . الذين نزحوا الينا من الشمال ؟

ـ لا يا أغا ، الذين نزحوا الينا من ساراكينا . اركب بغلتك ، فالمسيحيون بحاجة اليك . اركب بغلتك وساعدهم .

وانفجر الأغا ضاحكا ، كان النوم ما زال يغالبه ، فانقلب على الجانب الآخر حيث ينام براهيماكى . وقال :

ـ أيقظينى عندما يأتون من وراء الحدود . أما الآن فاغربى عن وجهى .

* * *

رأى القسيس فوتيس اهل ليكوفريسى مقبلين فى شراسة للانقضاض عليهم ، فانفصل عن شعبه وتقدم وحده الى الأمام أعزل بغير سلاح وايقونة النبى ايليا بين ذراعيه ، وصاح :

ـ يا اخوتى ، لى كلمة معكم . قفوا واسمعونى باسم محبة المسيح . اياكم وسفك الدماء .

وتوقفت الكتيبتان المتنازعتان لحظة ، وانتظرتا . وخطا القسيس فوتيس بضع خطوات الى الأمام . وصاح :

ـ كلمتى لك أنت يا أب جريجوريس ، اخص بها قداستكم يا ابانا ، فادن منى قليلا .

واندفع القسيس جريجوريس ناحيته وقال :

ـ ماذا تريد منى أيها القسيس التيس ؟ ها أنذا .

ووقف القسيسان وجها لوجه ، بين الكتيبتين ، أحدهم ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، بدين قوى البنيان ، كأنه ثور ، والآخر ضامر،

جلد على عظم ، غائر الوجنات ، دامى القدمين العاريتين ، كأنه حصان هزيل عجوز أثخنته الجراح .

وقال القسيس فوتيس بصوت قوى ليسمعه الجميع :

ــ يا أبانا ، انها لخطيئة كبرى أن نثير حربا بين اخوة ، الدم المسفوك سيقع وزره على راسينا .. ولى كلمة اليك يا ابانا أود أن تنصت لها ، وكذلك أنتم يا اخوتى . ألقوا السلاح ، وكفوا عن الطعان ، وانتظروا . نحن القائدان ، القسيس جريجوريس وأنا ، كل منا يمثل شعبه ، سنتصارع معا هنا أمامكم أعزلين بغير سلاح ، ونقسم يمينا ، اذا ما طرحنى القسيس جريجوريس أرضا ومس ظهرى الرغام ، سنعود أدراجنا فى سلام الى ساراكينا صفر اليدين ، واذا طرحت انا القسيس جريجوريس أرضا ، ومس ظهره الرغام سنتقدم ونستولى على كل ما أعطاه ميشيل لمجتمعنا ، لتكن المعركة بينى وبينه على الأرض، والله من فوقنا فى السماء شاهد علينا ، وهو أعدل الحاكمين .

تهلل أهل ليكوفريسى لسماعهم كلمات القسيس فوتيس ، اذ رءوا وجهه الشاحب الأزرق ، وساقيه الهزيلتين ، ويديه النحيلتين ، وضحكوا فى سخرية ضحكات عالية كالزئير .

ــ « ايه يا أب جريجوريس ، اهجم عليه ، حسبك نفخة واحدة من فيك يسقط فى اثرها على الأرض » .

وانزعج أهل ساراكينا . وصاح لوكاس :

ــ لا ، لا يا أبانا . ليتقدم أشجعهم وينازلنى . ليتقدم الى بانايوتى آكل النار ، الذى يزهو بمسدسه وطربوشه الأحمر ، هذا التركى القذر . ليجرب نفسه معى ان كانت تواتيه الجراة على ذلك .

وناول الراية لرفيق يقف بجانبه ، وشمر عن ساعديه .

واندفع بانايوتى نحوه وهو يخور :

ــ انى آت اليك أيها الوغد . ها أنذا أيها الاشتراكى . سأقطع رقبتك أيها الخنزير .

واستل مسدسه ، ووثب الى الأمام يلوح به . ولكن القسيس جريجوريس رفع يده وقال :

ــ قف . دعنا وحدنا . اتركوا المسألة لنا نحن القساوسة ، لنا نحن الاثنين . ولتكن النتيجة هى القول الفصل فيما شجر بيننا . أقبل

تحديك أيها القسيس القذر . أقسم لك ، والله على ما أقول شهيد : لو طرحتنى أرضا فلكم ما أردتم ، لن أعارض اســتيلاءكم على الممتلكات التي وهبها لكم ذلك المجنون ميشيل . ولكن اذا ما انتصرت أنا فاذهبوا جميعكم واتركونا فى سلام . أسأل الله أن يكون رقيبا علينا ، يشهد المعركة ويحكم بيننا .

رسم الأب فوتيس علامة الصليب وقال :

ــ باسم الأب والابن والروح القدس .

واستدار ، وأشار بيده لرجل عجوز ، وناوله أيقــونة النبى بين ذراعيه . ثم خلع جلبابه الرث وطواه فى عناية وحرص ، ووضعه فوق حجر ، فكشف عن قميصه الأسود المهلهل ، وسرواله الممزق ، وقصبتا ساقيه النحيلتين وقد غطتهما الجراح .

وقف القسيس جريجوريس فى انتظار خصمه ، مباعدا ما بين ساقيه ، عاقدا ذراعيه الى صدره ، مقطبا ما بين حاجبيه ، وفى عينيه البراقتين غضب واحتقار . وضرب الأرض بقدمه كأنه حصان هائج ، اذ كان يتعجل النزال . ولكن ما ان رأى القسيس فوتيس واقفا قبالته ، هيكلا عظميا ، ممزق الثياب ، غائر العينين أسودهما كأنهما نبع ماء بعيد الغور ، حتى أحس فجأة برعدة تسرى فى جسده : خيل اليه انه واقف قبالة شبح الموت .

وقال القسيس فوتيس فى هدوء :

ــ ارسم علامة الصليب يا أبانا ، فانى على استعداد .

ورسم القسيس جريجوريس علامة الصليب بحركة آلية ، وثبت في مكانه دون حراك ازدراء منه لخصمه . وجأر بصوت ساخر :

ــ تعال هنا ، أيتها الجرادة الوضــيعة . تعال لألوى رقبتك واعتصرها بين يدى .

ــ الا ينطق لسانك بغير قبيح الكلام يا أبانا ؟ هل ترتل مدائح الرب بهاتين الشفتين ؟ هل هذه هى اليد التى ترفع بها كأس القداس ؟

وصرخ القسيس جريجوريس بصوت مجلجل :

ــ انها اليد التى تهشم عظام الأوغاد من أمثالك .

ثم مال برأسه ونطح خصمه كأنه ثور . ورفع قبضته ليهوى بها بكل ثقله ويضرب القسيس ضربة قوية ، ولكن القسيس فوتيس تحاشاها

فى خفة فهوت يده فى فراغ ، وهوى القسيس جريجوريس الى الارض تحت ثقل جسمه وثقل ضربته • وجن جنونه ، فانقض على القسيس فوتيس ونطحه ثانية ، وأمسك بخصلة من شعر لحيته وجذبها فى ثورة وغضب • واستجمع القسيس فوتيس بدوره كل قوته وكال للقسيس جريجوريس ضربة قوية فى كرشه . وخار العجوز من شدة الألم ، وزاغت عيناه ، وامتقع لونه • ولكن سرعان ما أفاق الى نفسه ، وازدادت سورة غضبه ، وتضاعفت قوته ، ووثب فوق القسيس فوتيس وبدأ يعض رقبته وانفه وأذنيه . وتلاحم الاثنان ، ولكن لم يسمع الناس غير صراخ القسيس جريجوريس ، يزار كأنه وحش كاسر يلتهم فريسته •

واستبد الفزع بأهل ساراكينا وكتموا أنفاسهم ، واشرأبت أعناقهم ، وأحسوا أن قسيسهم فى خطر •

وتمتم ياناكوس فى يأس :

ـ هلك ابونا ، سيخنقه هذا الوحش .

وأجاب مانولى :

ـ لا تخف يا ياناكوس • ألا ترى الله ؟ ها هو ذا فوقهما ؟ كن واثقا به .

لم يكد مانولى ينهى كلامه حتى رأى القسيس فوتيس يقبض بيد من حديد على لحية القسيس جريجوريس ، ثم سدد بيده الأخرى لكمة قوية فى فكه • وخار القسيس جريجوريس من شدة الألم ، وتكوم حول نفسه يبصق من فمه أسنانه ودمه • ولم يمهله القسيس فوتيس حتى يفيق ، اذ أمسك به من خصره ، وهزه يمينا ويسارا ، ثم انقض عليه بكل ثقله ، فانكفأ قسيس ليكوفريسى على الارض يعض التراب •

وهم القسيس فوتيس ليجثم بركبتيه فوق صدر القسيس جريجوريس الا أن بانايوتى عاجله فانقض عليه يوسعه ضربا فى شراسة وجنون . واندفع لوكاس كالسهم ، ومن بعده ياناكوس ومانولى . وفى لمح البصر تلاحم الفريقان ، وبدأت المقاليع تصفر فى الهواء ، والهراوات تهوى على الأجساد . ومضى وقت طويل لا تسمع فيه غير صوت اللكمات والهراوات وطلقات المسدسات ، بينما كانت السكاكين تغمد فى اللحم فى صمت • كنت فى أول الأمر تسمع صيحات وسباب ، ولكن رويدا رويدا خفتت الأصوات فلم تعد تسمع غير أنفاس لاهثة ، وتأوهات موجعة ، وأنين مكتوم •

وهرع الى الساحة قسطندى واندونيس الحلاق وديمترى الجزار البدين وقد تسلحوا بهراواتهم ، وألقوا بأنفسهم فى خضم المعركة الى جانب أهل ساراكينا . ورأى ياناكوس اصدقاءه ، فتخلص من وسط الحشد المائج ونادى على قسطندى :

ـ هيه ياقسطندى ، هل فعلت ما أوصيتك به ؟

وحملق فيه قسطندى فاغرافاه ، ولم يتذكر شيئا .

ـ أية وصية ؟

ـ حمارى ..

اهدأ بالا يا ياناكوس ، انه فى بيتى .

ورفع ياناكوس صفيحة البترول على كتفه وصاح :

ـ اذن لنشعل النار .

وجأر لوكاس بصوت كهزيم الرعد وهو يضرب بعصاه يمينا وشمالا كيفما أتفق :

ـ الشجاعة يا رجال ، الشجاعة ، لقد انتصرنا عليهم هؤلاء الخنازير .

أنهار أهل ليكوفريسى واستسلموا ، وبدءوا يتراجعون تدريجيا ليحتموا بالقرية . ولاذ عدد منهم بمنازلهم . وفى هذه الأثناء رفع أهل ساراكينا القسيس فوتيس من على الأرض ، حيث استلقى قرب البئر ، وغسلوا له جروحه ، والدم ينزف من راسه المشجوج .

واندفع مانولى وهو يصيح :

ـ الشجاعة يا اخوتى .

اختطف من بانايوتى احد مسدسيه وبدا يطلق الرصاص فى الهواء ، وهو يطارد أهل القرية أثناء تقهقرهم مذعورين .

مرة أخرى سمع الناس صوت ناظر المدرسة يتحدث فى الم وانزعاج :

ـ كفوا يا اخوتى ، لا يقتل الأخ أخاه ، سنصل الى اتفاق معا .. كونوا على ثقة فكلنا اغريقيون مسيحيون يا اخوتى .

ولكن سرعان ما وقع بين المعسكرين ، وانقض عليه الأصدقاء والأعداء ، وطرحوه أرضا ، وداسوه بالأقدام فى شراسة ، وقذفه أحدهم بحجر ، وتدحرج صانع السلام الى حفرة فاقد الوعى .

تراجع أهل ليكوفريسى جميعهم الى القرية ، وأمسك لوكاس بصفيحة البترول الثانية وانطلق بها يعدو ، وبدأ يصب البترول على الأبواب والنوافذ والجدران .

وصاح بالنسوة وهو يعدو من بيت الى بيت :

ـ أهجمن عليهم أيتها النساء ، أتبعنني وأشعلن فيهم النار .

وسرعان ما تصاعدت ألسنة اللهب تلعق البيوت . وحاصرت النيران نساء ليكوفريسى اللائى تحصن ببيوتهن وأغلقن عليهن الأبواب ، فأخذن يولولن ويصرخن فى فزع .

وحمل بعض الرجال القسيس جريجوريس الى بيت ماندالينيا ، اذ كان قريبا من ساحة المعركة . كان القسيس مسجى على الأرض وسط الفناء فاقد الوعى . واحضرت المراة العجوز أعشابها ومراهمها ، وانحنت عليه تغسل جروحه وتطببها . لقد خسر القسيس المسكين كل كبريائه ، وبدأ يئن ويتوجع .

توغل مانولى ورجاله فى هذه الأثناء بين دروب القرية حتى بلغوا بيت بطرياركاس الفسيح . وفتحوا الباب عنوة ودخلوا . وقال مانولى :

ـ سنتحصن هنا ايها الشجعان . ليحضر اثنان منكم قسيسنا الى هنا ، وليدخل الباقون الى البيت سريعا فنحن فى بيتنا .

وتطوع أندونيس الحلاق . وقسطندى باحضار القسيس فوتيس . كان أهالى القرية يعدون فى الطرقات ، يحملون الدلاء المملوءة ماء ويصبونها على النار ليطفئوا الحريق ، والقرية كلها تعوى وتولول . وفجأة دوت أصوات فزعة :

ـ بيت الشيخ لاداس يحترق .

ـ تهشمت الجرار ، وانسكب الزيت جداول في الطرقات .. تحطمت البراميل وسال النبيذ على الأرض كأنه فيضان .

ـ الشيخ لاداس وزوجه على قارعة الطريق يبكيان .

فقد بانايوتى طربوشه اثناء المعركة . وانتزع مانولى منه احد مسدسيه . وبدأ السروجى يعدو كالمجنون فى الطرقات ، يطلق الرصاص بمسدسه الذى بقى معه ، متوعدا مانولى ، ويدعوه متحديا للظهور أمامه . ولكن مانولى الذى امتلأ قلبه قلقا وجزعا انحنى فوق القسيس

فوتيس ، الذى أدخلوه الى البيت ووضعوه فوق سرير بطرياركاس . ضمدت النســاء جروحه ، وبدأ يفتــح عينيه وينظر الى رفاقه من حوله ويبتسم .

وتمتم قائلا :

ـ حنثوا بيمينهم . سيعاقبهم الله على ذلك . انى سعيد أن طرحت قسيسهم أرضا .

ـ هل يؤلمك شيء يا أبانا ؟

ـ طبعا يامانولى . جروحى تؤلمنى ، ولكننى سعيد كمــا قلت لك . أصدر الله حكمه وكان النصر لنا .

ودوت صيحــات الفرح فى الفنــــاء . عاد لوكاس ورفاقه بعد أن أشعلوا النار فى البيوت . واحضروا معهم ثلاثة خنازير مذبوحة نظيفة جاهزة للطهى . دخلوا بها بيت العمدة بطرياركاس بين صيحات الفرح والسرور .

وصاحوا بالنساء :

ـ أوقدن نارا كبيرة ، فلدينا طعام وفير . افتحن خزائن المؤن ، خذن دقيقا واصنعن خبزا ، اشوين الخنازير فالمعركة فتحت شهيتنــــا ، والرجال عضهم الجوع .

واعترضت امرأة عجوز :

ـ ولكننا الآن فى بدء صوم الميلاد واللحم محرم . الا تخافون الله ؟

فقال لوكاس مقترحا :

ـ لنستفتى أبانا .

وأجاب القسيس :

ـ كلوا وسأحمل الخطيئة على كاهلى .

أقبل ياناكوس وقد شاطت لحيته ، ورائحة الزيت والنبيذ تنبعث من ملابسـه . وصاح فى زهو :

ـ شفيت غليلى ، ياأخوتى . نفسى راضية الآن . كم من اليتامى والأرامل القى بهم الشيخ البخيل الى قارعة الطريق ، وها أنذا القيت به بدوره الى قارعة الطريق ، والنار تشتعل فى بيته . حمدا لله .

وسمعوا طرقا على الباب وصوت قسطندى فى الخارج يقول :

ـ افتحوا ، افتحوا يا اخوتى . قتل ناظر المدرسة .

فتحوا الباب ، ودخل قسطندى والحلاق والجزار ، يحملون جثة ناظر المدرسة وقد فارق الحياة . شج رأسه وبرز مخه من عظام الجمجمة ، وجمدت عيناه الواسعتان ، وتدلى فكه .

وقال قسطندى :

ـ عثرنا عليه ملقى فى حفرة ، داسه أهل القريتين بأقدامهم .

وانحنى الرجال والنساء فوقه فى صمت وقبلوه (١) وجمعوا بعض الأزهار الذابلة من الفناء ، ووضعوها بين يديه .

وقال مانولى وهو يكفكف دموعه :

ـ أراد أن يوفق بيننا ولكننا قتلناه .

* * *

استلقى الأغا فوق حشيته الناعمة الوثيرة ، ينصت الى طلقات المسدس وهو يدخن غليونه ، ويربت بيده على براهيماكى يدلله . وحين شم براهيماكى رائحة البارود غلى الدم فى عروقه واراد أن يهرع الى الطريق ليطلق بدوره بعض الطلقات ، أمسك الأغا باحدى قدميه بقوة ، وحاول براهيماكى أن يفلت منه ، ولكن دون جدوى .

وقال له الأغا :

ـ لا تكن أبله يابراهيماكى ، دع الروميين يقتل بعضهم بعضا ، لن يقوى أحد على استئصال شأفة هذه السلالة اللعينة . مذكم من السنين ونحن فى حرب معهم كى نبيدهم ؟ أنظر ماذا كانت النتيجة ؟ صفرا ، تقتلع روميا فينبت عشرة .. لا جدوى ما لم يقتل بعضهم بعضا ، ولهذا ادعهم يتقاتلون ، وما ان يفقأ كل منهم عين الآخر حتى أخرج اليهم ممتطيا صهوة بغلتى واعيد الأمور الى نصابها . هل فهمت ؟ أقول لك هذا فربما تصبح يوما أغا لقرية من قرى الروميين فتعرف أى نهج تسلك مع هذا الجنس من البشر .

وصاح براهيماكى :

ـ دعنى أقتل بعضهم فانى أشعر بأكلة فى يدى .

ـ دعك من هذه الفعلة الحمقاء ما دام سيقتل بعضهم بعضا ، ان

---

(١) تقبيل الميت شعيرة من شعائر الجنائز عند اليونان . « عن الترجمة الفرنسية » .

تدخلنا سيخلق مشاكل للدولة · ستعود أساطيل الفرنجة مرة أخرى تحاصر سميرنا فتكون الطامة الكبرى · نحن هنا سعداء فوق السرير حيث الدفء يا عزيزى براهيماكى ، والبرد قارس فى الخارج · لن أدعك تخرج ستأتينا العجوز الحدباء بالعسل والجوز ·

وصفق بيديه فأقبلت العجوز على عجل ·

ـ ماذا يحدث بالخارج أيتها العجوز ؟

ـ يقطعون رقاب بعضهم البعض يا أغا · القسيسان ، نتف كل منهما لحية الآخر · وفقد بانايوتى طربوشه وجرحت ركبته ، واحترق بيت الشيخ لاداس ، وانسكب الزيت والنبيذ وملأنا الطرقات ·

قهقهة الأغا بصوت عال :

ـ أحسنتم يا كفرة · استمروا يا رجال · ليبتليكم الله بطاعون يقضى عليكم · هات عسلا وجوزا ·· أسرعى أيتها العجوز ·

والتفت الى براهيماكى الذى كان يسب ويلعن يريد الخروج :

ـ لا تكن أحمق وتحشر نفسك فى شئون الروميين · هذه السلالة الملعونة ظهرت على الارض نتيجة خطأ من الله · اسمع القصة التى اعتاد المرحوم جدى أن يقصها على : أنصت اليها وسوف تفهم كل شىء أيها الأحمق · خلق الله كل شىء على أكمل صورة · وذات مرة أحس الله بضيق اذ كان بلا عمل · فأمسك بجذوة نار وببعض الروث ومزجهما وصنع منهما عجينة واحدة خلق منها أول رومى ·· وما ان وقع بصره على هذا الشىء الذى صنعته يداه ، حتى أسف على ذلك ـ هذا المخلوق التافه كانت له عينا تنفذ فى الحديد كأنها مثقاب · وتنهد الرب وتمتم : « هذه غلطة ، فكيف لى أن أصححها ؟ لنشمر عن ساعدنا ونعجن عجينة التركى فانه هو الذى سيقتل الرومى فيعود كل شىء الى ما كان عليه ، ويستتب النظام ، ويسود السلام · وأمسك ببعض العسل والبارود وعجنهما فى حرص وعناية ، وصور منهما التركى · وسرعان ما ألقى بالتركى فى مواجهة الرومى · ونشبت الحرب بينهما سجالا صباح مساء ، وتتابعت ، لا تنتهى حتى تنشب حرب غيرها دون أن تكون الغلبة لأحدهما · ولكن عندما جن الليل وأظلمت الدنيا ، تحايل الرومى الداهية اللئيم ، ووضع قدمه بين ساقى التركى فى الظلام ، فتعثر التركى وسقط الى الارض · وغضب الله وتمتم «ليأخذنى الشيطان ، اننى فى ورطة لا مثيل لها · سيبتلع هؤلاء الروميون العالم الذى خلقته جرعة واحدة · ما العمل اذن ؟ لم يغمض

له جفن طوال الليـــل • وحين اسـفر الصـــباح قفز من سريره فرحا مسرورا يصفق بيديه • وصاح : وجدتها ، وجدتها • مرة أخرى أمسك بالروث والنـــار وعجن روميـا آخر ، ووضع الاثنين فى الصحـــاف • وبدأت الحرب بينهما على الفور • يقع احدهما على الارض ، ثم ينهض ليقع الآخر •• احدهما يضرب الآخر بسكين ثم تدور عليه الدائرة ليتلقى طعنة من أخيه •• واستمر القتال سجالا بينهما ليل نهار ، يسقطان على الارض لينهضا ثانية ، ويتضاربان من جديد ليسقطا على الأرض ، وينهضـــان ليبدأ القتال وهكذا دواليك • وبذلك يا حبيبى براهيماكى ساد السلام على الارض •

ودخلت مارثا العجوز حاملة العسل والجوز • وقال لها الأغا آمرا :

ـ افتحى الشباك يا مارثا ، افتحيه على مصراعيه ، حتى أسـمع صراخهم وطلقات المســــدس وأدخل البهجة والسرور على قلبى • املئى الزجاجة بالعرقى • أنظرى بعينيـك حتى اذا ما قتـلوا جميعـا تعـالى وانبئينى بذلك ، ففى هذه الحالة سأركب بغلتى لأعيد النظام •

***

انتهى كل شىء مع المساء ، توقفت طلقات الرصاص وســـــكتت الأصوات ، ولزم أهل القرية دورهم ، يغسلون جراحهم ويدهنونهـــــا بالمراهم ، ويعملون كاسات الدم ، ويشربون السحلب • أشعلوا مصابيح الزيت ، ومر كل منهم بيده على جسده وأطرافه يتحسس اصاباته : آذان قطعت وأسنان كسرت ، وأصابع بترت ، وعيون فقئت ، وأضلاع تهشمت• وجالوا بذهنهم بين أنحاء القرية : كم من نوافذ حرقت ، وأبواب تحطمت وخنازير ثلاثة اختفت كانت معلقة بالكلاليب ، ومنزل الشيخ لاداس ، ما زالت تلتهمه النيران ، والزيت والنبيذ يفيضان فى الطريق ، والقمح الذى تناثر على أرض الفناء استحال فحما •

وسألت العجوز ماندالينيا :

ـ وماذا حدث لزوجته المسكينة الأم بنيلوب ، هذه المرأة القديسة حقا ؟

ـ نجت بفضل زوجات الجيران اللائى اقتحمن النيران وأنقذنها• كانت جالسة فوق كرسيها ، هذه المخلوقة البائسة ، جامدة فى مكانها مشلولة تصرخ ولا تحاول الفرار ، وقد أمسكت بالجورب فى هياج وثورة تضمه الى صدرها وتهمهم بكلام غير واضح •

وزوجها الخنزير ألم يحاول أن يقتحم النيران لينقذها ؟

ـ ماذا تقولين ؟ اقتحم هذا الشيخ السفيه النيران حقا ، ولكن لالينقذ زوجه ، أبدا ، بل لينقذ خزانته التى يحتفظ فيها بالجنيهات الذهبية · اختطفها بين ذراعيه ، واندفع بها وسط الشارع ، ووضعها على الارض ، وجلس فوقها وبدأ يبكى بصوت متهدج ·· وما ان اتوا بالأم بنيلوب الى جواره ـ هل تعرفين ماذا فعلت ؟ لن تصدقى ·· جلست على الأرض وبدأت تغزل جوربها من جديد · أنت على حق فيما تقولين يا عزيزتى ماندالينيا ، انها قديسة حقا هذه المرأة التعسة ·

وخرجت الأم ماندالينيا وهى تسب الرجال وتلعنهم · وانفتح باب وهى تسير فى طريقها ، وامتدت يد أمسكت بثوبها :

ـ ايه ياماندالينيا · هل رأيت زوجى ؟ لقد تلبسه الشيطان · قيل انه كان يطلق رصاص مسدسه هنا وهناك حتى قلب القرية رأسا على عقب · يبدو أنه قتل قسيس ساراكينا ، هل حقا ما يقال يا عزيزتى ماندالينيا ؟

ـ لم أر زوجك ياجاريفاليا ، ولكننى رأيت طربوشه يتدحرج على الأرض بجانب بئر القديس بازل ، يبدو أن رأسه فى مكان وطربوشه فى مكان آخر يا عزيزتى المسكينة جاريفاليا ·

وقالت جاريفاليا وهى تصفق الباب :

ـ ليأخذه الشيطان ·

وهرعت الطبيبة العجوز الى بيت القسيس جريجوريس لتداوى جروحه · كان بعض أهل القرية قد حملوه الى بيته · والتف حوله بعض جيرانه يروحون ويجيئون ، يقدمون له القهوة وشراب الليمون والسحلب ·

وانحنت فوقه امرأة عجوز مهلهلة الثياب لتهمس فى أذنه ، والمخاط يتساقط من أنفها المدبب فوق اللحية المقدسة ·

ـ لا خطر عليك يا أبانا ، لم يصبك شيء فلا تجزع · لم تذق طعاما منذ الصباح لذلك تشعر بالجوع · الجوع فقط هو الذى يؤلمك يا غبطة الأب ·

وبعد لحظة تنهدت المرأة العجوز البائسة التى قضت حياتها تعانى مرارة الجوع والحرمان وقالت :

ـ صدقنى ، الجوع هو علة كل الامراض ، كل وسرعان ما تتحسن صحتك ٠

وقدموا الطعام ـ كان طعام صيام حيث ان الوقت يوافق صيام عيد الميلاد المجيد ٠ جلس القسيس وبدأ يلوك طعامه فى ألم ، ويصر بأسنانه فى غيظ وثورة ٠ ذلك القسيس فوتيس اللعين كسر له السنة الأمامية ، لذا كان يزدرد طعامه فى سرعة دون أن يمضغه جيدا ، بينما كان الدم ينزف من رأسه المشجوج ٠ كان ينتظر مجىء الام ماندالينيا ومعها عقاقيرها ٠ هدأت قليلا آلام جسمه ورأسه ، ولكن ما زال قلبه تتلظى فيه نار الغضب ٠

وهمس لجارته ذات الأنف المدبب :

ـ أخبرينى يا ابنتى اذ يجب أن أعرف ، هل رآنى أحد وقتما طرحنى أرضا ذلك القسيس اللعين طريد الكنيسة ؟ ٠٠ ابعدى قليلا من فضلك فان أنفك يرشح ٠

ـ ما هذا الكلام الذى تقوله يا أبانا ؟ وهل هذا شىء معقول ؟ هل يمكن لباعوضة كتلك أن تطرح قداستكم أرضا ؟ وقاك الله شر هذا٠ لاتقل مثل هذا الكلام. لا يا سيدى لم يرك أحد، وأقسم لك على ذلك ٠

ولكن قلب القسيس لم يهدأ ، وقال :

ـ كل هذا بسبب خطأ مانولى طريد الكنيسة اللعين٠ كل شىء بسبب فهو الذى غرر بميشيل ، وهو الذى قتل ماريورى وهو الذى دفع قطيع ساراكينا الى النزول الى ليكوفريسى وهو الذى حرض ياناكوس على اشعال النار فى القرية ٠٠ وهو المسئول عن كل هذا ٠٠ الخائن الذى باع نفسه ٠ سأسلخ جلده ٠

وأشار بيده الى الجيران فاقتربوا منه ٠ وتنهد ثم قال :

ـ للأسف اننا فى صيام الميلاد ولا يمكن أن آكل اللحم ٠

واعترضت المرأة العجوز :

ـ ولكنك مريض يا أبانا ، والمرض يعفيك من هذا ٠

وقال القسيس بصوت رزين وقور :

ـ أنا قسيس ، ممثل الرب ، وهذا لا يليق بى ٠ آتنى ببعض الخبز والزيتون وخضروات بدون سمن ٠ فانى جوعان ٠

قدموا له صينية حافلة بالطعام ، وملأوا له كوبا نبيذا ٠

وبدأ القسيس يأكل ثانية فى شراهة ونهم ٠

وحدث نفسه قائلا :

ـ لا بد أن آكل وأشرب كثيرا حتى أسترد بعض قوتي . يجب أن أصحو من نومي غدا مبكرا لمقابلة الأغا . لا بد أن يرسل برقية عاجلة الى باشا سميرنا ، ويطلب على جناح السرعة جنودا أتراكا مسلحين بالبنادق « غزا الاشتراكيون قرية ليكوفريسي . لتأت الجنود سريعا لطردهم . لابد أن يسود العدل والسلام على الأرض من جديد .

وانفتح الباب ، والتفت القسيس .

أحس براحة ، وقال :

ـ أهلا بك ومرحبا يا أم ماندالينيا . تعالى ، أدنى منى . سأهمس بكلمة في أذنك .

دنت منه العجوز وانحنت عليه . وهمس في أذنها :

ـ تخلصى من هؤلاء الجيران واذبحى لى دجاجة .

لاجدوى يا يسوع لاجدوى

فى صباح اليوم التالى استيقظ الأغا مبكرا وأصاخ السمع :
لا صراخ ، ولا طلقات رصاص ، كل شىء هادىء تماما . وضاق صدره لذلك . وغمغم قائلا :

ـ ترى هل كلت سواعد الكفرة . لماذا بحق الشيطان كفوا عن قتل بعضهم بعضا ؟ .

ونادى مارثا :

ـ تعالى أيتها المسيحية الدنسة . هل كفوا عن التقاتل ؟ هل انتهى كل شىء ؟ .

ـ انتهى كل شىء يا أغا ، وكفوا عن التقاتل . ولكن المتمردين احتلوا بيت الشيخ بطرياركاس ، ولا يريدون مبارحته . يقولون « البيت بيتنا » ، وقتل ناظر المدرسة المسكين يا أغا .

وصاح الأغا فى غبطة وسرور :

ـ قتل ؟ حسن ، هذا هو ما كنت أحب أن أسمعه . واحد على الأقل . وماذا عن القسيسين ؟ .

ـ لا زالا على قيد الحياة .

ـ الاثنان ؟ .

ـ الاثنان . تعرف أن القساوسة كالقطط ، كل منهم له سبعة

أرواح • كل ما حدث خدوش وكدمات في وجهيهما ، ونتف بعض شعر لحيتهما ، ولكنهما بخير ، لم يمت أحد منهما بعد •

وتمتم الأغا :

ـ واأسفاه ، لا زالا على قيد الحياة • ولكن صبرا ، فمن المؤكد أن سينشب بينهما قتال جديد بعد قليل • أسرجي بغلتى •

واتجهت الحدباء العجوز ناحية الباب ، ولكن الأغا نادى عليها ثانية :

ـ أين براهيماكى ؟ انسل من هنا قبيل الفجر •

ـ العاهرة بيلافيا . لابد وأنها جاءت الى هنا قبل الفجر . هي السبب •

ـ ليأخذها الشيطان • ألم يشبع منها بعد ؟ لتذهب الى الجحيم معه ، هذا الفاسد الخليع •• ولكنه لا زال صبيا هـذا البائس ، لا يعرف كيف يمايز الخبيث من الطيب • اذهبى وأسرجي بغلتى •

* * *

واستيقظ القسيس فوتيس مبكرا هو الآخر • كان لا يزال يتوجع ، ولكنه يعض على شفتيه ، يتحمل أوجاعه في صمت •• فكبرياؤه يمنعه من الأنين • ونادى مانولى ، وقال له :

ـ عزيزى مانولى • يجب أن نسرع ، فليس لدينا متسع من الوقت نضيعه • أرسل شعبنا ، رجالا ونساء ، ليستولوا فورا على حدائقنا وكرمنا وزيتوننا •• اطلب منهم أن يبنوا أكواخا هناك ويقيموا على حراستها حتى لا يأتى من يطردنا منها • سأبقى هنا مع بعض رفاقنا • اذهب في رعاية الله •

ـ ألا زلت تشعر بألم يا أبانا ؟•

ـ ماذا يهم ان كنت أتألم أم لا ياعزيزى ؟ ألا زلت تفكر في والخطر يحدق بمجتمعنا ؟ اذهب وادع رجالنا ، لينتشروا بين أملاكنا • سيتدخل الأغا يقينا بين لحظة وأخرى •

نزل مانولى الى الفناء • كان ناظر المدرسة لازال مسجى فوق الحجارة وسط الفناء • جمدت جفونه ، فلم يعد من المستطاع تسبيلهما ، وعيناه اللتان انطفأ نورهما تشخصان الى السماء •

وقطعت النساء بعض فروع شجر الغار ، وغطت بها الجثة • وجلست بعض عجائز النساء القرفصاء من حوله يبكينه في هـدوء • ووضعت أم غصن ريحان في يده ، ليأخذه معه الى طفلها الذى مات جوعا • اذ كان

ابنها أحد تلاميذ حاجى نيقولا ، فقد أرسلته الى مدرسة ليكوفريسى وأعجب به ناظرها ٠

دعا مانولى رفاقه وقسمهم مجموعات ثـلاث ٠ تسلحوا بالهراوات ، وتزودوا ببعض الطعام من مخازن البيت وانطلقوا ٠ شقت مجموعة طريقها الى حقول الشـيخ بطرياركاس ، والأخرى الى بساتين الكرم والثالثة الى مزارع الزيتون ٠

كانت القرية لا تزال غارقة فى سباتها ، والشوارع مقفرة ، والدخان لازال يتصـاعد من بيت الشـيخ لاداس ٠ وذاب الثلج الذى كان يغطى السهل ٠ وانقشعت السحب ٠ وصفت السماء ٠ وابتسمت قمة الجبـل التى يعتليها النبى ايليا فبدت لألآة غارقة فى ضوء الفجر ، يغطيها الثلج٠

وسمع الشماس وقع أقدام ، فأطل من النافذة ورأى أهل ساراكينا فأدرك على الفور وجهتهم ٠ وارتدى ملابسه على عجل ، وفى نفسه فرحة خبيثة ، وأسرع لينعى الى القسيس جريجوريس الأنباء السيئة ٠

كان يحدث نفسه قائلا :

ـ سأضع بعض السم فى أذنه ٠ أنا أحـق بأن أكون أسـقفا وهو شماسا ٠ ولكن القدر أعمى ٠

أسرع الخطو على الطريق الصاعد الى بيت القسيس ٠ وفتحت أبواب فى هدوء ووجل أثناء مروره بها ، وصاحت الديكة ٠ وبلغ الشماس بيت القسيس ، فدفعه ودخل ٠ كان القسـيس جالسا فوق سريره ، يرقب النهار الجديد منذ مطلعه ٠ تناول بالأمس عشاء طيبا ، اذ كانت الدجاجة سمينة لحيمة ، وغاص فيها بوجهه حتى أذنيـه ٠ ودهنت الأم مانداليننا جروحه ببعض مراهمها ، وعصبت رأسه فى حرص وعناية ، وزايله الألم٠ ولكن لحيته فقدت بعض شعرها ، ونتف الجانب الأيمن لشاربه ٠ لقد خرج القسيس البدين المهندم من المعركة ممزق الثيـاب ، مشوه الأسنان ، منتوف الشعر فأصبح كالقطة المسموطة ٠

بيد أنه لم يعد يشعر بألم أو خجل ٠ شىء واحد فقط تسلط على فكره ، رغبة واحدة فقط لا غير : أن يقضى على مانولى ويقطع دابره ٠ قرار الحرمان الذى ألقى به فى وجهه لم يعد كافيـا ، يريد أن يشرب دمه ٠ استيقظت فى نفسه كل نوازع الهمجية البدائية ، والغرائز الوحشية ٠ آه ، أود أن أصرع مانولى وأطرحه أرضا وأجثم فوقه وأقضم زمارة رقبته ، وأشرب دمه ، عوى فى باطنه ذئب من القرون الأولى ، هب فى أعمـاقه ،

وكسر القشرة التى تغلف روحه وبات ينظر الى مانولى ويعوى • المحبـــة المسيحية ، والوداعة المسيحية ، الخوف من والجحيم ، والفردوس ــ كل هذه زايلت قلب القسيس جريجوريس ، لم يبق فى تلك الصحراء القاحلة غير ذئب فحسب •

اقترب الشماس وهو يبتلع لعــــابه • لم يكن يعرف كيف يصوغ الكلمات التى سينطق بها بحيث تؤلم القسيس وتوجعه فى قسوة ضارية • وتصنع الخضوع وقال :

ــ يا أبانا ، أسألك الصفح والمغفرة•• السفن الضخمة خلقت لتواجه الأعاصير العاتية ، والقمم الشم يشعلها البرق • وأنت السفينة الضخمة يا أبانا ، والقمة الشماء •••

وصاح القسيس فى ضيق :

ــ أفصح أيها الثعلب العجوز ، ولا تمثل دور الساذج البرىء ، فأنا أعرفك جيدا • كنت تطمع فى ان تكون أسقفا ، وخاب رجاؤك ، وشفتاك تقطران سما •• دع عنك كل هذه التلميحات ، وأفصح • ما الموضوع ؟ •

أحس الشماس بالدم يغلى فى عروقه ، ولكنه تمالك نفسه ، وآلى على نفسه أن ينفث فيه السم قطرة قطرة •

وقال بصوت باك :

ــ خرج القسيس فوتيس من المعركة سليما معافى ، لازال على قيد الحياة يزهو منتصرا ••

ــ دعك من هذا أيها المتشرد ، انما أتيت لشىء آخر غير هذا • أفرغ كل ما فى مرارتك •

ــ رأيت بعينى رأسى أهل ساراكينا وقد خرجوا مبكرين ، وانتشروا بين ضياع الشيخ بطرياركاس • لابد أنهم استولوا عليها • لقد هلكنا •

ــ ليبتليك الله بطاعون • حسبك هذا •

ــ هناك للأسف ما هو أدهى وأمر يا أبانا ، اغفر لى ••

ــ تكلم •

ــ القرية كلها تتندر بالصراع الذى دار بينك وبين القسيس فوتيس وكيف طرحك أرضا ، ، وجثم فوق صدرك الطاهر ••

استشاط القسيس جريجوريس غضبا ، واحمر وجهه •

ـ أدن منى أيها الحقير · اقترب ·

ولكن الشماس خاف يد القسيس الثقيلة ، وتراجع حيث احتمى فى زاوية من زوايا الحجرة · وواصل كلامه :

ـ وما هو أشد وأنكى من ذلك كله ··

ـ أشد وأنكى من ذلك ؟ ·· تكلم يا لسـان الحية الرقطاء · أفرغ كل ما فى جعبتك · هل تريد أن تقتلنى كمدا ؟ ·

ـ ما هو أشد وأنكى يا أبانا ·· آه ، تشجع ، فكلنا كما تعـلم بشر الى زوال ·· مخلوقات فانية بائسة ·· الموت قدر مقدور علينا ··

أمسك القسيس بصندوق النشوق المعدنى وقذف به الشماس فى رأسه ، ولكن الشماس عرف كيف يفلت منه ، اذ طأطأ رأسه وجثا على الأرض فمر الصندوق من فوقه ليرتطم بالنافذة ويحطم زجاجها ·

ـ تكلم والا سأقوم لك أيها المنافق السفيه وأضربك ضربا مبرحا ·· ماذا أشد وأنكى مما قلت ؟ ·

ـ ماذا ؟ ألا تعرف يا أبانا ؟ آه ، كيف انبئـك به ؟ يـكاد يغمى على ·· أخوك ··

فقد القسيس أعصابه ، وألقى بدثاره بعيدا ، وقفز من سريره وانقض فوق الشماس · ولكن الشماس كان حذرا ، فوضع المنضدة وكرسيين بينه وبين القسيس واحتمى وراءهم · وتصنع البكاء وتمتم قائلا :

ـ قتل ·· أخوك ··

وزأر القسيس الذى تدافع الدم فى عروق وجهه المنتفخة :

ـ من ؟ متى ؟ أين ؟ ·

ـ لا أعرف يا أبانا · كيف لى أن أعرف ؟ آه المسكين ألقوه فى حفرة مهشم الرأس ·· وهو الآن مسجى فى فناء بيت بطرياركاس يحيط به قطاع الطرق ··

ـ ألا تشك فى أحد يا شماس عليك اللعنة ؟ ·· تعال ، تذكر جيدا ، وأجب على سؤالى ·

ـ ماذا تنتظر منى أن أقول يا أبانا · لا أحد · ولكن أستطيع الآن أن أتذكر ما حدث ·· من يدرى ؟ ·· ربما كان ··

ـ ربما كان من ؟ تذكر جيدا يا صديقى الطبيب ‥ انطق ولا تخف ‥ أنت رجل عاقل ‥ لا بد وأنك تعرف ‥ حسن ، من اذن ؟ •

ونحى المنضدة والكرسيين جانبا ، ووضع يدا حنونا على كتف الشماس • وقال له •

ـ أنت تعرفه بكل تأكيد ‥ ربما يكون ‥ من ؟

ـ هم م م ‥ كنت هناك ‥ وخيل الى للحظة أننى رأيت ‥ ولكننى لست واثقا من شيء ، أخشى الخطيئة ، أخاف الجحيم يا أبانا ‥

ـ اطمئن يابنى ولا تخش الجحيم ، فانى سأكون هناك أذود عنك شرها • تكلم فى حرية ، فقد ارتبت أنا أيضا فى نفس الشخص ساعة سماعى بالنبأ ‥ هذا الاشتراكى الملعون • رأيته أنت بعينيك ، أليس كذلك يا صديقى ؟ •

ولزم الشماس البائس الصمت • كان يخشى عذاب الجحيم ، ولكنه يخاف أبانا أيضا ، وأصيب بدوار •

وهزه القسيس بعنف :

ـ هل يمكن أن أتخذك شاهدا ؟ ـ تعال ، أنت تعرف مدى حبى لك واعجابى بك ‥ أعنى على ارتداء ملابسى • سأذهب لمقابلة الأغا ، سأطلب منه القصاص • اذن أنت رأيته ، أليس كذلك ؟ رأيته بعينيك هاتين ، أى بنى العزيز ؟ •

ـ ماذا أقول يا أبانا ؟ خيل الى أننى رأيت ‥ ولكننى لا أستطيع أن أذكر على وجه اليقين أننى رأيت ‥

لوح القسيس بذراعه مهددا ، فتضاءل الشماس وجبن • وصرخ القسيس فى وجهه :

ـ رأيته ، نعم رأيته بعينيك • لماذا تنكر ؟ هل أنت متواطىء معه ، مع هذا الاشتراكى ، أيها التعس ؟ •

ورفع الشماس عينيه ، ورأى قبضة القسيس معلقة تكاد تهوى على أم رأسه • فتضرع اليه :

ـ يا أبانا ، أمهلنى حتى أستجمع شتات فكرى اذا كنت تريدنى أن أتذكر ‥

ـ لك ما طلبت ، وانى منتظر •

وتفكر الشماس : « قلت اننى رأيت ؟ ولكن رأيت من ؟ هذا مالم

أقله · لن أقول ذلك ·· وهكذا لن أقع فى الخطيئة ·· » وارتاح لهـذا الخاطر · وصاح :

ـ رأيته يا أبانا ، تذكرت الآن · رأيته بعينى رأسى ، وأقسم على هذا ، ساعة أن طرحك قسيس ساراكينا أرضا وبدأ يغرس ركبتيه فى صدرك المقدس ··

ـ اخرس ، ليس هذا هو ما أطلبه منك · أعنى على ارتداء ملابسى· انى سعيد لأنك رأيته ، عدو المسيح ـ وسعيد لأن معى شاهدا ·· أنت لا تدرى يا صديقى أى خدمة جليلة تسديها الى المسيحية بصنيعك هذا ·

ورفع الشماس سروال القسيس وجوربه وقميصه وجلبابه ، وانهمك فى ستر ذلك البدن الكهنوتى بالملابس · وألبسه حذاءه وحزامه وقلنسوته ثم ساعده على الوصول الى الباب ·

ـ اعطنى ذراعك أتوكأ عليهـا ، لا تنصرف يا شـماس ، أعنى على المسير حتى بيت الأغا ··· خفف الخطو ولا تسرع ، وانظر ان كانوا قد حملوا الجثة الى الكنيسة ، ولكن أهم شىء أن لا تنسى أنك رأيته ·

كان الأغا يتهيأ ليمتطى صهوة بغلته حين رأى القسيس جريجوريس يدخل بيته ، يترنح ويعرج وقد عصب رأسه · وما أن وقع بصره عليه ، وهو على تلك الحال ، حتى انفجر ضاحكا · وصاح :

ـ كيف أصبحت على هذه الحال يا قسيس ؟ من الذى هشم وجهك هكذا ؟

وبسط القسيس ذراعيه على امتدادهما وصاح :

ـ العدالة يا أغا ، العدالة ، القصاص · تسأل من ؟ انه مانولى · هو الذى أثار ثائرة أهل ساراكينا ، وهو الذى أتى بالاشـتراكيين الى قريتنا ، وأشعل النار فى بيوتنا ، وشج رأسى ، وقتل أخى ناظر المدرسة · عندى شهود · أنت ولى الأمر وممثل الحكومة التركية فى ليكوفريسى ، ألوذ بك ، وأمد اليك يدى سائلا : العدالة والقصاص يا أغا · سلمنى مانولى أقتص منه أنا ، القرية كلها عن بكرة أبيها تتوسل اليك بلسانى ·

ـ لا ترفع صوتك هكذا أيها القسيس المبارك ، كدت تخرق أذنى · اجلس · ستصنع لك مارثا فنجان قهوة ، لتهدىء من روعك أيها الشـيخ البائس · لا شىء البتة ، ولا داعى للقلق · أنتم روميون ، ولكم رءوس

رومية تتقـــارع وتخبط فى بعضها وتتـكسر كالبيض ، هذا كل معنى الأمر ، لذلك لا داعى للصراخ ٠

أسند القسيس ظهره الى الحائط حتى لا يهوى الى الأرض ، وعاود طلبه :

ـ سلمنى مانولى ٠

أحضرت مارثا كرسيا على عجل ، وســـاعدته على الجلوس ٠ وكان الأغا فى تلك الأثناء يتقلد سيفه ويغمد مسدسه الفضى فى حزامه الأحمر العريض ، وطوى سوطه تحت ابطه ٠

وانفتح الباب ، ودخل شيخ هزيل ، حافى القدمين ، مقوس الظهر، احترق نصف شعر لحيته ورأسه ، وغطت الحروق وجنتيه ٠ سار وسط الفناء وهو يحجل ثم خر الى الأرض تحت قدمى الأغا ٠ وصاح باكيا :

ـ يا أغا ، الرحمة ٠

وقلبه الأغا بطرف قدمه وقال :

ـ يا للسماء !! ألست أنت الشيخ لاداس ؟ ما هذا القناع الذى تغطى به وجهك ؟ من أين لك به ؟

ـ أشعلوا النار فى بيتى يا أغا، وهشموا الجرار والبراميل، وأحرقوا الخزائن والأثاث كما أحرقوا قلبى ٠

ـ من ؟ من ؟ هل رأيته ؟

ـ مانولى ٠ مانولى الاشتراكى ٠

ـ معنا شهود يا أغا ٠ رآه بانايوتى ، ورآه الشماس ٠٠٠ ورأيته أنا أيضا ٠

وصدر عن الشيخ البخيل صوت كالثغاء :

ـ احرقه يا أغا ، احرقه كما أحرقنى ٠ الرحمة يا أغا ٠ سنجمع الخشب وسط الميدان ، ونلقى عليه قارا ونشعل نارا نحرقه فيها ٠

وهرش الأغا رأسه ، وبصق على الأرض فى حيرة وارتباك ٠ وهمهم :

ـ ورطة ٠٠٠ ورطة ٠ ليأخذكم الشيطان أيها الروميون ٠

وذرع الفناء بخطوات متوترة ، يضرب الهواء بسوطه ، وكلما ضرب الهواء ازداد غضبه وتضاعف أكثر وأكثر • وزأر :

ـ قسما بحيـاة النبى محمد ، سأقبض عليـكم جميعا ، قسيسين واعيانا واشتراكيين ، وأشنقكم جميعكم الواحد بعـد الآخر فوق شجرة السنار •

واستدار عند سماعه صرير الباب وهو يفتح ثانية • رأى بانايوتى يحجل فى مشيته ، حاسر الرأس بدون طربوش ، ومعه مسدس واحد فى حزامه وقد تمزقت ملابسه ولطخها الدم والوحل ، وتورم وجهه واستحال لونه أحمر قانيا •

ولم يتمالك الأغا نفسه فانفجر ضاحكا :

ـ ما هذا الشيطان القره قوز ؟ ماذا أسميك ؟ الدب المنتوف ، أم الجمل الأجرب ، أم بانايوتى ؟

أسند بانايوتى ظهره الى الحائط ، وهمهم دون أن يجيب • وأحس بألم فى ركبتيه ، ولم يقو على الوقوف ، فهوى الى الأرض رويدا رويدا حتى تدحرج فوق الحجارة وسط الفناء •

تفرس الأغا فى زائرى الصباح الثلاثة الواحد بعد الآخر : القسيس تكوم فوق كرسيه ، يئن ويتوجع ، ويداه ترتجفان وقد قلب فنجان القهوة فوق ثوبه ، والشيخ لاداس سقط على الأرض تحت قدمى الأغا ، يحرك رأسه فى بطء ، ويفتح فمه ويغلقه فى حركة بلهاء ، وبانايوتى استحال كومة من الخرق والوحل ، يظهر من تحتها قدمان ووجه متورم •

وصاح الأغا فى غبطة :

ـ ها ها ها ••• لم أر شيئا كهذا فى حياتى قط • سفن محطمة ، وأعلام ممزقة ، وأمراء بحر تضعضعت حالهم • ولكنها سلالة الروميين تغزو فناء دارى وتفسده برائحتها الكريهة • « تعالَ يا أم مارثا ، هات خرقة وامسحيهم لتنظفى الفناء منهم » •

وأحس القسيس بالاهانة فرفع رأسه :

ـ لا تنس يا أغا أنك ملزم بتقديم حساب لحكومتكم السامية • يوجد بين ظهرانينا فى ليكوفريسى مبعوث من قبل بلد عدو ، مهمته هى الاطاحة بالامبراطورية التركية واحراقها • لا تضحك ••• ولا تأخذ الأمر مأخذ

الهزل · ارفع قبضتك واضرب بقوة ، ماذا يفعل المرء اذا تسلل ذئب داخل حظيرة الماشية ؟ يقتله على الفور · سلم لنا مانولى ··· لاتدنس يداك به ، واترك العمل القذر لنا نحن المسيحيين ··· ستحتشد القرية كلها اليوم أمام دارك ، تصرخ مطالبة بتحقيق العدالة · صوت الشعب هو صوت الله· أنصت لنداء الشعب : « أنت أغا القرية ، محقق العدالة » ·

غرق الأغا فيتفكير عميق ، ودارترأسه ، ودار معها الفناءوالقرية· وقال في نفسه :

ـ أى ضرر في أن أقطع دابر رومى · واحد على الأقل يعد مكسبا ـ ودون أن يكون لى يد في ذلك ··· لنتريث قليلا ·

ورفع بانايوتى رأسه ، اذ واتته الجرأة على الكلام :

ـ لماذا التردد يا أغا ؟ احسم أمرك · رأيت مانولى بعينى رأسى وهو يهشم رأس ناظر المدرسة بحجر ضخم · رأيته بعينى هاتين ، وهو يعطى صفيحة البترول لياناكوس ، وسمعته يقول له : « ابدأ أولا وقبل كل شىء بحرق بيت الأغا ، احرق هذا الكلب في بيته حتى تتحرر قريتنا من نير الأتراك ·

تطاير الشرر من عينى الأغا وزأر :

ـ هل تقسم على ذلك ، يا بانايوتى ؟

نظر بانايوتى الى القسيس الذى أومأ اليه برأسه ، ثم قال :

ـ أقسم على ذلك ، يا أغا ·

وتحامل القسيس على نفسه محاولا النهوض وقال :

ـ مانولى اشتراكى خطير ، يا أغا · له هدف واحد فقط : الاطاحة بالامبراطورية العثمانية · ويقف البلد الاجنبى العدو من ورائه يظاهره ، ويحرضه · لو تركناه حيا ، سيقوى عوده ويشتد بأسه حتى يقضى علينا جميعا ·

ورد الأغا وهو يهرش رأسه :

ـ دائما تدور وتدور ثم تعود الى هذا الموضوع أيها القسيس اللعين· وبعد لحظات من الصمت تمتم قائلا :

ـ لا ، أنت تبالغ يا قسيس ···

ورغم هذا أحس بالحيرة والارتباك ، لا يعرف كيف يستبين الأمر ٠

وقف القسيس ، واستجمع قواه ، وتقدم ناحية الأغا وهمس :

ـ هل أنا أبالغ؟ هل هذا هو رأيك يا أغا؟ ولكن الأمر واضح وضوح النهار تماما ٠ تذكر كيف بدأ مانولى حياته فى قريتنا ـ راعيا حقيرا، تابعا لبطرياركاس ضمن خدمه ، لا يملك شاة واحدة لحسابه ، ولا قيراط أرض، بائسا ، يملأ القمل جسمه ٠٠٠ وانظر اليه الآن كيف أصبح بفضل حيله، ومساعدة العدو : وحشا كاسرا ٠ رفع راية باسمه ، ليشق عصا الطاعة ويتمرد ، قتل الناس ، وحطم أسرا ، وأتى الينا من آخر الدنيا بهذا الأفاق، القسيس فوتيس وعصابته المهلهلة ، واحتلوا جميعا جبل ساراكينا، وبدأوا يبنون قرية جديدة على بعد خطوة هنا ، يسكنها الاشتراكيون ٠ أقسم أن يحرق دارك ويقتلك يا أغا ، ويجمع خيرات قريتنا ويأتى بالاشتراكيين ليستولوا عليها ٠٠٠ وأنت يا أغا لا تدرى بما يحدث هنا ، انتبه ، وحذار ، فقد تسلل الذئب الى حظيرة غنمك ، فاقتله ٠

وصاح معه الآخران يؤمنان على كلامه :

ـ اقتله ، اقتله ٠

مرة أخرى هرش الأغا رأسه ٠ كان حتى تلك الساعة يأخذ الأمور مأخذا سهلا ، ويقول لنفسه :

« هؤلاء روميون مجانين ، دعهم يصفون حسابهم مع بعضهم بعضا ، وأدخن أنا غليونى ، وأشرب الخمر ، ولا أعبأ بهم فى قليل أو كثير ٠ أما الآن فقد دخلت الامبراطورية العثمانية فى الموضوع ، وأتى الاشتراكى العدو ، وبدأ زمام الأمور يفلت من بين يدى ٠ نعم ٠٠٠ نعم ، لو تركت هذه الدودة المسماة مانولى تنعم بالحياة ، فمعنى ذلك أننى أترك الخطر يحدق بالامبراطورية العثمانية ويتهددها ٠٠٠ ورطت نفسى فى مشاكل عويصة ٠ صاحب لحية التيس على حق فيما يقول « تسلل الذئب الى الحظيرة ، واذا لم أقتله سيقتلنى » ٠

وفتح فمه فى ضيق :

ـ اخرجوا جميعا٠ اتركونى وحدى ٠ الأمر جد خطير، دعونى أتدبره ٠٠٠ اذهبوا الى الجحيم ٠

ورفع سوطه ليلهب به رءوسهم وظهورهم ٠

واستبد الهلع بالثلاثة ، وغاصت رءوسهم بين أكتافهم ، وهرولوا خارج البيت يرتطمون ببعضهم بعضا ، والسوط من ورائهم يصفر فى الهواء • وصفق الأغا الباب برفسة من قدمه ، وأصبح وحيدا •

وصاح بمارثا :

ـ هات زجاجة العرقى ، فانى سأتخذ قرارا •

سار القسيس جريجوريس والشيخ لاداس بين شوارع القرية • وأصدر القسيس أمره الى الشماس ليدق جرس الحداد • وسرعان ما تجمع أهل القرية فى الميدان ، يصيحون مطالبين بالقصاص ، فهم لا يحتملون العار الذى لحق بهم بعد أن أذلهم الشحاذون • ووقف القسيس بينهم ، واستجمع قوته وصاح بهم :

ـ يا أولادى ، لحقنا العار ، ولا بد من أن نثأر لأنفسنا • تحدثت مع الأغا فى هذا واتفقنا فى الرأى • من سبب كل هذه المآسى ؟ شخص واحد فقط ، هو مانولى طريد الكنيسة • ولكن حانت ساعته الآن • سيسلمه لنا الأغا ، لنحاكمه وندينه بكل جرائمه ، ونشرب دمه • انقضوا عليه يا أطفالى ، هبوا واذهبوا جميعا من فوركم الى بيت الأغا ، تجمعوا أمام بيته ، ولوحوا بأيديكم وارفعوا أصواتكم مطالبين : « مانولى ، مانولى ، أعطنا مانولى » ـ لا شىء غير هذا النداء ، واتركوا الباقى لى •

واتخذ طريقه الى الكنيسة ، وانحنى فوق جسد أخيه ، وقبله القبلة الأخيرة ، ورتل صلوات الميت على عجل ، اذ كان ذهنه مشغولا بمانولى • ورفع أهل القرية الجثة وحملوها الى المقبرة • وعندما رأى القسيس الناس وهم ينزلون بأخيه الى لحده ليواروه التراب ، تذكر أيام الطفولة ففاضت الدموع من عينيه •

وألقى كل واحد من أهل القرية بحفنة من التراب فوق جثة الرجل الميت • وصب الشماس لكل منهم كوبا من العرقى التماسا لرحمة الفقيد، ثم وزع عليهم كسرة خبز وحفنة زيتون • وعاد الجميع من فورهم الى القرية حيث تجمعوا أمام بيت الأغا •

★ ★ ★

انتصف النهار ، وسكر الأغا حتى لم يعد بحاجة الى مزيد ، واتخذ قراره • نادى بانايوتى الذى قبع عند عتبة الباب ينتظر ككلب أوسعه صاحبه ضربا •

ـ تعال هنا يا آكل الجبس الملعون ، هل تستطيع المشى أم أصبحت كسيحا أيها الأبله ؟

ـ لو كان ذلك للقبض على مانولى فانى أستطيع ٠

ـ أرى رأسك ، ولكننى لا أرى الطربوش ٠ ماذا فعلت بطربوشك يا كافر ؟

ـ نسيته بالأمس يا أغا عند بئر القديس بازل ٠ قيل لى ان الأم ماندالينيا قد عثرت عليه ، وسأرسل من يأتينى به ٠

ـ البس طربوشك ، وانتقى اثنين من الرجال الأشـــداء من أهل القرية ، وآتونى مانولى ، هذا اذا لم تستطع أن تأتنى به وحدك ٠ انصرف ، سريعا ٠

ـ حيا أم ميتا ؟

ـ حيا ٠

٠ وانصرف بانايوتى فرحا مسرورا حتى أنسته الفرحة جروحه التى أصابت ركبته ، وانطلق يعدو بأقصى سرعته ٠

وبدأ يفرك يديه وهو يتمتم :

ـ حانت ساعتك يا مانولى ، أحسنت صـــنعا يا يهوذا بانايوتى ، أحسنت صنعا أيها الهمام ، لقد انتصرت عليه ٠

***

أقام مانولى ورجاله خصا فى حديقة بطرياركاس الواسعة التى تقع خارج القرية قرب بحيرة فويداماتا ٠ واختار مانولى من رجاله من عهـــد اليهم بالحراسة ، اذ رأى أن يعود الى القرية مع المساء ليطمئن على القسيس فوتيس ، ويتشاور معه ٠ وسمع ، وهو فى طريقه ، أجراس الحداد فانقبض قلبه ٠

٠ وبعد الظهر بقليل أقبل قسطندى يعدو ٠ كان يحمل اليه أخبارا ٠

ـ القسيس جريجوريس يثير ثائرة القرية من جديد ، يطوف فى شوارع القرية برأسه المعصوب يهيج أهـل القرية ، ويحرضهم على التجمع أمام بيت الاغا ليهتفوا : « اعطنا مانولى ٠ أعطنا مانولى ٠ الموت لمانولى» يريدون القبض عليك يامانولى ٠ يلقون بكل الجرائم على عاتقك ، ويتهمونك بالسرقة واحراق البيوت ، والقتل ، وقبل هذا كله يتهمونك بأنك اشتراكى ٠٠

احتف في مكان ما ، احتم بساراكينا ، أو ألجأ الى مكان بعيد ، حياتك في خطر • الجميع يطاردونك •

وأجاب مانولى :

ـ مكانى هنا مع أخوتى الذين يتهددهم الخطر • الفرار هروب من المعركة يا عزيزى قسطندى • كيف حال اخوتنا الآخرين ؟ هل رأيتهم •

ـ أخذ ياناكوس حماره من د رى ، وأخفاه في مزرعة الزيتون الكبيرة احتمى هناك هو ورجاله • وتحسنت حالة القسيس فوتيس ، ويقول انه سيذهب غدا لمقـابلة الأغا • يقول عنه « انه وحش حقـا ، ولكنه ليس بالكائن الذى يضمر خبثا وكراهية في أعماقه • سيقر حقوقنا • وسوف تسير الأمور بسيرها الطبيعي ، المسيح معنا • ولـكن مهما كان الامر فاني خائف يا عزيزى مانولى • أقسم الجميع على سفك دمك •

ـ أسأل الله يا قسطندى أن يقع وزر هذه الجرائم كلها على عاتقى ويجهزوا على ويتركوا رفاقى في سلام • سأرد على كل اتهـاماتهم بكلمة واحدة ، نعم • أنا الذى سرقت ، أنا وحدى ، وأنا الذى قتلت ، وأنا الذى أشعلت الحرائق • سأعترف بكل ما يكيلونه من اتهامات ، كلهـــا دون استثناء ، ان كان في ذلك خلاص أهلي ومجتمعى •• سأذهب راضـــيا مختارا وأسلم نفسى للأغا ، والآن فورا •»

وبهت قسطندى ، واتسعت حدقتا عينيه ، ورأى مانولى أمامه وقد أصبح انسانا آخر ، وجها وضاء يشع نورا ، وقامة مديدة فارعة ، يقف سامقا وسط الأشجار كأنه منارة من نور • وطرفت عينا قسطندى فقد بهرهما النور • وقال :

ـ عزيزى مانولى ، لست أهلا لأن أنصحك • فان روحى لا تســـاوى أكثر من قسطندى وعائلته ، واذا غاليت في تقديرى فلن يتعدى الأمور بضع أصدقاء أيضا • فهى لا تساوى أكثر من ذلك بأى حال من الاحوال • أما أنت يامانولى فان روحك تمتد لتسع الناس جميعا • ان ما أرتعد أنا منـه فرقا ، تهرع أنت الى ملاقاته خفيفا فرحا • وما أسميه أنا خوفا ، تسميه أنت أملا • لك الارادة والقوة على أن تقتفى أثر المسيح : فافعل ما يلهمك به الله ، يا مانولى :

واتجه مانولى ناحية بوابة الحديقة وقال :

ـ هيا •

وتبعه قسطندى مطأطىء الرأس ٠

وخرجا من الحديقة ، وسارا بمحاذاة البحيرة ٠ كانت السماء صافية الاديم رغم الشتاء ، والهواء شفافا نقيا لا أثر للضباب فيه ٠ والبحيرة مرآة مجلوة تنعكس على مياهها أشعة الشمس خضراء داكنة ٠ وعيدان الغاب وأشجار الصفصاف تطل الى صورتها المنعكسة على صفحة الماء ٠ وطـائر من طيور اللقلق يقف عند الحافة على ساق واحدة يحملق فى هدوء وغـير اكتراث ، وطائران آخران ضما سـاقيهما الى بطنهما وحلقا فوق البحيرة فى صمت ، يسبران غور الماء بعيون ثاقبة : اذ كانا يتضوران جوعا ٠

سرح مانولى الطرف فيما حوله ، كأنه ينظر نظرة وداع يودع بهـا البحيرة والأشجار العارية ٠ ورفع بصره الى جبل ساراكينا الذى غطته ظلال بنفسجية رقيقة ٠ ثم انحدر بصره الى السهل وتأمل أشجار الزيتون والكرم وأشجار المشملة المزهرة ، وحبات الليمون التى تلمع وسط الأوراق الداكنة ، وشجرة اللوز التى تنبىء بقرب حلول الربيع ، اذ توشك براعمها الممتلئة أن تتفتق وتكشف عما بداخلها ٠

وتمتم مانولى ، وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ ما أجمل الدنيا ٠٠

وتفكر قسطندى فيما بينه وبين نفسه دون أن يفصح عن سريرته :

ـ ولكن روح الانسان أجمل ، ففى بعض الأحيان ٠٠٠

وسارا فى طريقهما الى القرية ٠ كانت الاجراس لا زالت تدق دقات الحداد ٠ وعلى البعد جلبة وضوضاء اختلطت بها صيحات مختلفة ونباح كلاب ٠ وصاح ديك ٠

وقال مانولى :

ـ يبدو أن الطقس سيتغير ، أنصت لصياح الديك ٠

وزم قسطندى شفتيه ٠ كان يخشى أن ينفجر فى نشيج مسموع ٠ وتبع مانولى مطرقا برأسه صامتا ٠

وفجأة ، ما أن اقتربا من بئر القـديس بازل حتى اندفع بانايوتى من وراء شجرة ، ومعه رجلان من ذوى القوة والبـأس ٠ خرجوا يلوحون بهراواتهم ٠ كان بانايوتى مرتديا طربوشه هذه المرة ٠ وامتقع لون قسطندى وتراجع قليلا الى الوراء ٠

وقال لنفسه :

ـ سيلقيان القبض على مانولى ·

وراودته نفسه أول الأمر على الفرار بأقصى سرعته، ولكنه خجل من هذا الخاطر ، وثبت مكانه والخوف يكاد يقتله ·

وتقدم بانايوتى أمام رفيقيه فى عزم واصرار · ولوح بيديه فى وجه مانولى متوعدا مهددا · وخار :

ـ الى أين يا طريد الكنيسة ؟

ـ انى ذاهب لمقابلة الأغا يابانايوتى · لا تغضب ، سمعت أنه يبحث عنى ، وانى ذاهب لأسلم له نفسى ·

وحملق فيه بانايوتى فاغرا فاه :

ـ ألاتخاف؟ ألا تخشى الأغا أو القسيس أو القرية؟ هل أنت شيطان فى ثوب انسان ؟ ·

ـ من لا يخاف الموت لا يخاف الناس يابانايوتى · هذا هو السر · هيا بنا ·

ـ سر أنت أمامى ، حتى لا تهرب منى ·

والتفت الى رفيقيه :

ـ انصرفا أنتما لحال سبيلكما ، سأتولى بنفسى أمر هـــذا الافاق · وانصرف أنت أيضا يا قسطندى ، أيها الاشتراكى القذر ·

وتردد قسطندى · ونظر الى مانولى ·

وقال له مانولى :

ـ اذهب يا عزيزى قسطندى ، عد الى بيتك حيث زوجك وأطفالك ، ودعنى وحدى ·

لم يكن قسطندى بحاجة ليكرر عليه مانولى الكلام ، فانطلق مسرعا· وأصبح مانولى وبانايوتى وحدهما ، وسارا صامتين لفترة غير قصيرة وأخيرا قال مانولى بصوت هادىء رقيق :

ـ بانايوتى ، هل تكرهنى الى الحد الذى تتمنى لى فيه الموت ؟ لماذا؟ ماذا جنيت فى حقك ؟

وجأر بانايوتى :

ـ لا تتحدث الى بهذه النبرة ، فأنت تعرف أنها تمزق قلبى ٠

وعادت الأرملة الى الظهور أمام عينيه ، بضحكتها العذبة ، وشفتيها المصبوغتين بالخضاب ، وأسنانها اللؤلؤية اللامعة ، وشعرها الاشقر فى لون العسل ٠ وأحس بانايوتى بأحشائه تتمزق ٠

وجأر :

ـ بعد أن أقتلك يامانولى سأقتل نفسى ٠ انى أبقى على حياتى فقط لكى أقضى عليك ٠ ولكن ما حاجتى الى الحياة بعدك ؟ طلقة رصاص من المسدس أنتقل بعدها الى الشيطان ٠

ودخلا القرية ، وأجراس الحداد لا زالت تدق ، وصخب شديد يدوى فى الميدان عند شجرة السنار ٠ فقد تجمع أهل القرية أمام باب الاغـــا يجأرون بأصوات مجلجلة ٠

وتوقف مانولى لحظة ينصت للأصوات :

ـ ماذا يقولون ؟

ـ ستتبين ذلك فيما بعد يا طريد الكنيسة ٠ أسرع ٠

وعلا الصخب ، ووضحت كلماته ، والتقط مانولى شذرات من صياحهم وخمن معناها ، وابتسم فى مرارة ، وحث خطاه ٠ وتمتم :

ـ هأنذا آت ٠٠ هأنذا آت ٠ لا داعى للصياح فانى آت اليكم ٠٠

ولم يكد مانولى يظهر فى الميدان حتى انقض عليه الحشد فى جنون ولكن بانايوتى تقدم وبسط ذراعيه على امتدادهما وخار بصوت كالعجل :

ـ لا يمسه أحدكم ، فانه لى أنا ٠

وصرخ الناس فيه وهم يهمون به كى يمزقوه اربا :

ـ يالص ، يا قاتل ، يا اشتراكى ٠

ولمحه القســـيس جريجوريس من على بعد ، فاندفع تجاهه ثائرا مهتاجا :

ـ أقتلوه يا أطفالى ، الموت لطريد الكنيسة ٠

ولكن انفتح باب الأغا ، وبرفسة من قدم بانايوتى كان مانولى وسط الفناء ٠ وأغلق الباب على الفور ٠

تربع الأغا فى حجرته فوق حشية من المخمل ، يشرب العرقى فى بلادة وخمول ، وعيناه مثبتتان على الجمرات المتوهجة فى المدفأة • وساد الحجرة دفء جميل ، وفاحت رائحة العرقى وسجق لحم الخنزير ، وهامت عينا الأغا فى دنيا الخيال ، غرقا فى بحر من السعادة • كان ينصت لصيحات أهل القرية الذين تجمعوا أمام داره ، يصرخون بأعلى صوتهم :

ـ مانولى • مانولى • أعطنا مانولى •

كان ينصت ويبتسم فى رضا ، ويقول لنفسه :

ـ آه من هؤلاء الروميين ، انهم سلالة الشيطان ، ثعالب ورعاع وشياطين مردة • الذئاب لا تأكل بعضها بعضا ، ولكن الروميين يفعلون ذلك • ها هم يريدون أن يجهزوا على مانولى ويلتهموه مهما كلفهم ذلك من ثمن • لماذا ؟ ماذا اقترف فى حقهم ؟ انه برىء هذا المسكين ، به جنة حقا ولكنه لم يلحق أذى بأحد على الاطلاق • ورغم ذلك يصيحون : « أعطنا مانولى لنلتهمه » • تريد أن تمثل دور القديس ، أليس كذلك أيها المتشرد؟ اذن نل جزاءك • لأدعهم يأكلونه ، اذا كان هذا يهدىء من روعهم • وماذا يضيرنى أنا ؟ هل أدفع عنه الأذى ؟ ما مصلحتى فى ذلك ؟ سأقع فى مشاكل • اذن ليتركونى فى سلام • ها هو ذا خذوه أيها الروميون ، واستمتعوا بوجبة هنيئة• انى أغسل يدى منه• أنا أشرب العرقى، وأتلذذ بسجق الجمال المتع •• وفضلا عن هذا فعندى حبيبى براهيماكى ، ثم هناك سوطى •• لدى كل ما أحب وأهوى • الحمد لله •

تردد صوت وقع خطوات فى الدهليز ، فرفع الأغا رأسه •

انفتح الباب ودخل بانايوتى ثم أغلق الباب ، وحيا الاغا ، وتقدم ناحيته ، يعرج قليلا فى مشيته ، ولكنه كان متألق الوجه •

ـ قبضت عليه يا أغا • كان يحتمى بالحديقة وسط ما يقرب من عشرين رجلا من رجاله المدججين بالسلاح • وعندما وقع بصر رفيقى عليهم وليا الأدبار ، وقلت لهما أغربا عن وجهى أيها الرعديدان • وتقدمت اليه وحدى ، ومسدسى فى يدى وصحت به : « ارفع يديك أيها الخنزير فأنا بانايوتى • وما أن سمعوا اسمى حتى هرولوا وفروا جميعا كالجرذان • وبقى مانولى وحده • والحق أقول انه ظل ثابتا فى مكانه لم يحاول الفرار فأمسكت برقبته وسقته اليك •

وابتسم الأغا ابتسامة أخفاها شاربه الذى صبغه منذ قليل • وقال :

ـ حسن يا عزيزى آكل النار • يبدو لى أنك تزخرف قصتك • ولكن ماذا يضر فى ذلك ؟ فأنت رومى ، ومعنى هذا أنك كاذب • هيا ائتنى به ، حتى أسرى عن نفسى قليلا •

خرج بانايوتى ، وأمسك بذراع مانولى وانهال عليه بقبضته ثم دفعه برفسة من قدمه الى داخل الحجرة • ووقف مانولى أمام الأغا ، هادئا مطمئنا ، عاقدا ذراعيه الى صدره ، منتظرا ما يقوله الأغا •

وأصدر الأغا أمره الى بانايوتى :

ـ انتظر بالخارج يابانايوتى واقفل الباب •

ملأ الاغا كأسه وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة • ثم حشا فمه ببعض السجق وشرع يمضغ فى بطء متلذذا • وأغمض عينيه نصف اغماضة والسعادة تملأ جوانحه • ونظر الى مانولى وابتسم ثم قال :

ـ أيها التعس مانولى ، هذه هى المرة الثانية التى تقع فيها بين براثنى • أخال أنك لن تفلت هذه المرة • جرائم كثيرة تلقى على عاتقك أيها البائس • يزعمون أنك سرقت وقتلت وأضرمت النار فى القرية •• هل حقا ما يقولون ؟

ـ حقا ما يقولون يا أغا •

تدافع الدم فى وجه الأغا ، واهتاج وغضب • وصاح :

ـ اسمع ، حاول أن تمثل ألا عيبك الفارغة هذه على غيرى • لا تكرر ما فعلته أول مرة • لا تقلد القديسيين والشهداء • هل تسمعنى ؟ والا سألقى بك الى الشيطان يتولى أمرك • هل تفهمنى ؟ برىء مسكين مثلك يسرق ويقتل ويشعل الحرائق؟ العب هذا على غيرى، لن تستغفلنى ياعزيزى هل تفهم ما أقول ؟ حتى لو كان الشيطان بداخلك فلن أصدق أبدا •

ـ بل أنا يا أغا • أنا حقا وصدقا ، وكل هذا يحدث رغما عنى • أنا أقلد القديسين ، وأمثل دور البرىء ، وأغض من طرفى ، ولا أنظر الى الناس فى وجوههم ، وأتظاهر بالتواضع والطيبة ، ولكنني شيطان مريد فى أعماقى •

وتعالت الصيحات أكثر وأكثر فى الميدان :

ـ مانولى ، مانولى ، الموت لمانولى •

ـ هل تسمع؟ يطلبون منى أن أسلمك لهم· لن تفلت من بين مخالبهم حيا · فكر وتدبر أمرك ·

ـ تدبرت أمرى يا أغا · سلمنى لهم · لى مطلب واحد فقط اود أن أطلبه منك : أن تمنعهم من أن يمسوا أحدا غيرى · الحق بجانب أهـــل ساراكينا ، ولكن الحقوق لا تثبت لأصحابها فى هدوء وسلام · ولذلك حاولت ان انتزعها بالقوة ، وكان أن فعلت ما فعلت · أنا المسئول عن كل هـــذه المآسى ، ولا أحد غـيرى · أهل ســاراكينا اناس طيبون يا أغا : أمنـاء مسالمون محبون للعمل ، ذوو داب ومثابرة ·

ـ اسمعنى الآن ، يقولون انهم اشـــتراكيون يريدون اســـقاط الامبراطورية العثمانية :

ـ لا تصدق هذا الكلام يا أغا ، هذه كلها افتراءات خبيثة · الحق انهم فقراء ينشدون العيش فى سلام ، وأن تمتد لهم جذور فى الارض أسـوة بغيرهم · هذا كل ما يريدون ولا شىء سواه ·

أمسك الأغا برأسه بين راحتيه ، وبدأت الحجرة تدور به ·

ـ أكاد اجن بسببكم أيها الروميون الملاعين · أستمع الى هذا فأصدقه واستمع الى غيره فأصدقه أيضا · لم أعد أفهم شيئا · قسما بربى سأشنقكم جميعا ذات يوم ، حتى أعيش فى هدوء وسلام ·

وتعالت الصيحات والصراخ أمام الباب :

ـ الموت لمانولى · الموت لمانولى ·

وتمتم الأغا :

ـ ليأخذنى الشيطان ان كنت أعرف ماذا أنا فاعل بك ! انى حزين عليك حقا ، فانت برىء تعس ، أقولها لك مرة أخرى : أنت مجنون وقديس فى آن واحد · تريد أن تحتضن كل خطايا العالم تحت جناحيك كما تحتضـــن الدجاجة بيضها · حزين عليك ، ولكن ماذا تنتظر منى ؟ لو لم أفعـــل ما يطلبونه منى سأقع فى مشاكل ·· وبعد هذا كله من يدرينى أنك لست اشتراكيا؟ وهذا القسيس الشيطان الذى يهيج أهل القرية ويؤلبهم ليجأروا بأعلى صوتهم أمام بيتى ، قادر تماما على التوجه الى باشا سميرنا ويشكونى اليه ، ثم ماذا تكون النتيجة؟ انظر وقدر أنت عاقبة ذلك، هل تفهمنى الآن يا مانولى ؟ ضع نفسك مكانى ، ماذا كنت تفعـــل ؟ أليس من الخير لى أن

أسلمك لهم وليفعلوا بك ما يشاءون بدلا من أن يظل حد السيف مسلطا على رقبتى . قل لى ماذا ترى فى كلامى هذا . ألست على حق ؟

ــ أنت على حق يا أغا . سلمنى لهم .

ــ ولكن أسألك بحق الشياطين كلها ألا تتحدث الى بنبرة صوتك هذه فانك بصوتك هذا تثير جنونى . تعال وقل صراحة انك اشتراكى حتى أهتاج واغضب وأسلمك لهم دون أن ينفطر قلبى لذلك ، والا فاننى أخشى أن أسلم حملا وديعا لذئاب كاسرة . هل تفهم ما أريد ؟ أنشد سلام نفسى ، هذا كل شىء ، ولذلك قررت أن أتخلص منك ومنهم .. هل تفهمنى؟ اذا ما اعترفت بأنك اشتراكى فهذا عين المراد .

وقال مانولى :

ــ حسن ، أنا اشتراكى . والآن هل يرضيك هذا ؟ أنا خطر على الامبراطورية العثمانية ، لو استطعت لأطحت بها وقذفتها الى عنان السماء .

ــ استمر ، استمر ، اعترف واقسم بدينك أنك ارتكبت كل هذه الجرائم . افعل كل ما فى استطاعتك لتثير ثائرتى وغضبى .

ــ هذا العالم يا أغا عالم ظالم لئيم . الأخيار فيه جوعى معذبون ، والأشرار شباع ينعمون بفاخر الطعام والشراب ، ولهم السلطان . يسوسون الأمور بغير وازع من دين أو ضمير أو محبة . عالم كهذا لا بد أن يباد ، فالظلم عمره قصير . سأنطلق بكل قوتى أجوب الشوارع وأعتلى الاسطح وأصيح بأعلى صوتى : « تعالوا أيها الجوعى والمقهورون ، تعالوا أيها الأبرار الصالحون ، تعالوا لنتحد سويا ونضرم النار فى أرجاء الدنيا لعل الأرض تتطهر ، وتتخلص نفسها من الأساقفة والأعيان والأغاوات .

ــ استمر ، استمر يامانولى عليك اللعنة . هذه هى الطريقة المثلى بدأت نار الغضب تتأجج فى صدرى .

ــ أود يا أغا لو استطعت أن أدعو الى الثورة لتمتد فوق الارض كلها، وأن أهيج الشعوب جميعها ، الابيض والاسود والاصفر ، وأوحدهم جميعا فى جيش قوى لا يقهر ، وأقتحم به القسطنطينية وكل المدن الكبيرة العفنة والقصور الدنسة العاهرة ، وأشعل النار فيها جميعا .

ــ استمر ، استمر وأقس فى حديثك أكثر وأكثر . هذه هى الطريقة المثلى .

ـ ولكنني لست الا شيطانا بائسا ، لست الا تابعا ، لا حول لى ولا قوة ، ضائعا وسط قرية فى حضيض أناتوليا • وصوتى ضعيف لا يمتد الى ما وراء ليكوفريس وساراكينا • لذلك أقف ما بين القريتين ، وأعلن على الملأ : « هبوا أيها الاخوة الجوعى والمقهورون ، احملوا سلاحكم • الى متى نظل عبيدا ؟ الى متى نمد رقابنا فى استسلام لسيف الاغا ؟ هبوا فقد دقت الساعة • الحرية أو الموت • لن يعطونا حقوقنا طواعية واختيارا ، بل سننتزعها بحد السيف • ليجمعكم جيش واحد أيها الاخوة المسحوقون تحت الأقدام ، ولتنقضوا على القرية المتخم أهلها • اقتلوا كل من يقاومكم أحرقوا بيت الشيخ لاداس ، هذا البخيل القذر • بيت بطرياركاس بيتكم، فادخلوه وتحصنوا فيه • وبعد أن تثبت أقدامكم ، ويشتد بأسكم وتظفروا بالأغنياء والأعيان هبوا ثانية وانقضوا على الأغا ، وامحوا آثاره من فوق رضنا اليونانية ، ألقوا به الى الجحيم ، ثم ••

ولـكن مانولى لم يتم جملته ، اذ قفز الاغا يرغى ويزبد ، وأمسـك برقبة مانولى ، وهزه فى ثورة وعنف ، وألقى به الى الأرض ، وفتح الباب ورفسه رفسة طوحته فوق السلم ، وهوى يتدحرج فوق الدرج رأسه قبل قدميه • وتعقبه الأغا ، وأمسك به ثانية من رقبته ، وجرجره فوق أرض الفناء ، وفتح بقدمه الباب المطل على الميدان •

وجفل الحشد فرقا • كان الأغا يرغى ويزبد ، لاهث الانفاس، ممتقع الوجه ، ممسكا بمانولى يهزه من قفـاه • وظهر من خلفـه بانايوتى وقد انبسطت أسارير وجهه المتورم الازرق ، وأشار بيده الى أهل القرية أن اقتربوا • كان القسيس جريجوريس أول من هرول مندفعا الى الأمام ، وفتح ذراعيه ليهم بالقبض على مانولى •

ودوى صوت الأغا أجش يخنقه الغضب :

ـ خذوه ، اقتلوه ، قطعوه اربا اربا ، ليأخذكم الشيطان جميعا •

ثم دفع مانولى الى الخارج ، وصفق الباب من خلفه •

وانقض عليه القسيس بكل قوته ، مغتبطا مسرورا • وأمسك بمانولى من أحد كتفيه ، وأمسك بانايوتى بالكتف الآخر • وأحاط به الحشد فى عواء وصراخ وانهالوا عليه ضربا وبصقا • وحملوه الى الكنيسة •

كان الليل قد أرخى سدوله ، وأظلمت الدنيا ، وغابت النجوم عن السماء ، وتلبدت قطع من الغمام الاسود الكبيرة ، ولمعت على البعد ناحية الغرب ومضات برق حزينة ، باهتة ، خرساء •

ومروا فى طريقهم بشجرة السنار • وأنشب الحشد اللاهث براثنه فى مانولى ، وكفوا عن الصراخ، وحث الشماس خطاه وتقدم الجمع، وأخرج من جرابه مفتاح الكنيسة الضخم ، وفتح بابها على مصراعيه • وتدفع الناس الى الداخل وراء القسيس ومانولى • كانت المصابيح الفضية الثلاث الكبيرة مضاءة ، واحد أمام أيقونة المسيح ، والثانى أمام أيقونة العذراء مريم ، والثالث أمام القديس يوحنا المعمدان ، واحتوى الظلام القديسين والشهداء الآخرين ، الا كبير الملائكة ميشيل ، زاهق الارواح ، فقد انعكس عليه ضـــوء مصباح العذراء • تراه باسـطا جناحيه عنـد باب المنشدين الصغير ، أحمر القدمين كأنهما قدمان لطـائر الحجل • وعبقت الكنيسة برائحة البخور والشمع ••

أطبق القسيس بكلتا يديه على رقبة مانولى • وجره فوق الارض حتى وصل به الى مكان المنشدين • ثم طرحه أرضا ، وأوقعاه على ركبتيه أمام ملاك الموت •

كان مبتهجا سعيدا أن رأى مانولى تحت رحمته • فقد بات القصاص الآن مؤكدا ، حلوا ، قريب المنال • وعقدت الفرحة لسانه فلم يستطع أن يفتح فمـه ويتـكلم • جفت الـكلمات فى حلقه فلم تخرج من فمـه غير صرخات بح •

وركل بانايوتى بقدمه مانولى الذى شمخ برأسه يتفرس فى هدوء فى قدمى رئيس الملائكة الذى انتعل حذاء له رباط أحمر • ودفع الشيخ لاداس الحشد جانبا ، واقترب مبهور الأنفاس من مانولى وبصق عليه • وتزاحم الناس حول الضحية ، ينتظرون فى شوق ولهفـــة اللحظة التى يعطى فيها لقسيس جريجوريس اشارته • كانوا يلعقون شفاههم مقدما ، فقد استبد بهم فجأة ظمأ حارق •

دخل القسيس جريجوريس المذبح ، وارتدى رداءه الموشى بالذهب ووقف أمام أيقونة المسيح • وألقت المصابيح الثلاثة بضوئها فوق وجهه الذى يتصبب عرقا • ونكىء الجرح الذى أصاب جبهته ، فنزف الدم منه وغطى لحية القسيس بلونه الأحمر •

وأشار الى بانايوتى بيده ، فتأبط مانولى تحت ذراعيه ، وجرجره تحت قـدمى القسيس • وخطا الحشـد خطوة أخـرى الى الامام مبهـور الأنفاس •

وفى رزانة ووقار ، قال القسيس بصوت هادر :

ـ باسم الأب والابن والروح القدس ·

ورسم الحشد علامة الصليب وهو يجيب :

ـ آمين ·

وصاح القسيس جريجوريس :

ـ اركعوا يا اخوتي ، ولنصل للرب عسى أن يتنزل من سماواته العلى الى كنيستنا ويلهمنا العدالة والسداد · ياالهى ، ها هو ذا طريد الكنيسة ملقى تحت قدميك ، يرتعد فرقا فى انتظار سيفك البتار ليهوى على رقبته سرق ، وقتل ، وأشعل الحرائق ، وبذر الشقاق بين الاخوة ، وفرق ما بين الخطيبين ، وزرع الحقد والـكراهية بين الأب والابن ، وأثار المهلهلين والخارجين على القانون وحرضهم على التمرد ، واقتحم بهم قريتنا ، وسرقوا مؤننا وأمتعتنا ! ·

لو بقى هذا الآدمى على قيد الحياة يا الهى ، فالدين والشرف فى خطر ولو ظل هـذا الآدمى حيا فان فى وجوده خطرا يهـدد المسيحية والجنس اليوناني ، هذين الأملين العظيمين الباقيين على ظهر الارض · استأجره العدو ، ابن الشيطان ، لكى يمحو اسمك يا الهى من على ظهر الارض · اجتمعنا هذا المساء فى بيتك يا الهى لنصدر حكمنا على هذا الاثيم الكافر · تنزل علينا يا صاحب القوة والجبروت من قبة الكنيسة وأصـدر حكمك عليه · نسألك أن تسدد خطانا ونحن نمد أيدينا اليه لننفذ فيه حكمك يا الهى ·

ووطىء بقدمه ظهر مانولى ثم عاود الصياح :

ـ فقدت ابنتي وأخى ، وهو المجرم الاثيم · بذر الشقاق والفتن فى قريتنا ، وهو المجرم الأثيم · اقتحم عدو المسيح أرض قريتنا ، وها هو ذا ، من أطؤه بقدمى ، الذى فتح له البـاب · وأصبحت سـاراكينا تعج بأعشاش الزنابير ، وها هو الذى عرضنا لأسرابهم السامة ·· أيها الاخوة المسيحيون ، الحكم لكم ، صوت الشعب من صوت الرب ، فاحكموا عليه ·

لم يكد ينطق القسيس بعبـارته هذه حتى تعـالت صيحات الحشد فى هياج وغضب ، وتحت المصابيح الفضية الثلاثة لمعت عيون تقدح شررا وكراهية ، وتألقت أسنان تصر غيظا ، ولوحت قبضـات أيدى ، والتوت شفاه · وجلس بانايوتى القرفصاء ، يحملق فى عينى مانولى ، كأنـه يخشى أن يفلت منه · اذا تحرك مانولى يمينا ، تحرك معه ، واذا تحرك

يســـارا ، تحرك معه ، متأهبا لـكى ينقض عليه فى أية لحظة ويمسك برقبته ٠

وجلس الشيخ لاداس القرفصاء فوق بلاط الكنيسة ، يتذكر بيتـــه المحترق ، وزيته ونبيذه المهراق ، وانخرط في نحيب ونواح ٠

وانحنى القسيس جريجوريس فوق مانولى الذى جلس هادئا فوقدرج المذبح ٠ صاح فيه :

ـ قف أيها الملعون ، يا طريد الكنيسة ٠ هل سمعت قصة المآسى التى جلبتها الى قريتنا ؟ هل سمعت قصة جرائمك ؟ هل لديك ما تدافع به عن نفسك ؟

ورد مانولى فى هدوء :

ـ لا ، لا شىء ٠

ـ هل تعترف بأنك سرقت ،وحرقت ، وقتلت ؟

ـ أعترف أننى اقترفت كل هذا ٠

ـ هل تعترف أنك اشتراكى ؟

ـ اذا كانت كلمة اشتراكى تعنى ما أومن به في نفسى فنعم ، أنـا اشتراكى يا أبانا ٠ المسيح وأنا اشتراكيان ٠

وتعالت صيحات الحشد المولولة، يتردد صداها فى كل أرجاء الكنيسة حتى تصل الى سمع المسيح العلى القدير ، وهو فى عليائه يرقب المشهد ٠ ووقف الشيخ لاداس يعوى :

ـ دعنا نقتله ٠ دعنا نقتله ٠ لسنا بحاجة الى شهود آخرين ٠ فقـــد اعترف ٠ اتركه لنا فنقتله ٠

والتهب حماس الحشد ، ولوحوا بقبضاتهم ٠ وجأروا :

ـ الموت ، الموت ٠

انتزع مانولى نفسه من بين ذراعى بانايوتى ٠ ونزل من فوق درج المذبح فجفل الحشد ٠ وخطا مانولى خطوة الى الامام ، وذراعاه معقودتان الى صدره ، وقال :

ـ اقتلونى ٠٠٠

وما أن أبصره الجمع يتقدم هكذا ، أعزل ، هادئا ثابت الجنان ، تحت ضوء المصابيح التى كللت رأسه الشقراء بهالة من نور ، حتى ارتد الحشد الى الوراء مبهوتا ، وأفسح ، عن غير وعى منه ، مكانا لمانولى • وران صمت ووجوم ، حتى لو أن مانولى قصد الباب وانطلق هاربا فى تلك اللحظة فلن يسد أحد عليه الطريق • ولكن مانولى توسط صحن الكنيسة ، ووقف تحت أيقونة الرب ذى القوة والجبروت التى تعتلى القبة ، وبسط ذراعيه من جديد ، وصاح بهم فى ضراعة :

ـ اقتلونى •••

وتقدم القسيس جويجوريس ، وأشار الى بانايوتى أن اتبعنى • وأصدر أمره بصوت مخنوق :

ـ اغلقوا الباب بالمزلاج ، اغلقوا الباب والا سيهرب •

واندفع الشماس بأقصى سرعته ، وأغلق الباب ثم أسند ظهره اليه •

وسرت رعدة بين الناس عند سماعهم صوت القسيس • وانتابهم خوف فجائى حين خطر بأذهانهم أن الفريسة قد تتمكن من الفرار • وتزاحموا فى فزع حول مانولى يحاصرونه ، وأحس مانولى بأنفاسهم الحارقة تلفح وجهه •

وأحس مانولى ، للحظة ، بقلبه يسقط بين جوانحه ، واستدار ناحية الباب ـ كان مغلقا • ونظر الى المصابيح الثلاثة المضاءة ، والأيقونات من تحتها أثقلتها القرابين : المسيح متورد الوجنات ، ممشط الشعر فى حرص وعناية ، والعذراء مريم منحنية فوق طفلها غير عابئة بما يحدث تحت بصرها • والقديس يوحنا المعمدان يكرز فى الصحراء •• ورنا ببصره الى قبة الكنيسة وتأمل فى الضوء الخافت وجه الرب ذى القوة والجبروت ، يطل من عليائه على البشر ، ويرميهم بنظرة قاسية • ثم جال بعينيه بين الحشد الذى يحيط به ، وخيل اليه كأنه يرى نصال خناجر تلمع فى الظلام من حوله •

وعوى الشيخ لاداس بصوت كأنه صرير :

ـ هيا نقتله •

وفى نفس اللحظة دقت طرقات عنيفة على باب الكنيسة • فتحولت

الرءوس ناحية الصوت ، ورن صمت مطبق ، وسمعوا صيحات غاضبة مهتاجة :

ـ افتحوا ، افتحوا ٠

وقال أحدهم :

ـ هذا صوت القسيس نوتيس ٠

وقال آخر :

ـ وهذا صوت ياناكوس ٠٠ جاء أهل ساراكينا لينتزعوه من بين أيدينا ٠

واهتز الباب في عنف حتى صرت مفاصله ٠ ودوى بالخارج صخب شديد اختلطت فيه أصوات الرجال والنساء ٠

وأتى صوت القسيس فوتيس واضحا جليا :

ـ افتحوا يا قتلة ، ألا تخشون الله ؟

ورفع القسيس جريجوريس يده وقال :

ـ باسم الأب والابن والروح القدس أحمل هذه الخطيئة على كاهلى٠ أقتله يا بانايوتى ٠

واستل بانايوتى خنجره ، والتفت الى القسيس جريجوريس وسأله :

ـ هل أجهز عليه ببركاتك يا أبانا ؟

ـ اطعن فانى أباركك ٠

وتدافع الحشد ، وانقض على مانولى ، وتفجر الدم ، وتناثر فوق وجوهم ٠ وسقطت بعض قطراته الساخنة الملحة على شفتى القسيس جريجوريس ٠

وارتفع صوت مانولى واهيا ، رقيقا ، يلفظ معه أنفاسه الأخيرة : « يا اخوتى ٠٠٠ ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه ، وهوى الى الأرض فوق بلاط الكنيسة الحجرى ، يئن فى هدوء وذراعاه مبسوطتان كأنه المسيح المصلوب ٠

وأثارت رائحة الدم أهل ليكوفريسى ، فانقضوا على الجسد الذى أسلم الروح ، والدم يطفح من بين شفتيه ٠ وعض الشيخ لاداس رقبة

مانولى بأسنانه الهتماء يحاول أن ينهش قطعة من لحمه · ومسح بانايوتى خنجره فى شعره الأحمر وخضب فكه الكاسر بالدم وصاح :

ـ مزقت قلبى يا مانولى · وها أنذا قد قتلتك وبذلك ثار كل منا من أخيه ، فلم يعد لى ولا عليك ·

انحنى القسيس جريجوريس وملأ راحتيه دما ، ورشه فوق رءوس الحشد وهو يقول :

ـ لعل دمه يسقط على رءوسنا جميعا ·

وتلقى الحشد قطرات الدم وهو يرتجف ·

وزأرت الأصوات من جديد خارج الكنيسة :

ـ افتحوا يا قتلة ، افتحوا ·

وأشار القسيس جريجوريس الى الشماس الذى تقدم اليه مترنحا · واصدر اليه أمره :

ـ افتح الباب ، ثم تعال ثانية واغسل البلاط سريعا · لا تنس أننا سنحتفل الليلة بميلاد المسيح ·

ثم التفت الى قطيعه وقال :

ـ هيا بنا أيها الاخوة المسيحيون · أدينا واجبنـــا ، والله معنا · وليدخل القسيس فوتيس الآن ليدفن صاحبه ·

فتح الشماس الباب ، فطلعت عليهم وجوه رجال ونساء تلمع وسط الظلام ، قلقة ، غاضبة ، تنذر وتتوعد ·

وصاح ياناكوس بصوت لاهث :

ـ اين مانولى ؟

وأجاب القسيس جريجوريس :

ـ اذهبوا وابحثوا عنه · تنحوا جانبا وافسحوا لنا الطريق ·

وجأر القسيس فوتيس :

ـ ان كنت قتلته فانى أدعو الله أن يقع دمه فوق رءوسكم ورءوس أبنائكم من بعد ·

وأعاد القسيس جريجوريس ما قاله :

ـ اذهبوا وابحثوا عنه ٠

واندفع ياناكوس الى داخل الكنيسة وهو يزأر :

ـ لقد قتلوه ٠

***

دقت الأجراس فى منتصف الليل تدعو المسيحيين الى الكنيسة للاحتفال بميلاد المسيح ٠ وفتحت الأبواب ، الواحد بعد الآخر ، وخرج المؤمنون يحثون الخطى فى طريقهم الى الكنيسة وأجسادهم ترتجف من شدة البرد ٠ كان الليل هادئا ساجيا ، قارس البرد ، وصفحة السماء خالية من النجوم ٠ فتحت كل الأبواب عدا بيت بطرياركاس ، فقد ظل دونها جميعا ، موصدا تصدر من داخله جلبة وضوضاء اختلطت فيها صيحات الرجال بنواح السيدات ٠

كان جسد مانولى مسجى فوق سرير بطرياركاس ، ملفوفا كطفل وليد فى ملاءة من حرير ورثها ميشيل من جهاز عرس أمه ٠ وأحاط به رفاقه يرنون اليه فى صمت بوجوه شاحبة ٠ ووضع ياناكوس يده على قدمى مانولى ، وانخرط فى نحيب كطفل صغير ، قضى الليل بطوله يصرخ ويلطم صدره حتى أضناه البكاء ، وأعيته اللطمات ، فأسند رأسه الى قدمى صديقه يبكيه بصوت خافت ٠ وذهب قسطندى الى ساراكينا ليبحث عن ميشيل ٠ وجلست امرأتان أو ثلاثة القرفصاء فى زاوية من زوايا الحجرة ، واتجهن الى الحائط ، ينحن ويلطمن صدورهن ٠

وانحنى القسيس فوتيس فوق صديقه ينظر اليه على ضوء المصباح ، ويتأمل وجهه الهادىء الشاحب : طعنة سكين مزقت خده الأيمن بطوله حتى الذقن ٠ وكان القسيس بين حين وآخر يمد يده يسوى بها شعر رفيقه الميت ، ثم يغيب عنه ويغرق فى تأملاته ٠ فقد أتته العجوز مارثا منذ لحظات وحذرته من أن الأغا أوفد رسولا الى المدينة يحمل رسالة عاجلة يطلب فيها كتيبة من المشاة والخيالة ، ويعلن فى رسالته أن الاشتراكيين اقتحموا ليكوفريسى ، وذكر أيضا أنهم ينوون قتله ٠

وتفكر القسيس فوتيس وهو يقبض بجماع يديه :

ـ سيأتون الى هنا بأسلحتهم ومدافعهم ، كيف لنا أن نقاومهم ؟ سيبيدوننا عن آخرنا ٠ مرة أخرى يجب أن نبدأ المسيرة ولا نضيع الوقت ٠ ولكن الى متى ، يا الهى ؟ ألست الها طيبا خيرا ؟ ألست عادلا ؟ انى عاجز عن الفهم ٠٠٠٠

ومد يده ، وربت بها فى رقة وحنان على وجه مانولى ، وتمتم :

- يا عزيزى مانولى ، جدت بحياتك ولكن دون جدوى · قتلوك لأنك حملت خطايانا على كاهلك ، وصحت قائلا : « أنا الذى سرقت ، أنا الذى قتلت ، وأنا الذى أشعلت النار فى القرية · أنا ولا أحد سواى » · كل هذا لتبقى علينا حتى نمد جذورنا فى الأرض فى هدوء وسلام ··· ولكن دون جدوى يا مانولى · ضحيت بنفسك ، وافتديت الناس بروحك ، ولكن دون جدوى ··· ،

· أنصت القسيس فوتيس الى دقات الجرس المتتابعة فى تناغم تدق فى فرح لتعلن على الملأ ميلاد المسيح وأنه تنزل الى الأرض ليخلص العالم ··· وهز القسيس رأسـه ، وندت عنه تنهيدة عميقة · وتمتم قائلا : « لا جدوى يا يسوع ، لا جدوى · مضى على صلبك ألفا عام ولا زال الناس يصلبونك من جديد · أى يسوع ربى ، متى ستولد يا الهى ولا تصلب ثانية ، ولكن تعيش بين ظهرانينا خالدا الى الأبد ؟ ·

***

قضى القسيس فوتيس الليل بطوله حتى مطلع الفجر مسندا رأسه الى حافة السرير الذى تمدد فوقه مانولى · ثم أغمض عينيه وأخذته سنة من النوم · ورأى فى اغفاءته حلما · رأى أنه يتعقب عصفورا أصفر صغيرا، من نوع الكنارى ، تحت شجرة خضراء مورقة · وتراءى له أنه بدأ الطراد وهو لا يزال طفلا صغيرا · ومضت به السنون ، وشب وترعرع وأصبح شابا ثم رجلا أسود الشعر والشارب · وظلت السنون تمضى تباعا حتى وخط المشيب شعره ثم ابيض تماما ، وأصبح الآن شيخا ولا زال يتعقب الطائر الأصفر ولكن دون جدوى · لم يوفق فى الامساك به ··· يمد يده ليمسك بطائر الكنارى الصغير فيفلت من بين يديه ويقفز من غصن الى غصن ، ومن زهرة الى زهرة ، ويصدح كالمجنون ···

لم يغف القسيس فوتيس غير طرفة عين ، ولكنه عندما استيقظ خيل اليه أنه عاش آلاف السنين ، قضاها وهو يتعقب طائر الكنارى الصغير دون أن ينال منه التعب بل كان يشعر بقوة متجددة دائما ولا يكل أبدا ··· ترى هل كان ذلك طائرا حقا ؟ شعر القسيس فوتيس فى أعماقه أن ذلك الطائر الأصفر الصغير الذى كان يغرد ويصفر كأنه يسخر منه ورأسه مرفوع الى السماء ويصدح كالمجنون ليس أبدا طائر كنارى فى حقيقته ···

وتمتم قائلا :

ـ ليكن هذا العصفور أى شىء ، فلن أعبأ بذلك ، ولكننى ســـأظل أتعقبه حتى الموت ...

وهب واقفا ، وصاح صيحة عالية . دعا رفاقه ، رجالا ونساء ، وجمعهم فى الفناء الكبير . واستجاب لندائه كل من قضوا ليلتهم متفرقين بين الحدائق وبساتين الكرم ومزارع الزيتون ، وخفوا اليه والتأم شملهم فى الفناء .

وصاح بهم :

ـ يا أولادى ، ضعوا قلوبكم فوق راحتكم فان ما سأقوله لكم شاق على النفس عسير ، ولكننا أولوا عزم وقوة تمرسنا على تحمـل الصعاب . وسوف نحتمل هذا أيضا . علمت بالأمس أن جيشا من الأتراك قوامه فرقتان من الخيالة والمشاة المسلحة بالمدافع ، قادم الى ليكوفريسى ليطردنا من هنا . هبوا يا أطفالى خفافا حتى لا تضيع منا دقيقة واحدة . احملوا على ظهوركم كل ما تستطيعون ولننطلق فى طريقنا . لنترك ليكوفريسى وساراكينا . لم نعد الآن غير حفنة من اليونانيين نهيم على وجوهها فى الارض . يجب أن نوطد العزم ، ونعض على النواجذ ، ونمضى فى طريقنا . لا ، لن ينالوا منا شيئا فنحن ملح الأرض ولن يقضوا علينا . ان جنسنا خالد لا يموت .

وأمسك لوكاس العملاق بعلم القديس جورج وفتح الباب ، وقال :

ـ لا تجزع يا أبانا ، فان جنسنا خالد لن يموت . هيا يا اخوتى ، اتبعوا القديس جورج ، وسوف نرى الى أين يمضى بنا الطريق .

واندفع الناس جميعا الى مخازن بطرياركاس الغنية، وقسم باناكوس الدقيق والزيت والنبيذ . ووزع القســـيس فوتيس الملابس والبطاطين والملاءات . وخلعوا الباب من مفصله ووضعوا عليه جثمان مانولى ، وحمله أربعة من الفتية الأشداء . وحمل الشيوخ الأيقونات ، وسار القسيس فوتيس فى مقدمتهم ، وسار الجميع بخطى حثيثة الى ساراكينا .

وصاح القسيس فوتيس :

ـ سنقصد أولا جبل ساراكينا حيث نوارى جثمان عزيزنا مانولى التراب ، ثم نحفر رمس عظام أجدادنا ونحملها معنا ونبدأ المسيرة من

جديد • الشجاعة يا أبنائي • لاتخشوا شيئا ، عضوا على النواجذ ، فنحن خالدون •

وما أن بلغوا بئر القديس بازل حتى توقف القسيس فوتيس وانحنى عليه لحظة ثم قال :

ـ يا أطفالى ، تنزل يسوع المسيح اليوم الى الأرض ، فلنحمله معنا : معنا أمهات سوف يرضعنه • عيد ميلاد سعيد يا أبنائي وبناتي •

وسار ياناكوس فى مؤخرة الركب ، ووضع احمالا ثقالا على ظهر حماره ، وسار الى جواره مطرقا برأسه صامتا • بدا له العالم وكأنه يزداد اظلاما ساعة بعد ساعة • فمسح ياناكوس عينيه ، وسطع العالم بعد ذلك بضوء واه شاحب ، ضوء صباح يوم من أيام الشـتاء • وربت على كفل حماره في رقة وحنان ، فهز الحيوان الحبيب ذيله فرحا مبتهجا ، واستدار برأسه ، ونظر الى صاحبه ورفيق طريقه ، فهو لم يفهم شيئا على الاطلاق• ماذا أصاب صاحبه ؟ لماذا يسير صامتا لا يتكلم ؟ لماذا لم يربت بيده على بطنه ورقبته وأذنيه كعادته كل يوم ؟

واتخذوا الطريق الوعر الى ساراكينا وبدأوا الصعود • ســـار فى المقدمة مانولى ، مسجى فوق الباب ، ومن خلفه صحابه ، رجالا ونساء ، يلفهم صمت ثقيل • كان النهار شفافا رائقا ، وكنيسة النبى ايليا الصغيرة تتالق مع بواكير اشعة الشمس • وسطعت الجبال ، بعضها بلون وردى، وأخرى زرقاء شاحبة •

وقف قسطندى أمام الكهوف فى انتظارهم ، فقد سبقهم الى هناك لمقابلة القسيس فوتيس • وقال :

ـ يا أبانا ، ميشيل لن يبرح قمة النبى ايليا ، سيبقى هناك • أخذ معه صرة ملابس وانجيله المفضض ، وضفيرتي ماريورى ، ولزم صومعة الراهب القديمة • وقال لى « انى سعيد بمقامى هنا ، لا أريد أن أرى البشر ثانية ، الأخيار منهم والأشرار على السواء ، لا أحد منهم على الاطلاق• سأعتزل الدنيا زاهدا ، وسيكون مقامى هنا حيا وميتا » •

وهز القسيس فوتيس رأسه ، غارقا فى تفكير عميق • وقال :

ـ من يدرى يا عزيزى قسطندى ، ربما كان على صواب • دعنـــا لا نفسد عليه هدوءه • له طريقه ولنا طريقنا ، ولنمض نحن فى طريقنا •

وساله قسطندى فى قلق :

ـ وما هو طريقى يا أبانا ؟

وضع القسيس راحته على رأس صديقه المؤمن كأنه يباركه ، وأجاب :

ـ بعد أن نفرغ من دفن مانولى عد الى بيتك توا يا قسطندى · ارجع الى زوجك وأطفالك ، فهذا طريقك ·

وضعوا مانولى على الأرض أمام الكهف الذى استخدموه كنيسة لهم · وارتدى القسيس رداءه الدينى ، وبدأ يرتل طقوس الدفن ، ومن حوله رجاله يرددون التراتيل · وكانت تتردد بين الحين والحين أصوات نشيج ونحيب · وتوقف صوت القسيس المتهدج فجأة عن الترتيل اذ لم يستطع أن يكتم نشيجه ، بينما واصل الجمع التراتيل ···

وانحنى الجميع فوق حبيبهم الراحل ، وطبع كل منهم قبلة على جبينه فى هدوء وذرفوا الدمع حزنا عليه · ووقف القسيس فوق حافة القبر المفتوح ، وحاول أن يودع مانولى ببضع كلمات ، ولكنه أحس بجفاف فى حلقه ، فلم تخرج الكلمات من فيه ، وفجأة انفجر القسيس فى نشيج مسموع ·

واندفعت امرأة عجوز ، وألقت بنفسها فوق الجسد الميت ، حلت شعرها الأبيض وصرخت صرخة مولولة ، وودعت مانولى قائلة :

ـ اسم هذا الفتى البار مكتوب على صفحات الثلج ،

أشرقت الشمس ، وذاب الثلج ، وحمل اسمه معه فوق المحيطات» ·

وبعد لحظات رفع القسيس فوتيس يده ، وأعطى اشارة الرحيل · وصاح :

ـ باسم يسوع المسيح تبدأ مسيرة الخروج من جديد · تشجعوا يا أطفالى ·

ومرة أخرى استأنفوا مسيرتهم التى لا تنتهى ، وقد ولوا وجوههم شطر المشرق ·

خاتمة

الفهرس